سلسلة كتب
السيد الشريف الشيخ عبد القادر الجيلاني

تفسير الجيلاني

السيد الشريف الشيخ محي الدين أبي محمد عبد القادر الجيلاني
الحسني الحسيني
«قدس سره»

بحث وتحقيق
السيد الشريف الدكتور محمد فاضل جيلاني الحسني
الحسيني التيلاني الجمزرقي

الجزء الأول

مركز الجيلاني للبحوث العلمية
اسطنبول




تفسير الجيلاني

المركز الرئيسي استنبول
مركز الجيلاني للبحوث العلمية والطبع والنشر
ت: ٠٠٩٠٢١٢٥١١٧٣٤٠
جوال: ٠٠٩٠٥٣٣٤٨٦٦٦١٠
E-mail: algeylani@msn.com

الطبعة الأولى
١٤٣٠هـ - ٢٠٠٩م

يطلب من :

سوريا
هاتف : ٨٨٣٥١٥٥
جوال: ٠٩٩٩٨٩٩٧٤٦
دمشق - سوريا
enfo@windowslive.com

لبنان
شركة التمام
بيروت - لبنان
هاتف: ٧٠٧٠٣٩ ٩٦١+

الإمارات العربية المتحدة
دار الفقيه
أبو ظبي - الأمارات
هاتف : ٢٦٦٧٨٩٢٠ ٩٧١+
فاكس : ٢٦٦٧٨٩٢١ ٩٧١+
E mail: alfaqih@emirates.net.ae

مصر
دار الركن والمقام
مصر - القاهرة
هاتف : ٠٨١٤٤١٧٠ ٢٠١+
E mail: alrokn-walmaqam.com

سلسلة كتب

السيّد الشّريف الشّيخ

محي الدين أبي محمّد عبد القادر الجيلاني الحسني الحُسيني

« قدّس سرّه »



تفسير الجيلاني

لمولانا ذي النور الرباني والهيكل الصمداني فذلكة طروس الدفتر النوراني

إمام العارفين .. تاج الدين .. القطب الكامل

السيّد عبد القادر الجيلاني (قدّس سرّه)

بحث وتحقيق

السَّيِّد الشَّريف الدّكتور محمّد فاضل جيلاني الحسَني

التّيلاني الجمزرقي

الجزء الأوّل

بسم الله الرحمن الرحيم

بسم الله الرحمن الرحيم وبه نستعين

سبحانك لا علم لنا الا ما علمتنا انك انت العليم الحكيم
من تجلى لذاته بذاته في ملابس اسمائه وصفاته وتعزز بجلاله
عن ان يصفه السنة مظاهره ومصنوعاته جل جناب قدسه
عن ان يكون شرعة كل وارد ووجهة كل قاصد فيا بحبا من
المدرك وما الادراك في مقام لا يسع فيه سوى ما عرفناك
تعالى الحق عن نيل الرجال وعن وصف التعريف والوصال
اذا ما جل شئ عن خيال يجل عن الاحاطة والمثال
نرجو بفضلك نتوسل اليك وبنالك لذاتك نثني عليك ولا
نحصي ثناء عليك انت كما اثنيت على نفسك ونصلي على نبيك
المؤيد من عندك بتبليغ اسرار حكمك واحكامك الى خلص عبادك
ونتضرع اليك ان لا تزيغ قلوبنا بعد اذ هديت اذ بيدك
ازمة الامور وبمشيئتك يجري ما في الصدور اخواني ابقاكم
الله تعالى لا تلوموني بما انا عليه ولا تعيروني بما قصدت
اليه اذ من سنته سبحانه اظهار ما خفي في علمه وابراز ما كمن
في غيبه يفعل الله ما يشاء ويحكم ما يريد لا حول ولا قوة الا بالله
وما بكم من نعمة فمن الله هو يقول الحق وهو يهدي السبيل
وما توفيقي الا بالله عليه توكلت واليه انيب عن جميع ما
يعيبني ويريب الملتمس من الاخوان والمرجو من الخلان
ان لا ينظر واقفه الا بعين العبرة لا بنظر الفكرة وبالذوق
والوجدان لا بالدليل والبرهان وبالكشف والعيان لا بالتخمين
والحسبان والله ما هذا الفقير الحقير من اصحاب العقول المشتغلين
بازاء اللج والحدود ولا من المتصوفة المتعرفة من الوارد و

والمورود

الصفحة الأولى الجزء الأول من النسخة المخطوطة (أ)

والحسنى ووفقنا على متابعة سيد الورى خاتمة السورة عليك ايها الطالب
لتحقيق الحق العازم على طريق التوحيد والعرفان المتكشف عن رموز اهل
الكشف وارباب المحبة والولاية ابلغك الله آمالك ويسر الله مآلك وعقباك
عما عليك ان تحافظ على شعائر دين الاسلام الذي هو الحق الصريح المنزل
على خير الانام بالعزيمة الصحيحة الخالصة عن شوب الرياء والسمعة العارية
عن كدر الغفلة والهوى وتلازم الاستفادة والاسترشاد من كتاب الله
واحاديث رسوله صلوات الله عليه وسلامه وما سمعت من اكابر الصحابة سيما
الحضرة الرضوية المرتضوية واولاده الكرام سلام الله عليهم وكرم الله
وجوههم والتابعين لهم باحسان رضوان الله عليهم اجمعين وما جاد به
المشايخ العظام والاماجد الكرام انار الله براهينهم وقدس اسرارهم وكن بجميع
عزمك بعد مستوجها الى قبلة التوحيد وكعبة الذات مائلا عن الاوهام
الباطلة والآراء الفاسدة مصفيا قلبك عن امارات الكثرة والتعدد الى
ان ارتفع عنك الالتفات الى نفسك وشائبك حتى يحل عليك الحيرة
المغنية لهويتك في هوية الحق المسقطة لتعينك راسا ولا يتيسر لك هذا
الا بالسكون عن لوازم الطبيعة والخروج عنها وعما يترتب عليها من اللذات
الوهمية والمشتهيات المنهية التي هي مقتضيات القوى العدمية والمشتهيات
الهيولانية ومتى صفت سرك وسريرتك عن امثال هذه الزخرفات
العائقة عن الاستغراق في بحر الذات فزت بما فزت وصرت بما صرت
وختم الله عليك بالخير والحسنى واسكنك عند سدرة المنتهى عندها
جنة المأوى وليس وراء الله مرمى لا حول ولا قوة الا بالله هو يقول
الحق وهو يهدي السبيل

تمت الجزء الاول من تفسير شريف
حضرة سلطان العارفين الشيخ
عبد القادر الكيلاني
قدس الله سره

الصفحة الأخيرة الجزء الأول من النسخة المخطوطة (أ)

فاتحة سورة هود عليه السلام لا يخفى على ذوي البصيرة والاستبصار وأولي
الخبرة والاعتبار من المتفطنين بحق الحق المتأملين في كشف غوامض أسرار
توحيده بقدر الاستطاعة والاقتدار بتوفيق من العليم القدير المجبولين على
الحكمة والتدبير من لدن حكيم خبير أن منشأ الأمر ومناط هذا الشأن العظيم
الذي هو التوحيد والعرفان إنما هي على العبودية والتذلل التام والانكسار
المفرط المفضي إلى إفناء الهويات الباطلة في هوية الحق الحقيق بالحقية وبقاء
النفحات القدسية فيها وذلك لا يحصل إلا بمتابعة الرسول البشير النذير المؤيد
من عند العليم القدير ليرشدهم ويهديهم بالتوجه والتبتل إلى اللطيف
الخبير إذ مرجع الكل إليه كما أن مبدأه منه ومصدره لديه ومعاده عليه
كما قال سبحانه وما من دابة إلا على الله رزقها ويعلم مستقرها ومستودعها
كل في كتاب مبين لذلك أخبر سبحانه لرسوله المبعوث على كافة الخلق
المبين لهم طريق الرشاد في شأن الكتاب المنزل عليه بعد إحكام آياته وتفصيلها
تأييدا له وتقوية لأمره ليهدي به أناسا تائهين عن جادة التوحيد المنحرفين
عنها بمتابعة الشيطان المريد فقال متيمنا باسمه العظيم ومخاطبا على رسوله
الكريم بسم الله الذي أحكم آيات كتابه الدالة على توحيد ذاته لتكون
موصلة إليه سبحانه لمن تمسك بها الرحمن على عباده بتفصيل تلك الآيات
تسهيلا عليهم وتوضيحا الرحيم لهم بأمرهم بالعبادة والتذلل ليتحققوا
بمرتبة حق اليقين الذي هو الصراط المستقيم الر أيها الإنسان الأحق
الأليق لاعتلاء لوازم أنوار الألوهية وارتفاع رايات رموز أسرار
الربوبية بين الأنام بالبيان والتبيان هذا كتاب أنزلناه إليك تأييدا لك
في أمرك مصدقا لما في الكتب السالفة جامع لأحكامها أحكمت ونظمت
آياته أشد تنظيم وأبلغ إحكام وإتقان بحيث لا يعرضه خلل واختلال لا
في معناه ولا في لفظه لذلك عجزت عن معارضته جميع أرباب اللسن والفصاحة

الصفحة الأولى الجزء الثاني من النسخة المخطوطة (أ)

الصفحة الأخيرة الجزء الثاني من النسخة المخطوطة (أ)

بسم الله الرحمن الرحيم

فاتحة سورة النمل لا يخفى على ارباب الهداية
الكاملة من الراسخين بمقام الحق والتمكين الواصلين الى سر
الوحدة الذاتية بمقتضى اليقين الحقي عند رجوعهم من مرتبتي
العلم والعين اليها بعد ما سبقت لهم العناية الازلية والجذبة
الالهية وان سارت المتضمنة لانواع الرموز والاشارة من
قبل الحق الحقيق بالحقية انه من اهتدى الى التوحيد الذاتي
وتمكن على تلك المرتبة بلا اضطراب وتزلزل وتلوين لابد ان
يديم صلوته وميله نحو الذات الاحدية مهذبا ظاهره
وباطنه عن الميل والالتفات الى ما سواه من المزخرفات
الفانية المهلكية عن الفناء فيه والبقاء ببقائه وايضا لابد
له ان يميت نفسه بالموت الارادي عن مقتضيات اوصاف
البشرية وقواه الناسوتية المبعدة عن التقرب بكنف
اللاهوت وجوار حضرة الرحموت الذي لا ينام ولا يموت
وبالجملة لابد له الانخلاع عن خلع التعينات العدمية المقتضية
للتعدد والكثرة مطلقا حتى يتصف بالطهارة الحقيقية
والطيب المعنوي والسعادة السنية والسيادة السرمدية
وبذلك خاطب سبحانه حبيبه صلى الله عليه وسلم بعد
ما يمن باسمه العلي الاعلى بسم الله الذي تجلى
باسمائه الحسنى وصفاته العليا على ما ظهر وبطن من الاشيا
الرحمن لعموم عباده بالرزق الاوفى الرحيم لخواصهم
بالمثوبة العظمى والدرجة العليا والترقي من [illegible] الطبيعة

الصفحة الأولى الجزء الثالث من النسخة المخطوطة (أ)

غير مغيب عنه وبالجملة اولم يكف لهم دليلا على تحقق الحق
وحضوره مع كل شيء من مظاهره ومصنوعاته ثم نور
سبحانه ما نبه عليه على سبيل التعجب والتوبيخ تأكيدا
ومبالغة وزيادة ايضاح وتوضيح فقال الا انهم بعد
ما اضاء لهم شمس الذات من مرايا الكائنات في مرية
شك وارتياب من لقاء ربهم فيها ومطالعة وجهه
الكريم عنها الا انه بذاته حسب شئونه وتطوراته
المترتبة على اسمائه وصفاته بكل شيء من مظاهره
ومصنوعاته محيط بالاستقلال والانفراد احاطة
ذاتية بلا شوب شركة اذ لا موجود سواه ولا اله الا
هو خاتمة السورة عليك ايها السالك
المترقب لشهود الحق من ذرائر عموم المجالي والمظاهر
الظاهرة في الافاق والانفس ان تصفي ضميرك اولا
من وساوس مطلق الاوهام والخيالات العائقة عن
التوجه الى صرافة الوحدة وتخلي خلدك عن الاضافات
الصارفة عنه فلك ايضا ان تكون في نفسك متوجها
الى ربك الذي هو حصة لاهوتك ونشأة جبروتك خاليا
عنك وعن لوازم ناسوتك وعوارض بشريتك بالمرة
بحيث لا تشعر رلك عما جرى على هويتك اصلا وبالجملة
كن فانيا في الله باقيا ببقائه ناظرا بنوره الى
وجهه الكريم تفز بنعيم الجنان وعظيم اللذات
بما لا عين رات ولا اذن سمعت ولا خطر على قلب بشر
تم الجزء الثالث من تفسير سلطان العارفين
سيدي عبد القادر الجيلاني قدس
الله سره العزيز
امين

الصفحة الأخيرة الجزء الثالث من النسخة المخطوطة (أ)

سورة الشورى لايخفى على من تحقق
بمرتبة التوحيد وتمكن عليها بلا تردد وتلوين ان
عموم مراتب الانبياء والرسل ومشارب الاولياء التابعين
لهم المقتفين اثرهم انما هي على صرافة الوحدة الذاتية المسقطة
لجميع الكثرات والاضافات وان ما انزل الله على سبيل الوحي والالهام
من الكتب والصحف انما هو لبيان الطرق الموصلة اليها ولهذا نبه
سبحانه حبيبه على طريق توحيده بعد ما خاطب بما خاطب
متيمنا باسمه العظيم بسم الله الذي ظهر على ما ظهر
وبطن بصرافة وحدته الذاتية المحيط بالكل الرحمن على جميع الكائنات
بافاضة الوجود الذي هو منبع عموم الكمالات الرحيم على خواصها
وخلاصتها بالايصال الى منبع ماء الحيوة الذي هو وحدة الذات
المسقطة لمطلق الاضافات حم عسق يا حامل وحي الله ن
وماحي الوجود عن غيره ويا خاتم سر ابرقدرة الله وعارف سرها
سر وحدته الذاتية على قلوب خلص عباده من الانبياء والاولياء
كذلك اي مثل ما ذكر في هذه السورة من سرائر التوحيد
والاخلاق المرضية الالهية يوحي اليك يا اكمل الرسل في كتابك
هذا والى الذين مضوا من قبلك من الانبياء والرسل في كتبهم
وصحفهم الله المتوحد بذاته المحيط بعموم مظاهره ومصنوعاته
المستقل بامر الارسال والانزال والوحي والالهام العزيز الغالب
في امره وشانه الحكيم المتقن في افعاله وتدبيراته الجارية
في ملكه وملكوته اذ له ما في السموات وما في الارض ملكا
وتصرفا ايجادا واعداما وبالجملة هو العلي المستقل بالعلو في
مطلق ملكه وملكوته العظيم في شانه وامره لا علو ولا عظمة

الصفحة الأولى الجزء الرابع من النسخة المخطوطة (أ)

الزاكيات عليه وعلى آله وازواجه الطاهرات وذرياته

السادات وخلفائه الراشدين واصحابه اجمعين

يارب بهم وبآلهم عجل بالنصر وبالفرج والحمد

لله اولا واخرا وباطنا وظاهرا

تم الجزء الرابع على يد افقر الورى

الى ربه اللطيف الساتر الرشيد

السيد عبد القادر بن [illegible] مصطفى

بن السيد عبد الرحمن الرشيدي

الحنفي مذهبا القادري

طريقة غفر الله له

ولوالديه

ولمن [illegible]

[illegible]

والمسلمين

اجمعين

امين

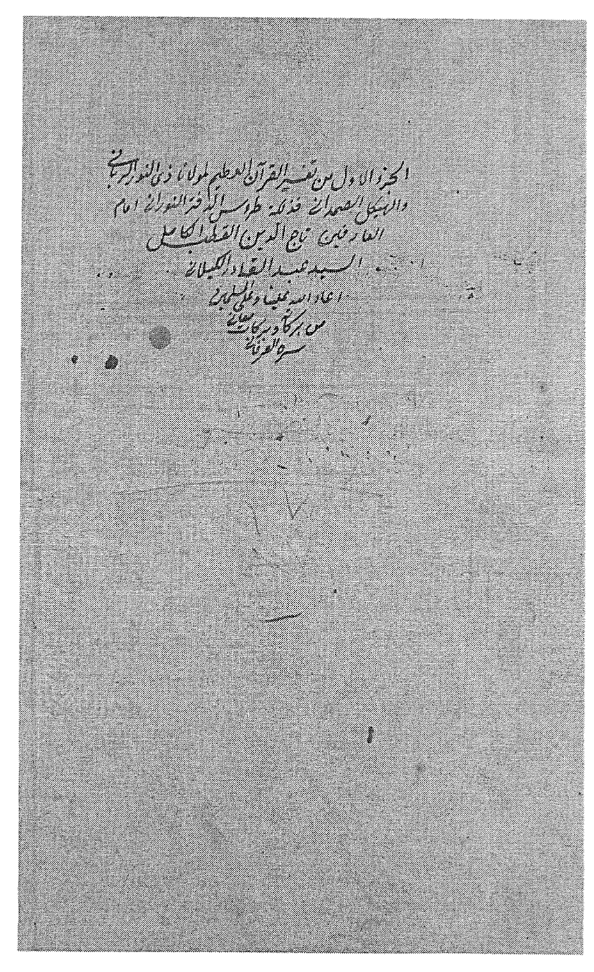
الصفحة الأخيرة الجزء الرابع من النسخة المخطوطة (أ)



بسم الله الرحمن الرحيم

سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم، سبحان من تجلى لذاته في ملابسة أسمائه
وصفاته، وتعزز بكبريائه عن أن يصفه ألسنة مظاهره ومصنوعاته، جل جناب قدسه عن
أن يكون شرعة لكل قاصد، فيا حجابا من المدرك وما الإدراك في مقام لا يسع فيه سوى ما عرفناك
تعالى الحق عن فهم الرجال وعن وصف التفرق والوصال، إذ أعاجل شيء عن خيال، تعالى عن الأمثال
والمثال، بحمدك لنفسك نتوسل إليك وبثنائك لذاتك نثني عليك لا نحصي ثناء عليك أنت كما
أثنيت على نفسك، ونصلي على رسولك المؤيد من عندك لتبليغ أسرار حكمك، وأحكامك إلى خلص
عبادك، ونتضرع إليك أن لا تزيغ قلوبنا بعد إذ هديتنا، إذ بيدك أزمة الأمور، وبمشيئتك
يجري ما في الصدور، إخواني أعاذكم الله، لا تلوموني بما أنا عليه، ولا تغيروني بأمر قصدت إليه
إذ من سنته سبحانه إظهار ما خفي في علمه، وإبراز ما كمن في غيبه، يفعل الله ما يشاء ويحكم ما يريد،
وما بكم من نعمة فمن الله، هو يقول الحق وهو يهدي السبيل، وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب
عن جميع ما يعيبني وريب، والملتمس من الإخوان، والمرجو من الخلان، أن لا تنظروا فيه إلا بعين العبرة
لا بنظر الفكرة، وبالذوق والوجدان، لا بالدليل والبرهان، بالكشف والعيان، لا بالتخمين والحسبان
والله ما هذا الفقير الحقير من أصحاب القيود المتشبثين بأذيال الحجج والحدود، ولا من المتصوفة المتصدقين
من الوارد والمورود المتفوهة من الوجدان والموجود، بل من خدام الفقراء المنسلخين عن جميع
الرسوم والعادات المنتظرين بما ظهر لهم من الحق بعموم الأوقات وشمول الحالات، نفعنا الله وإياكم
بالقرآن العظيم، وشرح صدورنا وصدوركم بالآيات والذكر الحكيم، إنه هو الجواد الكريم، الفتاح العليم
التواب الرحيم، ثم لما كان ما ظهر فيه من جلي الفتوحات التي قد فتحها الحق ووهبها من محض جوده
مني من عنده، بالفواتح الإلهية والمفاتح الغيبية الموضحة للكلم القرآنية، والحكم الفرقانية، وقبل
الخوض في المقصود لا بد من تمهيد أصل كلي جلي منصص على سرائر عموم المعارف والحقائق، والمكاشفات
والمشاهدات الواردة على قلوب الكمل، وعلى مطلق الأوامر والنواهي، وعموم التكاليف والأحكام

الصفحة الأولى من النسخة المخطوطة (ب)



الجزء الاول من تفسير القرآن العظيم لمولانا ذي النور الرباني
والهيكل الصمداني فذلكة طروس الدفتر النوراني امام
العارفين تاج الدين القطب الكامل
السيد عبد القادر الكيلاني
اعاد الله علينا وعلى المسلمين
من بركاته وبركات [illegible]
سره العرفاني

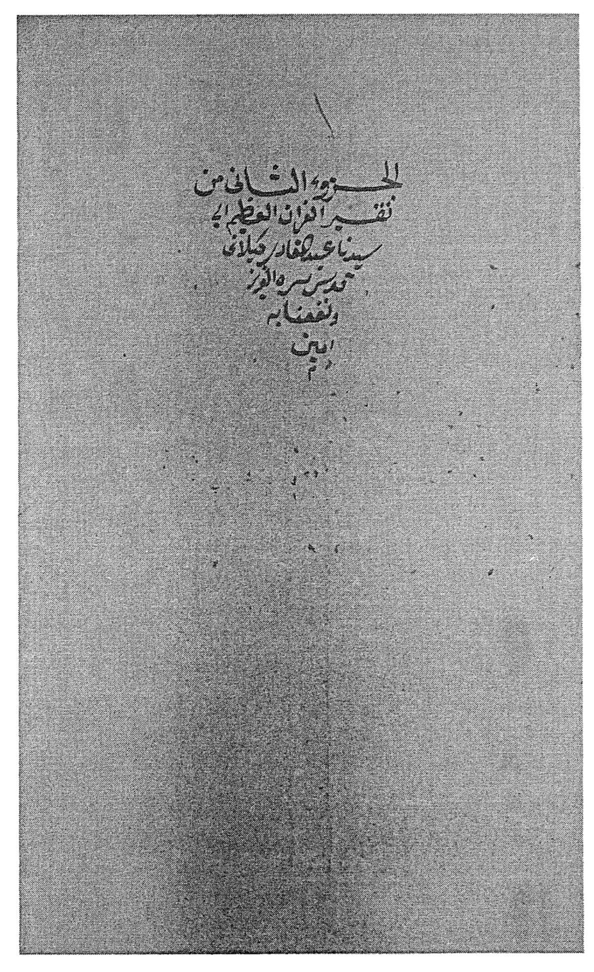
الصفحة الأولى الجزء الأول من النسخة المخطوطة (ج)

بسم الله الرحمن الرحيم

سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم، سبحانك من تجلى لذاته بذاته في الأزل [illegible]

[illegible]

الصفحة الثانية الجزء الأول من النسخة المخطوطة (ج)



الجزء الثاني من
تفسير القرآن العظيم إلى
سيدنا عبد القادر جيلاني
قدس سره العزيز
ونفعنا به
آمين

الصفحة الأولى الجزء الثاني من النسخة المخطوطة (ج)

بسم الله الرحمن الرحيم

فاتحة سورة النمل لا يخفى على أرباب الهداية الكاملة من الراسخين في العز والتمكين
الواصلين إلى سر الوحدة الذاتية بمقتضى اليقين الحقي متدرجين من مرتبتي العلم والعين
إليها بعد ما سبقت لهم العناية الأزلية والجذبة الأحدية والبشارة المتضمنة لأنواع الرموز
والإشارة من قبل الحق الحقيقي بالعناية أن من اهتدى إلى التوحيد الذاتي وتمكن على تلك المرتبة
بلا طريان تزلزل وتلوين الأبدان يقيم ويديم صلوته ويسلم كل الذات الأبدية مهذبا ظاهره
وباطنه من الميل والالتفات إلى ما سواه من المزخرفات الفانية الملهية عن الفناء
فيه والبقاء ببقائه وأيضا لا بد له أن يميت نفسه بالموت الإرادي عن مقتضيات أوهامه
البشرية وقواه الناسوتية المبعدة عن التقريب بكنف اللاهوت وجوار حضرة الرحموت
الذي لا ينام ولا يموت وبالجملة لا بد له الانخلاع عن خلع الشبهات العدمية المقتضية
للتعدد والكثرة مطلقا حتى يتصف بالطهارة الحقيقية والطيب المعنوي والنضارة
السنية والسيادة السرمدية ولذلك خاطب سبحانه حبيبه صلى الله عليه وسلم
بعد ما يمن باسمه العلي الأعلى بسم الله
الذي تجلى بأسمائه الحسنى وصفاته العليا على ما ظهر وبطن من الأشياء
الرحمن لعموم عباده بالرزق الصوري الرحيم لخواصهم بالمثوبة العظمى
والدرجة العليا والترقي من أرض الطبيعة إلى سماوات الصفات والأسماء
واللحوق بالملأ الأعلى والوصول إلى سدرة المنتهى طس يا طالب
السعادة السرمدية والسيادة السنية الأزلية الأبدية تلك الآيات
المتلوة عليك تفخيما لشأنك وتتميما لبرهانك آيات القرآن
أي بعض آيات القرآن المبين المبين لدلائل التوحيد وبينات
الفرقان الفارق بين الباطل والحق من الأحكام وكتاب

مبين

الصفحة الثانية الجزء الثاني من النسخة المخطوطة (ج)

الصفحة الأخيرة الجزء الثاني من النسخة المخطوطة (ج)

بسم الله الرحمن الرحيم

ترجمة السيِّد الشريف الشيخ أبي محمَّد محيي الدين عبد القادر الجيلاني رضي الله عنه

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أكمل الرسل سيدنا وشفيعنا وحبيبنا، سيد الأولين والآخرين، وقائد الغرِّ المحجَّلين، وجدِّ الحسن والحسين، نبينا محمَّد صلَّى الله تعالى عليه وعلى آله وصحبه وسلم.

وله الحمد سبحانه وتعالى أن فتح لأوليائه طرق الهدى، وأجرى على أيديهم الخيرات ونجاهم من الردى، فمن اقتدى بهم انتصر واهتدى، ومن عرج عن طريقتهم انتكس وتردى، ونفعنا الله بعلومهم وبركاتهم أجمعين آمين.

نسب الشيخ من جهة والده:

السيد الشريف الشيخ أبو محمد محيي الدين عبد القادر الجيلاني رضي الله عنه ابن أبي صالح السيد موسى جنكي دوست بن السيد عبد الله الجيلي ابن السيد يحيى الزاهد بن السيد محمد بن السيد داود بن السيد موسى بن السيد عبد الله بن السيد موسى الجون بن السيد عبد الله المحض بن السيد

حسن المثنى بن السيد أمير المؤمنين سيد شباب أهل الجنة أبي محمد الحسن المجتبى بن الإمام الهمام أسد الله الغالب ومظهر العجائب إمام العلوم أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه وكرَّم الله وجهه، وعن جميع آل بيتهم أجمعين آمين..

نسبه من جهة والدته:

والدته الكريمة هي أم الخير أمة الجبار فاطمة بنت السيد عبد الله الصومعي الزاهد بن السيد جمال الدين بن السيد محمد بن السيد محمود بن السيد عبد الله بن السيد كمال الدين عيسى بن السيد أبي علاء الدين محمد الجواد بن السيد علي الرضا بن السيد الإمام موسى الكاظم بن السيد الإمام جعفر الصادق بن السيد الإمام محمد الباقر بن السيد الإمام علي زين العابدين بن الإمام أبي عبد الله الحسين بن الإمام الهمام أسد الله الغالب ومظهر العجائب، إمام العلوم أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه وكرم الله وجهه وعن جميع آل بيتهم أجمعين آمين..

مولده:

ولد الشيخ عبد القادر رضي الله عنه سنة (٤٧٠ هـ ـ ١٠٧٧ م) في بنق قصبة من بلاد جيلان.

طلبه للعلم وشيوخه:

لما عَلِمَ رضي الله عنه أن طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة قصد علماء الأمة الإسلامية لينهل من معينهم العذب، وتفقه على كبارهم

بعد أن قرأ القرآن العظيم حتى أتقنه، وعمَّر بدراسته سرَّه وعلنه بأبي الوفاء على بن عقيل الحنبلي، وأبي الخطاب محفوظ الكلوذاني الحنبلي، وأبي الحسن محمد بن القاضي أبي يعلى محمد بن الحسين بن محمد بن الفراء الحنبلي، والقاضي أبي سعيد المبارك ابن علي المخزومي الحنبلي، وقرأ الأدبَ على أبي زكريا يحيى بن علي التبريزي، وسمع الحديث من جماعة منهم: أبو غالب محمد بن الحسن الباقلاني، وأبو سعيد محمد بن عبد الكريم بن خشيشا، وأبو الغنائم محمد بن محمد بن علي بن ميمون الفرسي، وأبو بكر أحمد بن المظفر، وأبو جعفر بن أحمد بن الحسين القاري السراج، وأبو القاسم علي بن أحمد بن بنان الكرخي، وأبو طالب عبد القادر بن محمد بن يوسف، وابن عمه عبد الرحمن بن أحمد، وأبو البركات هبة الله بن المبارك، وأبو العز محمد بن المختار، وأبو نصر محمد، وأبو غالب أحمد، وأبو عبد الله يحيى، أولاد علي البنا، وأبو الحسن بن المبارك بن الطيور، وأبو منصور عبد الرحمن القزاز، وأبو البركات طلحة العاقولي، وغيرهم.

أهم مؤلفاته:

- تفسير الجيلاني.
- الفتح الرباني
- الصلوات والأوراد.
- الرسائل.
- يواقيت الحكم.

- الغنية.
- فتوح الغيب.
- الديوان.
- سر الأسرار.
- أسرار الأسرار.
- جلاء الخاطر.
- الأمر المحكم.
- أصول السبأ.
- مختصر علوم الدين.
- أصول الدين.

ولقد لحظنا في بحثنا المستمر عن كتب الشيخ في المكتبات المختلفة أن بعض مؤلفات الشيخ ورسائله معزوة إلى غيره ونحن في طور البحث للتحقق والتأكد من ذلك وحين وصولنا إلى النتيجة الحقيقية سنوضح ذلك في نشر باقي سلسلة كتب الشيخ التي نحن مستمرون في نشرها بإذن الله تعالى.

هذا الكل محبي الاطلاع على الحقيقة واضحاً عند ما ننشر سلسلة مؤلفاته كاملة إن شاء الله رب العالمين والحمد لله رب العالمين.

وفاته رضي الله عنه:

توفي الشيخ الجيلاني رضي الله عنه بعد أن قضى عمره بالطاعة والعبادة والعلم ببغداد ليلةَ السبت ثامن شهر ربيع الآخر سنة (٥٦١ هـ ـ ١١٦٥م)

ودفن في الليل بمدرسته بباب الأزج ببغداد وقد دفن ليلا لكثرة الزحام، فإنه لم يبق أحد إلا وقد جاء ليشهد دفن الشيخ.

وامتلأت الحلبة والشوارع والأسواق والدور فلم يُتمكن من دفنه في النهار، وقال ابن النجار: «فرغ من تجهيزه ليلا وصلَّى عليه ولده الشيخ عبد الوهاب في جماعة ممن حضر من أولاده وأصحابه وتلامذته، ثم دفن في رواق مدرسته، ولم يفتح باب المدرسة حتى علا النهار، وهرع الناس إلى الصلاة على قبره وزيارته وكان يوما مشهوداً». ثم قال: «وكانت وفاة الشيخ رضي الله عنه في خلافة المستنجد بالله أبي المظفر يوسف بن المقتفي لأمر الله بن المستظهر بالله العباسي رحمهم الله».

الباحث

السيد الشريف محمد فاضل جيلاني الحسني، وكانت ولادتي بقرية جِمزَرق، سنة أربع وخمسين وتسعمائة وألف ميلادية، بمحافظة قُرتَلان، ولاية إسعِرد المشهور والمعروفة بالعلماء في منطقة شرق تركيا، والمقيم حالياً في إسطنبول العامرة المحروسة.

نشأت في تربية جدي السيد الشريف العالم المقتدى به والقطب الكامل الشيخ محمد صديق جلاني الحسني، ووالدي السيد الشريف العالم العلامة والبحر الفهامة الشيخ محمد فائق جيلاني الحسني.

وقد أخذني جدي إليه إلى قريته تيلان المعروفة والمشهورة بالسادات والأشراف الجيلانيين حماها الله ورعاها وأنا في سن الثانية من عمري،

وقد رباني إلى سن الثالث عشر، وكان يحبني كثيراً، وهو الذي أرسلني إلى المدينة المنورة، وبعد هذا السن رجعت إلى والدي في قريته جِمزَرق منبع العلماء وأكملت دراستي الشرعية والعلمية عنده، رحمة الله عليهم، وقدس الله أسرارهم العلية ونفعنا بأنفاسهم الطاهرة المرضية .

وبعدُ سافرت إلى المدينة المنورة وتشرفت بالإقامة فيها حيث أني بدأت بالبحث عن كتب الشيخ عبد القادر الجيلاني رضي الله عنه في عام ألف وتسعمائة وسبعة وسبعين بالمدينة المنورة وغيرها من المدن إلى سنة ألفين واثنتين ميلادية .

وبعد ذلك العام فرغت جميع أوقاتي للبحث عن كتب الشيخ رضي الله عنه ومازلت في البحث إلى يومنا هذا .

ولقد زرت حوالي خمسين مكتبة رسمية وعشرات من المكاتب الخاصة في أكثر من عشرين دولة، وقد تكررت الزيارة إلى بعض هذه البلاد أكثر من عشرين مرة .

إلى أن حصلت على سبعة عشر كتاباً وست رسائل ومن ضمنها هذا التفسير المبارك الذي لا مثيل ولا نظير له في الدنيا عندي .

ومن تَطوَافي الكثير في المراكز العلمية المتعددة علمت أن أربعة عشر عنواناً من كتب الشيخ رضي الله عنه مفقودة، وسأقوم بالبحث عنها في المكتبات العالمية بعد طبع ونشر هذا التفسير المبارك إن شاء الله رب العالمين

وفي النتيجة اغتبطت كثيراً، وشكرت لله سبحانه وتعالى شكراً جزيلاً حينما تبين لي أن عدد الأوراق التي حصلت عليها من مؤلفات جدي الشيخ الجيلاني رضي الله عنه تسعة آلاف وسبع مائة واثنتين وخمسين ورقة، عدا ما نحن بصدد

نشره الآن، والعناوين المفقودة . كل هذا أدى حتماً إلى إدخال السرور الكثير والاعتزاز غير المتناهي في نفسي بجدي القطب الجيلاني رضي الله عنه .

ومن العجيب أنني عندما ذهبت إلى الفاتيكان للبحث عن مؤلفات الشيخ في مكتبتها المشهورة وأثناء دخولي لدولة الفاتيكان سألني موظف الجوازات عن سبب زيارتي للمكتبة فأجابه صديقي الإيطالي الذي كان يرافقني أنني أبحث عن كتب جدي الجيلاني فقام الموظف احتراماً وقال : نعم نعم، فيلسوف الإسلام :عبد القادر الجيلاني. وبعد دخولنا للمكتبة وجدت مكتوباً في الفهارس وبعض الكتب باللغة الإيطالية : «فيلسوف الإسلام»، وباللغة العربية : «شيخ الإسلام، والمسلمين».

وهذان اللقبان لم أجدهما في مكتبات القارات الثلاث إلا هنا وكذلك وجدت عبارةً في مكتبة الفاتيكان مكتوباً فيها : « وكان الشيخ رضي الله عنه يتكلم في ثلاثة عشر علماً » .

ولقد حصلت على ثلاثة نسخ مخطوطة للكتاب الذي نحن بصدد نشره ورقمناها: (أ - ب - ج) وقد اعتمدنا النسخة (أ) واستفدنا من النسختين الباقيتين وإن لم نشر إليهما بالتفصيل فيما قمنا به، وقد وضعنا بعض الصور لكل مخطوطة في أول الكتاب ولكن المخطوطة الموجودة في الهند ـ وهي تنقص جزءاً واحداً ـ والمؤرخة بتاريخ اثنين وعشرين وستمائة هجرية (٦٢٢هـ) لم نصل إليها حتى الآن بسبب انشغالنا بطباعة الكتاب، وإذا ما وصلنا إليها سوف نضع صورة لها أيضاً .

كما أخبرنا بعض الأفاضل منهم : السيد عبد المطلب الكيلاني، نقلاً عن الحاج نوري مدير المكتبة القادرية ببغداد، ومنهم جماعة من آل الشيخ

الجيلاني في مدرسة وتكية ووقف الشيخ في بغداد، ومنهم الشيخ عمر الرفاعي نقلاً عن السيد يوسف الكيلاني رحمه الله، ومنهم الأستاذ مصطفى الحلبي وهو صاحب مكتبة في بغداد عن وجود نسخة أخرى بخط يد الشيخ كانت موجودة في المكتبة القادرية في بغداد ولكنها فقدت منذ بضعة قرون، ثم وجدت بعد ذلك في بلاد الشام.

وبعد المحاولة في بلاد الشام للصول على هذه النسخة، تبين لنا أنها كانت موجودة ثم فقدت.

وسأبذل جهدي للحصول عليها في المكتبات العالمية إن شاء الله رب العالمين.

كما أكد السيد نوري محمد صبري المفتي أمين المكتبة القادرية العامة في كتابه المسمى (مكتبة المدرسة القادرية العامة في بغداد) في الصفحة الثالثة والعشرون، بأن من مؤلفات الشيخ (تفسير القرآن الكريم بخط يده) وهذا يؤكد ما أقدمنا عليه بنشر هذا التفسير باسم الشيخ. ويذكر أيضاً في الصفحة الحادية عشرة من كتابه (مكتبة المدرسة القادرية العامة في بغداد) تحت عنوان (الإهداء) ما يلي:

أقدم هذا البحث المتواضع عن «مكتبة المدرسة القادرية العامة» إلى السيد يوسف السيد عبد الله الكيلاني، متولي الأوقاف القادرية الحالي الذي أفنى أكثر من ثلاثين عاماً من عمره المديد من أجل تعمير وتوسيع هذه المكتبة وتوفير ما يعز الحصول وتعظم الحاجة إليه من المصادر والمراجع، وأقدمه أيضاً إلى روح المغفور لهما السيدين برهان الدين السيد عبد الرحمن الكيلاني وسالم السيد عبد الرحمن الكيلاني متوليا الأوقاف القادرية السابقين.

أهمية مؤلفات
الشيخ الجيلاني رضي الله عنه

تكمن أهمية إخراج مؤلفات الشيخ الجيلاني رضي الله عنه لأهل العلم والباحثين في إبراز التصوف الحقيقي النقي المتبع للكتاب والسنة، فلم يكن الشيخ رضي الله عنه يخرج في تصوفه عن منهج الكتاب والسنة، ولذلك أجمع جمهور العلماء على صلاحه وعلى سلامة منهجه حيث يستشهدون بأقواله، ويصفونه بقولهم: «الشيخ العابد الزاهد، العارف بالله، السيد الشريف، الشيخ عبد القادر الجيلاني رضي الله عنه».

ومن هنا وجدت لزاماً عليَّ البحثَ في تحقيق مؤلفاته لنبذ الاختلاف الذي حدث بين المسلمين في عصرنا هذا، فأقوالُ الشيخ نابضةٌ بالحكمة والموعظة الحسنة والمجادلة بالتي هي أحسن.

وقد كنت جمعت من أقوال الشيخ وسلوكه وأفعاله في الدعوة للوحدة ونبذ الاختلاف بين المسلمين وتعريفهم بالتصوف الصحيح وعزمت على إخراجه في كتاب مستقل، وسميته: «نهر القادرية».

كما جمعت آراء العلماء قديماً وحديثاً في الشيخ لإخراجه في كتاب آخر وسميته: «**آراء العلماء في حق الشيخ الجيلاني رضي الله عنه**»، وكذا ذكرنا سيرة الشيخ بشكلٍ شاملٍ في مقدمة كتاب: «الفتوة في كيفية أخذ العهد والبيعة».

لمحة عن مؤلف (تفسير) الشيخ الجيلاني رضي الله عنه

نقول مؤلف الشيخ ولا نقول تفسيره، حيث سيتوضح لدينا هذا فيما يأتي من الكلام، وإن كان الشيخ التزم بالحديث في مؤلفه بالسور القرآنية وآياتها مرتبة مرتبطة ببعضها، وكان يصدر في كل سورة بمقدمة يسميها فاتحة السورة، ويختمها بخاتمة السورة، ويضع فيها ملخصاً لما جاء في السورة، وغالباً ما يختم بالدعاء للمسلمين والحاضرين .

شيء آخر اشتهر فيه الشيخ وهو أنه كان إمام مدرسة أنشأها، وسهر عليها، حتى آتت أكلها .... إذ كان الشيخ من الرواد الأوائل الذين أيقظوا الشباب الغافل في ذلك الوقت، وبعثوا فيهم روح العودة إلى الإسلام الصادر من كتاب الله الحكيم، وسنة رسوله الكريم، وبذلك مهد الطريق لمجيء صلاح الدين الأيوبي رحمه الله، بتلك الروح التي كان يتحلى بها جيله الذي كان على يده النصر على الفرنجة وتحرير بيت المقدس منهم .ولا يتم هذا إلا بتحرير عقول الشباب وروحهم من تأثير روح عصر الشيخ بكل أنواع الفساد المادي والخلقي والفكري .

وهل يتم هذا إلا بالعودة إلى القيم الإسلامية النابعة من كتاب الله الحكيم بتجديد الإيمان وإذكاء روح التقوى والاتصال بالله سبحانه وتعالى ؟ولقد قام الشيخ بهذا في دروسه وارتباطاته وتوجيهاته ومؤلفاته.

ومؤلفه هذا له دور في هذا المجال، حيث لا يفسر القرآن تفسيراً يعتمد على العلم والفهم كما في التفاسير الأخرى، وإنما يعتمد على الإيحاءات التي تحيي الروح، وتكرس التقوى من جانب، ومن جانب آخر تربط الطالب المريد بشيخه، ليستطيع أن يستمر في التأثير والارتقاء بالطالب إلى أعلى الدرجات .

لهذا سمى مؤلفه هذا «بالفواتح الإلهية والمفاتح الغيبية الموضحة للكلم القرآنية والحكم الفرقانية »وهذه حقيقة محضة، ولفتة بارعة من العالم الرباني،

و القطب الروحاني، الشيخ عبد القادر الجيلاني رضوان الله عليه، ليضعنا في صلب مؤلفه الذي نحن بصدده فهو لم يسمه تفسيراً للقرآن الكريم، وإنما سماه «بالفواتح الإلهية والمفاتح الغيبية الموضحة للكلم القرآنية والحكم الفرقانية «أي هو يتحدث عن تأثير إيحاءات القرآن على نفسه العابدة الزاهدة المترقية في سلم ودرجات القرب والوصول إلى الله سبحانه وتعالى وللقرآن إيحاءات وإشارات مختلفة من شخص إلى آخر، كل على حسب مجاهداته وجهاده في الله كما في الآية الكريمة « والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا وإن الله لمع المحسنين » ولم تقل الآية سبيلنا بالمفرد، وإنما قال سبلنا بالجمع، أي لكلٍ إيحاءاته وإشاراته الخاصة من خلال القرآن الكريم، وتأثيره عليه، وتأثره به،حسب المرحلة التي هو فيها، وفي كافة مناحي الحياة التي يعيشها .

وهنا تتفاوت الآراء، وقد تتضارب ..... وتقترب من ظاهر القرآن وقد تتباعد، لأن القرآن نفسه بحر زاخر، فيه النفائس المختلفة : منها القابلة للتحديد والتقعيد كالأحكام والحدود في مناحي الحياة والمجتمع، بل المجتمعات، ومنها التي تتأبى على التحديد والتقعيد وتتصل بالروح والنور والهدى كقوله تعالى : ﴿ أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٢٢﴾ ﴾ [الأنعام] وكقوله تعالى : ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَٰكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾ ﴾ [الشورى] .

ولشعور القطب رضوان الله عليه بهذا أشار في مقدمته إلى إخوانه بقوله : (إخواني أبقاكم الله تعالى لا تلوموني بما أنا عليه، ولا تعيروني بأمر قصدت

إليه...) ثم طلب (والملتمس من الأخوان، والمرجو من الخلان أن لا ينظروا فيه إلا بعين العبرة لا بنظر الفكرة، وبالذوق والوجدان لا بالدليل والبرهان، وبالكشف والعيان لا بالتخمين والحسبان) .

حيث أراد أن يبين أن مؤلفه هذا ليس بتفسير كالتفاسير الأخرى، وإنما هي إيحاءات وإشارات نابضة بالحياة والروح والحركة، النابعة من قلب عابد متصل بالله عز وجل، امتلك شعوره هذا كل حركة من حركاته، وكل سكنة من قلبه المطمئن بالله، فكان مؤلفه تعبيراً عن هذه المشاعر والوجدانات والحركات والسكنات والإيحاءات والإشارات والفيوضات .

لذلك على القارئ لهذا المؤلف أن يستوعب هذا قبل أن يغوص في بحره الزاخر حتى لايغرق أو يزيغ، وخاصة ما يرد مؤكداً عقيدة وحدة الوجود فالشيخ بريء براءة كاملة من هذه الفلسفة. وقد مرَّ آنفاً أن الشيخ رضي الله عنه أحيا سنة رسول الله ﷺ ، وما ورد في هذا التفسير المبارك حول وحدة الوجود وما يشبه ذلك فإنه مدسوس على الشيخ. كما أن الشيخ لا ينقل عن غيره إلا ما ندر عن سيدنا علي رضي الله عنه، وعن سيدنا ابن عباس رضي الله عنهما وعن غيرهم .

وفي آيات الأحكام يذكر رضي الله عنه الحكم الفقهي مختصراً وقد ينبه على القراءات . أما في القراءات القرآنية فهو لا يلتزم بقراءة حفص وقد يفسر بأكثر من قراءة دون أن يسمي أصحابها .

وقد تم إنجاز ترجمة الجزء الأول من هذا التفسير إلى اللغة التركية وشرعنا بترجمة الجزء الثاني كما بدأت الآن ترجمته إلى اللغة الأوردية والإنكليزية والألمانية وفي النية ترجمة بقية مؤلفات الشيخ إلى هذه اللغات، وغيرها من اللغات الحية بحول الله تعالى .

ختاماً

وفي الختام أشكر الله تعالى وأحمده حمد الشاكرين الذاكرين العابدين، حمد أهل الحقيقة والطريق المستقيم، حمد المحبين والمحبوبين على ما أنعم الله علي بجمع مؤلفات سلطان الأولياء والعارفين، الباز الأشهب، إمام المتقين، مولانا ذي النور الرباني، والهيكل الصمداني، فذلكة طروس الدفتر النوراني، إمام العارفين، تاج الدين، القطب الكامل، السيد الأيد الشريف، أبي محمد محيي الدين عبد القادر الجيلاني رضي الله عنه، وعلى ما أكرمني به من إخراج أول كتاب للشيخ، وهو تفسير الجيلاني الذي لم يطبع إلى الآن وهو أول عمل علمي يطبع للشيخ.

ونَعِد أهلَ العلم وطلابه بأننا وبمعونة الله تعالى سوف نقوم بطباعة سلسلة كتب الشيخ رضي الله عنه تباعاً والتي يبلغ عددها سبعةَ عشر مؤلَّفاً وست رسائل مخطوطة، وأربعةَ عشر عنواناً ونحن بحول الله مستمرون بالبحث في المكتبات العالمية عن بقية آثار الشيخ رضي الله عنه وهي أكثر من مائة مؤلف.

وألفت انتباهَ الإخوة العلماء والقرَّاء أننا أثبتنا ما في أصول التفسير المخطوطة كما هي تماماً، ولم نُبدِّل أو نُصحح فيها، إلا ما ندر ولو كان خطأً نحوياً؛ وذلك فتحاً لباب التأمُّل والنَّظر من العالم والقارىء، إضافةً لما نحن فيه من السُّرعة لإخراج الكتاب لأسبابٍ عدَّة.

وإني أشكر الشكر الجزيلَ كلَّ من ساهم معنا وساعدنا ودعا لنا في السر والجهر على إتمام هذا العمل طوال ثلاثين عاماً مضى في البحث عن مؤلفات الشيخ رضي الله عنه.

وإذا أتممنا إخراجَ مؤلفات الشيخ رضي الله عنه سوف نشرع بالبحث عن مؤلَّفات أولاد وأحفاد الشيخ الجيلاني رضي الله عنه.

ونرجو من جميع من لديه مخطوط من مؤلفاتهم جميعا أن يتكرم بتزويدنا بنسخة منه، وسنكون له من الشاكرين حتى نضمها إلى سلسلة مؤلفاتهم رضي الله عنهم أجمعين، ونفعنا الله ببركات علومهم وأنفاسهم.

اللهم يا من لا تراه العيون، ولا تخالطه الظنون، ولا يصفه الواصفون، ولا يخاف الدوائر، ولا تفنيه العواقب، يعلم مثاقيل الجبال، ومكاييل البحار، وعدد قطر الأمطار، وعدد ورق الأشجار، وعدد ما أظلم عليه الليل وأشرق عليه النهار، ولا تواري منه سماء من سماء، ولا أرض من أرض، ولا جبال إلا ويعلم ما في قعرها، وفي استكانة عظمته السماوات والأرض، اللهم اجعل خير عملي خواتمه، وخير أيامي يوم ألقاك فيه، إنك على كل شيء قدير.

وصلى الله على أكرم الرسل سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

تم بحمد الله رب العالمين

في الخامس عشر من شهر رجب الأصم سنة ألف وأربع مائة وتسع وعشرين من هجرة من أرسله الله رحمة العالمين.

الموافق ١٨-٧- ٢٠٠٨ م- يوم الجمعة المباركة

دمشق ـ الشام الشريف

د. محمد فاضل جيلاني الحسني

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

وبه نستعين

سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم، سبحان[١] من تجلى لذاته بذاته، في ملابس أسمائه وصفاته وتعزز بكبريائه عن أن يصفه ألسنة مظاهره ومصنوعاته، جل جناب قدسه عن أن يكون شرعة كل وارد ووجهة كل قاصد، فيا عجباً من المدرك وما إلا إدراك في مقام لا يسع فيه سوى ما عرفناك

تعالى الحق عن علم الرجال وعن وصف التفرق والوصال
إذا ما جل شيء عن خيال يجل عن الإحاطة والمثال.

بحمدك لنفسك نتوسل إليك، وبشأنك لذاتك نثني عليك، ولا نحصي ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك. ونصلي على نبيك المؤيد من عندك لتبليغ سرائر حكمك وأحكامك إلى خلص عبادك، ونتضرع إليك أن لا تزيغ قلوبنا بعد أن هديت إذ بيدك أزِّمة الأمور وبمشيئتك يجري ما في الصدور.

إخواني أبقاكم الله تعالى لا تلوموني بما أنا عليه، ولا تعيروني بأمرٍ قصدت إليه؛ إذ من سنته سبحانه إظهار ما خفي في علمه وإبراز ما كمن في غيبه، يفعل الله ما يشاء ويحكم ما يريد، لا حول ولا قوة إلا بالله ، وما بكم من نعمة فمن الله، هو يقول الحق وهو يهدي السبيل.

---

(١) في المخطوط (سبحانك).

وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب عن جميع ما يعيبني ويريب. والملتمس من الإخوان، والمرجو من الخلان أن لا ينظروا فيه إلا بعين العبرة لا بنظر الفكرة، وبالذوق والوجدان لا بالدليل والبرهان، وبالكشف والعيان لا بالتخمين والحسبان.

والله ما هذا الفقير الحقير من أصحاب القيود المتشبثين بأذيال الحجج والحدود، ولا من المتصوفة المتصلفة[١] من الوارد والمورود، والمتفوهة من الواجد والموجود بل من خدام الفقراء المنسلخين عن جميع الرسوم والعادات، المنتظرين بما ظهر لهم من الحق في عموم الأوقات وشمول الحالات.

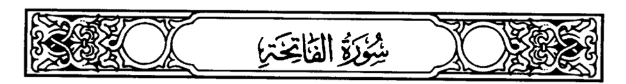
نفعنا الله وإياكم بالقرآن العظيم وشرح صدورنا وصدوركم[٢] بالآيات والذكر الحكيم إنه هو الجواد الكريم الفتاح العليم التواب الرحيم.

ثم لما كان ما ظهر فيه من الفتوحات التي فتحها الله الحق ووهبها من محض جوده سمى من عنده (بالفواتح الإلهية والمفاتح الغيبية الموضحة للكلم القرآنية والحكم الفرقانية).

---

(١) في المخطوط (المتصرنمة).

(٢) في المخطوط (صدوركم).



فاتحة سورة الفاتحة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

لا يخفى على من أيقظه الله تعالى سبحانه من منام الغفلة ونعاس النسيان، أن العوالم وما فيها إنما هي من آثار الأوصاف المترتبة على الأسماء الذاتية الإلهية، إذ للذات في كل مرتبة من مراتب الوجود اسمٌ خاصٌ وصفةٌ مخصوصةٌ لها أثرٌ مخصوصٌ، هكذا بالنسبة إلى جميع مراتب الوجود، ولو حبة وذرة وطرفة وخطرة، والمرتبة المعبرة عنها بالأحدية الغير[1] العددية والعماء الذي لا حظ لأولي البصائر والنهى منها إلا الحسرة والحيرة وَالْوَلَهَ والهيمان، هي غاية عروج معارج الأنبياء ونهاية مراتب سلوك الأولياء، وبعد ذلك يسيرون فيه لا بد وإليه، إلى أن يستغرقوا فيتحيروا وإلى أن يفنوا، لا إله إلا هو، كل شيء هالك إلا وجهه.

ثم لما أراد سبحانه إرشاد عباده إلى تلك المرتبة ليتقربوا إليها ويتوجهوا نحوها حتى ينتهي توجههم وتقربهم إلى العشق والمحبة الحقيقية الحقية المؤدية إلى إسقاط الإضافة المشعرة للكثرة والاثنينية، وبعد ذلك خلُص نيَّتُهم، وصح طلبهم للفناء فيه، نبه سبحانه إلى طريقه إرشاداً لهم وتعليماً في ضمن الدعاء له والمناجاة معه مندرجات من نهاية الكثرة إلى كمال الوحدة

(١) ورد في كل المخطوط (الغير) هكذا والصح (غير).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ﴿١﴾ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٢﴾ الرَّحْمَٰنِ

المفنية لها متيمناً.

﴿ بِسْمِ اللَّهِ ﴾ المعبر بها عن الذات الأحدية، باعتبار تنزلها عن تلك المرتبة، إذ لا يمكن التعبير عنها باعتبار تلك المرتبة أصلاً، وباعتبار شمولها وإحاطتها جميع الأسماء والصفات الإلهية المستندة إليها المظاهر كلها المعبر عنها عند أرباب المكاشفة بالأعيان الثابتة، وفي لسان الشرع باللوح المحفوظ والكتاب المبين ﴿ الرَّحْمَٰنِ ﴾ المعبر بها عن الذات الأحدية باعتبار تجلياتها على صفحات الأكوان وتطوراتها في ملابس الوجوب والإمكان وتنزلاتها عن المرتبة الأحدية إلى مراتب العددية وتعيناتها بالتشخصات العلمية والعينية وانصباغها بالصبغ الكيانية ﴿ الرَّحِيمِ ﴿١﴾ ﴾ المعبر بها عن الذات الأحدية باعتبار توحيدها بعد تكثيرها، وجمعها بعد تفريقها، وطيها بعد نشرها، ورفعها بعد خفضها، وتجريدها بعد تقييدها.

﴿الْحَمْدُ ﴾ والثناء الشامل لجميع المحامد والأُثنِيّة الصادرة عن ألسنة ذرائر الكائنات المتوجهة نحو مبدعها طوعاً، المعترفة بشكر منعمها حالاً ومقالاً، أزلاً وأبداً ثابتةً مختصةً ﴿لِلَّهِ ﴾ أي للذات المستجمع لجميع الأسماء والصفات المظهرة المربية للعوالم وما فيها بأسرها لكونه ﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٢﴾ ﴾ ولولا تربيته إياها وإمداده لها طرفةً لفني العالم دفعةً.

﴿الرَّحْمَٰنِ ﴾ المبديء المبدع لها في النشأة الأولى بامتداد ظلال أسمائه الحسنى وصفاته العليا على مرآة العدم المنعكسة منها العالم كله وجزؤه،

ٱلرَّحِيمِ ﴿٣﴾ مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ﴿٤﴾ إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ ﴿٥﴾ ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ﴿٦﴾..............................

شهادته وغيبه، أولاه وأخراه وأجزاؤه بلا تفاوت ﴿ٱلرَّحِيمِ ﴿٣﴾﴾ المعيد للكل في النشأة الأخرى بطيّ سماء الأسماء وأرض الطبيعة السفلى إلى ما منه الابتداء وإليه الانتهاء لكونه:

﴿مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ﴿٤﴾﴾ والجزاء المسمى في الشرع بيوم القيامة والطامة الكبرى المندكة فيها الأرض والسماء المطويات فيها سجلات الأولى والأخرى في الأرض.

إذ فيها[1] ارتجت الآراء والأفكار وارتفعت الحجب والأستار واضمَحلَّت أعيان السوى والأغيار، ولم يبق إلا الله الواحد القهار، ثم لمّا تحقق العبد في هذا المقام ووصل إلى هذا المرام وفوض الأمور كلها إلى الملك العلام القدوس السلام، حقَّ له أن يلازم ربه ويخاطب معه بلا سترٍ ولا حجابٍ، تتميماً لمرتبة العبودية إلى أن يرتفع كاف الخطاب عن البيْن وينكشف الغيْن، عن العيْن، وعند ذلك قال لسان مقاله مطابقاً بلسان حاله:

﴿إِيَّاكَ﴾ لا إلى غيرك إذ لا غير في الوجود معك ﴿نَعۡبُدُ﴾ نتوجه ونسلك على وجه التذلل والخضوع، إذ لا معبود لنا سواك ولا مقصِد إلا إياك ﴿وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ ﴿٥﴾﴾ أي ما نطلب الإعانة والإقدار على العبادة لك إلا منك إذ لا مرجع لنا غيرك.

﴿ٱهۡدِنَا﴾ بلطفك ﴿ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ﴿٦﴾﴾ الذي يوصلنا إلى ذروة توحيدك.

---

(١) في المخطوط بدون (إذ فيها).

صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧﴾

﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ﴾ من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحَسُن أولئك رفيقاً ﴿غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ﴾ من المترددين الشاكّين المنصرفين بمتابعة العقل المشوب بالوهم عن الطريق المستبين ﴿ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧﴾ ﴾ بتغريرات الدنيا الدنية وتسويلات الشياطين عن منهج الحق ومحَجَّة اليقين.

آمين إجابةً منك يا أرحم الراحمين.

خاتمة السورة

عليك أيها المحمدي المتوجه نحو توحيد الذات، يسر الله أمرك، أن تتأمل في الأبحر السبعة المشتمل بهذا السبع المثاني في القرآن العظيم المتفرعة على الصفات السبع الذاتية الإلهية الموافقة للسماوات السبع والكواكب السبعة الكونية، وتدبر فيها حق التدبر وتتصف بما رمز فيها تتخلص من الأودية السبعة الجهنَّميَّة المانعة من الوصول إلى جنة الذات المستهلكة عندها جميع الإضافات والكثرات، ولا يتيسر لك هذا التأمل والتدبر إلا بعد تصفية ظاهرك بالشرائع النبوية والنواميس المصطفوية المستنبطة من الكلم القرآنية، وباطنك بعزائمه وأخلاقه ﷺ المقتبسة من حكمها المُودعة فيها، فيكون القرآن الجامع لهما خلق النبي ﷺ ظاهراً وباطناً، المُورِث له من ربه *المستخلف له*.

فالقرآن خُلق الله المنزَّل على نبيه، من تخلَّق به فاز بما فاز، لذلك قال ﷺ: «تَخَلَّقُوْا بِأَخْلَاْقِ الله»[1] وهي التي ذكرت في القرآن.

(١) لم أجده مرفوعاً هكذا وقد ذكره أبو نعيم في الحلية من قول ذا النون المصري [٩/ ٣٥١] .
قال المناوي في فيض القدير في تحقيق هذه الخبر: إن لله تعالى مائة خلق (أي وصف) وسبعة عشر (وفي رواية ستة عشر وفي أخرى بضعة عشرة) خلقاً (بالضم فيهما وفي رواية بدل خلقاً شريعة) من أتاه (يوم القيامة) بخلق منها (أي واحد) دخل الجنة (قال الحكيم: كأنه يريد أن من أتاه بخلق واحد منها وهب له جميع سيئاته وغفر له سائر ذنوبه وفي خبر) إن الأخلاق في الخزائن فإذا أراد الله بعبد خيرا منحه خلقا منها (ألا ترى أن المفرط في دينه المضيع لحقوقه يموت وهو صاحب خلق من هذه الأخلاق فتنطلق الألسنة بالثناء عليه فأخلاق الله أخرجها لعباده من باب القدرة وخزنها لهم في الخزائن وقسمها بينهم على قدر منازلهم عنده فمنهم من أعطاه منها واحدة ومنهم من أعطاه خمسا وعشرا وأكثر أو أقل فمن زاد منها ظهر منه حسن معاملة الخلق والخالق على قدر تلك الأخلاق ومن نقصه منها ظهر عليه بقدره فهذه أخلاق وأكثرها مما سمي به والذي لم يسم به داخل فيما سمي به لأن اللين والرزانة من الحلم والرأفة والرحمة من النزاهة فمنحه الله إياه واحدة من هذه الأخلاق أن يعطيه نور ذلك الاسم فيشرق نوره على قلبه وفي صدره فيصير لنفسه بذلك الخلق بصيرة فيعتادها ويتخلق بها، فحقيق بمن أكرمه بذلك أن يهب له مساويه ويستره بعفوه ويدخله جنته وقد عد في بعض الروايات من تلك الأخلاق كظم الغيظ والعفو عند القدرة والصلة عند القطيعة والحلم عند السفه والوقار عند الطيش ووفاء الحق عند الجحود والإطعام عند الجوع والقطيعة عند المنع والإصلاح عند الإفساد والتجاوز عن المسيء والعطف على الظالم وقبول المعذرة والإنابة للحق والتجافي عن دار الغرور وترك التمادي في الباطل فإذا أراد الله بعبد خيرا وفقه لتلك الأخلاق وإن أراد به شرا خلى بينه وبين أخلاق إبليس التي منها أن يغضب فلا يرضى ويسمع فيحقد ويأخذ فيشره ويلعب فيلهو) تتمة (قال ابن عربي: سئل الجنيد عن المعرفة والعارف فقال: لون الماء لون إنائه؛ أي هو متخلق بأخلاق الله تعالى حتى كأنه هو وما هو هو).
تنبيه: (لم يصرح في هذا الحديث في أي مكان هذه الأخلاق ولم يصرح بأن الآتي بشيء من هذه الأخلاق شرطه الإسلام وقد بين ذلك في حديث آخر روى الطبراني عنه في الأوسط مرفوعاً) إن لله عز وجل لوحا من زبرجدة خضراء تحت العرش كتب فيه أنا الله لا إله إلا أنا أرحم الراحمين، خلقت بضعة عشر وثلاثمائة خلق من جاء بخلق منها مع شهادة أن لا إله إلا الله دخل الجنة (وإسناده حسن ولا منافاة بين قوله في الحديث المشروع مائة وقوله في الحديث ثلاثمائة لأنا إن قلنا إن مفهوم العدد ليس بحجة فالقليل لا ينفي الكثير وإلا فيمكن أن يقال إن منها مائة وسبعة عشر أصول والباقي

والفاتحة منتخبةٌ من جميع القرآن على أبلغ وجهٍ وأوضح بيان، مَن تأمل فيها نال ما نال من جميع القرآن، لذلك فرض قراءتها عند الميل والتوجه إلى الذات الأحدية المعبر عنه بلسان الشرع، بالصلاة التي هي معراج أهل الاتجاه، كما قال ﷺ: «الصَّلَاةُ مِعْرَاجُ المؤْمِنِ»[1]، وقال أيضاً: «لَا صَلَاةَ إِلَّا بِفَاتِحَةِ الْكِتَابِ»[2].

فعليك أيها المصلي المتوجه إلى الكعبة الحقيقية والقبلة الأصلية، أن تواظِب على الصلوات المفروضة المقربة إليها، وتلازم الحكم والأسرار المودعة في تشريعها بحيث إذا أردتَ الميل إلى جنابه والتوجه نحو بابه لا بد لك أولاً من التوضؤ والتطهير عن الخبائث الظاهرة والباطنة كلها، والتخلي عن اللذات والشهوات برمتها إلى حيث تيسر لك التحريمة بلا وسوسة شياطين الأهواء المضلة.

متشعبة عنها داخلة تحتها فأخبر مرة بالأصول وأخرى بها وما تفرع عنها) الحكيم (الترمذي) ع هب (من حديث عبد الواحد بن زيد عن عبد الله بن راشد مولى عثمان) عن عثمان بن عفان (ثم قال عن البيهقي: هكذا رواه عبد الواحد بن زيد البصري الزاهد وليس بقوي في الحديث وقد خولف في إسناده ومتنه. أ هـ.

ولما عزاه الهيثمي إلى أبي يعلى قال فيه عبد الله بن راشد: ضعيف. أهـ.

وقال في اللسان: قال ابن عبد البر عبد الواحد بن زيد الزاهد أجمعوا على تركه، وقال ابن حيان يقلب الأخبار من سوء حفظه وكثرة وهمه فاستحق الترك. أهـ. وعبد الله بن راشد ضعفوه وبه أعل الهيثمي الخبر كما تقرر لكنه عصب الجناية برأسه وحده فلم يصب. أ هـ. أنظر فيض القدير [٢/ ٤٨٢].

(١)رواه الفخر الرازي في التفسير الكبير [١/ ٢١٤ سورة الفاتحة] والألوسي في روح المعاني [١/ ٨٩ سورة الفاتحة] وعلي القاري في مرقاة المفاتيح [١/ ١١٣ الفصل الثاني].

(٢) حديث متفق عليه من رواية عُبَادَةَ بن الصَّامِتِ رضي الله عنه، أَنَّ رَسُولَ اللهِ قال: «لَا صَلَاةَ لِمَنْ لم يَقْرَأْ بِفَاتِحَةِ الْكِتَابِ» صحيح البخاري [١/ ٢٦٣ رقم /٧٢٣/ باب: وجوب القراءة للإمام والمأموم]. وصحيح مسلم [١/ ٢٩٥ رقم/ ٣٩٤/ باب: وجوب قراءة الفاتحة في كل ركعة] وغيرهم، وللحديث طرق وشواهد كثيرة.

فإذا قلت مكبراً محرِّماً على نفسك جميع حظوظك من دنياك:

الله أكبر لابد لك أن تلاحظ معناه، بأنه الذات الأعظم الأكبر في ذاته لا بالنسبة إلى الغير إذ لا غير، وافعل هذا للصفة لا للتفضيل، وتجعلها نصب عينيك وعين مطلبك ومقصدك.

وإذا قلت متيمناً متبركاً: بسم الله ، انبعثت رغبتك إليه ومحبتك له.

وإذا قلت: الرحمن، استنشقته من النفس الرحماني ما يعينك على الترقي[1] نحو جنابه.

وإذا قلت: الرحيم، استروحت بنفحات لطفه ونسمات رحمته، وجئت بمقام الاستئناس معه سبحانه بتعديد نعمه على نفسك.

وإذا قلت شاكراً لنعمه: الحمد لله، توسلت بشكر نعمه إليه.

وإذا قلت: رب العالمين، تحققت بإحاطته وشموله وتربيته على جميع الأكوان.

وإذا قلت: الرحمن، رجوت من سعة رحمته وعموم إشفاقه ومرحمته.

وإذا قلت: الرحيم، نجوت من العذاب الأليم الذي هو الالتفات إلى غير الحق، ووصلت إليه بعدما فصلت عنه بل اتصلت.

وإذا قلت: مالك يوم الدين، قطعت سلسلة الأسباب مطلقاً وتحققتَ بمقام الكشف والشهود، وحين ظهر لك ما ظهر، فَلَكَ أن تقول في تلك المقام والحالة بلسان الجمع:

---

(١) في المخطوط (التقي).

إياك نعبد، بك مخاطبين لك وإياك نستعين بإعانتك مستعينين منك.

وإذا قلت: اهدنا الصراط المستقيم، تحققت بمقام العبودية.

وإذا قلت: صراط الذين أنعمت عليهم، تحققتَ بمقام الجمع.

وإذا قلت: غير المغضوب عليهم، استوحشت من سطوة سلطنة صفاته الجلالية.

وإذا قلت: ولا الضالين، خفت من الرجوع بعد الوصول.

وإذا قلت: آمين، أمنت من الشيطان الرجيم.

فلك أن تصلي على الوجه الذي تلي، حتى تكون لك صلاتك معراجاً إلى ذروة الذات الأحدية ومرقاةً إلى السماء السرمدية ومفتاحاً للخزائن الأزلية الأبدية، وذلك لا يتيسر إلا بعد الموت الإرادي من مقتضيات الأوصاف البشرية، والتخلق بالأخلاق المرضية والخصال السنية، ولا يحصل لك هذا الميل إلا بعد العزلة والفرار عن الناس المنهمكين في الغفلة، والانقطاع عنهم، وعن وسوستهم وعاداتهم المرة، وإلا فالطبيعة سارقة والأمراض ساريةٌ والنفوس آمرةٌ بالهوى، مائلةٌ عن المولى، عصمنا الله من شرورها وخلَّصنا من غرورها بمنِّه وجوده.

فاتحة سورة البقرة

لا يخفى على السالكين المندرجين في مسالك التحقيق المتعطّشين لزلال التوحيد، أن الطريق إلى الله بعدد أنفاس الخلائق، إذ ما من ذرةٍ من ذرائر العالم إلا وله طريقٌ منها.

وأقوم الطرق وأحسنها وأوضح السبل وأبينها والذي اختاره الله سبحانه لنبيه ﷺ ولورثته من الأولياء زاد الله فتوحهم في كتابه المسور بالسور المفصلة بالآيات، المنقسمة بالمحكمات والمتشابهات، المشتملة كل سورةٍ منها على أحكام الشريعة وآداب الطريقة وأسرار الحقيقة، فلا بد للخائض في لجج بحار القرآن، والغائص فيها لاستخراج فرائد اليقين والعرفان، أن يتأمل كل سورةٍ منها على وجهٍ ينكشف له ما فيه من الأسرار بقدر استعداده وقابليته، وإلا فغوره بعيد وقعره عميق.

منها: سورة البقرة المشتملة أوائلها على الأحكام الشرعية المهذبة للظاهر عن الرذائل الرديئة والخصائل الغير المرضية، وأواسطها على آداب الطريقة من الخصائل الحميدة والأخلاق المرضية المصفية للباطن عن الكدورات البشرية، وأواخرها على التوحيد الذاتي الخالص عن شوب الكثرة وشين الثنوية، وإنما خُصّ[1] ﷺ بأواخر هذه السورة، لأنه ﷺ هو المظهر للتوحيد الذاتي، بخلاف الأنبياء السالفة صلوات الله عليهم فإنهم لا يظهرون.

لذلك ختم ببعثته ﷺ أمر النبوة والرسالة وانسدّ طريق الوحي والإنزال، ثم لما أراد سبحانه إرشاد عباده إلى سبيل الهدى وإبعادهم عن طريق الضلال، أنزل عليهم هذه السورة الجامعة لها، فقال متيمناً متبركاً على وجه التعليم مخاطباً لنبيه المبعوث على الخلق العظيم:

(١) في المخطوط (خُصّ الله عليه وسلم).

سورة البقرة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ ....

﴿بِسْمِ اللَّهِ﴾ المتوحد المتفرد المستغني بذاته عن جميع الأكوان المتلبس بواسطة أسمائه وصفاته ملابس الحدوث والإمكان ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ لعباده الذين هم مظاهر أسمائه وصفاته ، برش نوره عليهم ومدّ ظله إليهم في معاشهم ﴿ٱلرَّحِيمِ﴾ لهم في معادهم ينجيهم عن ظلمة الإمكان المعبر بلسان الشرع بالسعير والجحيم ويهديهم إلى روضة الرضا وجنة التسليم.

﴿الٓمٓ ۝١﴾ أيها الإنسان الكامل اللائق لخلافتنا الملازم لاستكشاف أسرار ربوبيتنا كيفية بركات هويتنا الذاتية السارية على صفائح المكونات المنتزعة عنها والمأخوذة منها.

﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ﴾ الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه المبتعد درجةُ كماله عن إفهام الجامع مراتبِ الأسماء والصفات في عالم الغيب والشهادة، المنزل على مرتبتك يا أكمل الرسل، الجامعة لجميع مراتب الكائنات من الأزل إلى الأبد بحيث لا يشذ عنها مرتبةٌ أصلاً ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ بأنه منزلٌ من عندنا لفظاً ومعنىً.

هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ ....

أما لفظاً، فلعجز جماهير البلغاء ومشاهير الفصحاء عن معارضة أقصر آيةٍ منه مع وفور دواعيهم.

وأما معنىً، فلاشتماله على جميع أحواله الحقائق العينية والأسرار الغيبية مما كان وسيكون في النشأتيْن، ولا يتيسر الاطلاع عليها والإتيان بها على هذا النمط البديع إلا لمن هو علام الغيوب.

وإنما أنزلناه إليك أيها اللائق لأمر الرسالة والنيابة، لتهتدي به أنت إلى بحر الحقيقة وتهدي به أيضاً من تبعك من التائهين في بيداء الضلالة إذ فيه ﴿هُدًى﴾ عظيمٌ ﴿لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٢﴾﴾ الذين يحفظون بامتثال أوامره واجتناب نواهيه نفوسَهم عن خبائث المعاصي المانعة من الطهارة الحقيقية والوصول إلى المرتبة الأصلية.

و﴿ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ﴾ يوقنون ويذعنون بأسراره ومعارفه ﴿بِٱلْغَيْبِ﴾ أي غيب الهوية الذي هو ينبوع بحر الحقيقة وإليه منتهى الكلم، وبعد ذلك يتوجهون بمقتضيات أحكامه نحوه ويهدون إليه بسببه ﴿وَيُقِيمُونَ﴾ يديمون ﴿ٱلصَّلَوٰةَ﴾ الميل بجميع الأعضاء والجوارح على وجه الخضوع والتذلل إلى جنابه، إذ هو المقصِد للكل إجمالاً وتفصيلاً، ولكل عضوٍ وجارحةٍ تذللٌ خاصٌ وله طريقٌ مخصوصٌ يناسبه، يرشدك إلى تفاصيل الطرق فعلُه ﷺ في صلاته على الوجه الذي وصل إلينا من الرواة المجتهدين رضوان الله عليهم أجمعين، ولما تنبهوا له به بمتابعته[1] ومالوا نحو جنابه بالميل الحقيقي بالكلية لم يبق لهم ميلٌ إلى ما

(١) في المخطوط (وبمتابعتك).

وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾ أُولَٰئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٥﴾ ....

سواه من المزخرفات الفانية لذلك ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ﴾ سقنا إليهم ليكون بقياً لحياتهم ومقوماً لمزاجهم ﴿يُنفِقُونَ ﴿٣﴾﴾ في سبيلنا طلباً لمرضاتنا وهرباً عما يشغلهم عنا، فكيف إنفاق الفواضل[1]؟

﴿وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ﴾ ينقادون ويمتثلون ﴿بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾ من الكتاب الجامع أسرارَ جميع ما أُنزل من الكتب السالفة على الوجه الأحسن الأبلغ ومن السنن، ومن الأخلاق الملهمة إليك ﴿وَ﴾ مع ذلك صريحاً يعتقدون ﴿مَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ﴾ من الكتب المنزلة على الأنبياء الماضين مع الإيمان بجميع الكتب المنزلة وإن كان كل كتاب متضمناً للإيمان بالنشأة الآخرة بل هو المقصود الأصلي من جميعها ﴿وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾﴾ أفردها بالذكر، اهتماماً بشأنها لكثرة المرتابين فيها.

﴿أُولَٰئِكَ﴾ أي جزاء أولئك. المؤمنون المعتقدون بجميع الكتب المنزلة على الرسل والمؤمنون المذعنون بالنشأة الآخرة بل خاصةً أنهم ﴿عَلَىٰ هُدًى﴾ عظيم ﴿مِّن رَّبِّهِمْ﴾ الذي رباهم بأنواع اللطف والكرم إلى أن يبلغوا إلى هذه المرتَبة التي هي الاهتداء إلى جناب قدسه، ﴿وَ﴾ مع ذلك الجزاء العظيم والنفع الجسيم ﴿أُولَٰئِكَ﴾ السعداء ﴿هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٥﴾﴾ الفائزون الناجون عن مضائق الإمكان، الواصلون إلى فضاء الوجوب. رزقنا الله الوصول إليه.

---

(١) في المخطوط (الفواضل مني).

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ سَوَآءٌ عَلَيۡهِمۡ ءَأَنذَرۡتَهُمۡ أَمۡ لَمۡ تُنذِرۡهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ۝٦ خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ وَعَلَىٰ سَمۡعِهِمۡۖ وَعَلَىٰٓ أَبۡصَٰرِهِمۡ غِشَٰوَةٞۖ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ۝٧ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَمَا هُم بِمُؤۡمِنِينَ ۝٨﴾

ثم قال سبحانه[1] جرياً بل على مقتضى سنته من[2] تعقيب الوعد بالوعيد:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ ستروا الحق وأعرضوا عنه وأظهروا الباطل وأصروا عليه عناداً واستكباراً، لا ينفعهم إنذارك وعدمه بل ﴿سَوَآءٌ عَلَيۡهِمۡ ءَأَنذَرۡتَهُمۡ أَمۡ لَمۡ تُنذِرۡهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ۝٦﴾ بك وبكتابك لأنهم هم؟

﴿خَتَمَ ٱللَّهُ﴾ المحيط بذواتهم وأوصافهم وأفعالهم ﴿عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ﴾ لئلا يكونوا من أرباب المكاشفات ﴿وَعَلَىٰ سَمۡعِهِمۡۖ﴾ لئلا يكونوا من أصحاب المجاهدة ﴿وَعَلَىٰٓ أَبۡصَٰرِهِمۡ﴾ لئلا يكونوا من أرباب المشاهدة ﴿غِشَٰوَةٞۖ﴾ سترٌ عظيم لا يمكنك رفعها بل ﴿وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ۝٧﴾ هو عذاب الطرد والبعد إذ لا عذاب أعظم منه، أولئك الأشقياء البعداء عن ساحة الحضور، هم الضالون في تِيهِ الحرمان، الباقون في ظلمة الإمكان.

أعاذنا الله من ذلك.

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ﴾ الذين نسوا العهود السابقة التي عهدوا في الفطرة الأصلية ﴿مَن يَقُولُ﴾ قولاً لا يوافق اعتقادهم، وهو أنهم يقولون تلبيساً ونفاقاً: ﴿ءَامَنَّا﴾ أذعنَّا ﴿بِٱللَّهِ﴾ أي الذي أنزل علينا الكتاب وإنك الرسول ﴿وَ﴾ وأيقنَّا ﴿بِٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ﴾ الموعود بجزاء الأعمال ﴿وَ﴾ الحال أنهم ﴿مَا هُم بِمُؤۡمِنِينَ ۝٨﴾

---

(١) في المخطوط (سبحانه جرى على).

(٢) في المخطوط (على مقتضى من تعقيب).

يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَمَا يَخۡدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمۡ وَمَا يَشۡعُرُونَ ﴿٩﴾ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضٗاۖ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمُۢ بِمَا كَانُواْ يَكۡذِبُونَ ﴿١٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمۡ لَا تُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ قَالُوٓاْ إِنَّمَا نَحۡنُ مُصۡلِحُونَ ﴿١١﴾

موقنين بهما في بواطنهم، بل غرضهم من هذا التلبيس في زعمهم الفاسد أنهم:

﴿يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ﴾ المحيطَ بجميع أحوالهم مخادعتهم مع آحاد الناس، تعالى عن ذلك ﴿وَ﴾ يخادعون الموحدين ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ بإحاطة الله بتوفيقه وإلهامه حفظاً لدمائهم وأموالهم منهم ﴿وَ﴾ هم ﴿مَا يَخۡدَعُونَ﴾ بهذا الخداع ﴿إِلَّآ أَنفُسَهُمۡ﴾ لأن الله ومن هو في حمايته أجلّ من أن ينخدع منهم، فهم بهذا الخداع ما يخدعون إلا أنفسهم ﴿وَمَا يَشۡعُرُونَ ﴿٩﴾﴾ بخداعهم لأن:

﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ﴾ غطاءٌ مختومٌ على قلوبهم لا ينكشف إلا بكتاب الله المنزل على رسوله ﷺ، ولَمَّا لم يؤمنوا به ولم يلتفتوا إليه بل كذبوا رسوله المنزل عليه ﴿فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضٗا﴾ إحكاماً لختمه وتأكيداً لحكمه ﴿وَلَهُمۡ﴾ في يوم الجزاء ﴿عَذَابٌ﴾ هو إبعادهم وطردهم عن ساحة عز الحضور ﴿أَلِيمُۢ﴾ مؤلمٌ بسبب تقريب المؤمنين إلى دار السرور جزاءً ﴿بِمَا كَانُواْ يَكۡذِبُونَ ﴿١٠﴾﴾ ويقولون بأفواههم ما ليس في قلوبهم خداعاً.

﴿وَ﴾ مع ظهور حالهم وخداعهم عند الله وعند المؤمنين ﴿إِذَا قِيلَ لَهُمۡ﴾ إمحاضاً للنصح: ﴿لَا تُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ بتكذيب كتاب الله ورسوله المنزل عليه حتى لا يخرجوا من مرتبة الخلافة، لأن خلافة البشر إنما هي بالتوحيد وإسقاط الإضافات، والتوحيدُ إنما يحصل بالله وبكتابه ورسوله ﴿قَالُوٓاْ﴾ في الجواب على سبيل الحصر: ﴿إِنَّمَا نَحۡنُ مُصۡلِحُونَ ﴿١١﴾﴾ لا نتجاوز من

أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْمُفْسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ ﴿١٢﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا۟ كَمَآ ءَامَنَ ٱلنَّاسُ قَالُوٓا۟ أَنُؤْمِنُ كَمَآ ءَامَنَ ٱلسُّفَهَآءُ ۗ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلسُّفَهَآءُ وَلَٰكِن لَّا يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾ وَإِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ....

الصلاح أصلاً تتميماً لخداعهم الفاسد وترويجاً له على المؤمنين وتلبيساً.

﴿أَلَآ﴾ أيها المؤمنون الموقنون بكتاب الله المصدقون لرسوله ﴿إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْمُفْسِدُونَ﴾ المقصورون على الفساد لا يُرجى صلاحهم أصلاً، لكونهم مجبولين على الفساد ﴿وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ ﴿١٢﴾﴾ بمشاعرهم لغشاوة قلوبهم وأبصارهم وأسماعهم.

﴿وَ﴾ إذا لطف معهم ونصح كما هو دأب الأنبياء والمرسلين و﴿إِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا۟﴾ بالله وبكتابه ورسوله ﴿كَمَآ ءَامَنَ ٱلنَّاسُ﴾ الذين نسوا مزخرفات آبائهم بالإيمان بالله وبكتابه ورسوله وفازوا في الدارين فوزاً عظيماً بسبب الإيمان، ﴿قَالُوٓا۟﴾ في الجواب توبيخاً وتقريعاً: ﴿أَنُؤْمِنُ﴾ بهذا الرجل الحقير الساقط، وبهذه الأساطير الكاذبة، ونترك دين آبائنا ﴿كَمَآ ءَامَنَ ٱلسُّفَهَآءُ ۗ﴾ التاركون دين آبائهم لغرور هذا المدعي المفتري ﴿أَلَآ﴾ أيها المبعوث لإهداء المضلين المجبولين على الهداية في أصل فطرتهم ﴿إِنَّهُمْ هُمُ ٱلسُّفَهَآءُ﴾ المجبولون على الغواية في بدء الفطرة لا يمكنك هدايتهم أصلاً، لعدم قابليتهم واستعدادهم للإيمان ﴿وَ﴾ إن ظنوا في زعمهم من العقلاء ﴿لَٰكِن لَّا يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾﴾ أصلاً لتركب جهلهم المركوز في جبلتهم فيسلب قابليتهم للإيمان.

﴿وَ﴾ علامة نفاق هؤلاء المضلين وخداعهم أنهم ﴿إِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾

﴿قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوۡاْ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمۡ قَالُوٓاْ إِنَّا مَعَكُمۡ إِنَّمَا نَحۡنُ مُسۡتَهۡزِءُونَ ١٤﴾ ....

بالله وكتابه ورسوله ﴿قَالُوٓاْ﴾ على طريق الإخبار عن الأمور المحققة ترويجاً وتغريراً على المؤمنين ﴿ءَامَنَّا﴾ بالجملة الفعلية الماضية[1] بلا مبالغةٍ وتأكيدٍ لحكمهم سفاهة المؤمنين، بأن السفيه يقبل الأخبار بلا تأكيدٍ لعدم تفطنه على إنكار المتكلم، فنزلوهم ـ وإن كان من حقهم الإنكار حقيقة ـ منزلة خالي الذهن لسفاهتهم ﴿وَإِذَا خَلَوۡاْ﴾ نفوا خالين ﴿إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمۡ﴾ أي مع أصحابهم المستمرين على الكفر الظاهرين بالمخالفة بلا خداع ولا نفاق كالشيطان المصرِّ على الضلال المستمر على الإضلال ﴿قَالُوٓاْ﴾ على طريق المبالغة والتأكيد قلعاً لما اعتقدوا من ظاهر حالهم ومقالهم وموافقتهم مع المؤمنين سراً وجهراً وتحقيقاً لمؤاخاتهم معهم ﴿إِنَّا﴾ وإن كنا في الظاهر مداهنين معهم لمصلحة دنيوية، متفقون ﴿مَعَكُمۡ﴾ لفائدةٍ دينيةٍ، أتوا بالجملة الاسمية المصدرة بأن تحقيقاً واهتماماً وقولُنا: آمنا، استهزاءٌ منا إياهم لا تصديق لمدعاهم، وبالجملة ما نحن مؤمنون بمجرد هذا القول بل ﴿إِنَّمَا نَحۡنُ مُسۡتَهۡزِءُونَ ١٤﴾ مستخفون تجهيلاً وتسفيهاً واعتذاراً على مجرد القول الكاذب الغير المطابق للاعتقاد والواقع، وهم في غاية انهماكهم في الغي والضلال وهم مقرون جازمون بأنهم يستهزئون، بل هم في الحقيقة مستهزئون إذ:

---

(١) في المخطوط (الماضوية).

ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١٥﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُاْ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَٰرَتُهُمْ وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ ﴿١٦﴾ مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّآ أَضَآءَتْ مَا حَوْلَهُۥ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ ....

﴿ ٱللَّهُ ﴾ المحيط بجميع مخايلهم الباطلة وأفكارهم الفاسدة ﴿يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ﴾ في كل لحظة وطرفةٍ آناً فآناً ﴿وَ﴾ لم يشعر بهم باستهزائه بل ﴿يَمُدُّهُمْ﴾ يمهلهم ويسوفهم ﴿ فِي طُغْيَٰنِهِمْ﴾ المتجاوز عن الحد في الضلالة بتلبيس الأمر على الله وعلى المؤمنين ﴿ يَعْمَهُونَ ﴿١٥﴾﴾ يترددون إقداماً وإحجاماً.

﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ﴾ البعداء عن طريق الهداية هم ﴿ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُاْ﴾ استبدلوا واختاروا ﴿ٱلضَّلَٰلَةَ ﴾ المعززة في نفوسهم بتقليد آبائهم ﴿بِٱلْهُدَىٰ﴾ المتفرعة على الإيمان بالله وبرسوله ﴿فَمَا رَبِحَت﴾ بهذا الاستبدال والاختيار ﴿تِّجَٰرَتُهُمْ﴾ أي ما يتجرون به ﴿وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ ﴿١٦﴾﴾ رابحين بسبب هذا الاستبدال وخاسرين ضالين به.

أو يقال: فما يتم الربح ﴿تِّجَٰرَتُهُمْ﴾ اتجارهم ﴿وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ﴾، بسبب هذا الاتجار بل.

﴿ مَثَلُهُمْ ﴾ أي شأنهم وحالهم بهذا الاستبدال والاختبار في يوم الجزاء ﴿ كَمَثَلِ ﴾ كحال الشخص ﴿ٱلَّذِى ﴾ طلب شيئاً في الظلمة وترقبه ولم يهتد إليه و﴿ٱسْتَوْقَدَ نَارًا ﴾ ليستضيء بها وفاز بمبتغاه ﴿فَلَمَّآ ﴾ استوقده ﴿أَضَآءَتْ ﴾ النار ﴿مَا حَوْلَهُۥ﴾ أي حول المستوقد وترقب وجدان مطلوبه ﴿ذَهَبَ ﴾ ضوءها وسكن لهبها فضلّ عن مطلوبه وخسر خسراناً عظيماً كما ذهب ﴿ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ ﴾ أطفأ الله

﴿وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَٰتٍ لَّا يُبْصِرُونَ ۝١٧ صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ۝١٨ أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فِيهِ ظُلُمَٰتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِم مِّنَ ٱلصَّوَٰعِقِ﴾

نيران المنافقين وسُرجهم التي هي كفرهم ونفاقهم على زعمهم وأفسد إضاءتهم في يوم الجزاء حين ترقبهم بوجدان مطالبهم ولم يهتدوا بها بل عذبهم الله بسببها ﴿وَتَرَكَهُمْ﴾ لأجلها ﴿فِي ظُلُمَٰتٍ﴾ ظلمة الضلالة المتقررة الراسخة في نفوسهم بتقليد آبائهم المنتجة للكفر والنفاق، وظلمة فقدان المطلوب المترتب عليها في زعمهم مع ترقبهم، والظلمة العارضة لهم بعد استضاءتهم وبسبب هذه الظلمات ﴿لَّا يُبْصِرُونَ ۝١٧﴾ ولا يرجى نجاتهم عن عذاب الله بل يبقون فيه أبداً وهم:

﴿صُمٌّۢ﴾ لعدم إصغائهم لقول الحق عن ألسنة الرسل صلوات الله عليهم ﴿بُكْمٌ﴾ لعدم قولهم بالإيمان المقارن بالتصديق ﴿عُمْىٌ﴾ لعدم التفاتهم إلى الدلائل الظاهرة والمعجزات الباهرة وبالجملة ﴿فَهُمْ﴾ في هذه الحالة ﴿لَا يَرْجِعُونَ ۝١٨﴾ ولا يطمعون الرجوع إلى الهداية لتذكيرهم الإفراط والتفريط الذي صدر عنهم في النشأة الأولى المستتبع لهذا العذاب.

﴿أَوْ﴾ مثلهم في هذا الاستبدال والاتِّجار ﴿كَصَيِّبٍ﴾ نازل ﴿مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فِيهِ ظُلُمَٰتٌ﴾ متواليةٌ متتاليةٌ بعضها فوق بعض، شدةً وضعفاً بحسب تخلْخُل السحب وتكاثفها ﴿وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ﴾ بسبب الأدْخنة والأبخرة المحتبسة فيه، متى أبصرها الناس وسمعوا أصوات بروقه ورعوده ﴿يَجْعَلُونَ أَصَٰبِعَهُمْ﴾ أنامل أصابعهم ﴿فِىٓ ءَاذَانِهِم﴾ خوفاً ﴿مِّنَ ٱلصَّوَٰعِقِ﴾ النازلة منها المهلكة غالباً لمن أصاب بها[1]، وإنما يفعلون ذلك

(١) في المخطوط (لمن أصاب به).

حَذَرَ ٱلْمَوْتِۚ وَٱللَّهُ مُحِيطُۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٩﴾ يَكَادُ ٱلْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَٰرَهُمْۖ كُلَّمَآ أَضَآءَ لَهُم مَّشَوْاْ فِيهِ وَإِذَآ أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُواْۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَٰرِهِمْۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٖ قَدِيرٞ ﴿٢٠﴾ ....

﴿حَذَرَ ٱلْمَوْتِ﴾ أي حذر أن يموتوا من إصابتها، يعني أنهم لما شبهوا في نفوسهم دين الإسلام بالصيب المذكور في ظهوره من غير ترقبٍ واشتمالٍ في زعمهم على ظلمات التكاليف المتفاوتة المتنوعة ورعود الوعيدات الهائلة وبروق الأحكام الخاطفة، وجبَ عليهم الاحتراز عن غوائله، فمالوا عنه وأعرضوا وجعلوا أصابع عقولهم في آذان قبولهم خوفاً من الصواعق النازلة المصفية المفنية ذواتهم في ذات الله حذَرَ الموت الإرادي، وهم بسبب هذا الميل والإعراض يعتقدون أنهم خلصوا عن الفناء في ذاته ﴿وَ﴾ لم يعلموا أنهم مستهلكون فيها إذ ﴿ٱللَّهُ﴾ المتجلي في ذاته لذاته ﴿مُحِيطُۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٩﴾﴾ الساترين بذواتهم في زعمهم الفاسد ذات الله، غافلين عن تجلياته وكيف يغفلون عنها.

﴿يَكَادُ ٱلْبَرْقُ﴾ أي برق التجلي اللطفي ﴿يَخْطَفُ﴾ يعمي ﴿أَبْصَٰرَهُمْۖ﴾ التي يرون بها أنفسهم ذوات موجودات فاضلات به ﴿كُلَّمَآ أَضَآءَ﴾ وأشرق ﴿لَهُم﴾ التجلي اللطفي ﴿مَّشَوْاْ﴾ ساروا ﴿فِيهِ﴾ باقين ببقائه ﴿وَإِذَآ أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ﴾ بالتجلي القهري ﴿قَامُواْۚ﴾ سكنوا على ما هم عليه من عدم الصرف ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ﴾ التجلي عليهم بالقهر دائماً ﴿لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَٰرِهِمْۚ﴾ أي بتعيناتهم التي ظنوا أنهم موجودات حقيقية بسببها وصيرهم فانين معدومين لا وجود لهم أصلاً، كما هم عليه دائماً، قل لهم يا أكمل الرسل بلسان الجمع ﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾ المتجلي بالتجلي اللطفي ﴿عَلَىٰ﴾ إبقاء ﴿كُلِّ شَيْءٖ قَدِيرٞ ﴿٢٠﴾﴾

يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ فِرَٰشٗا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءٗ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَخۡرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزۡقٗا لَّكُمۡۖ........

على إفنائه بالتجلي القهري، إذ لا يجري في ملكه إلا ما يشاء، ثم نبَّه تعالى على كيفية رجوعهم إليه، وتنبهُهِم على تجلياته، فناداهم إشفاقاً لهم وامتناناً عليهم ليقبلوا إليه فقال:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ الذين نسوا حقوق الله بمتابعة آبائكم ﴿ ٱعۡبُدُواْ﴾ تذلَّلوا وتفزَّعوا وانقادوا ﴿رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ﴾ أخرجَكم وأظهَركم من كتم العدم بإشراق تجلياته اللطفية إلى فضاء الوجود ﴿وَ﴾ أيضاً أخرج آباءكم ﴿ ٱلَّذِينَ﴾ مضوا ﴿مِن قَبۡلِكُمۡ﴾ إن عبدتم كما ذكر ﴿ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾﴾ تحذرون من تجلياته القهرية فهو في بدء الوجود في المعاني اعبدوا ربكم:

﴿ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ فِرَٰشٗا﴾ مبسوطاً لتستقروا عليها وتسترزقوا منها[١] ﴿ وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءٗ﴾ مرفوعاً لترتقي[٢] الأبخرة والأدخنة المتصاعدة إليها وتتراكم السحب فيها ﴿وَ﴾ بعد وجود هذه الأسباب ﴿أَنزَلَ﴾ بمحض فضله وفيضه ﴿ مِنَ﴾ جانب ﴿ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ﴾ منبتاً لكم الزروع والأثمار المقومة لمزاجكم وإذا أنزل ﴿فَأَخۡرَجَ بِهِۦ﴾ سبحانه أي بسبب الماء ﴿مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزۡقٗا لَّكُمۡۖ﴾ أي أخرج رزقاً لكم من الثمرات والطعوم لتعيشوا بها وتقدروا إلى التوجه إلى توحيده وتفريده الذي هو غاية إيجادكم وخلقكم وما يترتب على وجودكم وإذا كان

(١) في المخطوط (تستقرا عليها وتسترزقوا منها).

(٢) في المخطوط (ليرتقي).

﴿فَلَا تَجْعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٢﴾ وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُواْ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ وَادْعُواْ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ ......﴾

كذلك ﴿فَلَا تَجْعَلُواْ﴾ أيها المنعمون بانتزاع النعم ﴿لِلَّهِ﴾ الواحد القهار لجميع الأغيار ﴿أَندَادًا﴾ أمثالاً في استحقاق العبادة والإيجاد والتكوين والترزيق والإنبات والإضاء وغير ذلك مما يتعلق بالألوهية ﴿وَأَنتُمْ﴾ إن وصلتم إلى مرتبة التوحيد الذي ﴿تَعْلَمُونَ ﴿٢٢﴾﴾ أن سلسلة الأسباب منتهية إليه سبحانه ولا موجود إلا هو، بل لا موجود إلا هو ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ﴾ [٦- الأنعام: ٥٩] والتحقيق بهذا المقام والوصول إلى هذا المرام لا يحصل إلا بعد التخلق بأخلاق الله والتخلق بأخلاقه لا يتيسر إلا بمتابعة المتخلق الكامل وأكمل المتخلقين نبينا ﷺ والمتخلق بخلقه ﷺ إنما يكون بالكتاب الجامع لجميع أخلاق الله المنزل على مرتبته الجامع جميع مراتب المظان ـ وفي نسخة أخرى (المظاهر) ـ.

﴿وَإِن كُنتُمْ﴾ أيها المحجوبون بالأديان الباطلة ﴿فِي رَيْبٍ﴾ شكٍ وارتيابٍ ﴿مِّمَّا نَزَّلْنَا﴾ من مقام كمال ترتيبنا وإرشادنا ﴿عَلَىٰ عَبْدِنَا﴾ الذي هو خليفتنا ومرآنا ومظهر جميع أوصافنا وحامل وحينا المنزل عليه المشتمل على جميع الأخلاق الإلهية ﴿فَأْتُواْ بِسُورَةٍ﴾ جملة قصيرة ﴿مِّن مِّثْلِهِۦ﴾ إذ[1] من خواص هذا الكتاب أن مجموعه مشتملٌ على جميع الأخلاق الإلهية وكل سورةٍ منها تشتمل على ما اشتمل عليه المجموع تأمل.

﴿وَ﴾ إن عجزتم أنتم عن إتيانه ﴿ادْعُواْ شُهَدَآءَكُم﴾ حضراءكم التي أنتم تشهدون بإلوهيتهم وترجعون في الخطوب إليها ﴿مِّن دُونِ اللَّهِ﴾ المحيط

(١) في المخطوط (تنبيه).

﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا۟ وَلَن تَفْعَلُوا۟ فَٱتَّقُوا۟ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ ۖ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٤﴾ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ كُلَّمَا رُزِقُوا۟ مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا ۙ ..... ﴾

بكم وبها، فأمروهم بإتيان كل سورةٍ جامعةٍ جميعَ أوصاف المعبود بالحق ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٣﴾﴾ أنهم آلهة غير الله، سبحان الله وتعالى عما يقولون.

﴿فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا۟﴾ فإن لم تفعلوا الإتيان أنتم في حين التحدي والمعارضة ﴿وَلَن تَفْعَلُوا۟﴾ أيضاً بعدما رجعتم إليها فلا تكابروا ولا تنازعوا بل انقادوا وامتثلوا بأوامر الكتاب المنزل على عبدنا واجتنبوا عن نواهيه ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى﴾ أخبر فيه بأنه ﴿وَقُودُهَا﴾ أي ما يتقد به النار ﴿ٱلنَّاسُ﴾ الذين يعبدون غير الله ﴿وَٱلْحِجَارَةُ﴾ التي هي معبوداتهم التي نحتوها بأيديهم وما ﴿أُعِدَّتْ﴾ هذه النار إلا ﴿لِلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٤﴾﴾ الجاهلين طريق توحيد الحق والمكذبين كتاب الله ورسوله المنزل عليه.

﴿وَبَشِّرِ﴾ المؤمنين الموقنين الموحدين ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ بالكتاب المنزل على عبدنا ﴿وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ المؤمنون فيه واجتنوا عن الفاسدات المنهية عنها ﴿أَنَّ﴾ أي حق وثبت ﴿لَهُمْ﴾ بعد رفع القيود ﴿جَنَّٰتٍ﴾ متنزهاتٍ من العلم والعين والحق التي هي المعارف الكلية المخلصة عن جميع القيود المنافية للتوحيد ﴿تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ أنهار المعارف الجزئية المترتبة على تلك المعارف الكلية ﴿كُلَّمَا رُزِقُوا۟﴾ حظوا منها أي من تلك المعارف الكلية ﴿مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ﴾ حاصلةٍ من شجرة اليقين ﴿رِّزْقًا﴾ حظاً كاملاً يخلصهم من

قَالُواْ هَٰذَا ٱلَّذِى رُزِقْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَأُتُواْ بِهِۦ مُتَشَٰبِهًا ۖ وَلَهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ ۖ وَهُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٥﴾ ....

رتبة الإمكان ﴿قَالُواْ﴾ متذكرين العهود السابقة: ﴿هَٰذَا ٱلَّذِى رُزِقْنَا مِن قَبْلُ ۖ﴾ من الأعيان الثابتة، أو في عالم الأسماء والصفات أو في اللوح المحفوظ أو في عالم الأرواح إلى غير ذلك من العبارات، ومن غايات التذاذهم ونهاية شوقهم والتذاذهم بالثمرة المحظوظ بها ﴿وَأُتُواْ بِهِۦ﴾ متماثلاً ﴿مُتَشَٰبِهًا ۖ﴾ متجدداً بتجدد الأمثال ﴿وَلَهُمْ فِيهَآ﴾ في تلك المرتبة الكلية ﴿أَزْوَٰجٌ﴾ أعمالٌ صالحةٌ ونياتٌ خالصةٌ ﴿مُّطَهَّرَةٌ ۖ﴾ عن شوائب الأغيار المانعة عن الوصول إلى دار القرار ﴿وَهُمْ فِيهَا﴾ في تلك المراتب ﴿خَٰلِدُونَ ﴿٢٥﴾﴾ دائمون بدوامه، باقون ببقائه، مستغرقون بمشاهدة لقائه سبحانه.

ارزقنا بلطفك حلاوة التحقيق وبرد اليقين.

ثم لما طعن الكفار في غاية استكبارهم وعتوهم ونهاية استعظامهم نفوسهم واعتقادهم الأصالة في الوجود والاستقلال بالآثار المترتبة عليه الصادرة منهم ظاهراً على الكتاب والرسول المنزل عليه قائلين بأن ما جئت به وسميتَه وحياً نازلاً إليك من عند الله الحكيم، لا يدل على كلام من يُعتد به ويُعتمد عليه فضلاً عن أن يدل على أنه كلام الحكيم المتصف بجميع أوصاف الكمال المستحق للعبادة؛ لأن ما مثَّل به فيه هي الأشياء الخسيسة الخبيثة والضعيفة الحقيرة، مثل الكلب والحمار والذباب والنمل والنحل والعنكبوت وغيرها، والكلام المشتمل على أمثال هذه الأمثال لا يصدر من الكبير المتعال؟! رد الله عليهم وروّج أمر نبيه صلوات الله عليه فقال:

۞ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسْتَحْيِۦٓ أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۖ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَيَقُولُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا ....

﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ﴾ المستجمع لجميع الأوصاف والأسماء المقتضية لظواهر الكائنات المرتبة لمراتب الموجودات الظاهر على جميع المظاهر بلا تفاوت كظهور الشمس وإشراقها على جميع الآفاق وسريان الروح في جميع الأعضاء ﴿لَا يَسْتَحْيِۦٓ﴾ استحياء مَن في فعله ضعف، وعافية وضيعة، بل لله سبحانه ﴿أَن يَضْرِبَ مَثَلًا﴾ بمظهر ﴿مَّا﴾ من المظاهر غير المتفاوتة في المظهرية إذ له بذاته من جميع أوصافه وأسمائه ظهور في كل ذرة من ذرائر العالم بلا إضافة، فلا تفاوت في المظاهر عنده، وما ترى في خلق الرحمن من تفاوت وسواء كانت ﴿بَعُوضَةً﴾ مستحقرة عندكم أو أحقر منها ﴿فَمَا فَوْقَهَا ۚ﴾ في الحقارة والخساسة كالبق والنمل فلا يبالي الله في تمثيلها، إذ عنده الكل على السواء ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ﴾ صدقوا النبي الأمي ﷺ و﴿ءَامَنُوا۟﴾ بما جاء به من عند ربه ﴿فَيَعْلَمُونَ﴾ علماً يقيناً أن التمثيل بهذه الأمثال ﴿أَنَّهُ ٱلْحَقُّ﴾ الثابت الصادر ﴿مِن رَّبِّهِمْ ۖ﴾ الذي رباهم بكشف الأمور على ما هي عليه ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ أعرضوا عن تصديق الله ورسوله ﴿فَيَقُولُونَ﴾ مستهزئين متهكمين على سبيل الاستفهام ﴿مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ﴾ المقدس عن جميع الرذائل المتصف بالأوصاف الحميدة ﴿بِهَٰذَا﴾ الحقير الخسيس بأن يضرب ﴿مَثَلًا﴾ بهذا تعريض على رسول الله ﷺ بأبلغ وجه يعني ما جئت

﴿يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا وَيَهْدِى بِهِۦ كَثِيرًا ۚ وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٦﴾ ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ ....

به من عندك كلمات مفتريات بعضها فوق بعض أسندته إلى الله لتروجها على أولي الأحلام الضعيفة ومن غاية استكبارهم ونهاية جهلهم المقتضي لعمى القلب لم يروا الحكمة في تمثيله ولم يعلموا أنه ﴿يُضِلُّ﴾ الله باسمه المنتقم ﴿بِهِۦ﴾ بسبب إنكار هذا المثال ﴿كَثِيرًا﴾ من المستكبرين المستحقرين بعض المظاهر ﴿وَيَهْدِى بِهِۦ كَثِيرًا ۚ﴾ من الموحدين الموقنين الذين لا يرون في المظاهر إلا الله، ففي هذا المشهد لا يسع الإضافات المستلزمة للاستعظام والاستحقار بل سقط هناك جميع الاعتبار، ثم بين سبب إضلاله له فقال: ﴿وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٦﴾﴾.

﴿ٱلَّذِينَ﴾ يخرجون عن طريق التوحيد باستحقار بعض المظاهر ﴿يَنقُضُونَ﴾ يفصمون ﴿عَهْدَ ٱللَّهِ﴾ الذي هو حبله الممدود من أزل الذات إلى أبد الأسماء والصفات سيما ﴿مِنۢ بَعْدِ﴾ توكيده بذكر ﴿مِيثَٰقِهِۦ﴾ الموثق بقوله: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾، وقولهم: ﴿بَلَىٰ﴾ [٧-الأعراف: ١٧٢] وبعد ما نقضوا العهد الوثيق الذي من شأنه أن لا ينقض لم يفزعوا ولم يتوجهوا إلى جبره ووصله، بل ﴿وَيَقْطَعُونَ﴾ التوجه عن امتثال ﴿مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ﴾ في كتابه المنزل ﴿أَن يُوصَلَ﴾ به ما نقض من عهده ومع ذلك، لا يقنعون بنقض العهد وقطع الوصل المختصين بهم، بل ﴿وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ﴾ بأنواع الفسادات السارية من

﴿أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ۝٢٧ كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ۖ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ۝٢٨﴾ ....

إفسادٍ واعتقاد الضعفاء والبغض مع العرفاء الأُنْساء ـ وفي نسخة أخرى: (الأمناء) ـ والمخالفة مع الأنبياء والأولياء ﴿أُولَٰئِكَ﴾ البُعداء عن طريق التوحيد ﴿هُمُ الْخَاسِرُونَ ۝٢٧﴾ المقصورون على الخسران الكلي الذي لا خسران فوقه، أعاذنا الله من ذلك.

ثم استفهم سبحانه مخاطباً لهم مستبعداً عما صدر[1] عنهم من الكفر والطغيان على سبيل الكناية، تحريكاً لحمية الفطرة التي فطر الناس عليها، وتذكيراً لهم بالعهود التي عهدوا مع الله في استعداداتهم الأصلية بقوله:

﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ﴾ وتشركون ﴿بِاللَّهِ﴾ الذي قدَّر وجودكم في علمه السابق أراد إيجادكم ﴿وَكُنتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ﴾ أظهركم من العدم بمدِّ ظله عليكم وبعد ما أظهركم أنعم عليكم ورباكم في النشأة الأولى بأنواع النعم لتعرفوا المنعم وتشكروا له في مقابلتها ﴿ثُمَّ﴾ بعد تربيتكم في النعم ﴿يُمِيتُكُمْ﴾ يخرجكم من النشأة الأولى إظهاراً لقدرته وقهره ﴿ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾ أيضاً في النشأة الأخرى لتجزى كل نفس بما كسبت في النشأة الأولى ﴿ثُمَّ﴾ بعدما قطعتم المنازل وطويتم المراتب والمراحل ﴿إِلَيْهِ﴾ لا إلى غيره من الأظلال ﴿تُرْجَعُونَ ۝٢٨﴾ إذ لا وجود للغير ليرجع إليه، فلا مرجع إلا هو ولا مآب بسواه، لا إله إلا هو، كل شيء هالك إلا وجهه، له الحكم وإليه ترجعون.

---

(١) في المخطوط (عن صدر).

هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍۚ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٩﴾ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ....

﴿هُوَ ٱلَّذِى﴾ جعلكم خلائف في الأرض وصوركم على صورته وصيركم مظاهر جميع أوصافه وأسمائه و﴿خَلَقَ لَكُم﴾ أي قدَّر ودبَّر لكم ﴿مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ ما في العالم السفلي من آثار الأسماء والصفات تتميماً لجسمانيتكم لتتصرفوا فيها وتتنعموا بها متى شئتم ﴿ثُمَّ﴾ لما تم تقدير ما في العالم السفلي ترقى عنها و﴿ٱسْتَوَىٰٓ﴾ توجه ﴿إِلَى ٱلسَّمَآءِ﴾ إلى تقدير جميع ما في العالم العلوي ﴿فَسَوَّىٰهُنَّ﴾ فهيأهن ﴿سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍۚ﴾ مطبقاتٍ مشتملاتٍ على ملائكةٍ ذوي علوم ومعاملاتٍ، وعلى كواكبَ ذوي آثارٍ كثيرةٍ كلّها من مقتضيات أسمائه وصفاته ﴿وَ﴾ لا يخفى عليه شيء مما في العالمين إذ ﴿هُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٩﴾﴾ لا يعزب عن علمه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء.

ثم لمَّا قدر لنوع الإنسان جميع ما في العالم العلوي والسفلي أشار إلى اصطفاء شخصٍ من هذا النوع وانتخابه من بين الأشخاص ليكون مظهراً جامعاً لائقاً لأمر الخلافة والنيات، فقال مخاطباً لنبيه مذكراً له مستحضراً إياه بقوله:

﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ﴾ أي استحضر أنت يا أكمل الرسل فذكّر ممن تبعك وقت قول ربك ﴿لِلْمَلَٰٓئِكَةِ﴾ الذين هم مظاهر لطفه ومجالي جماله لا يظهر عليهم أثرٌ من أثار الجلال والقهر ﴿إِنِّى﴾ أريد أن أطالع ذاتي وألاحظ أسمائي وأوصافي على التفصيل فأنا ﴿جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي العالم السفلي ﴿خَلِيفَةً﴾ مرآةً مجلوةً عن صداء الإمكان ورين التعلق لأتجلى منها بجميع

قَالُوٓاْ أَتَجۡعَلُ فِيهَا مَن يُفۡسِدُ فِيهَا وَيَسۡفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحۡنُ نُسَبِّحُ بِحَمۡدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَۖ قَالَ إِنِّيٓ أَعۡلَمُ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ﴿٣٠﴾ ....

أوصافي وأسمائي حتى تعتدل خليفتي بأسمائي أخلاق من عليها وتصلح أحوالهم، وإذا شاور معهم قالوا في الجواب على مقتضى علمهم ﴿قَالُوٓاْ﴾ في الجواب على مقتضى علمهم من العالم السفلي الذي هو عالم الكون والفساد ومنزل الجدال والعناد ما نرى في العالم السفلي إلا اللدد والعناد والمخاصمة المستمرة بين العباد والخروج من حدودك من سفك الدماء ونهب الأموال وسبي الذراري ﴿أَ﴾ نسلّم ونجوّز لك أن ﴿تَجۡعَلُ﴾ بعزتك وكبريائك مع أنا ننزهك عن جميع الرذائل خليفةً لك نائباً عنك ﴿فِيهَا﴾ في الأرض ﴿مَن يُفۡسِدُ فِيهَا﴾ بأنواع الفسادات ﴿وَ﴾ خصوصاً ﴿يَسۡفِكُ ٱلدِّمَآءَ﴾ المحرمة وليس في وسعنا هذا التسليم ولا نرى هذا الأمر لائقاً بجلالك وعصمتك وإن شئت بفضلك وجودك أن تصلح بينهم ﴿وَ﴾ تدبر أمرهم ﴿نَحۡنُ﴾ أولى بإصلاحهم وتدبيرهم وحفظ حدودك الموضوعة فيهم إذ ﴿نُسَبِّحُ﴾ نشتغل دائماً ﴿بِحَمۡدِكَ﴾ وثنائك على آلائك ونعمائك ﴿وَنُقَدِّسُ﴾ به ﴿لَكَۖ﴾ أي ننزه ذاتك عن جميع ما يشعر بالعلل والأعراض فنحن أولى بأمر الخلافة والنيابة منه ﴿قَالَ﴾ تعالى بلسان الجمع في جوابهم إرشاداً لهم وامتناناً لآدم: ﴿إِنِّيٓ أَعۡلَمُ﴾ من آدم الذي هو مظهر ذاتي وجميع أسمائي ﴿مَا﴾ أي شيءٌ من الجامعية ﴿لَا تَعۡلَمُونَ ﴿٣٠﴾﴾ أنتم لعدم جمعيتكم.

ثم لما ادعى سبحانه استحقاقه للنيابة ولياقته للخلافة، وأجاب عن شبههم التي أوردوها إجمالاً وأشار إلى تفصيل ما أجمل عليهم إرشاداً لهم على مرتبة

وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ....

الجمع وتنبيهاً على جلالة قدر المظهر الجامع فقال:

﴿ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ﴾ سبحانه أي ذكّره ﴿ٱلْأَسْمَآءَ ﴾ التي أودعها في ذاته وأوجد بها ما في العالم من الآثار البديعة ﴿ كُلَّهَا ﴾ بحيث لا يبقى من الأوصاف المتقابلة والأسماء المتخالفة المتضادة شيءٌ إلا ما استأثر به في غيبه ﴿ثُمَّ عَرَضَهُمْ ﴾ الأسماءَ المودعة باعتبار مسمياتها وآثارها الظاهرة في الآفاق ﴿ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ﴾ الذين يدّعون الأوْلوِّية في أمر الخلافة ﴿ فَقَالَ﴾ تعالى لهم مخاطباً على سبيل الإسكات والتبكيت: ﴿ أَنۢبِـُٔونِى ﴾ عن رويةٍ وبصيرةٍ ﴿ بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ ﴾ المسميات وبأسباب هؤلاء الآثار والمسببات ﴿ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ ﴾ في دعوى الأولوية والأحقية للنيابة محقين في الاعتراض على آدم لا عن علم بحاله.

﴿ قَالُوا۟ ﴾ مستوحشين من هذه الكلمات معتذرين متذللين خائفين من عتابه تعالى متذكرين عن سوء الأدب مع الله مستحيين عن سؤالهم من فعله الذي لا يُسأل عنه قائلين: ﴿ سُبْحَٰنَكَ ﴾ ننزهك من أن يُعترض عليك ويُسأل عن فعلك، ذلك الحكم في ملكوتك والتصرف في مقتضيات أسمائك، وإنما بسطنا معك الكلام لا لانبساطك بنا إذ ﴿لَا عِلْمَ لَنَآ ﴾ منها ﴿ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ ۖ ﴾ بقدر استعداداتنا وقابلياتنا ﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ﴾ بجميع الاستعدادات والقابليات

ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٢﴾ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ ۖ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ....

﴿ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٢﴾﴾ بإقامته ما ينبغي لمن ينبغي بلا عللٍ واعتراضٍ.

ومتى اعترفوا بذنوبهم واعتذوا عن قصورهم وإجرامهم قَبِلَ الله عنهم عذرهم وتوبتهم، ثم أظهر عليهم الحكمة المقتضية لخلافة آدم صلوات الله عليه جبراً لانكسارهم ورفعاً لحجابهم وامتناناً عليهم حيث:

﴿قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ﴾ المستجمع لجميع الأسماء المتخالفة ﴿أَنۢبِئْهُم﴾ عن خبرةٍ وحضورٍ ﴿بِأَسْمَآئِهِمْ﴾ المركوزة في هويتك عن هؤلاء المسميات المسببات المعروضة عليك المعبرة عنها بالعالم، ثم لما سمع آدم نداء ربه بادر إلى الجواب بمقتضى الوحي والإلهام الإلهي ﴿فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم﴾ بتوفيق الله وإلهامه ووحيه ﴿بِأَسْمَآئِهِمْ﴾ على التفصيل الذي أودعه الحق في ذاته؛ لأن المرآة تُظهر جميع ما في الرائي، فلما سمعوا منه التفصيل واستسخروا بإنبائه وندموا عما صدر عنهم في حقه وزادوا الاستحياء من الله وتوجهوا نحوه ساكتين نادمين حتى لطف معهم وأدركتهم الرحمة الواسعة، تكلم سبحانه معهم وخاطبهم مذكراً لهم عما جرى بينه وبينهم ومستفهماً لهم على وجه التأديب لئلا يصدر عنهم أمثاله ولئلا يغتروا بعلومهم ومعاملاتهم ولا يستحقروا مظاهر الحق ولا ينظروا إليها بعين الاحتقار بل بنظر الاعتبار ولا يتوهم إخفاء شيء من علم الله المحيط بالأشياء إحاطةَ حضورٍ حيث ﴿قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ﴾ إجمالاً أولاً: ﴿إِنِّىٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ أي ما غاب عنهم في علم السماوات التي ادعيتم العلم بتفاصيل أحوالها ﴿وَ﴾ غيب ﴿ٱلْأَرْضِ﴾ التي قُلتم فيها كلاماً

وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٣٣﴾ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٤﴾ ....

على التخمين وبحسب الظاهر ﴿وَأَعْلَمُ﴾ أيضاً ﴿مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٣٣﴾﴾ تُظهرون في حق آدم باللسان ودعوى الاستقلال فيها والانحصار عليها.

ثم لما اعترفوا بذنوبهم وقصورهم وتضرعوا إلى الله نادمين تائبين عن اجترائهم ومجادلتهم معه مستحيين عنه وعمن استخلفه لنفسه يعني آدم بنسبة المكروهات إليه خائبين عما نووا في نفوسهم من الأَوْلَوِّية في الاستحقاق، تقبل الله عذرهم وأسقط حقه عنهم، ثم أمر بسجودهم لمن استخلفه استجلالاً معه وإيفاءً لحقه ليسقط أيضاً عن ذمتهم فقال:

﴿وَإِذْ قُلْنَا﴾ أي واذكر يا أكمل الرسل وقت قولنا ﴿لِلْمَلَٰٓئِكَةِ﴾ النادمين عن الجراءة التي صدرت عنهم ﴿ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ﴾ تذللوا وتواضعوا تكريماً لآدم وامتثالاً لأمرنا ﴿فَسَجَدُوٓا۟﴾ مجتمعين متذللين واضعين جباههم على تراب المذلة والندامة ﴿إِلَّآ إِبْلِيسَ﴾ منهم ﴿أَبَىٰ﴾ وامتنع عن السجود ﴿وَٱسْتَكْبَرَ﴾ عن الانقياد له وأصر على ما هو عليه من الجحود ﴿وَكَانَ﴾ بعدم الامتثال الأمر الوجوبي ﴿مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٤﴾﴾ المطرودين عن ساحة عز الحضور.

والسر في استثنائه تعالى عن هذا الحكم وعدم توفيقه إياه وعدم اقتداره على السجود، أن يظهر سر الحضور والإظهار والربوبية والعبودية وسر الإيمان والكفر والجنة والنار وجميع القيودات الشرعية والتكاليف الإلهية، إذ نسبته يظهر الاثنينية ويتعدد الطرق وتتفاوت الآراء والمقالات وتبين

﴿وَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا﴾ ....

المخالفات والمنازعات، ويظهر الباطل ويستر الحق، وهو الرقيب المحافظ لآدابه والحاجب المعتكف ببابه، حتى لا تكون شرعةً لكل وارد أو يتوجه إليه واحد بعد واحد، غيرةً على الله وحمية لنفسه، ولهذا تمنى كثير من المحققين مرتبته.

ومن غيرته على ربه إلهاؤهم واغترارهم بالمستلذات والمزخرفات التي مالت إليها نفوسهم بطبعها يشغلهم ويلهيهم بها عن التوجه إلى جنابه والعكوف ببابه والسر في طرده ولعنه وإبعاده وبكفره تحذيرهم عن الانقياد والاقتداء على أبلغ وجه وآكده، وتمرينٌ لعداوته ورقابته معهم في نفوسهم، لئلا يغفلوا عنه ومع ذلك لم يتركوا متابعته ولم يجتنبوا من إقطاعه الملهية، نعوذ بالله من شرور أنفسنا.

﴿وَ﴾ وبعد ما خلقنا آدم في الأرض خليفة وأنزلنا عنه قوادح القادحين وأمرنا جميع خصمائه بسجوده وتكريمه وامتثلوا بالمأمور جميعاً إلا إبليس، تركه للحكمة المذكورة آنفاً ولئلا يتكبر آدم ويتجه بسببه انقياد جميعهم، كما تجبر كثيرٌ من أبنائه في الأرض بانقياد الشرذمة القليلة ﴿قُلْنَا﴾ له على سبيل الشفقة والنصيحة ﴿يَٰٓـَٔادَمُ﴾ المستخلف المختار لازم العبودية ولا تغتر بالخلافة وداوم على التوجه ولا تغفل عن المعاينة وأعلم أن المعاينة العبودية إنما تحصل بامتثال أوامرنا واجتناب نواهينا ومتى قبلت بحمل الامتثال والاجتناب ﴿ٱسْكُنْ أَنتَ﴾ أيها الخليفة أصالةً ﴿وَزَوْجُكَ﴾ تبعاً لك ﴿ٱلْجَنَّةَ﴾ التي هي دار السرور ومنزل الفراغ والحضور ومقام الأنس من الرب الغفور ﴿وَ﴾ إذا سكنتما فيها ﴿كُلَا﴾ تمتعاً ﴿مِنْهَا﴾ من جميع محظوظاتها ومستلذاتها الروحانية والجسمانية

رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣٥﴾ فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ ۖ وَقُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٣٦﴾ ....

﴿رَغَدًا﴾ واسعاً بلا مقدار وعدد ﴿حَيْثُ شِئْتُمَا﴾ بلا مزاحمة أحد ﴿وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ﴾ المخصوصة المعينة حتى لا تخرجا من رق العبودية وإن قربتما ﴿فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣٥﴾﴾ الخارجين عن حدود الله بارتكاب المنهي.

ولما استشعر إبليس التوصية والمعاهدة المذكورة المنبئة عن كمال العناية الإلهية بالنسبة إلى آدم، بادر إلى دفعها ورفضها فوسوس لهما بأن ألقى في قلبهما الدغدغة في تخصيص هذه الشجرة المعنية بالنهي وأنساهما المعاهدة المذكورة في العبودية، وبالجملة:

﴿فَأَزَلَّهُمَا﴾ ألجأهما إلى ارتكاب الزلة بوسوسة ﴿ٱلشَّيْطَٰنُ عَنْهَا﴾ العدو لهما والرقيب معهما فتناولوا عنها عن الشجرة المنهية ﴿فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا﴾ أي من الحضور الذي ﴿كَانَا فِيهِ ۖ﴾ أي في دار السرور ﴿وَ﴾ بعد ما ظهر زلتهما ﴿قُلْنَا﴾ لهما ولِنَاصحهما: ﴿ٱهْبِطُوا۟﴾ من دار السرور إلى دار الغرور ومن دار الكرامة إلى دار الابتلاء والملامة وعيشوا فيها مع النزاع والخصومة إذ ﴿بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ﴾ ينتهز الفرصة لمقته ﴿وَ﴾ بعد هبوطكم ﴿لَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ التي هي محل التفرقة وموطن الفتن والمحن ﴿مُسْتَقَرٌّ﴾ موضع قرار ﴿وَمَتَٰعٌ﴾ استمتاع لمزخرفاتها ومستلذاتها الغير القارة التي ألهاكم الشيطان بها عن النعيم الدائم ﴿إِلَىٰ حِينٍ ﴿٣٦﴾﴾ قيام الساعة التي هي الطامة الكبرى.

فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٣٧﴾ قُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ مِنْهَا جَمِيعًاۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٨﴾

ثم لما لم يكن زلة آدم من نفسه ومن مقتضى طبعه بل بوسوسة عدوه، أشفق عليه وتوجه نحوه وتطلف معه.

﴿فَتَلَقَّىٰٓ﴾ استفاد ﴿ءَادَمُ﴾ المذنب العاصي ﴿مِن رَّبِّهِۦ﴾ المستخلف المستقبل عليه ﴿كَلِمَٰتٍ﴾ مشتملاتٍ على الرجوع والإنابة عما صدر عنه من زلةٍ هي قوله: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [٧- الأعراف: ٢٣] ولما تلقى آدم من ربه هذه الكلمات واستغفر بها ورجع عما صدر ﴿فَتَابَ﴾ الله ﴿عَلَيْهِۚ﴾ أي قَبِل توبته ورحم عليه ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ﴾ الرجّاع للمذنبين المنهمكين في العصيان بالإنابة إليه عن ظهر الجنان ﴿ٱلرَّحِيمُ ﴿٣٧﴾﴾ لهم عما صدر عنهم من المعاصي والآثام بلا معاتبةٍ ولا انتقامٍ، ثم لما تلقناه الكلمات التي تاب بها وقبلنا عنه توبته، أخرجناه من اليأس والقنوط وأطمعناه الرجوع إلى الجنة بأن:

﴿قُلْنَا﴾ له ولذريته المتفرعة عليه منبهين عليهم طريق الرجوع ﴿ٱهْبِطُوا۟﴾ الزموا مكان الهبوط واستقروا عليها حال كونكم خارجين ﴿مِنْهَا جَمِيعًاۖ﴾ من الجنة وترقبوا دخولها بإذنٍ منا ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم﴾ أيها المترقبون ﴿مِّنِّى﴾ لا غيري ﴿هُدًى﴾ من وحيٍ وإلهامٍ وهو علامة إذني ودليل رضاي برجوعكم ﴿فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ﴾ ومن رجع إليَّ به ﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ في المراجعة إلى المقام الأصلي ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٨﴾﴾ بعد رجوعهم إليها بل كما بدأكم تعودون.

وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٣٩﴾ يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ وَأَوۡفُواْ بِعَهۡدِيٓ أُوفِ بِعَهۡدِكُمۡ ....

﴿وَٱلَّذِينَ﴾ لم يترقبوا الرجوع ونسوا ما هم عليه في الجنة، ولم يلتفتوا إلى الهدى المؤتى و﴿ كَفَرُواْ﴾ به وأنكروا له ﴿ وَكَذَّبُواْ﴾ رسلنا الذين أتوا إياهم ﴿ بِـَٔايَٰتِنَآ﴾ دلائلنا الدالة على صدقهم من المعجزات الظاهرة، والآثار الباهرة ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ﴾ الهابطون الناسون الموطنَ الأصلي، والمقامَ الحقيقي، المستبدلون عن الجنة بعرض هذا الأدنى، والكافرون بطريق الحق والمكذبون بمن يهديهم ﴿أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ﴾ التي هي معدن البعد والخذلان، ومنزل الطرد والحرمان ﴿هُمۡ﴾ بسبب نسيانهم وتكذيبهم ﴿ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٣٩﴾﴾ إلى ما شاء الله. ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا، وهَبْ لنا من لدنك رحمة، إنك أنت الوهاب.

ثم لما بين سبحانه وتعالى طريق الهداية والضلال، ونبَّه على جزاء كل منهما إجمالاً، أشار إلى تفصيله وتوضيحه من قصص القرون الماضية والأمم السالفة، ليتيقن المؤمنين منها، ومن جملتها قصة ندائه تعالى بني إسرائيل أولاد يعقوب إسرائيل، الله مخاطباً لهم: أمر تذكرهم بالنعم التي أنعمها عليهم؛ ليكونوا من الشاكرين لنعمه، الموفين بعهده بقوله:

﴿يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾ المتنعمين بالنعم الكثيرة ﴿ ٱذۡكُرُواْ﴾ واشكروا ﴿نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ﴾ وعلى من استخلفكم من أسلافكم ﴿وَأَوۡفُواْ﴾ بعد اعتدادكم النعم على أنفسكم ﴿بِعَهۡدِيٓ﴾ الذي عاهدتم معي من متابعة الهدى النازل مني على لسان الأنبياء ﴿ أُوفِ بِعَهۡدِكُمۡ﴾ من إرجاعكم إلى المقام الأصلي الذي أنتم فيه قبل هبوطكم إلى دار المحن، وبعد رجوعكم إليه في النشأة الأخرى،

وَإِيَّٰيَ فَٱرْهَبُونِ ﴿٤٠﴾ وَءَامِنُوا۟ بِمَآ أَنزَلْتُ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ وَلَا تَكُونُوٓا۟ أَوَّلَ كَافِرٍۭ بِهِۦ ۖ وَلَا تَشْتَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِى ثَمَنًا قَلِيلًا وَإِيَّٰىَ فَٱتَّقُونِ ﴿٤١﴾ وَلَا تَلْبِسُوا۟ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ

لا يبقى لكم خوفٌ من الاغيار بل رهبةٌ من سطوة سلطنتي ﴿وَ﴾ عند عروجها ﴿إِيَّٰيَ﴾ لا إلى غيري ﴿فَٱرْهَبُونِ ﴿٤٠﴾﴾ فارجعون لأوانس معكم وأزيل رهبتكم.

﴿وَ﴾ علامة وفائكم بعهدي هي الإيمان ﴿ءَامِنُوا۟﴾ على وجه الإخلاص والإيقان ﴿بِمَآ أَنزَلْتُ﴾ من فضلي على كل واحدٍ من رسلي بالقرآن المنزل على الحضرة الختمية الخاتمية، المؤيد بالدلائل القاطعة، والحجج الساطعة والمعجزات الباهرة، والآيات الظاهرة مع كونه ﴿مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ﴾ من الكتب المنزلة على الأنبياء الماضين، مشتملاً على ما فيها من الأحكام والقصص والمواعظ والحقائق مع لطائف أُخَر خلت عنها جميعها، وبعد ظهور المنزّل به وادعاء من أُنزل عليه الرسالة والإهداء ﴿وَلَا تَكُونُوٓا۟ أَوَّلَ كَافِرٍۭ بِهِۦ﴾ أي لا تكونوا مبادرين على الكفر بالمهدي، وما هدى به، بل كونوا أول من آمن له وصدق بما جاء به من عند ربه، فانتهزوا الفرصة للإيمان ولا تغفلوا عنه، ﴿وَ﴾ بعد نزوله وظهوره ﴿لَا تَشْتَرُوا۟﴾ ولا تستبدلوا ﴿بِـَٔايَٰتِى﴾ المنزلة على أنبيائي ﴿ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ من المزخرفات الفانية ﴿وَ﴾ إن عسر عليكم ترك هذا الاستبدال لميل نفوسكم إليه بالطبع ﴿إِيَّايَ﴾ عند عروض ذلك ﴿فَٱتَّقُونِ ﴿٤١﴾﴾ لأحفظكم عنه وأسهله عليكم.

﴿وَلَا تَلْبِسُوا۟ ٱلْحَقَّ﴾ الظاهر الثابت ﴿بِٱلْبَٰطِلِ﴾ الموهوم المزخرف

وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤٢﴾ وَأَقِيمُوا الصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا الزَّكَوٰةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّٰكِعِينَ ﴿٤٣﴾ ۞ أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَٰبَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٤٤﴾..

للضعفاء الذين لا تمييز لهم ﴿وَ﴾ لا ﴿تَكْتُمُوا الْحَقَّ﴾ أيضاً في نفوسكم ﴿وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤٢﴾﴾ حقيقته عقلاً وسمعاً.

﴿وَ﴾ بعدما آمنتم بالله وكتبه المنزلة على رسله ذهبتم عما نهيتم ﴿أَقِيمُوا الصَّلَوٰةَ﴾ أديموا الميل والتقرب إلى جنابه، وتوجهوا نحو بابه بجميع الأعضاء والجوارح، قاصدين فيه تخليةَ الظاهر والباطن عن الشواغل النفسية، والعوائق البدنية المانعة من الميل الحقيقي ﴿وَءَاتُوا الزَّكَوٰةَ﴾ المطهِّرة لنفوسهم عن العلائق الخارجية، والعوارض اللاحقة المثمرة لأنواع الأمراض في الباطن في البخل والحسد والحقد، وغير ذلك ﴿وَ﴾ إن قصدتم التقرب والتوجه على الوجه الأتمِّ الأكمل ﴿ارْكَعُوا﴾ تذللوا وتضرعوا إليه سبحانه ﴿مَعَ الرَّٰكِعِينَ ﴿٤٣﴾﴾ الذين خرجوا عن هوياتهم بالموت الإرادي، ووصلوا إلى ما وصلوا، بل اتصلوا، لا مع الذين يراؤون الناس، ويقولون بأفواههم ما ليس في قلوبهم، لذلك خاطبهم الحق سبحانه على سبيل التوبيخ فقال:

﴿۞ أَتَأْمُرُونَ﴾ أيها المراؤون المدّعون لليقين والعرفان ﴿النَّاسَ﴾ على سبيل النصّ والتذكير ﴿بِالْبِرِّ﴾ المقرِّب إلى الله ﴿وَتَنسَوْنَ﴾ أنتم ﴿أَنفُسَكُمْ﴾ من امتثال ما قلتم ﴿وَ﴾ الحال أنكم ﴿أَنتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَٰبَ﴾ المشتمل على الأوامر والنواهي، فحقُّكم أن تمتثلوا بها أولاً ﴿أَ﴾ تلتزمون تذكيرَ الغير، وأنتم في الغفلة ﴿فَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٤٤﴾﴾ قبيحَ صنيعكم هذا.

﴿وَٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ ﴿٤٥﴾ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿٤٦﴾ يَٰبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱذْكُرُواْ نِعْمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ﴾

ولما أُمرتم بعد الإيحاء بإقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة المطهرين لنفوسكم ظاهراً وباطناً، فعليكم الإتيان بالمأمور على الوجه الأتم، ولا يتيسر لكم الإتيانُ بها على الوجه الذي ذُكر إلا بإدامة الاستعانة. ﴿وَ﴾ المظاهرة من الخصلتين لذلك أمر سبحانه باستعانتهما ﴿ٱسْتَعِينُواْ﴾ في التوجه والتقرب إلى الله ﴿بِٱلصَّبْرِ﴾ عن المستلذات الجسمانية والمشتهيات المُزيَّنة ﴿وَٱلصَّلَوٰةِۚ﴾ الميل والإعراض عما سوى الحق ولا تسهِّلوا أمر الاستعانة ولا تخفِّفوها ﴿وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ﴾ ثقيلةٌ شاقةٌ على كل واحد ﴿إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ ﴿٤٥﴾﴾ الخاضعين.

﴿ٱلَّذِينَ﴾ يرفعون رين الغيرية عن العين، ويسقطون شين الاثنينية عن البين و﴿يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمْ﴾ في هذه النشأة لأنهم يعبدون إليه كأنهم يرونه ﴿وَ﴾ يعلمون يقيناً ﴿أَنَّهُمْ إِلَيْهِ﴾ لا إلى غيره، إذ لا وجود للغير ﴿رَٰجِعُونَ ﴿٤٦﴾﴾ عائدون صائرون في النشأة الأخرى.

اللهم اجعلنا من متبعيهم ومحبيهم[1].

ثم لما مَنَّ عليهم بالنعم التي تظهر آثارها وثمراتها في العالم الروحاني بحسب النشأة الأخرى، منَّ عليهم بالنعم التي ظهرت آثارها عليهم في العالم الجسماني بحسب النشأة الأولى، فناداهم أيضاً مبتدئاً مذكِّراً بقوله:

﴿يَٰبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱذْكُرُواْ﴾ ولا تكفروا ﴿نِعْمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ﴾ وعلى

---

(١) هكذا ورد في المخطوط.

وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى ٱلْعَالَمِينَ ﴿٤٧﴾ وَٱتَّقُواْ يَوْمًا لَّا تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْـًٔا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَـٰعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِذْ نَجَّيْنَـٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ

أسلافكم ﴿وَ﴾ اعلموا ﴿أَنِّي﴾ بحولي وقوتي ﴿فَضَّلْتُكُمْ عَلَى ٱلْعَالَمِينَ ﴿٤٧﴾﴾ من أبناء نوعكم بفضائلَ أغنت شهرتها على إحصائها.

وبعدما ذكرتم النعم وعرفتم المنعم المفضل لا تغتروا بفضلي ولطفي بل احذروا من[1] انتقامي وقهري.

﴿وَٱتَّقُواْ يَوْمًا﴾ تحشرون إليَّ للجزاء، وفي ذلك اليوم ﴿لَّا تَجْزِى﴾ لا تسقط ﴿نَفْسٌ﴾ مطيعةٌ كانت أو عاصيةٌ ﴿عَن نَّفْسٍ﴾ عاصيةٍ ﴿شَيْـًٔا﴾ من جزائها وعذابها ﴿وَ﴾ أيضاً ﴿لَا يُقْبَلُ﴾ فيها ﴿مِنْهَا﴾ من النفس العاصية ﴿شَفَـٰعَةٌ﴾ من شافع صديقٍ حميم ﴿وَ﴾ كذا ﴿لَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ﴾ لتمهل مدةٍ ﴿وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤٨﴾﴾ فيه بالأعوان والأنصار، بل كل نفسٍ رهينةٌ بما كسبت، وبعدما ما أمرهم بتذكير النعم إجمالاً، وحذرهم عن جزاء الكفران أشار إلى مقدار النعم العظام التي خُصصوا بها امتناناً عليهم فقال:

﴿وَإِذْ نَجَّيْنَـٰكُم﴾ أي اذكروا وقت إنجائنا إياكم ﴿مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ﴾ الذين ﴿يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ﴾ يعلمونكم ويفضحونكم بسوء العذاب الذي لا عذاب أسوأ منه، وهو أنهم ﴿يُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ﴾ لئلا يبقى ذكركم في الدنيا، إذ بالابن يُذكر الأب ويحيا اسمه لأنه سره ﴿وَ﴾ أشنع من ذلك أنهم ﴿يَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ﴾ بناتكم ليلحق العار عليكم، بتزويجهم إياهن بلا نكاحٍ، ولا عار أشنع

---

(١) في المخطوط (عن انتقامي).

وَفِي ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿٤٩﴾ وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ فَأَنجَيْنَاكُمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿٥٠﴾ وَإِذْ وَاعَدْنَا مُوسَىٰ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ

من ذلك، لذلك عُدّ موتُ البنات من المكرمات ﴿وَفِي ذَٰلِكُم﴾ أي واعلموا في المحن المشار إليها ﴿بَلَآءٌ﴾ اختبارٌ لكم ﴿مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿٤٩﴾﴾ ليجزيكم بنعمةٍ أعظم منها، وهو إنجاؤكم منهم واستيلاؤكم عليهم.

وبعدما ابتليناكم باحتمال الشدائد والمتاعب، ومقاساة الأحزان أردنا إنجاءكم من عذابهم وإهلاكهم بالمرة، فأمرناكم بالسير والفرار من العدو ففررتم ليلاً فأصبحتم مصادفين البحر، والعدوُّ صادفكم.

﴿وَ﴾ اذكروا ﴿إِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ﴾ أي وقت تفريقنا بالفرق الكبيرة ﴿الْبَحْرَ﴾ المتصل في بعضه ليسهل عبوركم منه ونجاتكم منه، وبالجملة ﴿فَأَنجَيْنَاكُمْ﴾ فعبرناكم منه سالمين ﴿وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ﴾ المقتحمين بالفور خلفكم باجتماع تلك الفرق واتصال البحر على ما هو عليه في نفسه ﴿وَأَنتُمْ﴾ حينئذ ﴿تَنظُرُونَ ﴿٥٠﴾﴾ إلى الافتراق والاجتماع المتعاقبة، فكيف لا تذكرونها وتشكرونها.

﴿وَ﴾ بعد إنجائكم من البحر سالمين، وإغراقهم بالمرة وإيراثنا لكم أرضهم وديارهم وأموالهم اذكروا ﴿إِذْ وَاعَدْنَا مُوسَىٰ﴾ المتبحر في ضبط المملكة في أول الاستيلاء بأمرٍ قلنا له: إن أخلصتَ التوجه والرجوع والميل إلينا مدة ﴿أَرْبَعِينَ لَيْلَةً﴾ متواليةً متتاليةً ـ خصصها لخلوها عن الشواغل المانعة من الإخلاص ـ أنزلنا عليكم كتاباً جامعاً لمرتبتَي الإيمان والعمل، حاوياً على جميع التدابير والحكم الظاهرة والباطنة ﴿ثُمَّ﴾ لما اشتغل موسى بإنجاز الوعد، وإيفاء العهد فذهب إلى الميقات ﴿اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ﴾ الذي صوّغتُم بيدكم من حليكم

مِنۢ بَعۡدِهِۦ وَأَنتُمۡ ظَٰلِمُونَ ﴿٥١﴾ ثُمَّ عَفَوۡنَا عَنكُم مِّنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ﴿٥٢﴾ وَإِذۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَى ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡفُرۡقَانَ لَعَلَّكُمۡ تَهۡتَدُونَ ﴿٥٣﴾ ....

بتعليم السامري، بسبب الخوار الذي ظهر منه ابتلاءً لكم وفتنةً إلهاً من دون الله، بل حصرتم الإلهية له بقولكم: هذا إلهكم وإله موسى، فأخلفتم الوعد ﴿مِنۢ بَعۡدِهِۦ﴾ أي من بعد ذهاب موسى إلى الميقات، وقبل رجوعه منه ﴿وَأَنتُمۡ﴾ بسبب خلف الوعد والاتخاذ المذكور ﴿ظَٰلِمُونَ ﴿٥١﴾﴾ خارجون عن الإيمان والتوحيد، والعياذ بالله من ذلك.

﴿ثُمَّ﴾ لما تبتم ورجعتم إلينا عن صميم القلب ﴿عَفَوۡنَا عَنكُم﴾ أي أزلنا عن ذمتكم جزاء ذلك الظلم الذي ظلمتم ﴿مِّنۢ بَعۡدِ﴾ إنابتكم ورجوعكم ﴿ذَٰلِكَ﴾ وإنما أزلناه عنكم ﴿لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ﴿٥٢﴾﴾ رجاء أن تشكروا، أو تعظِّموا نعمة العفو الذي هو من آثار اللُّطف والجمال المتفرِّع على الظلم المعفوِّ عنه، الذي هو من آثار القهر والجلال فتكونوا من الشاكرين الذين يشكرون الله في السراء والضراء والخصب والرخاء.

﴿وَإِذۡ﴾ بعدما أخلفتم الوعد قبل تمامها، وظلمتم باتخاذ العجل لم نهمل أمر موسى، ولم نخلف الوعد الذي وعدنا معه اذكروا ﴿ءَاتَيۡنَا مُوسَى﴾ إنجازاً لوعدنا ﴿ٱلۡكِتَٰبَ﴾ الموعود، الجامع لأسرار الربوبية ﴿وَٱلۡفُرۡقَانَ﴾ الفارق بين الحق والباطل، وبين الضلالة والهداية ﴿لَعَلَّكُمۡ﴾ تقتدون له ﴿تَهۡتَدُونَ ﴿٥٣﴾﴾ به إلى طريق التوحيد، وتجاهدون فيه إلى أن تخلصوا عن الشواغل المانعة عنا.

وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم بِٱتِّخَاذِكُمُ ٱلْعِجْلَ فَتُوبُوٓاْ إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَٱقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٤﴾ وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً ....

﴿وَ﴾ ولما أنجزنا وعد موسى ورجع إلى قومه غضبان أسفاً اذكروا ﴿إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ﴾ المؤمنين له والمعاهدين من بعد رجوعه عن الميقات والتورية: ﴿يَٰقَوْمِ﴾ الناقضون بعهدي، المجاوزون لحدود الله ﴿إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم بِٱتِّخَاذِكُمُ ٱلْعِجْلَ﴾ إلهاً مستحقاً للعبودية ﴿فَتُوبُوٓاْ﴾ عن هذا الاعتقاد والاتخاذ، وارجعوا متذللين ﴿إِلَىٰ بَارِئِكُمْ﴾ الذي برأكم من العدم ليبرأكم عن هذا الظلم، وإذا تبتم ورجعتم ﴿فَٱقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ﴾ الأمارة بهذا الظلم، بأنواع الرياضات وترك المشتهيات والمستلذات، وقطع المألوفات وترك المستحسنات المَلُومين عليها بأنواع الملامات، حتى تكون مطمئنة بما فتنتم بها، راضيةً بجريان حكم القضاء، مرضية بالفناء بل فانية عن الفناء ﴿ذَٰلِكُمْ﴾ المشار إليه من الإنابة والرجوع وإبراء الذمة والإذلال بأنواع الرياضات والفناء المطلق أيضاً ﴿خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ﴾ خالقكم الذي خلقكم للتوحيد والعرفان، وإذا تحقق إنابتكم وإخلاصكم فيها ﴿فَتَابَ عَلَيْكُمْ﴾ قَبِل توبتكم ورضي عنكم ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ﴾ الرجاع للعباد إلى التوبة والإنابة ﴿ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٤﴾﴾ لهم بقبول التوبة عنهم وإن عظمت زلتهم.

﴿وَ﴾ اذكروا أيضاً ﴿إِذْ قُلْتُمْ﴾ لموسى عند دعوتكم إلى الإيمان والهداية: ﴿يَٰمُوسَىٰ﴾ المدعي للرسالة، الداعي إلى الله بمجرد الإخبار ﴿لَن نُّؤْمِنَ لَكَ﴾ ولما جئت به من عند ربك ﴿حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ﴾ المرسِل ﴿جَهْرَةً﴾ ظاهراً من

فَأَخَذَتْكُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿٥٥﴾ ثُمَّ بَعَثْنَٰكُم مِّنۢ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٥٦﴾ وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ ۖ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ ۖ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٥٧﴾ ....

غير حجاب كما يرى بعضنا بعضاً ﴿فَأَخَذَتْكُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ﴾ النازلةُ من عين قهرنا وغضبنا لإنكاركم ظهورنا الذي هو أظهر من الشمس، بل الشمسُ إنما هي لمعةٌ من لمعات ذاتنا ﴿وَأَنتُمْ﴾ حين ترونها ﴿تَنظُرُونَ ﴿٥٥﴾﴾ متحيرين والهين بلا تدبير وتصرُّف، إلى أن صرتم فانين مقهورين تحت قهرنا.

﴿ثُمَّ بَعَثْنَٰكُم﴾ أحييناكم وأنشأناكم بالتجلي اللطفي ﴿مِّنۢ بَعْدِ مَوْتِكُمْ﴾ وفنائكم بالقهر والغضب امتناناً لكم ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٥٦﴾﴾ نعمة الوجود والحياة بعد الموت، وتعتقدون الحشر الموعود به في يوم الجزاء وتؤمنون به.

﴿وَ﴾ اذكروا أيضاً إذ ﴿ظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْغَمَامَ﴾ يوم لا ظل إلا ظله، وأنتم تائهون في التِّيه في الصيف، بأن سار معكم حيث شئتم، ولا يزول ظلُّه عنكم ﴿وَ﴾ مع ذلك أنعمناكم فيها بأعظم من ذلك بأن ﴿أَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ﴾ من جانب السماء[١] ﴿ٱلْمَنَّ﴾ التي الترنجبين[٢] لسكن حرارتكم، ﴿وَ﴾ أنزلنا لغذائكم ﴿ٱلسَّلْوَىٰ﴾ وهو السُّماني، أو مثله في النزول من جانب السماء، وأبحنا لكم تناولهما، ولا تكفروا بها بأن قلنا لكم: ﴿كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ﴾ من خصائص النعم واشكروا لها ﴿وَمَا ظَلَمُونَا﴾ بمنع المنافع وردِّ الفوائد ﴿وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٥٧﴾﴾ من الفوائد العائدة لنفوسهم من ازدياد

---

(١) في المخطوط (لشربتكم إلى السماء المن).

(٢) في المخطوط (تجبين).

﴿وَإِذْ قُلْنَا ٱدْخُلُوا۟ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ فَكُلُوا۟ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا۟ حِطَّةٌ نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَٰيَٰكُمْ ۚ وَسَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾ فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ ....﴾

النعم في إدامة شكرنا، والتقرُّب إلينا في إقامة حدودنا.

﴿وَ﴾ واذكروا ظلمكم أيضاً ﴿إِذْ قُلْنَا﴾ بعد خروجكم من التيه إشفاقاً لكم وامتناناً عليكم ﴿ٱدْخُلُوا۟ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ﴾ التي هي من منازل الأنبياء والأولياء وهي بيت المقدس ﴿فَكُلُوا۟ مِنْهَا﴾ من مأكولاتها ومشروباتها ﴿حَيْثُ شِئْتُمْ﴾ بلا مزاحم ولا مخاصم ﴿رَغَدًا﴾ واسعاً بلا خوفٍ من السقم حتى يتقوى مزاجكم ويزول ضعفكم، وبعد تقويتكم المزاج بالنعم ارجعوا إلينا وتوجهوا نحو بيتنا التي فيها ﴿وَٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا﴾ مذللين خاضعين واضعين جباهكم ووجوهكم على الأرض، وعند سجودكم استغفروا ربكم من خطاياكم ﴿وَقُولُوا۟﴾ رجاؤنا منك يا مولانا ﴿حِطَّةٌ﴾ أي حطّ ما صدر عنا وجرى علينا من المعاصي والآثام، وإذا دخلتم كما أُمرتم واستغفرتم كما عُلمتم ﴿نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَٰيَٰكُمْ﴾ التي جئتم بها واستغفرتم لها ﴿وَسَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾﴾ منكم الذين لم يتجاوزوا الحد ولم يخالفوا الأمر الرضوانَ الذي لا مرتبة أعلى منه.

ولما أمرْناهم بالدخول على هذا الوجه وعلَّمناهم طريق الدعاء والاستغفار خالف بعضهم المأمول ظلماً وتأويلاً

﴿فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟﴾ بالخروج عن أمرنا قولنا لهم لإصلاح حالهم ﴿قَوْلًا﴾ آخر لفظاً ومعنى ﴿غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ﴾ بأن أرادوا من القول الملقى

فَأَنزَلْنَا عَلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿٥٩﴾ ۞ وَإِذِ ٱسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ فَقُلْنَا ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ ۖ فَٱنفَجَرَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ۖ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ ۖ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ مِن رِّزْقِ ٱللَّهِ

إليهم لفظاً آخر، ومعنىً آخر برأيهم الفاسد وطبعهم الكاسد حطاً سمتاتاً: أي حنطة حمراء، ولما لم يأتوا بالمأمور به ومع ذلك بدلوا إلى ما تهوى أنفسهم أخذناهم بها ﴿فَأَنزَلْنَا عَلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟﴾ تنصيصاً عليهم وتخصيصاً لهم لتعلم أن سبب أخذهم ظلمهم ﴿رِجْزًا﴾ طاعوناً نازلاً ﴿مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿٥٩﴾﴾ يخرجون عن حدود الله المنزلة من السماء بأنواع الفسوق والعصيان.

﴿۞ وَ﴾ اذكروا أيضاً ﴿إِذِ ٱسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ﴾ وطلب السقي بإنزال المطر ﴿لِقَوْمِهِۦ﴾ حين بثُّوا شكواهم عنده من شدة العطش في التِّيه ﴿فَقُلْنَا﴾ له مشيراً إلى ما يترقب من مطلوبه بل يستبعده ﴿ٱضْرِب﴾ ولا تستبعد ﴿بِّعَصَاكَ﴾ التي استعنت بها في الأمور والوقائع ﴿ٱلْحَجَرَ﴾ الذي بين يديك فتفطن موسى بنور النبوة للأمر الوجوبي فضربه دفعةً ﴿فَٱنفَجَرَتْ مِنْهُ﴾ فجأةً ﴿ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا﴾ متمايزةً منفردةً كل منها عن صاحبتها بعدد رؤوس الفرق الاثني عشر بحيث ﴿قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ﴾ من كل فرقةٍ ﴿مَّشْرَبَهُمْ﴾ المعينة لهم دفعاً للتزاحم والتنازع، ثم أمرناكم بما ينفعكم ظاهراً وباطناً بأن قلنا لكم: ﴿كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟﴾ مترفهين متنعمين ﴿مِن رِّزْقِ ٱللَّهِ﴾ الذي رزقكم من محض فضله ولطفه من حيث لا تحتسبون ونهيناكم عما يضركم صورة

وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٦٠﴾ وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَىٰ لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَاحِدٍ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنبِتُ الْأَرْضُ مِن بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا ۖ قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَىٰ بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ ۚ

﴿وَ﴾ معنى بأن قلنا لكم: ﴿لَا تَعْثَوْا﴾ أي لا تظهروا ﴿فِي الْأَرْضِ﴾ خيلاء متكبرين ﴿مُفْسِدِينَ ﴿٦٠﴾﴾ فيها بأنواع الفسادات منتهزين بها، والله لا يحب كل مختال فخور.

﴿وَ﴾ اذكروا أيضاً ﴿إِذْ قُلْتُمْ﴾ لموسى في التِّيه بعد إنزال المنّ والسلوى وانفجار العيون محولاً خاليا عن الإخلاص والمحبة ناشئاً عن محض الفساد والغفلة وكفران النعمة: ﴿يَا مُوسَىٰ﴾ على طريق سوء الأدب معه ﴿لَن نَّصْبِرَ﴾ معك في التِّيه ﴿عَلَىٰ طَعَامٍ وَاحِدٍ﴾ وهذا غير ملائم لمزاجنا وطباعنا ﴿فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ﴾ الذي ادعيت تربيته لنا ﴿يُخْرِجْ﴾ يظهر ويهيئ ﴿لَنَا﴾ غذاءنا ﴿مِمَّا﴾ من جنس ما ﴿تُنبِتُ الْأَرْضُ﴾ التي هي معظم عنصرنا سواء كان ﴿مِن بَقْلِهَا﴾ خضرواتها التي يأكلها الناس للتفكه والتلذذ بحرافتها وحموضتها ومرارتها الملائمة لمزاجه ﴿وَقِثَّائِهَا﴾ التي يُتفكه بها لتبريد المزاج ﴿وَفُومِهَا﴾ حنطتها التي يتقوت بها لشدة ملاءمتها مزاجه، لذلك ما أزل الشيطان أبانا آدم إلا بتناولها ﴿وَعَدَسِهَا﴾ المعد لهضم الغذاء ﴿وَبَصَلِهَا﴾ التي تشتهيها النفوس المتنفرة عن الحلاوة والدسومة، فلما سمع موسى منهم ما قالوا، آيس وقنط من صلاحهم وإصلاحهم ﴿قَالَ﴾ في جوابهم موبخاً لهم ومقرعاً ﴿أَتَسْتَبْدِلُونَ﴾ أيها الناكبون عن طريق الحق المائلون إلى الهوى ﴿الَّذِي هُوَ أَدْنَىٰ﴾ المخرج من الأدنى ﴿بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ﴾ وأعلى المنزل من

﴿ٱهْبِطُواْ مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ وَٱلْمَسْكَنَةُ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُواْ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّۦنَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعْتَدُونَ ﴿٦١﴾﴾ ....

الأعلى وأنا أستحي من الله سؤال ما سألتم ﴿ٱهْبِطُواْ﴾ انزلوا ﴿مِصْرًا﴾ أرض العمالقة وديار الفراعنة ﴿فَإِنَّ لَكُم﴾ فيه ﴿مَّا سَأَلْتُمْ﴾ بالكد والفلاحة ﴿وَ﴾ بعد ما ذلوا نفوسهم بطلب الأشياء الدنية الخسيسة ﴿ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ﴾ أعلمت وختمت عليهم ﴿ٱلذِّلَّةُ﴾ لخباثة نفوسهم وقساوة قلوبهم وتمكن النفاق في جبلتهم لذلك ما ترى يهودياً إلا ذليلاً في نفسه خبيثاً في معاشه ﴿وَ﴾ ضربت عليهم أيضاً ﴿ٱلْمَسْكَنَةُ﴾ المذمومة المتفرعة على الذلة المتفرعة على الدناءة والخباثة ﴿وَ﴾ بعد ما ضربت عليهم الذلة ﴿بَآءُو﴾ صاروا مقارنين ﴿بِغَضَبٍ﴾ نازلٍ ﴿مِّنَ ٱللَّهِ﴾ المطلع على ضمائرهم وسرائرهم ﴿ذَٰلِكَ﴾ السبب الموجب لنزول الغضب ﴿بِأَنَّهُمْ كَانُواْ﴾ لخبث طبيعتهم وشدة نفاقهم وضغينتهم ﴿يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ النازلة عليهم عطاء وامتناناً ﴿وَ﴾ مع ذلك لا يقنعون بكفران النعم بل ﴿يَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّۦنَ﴾ المنبئين لهم عن قبح صنيعهم ﴿بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ الذي ظهر عندهم من الخبائث الموجبة للقتل بل ﴿ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ﴾ عصياناً فاحشاً ﴿وَّكَانُواْ﴾ في ذلك العصيان ﴿يَعْتَدُونَ ﴿٦١﴾﴾ يتجاوزون حدود الله عناداً واستكباراً.

ولما بالغوا في الإعراض عن الله والتجاوز عن حدوده وكفران نعمه، وصاروا من إفراطهم مظنة أن لا يرجى منهم الفلاح والفوز بالنجاح، تقاعد موسى صلوات الله عليه عن تبليغهم وآيس عن اهتدائهم بالمرة.

إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُواْ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱذْكُرُواْ مَا فِيهِ ....

ثم أشار سبحانه إلى أن منهم ومن أمثالهم من ذوي الأديان والملل من يهدي إلى الحق ويتوجه إلى طريق مستقيم فقال:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ بدين [سيدنا] محمد ﷺ ﴿وَٱلَّذِينَ هَادُواْ﴾ انقادوا بدين موسى عليه السلام ﴿وَٱلنَّصَٰرَىٰ﴾ الذين آمنوا بدين عيسى عليه السلام ﴿وَٱلصَّٰبِـِٔينَ﴾ الذين تدينوا بدين نوح عليه السلام ﴿مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ﴾ أي أيقن بوحدانية الله ، وأقر بربوبيته، واعترف بأن لا موجد إلا الله الواحد الأحد، ومع ذلك صدق واعترف بيوم الجزاء ﴿وَعَمِلَ﴾ عملاً ﴿صَٰلِحًا﴾ موافقاً لما أُمر خالصاً لوجه الله مخلصاً فيه ﴿فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ الذي يوفقهم على التوحيد والإخلاص، ﴿وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ من العقاب والعذاب ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾﴾ عن سوء المنقلب والمآب.

﴿وَ﴾ اذكروا أيضاً ﴿إِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ﴾ أي طلبنا منكم العهد الوثيق بأن تتبعوا موسى وتمتثلوا بأوامر كتابه وتجتنبوا عن نواهيه فامتنعتم عن متابعته واستثقلتم ما في كتابه، فأنجيناكم إليه بأن أمرنا جبريل عليه السلام بقلع الجبل من مكانه ﴿وَ﴾ بعد قلعه ﴿رَفَعْنَا﴾ بتوفيقنا إياه ﴿فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ﴾ معلقاً عليكم وقلنا لكم في تلك الحالة: ﴿خُذُواْ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم﴾ من الدين والكتاب ﴿بِقُوَّةٍ﴾ بجد واجتهاد ﴿وَٱذْكُرُواْ﴾ جميع ﴿مَا فِيهِ﴾ على التفصيل لنفوسكم وإن لم تأخذوا وتذكروا

لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ ثُمَّ تَوَلَّيْتُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ ۖ فَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ لَكُنتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٦٤﴾ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلَّذِينَ ٱعْتَدَوْا۟ مِنكُمْ فِى ٱلسَّبْتِ..........

سقط عليكم الجبل فنستأصلكم، فعهدتم خوفاً من سقوطه وإنما فعلنا ذلك بكم ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾﴾ لكي تحذروا عن قهرنا وانتقامنا.

﴿ثُمَّ﴾ لما أمهلناكم زماناً ﴿تَوَلَّيْتُم﴾ أعرضتم عن العهد ﴿مِّنۢ بَعْدِ﴾ ما أزلنا عنكم ﴿ذَٰلِكَ﴾ الخوف وأنتم في جبلتكم ظالمون مجاوزون عن الحدود والعهود ﴿فَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ﴾ المحيطِ ﴿عَلَيْكُمْ﴾ بإرادة إيمانكم وإصلاحكم ﴿وَرَحْمَتُهُۥ﴾ الواسعةُ الشاملةُ لكم بإرسال الرسل وإنزال الكتب ﴿لَكُنتُم﴾ في أنفسكم ﴿مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٦٤﴾﴾ الذين خسروا أنفسهم وأهليهم يوم القيامة، ألا ذلك هو الخسران المبين.

وكيف لا تكونون من الخاسرين الناقضين للعهود، وأنتم قوم شأنكم هذا ﴿وَ﴾ الله ﴿لَقَدْ عَلِمْتُمُ﴾ وحفظتم قصة ﴿ٱلَّذِينَ ٱعْتَدَوْا۟﴾ تجاوزوا عن العهد ﴿مِنكُمْ فِى﴾ زمن داود عليه السلام واصطياد يوم ﴿ٱلسَّبْتِ﴾ ذلك أنهم سكنوا على شاطئ البحر بقريةٍ، يقال لها أيلة، وكان معاشهم من صيد البحر، فأرسل الله عليهم داود عليه السلام فدعاهم فآمنوا له وعهد الله معهم على لسان داود بأن لا يصطادوا في يوم السبت بل تعينوها وتخصصوها للتوجه والتعبد، فقبلوا العهد وكانت حيتان البحر بعد العهد يحضرن في يوم السبت على شاطئ البحر ويخرجن خراطيمهن من الماء، ولما مضى عليها زمان احتالوا لصيدها بأن حفروا حياضاً وأخاديد على شاطئ البحر وأحدثوا جداول منه إليها، فلما كان يوم السبت يفتحون الجداول ويرسلون الماء في الحياض واجتمعت الحيتان

﴿فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ ﴿٦٥﴾ فَجَعَلْنَٰهَا نَكَٰلًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٦٦﴾ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦٓ﴾ ....

فيها وفي يوم الأحد يصطادونها منها، ونقضوا عهد الله بهذه الحيلة، قال الله تعالى: لما أمهلناهم زماناً ظنوا أنهم خادعوا ثم انتقمنا منهم.

﴿فَقُلْنَا لَهُمْ﴾ إذا أفسدتم لوازم الإنسانية أي العهود والتكاليف أفسدنا أيضاً إنسانيتكم ﴿كُونُوا﴾ صِيْرُوا في الساعة ﴿قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ ﴿٦٥﴾﴾ مهانين متبدلين، فمسخوا عن لوازم الإنسانية من العلم والإرادة والمعرفة والإيمان، ولحقوا بالبهائم بل صاروا أسوأ حالاً منها.

﴿فَجَعَلْنَٰهَا﴾ أي قصة مسخهم وشأنهم ﴿نَكَٰلًا﴾ عبرةً ﴿لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا﴾ من الحاضرين المشاهدين حالهم وقصتهم ﴿وَمَا خَلْفَهَا﴾ ممن يوجد بعد من المذكرين السامعين قصتهم وتاريخهم ﴿وَمَوْعِظَةً﴾ وتذكيراً ﴿لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٦٦﴾﴾ الذين يحفظون نفوسهم دائماً عن أمثالها.

﴿وَ﴾ اذكر يا أكمل الرسل لمن تبعك من المؤمنين من سوء معاملة بني إسرائيل مع موسى عليه السلام، وقبح صنيعهم معه، ومجادلتهم بما جاء به من عند الله جهلاً وعناداً ليتنبهوا ويتفطنوا على أن الإيمان بنبيٍ يوجب الانقياد والإطاعة له وترك المراء والمجادلة معه والمحبة والإخلاص معه وتفويض الأمور إليه؛ وهو إلى الله؛ ليتم سر الربوبية والعبودية والنبوة والرسالة والتشريع والتكاليف والتوسل والتقرب والوصول وذلك ﴿إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦٓ﴾ حين حدثت الفتنة العظيمة بينهم وهي: أنه كان فيهم رجل من صناديدهم له أموال وضياعٌ وعقارٌ كثيرةٌ وله ابن واحد، وبنو أعمام كثيرة فطمعوا في أمواله

إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تَذۡبَحُواْ بَقَرَةٗۖ قَالُوٓاْ أَتَتَّخِذُنَا هُزُوٗاۖ قَالَ أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنۡ أَكُونَ مِنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ ﴿٦٧﴾ قَالُواْ ٱدۡعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَۚ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٞ لَّا فَارِضٞ وَلَا بِكۡرٌ عَوَانُۢ بَيۡنَ ذَٰلِكَۖ فَٱفۡعَلُواْ مَا تُؤۡمَرُونَ ﴿٦٨﴾ قَالُواْ ٱدۡعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوۡنُهَاۚ ....

فقتلوا ابنه ليرثوه وطرحوه على الباب، فأصبحوا صائحين فزعين يطالبون القاتل، فأراد الله تفضيحهم وتشهيرهم، فأمر موسى بأن قال لهم: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تَذۡبَحُواْ بَقَرَةٗ﴾ فلما سمعوا قوله استبعدوه وتحيروا في أمرهم ومن غاية استبعادهم ﴿قَالُوٓاْ﴾ على طريق المعاتبة: ﴿أَ﴾ تعتقد أنت يا موسى الداعي للخلق الى الحق ﴿تَتَّخِذُنَا هُزُوٗاۖ﴾ أي تأخذنا باستهزاءٍ وسخريةٍ ونحن محل استهزائك مع أنه لا يليق بك وبنا ﴿قَالَ﴾ موسى مستبعداً و مستعيذاً: ﴿أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنۡ أَكُونَ مِنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ ﴿٦٧﴾﴾ المستهزئين بالناس، بل ما أَتَّبِعُ إلا ما يوحى إليّ، فلما سمعوا استبراءه واستعاذته خافوا من الابتلاء فأوجس كلامهم خيفةً في نفسه، لكونهم خائنين، واشتغلوا بتدبير الدفع، وشاوروا وأقر رأيهم على أن نووا في نفوسهم تلك البقرة المخصوصة المعلمة المعلومة عندهم بالشخص وبعد ذلك سألوه عن تعيينه بأن ﴿قَالُواْ ٱدۡعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَۚ﴾ أكبير أم صغير؟ ﴿قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٞ لَّا فَارِضٞ﴾ كبيرٌ في السن ﴿وَلَا بِكۡرٌ﴾ صغيرٌ فيه بل ﴿عَوَانُۢ﴾ متوسط ﴿بَيۡنَ ذَٰلِكَۖ﴾ الصغر والكبر استكمل النمو ولا تميل إلى الذبول، وإذا تحققتم ﴿فَٱفۡعَلُواْ مَا تُؤۡمَرُونَ ﴿٦٨﴾﴾.

ثم لما ازداد خوفهم من الفضيحة بنزول الوحي متعاقبةً زادوا في الاستفسار عن التعيين مكابرةً وعناداً وتسويفاً حيث ﴿قَالُواْ ٱدۡعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوۡنُهَاۚ﴾

قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَآءُ فَاقِعٌ لَّوْنُهَا تَسُرُّ ٱلنَّٰظِرِينَ ﴿٦٩﴾ قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِىَ إِنَّ ٱلْبَقَرَ تَشَٰبَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّآ إِن شَآءَ ٱللَّهُ لَمُهْتَدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا ذَلُولٌ تُثِيرُ ٱلْأَرْضَ وَلَا تَسْقِى ٱلْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَّا شِيَةَ فِيهَا

من الألوان المتعارفة المشهورة حتى نذبحها ﴿ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَآءُ فَاقِعٌ ﴾ أصيلٌ في الصفرة ، كأنه وضع اسم الصفرة بإزائها أولاً ﴿لَّوْنُهَا ﴾ كلون ذهب ﴿تَسُرُّ ٱلنَّٰظِرِينَ ﴿٦٩﴾﴾ والسرور عبارة عن الانبساط والانتعاش الحاصل للقلب عند فراغه عن جميع الشواغل، وفي تلك الحالة يتعجب عن كل ذرة بل عن نفسه ويؤدي تعجبه إلى التحير، فإذا تحير غرق في بحرٍ لا ساحلَ له[1] ولا قعر، أدركنا يا دليل المتحيرين.

ثم لما جزموا الإلجاء وقطعوا النظر عن الخلاص، كابروا وعاندوا أيضاً مبالغين فيها حيث

﴿ قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِىَ ﴾ أي ما هويتها وهيئتها الشخصية المعينة وقل ﴿إِنَّ ٱلْبَقَرَ ﴾ المأمور به ﴿تَشَٰبَهَ عَلَيْنَا﴾ واستوصفناه منك وصفتها بالصفات المشتركة العامة ﴿وَإِنَّآ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ﴾ تعيينه وتشخيصه لنا ﴿لَمُهْتَدُونَ ﴿٧٠﴾﴾ بذبحها.

﴿ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا ذَلُولٌ ﴾ عجفٌ مهزولٌ بسبب أنها ﴿تُثِيرُ ٱلْأَرْضَ ﴾ تقلبها للزراعة ﴿وَلَا ﴾ ذلول بسبب ذلتها إنها ﴿تَسْقِى ٱلْحَرْثَ ﴾ بالدلو والسقاية بل ﴿مُسَلَّمَةٌ ﴾ من صغرها عن أمثال هذه المذلات ﴿ لَّا شِيَةَ فِيهَا ﴾ لا علامة في

---

(١) في المخطوط (لها).

قَالُواْ ٱلۡـَٔـٰنَ جِئۡتَ بِٱلۡحَقِّۚ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُواْ يَفۡعَلُونَ ﴿٧١﴾ وَإِذۡ قَتَلۡتُمۡ نَفۡسٗا فَٱدَّٰرَٰٔتُمۡ فِيهَاۖ وَٱللَّهُ مُخۡرِجٞ مَّا كُنتُمۡ تَكۡتُمُونَ ﴿٧٢﴾ فَقُلۡنَا ٱضۡرِبُوهُ بِبَعۡضِهَاۚ كَذَٰلِكَ ....

أعضائها من ضرب العود والسوط وغيرها، بل تأكل وتمشي هوناً بلا مصرفٍ ومراعٍ، ولما بالغوا في الاستفسار إلى أن بلغوا ما نووا في نفوسهم أُلزموا وأُفحِموا و﴿قَالُواْ ٱلۡـَٔـٰنَ جِئۡتَ بِٱلۡحَقِّۚ﴾ الثابت الكائن في الواقع وفي نيتنا واعتقادنا.

حكي أن شيخاً صالحاً من صلحائهم كانت له هذه العجلة المتصفة بهذه الصفات فذهب بها إلى أيلة[1] فأودعها عند الله وقال: اللهم إني أستودعتها عندك لولدي حتى يكبر، ثم مات الشيخ وكانت تلك البقرة في حمى الله وحفظه حتى كبر الولد وحدثت تلك الفتنة فيما بينهم، فأمر الله بذبح تلك البقرة على سبيل الإلجاء فاشتروها بملء مسكها ذهباً ﴿فَذَبَحُوهَا﴾ ملجئين مكرهين ﴿وَ﴾ لولا إلجاؤنا إياهم وإكراهنا لهم ﴿مَا كَادُواْ يَفۡعَلُونَ ﴿٧١﴾﴾ لخوف الفضيحة وغلاء الثمن.

﴿وَ﴾ كيف تفعلونه وأنتم تعلمون أن سبب نزوله تفضيحكم وإظهار ما كتمتم في نفوسكم ﴿إِذۡ قَتَلۡتُمۡ نَفۡسٗا﴾ بغير حق ﴿فَٱدَّٰرَٰٔتُمۡ﴾ وتدافعتم ﴿فِيهَاۖ﴾ أي في شأنها بأن أسقط كل منكم قتلها عن ذمته وسترتم أمرها وهدرتم دمه ﴿وَٱللَّهُ﴾ المحيط بسرائركم وضمائركم ﴿مُخۡرِجٞ﴾ مظهرٌ ﴿مَّا كُنتُمۡ تَكۡتُمُونَ ﴿٧٢﴾﴾ في نفوسكم.

﴿فَقُلۡنَا﴾ لكم بعد تدارئكم وتدافعكم وذبحكم البقرة المأمورة ﴿ٱضۡرِبُوهُ﴾ أي المقتول ﴿بِبَعۡضِهَاۚ﴾ أي ببعض البقرة أيِّ بعضٍ كان، فضربوه فحيي بإذن الله فأخبر بقاتله، ففُضحوا وارتفعت المداراة ﴿كَذَٰلِكَ﴾ أي مثل إحياء هذا المقتول

---

(١) في المخطوط (أيكة).

يُحْيِ ٱللَّهُ ٱلْمَوْتَىٰ وَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٧٣﴾ ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِىَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ....

بلا سبب تقتضيه عقولكم وترتضيه نفوسكم ﴿ يُحْيِ ٱللَّهُ ﴾ القادر على ما يشاء جميع ﴿ ٱلْمَوْتَىٰ ﴾ في يوم الحشر والجزاء بلا أسباب ووسائل اقتضتها عقول العقلاء إذ عنده الإبداء عين الإعادة والإعادة عين الإبداء، بل الكل في مشيئته على السواء ﴿ وَيُرِيكُمْ ﴾ ظهوره من ﴿ ءَايَٰتِهِۦ ﴾ الدالة على تحقيق وقوعه ﴿ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٧٣﴾ ﴾ رجاء أن تتفكروا وتتفطنوا منها إليه وتؤمنوا بجميع المعتقدات الشرعية الدنيوية والأخروية.

وصدقوها على وجه التعبد والانقياد وبلا مراء ومجادلة مع من أوتي بها من الرسل والأنبياء، ولا يتيسر لكم هذه المرتبة إلا بعد ذبحكم بقرة النفس الأمارة المسلطة بالقوة التامة عليكم، المتلونة بالألوان المسرة لنفوسكم وطباعكم، المسلمة الممتنعة من التكاليف الشرعية من الأوامر والنواهي، وضربكم بها على النفس المطمئنة المقهورة المقتولة ظلماً لتصير حية بالحياة الأبدية، باقية بالبقاء السرمدي، فتخبركم وتذكركم عن صنائع أمّارتكم الظالمة المتجاوزة عن الحدود، خلصنا الله من شرورها.

﴿ ثُمَّ قَسَتْ ﴾ بالقساوة الأصلية ﴿قُلُوبُكُم﴾ المتكبرة المتحجرة الصلبة البليدة ﴿ مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ ﴾ الإحياء الملين للقلوب الخائفة الوجلة عن خشية الله وإذا لم تلن قلوبكم ولم يؤثر فيها ﴿فَهِىَ﴾ في الصلابة والقساوة ﴿ كَٱلْحِجَارَةِ ﴾ التي لا تقبل النقر والأثر أصلاً ﴿ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ﴾ أي بل قلوبكم أشد صلابة من

وَإِنَّ مِنَ ٱلْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ ٱلْأَنْهَـٰرُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ ٱلْمَآءُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَـٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٧٤﴾ ....

الحجارة فإن من الحجارة ما يتأثر بالخير وقلوبكم لا تتأثر أصلاً ﴿ وَإِنَّ مِنَ ٱلْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ ٱلْأَنْهَـٰرُ ﴾ ويتأثر منها، وقلوبكم لا تتأثر بأنهار المعارف المتشعبة عن بحر الذات الجارية على جداول ألسنة الأنبياء صلوات الله عليهم ﴿وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ ﴾ يتأثر بالشقوق في نفسها بتخليل بحر الدهور ومن مؤثرٍ خارجي وإذا تشقق ﴿فَيَخْرُجُ مِنْهُ ٱلْمَآءُ ﴾ ويدخل فيه الماء وقلوبكم لا تتأثر لا بنفسها ولا بالمؤثر الخارجي ﴿وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ ﴾ ينزل من أعلى الجبل ﴿مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ﴾ الناشئة عن ظهور الآيات مثل المطر الهاطل والريح العاصف والزلزلة القالعة وغير ذلك من الآيات الظاهرة في الآفاق، وقلوبكم لا تتأثر بالآيات الباهرة النازلة عليكم ترغيباً وترهيباً.

هذا تقريع وتوبيخ لهم على أبلغ وجه وآكده وحثٌّ على المؤمنين وتحذير لهم من ربكم أمثالها، بأنهم مع قابليتهم على التأثر لا يقبلون الأثر النافع لهم في الدارين والحجارة مع صلابتها وعدم قابليتها تتأثر، فهم أسوأ حالاً وأشد قساوة وصلابة منها، ومع ذلك يخادعون الله في الأمور بالستر والإخفاء ويظنون غفلته ﴿وَمَا ٱللَّهُ ﴾ المظهر لهم المحيط بجميع مخايلهم وحيلهم ﴿بِغَـٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٧٤﴾ ﴾ ولو طرفة ولمحة وخطرة.

ثم لما ذكر سبحانه امتنانه على بني إسرائيل وإنعامه إياهم بأنواع النعم وذكر أيضاً ظلمهم وعدوانهم وكفرانهم نعمه، أراد أن ينبه على المؤمنين المحمديين المتمنين إيمان اليهود وانقيادهم على رسول الله ﷺ ومؤاخاتهم

۞أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا۟ لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَـٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُۥ مِنۢ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾ وَإِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ قَالُوٓا۟ ....

مع المؤمنين بأن مُتمنَّاكم ومُلتمَسكم محال.

﴿أَ﴾لم تسمعوا قصتهم ولم تعرفوا خيانتهم ودناءتهم وزلتهم المضروبة عليهم وسوء معاملتهم مع نبيهم المبعوث عليهم ﴿۞ فَتَطْمَعُونَ﴾ وترجون ﴿أَن يُؤْمِنُوا۟ لَكُمْ﴾ أي بنبيكم ويصادقوا ويحاقوا ويتلوا معكم كلام الله مع علمكم بحالهم ﴿وَ﴾ لم تسمعوا أنه ﴿قَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ﴾ من أسلافهم قومٌ ﴿يَسْمَعُونَ كَلَـٰمَ ٱللَّهِ﴾ النازل لهم وفيه وصف نبينا ﷺ فيضطربون ويستقلون بعثته ﴿ثُمَّ﴾ لما قرب عهده ﷺ وظهر أمره واستشعروا من أمارته أنه هو النبي الموعود في كتابهم ﴿يُحَرِّفُونَهُۥ﴾ أي الكتاب حسداً وعناداً ويغيرونه مكابرة ﴿مِنۢ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ﴾ جزموه وحققوه أنه هو ﴿وَهُمْ﴾ أيضاً ﴿يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾﴾ مكابرتهم ومعاندتهم ويجزمونه في نفوسهم بحقيته ويقولون في خلواتهم إنا وإن كان النبي الموعود لكن لا نؤمن له لأنه من العرب لا منا.

﴿وَ﴾ منهم من آمن وصدق ظاهراً لمصلحةٍ دنيويةٍ وهو على خباثته الأصلية ودناءته الجبلية بل أخبث منها بحيث ﴿إِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ وأخلصوا في إيمانهم ﴿قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا﴾ برسولكم الذي هو الرسول الموعود في التوراة يقيناً، وصدقنا جميع ما جاء به من عند ربه ﴿وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ﴾ أي المنافقين مع المصرّين ﴿قَالُوٓا۟﴾ أي كلٌّ من الفريقين للآخر عند المشاورة

أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَآجُّوكُم بِهِۦ عِندَ رَبِّكُمْۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٧٦﴾ أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٧﴾ وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّآ أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٧٨﴾......................

وبثّ الشكوى: أترون أمر هذا الرجل كيف يعلو ويرتقي وما هو إلا النبي المؤيد الموعود في كتابنا، أي شيء تعلمون يا معاشر اليهود ﴿ أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ ﴾ في كتابكم من وصفه ﴿ لِيُحَآجُّوكُم بِهِۦ ﴾ ويغلبوا عليكم ويتقربوا ﴿عِندَ رَبِّكُمْۚ ﴾ فالعار كل العار، أم تحرفون الكتاب ولا تسلمونه غيرة وحمية ﴿ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٧٦﴾ ﴾ تتفكرون وتتأملون أيها المتدينون بدين الآباء في أمر هذا الرجل، هكذا جرى حالتهم دائماً بأن قالوا بأمثال هذه الهذيانات إلى أن تتفرقوا.

قل لهم يا أكمل الرسل:

﴿ أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ ﴾ المحيط بظواهركم وبواطنكم ﴿يَعْلَمُ﴾ بالعلم الحضوري ﴿مَا يُسِرُّونَ ﴾ من الكفر والتكذيب عناداً ومكابرة ﴿وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٧﴾﴾ من القول الغير المطابق للاعتقاد هذا حال علمائهم وأحبارهم ﴿ وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ لا يعقلون ولا يفهمون ﴿ ٱلْكِتَٰبَ ﴾ والإنزال والإرسال والدين والإيمان وجميع التكاليف الشرعية لعدم ذكائهم وتفطنهم في الأمور الدينية الاعتقادية بل ما يأخذونه ﴿ إِلَّآ أَمَانِيَّ ﴾ كسائر الأماني الدنيوية تقليداً لرؤسائهم ورهبانهم ﴿وَإِنْ هُمْ﴾ ما هم في أنفسهم من الممترين في المعتقدات ﴿ إِلَّا ﴾ أنهم ﴿ يَظُنُّونَ ﴿٧٨﴾﴾ ظناً بليغاً في تمييز علمائهم المحرفين للكتاب،

﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَٰبَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ لِيَشْتَرُوا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ ﴿٧٩﴾﴾

وبسبب هذا الظن لم يؤمنوا بنبينا ﷺ، ولما صار المحرفون ضالين في أنفسهم مضلين لغيرهم، استحقوا أشد العذاب.

﴿فَوَيْلٌ﴾ حرمانٌ عن لذة الوصول بعدما قرب الحصول أو طردٌ وتبعيدٌ عن ذروة الوجوب إلى حضيض الإنكار أو عودٌ وترجيع لهم في الحرية إلى الرِّقية الأبدية في النشأة الأخرى ﴿لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَٰبَ بِأَيْدِيهِمْ﴾ بعد تحريفهم بآرائهم السخيفة ﴿ثُمَّ يَقُولُونَ﴾ لسَفَلَتِهم وجَهَلَتِهم ترويجاً للمحرَّف ﴿هَٰذَا﴾ ما نزل ﴿مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ وإنما قالوا ذلك ﴿لِيَشْتَرُوا۟ بِهِۦ﴾ بنسبته إلى الله ﴿ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ على وجه التحف والهدايا من الضعفاء الذين يظنونهم عقلاء أمناء في أمور الدين كما يفعل مشايخ زماننا أنصفهم الله مع من يتردد إليهم من عوام المؤمنين.

ثم لما كانت الويل عبارة عن نهاية مراتب القهر والجلال وغاية البعد عن مراتب اللطف والجمال، كرره مراراً وفصله تحذيراً للخائنين المستوحشين عن طرده وإبعاده فقال:

﴿فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ من المحرفات الباطلة ﴿وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ ﴿٧٩﴾﴾ من القبوحات والمعاملات الخبيثة.

ومن جملة هذياناتهم مع ضعفائهم أنهم لما ظهر فيما بينهم واشتهر ما نزل في التوراة: أن الذين اتخذوا العجل إلهاً يدخلون النار، اضطرب الضعفاء من هذا الكلام وضاق المحرفون من اضطرابهم أن يميلوا إلى الإسلام.

وَقَالُوا۟ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَةً ۚ قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِندَ ٱللَّهِ عَهْدًا فَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ عَهْدَهُۥٓ ۖ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨٠﴾ بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَٰطَتْ بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٨١﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٨٢﴾ ....

﴿وَقَالُوا۟﴾ لهم تسكيناً وتسلية: لا تخافوا ولا تضطربوا ﴿لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا﴾ قلائل ﴿مَّعْدُودَةً﴾ أربعين يوماً مقدار زمان عبادة العجل وأقل من ذلك ﴿قُلْ﴾ لهم يا أكمل الرسل توبيخاً وتقريعاً: أأنتم ﴿أَتَّخَذْتُمْ﴾ وأخذتم ﴿عِندَ ٱللَّهِ عَهْدًا﴾ بأن لا يمسكم النار إلا أياماً معدودة ﴿فَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ عَهْدَهُۥٓ﴾ إن ثبت، فنحن أيضاً من المصدقين المؤمنين ﴿أَمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ﴾ افتراءً ﴿مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨٠﴾﴾ ثبوته عنده فيجازيكم بما افتريتم.

﴿بَلَىٰ﴾ أي بلى الأمر الحق المحقق الكلي الثابت عهده وجرى عليه سنته أن ﴿مَن كَسَبَ سَيِّئَةً﴾ مشغلةً مبعدةً عن الحق ﴿وَ﴾ مع ذلك ﴿أَحَٰطَتْ﴾ شملت واحتوت ﴿بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ﴾ خطاياه كلها إلى سيئةٍ مبعدةٍ ﴿فَأُو۟لَٰٓئِكَ﴾ البعداء عن طريق الحق ﴿أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ﴾ نارِ البعد والخذلان لا ينجون ولا يخرجون منها أصلاً بل ﴿هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٨١﴾﴾ دائمون لها ما شاء الله .

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ واعتقدوا بوحدانية الله وأيقنوا بأن لا وجود لغير الله ﴿وَ﴾ مع الإيمان والإيقان ﴿عَمِلُوا۟﴾ بالجوارح ﴿ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ المترتبة على هذا الاعتقاد المستلزمة إياه ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ﴾ المقربون الواصلون إلى ما يصلون ﴿أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ﴾ القرب والوصول ﴿هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٨٢﴾﴾ متمكنون ما شاء الله ، ولا

وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَقُولُوا۟ لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ....

مرمى وراء الله ، ولا مقصد سوى: لا إله إلا الله ، لا حول ولا قوة إلا بالله .

﴿وَ﴾ اذكر يا أكمل الرسل للمؤمنين أيضاً قصة ﴿إِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ أي العهد الوثيق من بني إسرائيل المفرطين في بعض العهود والمواثيق، بأن قلنا لهم ﴿لَا تَعْبُدُونَ﴾ أي لا تتوجهون ولا تتقربون ﴿إِلَّا ٱللَّهَ﴾ الذي أظهركم من العدم ورتبكم ورباكم بأنواع اللطف والكرم، لكي تعرفوه ﴿وَ﴾ لا تفعلون ولا تعاملون ﴿بِالْوَالِدَيْنِ﴾ المربيين لكم باستخلاف الله إياهما إلا ﴿إِحْسَانًا﴾ محسنين معهما بخفض جناح الذل وبذل المال وخدمة البدن ﴿وَ﴾ مع ذلك كذا مع ﴿ذِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ المنتمين إليهما بواسطتهما ﴿وَ﴾ لا يقهرون ﴿ٱلْيَتَٰمَىٰ﴾ الأطفال الذين لا متعهد لهم من الوالدين بل تحسنون لهم وتتعطفون معهم ﴿وَ﴾ كذا مع ﴿الْمَسَاكِينِ﴾ الذين لا يمكنهم الكسب لعدم مساعدةٍ إلا أنهم بالجملة ﴿وَقُولُوا۟ لِلنَّاسِ﴾ أي لجميع الأجانب المستغنين عن جميع الأمداد ﴿حُسْنًا﴾ قولاً حسناً هيناً ليناً مبيناً عن المحبة والوداد ﴿وَ﴾ لما أمرناهم ونهيناهم بما يتعلق بمبدئهم ومعاشهم أمرناهم أيضاً بما يتعلق بمعادهم، ورجوعهم إلينا فقلنا لهم ﴿أَقِيمُوا۟﴾ أديموا ﴿ٱلصَّلَوٰةَ﴾ التي هي معراجكم الحقيقي إلى ذروة التوحيد ﴿وَ﴾ العروج إليها لا يتحقق إلا بترك العلائق وطرح الشواغل لذلك ﴿ءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ المطهرة المزيلة عن نفوسكم محبة الغير والسوى، بل محبة نفوسكم الشاغلة

ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنكُمْ وَأَنتُم مُّعْرِضُونَ ﴿٨٣﴾ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَآءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ ﴿٨٤﴾ ثُمَّ أَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنكُم مِّن دِيَٰرِهِمْ تَظَٰهَرُونَ عَلَيْهِم ....

عن الوصول إلى شرف اللقاء ﴿ثُمَّ﴾ لما اشتغلتم بالأوامر والنواهي نقضتم العهود بأن ﴿تَوَلَّيْتُمْ﴾ أعرضتم عنها ونبذتموها وراء ظهوركم ﴿إِلَّا قَلِيلًا مِّنكُمْ﴾ وهم الذين ذكرهم الله في قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ﴾ [٢- البقرة: ٦٢] الآية ﴿وَأَنتُم﴾ قوم ﴿مُّعْرِضُونَ ﴿٨٣﴾﴾ شأنكم الإعراض عن الحق مستمرين عليه.

﴿وَ﴾ كيف لا تكونون معرضين، اذكروا قبح صنيعكم وقت ﴿إِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ﴾ بأن ﴿لَا تَسْفِكُونَ دِمَآءَكُمْ﴾ أي لا يسفك بعضكم دمَ بعضٍ بلا موجبٍ شرعي ﴿وَلَا تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ﴾ أي لا يخرج بعضكم بعضاً من دياره تعدّياً وظلماً ﴿ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ﴾ طوعاً واعترفتم رغبةً بهذا العهد ﴿وَأَنتُمْ﴾ بأجمعكم ﴿تَشْهَدُونَ ﴿٨٤﴾﴾ تحضرون وكلكم متفقون عليه.

﴿ثُمَّ أَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ الخبيثون الدنيئون، نقضتم العهد بعد توكيده بأن ﴿تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ﴾ بعضكم نفس بعض بغير حق ﴿وَتُخْرِجُونَ﴾ أي يخرج بعضكم ﴿فَرِيقًا﴾ بعضاً ﴿مِّنكُم مِّن دِيَٰرِهِمْ﴾ المألوفة إجلاءً وظلماً وأنتم بأجمعكم ﴿تَظَٰهَرُونَ﴾ تعينون ﴿عَلَيْهِم﴾ على المخرجِين الظالمين

بِٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡعُدۡوَٰنِ وَإِن يَأۡتُوكُمۡ أُسَٰرَىٰ تُفَٰدُوهُمۡ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيۡكُمۡ إِخۡرَاجُهُمۡۚ أَفَتُؤۡمِنُونَ بِبَعۡضِ ٱلۡكِتَٰبِ وَتَكۡفُرُونَ بِبَعۡضٖۚ فَمَا جَزَآءُ مَن يَفۡعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمۡ إِلَّا خِزۡيٞ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلۡعَذَابِۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ (٨٥) ....

﴿ بِٱلۡإِثۡمِ ﴾ أي الخصلة الفاحشة ﴿وَٱلۡعُدۡوَٰنِ﴾ أي الظلم المتجاوز عن الحد ﴿وَ﴾ من جملة عهودكم أيضاً: ﴿إِن يَأۡتُوكُمۡ ﴾ أي يأتي بعضكم بعضاً ﴿ أُسَٰرَىٰ ﴾ موثقين في يد العدو ﴿تُفَٰدُوهُمۡ ﴾ تعطوهم فديتهم وتنقذوهم من عدوهم تبرعاً، فلا ينقضون هذا العهد مع أنه غير محرم عليك ترك فدائهم وينقضون العهد الوثيق المتعلق بالقتل والإخراج، ﴿وَ﴾ الحال أنه ﴿هُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيۡكُمۡ إِخۡرَاجُهُمۡۚ ﴾ وقتلهم ﴿أَفَتُؤۡمِنُونَ بِبَعۡضِ ٱلۡكِتَٰبِ ﴾ وتوفون بعض العهد الثابت في الكتاب، وهو عهد الفدية ﴿وَتَكۡفُرُونَ بِبَعۡضٖۚ ﴾ وهو عهد عدم القتل والإجلاء مع أنه لا تفاوت بين العهود المنزلة من عند الله ﴿فَمَا جَزَآءُ مَن يَفۡعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمۡ ﴾ التفرقة بين عهود الله المنزلة في كتابه عتواً واستكباراً ﴿إِلَّا خِزۡيٞ ﴾ ذلٌ يستكرهه جميع الناس ﴿فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ ﴾ القائمة للعدل والجزاء ﴿يُرَدُّونَ ﴾ هؤلاء الناقضون لعهد الله ﴿ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلۡعَذَابِۗ ﴾ هو قعر بحر الإمكان الذي لا نجاة لأحد منه ﴿وَمَا ٱللَّهُ ﴾ المستوي على عروش الذرات الكائنة في العالم رطبها ويابسها شهادتها وغيبها ﴿بِغَٰفِلٍ ﴾ مشغولٍ بشيء يشغله ﴿عَمَّا تَعۡمَلُونَ (٨٥) ﴾ أنتم بل شأنكم وحالكم وأعمالكم كلها عنده مكشوفٌ معلومٌ له سبحانه بالعلم الحضوري، بحيث لا يشذ عن حيطة علمه شيء فيها أصلاً.

أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشۡتَرَوُاْ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا بِٱلۡأٓخِرَةِۖ فَلَا يُخَفَّفُ عَنۡهُمُ ٱلۡعَذَابُ وَلَا هُمۡ يُنصَرُونَ ﴿٨٦﴾ وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَى ٱلۡكِتَٰبَ وَقَفَّيۡنَا مِنۢ بَعۡدِهِۦ بِٱلرُّسُلِۖ وَءَاتَيۡنَا عِيسَى ٱبۡنَ مَرۡيَمَ ٱلۡبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدۡنَٰهُ بِرُوحِ ٱلۡقُدُسِۗ ....

ولما ذكر سبحانه قبح معاشهم ومعادهم، أراد أن ينبه على المؤمنين بأسباب مقابحهم وإعراضهم ليحذروا منها ويحترزوا عنها، فقال مشيراً لهم:

﴿ أُوْلَٰٓئِكَ﴾ البعداء عن منهج الصدق والصواب هم ﴿ ٱلَّذِينَ ٱشۡتَرَوُاْ﴾ استبدلوا واختاروا ﴿ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا بِٱلۡأٓخِرَةِۖ﴾ الفانية غير القارة، بل اللاشيء المحض بالآخرة التي هي النعيم الدائم واللذة المستمرة والحياة الأزلية السرمدية ﴿ فَلَا يُخَفَّفُ عَنۡهُمُ ٱلۡعَذَابُ ﴾ أي عذاب الإمكان والافتقار لذلك ﴿وَلَا هُمۡ يُنصَرُونَ ﴿٨٦﴾﴾ فيما هو متمناهم من الحوائج، بل دائماً مفتقرون محتاجون، مسودة الوجوه في النشأتين.

واذكر يا أكمل الرسل للمؤمنين أيضاً من قبح صنائعهم ليعتبروا:

﴿ وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَى﴾ المبعوث إليهم ﴿ ٱلۡكِتَٰبَ﴾ أي التوراة المشتملة على مصالحهم الدنيوية والأخروية فكذبوه، ولم يلتفتوا إلى كتابه ﴿وَ﴾ بعد ما قضى وانقرض موسى ﴿قَفَّيۡنَا﴾ أي عقبناه ﴿مِنۢ بَعۡدِهِۦ بِٱلرُّسُلِۖ﴾ المرسلة إليهم أولي الدعوات والآيات والمعجزات، فكذبوهم أيضاً ولم يلتفتوا بما جاؤوا به ﴿وَ﴾ بعد ذلك بزمان ﴿ءَاتَيۡنَا﴾ أيضاً ﴿عِيسَى﴾ المبعوث إليهم ﴿ ٱبۡنَ مَرۡيَمَ ٱلۡبَيِّنَٰتِ﴾ الواضحات المبينات لأمر معاشهم ومعادهم ﴿وَ﴾ مع ذلك ﴿ أَيَّدۡنَٰهُ﴾ أي خصصناه[1] وقوّيناه ﴿بِرُوحِ ٱلۡقُدُسِۗ﴾ بالروح المقدس عن رذائل الإمكان

---

(١) في المخطوط (خصناه).

﴿أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ ﴿٨٧﴾ وَقَالُوا۟ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ ۚ بَل لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾﴾

فكذبوه أيضاً، فأرادوا قتله ولم يظفروا عليه، ألم تكونوا أنتم أيها الناقضون للعهود والمواثيق ﴿أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمْ رَسُولٌۢ﴾ من الرسل من عند ربكم لإصلاح حالكم ﴿بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ﴾ تحب وترضى ﴿أَنفُسُكُمُ﴾ اشتغلتم بما جاؤوا به بل ﴿ٱسْتَكْبَرْتُمْ﴾ عليهم واستحقرتموهم ﴿فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ﴾ كموسى وعيسى عليهما السلام ﴿وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ ﴿٨٧﴾﴾ كزكريا ويحيى عليهما السلام، والقوم الذين شأنهم هذا كيف يرجى منهم الفلاح والفوز بالنجاح.

﴿وَ﴾ من غاية عداوتهم معك يا أكمل الرسل ومع من بايعك من المؤمنين أنهم ﴿قَالُوا۟﴾ حين دعوتكم إياهم إلى الإيمان والتصديق بالإسلام: لا نَفْقَهُ حديثكم ولا نفهم كلامكم إذ ﴿قُلُوبُنَا﴾ التي هي وعاء الإيمان والإذعان ﴿غُلْفٌۢ﴾ مغلوفٌ مغشاةٌ بالأغطية الكثيفة لا يصل إليها دعوتكم وإخباركم، قل لهم يا أكمل الرسل: لا غطاء ولا غشاوة إلا عنادكم وحديثكم وحسدكم على ظهور دين الإسلام، وبغيكم عليه مع جزمكم بحقيّته عقلاً ونقلاً ﴿بَل﴾ قل لهم نيابةً عنا ﴿لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ﴾ أي طردهم وبعدهم باسمه المنتقم ﴿بِكُفْرِهِمْ﴾ أي بسبب كفرهم المذكور في جبلتهم، لكونهم مقهورين تحت اسم المضل المذل، وإذا كانوا من مقتضيات اسم المضل ﴿فَقَلِيلًا مَّا﴾ نزراً يسيراً[1] منهم ﴿يُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾﴾ يهتدون بطريق التوحيد إيفاءً لحق الفطرة الأصلية التي فطر الناس عليها، وهم الذين ذكرهم سبحانه في قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَادُوا۟﴾ [٢- البقرة٦٢] الآية وبالجملة فلا يرجى منهم الإيمان.

---

(١) في المخطوط (نذيراً بشيراً).

وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا۟ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُوا۟ كَفَرُوا۟ بِهِۦ ۚ فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾ بِئْسَمَا ٱشْتَرَوْا۟ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ ....

﴿وَ﴾ أيضاً من غاية عداوتهم وعتوهم وعنادهم وحسدهم على ظهور دين الإسلام ﴿لَمَّا جَآءَهُمْ كِتَٰبٌ﴾ مشتملٌ على الأحكام والمعتقدات والحقائق والمعارف جزموا أنه نازلٌ ﴿مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ لتوافقه على ما في كتابهم وإعجازه عموم من تحدىٰ معه ومع ذلك ﴿مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ﴾ من الكتب المنزلة على الأنبياء الماضين ﴿وَ﴾ الحال أنهم ﴿كَانُوا۟ مِن قَبْلُ﴾ ظهوره ونزوله ﴿يَسْتَفْتِحُونَ﴾ يستنصرون بهذا النبي ودينه وكتابه ﴿عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ بكتابهم ونبيهم ويقولون: سينصر ديننا بالنبي الموعود والدين الموعود ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُوا۟﴾ في كتابهم ونبيهم انتظروا له قبل مجيئه وافتخروا به على معاصريهم ﴿كَفَرُوا۟ بِهِۦ﴾ حين مجيئه عناداً ومكابرةً فاستحقوا بهذا الكفر والعناد طرد الله ومقته وتبعيده عن طريق التوحيد وتخليده إياهم في جهنم الإمكان، نعوذ بالله من غضب الله ﴿فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ﴾ الهادي للكل إلى سواء السبيل نازلة دائماً ﴿عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾﴾ المصرين على العناد، المستكبرين على العباد.

ثم لما ذكر سبحانه ذمائم أخلاقهم وقبائح أفعالهم، أراد أن يذكر كلاماً مطلقاً على وجه العظة والنصيحة في ضمن تعييرهم وتقريعهم، ليتذكر به المؤمنون فقال:

﴿بِئْسَمَا ٱشْتَرَوْا۟ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ﴾ بما باعو واستبدلوا به أنفسهم معارف

أَن يَكْفُرُوا۟ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بَغْيًا أَن يُنَزِّلَ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ فَبَآءُو بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍ ۚ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٩٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا۟ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ نُؤْمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ....

نفوسهم أو شهودها أو وصولها ﴿ أَن يَكْفُرُوا۟ ﴾ أن يكذبوا من غاية خباثتهم وعنادهم ﴿ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ﴾ على من هو أهلٌ وقابلٌ له ليهدي به من ضل عن طريق الحق مع جزمهم أيضاً بحقيته بلا شبهةٍ ظهرت لهم، بل إنما يكفرون ﴿ بَغْيًا ﴾ وحسداً على ﴿ أَن يُنَزِّلَ ٱللَّهُ ﴾ المستجمع المستحصر للقابليات والاستعدادات ﴿ مِن ﴾ محض ﴿ فَضْلِهِۦ ﴾ ولطفه بلا علةٍ وغرضٍ ﴿ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ﴾ يختار ويريد من عباده الخلص وهم الذين ارتفعت هوياتهم وتلاشت ماهياتهم واضمحلت وفنيت تعيناتهم وصاروا ما صاروا لا إله إلا هو، ولما كفروا بالله وحسدوا لأنبيائه وبخلوا عن خزائن فضله ﴿ فَبَآءُو ﴾ رجعوا مقاربين ﴿ بِغَضَبٍ ﴾ عظيم من الله المنتقم عن جريمتهم ﴿ عَلَىٰ غَضَبٍ ﴾ عظيم إلى ما شاء الله الظهور باسم المنتقم، وقل يا أكمل الرسل للمؤمنين: ﴿ وَلِلْكَٰفِرِينَ ﴾ المستهينين بكتاب الله ودينه ونبيه ﴿ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٩٠﴾ ﴾ لهم في الدنيا والآخرة، إهانتهم في الدنيا ضربُ الذلة والمسكنة والجزية والصغار، وفي الآخرة حِرْمانهم عن الكمال الإنساني الذي يتوقع منهم، ولا عذاب أشد من ذلك.

ربنا اصرف عنا عذابك وقنا من سخطك.

﴿ وَ ﴾ من غاية استنكافهم واستكبارهم ﴿ إِذَا قِيلَ لَهُمْ ﴾ كلاماً صادقاً يقبله كل العقول ﴿ ءَامِنُوا۟ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ﴾ في الواقع مطلقاً ﴿ قَالُوا۟ ﴾ في الجواب حاصرين: بل ﴿ نُؤْمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ﴾ فقط ولا تَمَّ الإنزال لغيرنا ﴿ وَ ﴾ لا

وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَآءَهُۥ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ ۗ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنۢبِيَآءَ ٱللَّهِ مِن قَبْلُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٩١﴾ ۞ وَلَقَدْ جَآءَكُم مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ ثُمَّ ٱتَّخَذْتُمُ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَنتُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿٩٢﴾ ....

يقتصرون عليه بل ﴿يَكْفُرُونَ بِمَا وَرَآءَهُۥ وَ﴾ إن كان ﴿هُوَ ٱلْحَقُّ﴾ المطابق للواقع في نفسه وهم يعلمون حقيته وإن كان ﴿مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ ۗ﴾ من الكتاب. والحسد والعناد الراسخين في نفوسهم وطباعهم ومبالغتهم في العناد والإصرار على تكذيب هذا الكتاب مع أن الإيمان بأحد المتصادقين المتوافقين يوجب الإيمان بالآخر، يدل على أن لا إيمان لهم بالتوراة أيضاً، بل هم كافرون بها لدلالة أفعالهم وأعمالهم على الكفر بها وإن أنكروه ﴿قُلْ﴾ لهم إلزاماً يا أكمل الرسل ﴿فَلِمَ تَقْتُلُونَ﴾ أيها المدينون بدين اليهود المؤمنون المصدقون بالتوارة ﴿أَنۢبِيَآءَ ٱللَّهِ﴾ الحاملين لها العاملين بها ﴿مِن قَبْلُ إِن كُنتُم﴾ صادقين في أنكم ﴿مُّؤْمِنِينَ ﴿٩١﴾﴾ بها فثبت أنكم لستم مؤمنين بها حينئذ لتخلفكم عن مقتضاه وتكذيبكم من أنزل عليه، وإن أنكروه اذكر لهم:

﴿۞ وَلَقَدْ جَآءَكُم مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ الواضحات المبينات[1] في التوراة المبينات[1] لطريق التوحيد والإيمان، فكذبتم موسى عليه السلام على جميع بيناته[2] بالمرة ﴿ثُمَّ ٱتَّخَذْتُمُ ٱلْعِجْلَ﴾ إلهاً ﴿مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾ أي من بعد ما ذهب موسى إلى الطور للفوائد الأخر المتعلقة لتكميلكم ﴿وَأَنتُمْ﴾ قوم ﴿ظَٰلِمُونَ ﴿٩٢﴾﴾ شأنكم العدول عن طريق الحق ومنهج الصواب.

---

(١) في المخطوط (المبنيات).

(٢) في المخطوط (بنياته).

وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱسْمَعُوا۟ ۖ قَالُوا۟ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأُشْرِبُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ ۚ قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُم بِهِۦٓ إِيمَٰنُكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٩٣﴾

﴿وَ﴾ إن أردت يا أكمل الرسل زيادة إلزامهم وإسكاتهم، اذكر لهم نيابة عنا وقت ﴿إِذْ أَخَذْنَا﴾ منكم أيها الناقضون لعهودنا والمنكرون لكتابنا ﴿مِيثَٰقَكُمْ﴾ الذي واثقكم معنا ثم استثقلتموه وتركتموه ﴿وَ﴾ ألجأناكم على إيفائه بأن ﴿رَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ﴾ معلقاً وقلنا لكم استعلاءً وتجبراً ﴿خُذُوا۟﴾ وامتثلوا ﴿مَآ ءَاتَيْنَٰكُم﴾ على نبيكم من الأوامر والنواهي ﴿بِقُوَّةٍ﴾ جدٍ واجتهادٍ ﴿وَٱسْمَعُوا۟﴾ من المعارف والحقائق بسمع الرضا ونية الكشف ﴿قَالُوا۟﴾ ظاهراً: ﴿سَمِعْنَا﴾ ما أمرتنا به ﴿وَ﴾ قالوا خفية: ﴿عَصَيْنَا﴾ عن الامتثال بها ﴿وَ﴾ سبب عصيانهم أنهم لدَناءَتهم وسخافة طبعهم ﴿أُشْرِبُوا۟﴾ تداخلوا وتجبلوا وتطيبوا ﴿فِى قُلُوبِهِمُ﴾ التي هي محل الإيمان والتوحيد منازل العرفان واليقين ﴿ٱلْعِجْلَ﴾ أي محبة العجل المسترذل والمستقبح المستحدث من حليهم وما هي إلا ﴿بِكُفْرِهِمْ﴾ بالله وبكتبه ورسله، وحصرهم ظهور الحق في مظهر مخصوص[1]، ومع ذلك يدعون الإيمان بموسى، ﴿قُلْ﴾ لهم يا أكمل الرسل تقريعاً لهم على وجه التعريض ﴿بِئْسَمَا يَأْمُرُكُم بِهِۦٓ إِيمَٰنُكُمْ﴾ من إنكار كتب الله وتكذيب رسلهم وقتلهم بغير حق واعتقادهم الشريك لله ﴿إِن كُنتُم﴾ صادقين في كونكم ﴿مُّؤْمِنِينَ ﴿٩٣﴾﴾.

(١) في المخطوط (مظهره مخصوص).

قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمُ ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ عِندَ ٱللَّهِ خَالِصَةً مِّن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُاْ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٩٤﴾ وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًۢا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ....

ثم لما اشتهر بين الناس قولهم لن يدخل الجنة إلا من كان هوداً وامتنع كثير من الناس القاصدين دين الإسلام وتغمم ضعفاء المسلمين أيضاً من هذا الكلام، أشار سبحانه إلى دفعه مخاطباً لرسوله معكم:

﴿قُلْ﴾ لهم نيابةً عنا يا أكمل الرسل: ﴿إِن كَانَتْ﴾ محصورةً مسلمةً ﴿لَكُمُ ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ عِندَ ٱللَّهِ﴾ التي هي منازل الشهداء والسعداء ومقام العرفاء والأُمناء ﴿خَالِصَةً﴾ خاصةً مخصوصةً ﴿مِّن دُونِ﴾ شركة ﴿ٱلنَّاسِ﴾ المنسوبين إلى الأديان الأخر ﴿فَتَمَنَّوُاْ﴾ عن صميم القلب ومحض الرغبة ﴿ٱلْمَوْتَ﴾ المقرب لكم إليها، والموصل إلى لذائذها، كما يتمناه خلص المؤمنين بوحدانية الله في أكثر أوقاتهم، قال المرتضى كرم الله وجهه: «لابنُ أبي طالب أشوق إلى الموت من الطفل بثدي أمه»، وقال أيضاً: «لا أبالي سقطت على الموت أو سقط الموت عليَّ»، وقال أيضاً:

جزى الله الموت عنا خيراً فإنه ... أبر بنا من كل خير وأرأف

يعجل تخليص النفوس من الأذى ... ويداني إلى الدار التي هي أشرف

وقال عمار رضي الله عنه حين استشهد: «الآن ألقى الأحبة محمداً وصحبه» وأنتم أيضاً تمنون الموت المقرب ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٩٤﴾﴾ في دعواكم.

﴿وَ﴾ الله ﴿لَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًۢا بِمَا قَدَّمَتْ﴾ كسبت ﴿أَيْدِيهِمْ﴾ أنفسهم من الحرص وطول الأمل والاستلذاذ باللذات الحسية، والوهمية من الجاه

وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٩٥﴾ وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ ٱلنَّاسِ عَلَىٰ حَيَوٰةٍ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْۚ يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِۦ مِنَ ٱلْعَذَابِ أَن يُعَمَّرَۗ وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾ ....

والمنزل والمكانة بين الناس والاستكبار عليهم، ألا تراهم يتوجهون ويرجعون إلى الله عند نزول البلاء المشعر بتعجيل الموت المقرب استكشافاً، وإذا كُشِفَ ولّوا على ما هم عليه مدبرين ﴿وَٱللَّهُ﴾ المحيطُ بسرائرهم وضمائرهم ﴿عَلِيمُۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٩٥﴾﴾ القائلين بأفواههم ما ليس في قلوبهم.

﴿وَ﴾ الله يا أكمل الرسل، إن فتشت عن أحوالهم واستكشفت عن ضمائرهم ﴿لَتَجِدَنَّهُمْ﴾ أي اليهود وجداناً صادقاً ﴿ أَحْرَصَ ٱلنَّاسِ عَلَىٰ حَيَوٰةٍ﴾ دائمةٍ مستمرةٍ من نوع الإنسان عموماً وخصوصاً ﴿وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْۚ﴾ واعتقدوا أن لا حياة إلا في دار الدنيا بل ﴿ يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ ليزيد عليه ألفاً آخر وهكذا ﴿وَ﴾ الحال أنه بهذه المحبة ﴿ مَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِۦ﴾ بمبعد نفسه ﴿مِنَ ٱلْعَذَابِ أَن يُعَمَّرَۗ﴾ إلى غاية ما يتمناه ويحب، بل ما زاد إلا عذاباً فوق العذاب ﴿وَٱللَّهُ﴾ المجازي لهم أعمالهم ﴿ بَصِيرُۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾﴾ أي بجميع أعمالهم في جميع أعمارهم، بحيث لا يعزب عن علمه شيء منها.

ثم لما ظهر الإسلام وترقى أمره وارتفع قدره واشتهر إنزال القرآن الناسخ لجميع الأديان، اضطرب اليهود ووقعوا فيما وقعوا، سألوا رسول الله ﷺ عمن أنزل عليه من الملائكة، فقال ﷺ: أخونا جبرائيل صلوات الرحمن عليه، قالوا: هو عدونا القديم ليس هذا أول ظهوره بالعداوة، بل ظهر علينا بالعداوة من قبل مراراً، وهو بصدد نسخ ديننا، قال سبحانه وتعالى مخاطباً لنبيه:

قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٩٧﴾ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَىٰلَ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَٰفِرِينَ ﴿٩٨﴾ ....

﴿قُلْ﴾ يا أكمل الرسل ﴿مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ﴾ أي لمن يدعي عداوة أميننا جبرائيل بواسطة إنزال القرآن أولئك لا وجه لاتخاذكم جبرائيل عدواً ﴿فَإِنَّهُۥ﴾ إنما ﴿نَزَّلَهُۥ﴾ أي القرآن ﴿عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾ يا أكمل الرسل الذي هو وعاء الإيمان والإسلام ومهبط الوحي والإلهام ﴿بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ المنزل إلقاءه إليه وأمره إياه بتنزيل لا من عند نفسه حتى يتخذوه عدواً، وإن اتخذوه عدواً فاتخذوا الله المنزل عدواً مع أنه لا وجه للعداوة أصلاً لكون المنزل عليه ﴿مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ من الكتب المنزلة ﴿وَهُدًى﴾ يهتدي به إلى طريق الإيمان والتوحيد ﴿وَبُشْرَىٰ﴾ بالنعيم الدائم الباقي ﴿لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٩٧﴾﴾ المهتدين به، جعلنا الله ممن اقتفى أثرهم.

قل لهم أيضاً يا أكمل الرسل

﴿مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ﴾ بنقض عهوده وعدم الامتثال بأوامره والاجتناب عن نواهيه ﴿وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ﴾ بنسبتهم إلى أشيائهم منزهون عنها ﴿وَرُسُلِهِۦ﴾ بالتكذيب والقتل والاستهزاء والإهانة وخصوصاً من الملائكة ﴿وَجِبْرِيلَ وَمِيكَىٰلَ﴾ كِلا الأمينين عند الله بنسبة الخيانة والعداوة إليهما فهو كافر بالله بثبوت واحدٍ منهما ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَٰفِرِينَ ﴿٩٨﴾﴾ بكفرهم وإصرارهم وعنادهم.

وَلَقَدۡ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ءَايَٰتِۭ بَيِّنَٰتٖۖ وَمَا يَكۡفُرُ بِهَآ إِلَّا ٱلۡفَٰسِقُونَ ﴿٩٩﴾ أَوَكُلَّمَا عَٰهَدُواْ عَهۡدٗا نَّبَذَهُۥ فَرِيقٞ مِّنۡهُمۚ بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ﴿١٠٠﴾ وَلَمَّا جَآءَهُمۡ رَسُولٞ مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٞ لِّمَا مَعَهُمۡ نَبَذَ فَرِيقٞ مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَرَآءَ ظُهُورِهِمۡ ....

﴿وَ﴾ من جملة كفرهم وعنادهم أنهم ﴿لَقَدۡ أَنزَلۡنَآ﴾ من غاية لطفنا وجودنا ﴿إِلَيۡكَ﴾ يا من وسعت مظهريته جميع أوصافنا وأخلاقنا ﴿ءَايَٰتِۭ﴾ دلائل ﴿بَيِّنَٰتٖۖ﴾ واضحاتٍ لطريق المعرفة والإيمان والتوحيد والإيقان فكفروا بها وكذبوها ﴿وَمَا يَكۡفُرُ بِهَآ﴾ مع وضوحها وجلائها، ﴿إِلَّا ٱلۡفَٰسِقُونَ ﴿٩٩﴾﴾ الخارجون عن رتبة العبودية؛ لعدم الانقياد بالكتاب والنبي بل بالإنزال بل بالمنزل ألم يكونوا فاسقين دائماً؟!

﴿أَوَكُلَّمَا عَٰهَدُواْ عَهۡدٗا﴾ وثيقاً مؤكداً ﴿نَّبَذَهُۥ﴾ نقضه ﴿فَرِيقٞ مِّنۡهُمۚ﴾ لفسقه ثم سرى نقضه إلى الكل فنقضوا جميعاً ﴿بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ﴿١٠٠﴾﴾ ينقادون بالعهد والكتاب والنبي أو أمره.

﴿وَ﴾ أيضاً من جملة عتوهم أنهم ﴿لَمَّا جَآءَهُمۡ رَسُولٞ﴾ مرسلٌ ﴿مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِ﴾ المرسِلِ للرسل لهداية الناس إلى التوحيد مع أنه ﴿مُصَدِّقٞ لِّمَا مَعَهُمۡ﴾ من الكتب المنزلة على الرسل، الهادي لارتفاع التعدد والاختلاف عن أهل التوحيد مع أن مجيء هذا الرسول منزلٌ مثبتٌ في كتابهم الذي يدَّعون الإيمان به ﴿نَبَذَ﴾ طرح ﴿فَرِيقٞ مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ﴾ وهو اليهود ﴿كِتَٰبَ ٱللَّهِ﴾ هو التوراة التي ادعوا الإيمان بها ﴿وَرَآءَ ظُهُورِهِمۡ﴾ ولم يلتفتوا إليه ولم يتوجهوا نحوه بل صاروا من غاية عداوتهم وعنادهم مع الرسول المبعوث

كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾ وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ

﴿كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾﴾ ولا يقرؤون كتابهم أصلاً.

﴿وَ﴾ بعد ما نبذوا التوراة وراء ظهورهم لاشتمالها على أوصافك وظهورك يا أكمل الرسل أخذوا في معارضتك بالسحر ﴿اتَّبَعُوا مَا تَتْلُوا﴾ تنسب وتفتري ﴿الشَّيَاطِينُ﴾ المردة من الجن ﴿عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ﴾ بأن استيلاءه وتسلطه وتسخير الجن والإنس والوحوش والطيور والريح، إنما تم بالسحر ﴿وَ﴾ الحال أنه ﴿مَا كَفَرَ﴾ وسحر ﴿سُلَيْمَانُ﴾ قط بل أمره على الوحي والإلهام والوارد الغيبي ﴿وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ﴾ يسترقون من الملائكة وينسبون الأمور إلى الوسائط أصالةً، بواسطة ذلك ﴿كَفَرُوا﴾ وبعدما كفروا ﴿يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ﴾ أي الذي يستَرِقون منهم ﴿وَ﴾ خصوصاً ما يستَرِقون من ﴿مَا أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ﴾ المحبوسين ﴿بِبَابِلَ﴾ المسميان:

﴿هَارُوتَ وَمَارُوتَ﴾ مع أن المنزل إليهما مكر الله مع عباده وابتلاهم وفتنهم ﴿وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولَا﴾ له طريقه وكيفية بل يقول لمن ظهر له بالسحر: ﴿إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ﴾ من الله وابتلاءٌ لعباده ﴿فَلَا تَكْفُرْ﴾ بنسبة الأمور إلينا، ولا تكفر بصدد التعليم أيضاً ﴿فَيَتَعَلَّمُونَ﴾ المستَرِقون ﴿مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ﴾ مما يورث قطع المحبة والعلاقة المستلزمتين لحفظ

وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ ۚ وَلَقَدْ عَلِمُوا۟ لَمَنِ ٱشْتَرَىٰهُ مَا لَهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ ۚ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا۟ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿١٠٢﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَمَثُوبَةٌ ....

النسب إضراراً للدين والإيمان ﴿وَ﴾ الحال أنهم ﴿مَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ﴾ ومشيئته وتقديره، إذ لا يجرى في ملكه إلا ما يشاء، وهم مع إذعانهم العلم والعقل ﴿وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ﴾ ضراراً فاحشاً في النشأة الأولى والأخرى ﴿وَلَا يَنفَعُهُمْ ۚ﴾ نفعاً فيهما أصلاً ﴿وَ﴾ الله ﴿لَقَدْ عَلِمُوا۟﴾ أي اليهود ﴿لَمَنِ ٱشْتَرَىٰهُ﴾ أي استبدله، أي كتاب الله بالسحر ﴿مَا لَهُۥ﴾ للمستبدل ﴿فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ ۚ﴾ نصيبٍ لامتنعوا عن الاستبدال، لكنهم لم يعلموا فاستبدلوا، فثبت أنهم ليسوا من العقلاء العالمين، وبعدما عيرهم سبحانه بما عيرهم وجهّلهم كرر تعييرهم مبالغة وتذكيراً للمتذكرين بها فقال مقسماً: ﴿وَ﴾ الله ﴿لَبِئْسَ مَا شَرَوْا۟﴾ وأباحوا ﴿بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ ۚ﴾ حقائقها ومعارفها ولذاتها الروحانية بالسحر المبني على الكفر بالله وكتبه ورسله وملائكته ؛ لأن المشهور من أصحاب السحر أن سحرهم لا يؤثر بالكفر والخباثة والكثافة ﴿لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿١٠٢﴾﴾ يفهمون قباحته لما ارتكبوا، لكنهم لم يعلموا فارتكبوا، فثبت أيضاً جهلهم وسخافتهم.

ومن غاية جهلهم أيضاً أنهم يدّعون الإيمان بالله وبالرسول والكتب ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟﴾ يوماً بالله وكتبه ورسله بلا تفريق بين الكتب والرسل ﴿وَٱتَّقَوْا۟﴾ عن القبائح الأخروية جميعاً بلا رخصة ﴿لَمَثُوبَةٌ﴾ فائدةٌ جليلةٌ عائدةٌ إليهم

مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ خَيْرٌ لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿١٠٣﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَقُولُوا۟ رَٰعِنَا وَقُولُوا۟ ٱنظُرْنَا وَٱسْمَعُوا۟ ۗ وَلِلْكَـٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٠٤﴾

﴿مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ عندهم ﴿خَيْرٌ﴾ من الدنيا ومزخرفاتها ولذاتها الفانية كما هو عند المؤمنين الموقنين بوحدانيته ﴿لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿١٠٣﴾﴾ خيريته لم يكفروا بعده، لكنهم كفروا، فثبت جهلهم وغباوتهم أيضاً.

ثم لما سمع اليهود من المؤمنين قولهم: راعنا عند رجوعهم إليه ﷺ في الخطوب قالوا: هؤلاء ليسوا مؤمنين منقادين له مطيعين لأمره ؛ لدلالة قولهم راعنا على أنك محتاج إلينا، فلك أن تراعنا حق الرعاية، ولما كان فيه من إيهام سوء الأدب وإن كان غرضهم الترقب والالتفات، أثار سبحانه إلى نهيهم عن هذا القول رعايةً لمرتبة حبيبه ﷺ وتأديباً للمؤمنين فقال:

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَقُولُوا۟﴾ مع نبيكم عند الخطاب له ﴿رَٰعِنَا﴾ وإن كان مقصودكم صحيحاً لكن العبارة توهم للمعنى الباطل بل الأولى لكم والأليق بحالكم أن تخاطبوا رسولكم إكراماً له وتعظيماً ﴿وَ﴾ إن اضطررتم إلى الخطاب ﴿قُولُوا۟﴾ بدله ﴿ٱنظُرْنَا﴾ بنظر المرحمة والشفقية ﴿وَٱسْمَعُوا۟﴾ هذا القولَ بسمع الرضا والقبول وحافظوا عليه لئلا تسيئوا الأدب معه ﴿وَ﴾ اعلموا أن ﴿لِلْكَـٰفِرِينَ﴾ المغتنمين للفرصة في أمثال هذه الكلمات ﴿عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٠٤﴾﴾ لهم في الدنيا والآخرة.

ثم لما عجزوا عن معارضتكم صريحاً أخذوا في التلبيس والتخمين وادعاء المحبة والمودة على وجه النفاق ليحفظوا دماءهم وأموالهم عنكم، ولا تغتروا أيها المؤمنون بودادهم ولا تسمعوا منهم أقوالهم الكاذبة.

مَّا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَلَا ٱلْمُشْرِكِينَ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْكُم مِّنْ خَيْرٍ مِّن رَّبِّكُمْۗ وَٱللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿١٠٥﴾ ....

﴿مَّا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَلَا ٱلْمُشْرِكِينَ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْكُم﴾ لإصلاح حالكم وزيادة إنعامكم وإفضالكم ﴿مِّنْ خَيْرٍ﴾ وحيٍ نازلٍ ﴿مِّن رَّبِّكُمْۗ﴾ الذي اختاركم واصطفاكم على جميع الأمم بغضاً وحسداً مركوزاً في طباعهم وبخلاً على ما أعطاكم الله من الخير ﴿وَ﴾ لم يمكنهم منع إعطائه تعالى إذ ﴿ٱللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ﴾ الواسعة ونعمته العامة الشاملة ﴿مَن يَشَآءُۚ﴾ من خلص عباده بلا علةٍ وغرضٍ ومرجحٍ ومخصصٍ، بل مع اختيارٍ وإرادةٍ بلا إيجاب وتوليد كما ظنه المعتزلة والحكماء الناقدون[1] للبصيرة في الإلهيات والنبوات، ومن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور ﴿وَ﴾ لا تشكوا في سعة رحمته وفضله بحرمان البعض إذ ﴿ٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿١٠٥﴾﴾ يفضل وينعم على مقتضى مشيئته وحكمته ومصلحته المخفية عن عقول العباد إلا من أطلعه الله على سرائر أفعاله من الكمل.

جعلنا الله من محبيهم ومتبعيهم بمنه ولطفه.

ثم اعلم أن الحوادث الكائنة في الآفاق كليةً كانت أو جزئيةً، غيباً أو شهادةً، وهماً أو خيالاً إنما هي بمقتضيات الأوصاف والأسماء الإلهية الكلية المشتملة

(١) في المخطوط (الناقدين).

﴿۞ مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآ ۗ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٠٦﴾ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١٠٧﴾﴾ ....

كلٌ منها على أوصافٍ جزئيةٍ غير متناهيةٍ بلا تكررٍ، فما من حادثة حدثت في العالم إلا بوصف خاص الذي يخصه ويرتبه لا يوجد في غيره، لذلك قيل: «لا يتجلى في صورة مرتين ؛ لئلا يلزم التكرار المنافي للقدرة الكاملة، ولا في صورة واحدة لاثنين ؛ لئلا يلزم العجز عن إتيان الصورة الأخرى» وإلى هذا أشار سبحانه بقوله:

﴿ ۞ مَا نَنسَخْ ﴾ نغير ونبدل ﴿مِنْ ءَايَةٍ ﴾ نازلةٍ حاكمةٍ في وقتٍ وزمانٍ يقتضيه نزولها في اسم مخصوصٍ ﴿ أَوْ نُنسِهَا ﴾ من القلوب كأنه لم ينزل من قبل ﴿ نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ ﴾ أي متى ننسخها أو ننسها، نأت بخير منها بحسب اقتضاء الزمان الثاني والاسم الخاص له، إذ سريان الوجود دائماً على الترقي في الكمال، ﴿ أَوْ مِثْلِهَآ ۗ ﴾ إذ التجدد ظاهراً إنما يكون بالمثل والمعاد مثل المبدأ.

ثم استفهم لحبيبه تذكيراً وعظة للمؤمنين فقال:

﴿ أَلَمْ تَعْلَمْ ﴾ يقيناً ﴿ أَنَّ ٱللَّهَ ﴾ المتجلي بالتجليات غير المتناهية ﴿عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ ﴾ من الإجراء والإعادة والإنزال والتغيير، ﴿قَدِيرٌ ﴿١٠٦﴾﴾ لا تنتهي قدرته عند المراد، بل له التصرف فيه ما شاء بالاختيار والإرادة.

﴿ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ ﴾ يتصرف فيهما كيف يشاء كما يشاء متى يشاء بلا فتورٍ ولا فطور هذا في الآفاق ﴿وَ﴾ ارجعوا إلى أنفسكم وأعلموا أنه ﴿وَمَا لَكُم ﴾ في ذواتكم وهوياتكم ﴿مِّن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ المحيط بكم وبجميع أوصافكم ﴿مِن وَلِىٍّ ﴾ يولي أموركم ﴿وَلَا نَصِيرٍ ﴿١٠٧﴾﴾

أَمْ تُرِيدُونَ أَن تَسْـَٔلُوا۟ رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ ۗ وَمَن يَتَبَدَّلِ ٱلْكُفْرَ بِٱلْإِيمَٰنِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿١٠٨﴾ وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ....

يعين عليكم من دونه بل هو محيطٌ هوياتكم وماهياتكم كما أخبر به سبحانه في قوله: «...كُنْتُ سَمْعَهُ... وَبَصَرَهُ... وَيَدَهُ... وَرِجْلَهُ...»[1] الحديث.

أتسلمون وتفوضون أموركم إلى الله ورسوله أيها المؤمنون المسلمون وتقبلون دين الإسلام تعبداً وانقياداً

﴿ أَمْ تُرِيدُونَ ﴾ وتقصدون ﴿أَن تَسْـَٔلُوا۟ ﴾ وتقترحوا عن سرائر الآيات النازلة عليكم لاصلاحكم حالِكم عناداً ومكابرة ﴿رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ ﴾ عن الآيات النازلة لإصلاح بني إسرائيل مما نزل من آيةٍ إلا ويسألوه على وجه الإلحاح والاقتراح فيجازيهم الله على مقتضى اقتراحهم، وإن اقترحتم كما اقترحوا يجازيكم الله كما جازاهم ﴿وَ﴾ اعلموا أن ﴿مَن يَتَبَدَّلِ ٱلْكُفْرَ ﴾ الموهوم المذموم ﴿بِٱلْإِيمَٰنِ ﴾ المحقق المجزوم ﴿فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿١٠٨﴾﴾ طريق الحق المستقيم الموصل إلى التوحيد كما ضل بنو إسرائيل بمخالفة كتاب الله وتكذيب رسله.

ثم اعلموا أيها المؤمنون أنه ﴿ وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ﴾

---

(١) جزء من حديث طويل وصحيح.

رواه البخاري في صحيحه [٥/ ٢٣٨٤رقم/ ٦١٣٧/ باب: من جاهد نفسه في طاعة الله]. وابن حبان في صحيحه [٢/ ٥٨ رقم/ ٣٤٧/]. والطبراني في المعجم الأوسط [٩/ ١٣٩رقم/ ٩٣٥٢/] والكبير [٨/ ٢٠٦رقم/ ٧٨٣٣/] وغيرهم وللحديث طرق وشواهد كثيرة.

لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّ ۖ فَٱعْفُواْ وَٱصْفَحُواْ حَتَّىٰ يَأْتِيَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٠٩﴾ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ ۚ وَمَا تُقَدِّمُواْ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ ۗ ....

خصوصاً اليهود والنصارى ﴿لَوْ يَرُدُّونَكُم﴾ بأنواع الحيل والنفاق ﴿مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ﴾ بالله وكتبه ورسله ﴿كُفَّارًا﴾ مردين واجب القتل والمقت عند الله ، وليس ودادتهم كفركم لغاية تصلبهم[1] في دينهم ونهاية غيرتهم عليه بل ﴿حَسَدًا﴾ لكم ناشئاً ﴿مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم﴾ من غاية عداوتهم معكم ﴿مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ﴾ ظهر ﴿لَهُمُ﴾ أن دينكم ﴿ٱلْحَقُّ﴾ المطابق للواقع بشهادة كتابهم ونبيهم، وإذا فهمتم أمرهم وعرفتم عداوتهم ﴿فَٱعْفُواْ﴾ عن الانتقام والعقوبة ﴿وَٱصْفَحُواْ﴾ أعرضوا عن التعبير في التقريع واصبروا ﴿حَتَّىٰ يَأْتِيَ ٱللَّهُ﴾ باسمه المنتقم ﴿بِأَمْرِهِۦٓ﴾ المبرم من ضرب الذلة والمسكنة والغضب عليهم دائماً ﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾ المتجلي باسم المنتقم ﴿عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٠٩﴾﴾ من أنواع الانتقامات قديرٌ على الوجه الأصعب الأشد.

﴿وَ﴾ بعد ما فوضتم أموركم إلى الله واتخذتموه وكيلاً حفيظاً لكم عن أدائكم ﴿أَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ رابطوا ظواهركم وبواطنكم إليه سبحانه دائماً على وجه التذلل والخضوع والانكسار والخشوع ﴿وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ طهروا قلوبكم عن الميل إلى ما سوى الحق ﴿وَ﴾ اعلموا أن ﴿مَا تُقَدِّمُواْ﴾ في هذه النشأة ﴿لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ﴾ من التوجه الدائم والإعراض الدائم عن محبة الغير ﴿تَجِدُوهُ عِندَ﴾ ظهور توحيد ﴿ٱللَّهِ﴾ وتجريده وتفريده على قلوبكم

(١) في المخطوط (تصبلهم).

إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١٠﴾ وَقَالُوا۟ لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ ۗ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ ۗ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١١١﴾ بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُۥٓ أَجْرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١١٢﴾ ....

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ ﴾ المحيط بذواتكم ﴿ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ من خير ﴿بَصِيرٌ ﴿١١٠﴾﴾ عليم خبير.

﴿وَ﴾ من جملة حيلتهم معكم ووداداتهم كفركم أنهم ﴿ قَالُوا۟ ﴾ لكم على وجه العظة والتذكير ﴿ لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ ﴾ من أهل الأديان ﴿إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ ۗ تِلْكَ ﴾ المهملات ما هي إلا ﴿ أَمَانِيُّهُمْ ۗ ﴾ التي يخمرونها في نفوسهم بلا كتابٍ ولا دليلٍ وإن ادعوا الدليل ﴿قُلْ ﴾ لهم يا أكمل الرسل إلزاماً ﴿هَاتُوا۟ ﴾ أيها المدعون ﴿ بُرْهَٰنَكُمْ ﴾ من آيات الله وسنن رسله ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١١١﴾﴾ في دعوى الاختصاص.

قل لهم يا أكمل الرسل كلاماً ناشئاً عن محض الحكمة والإخلاص لا وجه لدعوى اختصاص الجنة لا منكم ولا منا

﴿ بَلَىٰ ﴾ أي بل مبنى الأمر على أن ﴿مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ ﴾ وسلّم وجهه المنسوب إليه مجازاً ﴿ لِلَّهِ ﴾ المنسوب إليه حقيقة ﴿وَهُوَ﴾ في نفسه ﴿ مُحْسِنٌ﴾ عارفٌ مشاهدٌ ﴿فَلَهُۥٓ أَجْرُهُۥ﴾ مرجعه ومقصده ﴿ عِندَ ﴾ مرتبة ﴿رَبِّهِۦ ﴾ المخصوص له ﴿وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١١٢﴾﴾ لغنائهم عن قابلية الخوف والحزن ومقتضيات الطبيعة وبقائهم بمرتبة ربهم.

وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ لَيْسَتِ ٱلنَّصَـٰرَىٰ عَلَىٰ شَىْءٍ وَقَالَتِ ٱلنَّصَـٰرَىٰ لَيْسَتِ ٱلْيَهُودُ عَلَىٰ شَىْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ ٱلْكِتَـٰبَ ۗ كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ ۚ فَٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١١٣﴾ ....

﴿وَ﴾ من عدم تفطنهم للإيمان والإذعان وعدم تنبههم على طريق التوحيد والعرفان ﴿قَالَتِ ٱلْيَهُودُ﴾: الدين ديننا والكتاب كتابنا والنبي نبينا ﴿لَيْسَتِ ٱلنَّصَـٰرَىٰ عَلَىٰ شَىْءٍ﴾ في أمر الدين بل هم ضالون[1] عن طريق الحق، لا يهتدون النبي أصلاً إلا أن يؤمنوا بديننا ﴿وَ﴾ أيضاً ﴿قَالَتِ ٱلنَّصَـٰرَىٰ﴾ ديننا حقٌ وشريعتنا مؤيدةٌ ونبينا مخلدٌ ﴿لَيْسَتِ ٱلْيَهُودُ عَلَىٰ شَىْءٍ﴾ في الدين والإيمان بل الدين ديننا ﴿وَ﴾ الحال أن ﴿هُمْ﴾ أي كلا الفريقين ﴿يَتْلُونَ ٱلْكِتَـٰبَ﴾ المنزل على نبيهم ويدعون الإيمان والإذعان، ومع ذلك لم يخلصوا من الجهل والعناد ولم يتنبهوا على التوحيد المزيح للاختلاف، المشعر للوفاق والاتحاد، بل فرق بينهم وبين المشركين النافيين للصانع إذ ﴿كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ الكتاب والنبي والدين والإيمان ﴿مِثْلَ قَوْلِهِمْ﴾ بأن الحق ما نحن عليه بلا كتابٍ ولا نبيٍ لأن الإنسان مجبولٌ على ترجيح ما هو عليه سواءً كان حقاً أو باطلاً، صلاحاً أو فساداً، والأنبياء إنما يرسلون ويبعثون ليميزوا لهم الحقَ عن الباطل، والصالحَ عن الفاسد، وهم مع بعثة الرسل إليهم سواء كان مع المشركين الذين لا كتاب لهم ولا نبي ﴿فَٱللَّهُ﴾ المحيط بسرائرهم وضمائرهم ﴿يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ﴾ على مقتضى علمه بأعمالهم وأحوالهم ﴿يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ المعد لجزاء الأعمال، ﴿فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١١٣﴾﴾ على

(١) في المخطوط (ضالين).

وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ وَسَعَىٰ فِى خَرَابِهَآ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَن يَدْخُلُوهَآ إِلَّا خَآئِفِينَ ۚ لَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١٤﴾ وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ وَٰسِعٌ ....

مقتضى آرائهم وأهوائهم، فيجازيهم بمقتضى ما يعملون ويعلمون.

﴿وَمَنْ﴾ على الله المظهر للعباد ليعرفوه، ويتوجهوا نحوه في الأمكنة المعدة للتوجه ﴿أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ﴾ الموضوعة ﴿أَن يُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ﴾ أي يذكر فيها أسماؤه، والمؤمنون الموقنون بأسمائه الحسنى ﴿وَ﴾ مع المنع ﴿سَعَىٰ فِى خَرَابِهَآ﴾ ليستأصلها ويخرجها عما يعدله ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ﴾ المشركون ﴿مَا كَانَ لَهُمْ أَن يَدْخُلُوهَآ﴾ لنجاستهم وخباثتهم، وإن دخلوها لحاجة أحياناً لا بد لهم أن يدخلوها ﴿إِلَّا خَآئِفِينَ﴾ خاضعين متذللين مستوحشين، بحيث لم يتوجهوا يمنةً ويسرةً استحياء من الله، بل منكوسين رؤوسهم على الأرض إلى أن يخرجوا، قل يا أكمل الرسل نيابة عنا ﴿لَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ﴾ قتلٌ وإجلاءٌ وسبيٌ وذلةٌ، ﴿وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١٤﴾﴾ حرمانٌ عن الكمال الإنساني بكفرهم وظلمهم.

﴿وَ﴾ قل للمؤمنين يا أكمل الرسل تسليةً لهم: لا تغتموا عن منعهم منا وسعيهم في تخريبها ولا تحصروا توجهكم إلى الله في الأمكنة المخصوصة بل ﴿لِلَّهِ﴾ المتجلي في الآفاق ﴿ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ﴾ فهما كنايتان عن طرفي العالم ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟﴾ توجهوا نحوه ﴿فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ﴾ أي ذاته إذ هو منتهى الجهات محيط بها ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَٰسِعٌ﴾ أجل من أن تحيط به القلوب إلا

عَلِيمٌ ﴿١١٥﴾ وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًاۗ سُبۡحَٰنَهُۥۖ بَل لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ ﴿١١٦﴾ ....

من وسعه الله بلطفه كما أخبر سبحانه بقوله: «لَا يَسَعُنِي أَرْضِي وَلَا سَمَائِي بَل يَسَعُنِي قَلْبُ عَبْدِي الْمُؤْمِن»(١) ﴿عَلِيمٌ ﴿١١٥﴾﴾ لا يغيب عن علمه شيءٌ وحيث اتجهتم نحوه، عَلِمَه قبل توجهكم بل توجهكم عين توجهه فلا يتوجه إليه إلا هو، لا إله إلا هو، كل شيء هالك إلا وجهه.

ومن غاية جهلهم بالله الواسع العليم الذي لا يسعه الأرض والسماء ولا يحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء حصروه سبحانه في شخصٍ وتخيلوه جسماً، وأثبتوا له لوازم الأجسام ﴿وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًاۗ﴾ كعيسى وعزير عليهما السلام ﴿سُبۡحَٰنَهُۥۖ﴾ وتعالى عز الصمد الذي شأنه لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفؤاً أحد أن يتخذ صاحبة وولداً ﴿بَل لَّهُۥ﴾ مظاهر ﴿مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ ﴿وَ﴾ مظاهر ﴿ٱلۡأَرۡضِۖ﴾ ليظهر عليها ويتجلى لها إظهاراً لكمالاتها المترتبة على صفاته المندرجة في ذاته ، ونسبته تعالى إلى جميع المظاهر في التكوين والخلق على السوى من غير تفاوت، وعيسى وعزير عليهما السلام أيضاً من جملة المظاهر، ومرجع جميع المظان إلى الظاهر إذ ﴿كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ ﴿١١٦﴾﴾ خاضعون منقادون مقرون على ما هم عليه قبل ظهورهم من العدم مقرون بأنه:

---

(١) الإحياء [٣/ ١٥/ بيان مثل القلب بالإضافة إلى العلوم]: ورواه الطبراني من حديث أبي عتبة الخولاني يرفعه إلى النبي ﷺ قال: «إن لله آنية من أهل الأرض وآنية ربكم قلوب عباده الصالحين...» الحديث فيه بقية بن الوليد وهو مدلس لكنه صرح فيه بالتحديث.

بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۖ وَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿١١٧﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا ٱللَّهُ أَوْ تَأْتِينَآ ءَايَةٌۗ كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ

﴿بَدِيعُ﴾ مبدع ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۖ﴾ من العدم بلا سبق مادةٍ وزمانٍ ﴿وَ﴾ من بدائع إبداعه أنه ﴿وَإِذَا قَضَىٰٓ﴾ أراد أن يوجِد ﴿أَمْرًا﴾ مما في خزائن علمه ولوحه المحفوظ وكتابه المبين ﴿فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ﴾ إمضاءً لحكمه ونفاذاً لإرادته ﴿كُن فَيَكُونُ ﴿١١٧﴾﴾ بلا تراخٍ ولا مهلةٍ بحيث لا يسع التعقيب أيضاً إلا لضيق التعبير، والألفاظ بمعزل عن أداء سرعة نفوذ القضاء.

ثم لما ظهر واشتهر أن القرآن ناسخٌ للكتب السالفة مع كونه مصدقاً لها، ناطقاً بأنها منزلةٌ من عند الله على الرسل الماضين الهادين إلى طريق الحق وأن حكم الناسخ ماضٍ باقٍ، وحكم المنسوخ مضى ولم يبق أثره، مع أن كلاًّ منهما حكم الله في زمانين.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ لا يعرفون ظهور الله وتجلياته بحسب أسمائه الحسنى وصفاته العليا في كل آنٍ وشأنٍ لا نقبل هذا الحكم ولا نؤمن به ﴿لَوْلَا يُكَلِّمُنَا ٱللَّهُ﴾ مشافهةً بأن هذا ناسخٌ راجحٌ، وذاك منسوخٌ مرجوحٌ ﴿أَوْ تَأْتِينَآ﴾ على الله من يدعي الرسالة ﴿ءَايَةٌۗ﴾ ملجئةٌ تدل على هذا الحكم بلا احتمالٍ آخر، ولولا هذا ولا ذاك لم نقبله ولم نؤمن به، ولا تستبعد يا أكمل الرسل منهم هذا القول إذ ﴿كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ﴾ كفروا للأنبياء الماضين

مِن قَبْلِهِم مِّثْلَ قَوْلِهِمْ تَشَٰبَهَتْ قُلُوبُهُمْ قَدْ بَيَّنَّا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿١١٨﴾ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَا تُسْـَٔلُ عَنْ أَصْحَٰبِ ٱلْجَحِيمِ ﴿١١٩﴾ وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ ٱلَّذِى جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ....

﴿مِن قَبْلِهِم مِّثْلَ قَوْلِهِمْ﴾ بلا تفاوتٍ بل ﴿تَشَٰبَهَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ المنكرة المخمرة لهذه الأباطيل المُمَوَّهَة مع أنا ﴿قَدْ بَيَّنَّا ٱلْءَايَٰتِ﴾ المنزلة الدالة على توحيدنا ﴿لِقَوْمٍ﴾ ذوي قلوبٍ صافيةٍ عن كدر الإنكار ﴿يُوقِنُونَ ﴿١١٨﴾﴾ بها سواء الآيات الظاهرة على الآفاق والأنفس وهم لانهماكهم في كدر الإمكان والإنكار لا يرجى منهم الإيمان والإقرار.

﴿إِنَّآ﴾ من مقام جودنا ﴿أَرْسَلْنَٰكَ﴾ يا أكمل الرسل ملتبساً ﴿بِٱلْحَقِّ بَشِيرًا﴾ إلى طريقه ﴿وَنَذِيرًا﴾ عن طريق الباطل ﴿وَ﴾ إن لم يبشروا ولم ينذوروا بعد ما بلّغتَ إليهم التبشير والإنذار ﴿لَا تُسْـَٔلُ﴾ أنت ﴿عَنْ﴾ إعراض ﴿أَصْحَٰبِ ٱلْجَحِيمِ ﴿١١٩﴾﴾ المجبولين على الكفر والعناد.

﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ﴾ بمجرد المؤانسة وإظهار المحبة وإرخاء العنان، ﴿حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ﴾ التي ادعوا حقيتها وهدايتها، بل حصروا الهداية عليها ﴿قُلْ﴾ لهم يا أكمل الرسل كلاماً على وجه التذكير وإمحاض النصح، ﴿إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ﴾ الذي يهدي به عباده ﴿هُوَ ٱلْهُدَىٰ﴾ النازلُ من عنده، وهو دين الإسلام، فاتبعوه لتهتدوا ﴿وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ﴾ يا أكمل الرسل ومن تبعك بعد يأسكم في اتباعهم بك ﴿أَهْوَآءَهُم﴾ الباطلة ﴿بَعْدَ ٱلَّذِى جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ﴾ من

مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١٢٠﴾ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَتْلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦۗ وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿١٢١﴾ ....

لدنا على هدايتك وإهداء من تبعك ﴿مَا لَكَ مِنَ﴾ عند ﴿ٱللَّهِ﴾ الهادي للكل إلى سواء السبيل، ﴿مِن وَلِيٍّ﴾ يحفظك من الضلال ﴿وَلَا نَصِيرٍ ﴿١٢٠﴾﴾ يدفع عنك المكاره، قال سبحانه:

﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ﴾ واصطفيناهم من بين الأمم بإرسال الرسل وهم ﴿يَتْلُونَهُۥ﴾ أي الكتاب متأملاً متدبراً مما يشتمل عليه من الأوامر والنواهي والمعارف والحقائق، مراعياً ﴿حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ﴾ بلا تحريف ولا تبديل ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦۗ﴾، وبما فيه من الأحكام والآيات والأخبار، ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ﴾ بتحريفه أو تبديله إلى ما تهوى أنفسهم ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ﴾ المحرفون المغيرون كتاب الله لمصلحة نفوسهم، ﴿هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿١٢١﴾﴾ الذين خسروا أنفسهم في الدنيا والآخرة بسبب تحريف كتاب الله وتبديله.

ثم لما خاطب سبحانه بني إسرائيل أولاً بإيفاء العهد الذي هو شعار الإيمان، وما يتعلق بإيفاء العهد من الرجوع إليه، والإيمان بكتبه ورسله وعدم المبادرة إلى الكفر، وعدم استبدال آيات الله الدالة على ذاته؛ علماً وعيناً وحقاً بالمزخرفات الفانية التي لا مداد لها أصلاً، وعدم لبس الحق الظاهر المكشوف المحقق بالباطل الموهوم المعدوم، وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة المنبئين من التوجه الفطري، والرجوع الحقيقي الأصلي، الركوع والخشوع على وجه التذلل والانكسار، إلى أن يصل إلى الفناء في ذاته بل إلى فناء الفناء

﴿يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ وَأَنِّي فَضَّلۡتُكُمۡ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ١٢٢﴾

لينعكس البقاء.

ثم عبّر سبحانه تعبيراً فوق تعبيرٍ على الناسين نفوسهم في الغفلة بلا توجهٍ ورجوعٍ، ثم أمر خُلّص عباده باستعانة[١] الصبر المورث للتمكين، والصلاة المشعر بالتوجه التام المسقط لجميع الآثام هذا لتصفية ذواتهم.

ثم خاطبهم سبحانه ثانياً وأوصاهم بشكر نعم تفضيلهم وتكريمهم على بني نوعهم بأنواع الكرامات الدينية والدنيوية.

ثم حذرهم وخوفهم عن يوم الجزاء على وجه المبالغة والتأكيد لتصفية أوصافهم في معاشهم في النشأة الأولى.

ثم لما ذكر سبحانه كفرانهم وطغيانهم وعدم انقيادهم بالكتب والرسل، وتكذيبهم وقتلهم وخبث طينتهم ودناءة طبعهم وقساوة قلبهم وشدة عداوتهم مع المؤمنين، وقبح صنيعهم مع الأنبياء الماضين ؛ كرر خطابه سبحانه إليهم ثالثاً بما سبق ثانياً مبالغةً وتأكيداً وتلطفاً وإمهالاً لهم كي يتنبهوا ومع ذلك لم يتنبهوا لخبث طينتهم فقال:

﴿يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾ المعرضين عني بأنواع الإعراضات والمعترضين لآياتي بأصناف الاعتراضات مضى ما مضى، ﴿ٱذۡكُرُواْ﴾ واشكروا ﴿نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ﴾ بفضلي وإحساني مع عدم شكركم وكفرانكم ﴿وَ﴾ خصوصاً اذكروا من النعم نعمة الجاه والتفضيل على جميع البرايا، إذ ﴿أَنِّي﴾ بحولي وطَولي ﴿فَضَّلۡتُكُمۡ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ١٢٢﴾ من بني نوعكم، وامتثلوا أمري ولا تتجاوزوا عن حكمي واحذروا عن قهري وانتقامي.

(١) في المخطوط (باسقاية).

وَٱتَّقُوا۟ يَوْمًا لَّا تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْـًٔا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنفَعُهَا شَفَٰعَةٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿١٢٣﴾ ۞ وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّى ....

﴿وَٱتَّقُوا۟ يَوْمًا﴾ وصْفُه أنه ﴿لَّا تَجْزِى﴾ لا تحمل ﴿نَفْسٌ﴾ مطيعةٌ ﴿عَن نَّفْسٍ﴾ عاصيةٍ ﴿شَيْـًٔا﴾ قليلاً من أوزارها، ﴿وَ﴾ مع ذلك ﴿لَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ﴾ فديةٌ حتى تتخلص بها، ﴿وَ﴾ أيضاً ﴿لَا تَنفَعُهَا شَفَٰعَةٌ﴾ من شفيعٍ حميمٍ حتى يخفف عذابها لأجلها، ﴿وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿١٢٣﴾﴾ بغيرهم في تحمل العذاب، بل ما يحمل رزاياهم[1] إلا مطاياهم، ومع هذه المبالغة والتأكيد قليلاً منهم يؤمنون بخلاف الملة الحنيفية البيضاء الجليلة، فإنهم بأجمعهم يرجى منهم الإيمان بوحدانية الله إن أقاموا الصلاة إليه مخلصين إلا المصلين الذين هم في صلاتهم ساهون بما يلهيهم من محبة المال والجاه عصمنا الله من ذلك.

ثم لما ذكر سبحانه قصة بني إسرائيل وإنعامه عليهم بأنواع النعم وكفرانهم لنعمه من خبث طينتهم، أراد أن يذكر طيب طينة الملة الجليلة وصفاء عقائدهم واصطبارهم وتحملهم على الاختبارات والابتلاءات الإلهية فقال:

﴿۞ وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ﴾ أي واذكر يا أكمل الرسل وقت ابتلاء أبيك ﴿إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ﴾ الذي ابتلاه واختبر خليله بأنواع البلاء؛ من النار والمنجنيق وذبح الولد وإجلاءٍ من الوطن وغير ذلك من البليات النازلة عليه ﴿بِكَلِمَٰتٍ﴾ صادرةٍ من ربه حين أراد اختباره ﴿فَأَتَمَّهُنَّ﴾ على الوجه الذي صدر بلا قصورٍ ولا فتورٍ تتميماً لمرتبة الخلة والخلافة، ثم لما اختبر سبحانه خلة خليله بأنواع البلاء أظهر خلته له بأنواع العطاء حيث ﴿قَالَ﴾ سبحانه: ﴿إِنِّى﴾ من غاية محبتي

(١) في المخطوط (زراياهم).

جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٢٤﴾ وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا وَٱتَّخِذُوا۟ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى وَعَهِدْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّآئِفِينَ ....

وخلتي معك أيها الخليل الجليل ﴿جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ﴾ الناسين التوجه والرجوع إليّ ﴿إِمَامًا﴾ مقتدىً لهم هادياً يهديهم إلى طريق التوحيد، ولما رأى إبراهيم عليه السلام انبساط ربه معه وإفضاله عليه وإظهاره الخلة له، ﴿قَالَ﴾: ﴿وَ﴾ اجعل يا ربي ﴿مِن ذُرِّيَّتِي﴾ أيضاً أئمةً إلى يوم القيامة، ﴿قَالَ﴾ سبحانه تلطفاً له وامتناناً عليه: ومن ذريتك أيضاً الصالحين منهم، لا الفاسقين؛ إذ ﴿لَا يَنَالُ عَهْدِي﴾ الذي هو نيابتي وخلافتي ﴿ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٢٤﴾﴾ المتجاوزين عن حدودي وعهودي.

﴿وَ﴾ بعد ما جعلناه إماماً هادياً إلى طريق الحق هيأنا له طريق الاهتداء ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ﴾ أي الكعبة المعدة للتوجه إلينا بترك المألوفات وقطع التعلقات من الأهل والمال والوطن، والاجتناب عن التصرفات المانعة عن التوجه الحقيقي من الرفث والفسوق والجدال والقتل وغير ذلك من الأمور المتعلقة للحياة المستعارة ﴿مَثَابَةً﴾ موضع ثواب ﴿لِّلنَّاسِ﴾ ليتقربوا إلينا ويتوجهوا نحونا ﴿وَأَمْنًا﴾ من جميع المخافات الدينية إذا كانت الزيارة على نية الإخلاص. ﴿وَ﴾ بعدما جعلنا البيت مثابة للناس قلنا للزائرين لها والطائفين حولها: ﴿ٱتَّخِذُوا﴾ أيها الزوار ﴿مِن مَّقَامِ﴾ خليلنا ﴿إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى﴾ موضع ميل وتوجه، اقتداءً له صلوات الرحمن عليه، ﴿وَ﴾ بعد ما أمرنا الزوار بما أمرنا ﴿وَعَهِدْنَآ﴾ وصينا ﴿إِلَىٰٓ﴾ خليلنا ﴿إِبْرَٰهِـۧمَ﴾ ﴿وَ﴾ ذبيحنا ﴿وَإِسْمَٰعِيلَ﴾ ابنه ﴿أَن طَهِّرَا﴾ بالمظاهرة ﴿بَيْتِيَ﴾ المعدة للطهارة الحقيقية عن جميع الشواغل ﴿لِلطَّآئِفِينَ﴾

وَٱلْعَٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴿١٢٥﴾ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا وَٱرْزُقْ أَهْلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُم بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۖ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُۥ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُۥٓ ....

الذين قصدوا الميل إلى جنابنا ببذل المهج، ﴿وَٱلْعَٰكِفِينَ﴾ القائمين المقيمين ببابنا رجاء أن ينكشف لهم أسرار التكاليف التي كلفوا بها، ﴿وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴿١٢٥﴾﴾ أي الراكعين الساجدين في فنائنا تذللاً وانكساراً حتى يتحققوا بمقام العبودية.

﴿وَ﴾ بعد ﴿إِذْ﴾ أمرناه وابنه بطهارة البيت وامتثلا بالمأمور ﴿قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ﴾ منيباً إلينا داعياً راجياً في دعائه النفع العام: ﴿رَبِّ ٱجْعَلْ﴾ بيتك ﴿هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا﴾ ذا أمنٍ للمتوجهين إليها والعاكفين ببابها عن العلائق المانعة عن التوجه المعنوي، ﴿وَ﴾ بعد ما توجهوا نحوه ﴿ٱرْزُقْ أَهْلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ المترتبة على سرائر تعيينه وتخصيصه، ووجوب طوافه على المستطيعين المنهمكين في الشواغل المانعة عن التوجه إلى الكعبة الحقيقية الممثلة عنها هذا البلد.

ولما دعا إبراهيم بهذا الدعاء المجمل المطلق لهم، فصله سبحانه إجابة دعائه بقوله: ﴿مَنْ ءَامَنَ مِنْهُم﴾ من المتوجهين الزائرين ﴿بِٱللَّهِ﴾ الواحد الأحد تعبداً وانقياداً ﴿وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾ المحقق الوقوع إذعاناً وتصديقاً، فلهم ما دعوت لهم مع أنواع الإفضال والإنعام، جزاء لهم وإجابة لدعائك ثم ﴿قَالَ﴾ سبحانه: ﴿وَمَن كَفَرَ﴾ منهم وجحد بعد ما وضح لهم الطريق ﴿فَأُمَتِّعُهُۥ﴾ متاعاً ﴿قَلِيلًا﴾ من مفاخرة الأقران والاستكبار على الإخوان وتفرج البلدان ﴿ثُمَّ أَضْطَرُّهُۥٓ﴾

إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٢٦﴾ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾ رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ ....

بعد جحوده وإنكاره ﴿ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِ ۖ﴾ بل أشد منها وهو حرمانه عن الفوائد المرتبة على الطواف والزيارة المنبئة عن الوصول إلى مرتبة العبودية المخلصة، عن جهنم الإمكان الذي هو مصير أهل الكفر والطغيان ﴿وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٢٦﴾﴾ مصيرهم الذي لا ينجو منه أحد من أهله، عصمنا الله منه بمنه وجوده.

﴿وَ﴾ اذكر يا أكمل الرسل ﴿ إِذْ يَرْفَعُ﴾ يحمل جدك ﴿ إِبْرَٰهِـۧمُ﴾ الأوّاه المنيب ﴿ٱلْقَوَاعِدَ﴾ أي التكاليف الشاقة الناشئة ﴿مِنَ﴾ إنشاء ﴿ ٱلْبَيْتِ﴾ المعدِ للاهتداء إلى كعبة الوصول من التجريد عن لوازم الحياة ومقتضيات الأوصاف المترتبة عليها وترك المألوفات وقطع التعلقات العائقة عن الموت الإرادي الموصل إلى مقر الوحدة المغنية للكثرة الموهمة المستتبعة للبعد والفراق عن فضاء التوحيد ﴿ وَ﴾ أبوك أيضاً ﴿ إِسْمَاعِيلُ﴾ الراضي بقضاء الله ، المرضي بما جرى عليه من البلاء، واذكر أيضاً دعاءهما بعدما احتملا المشاق والمتاعب بقولهما: ﴿رَبَّنَا﴾ يا من ربانا بأنواع المنح التي ليست في وسعنا وقدرتنا ﴿ تَقَبَّلْ مِنَّآ ۖ﴾ ما أقدرتنا عليه ﴿ إِنَّكَ أَنتَ﴾ القادر لما جئتنا به ﴿ٱلسَّمِيعُ﴾ لمناجاتنا قبل إلقائنا ﴿ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾﴾ لحاجاتنا وإخلاصنا في نياتنا.

﴿ رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا﴾ بفضلك ﴿مُسْلِمَيْنِ لَكَ﴾ مستسلمين مفوضين جميع أمورنا إليك مخلصَيْن فيه، ربنا ﴿وَ﴾ اجعل أيضاً ﴿مِن ذُرِّيَّتِنَآ﴾ المنتسبين

﴿أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ۝١٢٨ رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝١٢٩ وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ﴾ ....

إلينا ﴿أُمَّةً مُّسْلِمَةً﴾ مسلِّمة ﴿لَّكَ﴾ مطيعةً لأمرك، ﴿وَأَرِنَا﴾ اكشف لنا ولهم ﴿مَنَاسِكَنَا﴾ سرائر مناسكنا التي نعملها على مقتضى أمرك وتكليفك، ﴿وَ﴾ إن أخطأنا فيما أمرتنا ﴿تُبْ عَلَيْنَآ﴾ عما جرى علينا من لوازم بشريتنا ﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ﴾ للعباد العاصين الخاطئين ﴿ٱلرَّحِيمُ ۝١٢٨﴾ بقبول توبتهم، وإن نقضوها مراراً.

ثم لما كان الغالب عليهما توحيد الصفات والأفعال، دعوا ربهما متضرعين أن يبعث من ذريتهما من يغلب عليه توحيد الذات فقالا: ﴿رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ﴾ أي في الأمة المسلمة ﴿رَسُولًا مِّنْهُمْ﴾ هادياً إلى توحيد الذات، ﴿يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ﴾ أولاً ﴿ءَايَٰتِكَ﴾ الدالة على ذلك ظاهراً، ﴿وَ﴾ ثانياً ﴿يُعَلِّمُهُمُ﴾ يفهمهم ﴿ٱلْكِتَٰبَ﴾ المبينَ سرائر الآيات ﴿وَ﴾ ثالثاً يكشف ويوضح لهم ﴿ٱلْحِكْمَةَ﴾ التي هي سلوك طريق التوحيد الذاتي، ﴿وَ﴾ رابعاً ﴿يُزَكِّيهِمْ﴾ أي يطهرهم عن رؤية الغير في الوجود مطلقاً، ﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ﴾ الغالب القاهر للأغيار ﴿ٱلْحَكِيمُ ۝١٢٩﴾ في إيجادها وإظهارها على وفق مشيئتك وإرادتك.

﴿وَ﴾ بعد ما جعلنا الخليل إماماً مقتدى للأنام هادياً لهم إلى دار السلام، ﴿مَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ﴾ أي من يعرض عن ملته الحنيفيةِ، الطاهرةِ عن

﴿إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥۚ وَلَقَدِ ٱصْطَفَيْنَٰهُ فِي ٱلدُّنْيَاۖ وَإِنَّهُۥ فِي ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٣٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْۖ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٣١﴾ وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَٰبَنِيَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٣٢﴾﴾

الميل إلى الآراء والآثام، البيضاءِ المنوَّرةِ لقلوب أهل التفويض والإسلام، المبنية على محض الوحي والإلهام.

﴿إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥۚ﴾ أي لا يعرض عن ملته الغراء إلا من ترك نفسه في ظلمة الإمكان من غير رجوعٍ إلى فضاء الوجوب، ليتبع الطريق الموصل إليه ﴿وَ﴾ الله ﴿لَقَدِ ٱصْطَفَيْنَٰهُ﴾ واجتبيناه من بين الأنام ﴿فِي ٱلدُّنْيَاۖ﴾ للرسالة والنبوة لإرشاد العباد إلى طريق التوحيد، ﴿وَإِنَّهُۥ فِي ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٣٠﴾﴾ للتحقق والوصول، لا لطريق الاتحاد والحلول بل لطريق التوحيد الذاتي.

واذكر يا أكمل الرسل ﴿إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ﴾ اختباراً له ﴿أَسْلِمْۖ﴾ توجهْ إليّ بمقتضى علمك وكشفك مني ﴿قَالَ﴾ على مقتضى علمه بربه ﴿أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٣١﴾﴾، إذ كشف له ربه عن ذرائر الكائنات لذلك لم يخصصه، ولم يقيده بمظهر دون مظهر.

﴿وَوَصَّىٰ بِهَآ﴾ أي بالتوحيد الذاتي ﴿إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ﴾ إرشاداً لهم إلى طريق الحق ووصى أيضاً بنوه بنيه ﴿وَ﴾ وصى أيضاً ﴿يَعْقُوبُ﴾ بنيه بما وصى أبوه وجده وقالوا ﴿يَٰبَنِيَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ﴾ دين الإسلام المشتمل، على توحيد الذات والصفات والأفعال، ﴿فَلَا تَمُوتُنَّ﴾ فلا تكونن في حال من الأحوال عند الموت ﴿إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٣٢﴾﴾ موحدون بالتوحيد الذاتي.

﴿أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى قَالُوا۟ نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٣﴾ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٣٤﴾﴾ ....

ثم لما اعتقد اليهود أن يعقوب وبنيه كانوا هوداً، والنصارى اعتقدوهم نصارى أراد سبحانه أن يظهر فساد عقائدهم فقال: أتسمعون أيها اليهود والنصارى يهودية يعقوب وبنيه ونصرانيتهم لمن أنزل عليكم ﴿أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ﴾ حضراء ﴿إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ﴾ ولولا هذا ولولا ذاك كنتم مفترين عليهم جاهلين بحالهم، اذكر لهم يا أكمل الرسل ﴿إِذْ قَالَ﴾ حين أشرف على الموت ﴿لِبَنِيهِ﴾ إرشاداً لهم: ﴿مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى﴾ يا بَني؟ ﴿قَالُوا۟ نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا﴾ أحداً صمداً لم يتخذ صاحبةً ولا ولداً ﴿وَنَحْنُ لَهُۥ﴾ لا لغيره من الآلهة الباطلة ﴿مُسْلِمُونَ ﴿١٣٣﴾﴾ منقادون متوجهون خالياً عن المكابرات والعناد، قالعاً عرق التقليدات الراسخة في قلوب العباد.

﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ﴾ مضت ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ﴾ من العزائم الدينية، وعليها ما اكتسبت من الجرائم المتعلقة به بحسب ذلك الزمان ﴿وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ﴾ من فوائد الإيمان والإسلام، وعليكم ما اكتسبتم من غوائل الكفر والطغيان بحسب زمانكم هذا، إذ كل منكم ومنهم لم يُجزَ إلا بما عمل وكسب ﴿وَلَا تُسْـَٔلُونَ﴾ وتؤاخذون أنتم ﴿عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٣٤﴾﴾ من السيئات، كما لا تثابون

وَقَالُوا۟ كُونُوا۟ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ تَهْتَدُوا۟ ۗ قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِـۧمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٣٥﴾ قُولُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِىَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٦﴾ ....

من حسناتهم بل كل امرئ بما كسب رهين.

﴿وَ﴾ إن ﴿قَالُوا۟﴾ أي كلٌّ من الفريقين لكم ﴿كُونُوا۟ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ﴾ لكي ﴿تَهْتَدُوا۟﴾ إلى طريق الحق ﴿قُلْ﴾ لهم لا نتبع آراءكم الفاسدة وأهواءكم الباطلة ﴿بَلْ﴾ نتبع ﴿مِلَّةَ إِبْرَٰهِـۧمَ حَنِيفًا﴾ مائلاً عن الآراء الباطلة مهذباً منها، ﴿وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٣٥﴾﴾ بالله باعتقاد الوجود لغير الله .

﴿قُولُوٓا۟﴾ لهم في مقابلة قولهم أيها المؤمنون المتبعون لملة إبراهيم، إرشاداً لهم وإسماعاً إياهم طريق الحق: ﴿ءَامَنَّا بِٱللَّهِ﴾ الواحد المتجلي في الآفاق بالاستحقاق بأسمائه الحسنى وصفاته العليا ﴿وَ﴾ آمنا أيضاً ﴿مَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا﴾ بوسيلة رسولنا من الكتاب المبين لمصلحتنا المتعلق بمبدئنا ومعادنا في زماننا ﴿وَ﴾ آمنا أيضاً ﴿مَآ أُنزِلَ﴾ إلى المتبوعين الماضين ﴿إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ﴾ المورثين لملتنا وديننا ﴿وَ﴾ كذلك آمنا ﴿مَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ﴾ من الكتب والآيات الدالة على توحيد الذات، وتصديق من جاء به من عند ربه. ﴿وَ﴾ الحاصل أنا آمنا بجميع ﴿مَآ أُوتِىَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ﴾ لإهداء المضلين من عباده إلى توحيده، ﴿لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ﴾ بالإيمان والإنكار بل نؤمن بجميعهم ونصدقهم لكونهم هادين إلى توحيد الله، وإن

﴿فَإِنْ ءَامَنُوا۟ بِمِثْلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ فَقَدِ ٱهْتَدَوا۟ ۖ وَّإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا هُمْ فِى شِقَاقٍ ۖ فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٣٧﴾ صِبْغَةَ ٱللَّهِ ۖ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبْغَةً ۖ وَنَحْنُ لَهُۥ عَـٰبِدُونَ ﴿١٣٨﴾﴾ ....

تفاوتت طرقهم ﴿وَنَحْنُ لَهُۥ﴾ لتوحيد الله ﴿مُسْلِمُونَ ﴿١٣٦﴾﴾ منقادون متوجهون؛ وإن بُيّن بطرقٍ متعددةٍ وكتبٍ مختلفةٍ بحسب الأعصار والأزمان المتوهمة من تجليات الذات بالأسماء والصفات.

﴿فَإِنْ ءَامَنُوا۟﴾ بعدما سمعوا منكم هذه الأقوال ﴿بِمِثْلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ﴾ بعد سماعكم طريق الإيمان من رسولكم ﴿فَقَدِ ٱهْتَدَوا۟ ۖ﴾ إلى طريق التوحيد كما اهتديتم، ﴿وَّإِن تَوَلَّوْا۟﴾ أعرضوا عن أقوالكم لهم تذكيراً وعظةً ﴿فَإِنَّمَا هُمْ فِى شِقَاقٍ ۖ﴾ أي ما هم إلا في خلافهم وشقاقهم الأصلية وعداوتهم الجبلية، ﴿فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُ ۚ﴾ المحيط بكم وبهم المطلع على سرائرهم وضمائرهم مؤنة خلوفهم وشقاقهم، ﴿وَ﴾ لا تشكوا في كفايته إذ ﴿هُوَ ٱلسَّمِيعُ﴾ لأقوالهم الكاذبة ﴿ٱلْعَلِيمُ ﴿١٣٧﴾﴾ بكفرهم ونفاقهم الكامنة في قلوبهم.

ثم قولوا لهم بعدما أظهروا الخلاف والشقاق ما جئنا به عن التوحيد الحاصل من متابعة الملة الحنيفية ﴿صِبْغَةَ ٱللَّهِ ۖ﴾ المحيطِ بنا صبغ بها قلوبنا لنهتدي إلى صفاء تجريده وزلال تفريده ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبْغَةً ۖ﴾ حتى نتبعه إذ لا وجود لغيره ﴿وَ﴾ إذ لم يكن للغير وجودٌ ﴿نَحْنُ لَهُۥ﴾ لا لغيره ﴿عَـٰبِدُونَ ﴿١٣٨﴾﴾ عائدون راجعون رجوع الظل إلى ذي ظل، والصورِ المرئية في المرآة إلى الرائي.

﴿قُلْ أَتُحَآجُّونَنَا فِي ٱللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُخْلِصُونَ ﴿١٣٩﴾ أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطَ كَانُوا۟ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ ....

ثم لما طال نزاع أحبار اليهود مع المؤمنين ومجادلتهم مع الرسول ﷺ أمر سبحانه لحبيبه بأن يتكلم بكلامٍ ناشيءٍ عن لب الحكمة فقال:

﴿قُلْ﴾ لهم يا أكمل الرسل كلاماً دالاً على توحيد الذات، مسقطاً لجميع الإضافات ﴿أَتُحَآجُّونَنَا﴾ وتجادلوننا ﴿فِي ٱللَّهِ﴾ المظهر للكل من كتم العدم، بإشراق تجليات أوصافه فيه، ورشٍ من نوره عليه ﴿وَ﴾ الحال أنه ليس له اختصاص ببعض دون بعض بل ﴿هُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ﴾ بإظهار ذواتنا وذواتكم من العدم، ﴿وَ﴾ بعد إظهاره إيانا ﴿لَنَآ أَعْمَٰلُنَا﴾ صالحها وفاسدها، ﴿وَلَكُمْ﴾ أيضاً ﴿أَعْمَٰلُكُمْ﴾ الصالحة والفاسدة، لا تسري منكم إلينا ولا منا إليكم، ﴿وَنَحْنُ﴾ المتبعون لملة إبراهيم ﴿لَهُۥ﴾ أي لله المظهر الظاهر بجميع الأوصاف والأسماء، لا لغيره من الأظلال ﴿مُخْلِصُونَ ﴿١٣٩﴾﴾ متوجهون على وجه الإخلاص المنبئ عن المحبة المؤدية إلى الفناء في ذاته. جعلنا الله من خدام أحبائه المخلصين.

أيسلم اليهود والنصارى ويذعنون بعدما أوضحنا لهم أنا على ملة إبراهيم دونهم؟.

﴿أَمْ﴾ تعاندون[1] ﴿تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطَ كَانُوا۟ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ﴾ تابعين لملتنا فإن كابروا وعاندوا وقالوا

---

(١) في المخطوط (يعاندون).

﴿قُلْ ءَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ ٱللَّهُ ۗ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَٰدَةً عِندَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٤٠﴾ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ ۖ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ ۖ وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٤١﴾﴾ ....

مثل هذا، ﴿قُلْ﴾ لهم يا أكمل الرسل مستفهماً مستوبخاً على وجه التنبيه: ﴿ءَأَنتُمْ أَعْلَمُ﴾ بحالهم، ﴿أَمِ ٱللَّهُ﴾؟ النافي عنهم اليهودية والنصرانية بقوله: ﴿مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا﴾ [٣- آل عمران: ٦٧] مائلاً منهما ثم ذرهم في خوضهم يلعبون، ﴿وَ﴾ بعد ما ظهر عندهم حقية دين نبينا ﷺ وتحقق موافقة ملة أبيه إبراهيم بشهادة كتبهم ورسلهم ﴿مَنْ أَظْلَمُ﴾ على الله ﴿مِمَّن كَتَمَ شَهَٰدَةً﴾ ثابتةً في كتب الله التي صحت ﴿عِندَهُۥ﴾ أنها منزلةٌ ﴿مِنَ ٱللَّهِ﴾ المنزل للرسل والكتب، مصدقاً بعضها بعضاً كتماناً ناشئاً عن محض العداوة والشقاق بعد جزمهم حقيتها ومع ذلك يتوهمون كتمانها من الله أيضاً، ﴿وَمَا ٱللَّهُ﴾ المحيط بمخايلهم ﴿بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٤٠﴾﴾ من الكتمان والنفاق حفظاً لجاههم وجاه آبائهم.

قل لمن تبعك يا أكمل الرسل تذكيراً لهم وتحذيراً: ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ﴾ صالحة أو طالحة، ﴿قَدْ خَلَتْ﴾ مضت ﴿لَهَا﴾ في النشأة الأخرى جزاء ﴿مَا كَسَبَتْ﴾ من الحسنات والسيئات في النشأة الأولى، ﴿وَلَكُم﴾ فيها جزاء ﴿مَّا كَسَبْتُمْ﴾ فيها ﴿وَلَا تُسْـَٔلُونَ﴾ أنتم في يوم الجزاء ﴿عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٤١﴾﴾ من الصالحات والفاسدات كما لا يسألون عن أعمالكم بل كلٌ مجزي بصنيعته، مقتضٍ ببضاعته.

نعوذ بفضلك من عذابك يا دليل المتحيرين.

﴿ ۞ سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ مَا وَلَّىٰهُمۡ عَن قِبۡلَتِهِمُ ٱلَّتِي كَانُواْ عَلَيۡهَاۚ قُل لِّلَّهِ ....

ثم لما كان الغالب على رسول الله ﷺ في أوائل حاله وسلوكه، توحيدَ الصفات والأفعال المورثين له عن آبائه صلوات الله عليهم، كان تابعاً لهم في قبلتهم التي كانوا عليها أيضاً صورة، وحين ظهر وانكشف له ﷺ توحيد الذات، وغلبت عليه تجلياتها وإشراقها، استغرق ووله، بل فني واضمحل وتلاشت فيها هويته، وبعدما تنزل عن ولهه واستغراقه، خص له سبحانه قبلةً مخصوصة، ووجهةً معينةً صورةً لتكون آية على قبلته الحقيقية المعنوية.

ثم لما أمره سبحانه بتوجهها واستقبالها وهو في الصلاة إلى القبلة التي كان عليها قبل الأمر، وتحول نحوها فيها أخذ المنافقون في الغيبة، واشتغلوا بالنفاق، ونسبوه إلى ما هو منزه عنه، وانتهزوا واغتنموا الفرصة لمقابلته وصمموا العزم بمجادلته، أراد سبحانه أن ينبه بما هم عليه من النفاق والشقاق في أمر القبلة على وجه الإخبار فقال:

﴿ ۞ سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ ﴾ المعزولون عن مقتضى العقل الخبري المتشعب من العقل الكلي المتفرع على اسم العليم ﴿مِنَ ٱلنَّاسِ﴾ المحجوبين بظلمة التعينات عن نور الوجود قولاً ناشئاً عن محض الغفلة والسفاهة على سبيل الاسهتزاء، وهو قولهم: ﴿مَا وَلَّىٰهُمۡ﴾ حوَّلهم وصرفهم أي المؤمنين ﴿عَن قِبۡلَتِهِمُ ٱلَّتِي كَانُواْ عَلَيۡهَاۚ﴾ من قبل مع أنها قبلةُ من يدَّعون الانتساب إليهم والاقتداء بملتهم، ﴿قُل﴾ لهم يا أكمل الرسل على وجه التنبيه والإرشاد وبلسان التوحيد الذاتي بعدما انكشف لك: ﴿لِّلَّهِ﴾ المنزه عن الأماكن والجهات المتجلي فيها

﴿ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٤٢﴾ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ۗ وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِى كُنتَ عَلَيْهَآ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ ۚ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۗ﴾ ....

﴿ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ﴾ أي جميع ما يتوهم من الزمان والمكان والجهة، إنما هي مظاهر ذاته ومجالي أسمائه وصفاته ﴿يَهْدِى﴾ بحبه الذاتي ﴿مَن يَشَآءُ﴾ من عباده المتوجهين إلى جنابه ﴿إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٤٢﴾﴾ موصلٍ إلى ذاته من أي مكان كان وفي أي جهة وزمانٍ، إذ هو محيط بكلها.

﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ أي مثل صراط المستقيم الموصل إلى ذاتنا المعتدل المتوسط بين الطرق ﴿جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ معتدلاً قابلاً للخلافة والنيابة، بل في تولية الأمور بين العباد ﴿لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ﴾ قوامين بالقسط ﴿عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ الغافلين عن التوجه إلينا، ﴿وَ﴾ كذلك أرسلنا إليكم رسولاً منكم حتى ﴿يَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ۗ﴾ حفيظاً لكم عن طرق الإفراط والتفريط فيما صدر عنكم من الأمور، فعليكم أن تلازموا وتداوموا امتثال ما جاء به رسولكم من عند ربكم، لتكونوا مهتدين إليه سبحانه من الصراط المستقيم ﴿وَمَا جَعَلْنَا﴾ أي قبلتك يا أكمل الرسل ﴿ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِى كُنتَ عَلَيْهَآ﴾ قبل هجرتك منها ﴿إِلَّا لِنَعْلَمَ﴾ ولنميز ونفصل ﴿مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ﴾ الهادي إلى توحيد الذات، ﴿مِمَّن يَنقَلِبُ﴾ يعود ويرجع ﴿عَلَىٰ عَقِبَيْهِ﴾ قبل الوصول إلى توحيد الذات ﴿وَإِن كَانَتْ﴾ الوصلة إلى الوحدة الذاتية ﴿لَكَبِيرَةً﴾ ثقيلةً شاقةً ﴿إِلَّا عَلَى ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۗ﴾ إلى

وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَـٰنَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤٣﴾ قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِى ٱلسَّمَآءِ ۖ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا ۚ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۚ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ ۗ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ

ذاته بتوفيقهم على الإيمان ممن يرشدهم إليه ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ ﴾ المظهر لكم ﴿ لِيُضِيعَ إِيمَـٰنَكُمْ ﴾ به بعد توفيقكم إياه ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ ﴾ المؤمنين بالرسول المرشد إلى توحيد الذات الموقنين بما جاء به من عند ربه ﴿ لَرَءُوفٌ ﴾ عطوفٌ ﴿رَّحِيمٌ ﴿١٤٣﴾﴾ مشفقٌ يوصلهم إلى ما يظهرهم لأجله بفضله وطوله.

ولما انكشف له ﷺ توحيد الذات واستغرق فيها وتوجه نحوها وانسلخ عن الأفعال والصفات بالمرة انتظر ﷺ الوحي المطابق لهذا الانكشاف بحسب الصورة أيضاً فقال سبحانه:

﴿ قَدْ نَرَىٰ ﴾ نطّلع ونعلم حين انكشافك بذاتنا ﴿ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِى ٱلسَّمَآءِ ﴾ منتظراً للوحي المتضمن للتوجه الصوري ﴿فَلَنُوَلِّيَنَّكَ ﴾ بعد انكشافك المعنوي ﴿ قِبْلَةً ﴾ صورية ﴿تَرْضَىٰهَا ﴾ مناسبةً لقبلتك المعنوية، ﴿ فَوَلِّ وَجْهَكَ ﴾ يا أكمل الرسل صورة ﴿شَطْرَ﴾ جهة ﴿ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ﴾ الذي يَحرُم فيه التوجه إلى غير الذات البحت المسقط للإضافة، ﴿وَ﴾ لا تختص بهذه الكرامة لك بل تسري منك إلى من تبعك من المؤمنين ﴿حَيْثُ مَا كُنتُمْ﴾ من مراتب الوجود، ﴿ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ ﴾ الفائضة لكم أيها المؤمنون من ربكم ﴿شَطْرَهُۥ﴾ لتكونوا من المنكشفين به المهتدين بذاته ﴿وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ ﴾ من اليهود والنصارى

لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٤٤﴾ وَلَئِنْ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَّا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ وَمَا أَنتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ وَمَا بَعْضُهُم بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم مِّن بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّكَ إِذًا لَّمِنَ الظَّالِمِينَ ﴿١٤٥﴾ ....

﴿لَيَعْلَمُونَ﴾ يقيناً بشهادة كتبهم ورسلهم ﴿أَنَّهُ﴾ أي شأن انكشافك وتحققك بالتوحيد الذاتي ﴿الْحَقُّ﴾ الثابتُ المنزلُ ﴿مِن رَّبِّهِمْ﴾ أي رباهم بإعطاء العقل المميِّز بين الحق والباطل، والمحق والمبطل، ومع ذلك ينكرون عناداً ﴿وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٤٤﴾﴾ من الإخفاء والستر بعد الوضوح والكشف.

﴿وَ﴾ الله ﴿لَئِنْ أَتَيْتَ﴾ يا أكمل الرسل ﴿الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ﴾ نازلة لك دالة على توحيد الذات الذي هو مقصدك وقبلتك، ﴿مَّا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ﴾ لانهماكهم في الغفلة والضلالة ﴿وَمَا أَنتَ﴾ أيضاً بعدما انكشف لك الأمر يقيناً ﴿بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ﴾ التي توجهوا إليها ظناً وتخميناً ﴿وَ﴾ أيضاً ﴿مَا بَعْضُهُم بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ﴾ لتفاوت ظنونهم وآرائهم ﴿وَ﴾ اللهِ ﴿لَئِنِ اتَّبَعْتَ﴾ أنت يا أكمل الرسل ﴿أَهْوَاءَهُم﴾ الباطلة ﴿مِّن بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ﴾ اليقيني المطابق للعين بل للحق ﴿إِنَّكَ﴾ مع اصطفائنا إياك واجتبائنا لك ﴿إِذًا لَّمِنَ الظَّالِمِينَ ﴿١٤٥﴾﴾ المعرضين عنا بعد توفيقنا إياك وإرشادنا لك إلى الكعبة الحقيقة.

هذا تهديد لرسول الله ﷺ بعد تهديد وحثٌّ له ﷺ لدوام التوجه على ما انكشف له من توحيد الذات، تحريضٌ للمؤمنين على متابعته ﷺ في دوام

ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٤٦﴾ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ ۖ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿١٤٧﴾ وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا ۖ فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ أَيْنَ مَا تَكُونُوا۟ يَأْتِ بِكُمُ ٱللَّهُ ....

التوجه والميل إليه، ومثله في القرآن كثير.

ثم قال سبحانه:

﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ﴾ المبين لهم طريق توحيد الصفات والأفعال، المنبه لهم على توحيد الذات، وعلى من يظهر به وهم ﴿يَعْرِفُونَهُۥ﴾ بالأوصاف والخواص المبين في كتابهم ﴿كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ ۖ﴾ الذين خلقوا من أصلابهم بل أشد من ذلك لإمكان الخلاف فيه دونه ﴿وَ﴾ مع ذلك ﴿إِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ﴾ عناداً واستكباراً ﴿لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ﴾ الثابت في كتابهم ﴿وَهُمْ﴾ أيضاً ﴿يَعْلَمُونَ ﴿١٤٦﴾﴾ حقيّته جزماً، ويكتمونه مكابرة.

﴿ٱلْحَقُّ﴾ الذي هو ظهورُك واستيلاؤُك عليهم، ونسخُك أديانهم وأحكام كتبهم إنما هو ناشئٌ ﴿مِن رَّبِّكَ ۖ﴾ الذي أظهرك مظهراً كاملاً لذاته ﴿فَلَا تَكُونَنَّ﴾ أنت ومن تبعك ﴿مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿١٤٧﴾﴾ الشاكّين في توحيد الذات كما كانوا.

﴿وَ﴾ اعلموا أن ﴿لِكُلٍّ﴾ أي لكلٍ من أفراد الأمم ﴿وِجْهَةٌ﴾ مقصد وقبلة معينة من الأوصاف والأسماء الإلهية ﴿هُوَ مُوَلِّيهَا ۖ﴾ بحسب اقتضائها وغلبتها، ﴿فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ﴾ أي بادروا أيها المحمديون إلى منشأ جميع الخيرات، ومنبع جميع المبرات الناشئة من الأسماء والصفات، وهو الذات المستجمع لجميعها، ﴿أَيْنَ مَا تَكُونُوا۟﴾ من مقتضيات الأوصاف ﴿يَأْتِ بِكُمُ ٱللَّهُ﴾ الجامع

جَمِيعًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٤٨﴾ وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۖ وَإِنَّهُۥ لَلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٤٩﴾ وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۚ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ ....

لها ﴿جَمِيعًا ۚ﴾ مجتمعين بعد رفع التعينات الناشئة من الصفات، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾ المتجليَ بالأوصاف ﴿عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ﴾ من المظاهر المتعينة المتكثرة بحسب المبدأ والمظاهر، ﴿قَدِيرٌ ﴿١٤٨﴾﴾ على رفع التعينات المسقطة لجميع الكثرات بحسب المعاد والباطن.

﴿وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ﴾ يا أكمل الرسل عن مقتضى كعبة الذات بغلبة حكم بعض الصفات ﴿فَوَلِّ وَجْهَكَ﴾ منها متذكراً ﴿شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۖ﴾ المحرَّم للتوجه إلى السِّوَى والغير ﴿وَإِنَّهُۥ﴾ أي شأن التوجه نحوه ﴿لَلْحَقُّ﴾ الثابت النازل ﴿مِن رَّبِّكَ ۗ﴾ الذي رباك بمقتضى جميع أوصافه وأسمائه، ﴿وَ﴾ اعلم أنه ﴿مَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٤٩﴾﴾ أنت ومن تبعك وعلى مقتضى علمه تُثابون.

﴿وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ﴾ عن مقتضى توحيد الذات بتكثير بعض المظان وترك ما يستقبلونه ﴿فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۚ﴾ الجامع لجميع المظاهر ﴿وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ﴾ أيها المؤمنون ﴿فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ﴾ اقتداءً لرسولكم ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ﴾ المعرضين ﴿عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ﴾ غلبةً بادعائكم التوحيد الذاتي، وإخراجكم بعض المظاهر ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ﴾ بنفي ذات الله وصفاته،

فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِي وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٠﴾ كَمَآ أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ يَتْلُواْ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُواْ تَعْلَمُونَ ﴿١٥١﴾ فَٱذْكُرُونِىٓ أَذْكُرْكُمْ وَٱشْكُرُواْ لِى وَلَا تَكْفُرُونِ ﴿١٥٢﴾ ....

وهم الدهريون القائلون بوجود الطبائع بلا فاعلٍ خارجي، فإنهم لا يفحمون ولا يلزمون بأمثاله ﴿فَلَا تَخْشَوْهُمْ﴾ أي فلا تخافوا منهم في التوجه إلى الكعبة الحقيقية ﴿وَٱخْشَوْنِي﴾ في عدم التوجه حتى لا تحرموا عن مقتضيات بعض الأوصاف، ﴿وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِي﴾ الواصلة بحسب أوصافي وأسمائي ﴿عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٠﴾﴾ إلى ذاتي بسببها.

ومن إتمام نعمنا إياكم أنا هديناكم إلى جهة الكعبة الحقيقية، وأمرناكم بالتوجه نحوها ﴿كَمَآ أَرْسَلْنَا﴾ من مقام جودنا ﴿فِيكُمْ رَسُولًا﴾ هادياً لكم ناشئاً ﴿مِّنكُمْ يَتْلُواْ عَلَيْكُمْ﴾ أولاً ﴿ءَايَٰتِنَا﴾ آثار صفاتنا الدالة على وحدة ذاتنا ﴿وَ﴾ثانياً ﴿يُزَكِّيكُمْ﴾ ﴿وَ﴾ثالثاً ﴿يُعَلِّمُكُمُ ٱلْكِتَٰبَ﴾ الموضح للدلائل والآيات المبين للآراء والمعتقدات ﴿وَ﴾ رابعاً يظهر لكم ﴿ٱلْحِكْمَةَ﴾ الموصلة إلى توحيد الذات ﴿وَ﴾ بعد ذلك ﴿يُعَلِّمُكُم﴾ من الحقائق والمعارف ﴿مَّا لَمْ تَكُونُواْ تَعْلَمُونَ ﴿١٥١﴾﴾ لولا إرشاده وإرساله.

وإذا أنعمنا عليكم بهذه النعم العظام وأتممناها لكم.

﴿فَٱذْكُرُونِىٓ﴾ أيها المؤمنون بالميل الدائم والتوجه الصادق ﴿أَذْكُرْكُمْ﴾ بنفساتٍ رحمانيةٍ ونسماتٍ روحانيةٍ ﴿وَٱشْكُرُواْ لِى﴾ بإسناد النعم إلي ﴿وَلَا تَكْفُرُونِ ﴿١٥٢﴾﴾ بإسنادها إلى الوسائط والأسباب.

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٣﴾ وَلَا تَقُولُواْ لِمَن يُقْتَلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتٌۢۚ بَلْ أَحْيَآءٌ وَلَٰكِن لَّا تَشْعُرُونَ ﴿١٥٤﴾ وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَىْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ ....

ثم إنه لما بالغ سبحانه في التنبيه والإرشاد، وناداهم رجاء أن يتنبهوا مع أن فطرتهم الأصلية على التوحيد الذاتي فقال:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾ بتوحيد الذات ﴿ ٱسْتَعِينُواْ ﴾ لتحققه وانكشافه ﴿ بِٱلصَّبْرِ ﴾ على ما جرى عليكم من الحوادث المنفرة لنفوسكم ﴿ وَٱلصَّلَوٰةِۚ ﴾ أي الميل والتوجه إلى جنابه لجميع الأعضاء والجوارح ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ ﴾ المعبر به عن الذات الأحدية ﴿ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٣﴾ ﴾ المتحملين للبلاء لو كوشفوا.

رب اجعلنا منهم بفضلك وكرمك.

﴿ وَ ﴾ مما يستعان فيه بالصبر إلى أن ينكشف سترة: الجهاد لذلك ﴿ لَا تَقُولُواْ لِمَن يُقْتَلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ طالباً الوصول إلى بابه ﴿ أَمْوَٰتٌۢۚ ﴾ كالأموات الأخر، ﴿ بَلْ أَحْيَآءٌ ﴾ بحياة الله الأزلي السرمدي ﴿ وَلَٰكِن لَّا تَشْعُرُونَ ﴿١٥٤﴾ ﴾ بحياتهم بحياتكم المستعارة المستهلكة في الحياة الأزلية، بل هي عكسٌ منها موتٌ في نفسها.

﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُم ﴾ والله لنختبرن ولنجربن تمكنكم ورسوخكم في توحيد الذات ﴿ بِشَىْءٍ ﴾ قليلٍ مما يُشعر بالكثرة والاثنينية ﴿ مِّنَ ٱلْخَوْفِ ﴾ الحاصلِ من المنفرات الخارجية: مثل الحرق والغرق والعدوّ وغير ذلك ﴿ وَٱلْجُوعِ ﴾ الحاصل من المنفرات الداخلية: كالحرص والأمل والبخل وغيرها ﴿

وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ ﴿١٥٧﴾ ....

وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ ﴾ التي يميل قلوبكم إليها بالطبع ﴿ وَٱلْأَنفُسِ ﴾ التي تظاهرون وتفتخرون بها من الأولاد والإخوان والأقارب والعشائر ﴿ وَٱلثَّمَرَٰتِ ﴾ المترتبة على الأموال والأولاد من الجاه، والمظاهرة في الغلبة على الخصماء ﴿ وَبَشِّرِ ﴾ يا أكمل الرسل ﴿ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ﴾ من أهل التوحيد وهم:

﴿ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓاْ ﴾ بلسان الجمع ﴿ إِنَّا ﴾ ظلالٌ ﴿لِلَّهِ﴾ الواحد الأحد المتجلي بأسمائه الحسنى، وصفاته العليا في النشأة الأولى ﴿وَإِنَّآ ﴾ بعد رجوعنا في النشأة الأخرى ﴿ إِلَيْهِ ﴾لا إلى غيره من الأظلال ﴿رَٰجِعُونَ ﴿١٥٦﴾﴾ عائدون صائرون رجوعَ الظل إلى ذي ظل.

﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ﴾ السعداء المتمكنون في مقر التوحيد، المنزهون عن الإطلاق والتقييد ﴿عَلَيْهِمْ ﴾ لا على غيرهم من أصحاب المراتب ﴿صَلَوَٰتٌ ﴾ ميولٌ وتوجهاتٌ متشعبةٌ من بحر الذات، جاريةٌ من جداول الأوصاف والأسماء إلى فضاء الظهور لإنبات المعارف، والحقائق الموصلة إلى النعيم الدائم السرمدي واللذة المستمرة الأبدية، نازلةٌ لهم دائماً ﴿مِّن رَّبِّهِمْ ﴾ الذي أوصلهم إلى مقر عزه ﴿وَرَحْمَةٌ ﴾ شاملةٌ لهم ولغيرهم من سعتها ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ﴾ الواصلون ﴿هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ ﴿١٥٧﴾﴾ إلى المبدأ الحقيقي والمنزل الأصلي.

ثم لما نبّه سبحانه إلى الكعبة الحقيقية بالكعبة الصورية، أراد أن ينبّه على

﴿ ۞ إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ ۖ فَمَنْ حَجَّ ٱلْبَيْتَ أَوِ ٱعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا ۚ وَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ ٱللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ ﴿١٥٨﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلْنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلْهُدَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِى ٱلْكِتَٰبِ ۙ

علاماتها بعلاماتها:

﴿ ۞ إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ ﴾ أي الظاهر والباطن ﴿مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ ﴾ وعلامات توحيده ﴿فَمَنْ حَجَّ ﴾ قصد ﴿ ٱلْبَيْتَ ﴾ الممثل من المنزل الحقيقي والمرجع الأصلي على الوجه المفروض ﴿ أَوِ ٱعْتَمَرَ ﴾ على الوجه المسنون قاصداً فيه التوجه إلى الذات الأحدي معرضاً عن العلائق المانعة منه ﴿ فَلَا جُنَاحَ ﴾ لا تعب ولا ضيق ﴿عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا ﴾ أي يسعى بينهما، معتقداً ارتباطهما إلى أن ينكشف باتحادهما ﴿وَمَن تَطَوَّعَ ﴾ توجه نحوه ﴿خَيْرًا ﴾ زائداً على ما أمرَ وفرضَ ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ ﴾ الميسّر له ﴿شَاكِرٌ ﴾ راضٍ بفعله ﴿عَلِيمٌ ﴿١٥٨﴾ ﴾ بحاله.

ثم قال سبحانه:

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ ﴾ يسترون ﴿مَآ أَنزَلْنَا ﴾ في التوراة ﴿مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ ﴾ الدالة على ظهور من يغلب عليه توحيد الذات ﴿وَٱلْهُدَىٰ ﴾ المشير إلى أنه مبعوث إلى كافة البرايا ناسخٌ لجميع الأديان، إذ به يتم أمر التكميل ولا بعثة بعد ظهوره، بل ختمَ به ﷺ أمرَ الإرسالِ والإنزالِ والتديينِ والتشريعِ، والحالُ أن كتمانهم ﴿مِنۢ بَعْدِ مَا بَيَّنَّٰهُ ﴾ أوضحناه بلا سترة ﴿لِلنَّاسِ ﴾ الناظرين ﴿

أُوْلَـٰٓئِكَ يَلۡعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلۡعَنُهُمُ ٱللَّـٰعِنُونَ ﴿١٥٩﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ وَأَصۡلَحُواْ وَبَيَّنُواْ فَأُوْلَـٰٓئِكَ أَتُوبُ عَلَيۡهِمۡۚ وَأَنَا ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَمَاتُواْ وَهُمۡ كُفَّارٌ أُوْلَـٰٓئِكَ عَلَيۡهِمۡ لَعۡنَةُ ٱللَّهِ وَٱلۡمَلَـٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجۡمَعِينَ ﴿١٦١﴾ ....

فِي ٱلۡكِتَـٰبِۙ﴾ أي التوراة ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ﴾ الكاتمون المفرطون ﴿يَلۡعَنُهُمُ ٱللَّهُ﴾ أي يطردهم ويبعدهم عن عز حضوره؛ لخروجهم عن اعتدال العبودية بكتمان ما أراد الله ظهوره ﴿وَيَلۡعَنُهُمُ﴾ أيضاً ﴿ٱللَّـٰعِنُونَ ﴿١٥٩﴾﴾ المتمتعون باعتدال العبودية المستقيمون على ما أُمروا بقدر وسعهم.

﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ﴾ رجعوا منهم عن الكتمان، وأظهروا ما ظهر لهم في كتابهم ﴿وَأَصۡلَحُواْ﴾ بإظهار ما أفسدوا بالكتمان ﴿وَبَيَّنُواْ﴾ ما بينه الله في كتابه من وصف نبيه المبعوث المرسل إلى كافة الأمم ﴿فَأُوْلَـٰٓئِكَ﴾ التائبون منهم، المصلحون المبينون ما ظهر لهم في كتابهم ﴿أَتُوبُ عَلَيۡهِمۡۚ﴾ قبل توبتهم وأتجاوز عن سيئاتهم ﴿وَأَنَا ٱلتَّوَّابُ﴾ الرّجاع لهم عن ما جرى عليهم من العصيان والكفر ﴿ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦٠﴾﴾ لهم بعدما رجعوا إليّ مخلصين، ثم قال:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ بكتمان ما بين الله في كتابه ﴿وَمَاتُواْ وَهُمۡ كُفَّارٌ﴾ كاتمون ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ﴾ المصرون المعاندون في أمر الكتمان بعد الظهور، مكابرةً وتنزل ﴿عَلَيۡهِمۡ لَعۡنَةُ ٱللَّهِ﴾ طرده وتبعيده دائماً مستمراً منحصراً عليهم غير منفكٍ عنهم على ما يقتضيه حال الجملة المعبر عنها بخلاف اللعن السابق ﴿وَ﴾ تنزل عليهم أيضاً لعنة ﴿وَٱلۡمَلَـٰٓئِكَةِ﴾ المستغفرين لمن تاب ﴿وَ﴾ أيضاً لعنة ﴿ٱلنَّاسِ﴾ العارفين لحقوق الله المتحققين بآدابه المعتكفين ببابه ﴿أَجۡمَعِينَ ﴿١٦١﴾﴾

﴿خَالِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿١٦٢﴾ وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ ﴿١٦٣﴾ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ ....﴾

﴾ مجتمعين عليها دائماً لخروجهم عن رتبة العبودية.

﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾ بحيث ﴿لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ﴾ المترتب عليها لحظة ليتنفسوا ﴿وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿١٦٢﴾﴾ يُمهلون ساعةً ليعتذروا.

﴿وَإِلَٰهُكُمْ﴾ المظهر لكم أيها المؤمنون وإله الكافرين الكاتمين ﴿إِلَٰهٌ وَاحِدٌ﴾ لا تعدد فيه ولا اثنينية بل ﴿لَّا إِلَٰهَ﴾ أي لا موجود حقيقي ﴿إِلَّا هُوَ﴾ الموجود الحقيقي الحق، إذ لا كثرة في الوجود بل هو واحد في الذات، فرد في الصفات، ليس كمثله شيء ﴿الرَّحْمَٰنُ﴾ المبدئ لكم ولهم عامةً بإشراق تجلياته ومد أظلاله على العدم في النشأة الأولى ﴿الرَّحِيمُ ﴿١٦٣﴾﴾ المعيدُ لكم خاصة إلى مبدئكم الأصلي ومقصدكم الحقيقي في النشأة الأخرى.

ولما كان لوحدته سبحانه آياتٌ ودلائلُ واضحاتٌ لمن تأمل في عجائب مصنوعاته، وبدائع مبدعاته ومخترعاته، المترتبة إلى أسمائه وصفاته المستندة إلى وحدة ذاته، أشار سبحانه إلى نبذتها إرشاداً وتنبيهاً فقال:

﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ﴾ أي إظهار العلويات التي هي الأسماء والصفات المؤثرة الفاعلة ﴿وَالْأَرْضِ﴾ أي السفلية التي هي طبيعة العدم القابلة المتأثرة من العلويات ﴿وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ﴾ أي ظلمة العدم والجهل والعمى ﴿وَالنَّهَارِ﴾ نور الوجود والعلم والعين ﴿وَالْفُلْكِ﴾ أي الأجساد الحاصلة من تأثير الأسماء

ٱلَّتِي تَجۡرِي فِي ٱلۡبَحۡرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٖ فَأَحۡيَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٖ وَتَصۡرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلۡمُسَخَّرِ بَيۡنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ ﴿١٦٤﴾ ....

وتأثير الطبيعة منها ﴿ٱلَّتِي تَجۡرِي فِي ٱلۡبَحۡرِ﴾ أي بحر الوجود الذي لا ساحل له[1] ولا قعر ﴿بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ﴾ من جواهر المعارف، ودرر الحقائق المستخرجة منه ﴿وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ من كرمه وجوده بلا عوض ولا غرض ﴿مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ المعدة للإفاضة ﴿مِن مَّآءٖ﴾ علمٍ وعينٍ وكشفٍ ﴿فَأَحۡيَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ﴾ أي الطبيعة ﴿بَعۡدَ مَوۡتِهَا﴾ بالجهل الجِبلّي ﴿وَ﴾ بعد ما أصابها ﴿بَثَّ﴾ بسط ونشر ﴿فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٖ﴾ من القوى المدركة والمحركة المتشعبتين بالشعبة الكثيرة على صنعة الحياة المتفرعة على التجلي الحي ﴿وَتَصۡرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ﴾ المروحة للنفوس المتوجهة الناشئة المنشئة من النفس الرحمانية نحو الطبيعة المكدرة بالكدورات الجسمانية ﴿وَٱلسَّحَابِ﴾ أي حجاب العبودية وقيود الغيرية الناشئة من مقتضيات الأسماء والصفات ﴿ٱلۡمُسَخَّرِ﴾ الممدود ﴿بَيۡنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ أي سماء الأسماء الإلهية وأرض الطبيعة الكونية ﴿لَأٓيَٰتٖ﴾ دلائلَ وبراهينَ يقينيةٍ دالةٍ على أن مظهر الكل واحد ﴿لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ ﴿١٦٤﴾﴾ يعلمون الأشياء بالدلائل العقلية اليقينية المنتجة لعلم اليقين إلى العين والحق لو كوشفوا.

ربنا اكشف علينا ما أودعت فينا بفضلك وتوفيقك إنك أنت الجواد الكريم.

---

(١) في المخطوط (لها).

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ۗ وَلَوْ يَرَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ إِذْ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ أَنَّ ٱلْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعَذَابِ ﴿١٦٥﴾﴾ ....

﴿وَ﴾ مع لوامع هذه الآيات والدلائل الشواهد وبروق الواردات الغيبية، وشروق المكاشفات العينية الدالة على وحدة الذات.

﴿مِنَ ٱلنَّاسِ﴾ المخلوقين على فطرة التوحيد القابلين لها ﴿مَن يَتَّخِذُ﴾ منهم جهلاً وعناداً ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ المغني للكثرة مطلقاً ﴿أَندَادًا﴾ أمثالاً أحقاء للالوهية والربوبية مستحقين للعبادة إلى حيث ﴿يُحِبُّونَهُمْ﴾ أي كلاً منهم معبودهم ﴿كَحُبِّ ٱللَّهِ﴾ الجامع للكل لحصر كل طائفة منهم مرتبةً للألوهية في مظهرٍ مخصوصٍ، ولذلك كفروا ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟﴾ بالله ﴿أَشَدُّ حُبًّا﴾ منهم ﴿لِّلَّهِ﴾ المحيط للكل الحقيق بالحقية لحصرهم الألوهية والربوبية والتحقق والوجود والهوية والذات والحقيقة والصفات على الله لا على غيره، إذ لا غير في الوجود، لا إله إلا هو، كل شيء هالك إلا وجهه، له الحكم في النشأة الأولى، وإليه الرجوع في النشأة الأخرى.

أذقنا حلاوة اليقين وارزقنا محبة المؤمنين الموقنين.

﴿وَلَوْ يَرَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟﴾ حين خرجوا عن طريق التوحيد، وانصرفوا عن الصراط المستقيم، واتخذوا أمثالاً يحبونهم كحب الله ما يرون حين ﴿إِذْ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ﴾ النازل عليهم باتخاذهم من ﴿أَنَّ ٱلْقُوَّةَ﴾ الكاملة والقدرة الشاملة الجامعة ﴿لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ المنفردِ بالمجدِ وإليها ﴿وَ﴾ من ﴿أَنَّ ٱللَّهَ﴾ المتردي برداء العظمة والكبرياء ﴿شَدِيدُ ٱلْعَذَابِ ﴿١٦٥﴾﴾ صعبُ الانتقام، سريعُ الحساب،

إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ وَرَأَوُاْ ٱلْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ ﴿١٦٦﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُواْ مِنَّا كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ حَسَرَٰتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ ﴿١٦٧﴾..........

لتبرؤوا من متبوعيهم في الدنيا كما تبرؤوا منهم في الآخرة.

اذكر يا أكمل الرسل وقت

﴿إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُواْ﴾ من الأنداد والأمثال ﴿مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ﴾ من المتخذين ﴿وَ﴾ ذلك حين ﴿رَأَوُاْ﴾ المتبوعين ﴿ٱلْعَذَابَ﴾ النازل على تابعيهم باتخاذهم آلهة، كذبوهم وأظهروا البراءة عنهم براءة نفوسهم ﴿وَ﴾ التابعون أيضاً يرونهم ويفهمون براءتهم ويقصدون انتقامهم ولا يستطيعون إذ ﴿تَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ ﴿١٦٦﴾﴾ أي أسباب الانتقام بانقطاع النشأة الأولى.

﴿وَ﴾ بعدما آيسوا من الانتقام ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ﴾ نادمين متحسرين متمنين: ﴿لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً﴾ مكررة في النشأة الأولى ﴿فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ﴾ فيها تلافياً وتداركاً لما مضى من اتخاذنا إياهم آلهةً ﴿كَمَا تَبَرَّءُواْ مِنَّا﴾ في هذه النشأة، ولا تنفعهم هذه الندامة ولا التمني، بل ما يزيدهم إلا غراماً فوق غرام ﴿كَذَٰلِكَ﴾ أي مثل عذاب اتخاذهم ﴿يُرِيهِمُ ٱللَّهُ﴾ أي يحضرهم ﴿أَعْمَٰلَهُمْ﴾ الفاسدة السابقة كلها ويعذبهم عليها فرداً فرداً، وما يقولون فيه وما لهم في تلك الحالة إلا ﴿حَسَرَٰتٍ﴾ نازلةٍ ﴿عَلَيْهِمْ﴾ من تذكر سوء عملهم وقبح صنيعهم، وهذا من أسوأ العذاب وأشد العقاب، أعاذنا الله من ذلك ﴿وَ﴾ بالجملة ﴿مَا هُم﴾ لا تابعون ولا متبوعون ﴿بِخَٰرِجِينَ﴾ أبداً ﴿مِنَ ٱلنَّارِ ﴿١٦٧﴾﴾ أي نار البعد

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ كُلُواْ مِمَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ حَلَٰلٗا طَيِّبٗا وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٌ ١٦٨ إِنَّمَا يَأۡمُرُكُم بِٱلسُّوٓءِ وَٱلۡفَحۡشَآءِ وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ١٦٩﴾ ....

والإمكان المورث للحسرة والخذلان.

أجرنا من النار يا مجير.

ثم لما بين سبحانه طريق توحيده على خلص عباده المتوجهين نحو جنابه، تطهيراً لبواطنهم عن خبائث الأهواء العاطلة والآراء الفاسدة، أراد أن يرشدهم إلى تهذيب ظواهرهم أيضاً بالخصائل الحميدة الجميلة والأخلاق المرضية، ليكون ظاهرهم عنواناً لباطنهم، فقال تعالى منادياً لهم إشفاقاً وإرشاداً:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ المجبولون على التوحيد ﴿كُلُواْ﴾ وتناولوا ﴿مِمَّا﴾ من جميع ما خلق لكم ﴿فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ لتقويم مزاجكم وتقويته ﴿حَلَٰلٗا﴾ إذ الأصل في الأشياء الحل ما لم يرد الشرع على حرمته ﴿طَيِّبٗا﴾ مما يحصل من كد يمينكم وعرق جبينكم إذ لا رزق أطيب منه ﴿وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ﴾ أي لا تقتدوا ولا تقتفوا في تحصيل الرزق إثر وساوس شياطين الأهواء والآراء المضلة عن طريق الحق المفضية إلى سبيل الظلم والعدوان، ولا تغتروا بتمويهات الشيطان وتزييناته ﴿إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٌ ١٦٨﴾ ظاهر العداوة عند أولي البصائر الناظرين بنور الله، المقتبسين من مشكاة توحيده.

﴿إِنَّمَا يَأۡمُرُكُم﴾ ويغرركم ﴿بِٱلسُّوٓءِ﴾ الخصلة الذميمة ﴿وَٱلۡفَحۡشَآءِ﴾ الظاهر القباحة، ليخرجكم عن حدود الله الموضوعة فيكم؛ لتهذيب ظاهركم ﴿وَأَن تَقُولُواْ﴾ بعدما خرجتم عن حدود الشرع ﴿عَلَى ٱللَّهِ﴾ المتوحد المتفرد المنزه في ذاته ﴿مَا لَا تَعۡلَمُونَ ١٦٩﴾ لياقته في حقه من حصره في الأنداد والأشباه

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ۗ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٧٠﴾ وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ كَمَثَلِ ٱلَّذِى يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَآءً وَنِدَآءً ۚ﴾ ....

وإثبات[1] الولد له والمكان والجهة والجسم، تعالى عما يقول الظالمون علواً كبيراً.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ﴾ أي لمن يتبع خطوات الشيطان إمحاضاً للنصح وتحريكاً لحمية الفطرة الأصلية: ﴿ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ على نبيه من البينات والهدى لتهتدوا إلى توحيد الله ﴿قَالُوا۟﴾ في الجواب بإلقاء شياطينهم: لا نتبع ما ألقيتم علينا من المزخرفات ﴿بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا﴾ وجدنا ﴿عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ۗ﴾ وهم أعقل منا، قل لهم يا أكمل الرسل نيابة عنا توبيخاً وتقريعاً لهم: ﴿أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ﴾ ضالون جاهلون ﴿لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا﴾ من أمر الدين ﴿وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٧٠﴾﴾ أصلاً إلى مرتبة اليقين، بل كانوا كذلك، بل أسوأ حالاً من ذلك فكيف تتبعهم.

﴿وَ﴾ إن شئت يا أكمل الرسل زيادة تفضيحهم اذكر للمؤمنين قولنا: ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ تقليداً لآبائهم مع قابليتهم واستعدادهم للإيمان ﴿كَمَثَلِ﴾ الشخص ﴿ٱلَّذِى يَنْعِقُ﴾ يخاطب ويصوّت من سفاهته ﴿بِمَا﴾ أي بجمادٍ ﴿لَا يَسْمَعُ﴾ منه شيئاً في مقابلته ﴿إِلَّا دُعَآءً وَنِدَآءً ۚ﴾ منعكسَين من دعائه، شبّه حالهم في السفاهة والحماقة بحال من يصوّت نحو الجبل فيسمع منه صوته منعكسةً فيتخيل من سفاهته أنه يتكلم معه، والحال أن آباءهم أيضاً أمثالهم

(١) في المخطوط (ثبات).

صُمٌّۢ بُكۡمٌ عُمۡيٌ فَهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ ﴿١٧١﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡ وَٱشۡكُرُواْ لِلَّهِ إِن كُنتُمۡ إِيَّاهُ تَعۡبُدُونَ ﴿١٧٢﴾ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡمَيۡتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحۡمَ ٱلۡخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ بِهِۦ لِغَيۡرِ ٱللَّهِۖ فَمَنِ ٱضۡطُرَّ ....

﴿صُمٌّۢ﴾ لا يسمعون دعوة الحق من ألسنة الرسل ﴿بُكۡمٌ﴾ أيضاً لا يتكلمون بما ظهر لهم من الحق الصريح نقلاً وعقلاً ﴿عُمۡيٌ﴾ أيضاً لا يبصرون آثارَ الصفات وأنوارَ تجليات الذات الظاهرة على الآفاق ﴿فَهُمۡ﴾ وآباؤهم من غاية انهماكهم في الغفلة والنسيان كأنهم ﴿لَا يَعۡقِلُونَ ﴿١٧١﴾﴾ أي لا يخلقون من زمرة العقلاء.

نبهنا بفضلك عن سِنة الغفلة ونوم النسيان.

ثم ناداهم سبحانه، وأوصاهم بما يتعلق بأمور معاشهم أيضاً بقوله:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ﴾ مزكياتِ ما أحل لكم من الحيوانات من ﴿مَا رَزَقۡنَٰكُمۡ﴾ سقنا نحوكم تفضلاً لتقوية مزاجكم وتعديله ﴿وَ﴾ بعد تقويتنا وتعديلنا إياكم ﴿ٱشۡكُرُواْ لِلَّهِ﴾ المنعمِ المفضلِ المربي لكم بلا التفات[1] إلى الوسائل والوسائط ﴿إِن كُنتُمۡ إِيَّاهُ﴾ لا إلى غيره من الآلهة ﴿تَعۡبُدُونَ ﴿١٧٢﴾﴾ تقصرون العبادة.

قل لهم يا أكمل الرسل نيابةً: ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيۡكُمُ﴾ أي ما حرم ربكم عليكم في دينكم من الحيوانات إلا ﴿ٱلۡمَيۡتَةَ﴾ حتف نفسه بلا تزكية وتهليل ﴿وَٱلدَّمَ﴾ السائلَ من أي وجه كان ﴿وَلَحۡمَ ٱلۡخِنزِيرِ﴾ المرخص في الأديان الأُخر لنجاسة عينه طبعاً وشرعاً ﴿وَمَآ أُهِلَّ﴾ صُوِّت ﴿بِهِۦ لِغَيۡرِ﴾ اسم ﴿ٱللَّهِ﴾ عند ذبحه من أسماء الأصنام، وإنما حرَّم عليكم هذه الأشياء وقت سعتكم ﴿فَمَنِ ٱضۡطُرَّ﴾

---

(١) في المخطوط (بلا تفاوت).

غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٧٣﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَشْتَرُونَ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ إِلَّا ٱلنَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٤﴾

منكم حال كونه ﴿غَيْرَ بَاغٍ﴾ للولاة القائمين بحدود الله ﴿وَلَا عَادٍ﴾ مجاوزاً عن شدة الجوعة إلى وقت السعة ﴿فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ﴾ إن تناول منها مقدار سد الرمق ﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾ المرخِّصَ لكم في أمثال المضائق والاضطرار ﴿غَفُورٌ﴾ ساترٌ لكم عن أمثال هذه الجراءة ﴿رَّحِيمٌ ﴿١٧٣﴾﴾ عليكم بهذه الرخصة.

ثم قال سبحانه:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ المدبرُ لأمور عباده ﴿مِنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ المبين لهم طريق الرشاد والسداد، ويظهرون بدله ما تشتهيه نفوسهم وترتضيه عقولهم عتواً واستكباراً ﴿وَيَشْتَرُونَ بِهِۦ﴾ أي بكتمان كتاب الله ﴿ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ من ضعفاء الناس على وجه التحف والهدايا ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ﴾ الكاتمون طريق الحق الناكبون عن منهج الصدق ﴿مَا يَأْكُلُونَ﴾ بهذه الحيلة والتزوير، لا يستحيل ﴿فِى بُطُونِهِمْ إِلَّا ٱلنَّارَ﴾ أي نار الحرص والطمع المقتبسة من نيران الإمكان المنتهية إلى نار الجحيم أعاذنا الله منها ﴿وَ﴾ من فظاعة أمرهم وشناعة صنيعهم ﴿لَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ﴾ المنكشف عن أحوال العباد ﴿يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ ليجزيهم على مقتضى أعمالهم التي كانوا عليها في النشأة الأولى، بل يسوقهم إلى النار بلا كشفٍ عن حالهم ﴿وَ﴾ بعد ما ساقهم إليها ﴿لَا يُزَكِّيهِمْ﴾ أي لا يطهرهم الله بها كما يطهر عصاة المؤمنين بالنار، ثم يخرجهم إلى الجنة، يبقون فيها خالدين ﴿وَلَهُمْ﴾ فيها ﴿عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٤﴾﴾ مؤلمٌ غير منقطع أبداً.

أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشۡتَرَوُاْ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلۡهُدَىٰ وَٱلۡعَذَابَ بِٱلۡمَغۡفِرَةِۚ فَمَآ أَصۡبَرَهُمۡ عَلَى ٱلنَّارِ ﴿١٧٥﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ نَزَّلَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّۗ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخۡتَلَفُواْ فِي ٱلۡكِتَٰبِ لَفِي شِقَاقِۭ بَعِيدٖ ﴿١٧٦﴾ ۞ لَّيۡسَ ٱلۡبِرَّ أَن تُوَلُّواْ وُجُوهَكُمۡ قِبَلَ ٱلۡمَشۡرِقِ وَٱلۡمَغۡرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلۡبِرَّ مَنۡ ءَامَنَ بِٱللَّهِ ....

﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ الضالون الخاسرون هم ﴿ٱلَّذِينَ ٱشۡتَرَوُاْ ٱلضَّلَٰلَةَ﴾ المستتبعة لهذا النكال ﴿بِٱلۡهُدَىٰ﴾ الموصل إلى النعيم الدائم في النشأة الأولى ﴿وَٱلۡعَذَابَ بِٱلۡمَغۡفِرَةِۚ﴾ الملذة المستمرة في النشأة الأخرى ﴿فَمَآ﴾ أعجب حالهم ما ﴿أَصۡبَرَهُمۡ عَلَى ٱلنَّارِ ﴿١٧٥﴾﴾ بارتكاب تلك الموجبات المؤدية إليها.

﴿ذَٰلِكَ﴾ النكال والعذاب ﴿بِأَنَّ ٱللَّهَ﴾ المرشدَ لهم إلى التوحيد ﴿نَزَّلَ ٱلۡكِتَٰبَ﴾ أي القرآن المبين لهم طريقه ملتبساً ﴿بِٱلۡحَقِّۗ﴾ الصريح الثابت في الواقع ﴿وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخۡتَلَفُواْ فِي﴾ حقيقة ﴿ٱلۡكِتَٰبِ لَفِي شِقَاقِۭ﴾ خلافٍ ﴿بَعِيدٖ ﴿١٧٦﴾﴾ بمراحل عن الحق.

حققنا بفضلك حقية ما أنزلت علينا من جودك.

ثم لما اختلف الناس في أمر القبلة واهتموا بشأنها، بأن حصر البر والخير كل فيها، أشار سبحانه إلى تخطئتهم ونبه على البر الحقيقي والخير الذاتي بقوله:

﴿۞ لَّيۡسَ ٱلۡبِرَّ﴾ أي الخصلة السنية والأخلاق المرضية مجرد ﴿أَن تُوَلُّواْ وُجُوهَكُمۡ قِبَلَ ٱلۡمَشۡرِقِ وَٱلۡمَغۡرِبِ﴾ مثلاً بل اتصافٌ بالعزائم، والحكمة المترتبة على تشريع القبلة ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلۡبِرَّ﴾ الحقيقي ﴿مَنۡ ءَامَنَ﴾ صدّق منكم ﴿بِٱللَّهِ﴾

وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُوا۟

المنشيء لكم من كتم العدم بعد أن لم تكونوا شيئاً مذكوراً ﴿ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ ﴾ المعدِّ لجزاء الأعمال ﴿ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ ﴾ المهيمنين الوالهين في مطالعة جمال الله، المستغفرين لمن آمن وعمل صالحاً من عباده ﴿ وَٱلْكِتَٰبِ ﴾ المبين لكم طريق الهداية ﴿ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ ﴾ المبعوثين إليكم به ليرشدكم إلى مقاصده ﴿وَ﴾ بعد ما آمن بما ذُكِر ﴿وَءَاتَى ٱلْمَالَ ﴾ المانع من التوجه الحقيقي، وأنفقه ﴿ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ﴾ سبحانه طالباً لرضاه، وأنفقه على المحتاجين أولاً هم ﴿ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ ﴾ المنتمين إليه من قبل أبويه ﴿وَٱلْيَتَٰمَىٰ ﴾ الذين لا متعهد لهم من الوالدين وذوي القربى ﴿وَٱلْمَسَٰكِينَ ﴾ الذين أسكنهم الفقر العارض لهم من عدم مساعدة آلات الكسب والحوادث الأُخر ﴿وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ ﴾ الغرباء الذين لا يمكنهم التصرف في أموالهم لوقوع البون والمبين ﴿وَٱلسَّآئِلِينَ ﴾ الذين ألجأهم الاحتياج مطلقاً إلى السؤال من أي وجهٍ كان ﴿وَفِى ٱلرِّقَابِ ﴾ من الأسرى الموثقين في يد العدو، والمكاتبين الذين لا يقدرون على فك رقابهم من مواليهم، وغير ذلك من المضطرين ﴿وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾ أي دوام الميل والتوجه بجميع الأعضاء والجوارح نحوه تعالى في جميع الأوقات، خصوصاً في الأوقات التي فرض فيها التوجه ﴿وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ ﴾ المفروضة المقدرة في كتاب الله ﴿وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُوا۟ ﴾ كلهم من خيار الأبرار

وَٱلصَّٰبِرِينَ فِي ٱلۡبَأۡسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلۡبَأۡسِۗ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡقِصَاصُ فِي ٱلۡقَتۡلَىۖ ٱلۡحُرُّ بِٱلۡحُرِّ وَٱلۡعَبۡدُ بِٱلۡعَبۡدِ ....

﴿وَ﴾ بشر من بينهم يا أكمل الرسل ﴿ٱلصَّٰبِرِينَ فِي ٱلۡبَأۡسَآءِ﴾ أي الفقر المكسر للظهر ﴿وَٱلضَّرَّآءِ﴾ المرض المسقم للجسم ﴿وَ﴾ خصوصاً الغزاة الذين صبروا ﴿حِينَ ٱلۡبَأۡسِۗ﴾ من اقتحام العدو، بالإنعامات العلية والكرامات السنية ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ الأبرار الأحرار الصابرون في البلوى، المرجون لرضا المولى على أنفسهم هم ﴿ٱلَّذِينَ صَدَقُواْۖ﴾ في أقوالهم، وأصلحوا في أفعالهم، وأخلصوا في نياتهم ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾﴾ المحفوظون عن جميع ما ضُيق عليهم في أمور الدين، الواصلون إلى مرتبة الحقيق واليقين.

رب اجعلنا منهم بلطفك وكرمك يا أرحم الراحمين.

ثم ناداهم سبحانه إصلاحاً لهم فيما يقع بينهم من الوقائع الهائلة، والفتن العظيمة الحادثة من ثوران القوة الغضبية، وطغيان الحمية الجاهلية، المؤدية إلى قتل البعض بعضاً ظلماً وعدواناً فقال:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ مقتضى إيمانكم وتوحيدكم المحافظة بزجر النفس الأمارة بالسوء عن مقتضياتها المنشعبة من القوى البشرية، وإن وقع فيكم أحياناً فاعلموا أنه ﴿كُتِبَ﴾ فُرض ﴿عَلَيۡكُمُ﴾ في دينكم ﴿ٱلۡقِصَاصُ﴾ بالمثل ﴿فِي ٱلۡقَتۡلَىۖ﴾ المقتولين عمداً فيُقتل ﴿ٱلۡحُرُّ﴾ القاتل ﴿بِٱلۡحُرِّ﴾ المقتول، ﴿وَ﴾ كذا ﴿ٱلۡعَبۡدُ﴾ القاتل ﴿بِٱلۡعَبۡدِ﴾ المقتول، وبالحر بالطريق الأولى

وَٱلْأُنثَىٰ بِٱلْأُنثَىٰ ۚ فَمَنْ عُفِىَ لَهُۥ مِنْ أَخِيهِ شَىْءٌ فَٱتِّبَاعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِ وَأَدَآءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَٰنٍ ۗ ذَٰلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ ۗ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٨﴾

﴿وَ﴾ كذا يُقتل ﴿ٱلْأُنثَىٰ﴾ القاتلة حرةً كانت أو أمة ﴿بِٱلْأُنثَىٰ﴾ المقتولة أيضاً كذلك لنظيرتها قياساً على الحر والعبد والأمة بالحرة بالطريق الأولى، وكذا بالذَّكرين مهما وافى قتل الحر، والحرة بالعبد والأمة، فقد خولف فيه والظاهر أنه لم يقتل ﴿فَمَنْ عُفِىَ لَهُۥ﴾ أي للجاني والقاتل من المحقوق والسهام المشتركة بين الغرماء الطالبين منه قصاص أخيه المسلم المقتول بيده ظلماً ﴿مِنْ أَخِيهِ شَىْءٌ﴾ قليلٌ من الحقوق المذكورة ﴿فَٱتِّبَاعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ أي فالحكم لازمٌ عليكم في دينكم أيها الغرماء، متابعة المعروف المستحسن عند الله وعند المؤمنين والرجوع إلى الدية وعدم القصاص ﴿وَ﴾ عليك أيها الجاني ﴿أَدَآءٌ﴾ أي أداء الدية التي هي فدية حياتك ﴿إِلَيْهِ﴾ أي إلى وليِّ المقتول ﴿بِإِحْسَٰنٍ﴾ معتذراً نادماً متذللاً على وجه الانكسار بلا مطلٍ وكسلٍ ﴿ذَٰلِكَ﴾ أي سقوط القصاص بعد عفو البعض ولزوم الدية بدله ﴿تَخْفِيفٌ﴾ لكم أيها المؤمنون وإصلاح لحالكم ﴿مِّن﴾ قِبل ﴿رَّبِّكُمْ﴾ أما التخفيف بالنسبة إلى الغرماء فبتسكين القوة الغضبية، وتليين الحمية العصبية بالمال المسرة لنفوسهم بعد وقوع ما وقع وأما بالنسبة إلى الجاني فظاهرٌ لإبقاء الحياة بالمال ﴿وَرَحْمَةٌ﴾ نازلةٌ لكم من ربكم لتصفية كدورتكم الواقعة بينكم بواسطة القتل ﴿فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ﴾ منكم وتجاوز عن الحكم ﴿بَعْدَ ذَٰلِكَ﴾ المذكور بأن قتل الغرماءُ الجانيَ بعد عفو البعض وأخذ الدية، أو امتنع الجاني عن أداء الدية على الغرماء ﴿فَلَهُۥ﴾ أي لكل من المعتدين ﴿عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٨﴾﴾ يؤاخَذون في

وَلَكُمْ فِي ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَـٰٓأُوْلِي ٱلْأَلْبَـٰبِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٧٩﴾ كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْرًا ٱلْوَصِيَّةُ لِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ بِٱلْمَعْرُوفِۖ حَقًّا ....

الدنيا بما صدر عنهم، ويعاقَبون عليها في الآخرة.

﴿ وَلَكُمْ ﴾ أيها الموحدون المكاشفون بسرائر الشرائع والنواميس الإلهية الموضوعة بين المؤمنين في هذه النشأة خصوصاً ﴿ فِي ٱلْقِصَاصِ﴾ المسقط للجرائم الصادرة من جوارحكم البادية عليها ﴿حَيَوٰةٌ﴾ عظيمةٌ حقيقيةٌ لكم في النشأة الأخرى، إذ لا يؤاخذون عليه بعد مؤاخذتكم في النشأة الأولى ﴿ يَـٰٓأُوْلِي ٱلْأَلْبَـٰبِ ﴾ الناظرين بنور الحق في لب الأمور المعرضين عن قشوره ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٧٩﴾﴾ رجاء أن تتحفظوا عن مقتضى القوى البهمية، المنافية لطريق التوحيد المبني على الاعتدال والوفاق، المؤدية إلى أمثال هذه الخباثات.

ثم قال سبحانه:

﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمْ ﴾ أيضاً في دينكم أيها المؤمنون ﴿ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ ﴾ أي أسبابه وأماراته ﴿ إِن تَرَكَ خَيْرًا ﴾ مالاً كثيراً يقبل التجزئة والانقسام المعتد بها بلا تحريم الورثة ﴿ ٱلْوَصِيَّةُ ﴾ أي الحصة المستخرجة منها لرضاء الله، للفقراء المستحقين لها، وأفضل الوصية وأولاها الوصية ﴿ لِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ ﴾ إن كانوا مستحقين لها، وأيضاً أفضلها الاستخراج ﴿ بِٱلْمَعْرُوفِۖ ﴾ المعتدل المستحسن بين الناس، بحيث لا يتجاوز عن ثلث المال لئلا يؤدي إلى تحريم الورثة، وما فرض الوصية في دينكم إلا ﴿حَقًّا﴾ لازماً

عَلَى ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٨٠﴾ فَمَنۢ بَدَّلَهُۥ بَعْدَ مَا سَمِعَهُۥ فَإِنَّمَآ إِثْمُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٨١﴾ فَمَنْ خَافَ مِن مُّوصٍ جَنَفًا أَوْ إِثْمًا فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٨٢﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ ....

﴿ عَلَى ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٨٠﴾﴾ الذين يحفظون إيمانهم وتوحيدهم بمحبة الفقراء ومودة ذوي القربى عما يضاده ويخالفه.

﴿ فَمَنۢ بَدَّلَهُۥ﴾ غيّره من الأوصياء والحضار الشاهدين عليها ﴿بَعْدَ مَا سَمِعَهُۥ﴾ من الموصي صريحاً ﴿ فَإِنَّمَآ إِثْمُهُۥ﴾ أي إثم التبديل والتغيير ﴿عَلَى﴾ المبدلين المغيرين ﴿ ٱلَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُۥٓ﴾ ظلماً وزوراً ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ﴾ بأقوال الموصي ﴿ عَلِيمٌ ﴿١٨١﴾﴾ بما صدر من المبدّلين المغيّرين، فيجازي كلاً منهم على مقتضى عمله.

﴿فَمَنْ خَافَ﴾ من الأوصياء والوكلاء ﴿ مِن مُّوصٍ﴾ حين الوصية ﴿جَنَفًا أَوْ إِثْمًا فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ﴾ ميلاً ببعض المستحقين، سألهم على مقتضى علمه بأحوالهم ﴿فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ﴾ أي على الوصي في هذا التبديل والتغيير بل يرجى من الله بإصلاحه الثواب له ولمن أوصى إليه ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ﴾ المطلعَ بحالهما ﴿غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٨٢﴾﴾ لكل منهما.

ثم لما نبههم سبحانه بنبذ ما يتعلق بتهذيب ظاهرهم، أراد أن ينبههم على بعض ما يتعلق بتهذيب باطنهم فقال أيضاً منادياً لهم:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُتِبَ عَلَيْكُمُ﴾ في دينكم ﴿ٱلصِّيَامُ﴾ هو الإمساك المخصوص من طلوع الفجر الثاني إلى غروب الشمس في الشهر المعروف

كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٨٣﴾ أَيَّامًا مَّعْدُودَٰتٍ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ وَأَن تَصُومُوا۟ خَيْرٌ لَّكُمْ

بلسان الشريعة والإمساك المطلق والإعراض الكلي عما سوى الحق عند أولي النهى واليقين المستكشفين عن سرائر الأمور، المتحققين بها حسب المقدور ﴿ كَمَا كُتِبَ عَلَى ﴾ أمم الأنبياء ﴿ ٱلَّذِينَ ﴾ خلوا ﴿ مِن قَبْلِكُمْ ﴾ وإنما فرض عليكم ﴿ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٨٣﴾ ﴾ رجاء أن تحفظوا أنفسكم عن الإفراط في الأكل المميت للقلب المطفي نيران العشق والمحبة الحقيقية.

وإذ فرض عليكم صوموا ﴿ أَيَّامًا ﴾ قلائل ﴿ مَّعْدُودَٰتٍ ﴾ هي شهر رمضان ﴿ فَمَن كَانَ مِنكُم ﴾ حين ورود شهر رمضان الذي فرض فيه الصيام ﴿ مَّرِيضًا ﴾ مرضاً يضره الصوم أو يعسر عليه ﴿ أَوْ ﴾ حين وروده ﴿ عَلَىٰ ﴾ جناح ﴿ سَفَرٍ ﴾ مقدار مسافة مقدرة عند الفقهاء فأفطر ﴿ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ﴾ مساوية للأيام المفطرة، يجب على المفطر بلا كفارة ﴿ وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ ﴾ أي الصوم فيفطرونه مع أنهم ليسوا مرضى ولا مسافرين ﴿ فِدْيَةٌ ﴾ هي ﴿ طَعَامُ مِسْكِينٍ ﴾ أي فديةُ كل يومٍ من الأيام المفطرة من رمضان طعامُ واحدٍ من المساكين ﴿ فَمَن تَطَوَّعَ ﴾ زاد في الفدية ﴿ خَيْرًا ﴾ تبرعاً زائداً مما كتب له ﴿ فَهُوَ ﴾ أي ما زاد عليها ﴿ خَيْرٌ لَّهُۥ ﴾ عند ربه يجزيه عليه زيادة جزاءٍ ﴿ وَأَن تَصُومُوا۟ ﴾ أيها المؤمنون ﴿ خَيْرٌ لَّكُمْ ﴾ من الفدية وزيادةٌ عليها متبرعاً

إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٨٤﴾ شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ ۚ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ ۖ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ۗ يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ

﴿إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٨٤﴾﴾ سرائر الإمساك والفوائد والعائدة منها إلى نفوسكم، من كسر الشهوة والتلقي على الطاعة والتوجه مع الفراغة، هذا في بدء الإسلام ثم نسخ بالآية ـ ستذكر ـ .

واعلموا أيها المؤمنون، أن أفضل الشهور عند الله وأرفعها قدراً ومرتبة:

﴿شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ﴾ أي ابتداء نزوله أو نزل كله فيه، بل الكتب الأربعة كلها تنزل فيه على ما نقل في الحديث، وكيف لا يكون أفضل الشهور، والحال أن القرآن المنزل فيه ﴿هُدًى لِّلنَّاسِ﴾ المؤمنين بتوحيد الله المتوجهين نحو جنابه يهديهم إلى مرتبة اليقين ﴿وَبَيِّنَٰتٍ﴾ شواهد وآيات واضحات ﴿مِّنَ ٱلْهُدَىٰ﴾ الموصل للمستكشفين عن سرائر التوحيد إلى مرتبة عين اليقين ﴿وَٱلْفُرْقَانِ﴾ الفارق لهم بين الحق الذي هو الوجود الإلهي، والباطل الذي هو الوجودات الكونية يوصلهم إلى مرتبة حق اليقين ﴿فَمَن شَهِدَ﴾ أدرك ﴿مِنكُمُ ٱلشَّهْرَ﴾ المذكور مقيماً مطيقاً بلا عذر ﴿فَلْيَصُمْهُ﴾ ثلاثين يوماً حتى بلا إفطار وإفداء؛ لأن هذه الآية ناسخة للآية السابقة ﴿وَمَن كَانَ مَرِيضًا﴾ لا يطيق على صومه خوفاً من شدة مرضه ﴿أَوْ عَلَىٰ﴾ متن ﴿سَفَرٍ﴾ فأفطر دفعاً للحرج ﴿فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾ أي لزم عليه صيام أيام أخر قضاء لأيام الفطر إنما ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ﴾ أيها المؤمنون ﴿ٱلْيُسْرَ﴾

وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُواْ ٱلْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُواْ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٨٥﴾ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُواْ لِى وَلْيُؤْمِنُواْ بِى لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴿١٨٦﴾...

لئلا يتحرجوا ﴿وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾ لئلا تضطروا وتضطربوا وإنما رخص لكم الإفطار في المرض والسفر ﴿وَ﴾ ألزم عليكم القضاء بعد ﴿لِتُكْمِلُواْ ٱلْعِدَّةَ﴾ المفروضة لكم في كل سنة لئلا تحرموا عن منافع الصوم ﴿لِتُكَبِّرُواْ ٱللَّهَ﴾ وتعظموه ﴿عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ﴾ إلى الرخص عند الاضطرار ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٨٥﴾﴾ تتنبهون بشكر نعمه الفائضة عليكم في أمثال هذه المضائق إلى ذاته أو بشكر نعمه تتقربون إليه.

﴿وَ﴾ لذلك أخبر سبحانه نبيه ﷺ إرشاداً لعباده الشاكرين لنعمه عن تقربه إليهم بقولهم: ﴿إِذَا سَأَلَكَ﴾ أيها الداعي للخلق إلى الحق ﴿عِبَادِى﴾ الشاكرين لنعمه ﴿عَنِّى﴾ بقولهم: أقريب إلينا ربنا فنناجيه مناجاتنا نفوسنا، أم بعيد منا فنناديه نداء الأباعد، قل لهم يا أكمل الرسل في جوابهم نيابة عني: ﴿فَإِنِّى قَرِيبٌ﴾ لهم من نفوسهم بحيث ﴿أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ استقبله سريعاً لإجابة دعائه كما أشار إليه في الحديث القدسي حكايةً عنه سبحانه ﴿فَلْيَسْتَجِيبُواْ لِى﴾ في جميع مهماتهم، وحاجاتهم ﴿وَلْيُؤْمِنُواْ بِى﴾ معتقدين بي إيصالهم إلى غاية متمنّاهم، إذ لا مرجع لهم غيري ولا ملجأ لهم في الوجود سواي، وإنما أُخبروا بما أُخبروا وأُمروا بما أُمروا ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴿١٨٦﴾﴾ رجاء أن يهتدوا إلى مرتبة التوحيد راشدين مطمئنين.

﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَائِكُمْ هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ ....﴾

اهدنا بلطفك إلى مقر عزك يا هادي المضلين.

ثم أشار سبحانه إلى بيان أحكام الصوم مما يتعلق بالحل والحرمة فيه فقال:

﴿أُحِلَّ لَكُمْ﴾ أيها الصائمون ﴿لَيْلَةَ الصِّيَامِ﴾ دون نهاره إذ الإمساك عن الجماع في يوم الصوم مأخوذ في تعريفه شرعاً ﴿الرَّفَثُ﴾ الوقاع والجماع ﴿إِلَىٰ نِسَائِكُمْ﴾ أي مع نسائكم اللاتي ﴿هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ﴾ لا تصبرون عنهن لإفضاء طبعكم وميل نفوسكم إليهن ﴿وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ﴾ أيضاً لا يصبرن عنكم لاشتداد شهوتهن إلى الوقاع بأضعاف ما أنتم عليه، وإنما رخص لكم الوقاع في لياليه، إذ ﴿عَلِمَ اللَّهُ﴾ المحيط بسرائركم وضمائركم ﴿أَنَّكُمْ كُنتُمْ﴾ لو كلفتم بها ﴿تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ﴾ أي توقعونها بأيديكم إلى الخبائث فتعاقبون عليها، وتحرمون جزاء الصوم المتكفل لها الحق بذاته كما قال ﷺ حكاية عنه سبحانه: «الصَّوْمُ لِي وَأَنَا أَجْزِي بِهِ»[1]،

---

(١) رواه مسلم [٢/ ٨٠٧ رقم / ١١٥١/ باب: فضل الصيام] عن أبي هريرة، ورواه ابن خزيمة [٣/ ١٩٧ رقم / ١٨٩٧/] وأحمد في المسند [٢/ ٢٥٧ رقم / ٧٤٨٥] وغيرهم. ووقعت في صحيح البخاري [٢/ ٦٧٠ رقم / ١٧٩٥/ باب: فضل الصوم] عن أبي هريرة أيضاً ولم يذكر أنها تضاعف إلى سبعمائة ضعف.

وَعَفَا عَنكُمْ فَٱلْـَٔـٰنَ بَـٰشِرُوهُنَّ وَٱبْتَغُوا۟ مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ ۚ وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلْخَيْطُ ٱلْأَبْيَضُ مِنَ ٱلْخَيْطِ ٱلْأَسْوَدِ مِنَ ٱلْفَجْرِ ۖ ثُمَّ أَتِمُّوا۟ ٱلصِّيَامَ إِلَى ٱلَّيْلِ ۚ وَلَا تُبَـٰشِرُوهُنَّ وَأَنتُمْ عَـٰكِفُونَ فِى ٱلْمَسَـٰجِدِ ۗ ....

﴿وَ﴾ إذا علم سبحانه منكم ما علم ﴿عَفَا﴾ محا ﴿عَنكُمْ﴾ ما يوقعكم إلى الفتنة والعذاب وهو تحريم الرفث في الليلة أيضاً وإذا رخص لكم الوقاع فيها ﴿فَٱلْـَٔـٰنَ بَـٰشِرُوهُنَّ﴾ أي ألصقوا بشرتهن لبشرتكم في ليلة الصيام المرخصة فيها الجماع ولا تخافوا من عقوبة الله عليها بعد ما أَذِن ﴿وَٱبْتَغُوا۟﴾ اطلبوا سرائر ﴿مَا كَتَبَ﴾ قدر ﴿ٱللَّهُ لَكُمْ﴾ من الولد الصالح المتفرع على اجتماعكم من نسائكم، إذ سر الجماع والنزوع المستلزم له، إبقاء نوع الإنسان المصور بصورة الرحمن ليترقى في العبودية والعرفان إلى أن يستخلف وينوب عنه سبحانه ﴿وَكُلُوا۟﴾ في ليلة الصيام ﴿وَٱشْرَبُوا۟﴾ فيها ﴿حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ﴾ أي إلى أن يظهر ﴿لَكُمُ﴾ بلا خفاية ﴿ٱلْخَيْطُ ٱلْأَبْيَضُ﴾ أي البياض الممتد الذي يقال له في العرف الصبح الصادق ﴿مِنَ ٱلْخَيْطِ ٱلْأَسْوَدِ﴾ البياض المتوهم قبل الصبح الصادق المعبر عنها بالصبح الكاذب وكلاهما ﴿مِنَ ٱلْفَجْرِ﴾ الشامل لهما وهو آخر الليل ﴿ثُمَّ أَتِمُّوا۟ ٱلصِّيَامَ﴾ من الوقت المبين ﴿إِلَى﴾ ابتداء ﴿ٱلَّيْلِ﴾ وهو غروب الشمس بحيث لا يرى في الأفق الشرقي بياضٌ وحمرةٌ منها ﴿وَلَا تُبَـٰشِرُوهُنَّ﴾ في ليلة الصيام أيضاً ﴿وَأَنتُمْ عَـٰكِفُونَ﴾ معتكفون ﴿فِى ٱلْمَسَـٰجِدِ﴾ إذ الاعتكاف في الشرع عبارةٌ عن اللبث في المسجد على نية التقرب، فيبطله الخروج إلا إلى التوضؤ والطهارة، والجماعُ فيه ليس بمرخصٍ شرعاً

تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿١٨٧﴾ وَلَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ وَتُدْلُوا۟ بِهَآ إِلَى ٱلْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا۟ فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ بِٱلْإِثْمِ ....

﴿تِلْكَ﴾ الأحكام المذكورة ﴿حُدُودُ ٱللَّهِ﴾ الحاجزة بينه وبينكم لئلا تتجاوزوا عنها ﴿فَلَا تَقْرَبُوهَا﴾ إلى حيث يتوهم تجاوزكم عنها ﴿كَذَٰلِكَ﴾ كالحدود والأحكام المأمور به والمنهية ﴿يُبَيِّنُ ٱللَّهُ﴾ الهادي إلى وحدة ذاته جميع ﴿ءَايَٰتِهِۦ﴾ أي علاماته الدالة على توحيده الذاتي ﴿لِلنَّاسِ﴾ الناسين العهود السابقة بواسطة تعيناتهم ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿١٨٧﴾﴾ رجاء أن يتخذوا عنها بسبب إشراق نور الوجود الحق المفني لها مطلقاً.

﴿وَ﴾ من جملة الأحكام الموضوعة فيكم لإصلاح حالكم أن ﴿لَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم﴾ أي لا يأكل كل منكم مال الآخر ﴿بِٱلْبَٰطِلِ﴾ أي بالسبب الباطل الغير المبيح له أكل مال الغير، من السرقة والغصب والربا والرشوة والحيل المنسوبة إلى الشرع، افتراء وغير ذلك مما ابتدعه الفقهاء في الوقائع من الحيل والشُّبه، ونسبوها إلى السمحة الحنيفية البيضاء المحمدية المنبئة عن الحكمة الإلهية، المنزهة عن أمثال تلك المزخرفات الباطلة ﴿وَ﴾ أيضاً من جملة الأحكام الموضوعة أن لا ﴿تُدْلُوا۟ بِهَآ﴾ أي لا يحاول بعضكم مال البعض ﴿إِلَى ٱلْحُكَّامِ﴾ المسلطين عليكم، أي لا يفتري بعضكم بعضاً افتراءً يوقع بينكم العداوة والحكومة والبغضاء المفضية إلى المصادرة المستلزمة لأخذ المال من الجانبين ومن أحد الجانبين ﴿لِتَأْكُلُوا۟﴾ أي الحكام ﴿فَرِيقًا﴾ بعضاً أو كلاً ﴿مِّنْ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ﴾ المظلومين ﴿بِٱلْإِثْمِ﴾ الصادر عن المدلي

﴿وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ۝١٨٨ ۞ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ ۖ قُلْ هِىَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلْحَجِّ﴾

والمغري ﴿وَأَنتُمْ﴾ أيها المدلون ﴿تَعْلَمُونَ ۝١٨٨﴾ أنكم آثمون مفترون.

بكَ نعتصم عن أمثاله يا ذا القوة المتين.

ثم لما قدر سبحانه في سابق علمه الحضوري سؤال أولئك السائلين عن كمية ازدياد القمر وانتقاصه وبدوه رقيقاً واستكماله ورجوعه على ما كان عليه، أخبر نبيه ﷺ عما سألوه امتناناً عليه فقال:

﴿۞ يَسْـَٔلُونَكَ﴾ أيها الداعي إلى الحق ﴿عَنِ﴾ كمية تغير ﴿ٱلْأَهِلَّةِ قُلْ﴾ واختلافها كمالاً ونقصاناً، قل لهم في جوابهم كلاماً ناشئاً عن لسان الحكمة مطابقاً لأسلوب الحكيم مقتضى حالكم وإدراككم: أن تسألوا عن الحِكم والمصالح المودعة فيها لا عن كمية أمر القمر، فإنها خارجة عن طوق البشر، ونهاية مدارك العقلاء من أمر القمر: ليس إلا أن نوره مستفاد من الشمس وإنه مظلمٌ في ذاته، وإن استفادته النور بحسب مقابلته بالشمس، وعدم ممانعة الأرض منها.

وإما أن الشمس ما هي في ذاته والقمر ما هو؟ والارتباط بينهما على أي وجه فسر، لا يحوم حوله عقول أحد من خلقه، بل مما استأثر الله به في علمه، فلا يسأل عنه أحد بل ﴿هِىَ﴾ أي الاختلافات الواقعة في القمر زيادةً ونقصاناً، ترقياً وتنزلاً لأجل أنه ﴿مَوَٰقِيتُ﴾ معينةٌ ﴿لِلنَّاسِ﴾ في أمور معاشهم من الآجال المقدرة لقضاء الديون والعدة وتعليقات المتعلقة بها، وغير ذلك من التقديرات الجارية في المعاملات بين الناس في العادات والعبادات ﴿وَ﴾ خصوصاً في ﴿ٱلْحَجِّ﴾ والصوم والنذر المعينة فإنها كلها

وَلَيْسَ ٱلْبِرُّ بِأَن تَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنِ ٱتَّقَىٰ ۗ وَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَٰبِهَا ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٨٩﴾ وَقَٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ..

تضبط باختلافات إلى غير ذلك من العبادات المؤقتة ﴿وَ﴾ كما أن سؤالكم هذا ليس من الأمور المبرورة المتعلقة لدينكم وتوحيدكم كذلك ﴿ لَيْسَ ٱلْبِرُّ بِأَن تَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا ﴾ لا من أبوابها.

الأنصار كانوا إذا أحرموا للحج لم يدخلوا من أبواب البيوت، بل يثقبون ظهورها ويدخلون منها، يعدون هذه الفعلة من الأمور المبرورة ويعتقدونها كذلك، لذلك نبه سبحانه على خطئهم وأرشدهم إلى البر الحقيقي بقوله ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ﴾ المقبول عند الله بر ﴿مَنِ ٱتَّقَىٰ ۗ﴾ عن محارم الله مطلقاً حين لبس الإحرام، إذ الإحرام للموت الإرادي المعبر عنه بلسان الشرع بالحج بمنزلة الكفن للموت الطبيعي، فكما أن لابس الكفن محفوظ عن جميع المحارم اضطراراً، كذلك لابس الإحرام لا بد أن يتقي نفسه عن جميع المحارم إرادة واختياراً ﴿وَ﴾ إذا لم يكن الدخول من ظهور البيوت وثقبه من البر ﴿أْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَٰبِهَا ۚ﴾ مغمضين عيونكم عن محارم الله ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ مخلصين له خائفين منه ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٨٩﴾﴾ رجاء أن تفوزوا بالفلاح من عند الله بسبب تقواكم.

﴿وَ﴾ من جملة الحدود الموضوعة فيكم القتال مع أعداء دينكم ﴿وَقَٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ مع المشركين المعرضين عن طريق الحق المائلين عنه تعنتاً

ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿١٩٠﴾ وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُم مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ ۚ وَٱلْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ ٱلْقَتْلِ ۚ وَلَا تُقَٰتِلُوهُمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَٰتِلُوكُمْ فِيهِ ۖ فَإِن قَٰتَلُوكُمْ فَٱقْتُلُوهُمْ ۗ كَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٩١﴾ فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟ ....

واستكباراً وخصوصاً مع ﴿ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمْ ﴾ ويقصدون استئصالكم بادين للقتال مجترئين عليها ﴿وَلَا تَعْتَدُوٓا۟ ﴾ ولا تتجاوزوا أيها المؤمنون عما نهيتم عنه من قتل المعاهد، والفجر والاقتحام فجأة، والمقاتلة في الحرَم وفي الشهور المحرمة والابتداء بالمقاتلة وغير ذلك ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿١٩٠﴾ ﴾ المتجاوزين عن الحدود والعهود.

﴿وَ﴾ إن اجتمعوا لقتالكم وتوجهوا نحوكم ﴿ ٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ ﴾ أي في أي مكان وجدتموهم ﴿وَأَخْرِجُوهُم ﴾ إن ظفرتم عليهم ﴿مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ ﴾ أي مكة ﴿وَ﴾ ألقوا بينهم الفتن والاضطراب وأوقعوهم في حيْص بيْص إذ ﴿ ٱلْفِتْنَةُ أَشَدُّ ﴾ أثراً ﴿مِنَ ٱلْقَتْلِ ﴾ لأن أثر القتل منقطعٌ به وأثر الفتنة مستمرٌ دائمٌ غير منقطع ﴿وَ﴾ عليكم المحافظة للعهود خصوصاً ﴿لَا تُقَٰتِلُوهُمْ ﴾ وأنتم بادون[1] للقتل ﴿عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ الذي حُرم فيه إزالة الحياة مطلقاً ﴿حَتَّىٰ يُقَٰتِلُوكُمْ فِيهِ﴾ وهم بادون معتدون[2] عن حدود الله ﴿فَإِن قَٰتَلُوكُمْ فَٱقْتُلُوهُمْ ﴾ بعد ذلك فيه أيضاً قائلين: ﴿ كَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٩١﴾ ﴾ الهاتكين حرمة بيت الله.

﴿ فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟ ﴾ عن الكفر والقتال مع المؤمنين وآمنوا على وجه الإخلاص

(١) في المخطوط (بادين).

(٢) في المخطوط (بادين معتدين).

فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٩٢﴾ وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِ فَإِنِ ٱنتَهَوْا فَلَا عُدْوَٰنَ إِلَّا عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩٣﴾ ٱلشَّهْرُ ٱلْحَرَامُ بِٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ وَٱلْحُرُمَٰتُ قِصَاصٌ ......

﴿ فَإِنَّ ٱللَّهَ ﴾ المطلع لضمائرهم ﴿غَفُورٌ﴾ لما صدر عنهم من الكفر ﴿رَّحِيمٌ ﴿١٩٢﴾ ﴾ لهم بما ظهر منهم من الإيمان والإسلام.

﴿وَقَٰتِلُوهُمْ ﴾ أيها المؤمنون إلى أن تستأصلوهم ﴿حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ ﴾ أي لا تبقى فتنة يفتتنون بها ويشوشون منها ﴿وَيَكُونَ ٱلدِّينُ ﴾ كله ﴿لِلَّهِ﴾ بلا مزاحم ولا مخاصم ﴿فَإِنِ ٱنتَهَوْا﴾ عن كفرهم بلا مقاتلةٍ ودخلوا في دين الإسلام طائعين ﴿فَلَا عُدْوَٰنَ﴾ ولا عداوةَ باقياً لكم معهم، بل هم إخوانكم في الدين ﴿ إِلَّا عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩٣﴾ ﴾ أي مع الظالمين منهم المجاوزين عن الحدود والعهود المصرين على ما هم عليه من الكفر والجحود.

وبعد ما قاتل المشركون مع المؤمنين عام الحديبية في ذي القعدة الحرام، عزم المؤمنون الخروج إلى مكة لعمرة القضاء أيضاً فيها في السنة الثانية وهم يكرهون القتال لئلا يهتكوا حرمة شهرهم هذا كما هتكوا.

أنزل الله عليهم هذه الآية فقال:

﴿ ٱلشَّهْرُ ٱلْحَرَامُ بِٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ﴾ أي لا ينالوا ولا يمتنعوا عن القتال فيه، إذ هتككم حرمة شهركم في هذه السنة بسبب هتكهم[1] حرمته في السنة السابقة، فيؤول كلا الهتكين إليهم ﴿وَٱلْحُرُمَٰتُ قِصَاصٌ﴾ أي وأعلموا أن الحرمات التي يجب محافظتها وعدم هتكها يجري فيها القصاص بالمثل، فلما هتكوا حرمة هذا الشهر في السنة السابقة، فافعلوا معهم في هذه السنة بمثله، ولا تجاوزوا

---

(١) في المخطوط (هتككم).

فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُواْ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٩٤﴾ وَأَنفِقُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا تُلْقُواْ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ ۛ وَأَحْسِنُوٓاْ ۛ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٩٥﴾ وَأَتِمُّواْ ٱلْحَجَّ ....

عنه ﴿فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُواْ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ ۚ﴾ وهذا أيضاً من الحدود الموضوعة بينكم لإصلاح حالكم وتهذيب أخلاقكم ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ أن تتخلفوا عن حدوده بالإقدام على ما نهيتم عنه، والإعراض عما أمرتم به ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ﴾ أيها المؤمنون ﴿أَنَّ ٱللَّهَ﴾ المدبر لكم المصالح لأحوالكم ﴿مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٩٤﴾﴾ منكم وهم الذين يحفظون نفوسهم عن محارم الله ومنهياته، ويرغبونها نحو أوامر الله ومرضياته ﴿وَ﴾ من جملة الأخلاق الموضوعة فيكم الإنفاق من فواضل أموالكم إلى الفقراء والمساكين، الذين أسكنهم الاحتياج والإسكان في زاوية الخمول ﴿وَأَنفِقُواْ﴾ أيها المؤمنون ﴿فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ مقتصدين فيه بين طرفي التبذير والتقتير المذمومين عند الله وعند المؤمنين ﴿وَلَا تُلْقُواْ بِأَيْدِيكُمْ﴾ أنفسكم ﴿إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ ۛ﴾ والمشقة بالإسراف والتضييع أو بالبخل والتقتير، إذ بالبخل تبقى النفس في ظلمة الإمكان وتوطن في وحشة الحرمان والخذلان ﴿وَ﴾ من جملة أخلاقكم الإحسان ﴿أَحْسِنُوٓاْ ۛ﴾ أيها المتوجهون إلى فضاء التوحيد أخلاقكم وأعمالكم وجميع أوصافكم، إذ ما من نبيٍّ ولا وليٍ إلا هو مجبولٌ على حسن الأخلاق والشيم المقتبسة من أخلاق الله سبحانه لذلك استحقوا الخلافة والنيابة ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٩٥﴾﴾ المتفضلين بالأموال والأعمال.

﴿وَ﴾ من الأركان المفروضة في دينكم أيها المحمديون ﴿أَتِمُّواْ ٱلْحَجَّ﴾ أي

وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ وَلَا تَحْلِقُوا رُءُوسَكُمْ حَتَّى يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحِلَّهُ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ بِهِ أَذًى مِّن رَّأْسِهِ فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ فَإِذَا أَمِنتُمْ ....

الخصائل والنسك المحفوظة المفروضة فيه، وإن أدى إلى المقاتلة والمشاجرة ﴿وَالْعُمْرَةَ﴾ الأمور المسنونة فيه ﴿لِلَّهِ﴾ قاصدين التقرب إليه والتوجه إلى بابه، إذ الحج الحقيقي هو الوصول إلى الكعبة الحقيقية التي هي الذات الأحدية ﴿فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ﴾ مُنعتم وحبستم بعدما أحرمتم للحج والعمرة من الوصول إلى الميقات وتتميم الواجبات ﴿فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ﴾ أي فعليكم إذا أردتم التحلل والخروج من الإحرام، ذبح ما تيسر لكم حصوله من الهدي المحلل، مثل البقرة والبدنة والشاة وغيرها بحسب طاقتكم وقدرتكم بأن تبعثوها إلى الحرم أو تذبحوها حيث أحصرتم ﴿وَلَا تَحْلِقُوا رُءُوسَكُمْ﴾ أيها المحصورون المريدون التحلل ﴿حَتَّى يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحِلَّهُ﴾ المبعوث إليه أو تذبحونه في المكان المحصور فيه، والحاصل أن لا تحلقوا رؤوسكم قبل ذبح الهدي أو قبل وصولها إلى الحرم ﴿فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا﴾ ازداد بشعر الرأس ﴿أَوْ بِهِ أَذًى﴾ ناشئاً ﴿مِّن﴾ شعر ﴿رَّأْسِهِ﴾ من تزاحم قمل أو صداع مفرطٍ أو جرب مشوش وحلق لأجله ﴿فَفِدْيَةٌ﴾ أي فاللازم عليه الفدية سواء كان ﴿مِّن صِيَامٍ﴾ مقدّر بثلاثة أيام للفقراء العاجزين عن غيره ﴿أَوْ صَدَقَةٍ﴾ مقدّرة بثلاثة آصع من الطعام للمتوسطين ﴿أَوْ نُسُكٍ﴾ من بدنة أو بقرة أو شاة للأغنياء على اختلاف طبقاتهم ﴿فَإِذَا أَمِنتُمْ﴾ أي إذا أحرمتم للحج حال كونكم آمنين من الموانع من إحصار العدو والمرض

﴿فَمَن تَمَتَّعَ بِٱلْعُمْرَةِ إِلَى ٱلْحَجِّ فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْيِ ۚ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٍ فِى ٱلْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ ۗ تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ ۗ ذَٰلِكَ لِمَن لَّمْ يَكُنْ أَهْلُهُۥ حَاضِرِى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿١٩٦﴾﴾ ....

العارض ونزول الحادثة، وغير ذلك من العوائق فعليكم إتمام نسكه على الوجه الذي أمرتم به بلا إهمال شيء من آدابه المحفوظة فيه ﴿فَمَن تَمَتَّعَ﴾ تقرب إلى الله ﴿بِٱلْعُمْرَةِ﴾ من أشهر الحج قبل تقربه إليه بالحج، وبعد ما تم مناسك عمرته قصد ﴿إِلَى ٱلْحَجِّ فَمَا ٱسْتَيْسَرَ﴾ أي فعليه ما استيسره ﴿مِنَ ٱلْهَدْيِ ۚ﴾ ويقال له عند الفقهاء: دم الجبران يذبح حين أحرم للحج ولا تأكلوا منه ﴿فَمَن لَّمْ يَجِدْ﴾ الهدي منكم لفقره ﴿فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٍ فِى﴾ زمان ﴿ٱلْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ ۗ﴾ إلى أوطانكم وأهليكم، إذ الصوم فيها خصوصاً في أيام الحج من أصعب المشاق المفضي إلى الحرج ﴿تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ ۗ﴾ قائمة مقام الهدي للفقراء الغرباء الفاقدين وجه الهداية، وإنما أمرتم بصوم ثلاثة فيها لئلا تحرموا عن إتمام متممات الحج في أوقاته ﴿ذَٰلِكَ﴾ الحكم المذكور ﴿لِمَن لَّمْ يَكُنْ أَهْلُهُۥ حَاضِرِى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۚ﴾ أي من جملة المتوطنين فيها، أو في حواليها أقل من مقدار مسافة القصر ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ في محافظة أوامره التعبدية ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ﴾ المطلع بضمائر المتهاونين في أوامره ﴿شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿١٩٦﴾﴾ إذ أكثر الأمور الشرعية والعزائم الدينية تعبديٌّ لا يدرك سره، خصوصاً الأعمال المنسوبة إلى الحج.

ثم لما أمر سبحانه عباده بالحج، بأن يأتوا إلى بيته من كل بلد بعيد وفج عميق، عيّن له وقتاً معيناً من الأوقات التي لها فضيلة ومنزلة عنده سبحانه فقال:

ٱلْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَٰتٌ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِى ٱلْحَجِّ ....

﴿ٱلْحَجُّ﴾ أي أوقات الحج ﴿أَشْهُرٌ مَّعْلُومَٰتٌ﴾ متبركات معروفات وهي شوال وذو القعدة وذو الحجة بتمامها أو بعضها على ما خولف فيه ﴿فَمَن فَرَضَ﴾ على نفسه ﴿فِيهِنَّ ٱلْحَجَّ﴾ بأن ارتكب بشرائطه وأركانه عادياً له في خلال هذه الأشهر لزمه إتمامه بلا فسخ العزيمة وقلب النية وحل المحرمات فيه ﴿فَلَا رَفَثَ﴾ أي لا جماع ولا وقاع وإن طالت المدة ﴿وَلَا فُسُوقَ﴾ ولا خروج عن حدود الله بارتكاب المحظوارت ﴿وَلَا جِدَالَ﴾ ولا مجادلة ولا مراءاة مع الخدام والرفقاء ﴿فِى﴾ أيام ﴿ٱلْحَجِّ﴾.

إذ الحج كناية عن الموت الإرادي المنبئ عن الحياة الحقيقية، وهذه الأمور من أوصاف الأحياء بالحياة الطبيعية، فمن قصد الحج الحقيقي والحياة الحقيقية، فله أن يميت نفسه من لوازم الحياة الطبيعية المستعارة الغير القارة؛ ليفوز بالحياة الحقيقية الأزلية[1] والبقاء الأبدي السرمدي، وذلك لا يتيسر إلا بالخروج عن مقتضيات عقل الجزئي المشوب بالوهم والخيال، بل هو مقلوب منها محكوم لها دائماً.

ولا يحصل ذلك إلا للسالك الناسك الذي جذبه الحق عن نفسه متدرجاً مرتقياً من عالم إلى عالم من العوالم المنتخبة عنها ذاته إلى أن وصل إلى مقام ومرتبةٍ طُويت المراتب كلها عنده، وفنيت العوالم بأسرها فيها، وفني فيها أيضاً، وهي فناؤها أيضاً فيها، ولم ينزل فيها هابطاً أصلاً، بل تقرر وتمكن واطمأن

(١) في المخطوط (بالحياة الحقيقي الازلي).

﴿وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللَّهُ وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى وَاتَّقُونِ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ (١٩٧) لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ ....﴾

فيها كما نشاهد مثلها متحسرين متمنين لها من بعض بدلاء الزمان، مد الله ظلاله العالي على مفارق أهل اليقين والعرفان، وإبهام اسمه لإبهام شأنه هيهات هيهات ما لنا وما لحتى حتى نتكلم عنه، جعلنا الله من خدام[1] تراب أقدامه.

وبعدما أمر سبحانه عباده بحج بيته تعظيماً له ولبيته، حثهم على الخيرات، وبذل المال فيها وفي طريقها لتقرر في نفوسهم هذه الخصلة الحميدة، إذ هو المانع من ميل القلوب إلى المحبوب الحقيقي وهو رأس كل فتنة فقال: ﴿وَمَا تَفْعَلُوا﴾ لرضاء الله ﴿مِنْ خَيْرٍ﴾ خالص عن ثوب المنة والأذى، عارٍ عن العجب والرياء، سالم عن وسوسة شياطين الأهواء ﴿يَعْلَمْهُ اللَّهُ﴾ بالحضور إذ أمثال هذه الخيرات جارٍ على الصراط المستقيم الذي هو صراط الله الأعظم الأقوم ﴿وَتَزَوَّدُوا﴾ للعبور على صراط الله بالتقوى عن الدنيا وما فيها ﴿فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ﴾ للعباد ليوم الميعاد هو ﴿التَّقْوَى﴾ عن جميع الفساد ﴿وَاتَّقُونِ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ (١٩٧)﴾ المتوجهين إلى لب اللباب، المتمايلين عن القشور العائقة عن الحضور، أدركنا بلطفك يا خفي الألطاف.

﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ﴾ أيها المؤمنون ﴿جُنَاحٌ﴾ ضيقٌ وتعبٌ بعد اتقائكم من سخط الله وتزودكم بالتقوى ﴿أَنْ تَبْتَغُوا﴾ أي كل منكم ﴿فَضْلًا﴾ من المعارف اليقينية واللذات الروحانية ﴿مِنْ رَبِّكُمْ﴾ الذي رباكم بأنواع

---

(١) في المخطوط (خدامي).

فَإِذَآ أَفَضۡتُم مِّنۡ عَرَفَٰتٖ فَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ عِندَ ٱلۡمَشۡعَرِ ٱلۡحَرَامِۖ وَٱذۡكُرُوهُ كَمَا هَدَىٰكُمۡ وَإِن كُنتُم مِّن قَبۡلِهِۦ لَمِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿١٩٨﴾ ثُمَّ أَفِيضُواْ مِنۡ حَيۡثُ أَفَاضَ ٱلنَّاسُ وَٱسۡتَغۡفِرُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿١٩٩﴾ فَإِذَا قَضَيۡتُم مَّنَٰسِكَكُمۡ فَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ كَذِكۡرِكُمۡ ءَابَآءَكُمۡ

اللطف والكرم ﴿فَإِذَآ أَفَضۡتُم﴾ أيها المؤمنون ﴿مِّنۡ عَرَفَٰتٖ﴾ الذات المحيطة بجميع الصفات المرتبة لكم جمعها باعتبار وصول كل من الواصلين إليها بطريق مخصوص، وإن كانت بعد الوصول واحدةً، وحدةً حقيقيةً ذاتيةً لا كثرةَ فيها أصلاً ﴿فَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ﴾ المستجمع لذواتكم ﴿عِندَ ٱلۡمَشۡعَرِ ٱلۡحَرَامِۖ﴾ أي الصفات المحرمة ثبوتها لغير ذات الله، أفرده لاختصاص كلٍ بصفة مخصوصة يربيه ﴿وَٱذۡكُرُوهُ كَمَا هَدَىٰكُمۡ﴾ بتفويض الأمور كلها إليه واتقائكم نحوه من وساوس الشياطين المضلة ﴿وَإِن كُنتُم مِّن قَبۡلِهِۦ﴾ أي قبل إهدائه ﴿لَمِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿١٩٨﴾﴾ التائهين في بيداء الضلالة الناكبين عن الهداية الحقيقية.

﴿ثُمَّ﴾ لما تم توجهكم ووقوفكم بعرفة الذات وتحققكم بها ﴿أَفِيضُواْ﴾ منها ﴿مِنۡ حَيۡثُ أَفَاضَ ٱلنَّاسُ﴾ إلى المراتب المترتبة إلى الصفات ﴿وَٱسۡتَغۡفِرُواْ ٱللَّهَۚ﴾ المحيط بكم فيها ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ﴾ ساتر لرتبكم وتعيناتكم ﴿رَّحِيمٞ ﴿١٩٩﴾﴾ لكم بإيصالكم إلى مبدئكم الأصلي.

﴿فَإِذَا قَضَيۡتُم مَّنَٰسِكَكُمۡ﴾ المأمور لكم من الاجتناب عن مقتضيات الحياة الطبيعية والاتصاف بمقتضيات المعين الحقيقية ﴿فَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ﴾ الهادي لكم إلى هذه المرتبة ﴿كَذِكۡرِكُمۡ ءَابَآءَكُمۡ﴾ بلا ترددٍ وتشكيكٍ

﴿أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا ۗ فَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ (٢٠٠) وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ (٢٠١) أُولَٰئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُوا ۚ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ (٢٠٢)﴾ ....

﴿أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا ۗ﴾ بل ذكرُ الله أشد في الوضوح من ذكر الآباء إذ يجري فيه التشكيك، بخلاف ذكر الله المتفرع على الشهود، المستتبع للفناء فيه، فإنه خال عن وصمة الريب ﴿فَمِنَ النَّاسِ مَن﴾ يحصر التوجه والرجوع إلى الله والمناجاة معه للنشأة الأولى و﴿يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا﴾ ما نحن محتاجون إليها من أمور المعاش ﴿وَ﴾ هو إن وصل إلى مبتغاه في الدنيا ﴿مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ (٢٠٠)﴾ نصيبٍ لصرفه استعداده إلى ما لا يغنيه بل يضره.

﴿ وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ﴾ جامعاً بين الظاهر والباطن والأولى والأخرى: ﴿رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً ﴾ ترضى بها عنا فيها ﴿وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً ﴾ توصلنا إلى توحيدك ﴿وَقِنَا﴾ بلطفك ﴿عَذَابَ النَّارِ (٢٠١)﴾ أي الإمكان المحوج إلى الذات الوهمية.

﴿أُولَٰئِكَ ﴾ الموفون الموحدون الجامعون بين مرتبتي الظاهر والباطن ﴿لَهُمْ نَصِيبٌ ﴾ حظٌ كاملٌ ﴿مِّمَّا كَسَبُوا ۚ ﴾ في الدنيا التي هي مزرعة الآخرة من المعارف اللدنية والكشوف الإلهية ﴿وَاللَّهُ ﴾ المحيط بهم وبضمائرهم ﴿سَرِيعُ الْحِسَابِ (٢٠٢)﴾ يحاسبهم ويجازيهم على ما كسبوا.

۞ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ فِيٓ أَيَّامٍ مَّعْدُودَٰتٍۚ فَمَن تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَن تَأَخَّرَ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِۚ لِمَنِ ٱتَّقَىٰۗ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٠٣﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُۥ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ....

﴿ ۞ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ﴾ بعد تتميمكم مناسككم ووقوفكم بعرفة ﴿فِيٓ أَيَّامٍ مَّعْدُودَٰتٍۚ﴾ هي أيام التشريق ﴿فَمَن تَعَجَّلَ﴾ أي استعجل للرجوع والنفر ﴿فِي يَوْمَيْنِ﴾ أي في ثاني أيام التشريق ﴿فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ﴾ باستعجاله ﴿وَمَن تَأَخَّرَ﴾ أيضاً ﴿فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِۚ﴾ بتأخيره يعني أنتم مخيرون في استعجال النفرة وتأخيرها بعدما وصلتم، والفوز والعافية ﴿لِمَنِ ٱتَّقَىٰۗ﴾ إلى الله عن محارمه ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ في جميع ما صدر عنكم واستحفظوا منه ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّكُمْ﴾ بأجمعكم ﴿إِلَيْهِ﴾ لا إلى غيره ﴿تُحْشَرُونَ ﴿٢٠٣﴾﴾ تُرجعون رجوع الظل إلى ذي الظل.

﴿وَ﴾ من جملة الآداب الموضوعة فيكم بوضع الله المدبر لأموركم المهذب لأخلاقكم: الاجتناب عن الجلساء السوء، لذلك خاطب سبحانه نبيه ﷺ امتناناً عليه وإرشاداً لكم فقال:

﴿مِنَ ٱلنَّاسِ﴾ المجبولين على البغض والنفاق المستمرين عليه دائماً بلا تصفيةٍ ووفاقٍ ﴿مَن يُعْجِبُكَ﴾ يوقعك في العجب المحير العارض لنفسك بلا علمك بموجبه وسببه ﴿قَوْلُهُۥ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ أي مقوله المتعلق بأمور الدنيا وأسباب المعاش بأن من تسلم أمور الدنيا وترتيبها يُتوصل إلى الآخرة ولذاتها، كما هو المشهور بين أهل الدنيا، ويسمونه عقل المعاش

وَيُشْهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِى قَلْبِهِۦ وَهُوَ أَلَدُّ ٱلْخِصَامِ ﴿٢٠٤﴾ وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ ٱلْحَرْثَ وَٱلنَّسْلَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ ﴿٢٠٥﴾ ....

﴿وَ﴾ مع إغرائه وتغريره ﴿يُشْهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِى قَلْبِهِۦ﴾ من حب الدنيا ويدعي موافقة كلام الله وحِكمه المودعة فيه على ما يدعيه، لا تغفل عنه ولا تسمع قوله ﴿وَهُوَ أَلَدُّ ٱلْخِصَامِ ﴿٢٠٤﴾﴾ وأشد العداوة والجدال معك ومع من تبعك من المؤمنين.

قيل نزلت[1] في الأخنس بن شريك الثقفي، وكان من بلغائهم وفصحائهم له الوجاهة والحسن والطلاقة، يتردد إلى النبي ﷺ ويصاحب معه ويظهر المحبة والإخلاص ويدعي الإيمان والانقياد.

﴿ وَإِذَا تَوَلَّىٰ ﴾ أدبر من عنده ﴿سَعَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ الموضوعة للإصلاح والتعمير ﴿لِيُفْسِدَ فِيهَا﴾ بأنواع الفسادات ﴿وَ﴾ من جملة ذلك أنه ﴿يُهْلِكَ ٱلْحَرْثَ وَٱلنَّسْلَ﴾ بالظلم والفسوق والعصيان المتجاوز للحد مثل الزنا وقطع الطريق والخروج على الولاة القائمين بحدود الله المقيمين بأحكامه، كالمتمشيخة المبتدعة التي ظهرت في هذه الأمة بإفساد عقائد ضعفاء المسلمين بالشيخوخة وترغيبهم إلى البدع والأهواء الباطلة المؤدية إلى تحليل المحرمات الشرعية، ورفع التكليفات الدينية والمعتقدات اليقينية، شتت الله شملهم وفرق جمعهم ﴿وَٱللَّهُ﴾ الهادي للعباد ﴿لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ ﴿٢٠٥﴾﴾.

(١) غير موجودة في المخطوط.

وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ وَلَبِئْسَ الْمِهَادُ ﴿٢٠٦﴾ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ ﴿٢٠٧﴾ ....

﴿وَ﴾ من غاية عتوه وعناده ونهاية استكباره ﴿ إِذَا قِيلَ لَهُ ﴾ إمحاضاً للنصح: ﴿اتَّقِ اللَّهَ ﴾ عن أمثال هذه الفضائح واستح منه ﴿أَخَذَتْهُ ﴾ هيجته وحركته ﴿الْعِزَّةُ ﴾ المرتكزة في نفسه ﴿بِالْإِثْمِ ﴾ الذي منع منه لجاجاً وعناداً ﴿فَحَسْبُهُ ﴾ وحسب أمثاله ﴿جَهَنَّمُ ﴾ الإمكان الذي يلعبون بنيرانها، كفت مؤنة شرورهم وطغيانهم ﴿وَ﴾ الله ﴿لَبِئْسَ الْمِهَادُ ﴿٢٠٦﴾ ﴾ مهداً لإمكان المستلزم لمهد النيران.

وأيضاً من جملة الآداب الموضوعة فيكم بل من أجلها الرضا والتسليم بما جاء من قضاء الله ومقتضياته لذلك قال:

﴿ وَمِنَ النَّاسِ ﴾ المتشمرين إلى الله بالرضاء والتسليم ﴿مَن يَشْرِي نَفْسَهُ ﴾ ويوقعها في المهلكة لا لداعية تنبعث من نفسها بل ﴿ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ ﴾ طالباً لرضائه راضياً بما قضاه ﴿وَاللَّهُ ﴾ المحيط بجميع الحالات ﴿وَاللَّهُ رَءُوفٌ ﴾ عطوفٌ مشفقٌ ﴿ بِالْعِبَادِ ﴿٢٠٧﴾ ﴾ الصابرين في البلوى الطائعين إلى المولى الراضين بما يحب ويرضى.

ثم لما كان الرضاء والتسليم من أحسن أحوال السالكين المتوجهين إلى الله العزيز العليم وأرفعها مقداراً ومنزلةً عنده، أمرهم بها امتناناً عليهم وإصلاحاً لحالهم فقال منادياً:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱدۡخُلُواْ فِي ٱلسِّلۡمِ كَآفَّةٗ وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٞ ٢٠٨ فَإِن زَلَلۡتُم مِّنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَتۡكُمُ ٱلۡبَيِّنَٰتُ فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ٢٠٩ هَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأۡتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِي ظُلَلٖ مِّنَ ٱلۡغَمَامِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ﴾ ....

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ مقتضى إيمانكم الرضا والتسليم ﴿ٱدۡخُلُواْ﴾ أيها المستكشفون عن سرائر التوحيد ﴿فِي ٱلسِّلۡمِ﴾ أي الانقياد والإطاعة المتفرعَين على الرضا والإخلاص المنبئَين عن التحقق بمقام العبودية ﴿كَآفَّةٗ﴾ أي ادخلوا في السلم حالة كونكم مجتمعين كافين نفوسكم عما يضر إخلاصكم وتسليمكم ﴿وَلَا تَتَّبِعُواْ﴾ أيها المتوجهون إلى مقام العبودية والرضا إثر ﴿خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ﴾ أي الأهواء والآراء المضلة عن طريق الحق المعبرة عنها في الشرع بالشيطان ﴿إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٞ ٢٠٨﴾ ظاهر العداوة والإضلال، يضلكم عما يهديكم الحق إليه.

﴿فَإِن زَلَلۡتُم﴾ وانصرفتم عن طريق الحق ﴿مِّنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَتۡكُمُ ٱلۡبَيِّنَٰتُ﴾ المبينة الموضحة لكم طريقه ﴿فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ﴾ غالبٌ قادرٌ على الانتقام ﴿حَكِيمٌ ٢٠٩﴾ لا ينتقم إلا بالحق.

﴿هَلۡ يَنظُرُونَ﴾ أي ما ينتظرون المزلون عن طريق الحق بعد الوضوح والتبيين ﴿إِلَّآ أَن يَأۡتِيَهُمُ ٱللَّهُ﴾ بعذابه المدرج المكنون ﴿فِي ظُلَلٖ مِّنَ ٱلۡغَمَامِ﴾ السحاب الأبيض المظل لهم يتوقعون منه الراحة والرحمة ﴿وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ﴾ الموكلون بجر سحب العذاب إليهم، فأنزل عليهم واستأصلهم بالمرة

وَقُضِيَ ٱلۡأَمۡرُۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرۡجَعُ ٱلۡأُمُورُ ﴿٢١٠﴾ سَلۡ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ كَمۡ ءَاتَيۡنَٰهُم مِّنۡ ءَايَةِۭ بَيِّنَةٖۗ وَمَن يُبَدِّلۡ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَتۡهُ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ﴿٢١١﴾ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا وَيَسۡخَرُونَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ....

﴿وَقُضِيَ ٱلۡأَمۡرُۚ﴾ المبرم المقضي عليه من عنده لانتقامهم كالأمم الماضية ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ﴾ لا إلى غيره من الوسائل والأسباب ﴿ تُرۡجَعُ ٱلۡأُمُورُ ﴿٢١٠﴾ ﴾ أولاً وبالذات، وإن تشكك أحد في الانتقام ونزول العذاب على المزلين المنصرفين عن طريق الحق بعد الوضوح والتبيين.

قل يا أكمل الرسل نيابة عنا إلزاماً له:

﴿سَلۡ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ﴾ أي تذكر قصتهم ﴿كَمۡ﴾ كثيراً ﴿ءَاتَيۡنَٰهُم مِّنۡ ءَايَةِۭ بَيِّنَةٖۗ ﴾ مبينة في كتبهم فأنكروا عليها ظلماً وعدواناً فأخذناهم بظلمهم إلى أن استأصلناهم بالمرة ﴿وَ﴾ لا يختص هذا ببني إسرائيل بل ﴿مَن يُبَدِّلۡ ﴾ ويطير ﴿نِعۡمَةَ ٱللَّهِ ﴾ المستلزمة للشكر والإيمان كفراً وكفراناً ﴿مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَتۡهُ ﴾ الموضحة المبينة فله من العذاب والنكال ما جرى عليهم ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ ﴾ المتجلي باسم المنتقم ﴿شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ﴿٢١١﴾ ﴾ صعب الانتقام وسريع الحساب.

ثم ذكر سبحانه مساوئ أهل الكفر وسوء معاملتهم مع المؤمنين المخلصين ليجتنب المؤمنون عن أمثاله، فقال على وجه الإخبار:

﴿ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ ﴾ أي حَسُن في عيونهم وارتكز في قلوبهم ﴿ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا ﴾ أي الحياة المستعارة المنسوبة إلى الدنيا ﴿وَ﴾ أدى أمرهم في هذا التزيين والتحسين إلى أن ﴿يَسۡخَرُونَ ﴾ ويستهزئون ﴿مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾ أي

وَالَّذِينَ اتَّقَوْا فَوْقَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٢١٢﴾ كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ ....

صار المؤمنون لفقرهم وعرائهم عن أمتعة الدنيا الدنية محل استهزائهم وسخريتهم، متى قصدوا الاستهزاء على مناقد الدنيا أخذوا منهم ﴿وَ﴾ الحال أن المؤمنين ﴿الَّذِينَ اتَّقَوْا﴾ عن الدنيا ومزخرفاتها الفانية الغير الباقية يكون ﴿فَوْقَهُمْ﴾ رتبةٌ ومنزلةٌ عند الله ﴿يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ المعد لجزاء الأعمال الصالحة في النشأة الأولى ﴿وَاللَّهُ﴾ الرزاق للكل ﴿يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ﴾ من عباده بالرزق الدنيوي ﴿بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٢١٢﴾﴾ فيها بل مستجبرين متكبرين مفتخرين بمزخرفاتها إلى النشأة الأخرى فيحاسبهم فيها ويجازيهم عليها، ويرزق أيضاً من يشاء من عباده بالرزق الأخروي بغير حساب، لا في النشأة الأولى ولا في الأخرى، بل صاروا في حمائه أزلاً وأبداً لا يشوشهم الحساب ولا تتفاوت عندهم اللذة والعذاب، بل صاروا ما صاروا بلا سترة وحجاب.

آتنا من لدنك رحمة إنك أنت الوهاب.

﴿كَانَ النَّاسُ﴾ في الفطرة الأصلية والمرتبة الحقيقية الجِبلّية ﴿أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ وملةً واحدةً مستوجهةً إلى مبدئهم الحقيقي ومقصدهم الأصلي طوعاً، ثم اختلفت آراؤهم وتشتت أهواؤهم بشياطين القوى الحيوانية التي هي من جنود إبليس، فظهر بينهم العداوة والبغضاء والمجادلة والمراء ﴿فَبَعَثَ اللَّهُ﴾ المدبرُ لأمورهم ﴿النَّبِيِّينَ﴾ من بني نوعهم المؤيدين من عند ربهم ﴿مُبَشِّرِينَ﴾ لهم طريق الإطلاق والتوحيد ﴿وَمُنذِرِينَ﴾ لهم عن

وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ۚ وَمَا ٱخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ أُوتُوهُ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۖ فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ مِنَ ٱلْحَقِّ بِإِذْنِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢١٣﴾

الكثرة والتقييد ﴿وَأَنزَلَ مَعَهُمُ﴾ تصديقاً لهم ﴿ ٱلْكِتَٰبَ ﴾ الجامع لما يبشر به وينذر عنه ملتبساً ﴿ بِٱلْحَقِّ ﴾ المطابق للواقع ﴿لِيَحْكُمَ﴾ كل نبي به ﴿بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾ المنسوبين إليه ﴿ فِيمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ﴾ من أمور معاشهم ومعادهم ﴿وَمَا ٱخْتَلَفَ فِيهِ ﴾ أي في الكتاب المنزل إليهم بالتكذيب والإنكار أحدٌ من الناس ﴿إِلَّا ﴾ القوم ﴿ ٱلَّذِينَ أُوتُوهُ ﴾ أي الكتابَ وكان اختلافهم ﴿مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ ﴾ الواضحات المصدقات، بأنه منزلٌ لهم من عند الله العليم الحكيم ﴿بَغْيًۢا﴾ خروجاً عن طريق الحق وحسداً لأهله واقعاً ﴿بَيْنَهُمْ﴾ من وساوس شياطينهم، من الجاه والرئاسة والعتو والاستكبار ﴿فَهَدَى ٱللَّهُ ﴾ بلطفه ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ بالنبي المبعوث، والكتاب المنزل معه ﴿لِمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ﴾ من الأمور الدينية مع المعاندين المنكرين والحال أنه ﴿مِنَ ٱلْحَقِّ ﴾ الصريح المطابق للواقع واختلافاتهم أيضاً معهم إنما يكون ﴿ بِإِذْنِهِۦ ﴾أي بأمره المنزل في كتابه ﴿وَٱللَّهُ﴾ المرشد لكل العباد إلى ما هم عليه ﴿ يَهْدِى ﴾ بفضله ﴿مَن يَشَآءُ ﴾ من خلص عباده ﴿ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢١٣﴾ ﴾ الموصل إلى بابه بلا عوج وضلال.

أَرَجَوتم وطمعتم أيها المحمديون المتوجهون إلى زلال التوحيد، وصفو التجريد والتفريد، أن تصلوا إليه بأنيتكم هذه بلا سلوكٍ ومجاهدةٍ وسكرٍ وصحوٍ

أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلِكُم مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُواْ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ..................

وتلوينٍ وتمكينٍ وقيدٍ وإطلاقٍ ونفيٍ وإثباتٍ وفناءٍ وبقاءٍ، وهيهات هيهات.

﴿أَمْ حَسِبْتُمْ﴾ تمنيتم متوقعاً ﴿أَن تَدْخُلُواْ﴾ فجأة بهويتكم هذه بلا إفنائها أو فنائها في هوية الله ﴿ٱلْجَنَّةَ﴾ التي ارتفعت عندها الهويات واضمحلت دونها الماهيات ﴿وَلَمَّا يَأْتِكُم﴾ أي لم يأتكم ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ﴾ مَضَوا ﴿مِن قَبْلِكُم﴾ أي شأنهم وقصتهم المشهورة المعروفة المنسوبة إلى الأحرار الأبرار الواصلين إلى دار القرار كيف ﴿مَّسَّتْهُمُ﴾ بأبدانهم وأجسادهم وهوياتهم الجسمانية ﴿ٱلْبَأْسَآءُ﴾ المذلة الدميمة المزمنة المزعجة المفنية لإتيانهم، وكيف مستهم أيضاً بأرواحهم المتكثرة بأشباحهم المترتبة على الأوصاف الذاتية الإلهية ﴿وَٱلضَّرَّآءُ﴾ المسقطة للإضافات كلها ﴿وَ﴾ بعد ما وصلوا إلى هذه المرتبة المعبرة بالقيامة والطامات الكبرى عند العارف ﴿زُلْزِلُواْ﴾ اضطربوا وتلونوا وتذبذبوا لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء، وكان حالهم بين الحيرة والحسرة يترددون ويتحيرون، إلى أن غلب عليهم المحبة والشوق وانبعث من المحبةِ الخالصةِ والإرادةِ الصادقةِ العشقُ المفرطُ المنبعثُ من جذب المعشوق المائل بالطبع نحوه، واحتاجوا إلى نصر الله وتوفيقه وجذبه بلطف، فاضطروا في بين وبين وأين إلى أين ﴿حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ﴾ المرشدُ إلى طريق التوحيد مناجياً مع الله وأفعاله إذ هم ﴿وَ﴾ أيضاً ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ﴾ مشايعين له في قوله ودعائه مشاركين معه في نهر الاشتياق والاستبطاء وقلة الصبر والجزع[١] والفزع والاضطرار والمراقبة والانتظار

(١) في المخطوط (الجذع).

مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ ۗ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ ﴿٢١٤﴾ يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ ۖ قُلْ ....

﴿ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ ۗ ﴾ حتى يتخلص من التلون والتمكن والكون والتكون والظهور والإظهار والغيب والشهادة وغير ذلك من الإضافات.

قيل لهم: وما لنا تعيين القائل؟ إذ لا قائل إلا هو منبهاً مستقرباً مستعجباً مستغرباً ﴿ أَلَآ ﴾ تنبهوا أيها الأظلال الممدودة المتعددة المنتشئة من الأوصاف المحمودة الذاتية الأحدية المضافة بعضها إلى بعض!

ارفعوا إضافتكم عن البين وغشاوتكم عن العين، حتى اتصل العين بالعين، وارتفع البين عن البين، وقولوا: وما أدري ههنا أيضاً ما القائل وما المقول، وما القول وما المقول إليه، وما هذا وماذا ؟.

أدركنا بلطفك عن حجاب الألفاظ وغشاوة العبارة

﴿ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ ﴿٢١٤﴾ ﴾ حاضرٌ غير مغيبٍ لو تنبهتم إلى ذي ظلكم والتنبه له محالٌ إلا من كشف سبحانه عليه كيفية الظل والإظلال والاستعداد والتعدد الحاصل فيه والكوائن الغير المتناهية، والمكونات الغير المحصورة الحاصلة فيه، بأشخاصها وأنواعها وأجناسها إلى ما شاء الله، لا حول ولا قوة إلا بالله.

﴿وَ﴾ بالجملة لا تحوم الفهوم حول سرادقات عز جلاله حتى يشقق عن كائناته ومصنوعاته، ليس كمثله شيء ليقاس عليه ولا غيره حتى يسمع منه ويبصر به، وهو السميع البصير العليم، وليس وراء الله مرمى ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ ﴾ أيها الهادي للكل عن الإنفاق وعما ينفق به ويقولون ﴿ مَاذَا يُنفِقُونَ ۖ ﴾ أي: أي شيء ينفق المنفق في سبيل الله ﴿قُلْ﴾ لهم يا أكمل الرسل كلاماً ناشئاً عن محض

مَآ أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ فَلِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ ۗ وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ﴿٢١٥﴾ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا ....

الحكمة: ﴿مَآ أَنفَقْتُم﴾ سواءً كانت تمرةً أو كسرةً أو حبةً أو ذرةً صادرةً ﴿مِّنْ خَيْرٍ﴾ خالصٍ من ثوب المشوب المنة والأذى ﴿فَلِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ﴾ إليكم نسباً [١] أولى إن كانوا مستحقين ﴿وَ﴾ بعد ذلك أولاهم ﴿ٱلْيَتَٰمَىٰ﴾ الذين لا متعهد لهم ﴿وَ﴾ بعد ذلك ﴿ٱلْمَسَٰكِينِ﴾ الذين أسكنهم المذلة والهوان ﴿وَ﴾ بعد ذلك ﴿ٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ الذين تعذر وصولهم إلى مملوكاتهم ﴿وَ﴾ اعلموا أيها المؤمنون أن ﴿مَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ﴾ خالصاً لرضائه سبحانه ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ﴿٢١٥﴾﴾ لصدوره عنه وعن جريان حكمه وسنته.

ثم لما ظهر أمر الإسلام وعلا قدره وارتفع مناره، فرض الله سبحانه على المؤمنين الموقنين بطريق التوحيد، المشاجرةَ والمقاتلةَ مع المخالفين الناكبينَ عن طريق الحق، بالشرك والإشراك ليظهر شمس التوحيد على النفاق، ويضمحل شوب الكثرة والثنوية المنبعثة عن الكفر والنفاق، ويتميز الحقُ عن الباطل والوجودُ عن العدم العاطل فقال:

﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ﴾ أيها المؤمنون ﴿ٱلْقِتَالُ﴾ مع مخالفيكم من أهل الكثرة ﴿وَهُوَ كُرْهٌ﴾ مكروهٌ مستهجنٌ ﴿لَّكُمْ﴾ مادمتم في أنانيتكم وهويتكم هذا ومادمتم فيها مع تكثر الإضافات ولوازم الإمكان والإضافات ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا﴾ في

---

(١) في المخطوط (نسيبهما).

وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّواْ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢١٦﴾ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَكُفْرٌۢ بِهِۦ ....

النشأة الأولى ﴿وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ في النشأة الأخرى ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّواْ شَيْـًٔا﴾ منها ﴿وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ﴾ فيها ﴿وَٱللَّهُ﴾ الهادي لكم إلى سواء السبيل ﴿يَعْلَمُ﴾ خيرَكم ويأمركم به وشرَكم فيحذركم عنه ﴿وَأَنتُمْ﴾ بهويتكم هذه ﴿لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢١٦﴾﴾ شيئاً من الخير والشر، بل لكم الإطاعة والانقياد بما أمر ونهى والعلم عند الله العزيز العليم.

﴿يَسْـَٔلُونَكَ﴾ أيها الداعي للخلق إلى الحق ﴿عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ﴾ هو من المحرمات الإلهية أم لا؟ وعن ﴿قِتَالٍ﴾ واقعٍ ﴿فِيهِ﴾ أهو أيضاً من المحرمات أم لا؟ ﴿قُلْ﴾ يا أكمل الرسل للسائلين نيابةً عنا: هما من محرماته سبحانه بل ﴿قِتَالٌ فِيهِ﴾ ذنبٌ ﴿كَبِيرٌ﴾ إذ هو خروجٌ عن مقتضى حد الله الموضوع في هذا الشهر ﴿وَ﴾ مع كونه ذنباً ﴿وَصَدٌّ﴾ منعٌ وصرفٌ للتجار ﴿عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ المبيح لهم لكسب معاشهم ﴿وَ﴾ مع ذلك ـ العياذ بالله ﴿وَكُفْرٌۢ بِهِۦ﴾ أي بالله بعدم إطاعة أمر الله.

روي أنه ﷺ بعث عبد الله بن جحش ابن عمته على سرية في جمادى الآخرة قبل بدر بشهرين ليترصد القفل الذي كان لقريش في جانب الشام، وفيهم عمرو بن عبد الله الحضرمي وثلاثةٌ معه، فلما ظفروا عليهم قتلوا الحضرمي وأسروا اثنين واستاقوا العير نحو المدينة وفيها تجارة للطائف أيضاً، وكان ذلك غرة رجب وهم يظنونه من الجمادى.

﴿وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِۦ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَٱلْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ ٱلْقَتْلِ ۗ وَلَا يَزَالُونَ يُقَٰتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ ٱسْتَطَٰعُوا۟ ۚ وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا﴾

فقالت قريش: استحل محمد الشهر الحرام شهراً يأمن فيه الخائف ويتردد فيه الناس إلى معاشهم.

ثم لما سمع ﷺ بِعير قريشٍ قال لعبد الله: ما أمرت لك القتال في الشهر الحرام وسوق العير فيه، وشق على أصحاب السرية، وقالوا ما نبرح حتى تنزل توبتنا فنزلت.

ورد رسول الله ﷺ العير والأسارى، فلاموه وعيروه على ما صدر عنه ﴿وَ﴾ قالوا أنتوجه إلى ﴿ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ ونمنع الزوار منه، رد الله عليهم فقال: ﴿وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِۦ﴾ أي أهل المسجد الحرام عدواناً وعمداً ﴿مِنْهُ أَكْبَرُ﴾ ذنباً ﴿عِندَ ٱللَّهِ ۚ﴾ من منع الزوار، والقتل سهواً أو خطأً ناشئاً من عدم التدبر في تعين الوقت، إذ الإخراج: افتتان بني المسلمين المستأهلين ببيت الله ﴿وَٱلْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ ٱلْقَتْلِ ۗ﴾ إذ شرها عامٌ ممدٌ بخلاف القتل ﴿وَ﴾ الحاصل إن الكفار المصرين على الكفر والعناد ﴿لَا يَزَالُونَ يُقَٰتِلُونَكُمْ﴾ أيها المؤمنون ﴿حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ﴾ المنزل عليكم من ربكم هدايةً لكم ﴿إِنِ ٱسْتَطَٰعُوا۟ ۚ﴾ والحال إنه ﴿وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ﴾ الذي هو الإيمان والتوحيد ﴿فَيَمُتْ﴾ بعد الارتداد ﴿وَهُوَ كَافِرٌ﴾ ساترٌ طريق الحق، تاركٌ مشرب التوحيد ﴿فَأُو۟لَٰٓئِكَ﴾ الكافرون المرتدون عن طريق الإيمان والإسلام ﴿حَبِطَتْ﴾ هلكت وسقطت عن الاعتبار عند الله ﴿أَعْمَٰلُهُمْ﴾ بالمرة إضلالاً ﴿فِى ٱلدُّنْيَا﴾ لحرمانهم عن مصاحبة أهل الإيمان والفرقان

وَالْآخِرَةِ وَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢١٧﴾ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللَّهِ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٢١٨﴾ ۞ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ

﴿وَ﴾ لا في ﴿وَالْآخِرَةِ﴾ لإرجاعهم نفوسهم إلى قعر الإمكان المفضي إلى أسفل دركات النيران ﴿وَأُولَٰئِكَ﴾ المحرومون عن لذة التوحيد ﴿أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢١٧﴾﴾ إلى ما شاء الله، لا حول ولا قوة إلا بالله.

ثم قال سبحانه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ بالتوحيد الذاتي وأدى إيمانهم إلى أنْ وصلوا إلى مرتبة اليقين العلمي ﴿وَالَّذِينَ هَاجَرُوا﴾ وتركوا ما يضاده وينازعه إلى أن وصلوا إلى مرتبة اليقين العيني ﴿وَ﴾ بعد ذلك ﴿جَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ مع نفوسهم إلى أن وصلوا بل اتصلوا باليقين الحقي ﴿أُولَٰئِكَ﴾ المقربون المدرجون في طريق الوصول ﴿يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللَّهِ﴾ ما داموا في السلوك بأشباحهم ﴿وَاللَّهُ﴾ المطلع لضمائرهم ﴿غَفُورٌ﴾ ساترٌ لهم أشباحهم عن عيون بصائرهم ﴿رَحِيمٌ ﴿٢١٨﴾﴾ لهم يوصلهم إلى ما يتوجهون[1] إليه من جنة الذات بمنه وجوده.

أدركنا بلطفك يا خفي الألطاف.

﴿۞ يَسْأَلُونَكَ﴾ يا أكمل الرسل ﴿عَنِ﴾ حرمة ﴿الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ﴾ أهما من المحرمات الإلهية أم لا؟ ﴿قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ﴾ أما في الخمر فلكونه معطلاً مزيلاً للعقل الجزئي المودع في الإنسان، ليتوصل به إلى العقل الكل المتفرع إلى اسم العليم الشامل لجميع ما كان ويكون، وهو

---

(١) في المخطوط (إلى ما يتوجهوا).

﴿وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَاۗ وَيَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ ٱلْعَفْوَۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١٩﴾ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِۗ وَيَسْـَٔلُونَكَ﴾ ....

اللوح المحفوظ والكتاب المبين، وأما في الميسر فلكونه متلفاً للمال الذي هو سبب تعمير البدن الذي هو مخزن جوهر العقل المذكور الذي اختص به الإنسان وبه استحق مرتبة الخلافة والنيابة ﴿وَ﴾ فيهما ﴿مَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ﴾ أي لبعضهم من المرض الذي لا يمكنهم العلاج بدون إزالةِ عقولهم، والتداوي لهم منحصرٌ في الخمر عند المتطببين؛ ومن استغناء بعض السفلة من الناس واسترزاقهم بالميسر ﴿وَ﴾ لكن ﴿إِثْمُهُمَآ﴾ عند أولي النهي واليقين ﴿أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَاۗ﴾ عندهم بل لا نفع فيهما بالنسبة إليهم، إذ لا يبقى لهم رابطة مع أبدانهم ليصلحوا ويصححوا ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ﴾ أيضاً يا أكمل الرسل: ﴿مَاذَا يُنفِقُونَ﴾ من أي شيء ينفقون على أي وجه ينفقون ﴿قُلِ﴾ يا أكمل الرسل نيابة عنا: أنفقوا ﴿ٱلْعَفْوَۗ﴾ الفاضلَ من أموالكم لئلا يتضرروا بالجهد، وليسهل عليكم التجاوز عنه، ولا يشق عليكم إنفاقه ﴿كَذَٰلِكَ﴾ أي على الوجه الأحسن الأسهل ﴿يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ﴾ جميع ﴿ٱلْءَايَٰتِ﴾ المنزلة عليكم إصلاح حالكم ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١٩﴾﴾ رجاء أن تتأملوا:

﴿فِى﴾ الآيات المتعلقة لأمور ﴿ٱلدُّنْيَا﴾ فتتصفوا بما فيها ﴿وَ﴾ أيضاً تأملوا في الآيات المتعلقة لأمور ﴿ٱلْءَاخِرَةِۗ﴾ فتحققوا بها وتمكنوا عليها واطمأنوا بسببها ليتم لكم تهذيب الظاهر والباطن، وبعد ذلك يترتب ما يترتب ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ﴾ أيضاً

عَنِ ٱلۡيَتَـٰمَىٰۖ قُلۡ إِصۡلَاحٞ لَّهُمۡ خَيۡرٞۖ وَإِن تُخَالِطُوهُمۡ فَإِخۡوَٰنُكُمۡۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ ٱلۡمُفۡسِدَ مِنَ ٱلۡمُصۡلِحِۚ وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَعۡنَتَكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٞ ﴿٢٢٠﴾ وَلَا تَنكِحُواْ ٱلۡمُشۡرِكَٰتِ حَتَّىٰ يُؤۡمِنَّۚ وَلَأَمَةٞ مُّؤۡمِنَةٌ خَيۡرٞ مِّن مُّشۡرِكَةٖ وَلَوۡ أَعۡجَبَتۡكُمۡۗ وَلَا تُنكِحُواْ ٱلۡمُشۡرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤۡمِنُواْۚ وَلَعَبۡدٞ مُّؤۡمِنٌ خَيۡرٞ مِّن ....

﴿عَنِ﴾ أحوال ﴿ٱلۡيَتَـٰمَىٰۖ﴾ الذين لم يبلغوا الحلم ولا متعهد لهم من ذوي القربى ﴿قُلۡ إِصۡلَاحٞ لَّهُمۡ﴾ أحوالهم ﴿خَيۡرٞۖ﴾ من إبقائهم في المذلة والهوان ﴿وَإِن تُخَالِطُوهُمۡ﴾ من غاية المرحمة والإشفاق ﴿فَإِخۡوَٰنُكُمۡۚ﴾ في الدين يجزيكم الله خيراً إن كنتم قاصدين فيه إصلاحهم ورعايتهم، دون إفساد مالهم وعرضهم ﴿وَٱللَّهُ﴾ المطلع بمقاصدكم ﴿يَعۡلَمُ ٱلۡمُفۡسِدَ﴾ المبطل منكم ﴿مِنَ ٱلۡمُصۡلِحِۚ﴾ المحق فيجازي كلاً منهم على مقتضى علمه ﴿وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ﴾ المطلع لإفسادكم وإعناتكم أن يفسد عليكم ويعنتكم ﴿لَأَعۡنَتَكُمۡۚ﴾ أذلكم وأفسدكم أشد من إفسادكم وإعناتكم إياهم ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ﴾ غالبٌ قادرٌ على الانتقام ﴿حَكِيمٞ ﴿٢٢٠﴾﴾ لا ينتقم بلا موجب.

﴿وَ﴾ من جملة الأحكام الموضوعة لإصلاحكم أن ﴿لَا تَنكِحُواْ﴾ أيها المؤمنون النساء ﴿ٱلۡمُشۡرِكَٰتِ﴾ الكافرات ﴿حَتَّىٰ يُؤۡمِنَّۚ﴾ لئلا يختلط ماؤكم بمائهن وليوجد الولد على فطرة الإسلام ﴿وَ﴾ اعلموا أيها المؤمنون ﴿لَأَمَةٞ مُّؤۡمِنَةٌ﴾ لكم أن تنكحوها ﴿خَيۡرٞ مِّن﴾ حرةٍ ﴿مُّشۡرِكَةٖ وَلَوۡ أَعۡجَبَتۡكُمۡۗ﴾ مالها وجمالها ﴿وَلَا تُنكِحُواْ﴾ أيتها المؤمنات ﴿ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾ الكافرين ﴿حَتَّىٰ يُؤۡمِنُواْۚ﴾ ﴿وَ﴾ اعلمنَ أيتها المؤمنات ﴿لَعَبۡدٞ مُّؤۡمِنٌ﴾ لنكاحكن ﴿خَيۡرٞ مِّن﴾ حرٍ

﴿مُّشۡرِكٖ وَلَوۡ أَعۡجَبَكُمۡۗ أُوْلَٰٓئِكَ يَدۡعُونَ إِلَى ٱلنَّارِۖ وَٱللَّهُ يَدۡعُوٓاْ إِلَى ٱلۡجَنَّةِ وَٱلۡمَغۡفِرَةِ بِإِذۡنِهِۦۖ وَيُبَيِّنُ ءَايَٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمۡ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٢١﴾ وَيَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلۡمَحِيضِۖ قُلۡ هُوَ أَذٗى فَٱعۡتَزِلُواْ ٱلنِّسَآءَ فِي ٱلۡمَحِيضِ وَلَا تَقۡرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطۡهُرۡنَۖ فَإِذَا تَطَهَّرۡنَ فَأۡتُوهُنَّ مِنۡ حَيۡثُ أَمَرَكُمُ ٱللَّهُۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ﴾ ....

﴿مُّشۡرِكٖ وَلَوۡ أَعۡجَبَكُمۡۗ﴾ ماله وجماله إذ لا كفاءة بين المؤمن والكافر ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ المشركون والمشركات ﴿يَدۡعُونَ﴾ أي يريدون دعوتكم ﴿إِلَى ٱلنَّارِۖ﴾ المتفرعة على شركهم وكفرهم ﴿وَٱللَّهُ﴾ الهادي لكم إلى اختلاط المؤمنين والمؤمنات، الحافظ لمكافأتكم في النكاح والإنكاح ﴿يَدۡعُوٓاْ إِلَى ٱلۡجَنَّةِ﴾ المتفرعة على الإيمان والتوحيد ﴿وَٱلۡمَغۡفِرَةِ﴾ المستلزمة لدفع الآثام والمعاصي ﴿بِإِذۡنِهِۦۖ﴾ بتوفيقه وإقداره ﴿وَيُبَيِّنُ ءَايَٰتِهِۦ﴾ أي أحكامه وآدابه وأخلاقه في كتابه ﴿لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمۡ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٢١﴾﴾ رجاء أن يتذكروا ويتعظوا بها ليهتدوا إلى زلال التوحيد.

﴿وَيَسۡـَٔلُونَكَ﴾ أيضاً ﴿عَنِ ٱلۡمَحِيضِۖ﴾ روي أن أهل الجاهلية كانوا لم يساكنوا الحيَّض ولم يؤاكلوها كفعل اليهود والمجوس، واستمر ذلك إلى أن سألوا أبا الدحداح مع جمعٍ من الصحابة عن ذلك فنزلت: ﴿قُلۡ هُوَ أَذٗى﴾ مؤذٍ يُتأذى منه مَن يقربه ﴿فَٱعۡتَزِلُواْ ٱلنِّسَآءَ فِي ٱلۡمَحِيضِ وَلَا تَقۡرَبُوهُنَّ﴾ بالإتيان والوقاع، لا بالمصاحبة والمخالطة والمؤاكلة ﴿حَتَّىٰ يَطۡهُرۡنَۖ فَإِذَا تَطَهَّرۡنَ فَأۡتُوهُنَّ مِنۡ حَيۡثُ أَمَرَكُمُ ٱللَّهُۚ﴾ قاصدين فيه حكمة إبقاء نوع الإنسان المستخلف عن الله ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ﴾ عن الميل إلى خلاف ما أمر الله به

وَيُحِبُّ ٱلۡمُتَطَهِّرِينَ ﴿٢٢٢﴾ نِسَآؤُكُمۡ حَرۡثٞ لَّكُمۡ فَأۡتُواْ حَرۡثَكُمۡ أَنَّىٰ شِئۡتُمۡۖ وَقَدِّمُواْ لِأَنفُسِكُمۡۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّكُم مُّلَٰقُوهُۗ وَبَشِّرِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٢٢٣﴾ وَلَا تَجۡعَلُواْ ٱللَّهَ عُرۡضَةٗ لِّأَيۡمَٰنِكُمۡ ....

﴿وَيُحِبُّ ٱلۡمُتَطَهِّرِينَ ﴿٢٢٢﴾﴾ عن الأدناس الظاهرة والباطنة.

﴿نِسَآؤُكُمۡ﴾ أيها المؤمنون ﴿حَرۡثٞ لَّكُمۡ﴾ أي موضع حراثتكم ومحل إتيانكم ﴿فَأۡتُواْ حَرۡثَكُمۡ أَنَّىٰ شِئۡتُمۡۖ﴾ مقبلين أو مدبرين.

روي أن اليهود كانوا يقولون: من جامع امرأته من جانب دبرها كان ولده أحول، ردّ الله عليهم بهذه الآية، ﴿وَقَدِّمُواْ لِأَنفُسِكُمۡۚ﴾ أيها المستكشفون عن سرائر الأمور من الحكم والأسرار المودعة في التلذذ والنزول والانبعاث والشوق والانتعاش وأنواع الكيفيات المستحدثة عند الوقاع لإيجاد النسل وإبقاء النوع، ولا تغفلوا عن سرائره ولا تطمئنوا بمجرد قضاء الشهوة كالحيوانات العُجم ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ عن الخيانة والخباثة، والإتيان إلى غير المآتي المأمورة في الشرع، وغير ذلك من المحظورات المسقطة لحرمات الله الواقعة في أمر الجماع والاجتماع، إذ هو منزلة إقدام أولي الأحلام من عظماء الأنام ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّكُم﴾ بأجمعكم ﴿مُّلَٰقُوهُۗ﴾ سبحانه فتزودوا بزادٍ يليق بجنابه ﴿وَبَشِّرِ﴾ يا أكمل الرسل ﴿ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٢٢٣﴾﴾ القائمين بحدود الله، المحافظين عليها دائماً، الخائفين من خشية الله، الراجين من رحمة الله بأن لهم عند ربهم روضة الرضاء وجنة التسليم.

﴿وَ﴾ من جملة الأخلاق المنزلة لكم أن ﴿لَا تَجۡعَلُواْ﴾ اسم ﴿ٱللَّهَ عُرۡضَةٗ﴾ وجهةً ومعرضاً ﴿لِّأَيۡمَٰنِكُمۡ﴾ المتعلقة بكل دنيٍ خسيس وحقٍ

أَن تَبَرُّوا۟ وَتَتَّقُوا۟ وَتُصْلِحُوا۟ بَيْنَ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٢٤﴾ لَّا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِىٓ أَيْمَـٰنِكُمْ وَلَـٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿٢٢٥﴾ لِّلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِن ....

وباطل، أي لا تكثروا الحلف بالله في الأمور، إذ أنتم بشريتكم ما تخلون عن شوب الكذب والبطلان، ما لكم والتلفظ باسم الحق الحقيق بالحقية لترويج الأمور المزخرفة الباطلة ﴿أَن تَبَرُّوا۟﴾ افعلوا الخيرات وواظبوا على الطاعات وتوجهوا إلى الله في عموم الأوقات وشمول الحالات ﴿وَ﴾ إن أردتم أن ﴿تَتَّقُوا۟﴾ اجتنبوا عن المحظورات، واحذورا عن المحرمات وارجعوا نحو ربكم بإسقاط الإضافات ﴿وَ﴾ إن أردتم أن ﴿تُصْلِحُوا۟ بَيْنَ ٱلنَّاسِ ۗ﴾ تليينا لقلوبهم ادعوهم إلى التوحيد بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أقوم ﴿وَٱللَّهُ سَمِيعٌ﴾ لإيمانكم ﴿عَلِيمٌ ﴿٢٢٤﴾﴾ بنياتكم فيجازيكم على مقتضى علمه بحالكم، هذا في الأيمان المثبتة للوقائع والأحكام، المقاربة للقصد والإرادة.

وأما الأيمان الجارية على ألسنة العوام بلا إثبات ونفي، بل على سبيل الاتفاق فمما يُعفى عنه، فلذلك قال سبحانه:

﴿لَّا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ﴾ الواقع ﴿فِىٓ أَيْمَـٰنِكُمْ﴾ بلا قصدٍ وإرادةٍ ﴿وَلَـٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ ۗ﴾ بواسطة الأيمان الكاذبة من الأمور الباطلة التي لا تطابق الواقع فلبستم فيها وأثبتم بها ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ﴾ لكم لو تبتم ورجعتم إليه عما كسبتم من الآثام ﴿حَلِيمٌ ﴿٢٢٥﴾﴾ بالانتقام رجاء أن يتوبوا عنها.

نِسَآبِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ فَإِن فَآءُو فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٢٦﴾ وَإِنْ عَزَمُواْ ٱلطَّلَٰقَ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٢٧﴾ وَٱلْمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٍ وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَن يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِيٓ أَرْحَامِهِنَّ إِن كُنَّ يُؤْمِنَّ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِي ذَٰلِكَ إِنْ أَرَادُوٓاْ إِصْلَٰحًا وَلَهُنَّ ....

ثم قال سبحانه: ﴿ لِّلَّذِينَ يُؤْلُونَ ﴾ أي يحلفون أن يمتنعوا ﴿ مِن ﴾ وقاع ﴿ نِّسَآبِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ ﴾ أي يلزم عليهم الانتظار إلى أن تنقضي مدة أربعة أشهر ﴿فَإِن فَآءُو﴾ أي رجعوا في هذه المدة عن الحلف بأن جامعوا معهن، حنثوا ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ﴾ بحنثهم يتجاوز عنهم بالكفارة ﴿رَّحِيمٌ ﴿٢٢٦﴾﴾ لهم بإبقاء النكاح بينهم.

﴿ وَإِنْ عَزَمُواْ ٱلطَّلَٰقَ ﴾ بلا حنث الحلف ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ ﴾ يسمع منهم الطلاق ﴿عَلِيمٌ ﴿٢٢٧﴾﴾ بنفرة قلوبهم منهن.

﴿ وَٱلْمُطَلَّقَٰتُ ﴾ المدخولات بهن ﴿ يَتَرَبَّصْنَ ﴾ ينتظرن ﴿ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٍ ﴾ أي مضى مدتها، والقروء يطلق على الحيض والطهر، وأصل وضعه للانتقال من الطهر إلى الحيض وهو المراد في الآية؛ لأنه لاستبراء الرحم والدال على البراءة، هذا ﴿ وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ ﴾ أي المطلقات المعتدات ﴿أَن يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِيٓ أَرْحَامِهِنَّ ﴾ مدة العدة من الحيض لئلا يختلط النسب ﴿ إِن كُنَّ يُؤْمِنَّ بِٱللَّهِ ﴾ العالم بالسرائر ﴿ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ﴾ الذي تبلى فيه جميع السرائر والضمائر ﴿وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ﴾ أليقُ وأولى ﴿ بِرَدِّهِنَّ ﴾ إليهم ﴿فِي ذَٰلِكَ﴾ أي في زمان التربص ﴿إِنْ أَرَادُوٓاْ﴾ أي الأزواج ﴿إِصْلَٰحًا﴾ ﴿وَ﴾ اعلموا أيها المؤمنون ﴿لَهُنَّ﴾ عليكم

مِثْلُ ٱلَّذِى عَلَيْهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٢٨﴾ ٱلطَّلَٰقُ مَرَّتَانِ ۖ فَإِمْسَاكٌۢ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌۢ ....

من الرعاية والمحافظة على آداب الخدمة والاستئناس وغير ذلك ﴿مِثْلُ ٱلَّذِى﴾ لكم ﴿عَلَيْهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ من الحقوق والرعاية والمحافظة ﴿وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ﴾ فضيلةٌ بحسب الخلق والعقل والتميز وكمال الإيمان والمحافظة على حدود الله وامتثال مأموراته ﴿وَٱللَّهُ عَزِيزٌ﴾ يعز من يشاء من عباده ويذل من يشاء ﴿حَكِيمٌ ﴿٢٢٨﴾﴾ في فعله لا يُسأل عما يفعل.

﴿ٱلطَّلَٰقُ﴾ الصادر من أولي العزائم وذوي الألباب ﴿مَرَّتَانِ﴾ مرة عند عروض النفرة المنافية للرغبة السابقة المسلتزمة للزواج والازدواج، المنبعث عن طبيعته، المقتضية بالطبع للاختلافات والازدواجات الواقعة بين أسبابها وهي الأوصاف الإلهية.

ثم إذا رجع العازم عنه لا بد أن يكون رجوعه أيضاً عن رَوِيةٍ وتدبرٍ بأن يلاحظ أنه سبب انبعاث الرغبة السابقة واشتياقها ثانياً فيكذب نفسه ويرجع إليها.

وإن طلقها بعد تلك الرجعة ﴿فَإِمْسَاكٌۢ بِمَعْرُوفٍ﴾ أي فعليه بعد الطلقة الثانية أحد الأمرين، ولا يتجاوز عنه إلى الطلقة الثالثة، وإلا لسقط عن زمرة العقلاء العازمين على الأمور الشرعية بالعزيمة الخالصة، إما إمساكٌ بالمعروف والمستحسن عند الله وعند المؤمنين بل لا بد أن يكون هذا الإمساك أحسن من الإمساك السابق على الطلاق حين الوفاق ﴿أَوْ تَسْرِيحٌۢ﴾

بِإِحْسَٰنٍۗ وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَأْخُذُوا۟ مِمَّآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ شَيْـًٔا إِلَّآ أَن يَخَافَآ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِۖ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا ٱفْتَدَتْ بِهِۦۗ تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَاۚ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٢٩﴾ فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُۥ مِنۢ بَعْدُ ....

وإطلاقٌ وتبعيدٌ مقارنٌ ﴿ بِإِحْسَٰنٍۗ ﴾ من مالٍ وخُلُقٍ وكلمةٍ طيبة ليرتفع غبار العداوة والبغضاء الواقعة بإغواء الشيطان بينهما ﴿وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ ﴾ أيها الحكام المقيمون للأحكام الشرعية أصلاً ﴿أَن تَأْخُذُوا۟ ﴾ من النساء ﴿مِمَّآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ ﴾ من المهور والصِداقات ﴿شَيْـًٔا ﴾ وتردوه إلى أزواجهن ﴿ إِلَّآ أَن يَخَافَآ ﴾ أي الزوجان كل منهما على نفسه ﴿أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِۖ ﴾ الموضوعة من عنده سبحانه لإصلاح حالهما ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ ﴾ أيها الحكام أيضاً ﴿ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ ﴾ بينهما ﴿فَلَا جُنَاحَ ﴾ إثمَ ﴿عَلَيْهِمَا ﴾ على الرجل ﴿ فِيمَا ﴾ أخذ ﴿ ٱفْتَدَتْ بِهِۦۗ ﴾ المرأة للخلاص والطلاق وعلى المرأة لإعطائه له ﴿تِلْكَ﴾ الأحكام المذكورة ﴿حُدُودُ ٱللَّهِ﴾ الموضوعة فيكم أيها المؤمنون لإصلاح أحوالكم ﴿فَلَا تَعْتَدُوهَاۚ ﴾ فلا تتجاوزوا عنها بالمخالفة وعدم الامتثال ﴿ وَ﴾ اعلموا أن ﴿مَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٢٩﴾﴾ المجاوزون عن حد الإنسانية إلى البهيمية، المضيعون لمقتضيات العقل الشريف المفاض عليهم من لدنه سبحانه.

﴿ فَإِن طَلَّقَهَا ﴾ أي إن وقع الطلاق بينهما بعد المرتين ﴿فَلَا تَحِلُّ ﴾ المرأة المطلَّقة ﴿لَهُۥ ﴾ أي للرجل المطلِّق ﴿مِنۢ بَعْدُ ﴾ أي بعد وقوع الطلاق الثالثة

﴿حَتَّىٰ تَنكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُۥ ۗ فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَآ أَن يَتَرَاجَعَآ إِن ظَنَّآ أَن يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ ۗ وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ يُبَيِّنُهَا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٢٣٠﴾ وَإِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ ۚ وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِّتَعْتَدُوا۟ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥ ۚ وَلَا تَتَّخِذُوٓا۟ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ هُزُوًا ۚ﴾ ....

﴿حَتَّىٰ تَنكِحَ﴾ تتزوج المرأة ﴿زَوْجًا﴾ ثانياً ﴿غَيْرَهُۥ ۗ﴾ أي غير الزوج الأول ﴿فَإِن طَلَّقَهَا﴾ الزوج الثاني ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَآ أَن يَتَرَاجَعَآ﴾ أي يرجع كل من الزوج الأول والمرأة إلى الآخر بالزواج ويلمس كل منهما عسيلة الزوج الثاني إن اشتهى وذلك حين ﴿إِن ظَنَّآ أَن يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ ۗ﴾ بينهما ﴿وَتِلْكَ﴾ الأحكام ﴿حُدُودُ ٱللَّهِ يُبَيِّنُهَا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٢٣٠﴾﴾ يعقلون ويفهمون حدوده ويعلمون بها بمقتضى العقل إذ التكاليف الواقعة في الشرع الماضي لأجله.

﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ﴾ أي قرب انقضاء عدتهن ﴿فَأَمْسِكُوهُنَّ﴾ أي فعليكم بعدما قرب انقضاء مدة العدة أن تراجعوهن فيها وتمسكوهن ﴿بِمَعْرُوفٍ﴾ مستحسنٍ عقلاً وشرعاً ﴿أَوْ سَرِّحُوهُنَّ﴾ وفارقوهن ﴿بِمَعْرُوفٍ ۚ﴾ حتى لا يتضررن بعدم الزواج وطول المدة ﴿وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ﴾ أي ولا تراجعوهن ﴿ضِرَارًا﴾ أي بمجرد أن تضروهن ﴿لِّتَعْتَدُوا۟ ۚ﴾ أي تبقوا مدة طويلة بلا محبةٍ ومودةٍ حتى يأتيهن الموت كما يفعله الجهال غيرةً وحميةً ﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ﴾ الفعلة منكم ﴿فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥ ۚ﴾ بتعريضها على عقاب الله بإبطال حكمته وتعطيل محل خلقه وقدرته ﴿وَلَا تَتَّخِذُوٓا۟﴾ أيها المؤمنون ﴿ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ النازلة عليكم ﴿هُزُوًا ۚ﴾ تتهاونون عليها وتأخذونها سهلاً، احذروا عن انتقامه

وَٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَآ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلْكِتَـٰبِ وَٱلْحِكْمَةِ يَعِظُكُم بِهِۦ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٣١﴾ وَإِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَن يَنكِحْنَ أَزْوَٰجَهُنَّ إِذَا تَرَٰضَوْاْ بَيْنَهُم بِٱلْمَعْرُوفِ ۗ ذَٰلِكَ يُوعَظُ بِهِۦ مَن كَانَ مِنكُمْ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ ۗ ذَٰلِكُمْ أَزْكَىٰ لَكُمْ ....

﴿وَٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ﴾ المنعمة ﴿عَلَيْكُمْ﴾ واشكروا لها ﴿وَ﴾ خصوصاً ﴿مَا أَنزَلَ عَلَيْكُم﴾ لإصلاح حالكم ﴿مِّنَ ٱلْكِتَـٰبِ﴾ المبين لكم طريق المعاش في النشأة الأولى ﴿وَٱلْحِكْمَةِ﴾ الموصلةِ لكم إلى ذروة التوحيد في النشأة الأخرى لكي ﴿يَعِظُكُم بِهِۦ﴾ فعليكم أن تتعظوا وتتذكروا به ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ عن مساخطته وانتقاماته ولا تتجاوزوا عن حدوده المبينة في كتابه ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ﴾ المحيطَ بكم وبحالاتكم ﴿بِكُلِّ شَىْءٍ﴾ صدر عنكم من الخير والشر والنفع والضر العائد لنفوسكم ﴿عَلِيمٌ ﴿٢٣١﴾﴾ بالعلم الحضوري، لا يعزب عن علمه شيء مما ظهر وكان، ويظهر ويكون.

﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ﴾ أيها المؤمنون ﴿ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغْنَ﴾ بعد الطلاق ﴿أَجَلَهُنَّ﴾ من العدة المفروضة المقدرة لاستبراء الرحم ﴿فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ﴾ أي لا تحبسوهن ولا تعيروهن إن أردن ﴿أَن يَنكِحْنَ أَزْوَٰجَهُنَّ إِذَا تَرَٰضَوْاْ بَيْنَهُم بِٱلْمَعْرُوفِ ۗ﴾ كما يفعله الجهال من الحمية الجاهلية ﴿ذَٰلِكَ﴾ التذكر والعظة المنزلة من عند الله ﴿يُوعَظُ بِهِۦ مَن كَانَ مِنكُمْ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ ۗ﴾ بجميع ما أنزل من الأحكام والمواعظ ﴿وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ﴾ بجميع ما فيه من النكال والعذاب والحساب والعقاب ﴿ذَٰلِكُمْ﴾ أي الأحكام والمواعظ والأخلاق والآداب ﴿أَزْكَىٰ لَكُمْ﴾ لتزكية

وَأَطْهَرُ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢٣٢﴾ ۞ وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ ٱلرَّضَاعَةَ وَعَلَى ٱلْمَوْلُودِ لَهُۥ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا لَا تُضَآرَّ وَٰلِدَةٌۢ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَّهُۥ بِوَلَدِهِۦ وَعَلَى ٱلْوَارِثِ مِثْلُ ذَٰلِكَ فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَن تَرَاضٍ مِّنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا وَإِنْ

نفوسكم من الأهواء والآراء الباطلة ﴿وَأَطْهَرُ﴾ لقلوبكم عن متابعتها ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ﴾ مصالح عباده ﴿وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢٣٢﴾﴾ فعليكم الامتثال والانقياد على وجه التعبد.

﴿۞ وَٱلْوَٰلِدَٰتُ﴾ سواءً كانت مطلقات أو غيرها ﴿يُرْضِعْنَ﴾ ولا يضيعن ﴿أَوْلَٰدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ ٱلرَّضَاعَةَ﴾ أي يرضعن للأب الذي أراد إتمام إرضاع ولده ﴿وَعَلَى ٱلْمَوْلُودِ لَهُۥ﴾ أي على الأب ﴿رِزْقُهُنَّ﴾ أي رزق المرضعات ﴿وَكِسْوَتُهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ المتعارف ﴿لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا﴾ إذ من سنته سبحانه أن لا يكلف عبده إلا بما يطيقه ويقدر عليه لذلك ﴿لَا تُضَآرَّ وَٰلِدَةٌۢ بِوَلَدِهَا﴾ بأن ألزم عليها بأنه ولدك لا بد لك أن تسترضعيه بلا أجرةٍ ﴿وَلَا﴾ يضار أيضاً ﴿مَوْلُودٌ لَّهُۥ بِوَلَدِهِۦ﴾ بأن حمل عليه ما ليس في وسعه من أجرة الرضاعة ﴿وَ﴾ أن لم يكن المولود له موجوداً يجب ﴿عَلَى ٱلْوَارِثِ﴾ الحائز لأمواله ﴿مِثْلُ ذَٰلِكَ﴾ أي ما يجب على المولود له لإرضاع ولده ﴿فَإِنْ أَرَادَا﴾ المولود له والمرضعة قبل انقضاء الحولين ﴿فِصَالًا﴾ فطاماً صادراً ﴿عَن تَرَاضٍ مِّنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ﴾ أي شورةٍ واقعةٍ بينهما ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا﴾ في هذا الفطام إن لم يتضرر الرضيع، وإن تضرر فللحاكم أن يمنعها لإفضائه إلى

أَرَدتُّمْ أَن تَسْتَرْضِعُوٓاْ أَوْلَٰدَكُمْ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُم مَّآ ءَاتَيْتُم بِٱلْمَعْرُوفِ ۗ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٣٣﴾ وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا ۖ فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِىٓ أَنفُسِهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ ....

تضييع الرضيع وتخريب بناء الله ﴿وَإِنْ أَرَدتُّمْ﴾ أيها المؤمنون ﴿أَن تَسْتَرْضِعُوٓاْ أَوْلَٰدَكُمْ﴾ أي تطلبوا المرضعة لإرضاع رضيعكم سواءً كانت المرضعة أم الرضيع أم لا ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُم مَّآ ءَاتَيْتُم بِٱلْمَعْرُوفِ ۗ﴾ أي لا ضيق ولا تعب عليكم أن تسلموا بالطريق المعروف المستحسن ما سميتم من الأجرة للإرضاع قبل انقضاء مدة الرضاع ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾عن تضييع الرضيع وتنقيص أجرة المرضعة ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٣٣﴾﴾ يجازيكم على مقتضى علمه.

﴿وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ﴾ أيها المؤمنون ﴿وَيَذَرُونَ﴾ يتركون ﴿أَزْوَٰجًا﴾ واحدةً أو اثنتين أو ثلاثاً أو أربعاً فعليهن أن ﴿يَتَرَبَّصْنَ﴾ ينتظرن ويعتددن ﴿بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا ۖ﴾ حتى يعلم ويظهر أنهن حاملات أم لا ﴿فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ﴾ بأن تنقضي المدة المذكورة ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا﴾ أيها الحكام ﴿فَعَلْنَ﴾ إصلاح ﴿فِىٓ أَنفُسِهِنَّ﴾ من طلب الخطبة والخاطب والناكح والتجسس عنه والعروض عليه إن صدر عنهن هذه الأمور ﴿بِٱلْمَعْرُوفِ ۗ﴾ المستحسن في الشرع والعرف، وإلا فعليكم الجناح أيها الحكام عند الله إن لم يمنعوهن ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ أيها الحكام من التهاون في إجراء أحكامه

خَبِيرٌ ﴿٢٣٤﴾ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُم بِهِۦ مِنْ خِطْبَةِ ٱلنِّسَآءِ أَوْ أَكْنَنتُمْ فِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَّ وَلَٰكِن لَّا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا إِلَّآ أَن تَقُولُوا۟ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ۚ وَلَا تَعْزِمُوا۟ عُقْدَةَ ٱلنِّكَاحِ حَتَّىٰ يَبْلُغَ ٱلْكِتَٰبُ أَجَلَهُۥ ۚ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ فَٱحْذَرُوهُ ۚ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿٢٣٥﴾

وحفظ حدوده ﴿خَبِيرٌ ﴿٢٣٤﴾﴾ يؤاخذكم عليه ويجازيكم بمقتضى خبرته.

﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ﴾ أيها المؤمنون ﴿فِيمَا﴾ أي في كلام وألفاظ ﴿عَرَّضْتُم بِهِۦ﴾ تعريضاً حسناً وتلميحاً مليحاً خالياً عن وصمة الفساد ناشئاً ﴿مِنْ﴾ إرادة ﴿خِطْبَةِ ٱلنِّسَآءِ﴾ المعتدات للوفاة ﴿أَوْ أَكْنَنتُمْ﴾ أضمرتم وأخفيتم ﴿فِىٓ أَنفُسِكُمْ﴾ إذ ﴿عَلِمَ ٱللَّهُ﴾ منكم وإن أخفيتم ﴿أَنَّكُمْ﴾ يميل طبيعتكم إليهن ﴿سَتَذْكُرُونَهُنَّ﴾ فاذكروهن على الوجه الأحسن الأبعد عن التهمة ﴿وَلَٰكِن لَّا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا﴾ أي الوقاع والجماع أي لا تخالطوا معهن إلى حيث يرتفع الحجاب عنكم فتتكلمون معهن بالكلمات التي جرت بين الزوج والزوجة ﴿إِلَّآ أَن تَقُولُوا۟ قَوْلًا مَّعْرُوفًا﴾ يوميء إلى خطبتكم إياهن إن خفتم أن يسبق عليكم الغير من الخطباء ﴿وَ﴾ عليكم أن ﴿لَا تَعْزِمُوا۟ عُقْدَةَ ٱلنِّكَاحِ﴾ أي لا تستعجلوا في العزيمة على العقد ﴿حَتَّىٰ يَبْلُغَ ٱلْكِتَٰبُ أَجَلَهُۥ﴾ أي ما فرض في الكتاب أي من العدة المقدرة فيه ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ﴾ المطلع لضمائركم ﴿يَعْلَمُ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ﴾ من الخيانة في حدوده ﴿فَٱحْذَرُوهُ﴾ لتنجوا من غضبه ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ﴾ لمن عزم على المعصية ولم يفعل ﴿حَلِيمٌ ﴿٢٣٥﴾﴾ لا يستعجل بالعقوبة على العاصين.

﴿لَّا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ مَا لَمْ تَمَسُّوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُوا۟ لَهُنَّ فَرِيضَةً ۚ وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى ٱلْمُوسِعِ قَدَرُهُۥ وَعَلَى ٱلْمُقْتِرِ قَدَرُهُۥ مَتَٰعًۢا بِٱلْمَعْرُوفِ ۖ حَقًّا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٢٣٦﴾ وَإِن طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ إِلَّآ أَن يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوَا۟ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ عُقْدَةُ ٱلنِّكَاحِ ۚ وَأَن تَعْفُوٓا۟ ....

﴿لَّا جُنَاحَ﴾ لا وِزرَ[1] ولا إثمَ ﴿عَلَيْكُمْ﴾ أيها المؤمنون ﴿إِن طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ مَا لَمْ تَمَسُّوهُنَّ﴾ أي لا تجامعوا معهن ﴿أَوْ﴾ لم ﴿تَفْرِضُوا۟﴾ تقدروا ﴿لَهُنَّ فَرِيضَةً ۚ﴾ مهراً وصداقاً ﴿وَ﴾ عليكم إن طلقتموهن ﴿مَتِّعُوهُنَّ﴾ بالإحسان جبراً لما انكسر بالطلاق بعد العقد ﴿عَلَى ٱلْمُوسِعِ قَدَرُهُۥ﴾ أي قدر وسعه ويسره ﴿وَ﴾ كذا ﴿عَلَى ٱلْمُقْتِرِ﴾ المعسر ﴿قَدَرُهُۥ﴾ قدر إعساره وتقتيره ﴿مَتَٰعًۢا﴾ أي متعوهن متاعاً ملتبساً ﴿بِٱلْمَعْرُوفِ ۖ﴾ الذي يستحسنه الشرع والمروءة ولذلك صار التمتيع المجان في الشرع ﴿حَقًّا﴾ لأنها ﴿عَلَى﴾ المؤمنين ﴿ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٢٣٦﴾﴾ الذين لا يريدون الأذى لأحدٍ من الناس وإن وقع منهم نادراً، جَبَروا بالإحسان حفظاً للمودة والإخاء الدينية.

﴿وَإِن طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ﴾ ﴿وَ﴾ الحال أنه ﴿قَدْ فَرَضْتُمْ﴾ سميتم ﴿لَهُنَّ فَرِيضَةً﴾ صداقاً ومهراً ﴿فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ﴾ أي فلزمكم أداء نصف ما سميتم من المهر إليهن ﴿إِلَّآ أَن يَعْفُونَ﴾ أي المطلقات فلا يأخذن شيئاً اتقاءً عن التهمة ﴿أَوْ يَعْفُوَا۟ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ عُقْدَةُ ٱلنِّكَاحِ ۚ﴾ ويرد جميع المهر إليها تبرعاً ﴿وَأَن تَعْفُوٓا۟﴾ أي وعفوكم أيها المؤمنون في أمثال هذا ﴿

(١) في المخطوط (لا زور).

أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۚ وَلَا تَنسَوُا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٣٧﴾ حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَىٰ وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ ﴿٢٣٨﴾ ....

﴿أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۚ﴾ وأفضل عند المولى ﴿وَلَا تَنسَوُا﴾ أي لا تتركوا ﴿الْفَضْلَ﴾ والإحسان ﴿بَيْنَكُمْ ۚ﴾ أيها المؤمنون المحسنون بل أحسنوا بعضاً مما أحسن الله لكم إلى مستحقيكم ﴿إِنَّ اللَّهَ﴾ المراقب لجميع أعمالكم ﴿بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ من الفضل والإحسان ﴿بَصِيرٌ ﴿٢٣٧﴾﴾ يجازيكم عليه بفضله.

ثم لما كان للعارف الحائر المستغرق في بحر الحيرة ميولاً وتوجهات متعددة بحسب تجددات أنفاسه ونفساته المستنشقة المستمدة بها النفسات الرحمانية، المُهَبَّة من يُمن عالم اللاهوت، المنتشئة من الذات الأحدية، المتجلية بالتجليات الجمالية والجلالية، المعبرة بالأسماء والصفات الإلهية المتخالفة في الآثار والمقتضيات على حسب الكمال؛ أراد سبحانه أن ينبه عليه بمخالطته الميول والصلوات في الأوقات كلها، لئلا ينشغل عن الحق في وقت من الأوقات فقال:

﴿حَافِظُوا﴾ وداوموا أيها المتوجهون إلى توحيد الذات ﴿عَلَى الصَّلَوَاتِ﴾ المكتوبة لكم في الأوقات المتعارفة ﴿وَ﴾ خصوصاً ﴿الصَّلَاةِ الْوُسْطَىٰ﴾ التي هي عبارة عن التوجه الرفيق [في الهامش: لعله الرقيق] المعنوي بين كل نَفَسَين من أنفاسكم ﴿وَ﴾ بالجملة ﴿قُومُوا﴾ أيها الأظلال الهالكة في نفسها المستهلكة في الذات الأحدية إذ لا وجود لكم من ذواتكم ﴿لِلَّهِ﴾ المظهر لكم من كتم العدم بامتداد أظلال أسمائه، ورشٍ من بحر جودِ وجودِه عليكم ﴿قَانِتِينَ ﴿٢٣٨﴾﴾ متذللين خاضعين مفنين هويتكم الظلية

﴿فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا فَإِذَا أَمِنتُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ ﴿٢٣٩﴾ وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا وَصِيَّةً لِّأَزْوَاجِهِم مَّتَاعًا إِلَى الْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ فَإِنْ خَرَجْنَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا فَعَلْنَ فِي أَنفُسِهِنَّ مِن مَّعْرُوفٍ﴾ ....

الغير الحقيقية بالكلية في الهوية الحقيقة الإلهية.

﴿فَإِنْ خِفْتُمْ﴾ عن مقتضيات القوى[1] البشرية ﴿فَرِجَالًا﴾ أي فعليكم التوجه راجلين منسلخين عنها وعن مقتضياتها بالمرة ﴿أَوْ رُكْبَانًا﴾ راكبين عليها بتسخيرها بالرياضيات الشاقة إلى حيث ينصرف بالكلية عن مقتضاها ﴿فَإِذَا أَمِنتُمْ﴾ من شرورها ﴿فَاذْكُرُوا اللَّهَ﴾ المفني للفرد والسوى مطلقاً ﴿كَمَا عَلَّمَكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ ﴿٢٣٩﴾﴾ لولا إنزاله سورة الإخلاص وكلمة التوحيد وغيرها من الآيات الدالة على التوحيد الذاتي.

﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ﴾ يستشرفون إلى الوفاة ﴿مِنكُمْ﴾ أيها المؤمنون ﴿وَيَذَرُونَ﴾ يتركون ﴿أَزْوَاجًا﴾ بعدهم لزمهم أن يوصوا ﴿وَصِيَّةً﴾ مستخرجةً من أموالهم ﴿لِّأَزْوَاجِهِم﴾ ليتمتعن بها ﴿مَّتَاعًا إِلَى﴾ انقضاء ﴿الْحَوْلِ﴾ بعد موتهم ﴿غَيْرَ إِخْرَاجٍ﴾ لهن من المسكن المألوف، وكان ذلك في أول الإسلام ثم نسخت بتعيين المدة لعدة الوفاة من أربعة أشهر وعشراً ﴿فَإِنْ خَرَجْنَ﴾ من مسكن الأزواج ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ﴾ أيها الحكام ﴿فِي مَا فَعَلْنَ﴾ من التطيب وترك الحداد وطلب الخطبة ﴿فِي﴾ إصلاح ﴿أَنفُسِهِنَّ﴾ إن كانت الأمور الصادرة منهن ﴿مِن مَّعْرُوفٍ﴾ مستحسنٍ مشروعٍ مرخصٍ وإن

---

(١) في المخطوط (الفوزي).

وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٤٠﴾ وَلِلْمُطَلَّقَٰتِ مَتَٰعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِ ۖ حَقًّا عَلَى ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٢٤١﴾ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢٤٢﴾ ۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ خَرَجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ ٱللَّهُ مُوتُوا۟ ثُمَّ أَحْيَٰهُمْ ۚ ....

لم يكن كذلك فعليكم الجناح أيها الحكام ﴿وَٱللَّهُ عَزِيزٌ﴾ غالبٌ قادرٌ على الانتقام، ينتقم من المتجاوزين عن حدوده، المتهاونين في إجراء أحكامه ﴿حَكِيمٌ ﴿٢٤٠﴾﴾ في رعاية مصالح عباده.

﴿وَ﴾ واعلموا أيها المؤمنون أن ﴿لِلْمُطَلَّقَٰتِ﴾ مُطْلقاً ﴿مَتَٰعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِ ۖ﴾ المشروع المستحسن لازمٌ ﴿حَقًّا﴾ ثابتاً ﴿عَلَى﴾ ذمة ﴿ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٢٤١﴾﴾ المطَلِّقين لهن ما دمن في العدة، أي جميع مؤنتهن عليهم فيها.

﴿كَذَٰلِكَ﴾ أي مثل ما ذكر من أحكام الطلاق والأمور المتفرعة عليه ﴿يُبَيِّنُ ٱللَّهُ﴾ الهادي ﴿لَكُمْ﴾ جميع ﴿ءَايَٰتِهِۦ﴾ الدالة على توحيده ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢٤٢﴾﴾ رجاء أن تتأملوا فيها وتفوزوا بالفوز العظيم من عنده.

﴿۞ أَلَمْ تَرَ﴾ أيها الرائي ﴿إِلَى ٱلَّذِينَ خَرَجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ﴾ وهم أهل داورد قرية قبل واسط وقع فيهم طاعونٌ فخرجوا هاربين ﴿وَهُمْ أُلُوفٌ﴾ كثيرٌ ﴿حَذَرَ ٱلْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ ٱللَّهُ﴾ بعدما علم منهم الفرار عن قضائه: ﴿مُوتُوا۟﴾ فماتوا بالمرة ﴿ثُمَّ أَحْيَٰهُمْ ۚ﴾ بدعاء حزقيل عليه السلام حين مر على تلك القرية، فأبصروا قد عريت عظامهم وتفرقت أجسامهم، فتعجب من

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضۡلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشۡكُرُونَ ٢٤٣ وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ....﴾

ذلك، فأوحى الله تعالى إليه: نادِ فيهم: أن قوموا بأمر الله ومشيئته، فنادى، فقاموا يقولون: سبحانك اللهم وبحمدك لا إله إلا أنت ﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾ المدبر لمصالح عباده ﴿لَذُو فَضۡلٍ﴾ وإحسان ﴿عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشۡكُرُونَ ٢٤٣﴾ فضلَه وإحسانَه.

وبوجه آخر ﴿أَلَمۡ تَرَ﴾ أيها المغتر المعتبر الرائي ﴿إِلَى ٱلَّذِينَ خَرَجُواْ مِن دِيَٰرِهِمۡ﴾ المألوفة المأنوسة وهي بقعة الإمكان ﴿وَ﴾ الحال أنهم ﴿وَهُمۡ أُلُوفٌ﴾ متألفون فيها مع بني نوعهم ﴿حَذَرَ ٱلۡمَوۡتِ﴾ الإرادي ﴿فَقَالَ لَهُمُ ٱللَّهُ﴾ الهادي إلى توحيد الذات بلسان مرشديهم: ﴿مُوتُواْ﴾ عن إنابتكم وهويتكم أيها المتوجهون إلى بحر الحقيقة، فماتوا عن مقتضيات القوى البشرية، ولوازم الحياة الطبيعية بالكلية ﴿ثُمَّ أَحۡيَٰهُمۡۚ﴾ الله بالحياة الحقيقية[1] والعلم اللدني والوجود العيني الحقي والبقاء الأزلي السرمدي ﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾ المتكفل لأمور عباده ﴿لَذُو فَضۡلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ الناسين منزلهم الأصلي ومقصدهم الحقيقي بإيصالهم إلى ما هم عليه قبل نزولهم إلى فضاء الإمكان ﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشۡكُرُونَ ٢٤٣﴾ ولا يعقلون ولا يفهمون نعمة الوصول إلى الموطن الأصلي والمقام الحقيقي حتى يقوموا بشكره ويتواظبوا عليه.

﴿وَ﴾ أن أردتم أيها المؤمنون أن تكونوا من الشاكرين لِنِعَمه الفائزين بفضله وإحسانه ﴿قَٰتِلُواْ﴾ مع الكفرة التي هي القوى الحيوانية ﴿فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾

(١) في المخطوط (الحقيقي).

وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٞ ﴿٢٤٤﴾ مَّن ذَا ٱلَّذِي يُقۡرِضُ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنٗا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضۡعَافٗا كَثِيرَةٗۚ وَٱللَّهُ يَقۡبِضُ وَيَبۡصُۜطُ وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ﴿٢٤٥﴾ أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلۡمَلَإِ مِنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ مِنۢ بَعۡدِ ....

المفني للغير مطلقاً، واعلموا إن متم فإلى الله تُحشرون، وإن عشتم فإلى الله تُبعثون، وما لكم أيها المؤمنون أن لا تقاتلوا مع جنود الشياطين حتى تنجوا من مهلكة الإمكان وتصلوا إلى فضاء الوجوب ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ﴾ لأقوالكم المتعلقة بعدم الجهاد ﴿عَلِيمٞ ﴿٢٤٤﴾﴾ بنياتكم المترتبة على الحياة الطبيعية.

﴿مَّن ذَا﴾ العارف ﴿ٱلَّذِي يُقۡرِضُ ٱللَّهَ﴾ أي يفوض ويسلم هوية الإمكان وماهية الكونيّ والكيانيّ إلى الله المسقِط للهويات مطلقاً ﴿قَرۡضًا حَسَنٗا﴾ تفويضاً سلساً نشطاً فرحاناً بلا مضايقةٍ ولا مماطلةٍ راضياً بما قضى عليه صابراً على عموم البلوى المقربة إليه ﴿فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ﴾ بعدما فَنِي عن هويته فيه ﴿أَضۡعَافٗا كَثِيرَةٗۚ﴾ لا يحيط بكنهها إلا هو، إذ المحدث قرن بالعديم، وترتب عليه ما ترتب عليه بل سقط الاثنينية بالكلية وارتفع غبار الأغيار بالمرة ﴿وَٱللَّهُ﴾ الواحد الأحد الصمد ﴿يَقۡبِضُ﴾ إلى ذاته ما ينشر ﴿وَيَبۡصُۜطُ﴾ من أظلال أسمائه وصفاته وآثار تجلياته الذاتية ﴿وَإِلَيۡهِ﴾ لا إلى غيره ﴿تُرۡجَعُونَ ﴿٢٤٥﴾﴾ أيها الأظلال والآثار طوعاً وكرهاً.

﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلۡمَلَإِ مِنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾ الذين كانوا معرضين عن القتال في حياة موسى صلوات الله عليه كيف اضطروا إليه ﴿مِنۢ بَعۡدِ﴾ وفاة

مُوسَىٰٓ إِذْ قَالُواْ لِنَبِيٍّ لَّهُمُ ٱبْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُّقَٰتِلْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۖ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ أَلَّا تُقَٰتِلُواْۖ قَالُواْ وَمَا لَنَآ أَلَّا نُقَٰتِلَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَٰرِنَا وَأَبْنَآئِنَاۖ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ تَوَلَّوْاْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْۗ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٤٦﴾ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًاۚ قَالُوٓاْ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ ٱلْمُلْكُ عَلَيْنَا

﴿مُوسَىٰٓ إِذْ قَالُواْ لِنَبِيٍّ لَّهُمُ﴾ هو يوشع أو شمعون أو اشمويل حين ظهرت العمالقة عليهم وخربوا ديارهم ونهبوا أموالهم وأسروا أولادهم: ﴿ٱبْعَثْ﴾ عيّن ﴿لَنَا مَلِكًا نُّقَٰتِلْ﴾ مع أعداء الله ﴿فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۖ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ﴾ أي أتوقع جبنكم وتقاعدكم ﴿إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ﴾ من عند الله ﴿أَلَّا تُقَٰتِلُواْۖ قَالُواْ وَمَا لَنَآ﴾ أي أيّ شيء عرض لنا ﴿أَلَّا نُقَٰتِلَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَٰرِنَا وَأَبْنَآئِنَاۖ﴾ بسبب ترك القتال لو لم نقاتل بعد لاستُؤصِلنا بالمرة ﴿فَلَمَّا كُتِبَ﴾ فُرض ﴿عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ تَوَلَّوْاْ﴾ أعرضوا عنه ﴿إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْۗ﴾ ثلاثمائة وثلاثة عشر بعدد أهل بدر ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٤٦﴾﴾ المجاوزين عن أوامره.

﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ﴾ بإلهام الله ووحيه ﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾ المدبرَ لأموركم ﴿قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ﴾ من المرتجلات العجمية ﴿مَلِكًاۚ﴾ يولي أموركم ويقاتل مع عدوكم ﴿قَالُوٓاْ﴾ مستكبرين مستنكرين: ﴿أَنَّىٰ﴾ من أين ﴿يَكُونُ لَهُ ٱلْمُلْكُ عَلَيْنَا﴾ وهو من سفلة الناس كيف يستأهل هذا المنصب

وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ الْمَالِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٤٧﴾ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَن يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ ....

﴿وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَ﴾ الحال أنه ﴿لَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ الْمَالِ﴾ حتى يقوى به، وإنما استحقروه لأنه كان فقيراً راعياً أو سقّاء أو دباغاً، وكان من أولاد بنيامين، ولم يكن في أولاده النبوة والملك، إنما كانت النبوة في أولاد لاوي، والملك في أولاد يهوذا وكان فيهم من أسباطهما خَلْق عظيم ﴿قَالَ﴾ لهم نبيهم: ﴿إِنَّ اللَّهَ﴾ المعز لأذلة عباده ﴿اصْطَفَاهُ﴾ واختاره للملك ﴿عَلَيْكُمْ﴾ مع فقره وسقوط نسبه ﴿وَ﴾ بعدما اختاره ﴿زَادَهُ بَسْطَةً﴾ حيطةً وشمولاً ﴿فِي الْعِلْمِ﴾ المتعلق لتدبير المملكة ﴿وَ﴾ قوةً عظيمةً في ﴿الْجِسْمِ﴾ لمقاومة العدو ومدافعته ﴿وَاللَّهُ﴾ المدبر لمصالح عباده ﴿يُؤْتِي مُلْكَهُ مَن يَشَاءُ﴾ من عباده على مقتضى علمه منهم وحكمته من غير التفات إلى فقرهم ونسبهم ﴿وَاللَّهُ﴾ الحكيم العليم ﴿وَاسِعٌ﴾ في فضله وإحسانه ﴿عَلِيمٌ ﴿٢٤٧﴾﴾ في حكمه وعدله يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد، بلا سبق علل وأغراض.

﴿وَ﴾ بعدما آيسوا من تغيير قضاء الله وتبديل رضاه، أتوا يطلبون الدليل والعلامات على ملكه ﴿قَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ﴾ بوحي الله وإلهامه إياه: ﴿إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَن يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ﴾ الذي[1] ﴿فِيهِ سَكِينَةٌ﴾ أي

(١) في المخطوط (التي).

مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ ءَالُ مُوسَىٰ وَءَالُ هَـٰرُونَ تَحْمِلُهُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٤٨﴾ فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِٱلْجُنُودِ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّى

فيه ما يوجب سكينتكم وطمأنينتكم وقراركم على الحرب إذ هو صندوق التوراة المنزل ﴿مِّن رَّبِّكُمْ﴾ لإصلاح أموركم ﴿وَ﴾ أيضاً من آية ملكه أن يأتيكم ﴿بَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ ءَالُ مُوسَىٰ وَءَالُ هَـٰرُونَ﴾ قيل هي رخامة الألواح وعصا موسى وعمامة هارون وكان أنبياء بني إسرائيل يتوارثون إلى أن ﴿تَحْمِلُهُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ﴾ بأمر الله وتوصله إلى طالوت ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ﴾ المذكور ﴿لَءَايَةً لَّكُمْ﴾ على ملكية طالوت ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٤٨﴾﴾ بالله وبما جاء من عنده على أنبيائه، وبعد ما آتاه الله الملكَ والعلامات الدالة عليه تجهز بتوفيق الله وخرج نحو العدو.

روي أنه قال وقت خروجه: لا يخرج معي إلا الشباب الخالي عن الحيل، الفارغ عن الأمل، النشيط للأجل، الفرحان للمقاتلة والشهادة.

﴿فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِٱلْجُنُودِ﴾ وكان في شدة الحر والعبور على مفازةٍ لا ماء فيها ناجى مع الله كلٌّ من جنوده في نفسه أن يظهر عليهم نهراً في تلك المفازة خوفاً من شدة العطش أَلْهمَ الله مناجاتهم إلى قلب طالوت ﴿قَالَ﴾ لهم ﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾ القادر على ما يشاء ﴿مُبْتَلِيكُم﴾ ومجربكم في هذه المفازة ﴿بِنَهَرٍ﴾ عظيم ﴿فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّى﴾

وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُۥ مِنِّىٓ إِلَّا مَنِ ٱغْتَرَفَ غُرْفَةًۢ بِيَدِهِۦ ۚ فَشَرِبُوا۟ مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۚ فَلَمَّا جَاوَزَهُۥ هُوَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ قَالُوا۟ لَا طَاقَةَ لَنَا ٱلْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ ۚ قَالَ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ ٱللَّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةًۢ ....

أي ليس من أتباعي وأعواني وظهيري ﴿وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ﴾ ولم يذقه ﴿فَإِنَّهُۥ مِنِّىٓ إِلَّا مَنِ ٱغْتَرَفَ غُرْفَةًۢ بِيَدِهِۦ ۚ﴾ لا لتسكين العطش، بل لشكر نعمة الله وإنجاز وعده وتعديد إحسانه وفضله، ولما وصلوا إليه ﴿فَشَرِبُوا۟ مِنْهُ﴾ من النهر ﴿إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۚ﴾ معدودين، قيل: ثلاثمائة وثلاثة عشر، وقيل: ثلاثة آلاف وقيل: ألف.

وإياك أيها المبتلى بنهر الدنيا في فضاء الوجود أن تشرب منها خوفاً من عطش حرارة العشق المفني للعاشق والعشق في المعشوق الحقيقي بالمرة، حتى لا يخرج عن زمرة المحبين المحترقين بنيران المحبة إلى أن خلصوا عن هوياتهم بالكلية، وأن يطعم ويذوق من مستلذاتها ومشتهاتها حتى لا يحرم من مرتبة أولي النهى واليقين، الفائزين بجنة اللقاء وروضة التسليم ﴿فَلَمَّا جَاوَزَهُۥ هُوَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ قَالُوا۟﴾ أي بعضهم لبعض خفيةً: ﴿لَا طَاقَةَ لَنَا ٱلْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ ۚ﴾ لقوتهم وشوكتهم ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ﴾ بربهم ظناً حسناً بل يعلمون يقيناً ﴿أَنَّهُم﴾ بعد انخلاعهم عن ملابس الإمكان ﴿مُّلَٰقُوا۟ ٱللَّهِ﴾ بلا سترة الثنوية وحجاب الهوية: ﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ﴾ من العقل والنهى ﴿غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةًۢ﴾ من جنود النفس والهوى

بِإِذْنِ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٢٤٩﴾ وَلَمَّا بَرَزُواْ لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ قَالُواْ رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٥٠﴾ فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُۥدُ جَالُوتَ وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ وَٱلْحِكْمَةَ ....

﴿بِإِذْنِ ٱللَّهِۗ﴾ بتوفيقه وتيسيره ﴿وَٱللَّهُ﴾ المختبر لعباده ﴿مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٢٤٩﴾﴾ لبلواه ينصرهم على من يعاديهم بحوله وقوته، وما النصر إلا من عند الله.

﴿وَلَمَّا بَرَزُواْ﴾ ظهروا ﴿لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ﴾ ودنوا منهم ﴿قَالُواْ﴾ متوجهين إلى ربهم متضرعين له مستمدين منه: ﴿رَبَّنَآ أَفْرِغْ﴾ أَفِض ﴿عَلَيْنَا صَبْرًا﴾ نصبر به عند نزول بلائك ﴿وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا﴾ فيه رضاءً لقضائك ﴿وَٱنصُرْنَا﴾ لتنفيذ حكمك وإمضائك ﴿عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٥٠﴾﴾ لآلائك ونعمائك، إنك أنت العزيز الحكيم.

﴿فَهَزَمُوهُم﴾ كسروهم وهزموهم ﴿بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ بعونه ونصره ﴿وَقَتَلَ دَاوُۥدُ جَالُوتَ﴾ قيل كان أيضاً أشعيا في عسكر طالوت مع ستةٍ من بنيه، وكان داود سابعهم، وكان صغيراً يرعى الغنم، فأوحى إلى نبيهم أنه الذي يقتل جالوت، فطلبه من أبيه، فجاء، وقد كلمتْه في الطريق ثلاثةُ أحجار، وقالت له: إنك بنا تقتل جالوت فحملها في مخلاته، ورماه بها، فقتله، ثم زوَّجه طالوت بنته ﴿وَ﴾ بعد ذلك ﴿ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ﴾ أي ملك بني إسرائيل، ولم يجتمعوا قبل داود على ملك ﴿وَ﴾ آتاه ﴿ٱلْحِكْمَةَ﴾ أي دعوة الخلق إلى طريق الحق بالحكمة المؤتاة له من قبل ربه

وَعَلَّمَهُۥ مِمَّا يَشَآءُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٥١﴾ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ ۚ وَإِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٢٥٢﴾ ۞ تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ ۖ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَٰتٍ ۚ

﴿ وَعَلَّمَهُۥ مِمَّا يَشَآءُ ﴾ من العلوم والحكمة والمعجزات وخوارق العادات بالجملة ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ﴾ الرقيبِ الحفيظِ لحدوده بين عباده ﴿ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ﴾ أي ظلمَ بعضِ الظالمين بتقوية بعض المظلومين ونصرِه عليهم ﴿لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ﴾ التي هي منشأ الهون والفساد ومعدن الظلم والعناد ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ﴾ المصلحَ لأحوال العباد ﴿ذُو فَضْلٍ﴾ كثيرٍ ﴿عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٥١﴾﴾ ليعتدل ويتمكن كلٌّ من ساكنيها على ما خلقهم الله لأجله بلا مزاحمة بعضهم بعضاً ظلماً وزوراً.

﴿ تِلْكَ ﴾ المذكورات ﴿ءَايَٰتُ ٱللَّهِ﴾ الدالة على توحيد ذاته وتعظيم شأنه ﴿نَتْلُوهَا عَلَيْكَ﴾ يا أكمل الرسل ﴿بِٱلْحَقِّ ۚ﴾ المطابق للواقع ﴿وَإِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٢٥٢﴾﴾ المتلوين عليهم آياتنا امتناناً لهم، بل من أفضلهم وأكملهم إذ:

﴿ ۞ تِلْكَ ٱلرُّسُلُ ﴾ المخصوص بالوحي والإلهام والإنزال ﴿فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ بأنواع الفضائل والكمالات ﴿مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ ﴾ معه وهو موسى صلوات الله عليه ﴿وَ﴾ منهم من ﴿رَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَٰتٍ ۚ﴾ وهم ما ذكرهم الله سبحانه في كتابه بقوله في مواضع: ﴿وَرَفَعْنَٰهُ مَكَانًا عَلِيًّا﴾ [١٩-مريم ٥٧]

وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ ....

ورفعناه كذا في وصف أنبيائه فعليك استقصاؤها.

﴿وَءَاتَيْنَا﴾ من نبيهم ﴿عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ الواضحةِ الدالةِ على نبوته ﴿وَ﴾ مع ذلك ﴿أَيْدْنَاهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ﴾ المنزه عن رذائل الأغيار مطلقاً، وهو الذات البحت الخالص عن جميع الاعتبارات.

وكم بين فضيلة عيسى عليه السلام، وفضل نبينا ﷺ، إذ قال سبحانه في حقه: ﴿وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ﴾ [٢-البقرة٨٧] وفي شأنه ﷺ في مقام الامتنان له: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾ [٩٤-الشرح١] أيها المظهر الكامل بذاتنا، المقدس عن السوى مطلقاً: ﴿وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ﴾ [٩٤-الشرح٢] أي هويتك التي بها انفصالك عنا ﴿ٱلَّذِىٓ أَنقَضَ ظَهْرَكَ﴾ [٩٤-الشرح٣] قبل انكشافك بذاتنا، كما أنقض ظهور جميع المخلوقات الباقية وراء الحجاب وبعد ذلك ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾ [٩٤-الشرح٤] أي إن وصلت إلينا ورفعت الاثنينية بنا لذلك قلت: «مَنْ أَطَاعَنِيْ فَقَدْ أَطَاعَ اللهَ»[1]، وقلت أيضاً: «مَنْ رَآنِيْ فَقَدْ رَأَى الْحَقّ»[2] وقلنا لك: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ﴾ [٤٨-الفتح:١٠] وغير ذلك من الرموز

---

(١) شاهدها من القرآن الكريم قوله تعالى: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ ۖ وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ﴿٨٠﴾﴾ [سورة النساء آية/ ٨٠].

(٢) حديث متفق عليه.

صحيح البخاري [٦/ ٢٥٦٨رقم / ٦٥٩٥/ باب:رؤيا الليل] وصحيح مسلم [٤/ ١٧٧٦ رقم / ٢٢٦٧ / باب:لا يخبر بتلعب الشيطان به في المنام] وغيرهم وعند البخاري رواية أخرى أيضاً بلفظ: عن أبي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ سمع النبي يقول: «من رَآنِي فَقَدْ رَأَى الْحَقَّ فإن الشَّيْطَانَ لَا يَتَكَوَّنُنِي» [٦/ ٢٥٦٨رقم / ٦٥٩٦ / باب: رؤيا الليل].

وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلَ ٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ

والإشارات الواردة في القرآن والحديث.

ولم يقدر أحد من الأنبياء أن يتفوه عن الرؤية سوى نبينا ﷺ، فإنه يقول: «رَأَيْتُ رَبِّيْ»[1] في ليلة المعراج، لذلك نزل في شأنه: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ [٥-المائدة٣] الآية، وقوله عليه السلام: «بُعِثْتُ لِأُتَمِّمَ مَكَارِمَ الأَخْلَاقِ»[2]، وغير ذلك من الآيات والأحاديث المشعِرة للتوحيد الذاتي، المسقِط للإضافات والاعتبارات مطلقاً.

﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ﴾ الهادي للكل هداية جميع الناس ﴿مَا ٱقْتَتَلَ ٱلَّذِينَ﴾ آمنوا لهم ﴿مِنۢ بَعْدِهِم﴾ خصوصاً ﴿مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ﴾ الموضحة لهم طريق الرشاد والمستخلفة فهم بين أممهم لإرشادهم، ولكن جرت عادة الله وسنته أن يختلفوا[3] ويقتتلوا بحسب اقتضاء أوصافه المتقابلة لذلك

(١) أخرجه الدارمي في سننه [٢/ ١٧٠ رقم/ ٢١٤٩/ باب: في رؤية الرب تعالى في النوم] والطبراني في المعجم الكبير [٢٥/ ١٤٣ رقم/ ٣٤٦/] وأحمد في المسند [١/ ٢٨٥ رقم/ ٢٥٨٠/] وغيرهم وقد اختلف العلماء قديما حول حقيقة هذه الرؤية هل كانت في المنام أم اليقظة وقد أطال الحديث حولها الإمام ابن حجر العسقلاني في كتابه فتح الباري شرح صحيح البخاري [٨/ ٦٠٦ رقم/ ٤٥٧٤/ باب: سورة النجم] والحافظ الهيثمي في مجمع الزوائد [١/ ٧٨ باب: في الرؤية] فليرجع إليه.

(٢) رواه البيهقي في السنن الكبرى [١٠/ ١٩١ باب بيان مكارم الأخلاق ومعاليها]، ومالك في الموطأ [٢/ ٩٠٤ رقم/ ١٦٠٩/ باب: ما جاء في حسن الخلق]، وقال: (حسن الأخلاق) بدل (مكارم الخلاق) وأحمد في المسند [٢/ ٣٨١ رقم/ ٨٩٣٩/] وقال: (صالح الأخلاق) بدل (مكارم الأخلاق)، ورواه الحكيم الترمذي في نوادر الأصول [٤/ ٨٥] وقال: (محاسن الأخلاق) بدل (مكارم الأخلاق) وغيرهم بألفاظ مختلفة.

(٣) في المخطوط (أن يتخلفوا).

وَلَٰكِنِ ٱخۡتَلَفُواْ فَمِنۡهُم مَّنۡ ءَامَنَ وَمِنۡهُم مَّن كَفَرَۚ وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقۡتَتَلُواْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَفۡعَلُ مَا يُرِيدُ ﴿٢٥٣﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِمَّا رَزَقۡنَٰكُم مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَ يَوۡمٞ لَّا بَيۡعٞ فِيهِ وَلَا خُلَّةٞ وَلَا شَفَٰعَةٞۗ وَٱلۡكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٥٤﴾ ٱللَّهُ ....

﴿وَلَٰكِنِ ٱخۡتَلَفُواْ فَمِنۡهُم مَّنۡ ءَامَنَ﴾ بنبي بُعث إليهم ﴿وَمِنۡهُم مَّن كَفَرَۚ وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ﴾ هدايتهم ﴿مَا ٱقۡتَتَلُواْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ﴾ الفاعلَ المختارَ ﴿يَفۡعَلُ مَا يُرِيدُ ﴿٢٥٣﴾﴾ لا يُسأل عن فعله، إنه حكيم حميد.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ مقتضى إيمانكم قطع العلائق عما سوى الله الحق خصوصاً عن مزخرفات الدنيا المانعة من الميل الحقيقي ﴿أَنفِقُواْ مِمَّا رَزَقۡنَٰكُم﴾ ابتلاءً لكم ﴿مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَ يَوۡمٞ لَّا بَيۡعٞ فِيهِ﴾ ولا معاوضةٌ ولا تجارةٌ حتى يحصلوا فيه ما فوتم لأنفسكم ﴿وَلَا خُلَّةٞ﴾ حتى تتعاونوا بها وتستظهروا ﴿وَلَا شَفَٰعَةٞۗ﴾ مقبولةٌ من أحدٍ حتى تستشفعوا منه ﴿وَ﴾ بالجملة ﴿ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾ الساترون هوية الحق بهوياتهم الباطلة، المضيفون نعم الله إليها ﴿هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٥٤﴾﴾ المتجاوزون عن حدود الله عناداً واستكباراً، المعتقدون أصالتهم في الوجود واستقلالهم في الآثار الصادرة عنهم، مع كونهم هالكين مستهلكين في وجود الحق وهويته إذ:

﴿ٱللَّهُ﴾ أي الذات الثابت الوجود والكائنُ الحق الحقيقي بالحقيقة والتحقق والثبوت، إياك أن تقصد بالألفاظ محتملاتها، إذ الغرض من التعبير التنبيه، وإلا فكيف يعبر عنه وهو أجلّ من أن يحيط به العقول فيعبر

لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ۚ لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ ....

عنه أو يورد في قالب الألفاظ الذي ﴿ لَآ إِلَٰهَ ﴾ أي لا موجود، وإن شئت قل: لا وجود ولا تحقق ولا كون ولا ثبوت ﴿ إِلَّا هُوَ ﴾ هذا هو نهاية ما تنطق عنه ألسنة التعبير عن الذات الأحدية، إذ كل من التعبيرات والإدراكات والمكاشفات والمشاهدات، إنما ينتهي إليه، وبعد انتهائه إليه تكل وتجهل وتعمى وتدهش، ما للعباد ورب الأرباب حتى يتكلموا عنه سوى أن الحق سبحانه لما ظهر لهم بذاته جميع أوصافه وأسمائه، أنزل عليهم على قدر عقولهم المودعة فيهم كلاماً جامعاً نبههم على مبدئهم بعد توفيقٍ منه وجذبٍ من جانبه، إذ أسهلُ الطريق بالنسبة إلى المحجوبين هو الألفاظ المنبهة عن غيب الذات، إذ هو خالٍ عن المواد الغليظة والكدورات الكثيفة المزيحة لصفاء الوحدة، ومع ذلك أيضاً لا ينجو عن ثوب الكثرة.

والحاصل أن من اطلع باطلاع الله وإلهامه على أن فيه مبدأ التكاليف الذي هو العقل المتشعب من العلم الحضوري الحقي، فلا بد أن يصرفه امتثال ما أمر واجتناب ما نهى، ليكون في مرتبة العبودية مطمئناً راضياً مستدرجاً من الحياة الصورية إلى الحياة المعنوية التي هي[1] ﴿ ٱلْحَىُّ ﴾ الأزلي الأبدي السرمدي الدائم ﴿ ٱلْقَيُّومُ ﴾ الذي ﴿لَا تَأْخُذُهُۥ﴾ فتورٌ وفترةٌ وتعطيلٌ وغفلةٌ لا ﴿سِنَةٌ﴾ نعاسٌ لا ينتهي إلى حد النوم ﴿وَلَا نَوْمٌ﴾ يتجاوز عنها قدمها، مع أن المناسب للترقي تأخيرها اهتماماً بشأنها، لكونها أقربُ نسبة إلى الله سبحانه تعالى من النوم بالنسبة إلى أولي الأحلام السخيفة من المجسمة وغيرها

---

(١) في المخطوط (الذي هو).

لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ مَن ذَا ٱلَّذِي يَشۡفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦۚ يَعۡلَمُ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡۖ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيۡءٖ مِّنۡ عِلۡمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَۚ ....

هو الذي ﴿لَّهُۥ﴾ محافظةً ﴿مَا﴾ ظهر ﴿فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ أي سموات الأسماء والصفات الذاتية التي هي أولُ كثرة ظهرت من الغيب إلى الشهادة الإضافية ﴿وَمَا﴾ ظهر ﴿فِي ٱلۡأَرۡضِۗ﴾ أي طبيعة العدم التي هي آخر كثرةٍ عادت من الشهادة الحقيقية إلى الغيب الإضافي الذي هو قلب الإنسان، وهو البرزخ بين الغيب الحقيقي والشهادة الحقيقية ﴿مَن ذَا﴾ من الأنبياء والأولياء ﴿ٱلَّذِي يَشۡفَعُ﴾ يهدي ويرشد للناقصين المنحطين عن مرتبة الإنسانية ﴿عِندَهُۥٓ﴾ بعد ظهوره له بهو هو ﴿إِلَّا﴾ من يرشدهم ﴿بِإِذۡنِهِۦۚ﴾ بوحيه على قلبه ورقائق مناسباته التي لا يمكننا التعبير عنها الذي هو ﴿يَعۡلَمُ﴾ بعلمه الحضوري ﴿مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ﴾ حالةَ إذ ﴿وَمَا خَلۡفَهُمۡۖ﴾ أزلاً وأبداً ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيۡءٖ﴾ قليلٍ ﴿مِّنۡ عِلۡمِهِۦٓ﴾ الحضوري ﴿إِلَّا بِمَا شَآءَۚ﴾ وتعلق إرادته ومشيئته عليه.

من هذا يتفطن العارف أن العالم ما هو إلا مظاهر ذات الحق وأظلال أسمائه وآثار أوصافه، إذ الموجود هو، والوجود هو، والحي هو، والقيوم هو، والرقيب المحافظ الملازم على محافظة ما ظهر في الأولى والأخرى هو، والعالم المدبر بالحضور مصالح جميع ما ظهر وبطن هو، والعلم والإدراكات الصادرة من المظاهر هو على العلم الحضوري.

وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا ....

فلم يبق للعالَم إلا مناسبة الظلية والانعكاس والمظهرية إذ ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ﴾ مجلاه ومظاهره ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ المذكورة ﴿وَٱلْأَرْضَ﴾ المذكورة ﴿وَلَا يَـُٔودُهُۥ﴾ يثقله ﴿حِفْظُهُمَا﴾ وإن كانت سموات الأسماء وأرض الطبيعة غير متناهية، بل وإن فرضت بأضعافها وآلافها أموراً متعددة غير متناهية لا يثقله، إذ كل من تحقق بمرتبة قلب الإنسان المنعكس من الذات الأحدي المائل نحوها بالميل الحبي الشوقي المتلذذ دائماً بوجوده وحضوره، تحقق عنده من الوسعة ما لا يمكن التعبير عنه مطلقاً.

كما سمح سلطان العارفين وبرهان الواصلين عمَّت بركات أنفاسه الشريفة على الفقراء المتوجهين نحو فضاء التوحيد حيث قال[1]: «لو أن العرش وما حواه مائة ألف ألف مرة في زاويةٍ من زوايا قلب العارف، ما أحسّ».

جاء بعده رأس الموحدين ورئيس أرباب التحقيق واليقين محي الملة والدين الذي هيَّج بحر التوحيد تهييجاً شديداً إلى حيث يترشح من تيار قلبه الزخار رشحات المعارف والحقائق على قلوب أولي العزائم الصحيحة المقتفية إثر طريقه قدس الله روحه وأرواحهم وشكر سعيهم وسعيه حيث قال: هذا وسع أبي يزيد في عالم الأجسام، بل أقول: «لو أن ما لا يتناهى وجوده قُدِّر انتهاء وجوده مع العين الموجدة له في زاويةٍ من زوايا قلب العارف، ما أحس بذلك في علمه»[2]. انتهى.

(١) الشيخ معروف الكرخي.

(٢) الشيخ جنيد البغدادي.

للطبراني من حديث أبي عتبة الخولاني يرفعه إلى النبي قال إن لله آنية من أهل الأرض وآنية ربكم قلوب عباده الصالحين الحديث فيه بقية بن الوليد وهو مدلس لكنه صرح فيه بالتحديث.

وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ ﴿٢٥٥﴾ لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ ۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَىِّ ۚ فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَا ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٥٦﴾ ....

أقول: والحديث القدسي مغنٍ عن أمثالهم إن قوله سبحانه: «وَسِعَنِيْ قَلْبُ عَبْدِي المُؤْمِن»(١) وسعةً عجز عنها التعبير مطلقاً ﴿وَ﴾ بالجملة ما لكم أيها العباد ومعرفة الذات غير هذا ﴿هُوَ ٱلْعَلِىُّ﴾ بذاته تعالى عن أن تدركه عقول العقلاء وتنزه عن أن تصفه ألسنة الفصحاء ﴿ٱلْعَظِيمُ ﴿٢٥٥﴾﴾ بآثار أسمائه وصفاته الممتدة على صفحات الإعدام وهو في ذاته على حرافة وحدته، هو ولا شيء سواه.

﴿لَآ إِكْرَاهَ﴾ أي لا جبر ولا تهديد ولا إلجاء ﴿فِى ٱلدِّينِ﴾ أي في الانقياد بدين الإسلام والإطاعة له بعد ما ظهر الحق إذ ﴿قَد تَّبَيَّنَ﴾ وتميز ﴿ٱلرُّشْدُ﴾ والهداية ﴿مِنَ ٱلْغَىِّ﴾ والضلالة ﴿فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ﴾ التي هي النفس الأمارة المضِلَّة عن طريق الحق ﴿وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ﴾ الهادي إلى سواء السبيل ﴿فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ﴾ بل تمسك وتشبث ﴿بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ﴾ التي هي حبل الله الممدود من أزل الذات إلى أبد الأسماء والصفات ﴿لَا ٱنفِصَامَ﴾ ولا انقطاع ﴿لَهَا﴾ أصلاً ﴿وَٱللَّهُ﴾ الهادي للكل ﴿سَمِيعٌ﴾ بذاته لأقواله ﴿عَلِيمٌ ﴿٢٥٦﴾﴾ بحِكمه ومصالحه المودعة فيها، فانظروا ما أنتم أيها الهلكى.

---

(١) قال الحافظ العراقي في تخريج أحاديث الإحياء [٣/ ١٥ / بيان مثل القلب بالإضافة إلى العلوم] لم أر له أصلاً وفي حديث
للطبراني من حديث أبي عتبة الخولاني يرفعه إلى النبي قال إن لله آنية من أهل الأرض وآنية ربكم قلوب عباده الصالحين الحديث فيه بقية بن الوليد وهو مدلس لكنه صرح فيه بالتحديث.

﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِۗ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٥٧﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِۦمَ فِى رَبِّهِۦٓ أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَٰهِۦمُ رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ﴾..........................

﴿ٱللَّهُ﴾ أي الذاتُ المستجمعُ لجميع الأسماء والصفات ﴿وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ بالله يربيهم حسب شموله وإحاطته ﴿يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ﴾ ظلمة الطبيعة وظلمة الإمكان وظلمة الإضافة ﴿إِلَى ٱلنُّورِۖ﴾ صفاءِ الوحدة الخالصة عن رَين الإضافة الخالية عن شين الكثرة ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾ بالله ﴿أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ﴾ التي هي عَلَم الجنس للنفوس البهيمية التي هي الطواغيت المضلة عن الهدي الحقيقي ﴿يُخْرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ﴾ أي المرآة الصقيلة المجلوة القابلة لأن يتراءى فيها جميع ما في العالم ﴿إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِۗ﴾ ظلمة الكثرة وظلمة التعيين وظلمة الغفلة ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ البعداء المطرودون عن ساحة الوحدة ﴿أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِۖ﴾ أي نار الخذلان وسعير الإمكان ﴿هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٥٧﴾﴾ دائمون إلى ما شاء الله لا حول ولا قوة إلا بالله.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى﴾ الكافر العابد للطاغوت وهو نمرود اللعين المعاند ﴿ٱلَّذِى حَآجَّ﴾ جادل مكابرةً مع ﴿إِبْرَٰهِۦمَ﴾ صلوات الرحمن عليه ﴿فِى﴾ شأن ﴿رَبِّهِۦٓ﴾ حين ﴿أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ﴾ وأبطره عليه وغيَّره بملكه وذلك وقت ﴿إِذْ قَالَ إِبْرَٰهِۦمُ﴾ إلزاماً له حين أخرجه من السجن فسأل عن ربه الذي يدَّعي الدعوة إليه: ﴿رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ﴾ يُوجِدُ من العدم

وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِۦ وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِي بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِي كَفَرَ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٥٨﴾ أَوْ كَٱلَّذِي مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحْيِۦ هَٰذِهِ ٱللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ ٱللَّهُ مِاْئَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُۥ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ

﴿وَيُمِيتُ﴾ يرد إليه بعد إيجاده ﴿قَالَ﴾ مكابرة ومجادلة: ﴿أَنَا﴾ أيضاً ﴿أُحْيِۦ وَأُمِيتُ﴾ بالعفو والقصاص ﴿قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ﴾ تصريحاً لإلزامه من غير التفات إلى كلام: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ﴾ القادر على ما يشاء ﴿يَأْتِي بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ﴾ أيها المعاند المكابر ﴿بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِي كَفَرَ﴾ بالله بالمعارضة معه فصار مبهوتاً متحيراً ﴿وَٱللَّهُ﴾ الهادي للكل ﴿لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٥٨﴾﴾ المجاوزين عن حقوق الله وآداب العبودية معه.

﴿أَوْ كَٱلَّذِي﴾ أي ألم تر إلى الشخص الذي ﴿مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ﴾ هي البيت المقدس في زمانِ خربها بُخْتنَصَّر فرآها ﴿وَهِيَ خَاوِيَةٌ﴾ ساقطةٌ ﴿عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ﴾ محاجاً مجادلاً مبعداً للحشر والنشر: ﴿أَنَّىٰ يُحْيِۦ هَٰذِهِ ٱللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ أي كيف يقدر على إحياء أهلها وهم قد انقرضوا واندرسوا إلى حيث لم يبق منهم أثر ﴿فَأَمَاتَهُ ٱللَّهُ﴾ فجأة إظهاراً لقدرته وتبييناً لحجته وألبثه ﴿مِاْئَةَ عَامٍ﴾ ميتاً كالأموات الأخر ﴿ثُمَّ بَعَثَهُۥ﴾ إحياءً بعد تلك المدة، ثم سأله هاتف بأن ﴿قَالَ كَمْ لَبِثْتَ﴾ في هذا المكان ﴿قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا﴾ والتفت إلى الشمس فرآها باقيةً قال ﴿أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ﴾ السائل: ما تعرف مدة لبثك

بَل لَّبِثْتَ مِاْئَةَ عَامٍ فَانظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ وَانظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ ءَايَةً لِّلنَّاسِ وَانظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٥٩﴾ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ الْمَوْتَىٰ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن

﴿بَل لَّبِثْتَ مِاْئَةَ عَامٍ فَانظُرْ﴾ أيها المبعد للحشر الجسماني بنظر العبرة إلى كمال قدرة الله ﴿إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ﴾ لم يتغير مع سرعة تغييره ﴿وَانظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ﴾ كيف تفرقت عظامه وتفتت أجزاؤه مع بطء تغيره وبعد ما نظرتَ إليهما تذكر قولك حين مرورك على القرية: أنى يحيي هذه الله بعد موتها؟، فأُلزم، ثم قيل له من قبل الحق: ﴿وَ﴾ إنما فعلنا ذلك معك أيها المبعد للحشر الجسماني ﴿لِنَجْعَلَكَ ءَايَةً﴾ ودليلاً وحجةً ﴿لِّلنَّاسِ﴾ القائلين بالحشر الجسماني على المنكرين المبعدين لها ﴿وَ﴾ بعدما تحققت حالك ﴿انْظُرْ﴾ بنظرة العبرة ﴿إِلَى الْعِظَامِ﴾ الرفاتِ التي تعجبت من كيفية إحيائها وأنكرت عليها ﴿كَيْفَ نُنشِزُهَا﴾ نركب بعضها مع بعضٍ ﴿ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا﴾ بعد تتميم تركيب العظام ﴿فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ﴾ أمر الحشر أُلزم وسلم و﴿قَالَ أَعْلَمُ﴾ يقيناً ﴿أَنَّ اللَّهَ﴾ القادرَ ﴿عَلَىٰ﴾ إحياء ﴿كُلِّ شَيْءٍ﴾ مبدئاً مبدعاً ﴿قَدِيرٌ ﴿٢٥٩﴾﴾ على إحيائه معيداً.

﴿وَ﴾ اذكر يا أكمل الرسل وقت ﴿إِذْ قَالَ﴾ أبوك ﴿إِبْرَاهِيمُ﴾ صلوات الرحمن عليه حين أراد أن يتدرج ويرتقي من العلم إلى العين: ﴿رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ الْمَوْتَىٰ﴾ قال له ربه تنشيطاً له على الترقي: ﴿قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن﴾

قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي ۖ قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا ۚ وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٦٠﴾

تذعن وتوقن بأني قادرٌ على الإعادة كما أني قادر على الإيجاد الإبداعي ﴿قَالَ بَلَىٰ﴾ آمنت يا ربي بأنك على كل شيء قدير ﴿وَلَٰكِن﴾ سألتك المعاينة ﴿لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾ بها ويزيد بصيرتي بسببها ويزداد حيرتي منها ﴿قَالَ﴾ سبحانه: ﴿فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ﴾ طاووس مزخرفات الدنيا الدنية، وديك شهواتها، وغراب الآمال الطويلة فيها، وحمام الأهواء الباطلة المتعلقة بها، وبعد ما أخذتها ﴿فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ﴾ أي أمسكهن [في الأصل: أملهن وقد صحح إلى أمسكهن، وفي نسخة أخرى: أملهن] اضممهن إلى نفسك بحيث تجد جميع أجزائك [في الهامش لعله أجزائها، وفي نسخة أخرى: جميع أجزائهن] في نفسك على التفصيل بلا فوت جزءٍ ثم جزِّئهن أجزاء هوائية هبائية ﴿ثُمَّ اجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ﴾ من الجبال المشهورة لك في نفسك ﴿مِّنْهُنَّ جُزْءًا﴾ إلى حيث تخيلت فناءَها بالمرة، واطمأننت عن شرورها بالكلية ﴿ثُمَّ ادْعُهُنَّ﴾ فارضاً وجودهن مستحيلاً إيجادهن ﴿يَأْتِينَكَ﴾ بأجمعهن ﴿سَعْيًا﴾ ساعياتٍ مسرعاتٍ بلا فوات جزءٍ ونقصان شيءٍ ﴿وَ﴾ بعدما تحققت بها واستكشفت عنها ﴿اعْلَمْ﴾ يقيناً بل عياناً ﴿أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ﴾ غالبٌ قادرٌ لكل ما أراد ﴿حَكِيمٌ ﴿٢٦٠﴾﴾ ذو حكمةٍ بالغة في كل ما يفعل ويريد.

وإنكار الحشر والنشر إنما نشأ من العقل الجزئي، المشوب بالوهم والخيال القاصر عن إدراك رقائق الارتباطات الواقعة بين الحق وأجزاء العالم المستمدة منه، وإنما متجددة مبتدئة معادة، وإلا فمن خَلَص عقله المودع فيه

مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّاْئَةُ حَبَّةٍۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦١﴾ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَآ أَنفَقُواْ مَنًّا وَلَآ أَذًىۙ لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ ....

عن مزاحمة الأوهام والخيالات، واتصل بالعقل الكل المدرك بالحضور جميع ما كان ويكون من المكونات، وتأمل في عجائب المصنوعات وغرائب المبدعات والمخترعات الواقعة في الآيات التي هو فيها، انكشف له بلا سترةٍ وحجابٍ أمرُ الحشر والنشر وجميعُ الأمور المتعلقة بالنشأة الأولى والأخرى، لا ينكر شيئاً منها، بل يؤمن ويوقن بجميعها.

ربنا آتنا من لدنك رحمة وهيء لنا من أمرنا رشداً.

﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ﴾ المنسوبة إليهم بنسبةٍ شرعيةٍ ﴿فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ طلباً لمرضاته ﴿كَمَثَلِ﴾ باذرِ ﴿حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّاْئَةُ حَبَّةٍۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ﴾ حسب قدرته الكاملة تلك المضاعفة بأضعافٍ غير متناهية ﴿لِمَن يَشَآءُۗ﴾ من خلص عباده بحسب إخلاصهم في نياتهم وإخراجهم نفوسهم عن البين وتفويضهم الأمور كلها إلى الله أصالةً ﴿وَٱللَّهُ﴾ المتجلي في الآفاق والأنفس ﴿وَٰسِعٌ﴾ لا ضيق في فضله وإحسانه ﴿عَلِيمٌ ﴿٢٦١﴾﴾ بحالِ من توجه نحوه وأنفق لرضاه مخلصاً، لا يعزب عن علمه شيء.

وبشر يا أكمل الرسل ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ معتقدين أنهم مستخلَفون عن الله فيها لا مالكون لها ﴿ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَآ أَنفَقُواْ مَنًّا وَلَآ أَذًىۙ﴾ لاعتقادهم الاستخلاف والنيابة ﴿لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ المستخلِف

وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٦٢﴾ ۞ قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَآ أَذًى ۗ وَٱللَّهُ غَنِىٌّ حَلِيمٌ ﴿٢٦٣﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُبْطِلُوا۟ صَدَقَـٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ كَٱلَّذِى يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ ۖ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُۥ وَابِلٌ ....

لهم لا يدرك مقداره وكيفيته أحدٌ من خلقه ﴿وَ﴾ بعدما أنفقوا على الوجه المذكور ﴿لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ من الحساب والعقاب الأخروي ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٦٢﴾﴾ من فوات الأجرة، بل لهم عند ربهم ما لا عينٌ رأت ولا أذنٌ سمعت ولا خطرَ على قلب بشر.

﴿۞ قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ﴾ ردٌ جميل للسائل ناشئ من حسن الخلق ﴿وَمَغْفِرَةٌ﴾ من الله بعد رده متحسراً على نعمة الإنفاق ﴿خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَآ أَذًى﴾ إذ بذلك القول يرجى الثواب وبتلك الصدقة يستحق العقاب ﴿وَٱللَّهُ غَنِىٌّ﴾ عن إنفاقكم بالمن والأذى للفقراء الذين هم من عيال الله ﴿حَلِيمٌ ﴿٢٦٣﴾﴾ لا يعجل بمؤاخذة من يمن ويؤذي.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ بالله الغني الحليم مقتضى إيمانكم أن ﴿لَا تُبْطِلُوا۟ صَدَقَـٰتِكُم﴾ عند الله ﴿بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ﴾ حتى لا تعاقبوا عليها بأشد العقاب ﴿كَـ﴾ الكافر ﴿ٱلَّذِى يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ﴾ ﴿وَ﴾ الحال أنه ﴿لَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ﴾ المعدّ لجزاء الأعمال ﴿فَمَثَلُهُۥ﴾ أي مثل المرائي في إنفاقه في يوم الجزاء ﴿كَمَثَلِ صَفْوَانٍ﴾ حجرٍ أملسٍ ﴿عَلَيْهِ تُرَابٌ﴾ اجتمع من هبوب الرياح فطرح فيه البذور لتنبت وتثمر ﴿فَأَصَابَهُۥ وَابِلٌ﴾ مطرٌ عظيمُ القطر

فَتَرَكَهُۥ صَلۡدٗاۖ لَّا يَقۡدِرُونَ عَلَىٰ شَيۡءٖ مِّمَّا كَسَبُواْۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٢٦٤﴾ وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُمُ ٱبۡتِغَآءَ مَرۡضَاتِ ٱللَّهِ وَتَثۡبِيتٗا مِّنۡ أَنفُسِهِمۡ كَمَثَلِ جَنَّةِۭ بِرَبۡوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٞ فَـَٔاتَتۡ أُكُلَهَا ضِعۡفَيۡنِ فَإِن لَّمۡ يُصِبۡهَا وَابِلٞ فَطَلّٞۗ ....

﴿فَتَرَكَهُۥ صَلۡدٗاۖ﴾ أملسَ كما كان وذهب بالبذور والتراب إلى حيث ﴿لَّا يَقۡدِرُونَ عَلَىٰ﴾ تحصيل ﴿شَيۡءٖ مِّمَّا كَسَبُواْۗ﴾ وبذروا عليه ﴿وَٱللَّهُ﴾ الهادي للكل ﴿لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٢٦٤﴾﴾ المبطلين بالمن والأذى حكمةَ الله المتعلقة لتربية الفقراء وتقوية العجز والضعف، فلا بد للمؤمن أن يجتنب عن أمثاله.

﴿وَ﴾ بعد ما مثّل سبحانه إنفاقَ المرائي المبطل مثّل أيضاً إنفاقَ المؤمن المحق بقوله: ﴿مَثَلُ﴾ المؤمنين ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُمُ﴾ في سبيل الله ﴿ٱبۡتِغَآءَ مَرۡضَاتِ ٱللَّهِ﴾ لا لعوضٍ ولا لغرض فضلاً عن الرياء وعن المن والأذى ﴿وَتَثۡبِيتٗا﴾ لهم ناشئاً ﴿مِّنۡ أَنفُسِهِمۡ﴾ ليثبتوا على ما أمرهم الله به واستخلفهم فيه بقوله: أنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه ﴿كَمَثَلِ جَنَّةِۭ﴾ بستانٍ واقع ﴿بِرَبۡوَةٍ﴾ موضعٍ مرتفعٍ من الأرض ﴿أَصَابَهَا وَابِلٞ﴾ مطرٌ عظيم القطر ﴿فَـَٔاتَتۡ أُكُلَهَا﴾ ثمرتها ﴿ضِعۡفَيۡنِ﴾ مما في الأرض المنخفضة بإصابة الوابل ﴿فَإِن لَّمۡ يُصِبۡهَا وَابِلٞ فَطَلّٞۗ﴾ أي إن لم يصبها وابلٌ يكفي في إضعاف ثمرتها.

طل: رطوبةٌ رقيقة تنزل على الأرض في المواضع المرتفعة؛ لصفاء هوائها عن جميع الكدورات كأراضي بيت المقدس شرَّفها الله.

وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٦٥﴾ أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُۥ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ لَهُۥ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَأَصَابَهُ ٱلْكِبَرُ وَلَهُۥ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَآءُ فَأَصَابَهَآ إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَٱحْتَرَقَتْ ....

والمعنى: إن إنفاق المؤمن المخلص في الإنفاق، الطالبِ لرضاء الحق، المائل عن المن والرياء، الراغبِ لامتثال الأمر وتثبيت النفس وتقريره على أمر تلك الجنة بل هي الجنة الحقيقية المثمرة للفواضل والإحسانات التي لا يدرك نموها ﴿وَٱللَّهُ﴾ المحيط بجميع أعمالكم ﴿بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ من الإخلاص والرياء والمن والأذى ﴿بَصِيرٌ ﴿٢٦٥﴾﴾ لا يغيب شيء عن بصارته وحضوره.

ثم حث سبحانه عموم عباده على الإخلاص ورغّبهم عن الرياء والمن والأذى على أبلغ وجه وآكده كأنه استدل عليه فقال:

﴿أَيَوَدُّ﴾ ويحب ﴿أَحَدُكُمْ﴾ أيها المؤمنون المنتشرون في فضاء الدنيا ﴿أَن تَكُونَ لَهُۥ جَنَّةٌ﴾ مملوءةٌ ﴿مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ بل ﴿لَهُۥ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ المتنوعة المتلونة ﴿وَ﴾ الحال أنه ﴿أَصَابَهُ ٱلْكِبَرُ وَلَهُۥ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَآءُ﴾ لا يقدرون على الكسب ﴿فَأَصَابَهَآ﴾ أي الجنة ﴿إِعْصَارٌ﴾ أي ريحٌ عاصفٌ تستدير عند هبوبها فيرى لغبرتها مثل العمود الممدود نحو السماء ﴿فِيهِ نَارٌ﴾ متكونةٌ من الأبخرة والأدخنة المحتبسة فيها، والتقطها من شعل النار فسقطت النار فيها ﴿فَٱحْتَرَقَتْ﴾ بالمرة ولم يُنتفع منها أصلاً، كيف يُحْرم هو؟!

وحرمانكم في النشأة الأخرى أيها المراؤون أشد من حرمانه؛ لإحراقكم

كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٦٦﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّآ أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ ۖ وَلَا تَيَمَّمُواْ ٱلْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ ....

جنة الأعمال الصالحة المشتملة على نخيل التوحيد، وأعناب التسليم تجري من تحتها أنهار المعارف والحقائق المنتشئة من النفحات الإلهية المثمرة ثمرات الإنفاق والصدقات، والمتشعبة من الرضا المشعر بمقام العبودية، المسقط للإضافات كلها بإعصار الرياء والمن والأذى، المشتمل على نيران الأنانية والغيرية، المشعرة بعدم التحقق بمقام الرضا والتسليم، فاحترقت بالمرة.

والحال أنكم مبطلون على الكسب، وقواكم الكاسبة قد رجعت إلى بدء، رجوع القهرى[1] ضعفاء مطلعين مثلكم ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٦٦﴾﴾ فيها وتدخرون الزاد ليومٍ لا كسب فيه[2] ولا مكسب، ولا زرع ولا حصاد.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ﴾ لرضاء الله ﴿مِن طَيِّبَٰتِ﴾ جيداتِ ﴿مَا كَسَبْتُمْ﴾ أي ما كسبتم في النشأة الأولى بأيديكم بالتجارة والصناعة ﴿وَمِمَّآ أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ ۖ﴾ بلا عملٍ منكم من الحبوب والثمار والمعدنيات وغير ذلك ﴿وَلَا تَيَمَّمُواْ﴾ أي لا تقصدوا ﴿ٱلْخَبِيثَ﴾ الرديء ﴿مِنْهُ﴾ أي مما كسبتم، ومما أخرجنا لكم حال كونكم ﴿تُنفِقُونَ﴾ للفقراء

---

(١) في المخطوط (قد رجع إلى بدءة رجوع القهقرى).

(٢) في المخطوط (ليوم لا كسب فيها).

وَلَسْتُم بِـَٔاخِذِيهِ إِلَّآ أَن تُغْمِضُواْ فِيهِۚ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴿٢٦٧﴾ ٱلشَّيْطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِٱلْفَحْشَآءِۖ وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًاۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦٨﴾ يُؤْتِي ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُۚ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًاۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٦٩﴾ ....

﴿وَ﴾ الحال أنكم ﴿لَسْتُم بِـَٔاخِذِيهِ﴾ من الغير ﴿إِلَّآ أَن تُغْمِضُواْ فِيهِۚ﴾ تسامحوا في أخذه ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ﴾ المدبرَ لمصالح عباده ﴿غَنِيٌّ﴾ عن إنفاقكم وتصدقكم، وإنما يأمركم به لانتفاعكم إذ هو ﴿حَمِيدٌ ﴿٢٦٧﴾﴾ شكورٌ، فما أنتم وإنفاقكم [وفي الهامش: فما أنتم].

﴿ٱلشَّيْطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ﴾ في الإنفاق ويخوفكم منه ﴿وَيَأْمُرُكُم بِٱلْفَحْشَآءِۖ﴾ أي البخل المتجاوز عن الحدود ﴿وَٱللَّهُ يَعِدُكُم﴾ فيه ﴿مَّغْفِرَةً﴾ لذنوبكم ناشئةً ﴿مِّنْهُ وَفَضْلًاۗ﴾ زائداً على وجه التبرع والإكرام خلفاً لما أنفقتم لطلب رضاه ﴿وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ﴾ لا ضيقَ في فضله وإحسانه ﴿عَلِيمٌ ﴿٢٦٨﴾﴾ بنية من أنفق.

﴿يُؤْتِي ٱلْحِكْمَةَ﴾ أي سرائر جميع الأعمال المأمورة لعباده ﴿مَن يَشَآءُۚ﴾ بفضله وجوده ﴿وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ﴾ من العباد ﴿فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًاۗ﴾ لا يحيط بكثرته إلا هو ﴿وَمَا يَذَّكَّرُ﴾ أي ما يتعظ ويتذكر بهذه الآية ﴿إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٦٩﴾﴾ الواصلون إلى لبّ الأمور، المائلون عن قشورها، المتوجهون إلى الله بالعزائم الصحيحة، المعرضون عن الرخص المؤدية إلى الجرائم.

وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن نَّفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُم مِّن نَّذْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُهُۥ ۗ وَمَا لِلظَّـٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿٢٧٠﴾ إِن تُبْدُوا۟ ٱلصَّدَقَـٰتِ فَنِعِمَّا هِىَ ۖ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا ٱلْفُقَرَآءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۚ وَيُكَفِّرُ عَنكُم مِّن سَيِّـَٔاتِكُمْ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٧١﴾ ....

﴿وَ﴾ اعلموا أيها المؤمنون أن ﴿مَآ أَنفَقْتُم مِّن نَّفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُم مِّن نَّذْرٍ﴾ يؤدي إلى الإنفاق في سبيل الله ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ﴾ الناظرَ لعباده في كل الأمور ﴿يَعْلَمُهُۥ ۗ﴾ بعلمه الحضوري، ويجازي عليه بأضعافه ﴿وَمَا لِلظَّـٰلِمِينَ﴾ المجاوزين عن حدوده، بمتابعة الشيطان المضل عن سبيل الله ﴿مِنْ أَنصَارٍ ﴿٢٧٠﴾﴾ ينصرهم عند انتقام الله إياهم على ما صدر عنهم من الفسوق والعصيان، والتبذيرات الواقعة فيها.

﴿إِن تُبْدُوا۟ ٱلصَّدَقَـٰتِ﴾ أيها المؤمنون وتظهروها ﴿فَنِعِمَّا هِىَ ۖ﴾ أي نِعْمَ شيئاً إبداؤها عند الله وعند المؤمنين ﴿وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا﴾ أي تعطوها خفيةً من الناس ﴿ٱلْفُقَرَآءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۚ﴾ من إبدائها لعرائها عن وصمة الرياء، وعن ثوب المن والأذى، وعن لحوق العار على الفقراء ﴿وَيُكَفِّرُ عَنكُم مِّن سَيِّـَٔاتِكُمْ ۗ﴾ لستركم ذلة الفقراء الذين يذلون عند أخذها منكم ﴿وَٱللَّهُ﴾ المجازي لكم ﴿بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ من الخيرات ﴿خَبِيرٌ ﴿٢٧١﴾﴾ يكفيكم خبرته بمجازاتكم عليه.

ثم قال سبحانه مخاطباً لنبيه كلاماً خالياً عن السترة ناشئاً عن عين الحكمة:

۞ لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَىٰهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ۗ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَلِأَنفُسِكُمْ ۚ وَمَا تُنفِقُونَ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ ٱللَّهِ ۚ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴿٢٧٢﴾ ....

﴿ ۞ لَّيْسَ عَلَيْكَ ﴾ يا أكمل الرسل ﴿هُدَىٰهُمْ﴾ أي أن تجعلهم مهديين إلى طريق الحق، بل ما عليك إلا الإرشاد والتنبيه على مسالك التوحيد، والترغيب على محاسن الأوامر المتعلقة به، والترهيب عن مقابح المناهي المنافية له ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ﴾ الهادي للكل ﴿يَهْدِى﴾ بتوفيقه ﴿مَن يَشَآءُ﴾ من عباده إلى صراطه لتوصلهم إلى بابه ﴿وَ﴾ قل لهم يا أكمل الرسل نيابةً عنا: ﴿مَا تُنفِقُوا۟ مِنْ خَيْرٍ﴾ صدقةٍ أو نذرٍ ﴿فَلِأَنفُسِكُمْ﴾ أي فهو لكم ونفعه عائد إليكم فلا تبطلوا نفعه بالمن والأذى ولا تنفقوا الرديء الخبيث لئلا تنقصوا من نفعكم وانتفاعكم ﴿وَ﴾ قل لهم أيضاً: خير إنفاقكم أنكم ﴿ مَا تُنفِقُونَ ﴾ شيئاً ﴿ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ ٱللَّهِ ﴾ طالباً لرضاه، شاكراً لنعمه، عارياً عما يشغلكم عن الحق، مائلاً عن مطلق الجزاء، إذ لا جزاءَ أعظم من مطالعة وجهه الكريم ﴿وَ﴾ اعلموا أن ﴿مَا تُنفِقُوا۟ مِنْ خَيْرٍ﴾ على هذا الوجه ﴿ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ ﴾ جزاؤه فوق ما يصفه ألسنة مصنوعاته أو يدرك عقولهم ﴿ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴿٢٧٢﴾ ﴾ لا تنقصون وتخسرون في هذه المعاملة مع الله.

ومتى عرفتم خير الإنفاق، فعليكم أن تعرفوا خير من ينفق إليه فاجعلوا إنفاقكم:

﴿لِلْفُقَرَآءِ ٱلَّذِينَ أُحْصِرُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِى ٱلْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ ٱلْجَاهِلُ أَغْنِيَآءَ مِنَ ٱلتَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُم بِسِيمَٰهُمْ لَا يَسْـَٔلُونَ ٱلنَّاسَ إِلْحَافًا ۗ وَمَا تُنفِقُواْ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ﴿٢٧٣﴾﴾ ....

﴿لِلْفُقَرَآءِ﴾ العرفاء الأمناء ﴿ٱلَّذِينَ أُحْصِرُواْ﴾ تمكنوا واستغرقوا وتحيروا ﴿فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ مشمِّرين للفناء فيه بحيث ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ من غاية استغراقهم في مطالعة جماله ﴿ضَرْبًا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ لطلب الرزق الصوري ومن غاية استغنائهم عن الدنيا وما فيها ﴿يَحْسَبُهُمُ ٱلْجَاهِلُ﴾ بحالهم ﴿أَغْنِيَآءَ مِنَ﴾ أجل ﴿ٱلتَّعَفُّفِ﴾ المرتكز في جِبلتهم ﴿تَعْرِفُهُم﴾ وتنتبه على حالهم أيها المؤمنون المنفق لرضاء الله ﴿بِسِيمَٰهُمْ﴾ من ضعف القوى ورثاثة الحال وهم من غاية رجوعهم وركونهم عن الدنيا نحو المولى ﴿لَا يَسْـَٔلُونَ ٱلنَّاسَ إِلْحَافًا﴾ إلماماً متمنين راجين بما عندهم، بل رزقهم الله المتجلي في الآفاق يرزقهم من حيث لا يحتسب.

وبعدما سمعتم أوصاف هؤلاء الوالهين في مطالعة جمال الله وجلاله، بادروا إلى تقوية مزاجهم ليسعدوا بالسعادة العظمى التي لا مرتبة أعلى منه ﴿وَ﴾ اعلموا أن ﴿مَا تُنفِقُواْ مِنْ خَيْرٍ﴾ خصوصاً لهؤلاء ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ﴾ بذاته ﴿عَلِيمٌ ﴿٢٧٣﴾﴾ يجازيكم بمقتضى علمه.

ربنا اجعلنا من خدامهم وتراب أقدامهم.

ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٧٤﴾ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ ٱلرِّبَوٰاْ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِى يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَٰنُ مِنَ ٱلْمَسِّ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْبَيْعُ مِثْلُ ٱلرِّبَوٰاْ ۗ وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰاْ ۚ ....

بشِّرْ يا أكمل الرسل:

﴿ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُم ﴾ المنسوبة إليهم ﴿ بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً ﴾ أي في جميع أوقاتهم وحالاتهم، طالباً لرضاه، هارباً عما شغل من الحق وابتلاه ﴿فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ ﴾ بقدر قابليتهم واستعدادهم ﴿وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ ﴾ من التضييع والإحباط ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٧٤﴾ ﴾ من سوء المنقلب والمآب.

بَشِّرْ أيضاً يا أكمل الرسل ﴿ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ ٱلرِّبَوٰاْ ﴾ وهو تنمية المال بأخس الطرق والإضرار بأخيه المسلم، وإتلاف ماله مجاناً بلا رعاية غبطة بأنهم ﴿لَا يَقُومُونَ ﴾ في البعث ﴿ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ﴾ الشخص ﴿ٱلَّذِى يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَٰنُ مِنَ ٱلْمَسِّ ۚ ﴾ في النوم، كيف يقوم صرعى حيارى، مضطرباً منهتكاً مشوشاً هائلاً بلا سبب، ﴿ذَٰلِكَ﴾ الأمر الفظيع الهائل ﴿ بِأَنَّهُمْ قَالُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْبَيْعُ﴾ في التنمية ﴿مِثْلُ ٱلرِّبَوٰاْ ۗ ﴾ وهم يسوون بين البيع والربا ﴿وَ﴾ الحال أنه ﴿أَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ﴾ لأن غبطة المشتري مرعيٌّ فيه حالاً ومآلاً وهو يرضاه بلا اضطرار، بخلاف الربا فإن غبطة الآخذ غير مرعية فيه، بل إنما ارتكبه اضطراراً ﴿وَ﴾ لذلك ﴿حَرَّمَ﴾ الله العليم الحكيم ﴿ ٱلرِّبَوٰاْ ۚ ﴾ لئلا يتلف أموال

فَمَن جَآءَهُۥ مَوۡعِظَةٞ مِّن رَّبِّهِۦ فَٱنتَهَىٰ فَلَهُۥ مَا سَلَفَ وَأَمۡرُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِۖ وَمَنۡ عَادَ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٧٥﴾ يَمۡحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰاْ وَيُرۡبِي ٱلصَّدَقَٰتِۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ ﴿٢٧٦﴾ ....

المسلمين مجاناً بلا عوضٍ ولا رضاً ﴿فَمَن جَآءَهُۥ﴾ بَلغه ﴿مَوۡعِظَةٞ﴾ قبل ﴿مِّن رَّبِّهِۦ﴾ في أثناء ما يربو به ﴿فَٱنتَهَىٰ﴾ نفسه بإسماعها في الربا ﴿فَلَهُۥ مَا سَلَفَ﴾ أخذَ وقَبل الموعظة لا يسترده الشرع ﴿وَأَمۡرُهُۥٓ﴾ مفوض ﴿إِلَى ٱللَّهِۖ﴾ يجازيه على الانتهاء إن كان من أهل القبول والإنابة، ويعاقَب عليها إن كان من أهل التزلزل والاضطراب ﴿وَمَنۡ عَادَ﴾ بعدما سمع وانتهى ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٧٥﴾﴾ دائمون مستمرون ما شاء الله.

ومن سنته سبحانه أنه ﴿يَمۡحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰاْ﴾ أي يذهب بركته ويهلك المال الذي يدخل هو فيه ﴿وَيُرۡبِي﴾ يزيد وينمي المال الذي يخرج منه ﴿ٱلصَّدَقَٰتِۗ﴾ ويضاعف ثوابها ويبارك على صاحبها، كما أشار إليه ﷺ بقوله: «مَا نَقَصَتْ زَكَاةٌ مِنْ مَالٍ قَطّ»[1] ﴿وَٱللَّهُ﴾ المتجلي بالتجلي الجلي ﴿لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ﴾ ستَّار مصرٍ على تحليل المحرمات ﴿أَثِيمٍ ﴿٢٧٦﴾﴾ بارتكاب المحظورات مجترئ على ترك المأمورات.

ثم قال سبحانه:

(١) رواه مسلم عن أبي هريرة بلفظ: عن أبي هُرَيْرَةَ عن رسول الله ﷺ قال: «ما نَقَصَتْ صَدَقَةٌ من مَالٍ وما زَادَ الله عَبْدًا بِعَفْوٍ إلا عِزًّا وما تَوَاضَعَ أَحَدٌ للهِ إلا رَفَعَهُ الله» صحيح مسلم [٤ / ٢٠٠١ رقم / ٢٥٨٨ / باب: استحباب العفو والتواضع] وابن حبان في صحيحه [٨ / ٤٠ رقم / ٣٢٤٨ / باب: ذكر نفي النقص عن المال بالصدقة] والبيهقي في السنن الكبرى [٤ / ٣٧٦ رقم / ٧٦٠٦ / باب: وجوه الخير] والترمذي في السنن [٤ / ٣٧٦رقم / ٢٠٢٩/ باب:ما جاء في أن من البيان لسحراً] وقال:هذا حديث حسن صحيح.

قلت: وللحديث روايات وألفاظ كثيرة ومتعددة.

إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ لَهُمۡ أَجۡرُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ وَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ﴿٢٧٧﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَذَرُواْ مَا بَقِيَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓاْ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴿٢٧٨﴾ فَإِن لَّمۡ تَفۡعَلُواْ فَأۡذَنُواْ بِحَرۡبٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۖ وَإِن تُبۡتُمۡ فَلَكُمۡ رُءُوسُ أَمۡوَٰلِكُمۡ لَا تَظۡلِمُونَ

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ بالله الواحد القهار الأحد الفرد الوتر في ذاته ﴿وَ﴾ آمنوا أيضاً بجميع رسله المرسلة من عنده، وبجميع ما جاء به من الأوامر والنواهي ﴿عَمِلُواْ﴾ جميع ﴿ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ المأمورة لهم ﴿وَ﴾ خصوصاً ﴿أَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ المفروضة لهم بكتاب الله ﴿ءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ المكتوبة عليهم فيه ﴿لَهُمۡ أَجۡرُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ وَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ﴾ من ترقبٍ مؤلمٍ ﴿وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ﴿٢٧٧﴾﴾ من فوت ملذ مسربل، لهم ما لهم بالفعل بلا انتظارٍ وترقبٍ:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ أي مقتضى إيمانكم اختيار التقوى والعزيمة الخالصة في جميع الأعمال المأمورة لكم والاجتناب عن الرخص فيها ﴿وَذَرُواْ﴾ اتركوا ﴿مَا بَقِيَ﴾ لكم ﴿مِنَ ٱلرِّبَوٰٓاْ﴾ عند الغرماء ﴿إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴿٢٧٨﴾﴾ موقنين بحرمة الربا وسر حرمته.

﴿فَإِن لَّمۡ تَفۡعَلُواْ﴾ ولم تمتثلوا بما أُمروا ولم يتيقنوا لسر ما مُنعوا منه ﴿فَأۡذَنُواْ﴾ انتظروا واعلموا ﴿بِحَرۡبٖ﴾ عظيم نازلٍ ﴿مِّنَ ٱللَّهِ﴾ المتجلي باسم المنتقم ﴿وَرَسُولِهِۦۖ﴾ التابع له المتخلق بأخلاقه ﴿وَإِن تُبۡتُمۡ﴾ من الارتباء والإنماء على هذا الطريق الأخس الأخبث ﴿فَلَكُمۡ﴾ في دينكم ﴿رُءُوسُ أَمۡوَٰلِكُمۡ لَا تَظۡلِمُونَ﴾ بأخذ الزيادة وإتلاف مال الغريم بلا عوضٍ

وَلَا تُظْلَمُونَ ﴿٢٧٩﴾ وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ وَأَن تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٨٠﴾ وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٨١﴾ ....

﴿وَلَا تُظْلَمُونَ ﴿٢٧٩﴾﴾ تتضررون بالمطل والتسويف وتعويق الأداء وتأخيرها.

﴿وَإِن كَانَ﴾ الذي عليه رؤوس أموالكم ﴿ذُو عُسْرَةٍ﴾ لا يقدر على أدائها رخصة ﴿فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ﴾ أي فعليكم أن تنتظروا إلى وقت يساره ثم تأخذوا ﴿وَأَن تَصَدَّقُوا﴾ أي تصدقكم بها على ذي عسرة ﴿خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ عند ربكم يجازيكم به جزاء لا يُدرك كنهه إلا هو، إذ إدخال السرور في قلب المؤمن يوازي عند الله عمل الثقلين ﴿إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٨٠﴾﴾.

﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ﴾ المسقط لجميع الإضافات منسلخين عن جميع ما أنتم عليه في الدنيا مؤاخذين عليها ليحاسَبوا ويجازوا على نقيرٍ وقطميرٍ ﴿ثُمَّ تُوَفَّىٰ﴾ تجزى ﴿كُلُّ نَفْسٍ﴾ على مقتضى ﴿مَّا كَسَبَتْ﴾ من خيرٍ وشرٍ وظلمٍ وجورٍ ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٨١﴾﴾ أصلاً، لا بتنقيص الثواب ولا بتضعيف العقاب بل كل نفسٍ فيها رهينةٌ بما كسبت.

وعن ابن عباس رضي الله عنهما: أنها آخر آيةٍ نزل بها جبريل عليه السلام، وقال: «ضَعْهَا فِيْ رَأْسِ المِائَتَيْنِ والثَّمَانِيْنَ مِنَ البَقَرَة»[1] وعاش رسول الله ﷺ

---

(١) الحديث مذكور في تفسير الزمخشري ١/ ٤٠٢، وتفسير النسفي ١/ ١٣٥، وتفسير البيضاوي ١/ ٥٧٧، وتفسير القرطبي ١/ ٦١.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيۡنٍ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى فَٱكۡتُبُوهُۚ وَلۡيَكۡتُب بَّيۡنَكُمۡ كَاتِبُۢ بِٱلۡعَدۡلِۚ وَلَا يَأۡبَ كَاتِبٌ أَن يَكۡتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ ٱللَّهُۚ ....

بعدها إحدى وعشرين يوماً[1]، وقيل: إحدى وثمانين، وقيل: سبعة أيام، وقيل: ثلاث ساعات.

عليك أيها المؤمن المتوجه إلى تصفية الذات أن تدخر لنفسك هذه الآية كزاد آخرتك ما لا يسعه المطولات ولا يتدرج في المجلدات ولا يفي باستقصائها التعبيرات والإشارات، وهي محتويةٌ على جميع الأسرار الباعثة للإرسال والإنزال والتبشير والإنذار، لذلك خُتم به الوحي، وانقطع به الإنزال.

ربنا آمنا بما أنزلت واتبعنا الرسول فاكتبنا مع الشاهدين.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ مقتضى إيمانكم المحافظة على الحدود خصوصاً ﴿إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيۡنٍ﴾ أي يعطي بعضكم بعضاً مبلغاً ويأخذه أن يؤديه له ﴿إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى﴾ مقدرٍ معلوم بتقدير الأيام والشهور والأعوام لا بوقت الحصاد وقدوم الحاج وغير ذلك ﴿فَٱكۡتُبُوهُۚ﴾ لئلا يقع بينكم العداوة والبغضاء المؤدية إلى النزاع والمراء المنافية للإيمان والتوحيد ﴿وَلۡيَكۡتُب بَّيۡنَكُمۡ كَاتِبُۢ بِٱلۡعَدۡلِۚ﴾ على الوجه الذي وقع بلا زيادةٍ ولا نقصانٍ، والحاصل أن تكتب المراضاة التي جرت بينكم حين الإعطاء والأخذ بلا تفاوتٍ حتى تتذكروا به لدى الحاجة ﴿وَلَا يَأۡبَ﴾ لا يمتنع ﴿كَاتِبٌ أَن يَكۡتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ ٱللَّهُۚ﴾ أي لا يوجز إيجازاً مخلاً منقصاً، ولا يطنب إطناباً مملاً مزيداً، لئلا يؤدي إلى النزاع والمناكرة عند الأداء

(١) لعلها ليلة بدل يوماً حتى تصح إحدى...

فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلِ ٱلَّذِى عَلَيْهِ ٱلْحَقُّ وَلْيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥ وَلَا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْـًٔا ۚ فَإِن كَانَ ٱلَّذِى عَلَيْهِ ٱلْحَقُّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَن يُمِلَّ هُوَ فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُۥ بِٱلْعَدْلِ ۚ وَٱسْتَشْهِدُوا۟ شَهِيدَيْنِ مِن رِّجَالِكُمْ ۖ فَإِن لَّمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَٱمْرَأَتَانِ مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ ٱلشُّهَدَآءِ أَن تَضِلَّ إِحْدَىٰهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَىٰهُمَا

﴿فَلْيَكْتُبْ﴾ الكاتب العادل ﴿وَلْيُمْلِلِ﴾ على الكاتب المديون ﴿ٱلَّذِى عَلَيْهِ ٱلْحَقُّ﴾ لأنه المعترف بالأداء ﴿وَلْيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥ﴾ حين الإملاء عن فوت شيءٍ من الحقوق ﴿وَلَا﴾ خصوصاً ﴿يَبْخَسْ﴾ لا ينقص ﴿مِنْهُ شَيْـًٔا ۚ﴾ - هذا التخصيص بعدما دل عليه الكلام السابق لزيادة التأكيد والاهتمام في الاجتناب عن حق الغير - ﴿فَإِن كَانَ ٱلَّذِى عَلَيْهِ ٱلْحَقُّ سَفِيهًا﴾ ناقصَ العقل من أهل التبذير ﴿أَوْ ضَعِيفًا﴾ في الرأي والقوة كالصبي والهرم ﴿أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ﴾ هو بنفسه ﴿أَن يُمِلَّ هُوَ﴾ لخَرَسٍ أو لجهلٍ باللغة ﴿فَلْيُمْلِلْ﴾ لأجله ﴿وَلِيُّهُۥ﴾ أي من يولي أمره شرعاً ﴿بِٱلْعَدْلِ ۚ﴾ برعاية الجانبين بلا ازديادٍ ولا تبخيسٍ ﴿وَ﴾ مع ذلك ﴿ٱسْتَشْهِدُوا۟﴾ على دينكم ومراضاتكم من الجانبين ﴿شَهِيدَيْنِ﴾ حاضرين في مجلس المراضاة ﴿مِن رِّجَالِكُمْ ۖ﴾ لكمال عقلهم ودينهم ﴿فَإِن لَّمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَٱمْرَأَتَانِ﴾ أي فعليكم أن تستشهدوا بدل الرجلين برجل وامرأتين دفعاً للحرج - هذا مخصوصٌ بالأموال دون الحدود والقصاص لقلة عقلهن وضعف تأملهن - ﴿مِمَّن تَرْضَوْنَ﴾ أنتم أيها العاملون ﴿مِنَ ٱلشُّهَدَآءِ﴾ الذين ثبت عندكم عدالتهم وديانتهم، وإنما خص هذا العدد لأجل ﴿أَن تَضِلَّ﴾ تنسى ﴿إِحْدَىٰهُمَا﴾ بمرور الزمان ﴿فَتُذَكِّرَ إِحْدَىٰهُمَا﴾

ٱلۡأُخۡرَىٰۚ وَلَا يَأۡبَ ٱلشُّهَدَآءُ إِذَا مَا دُعُواْۚ وَلَا تَسۡـَٔمُوٓاْ أَن تَكۡتُبُوهُ صَغِيرًا أَوۡ كَبِيرًا إِلَىٰٓ أَجَلِهِۦۚ ذَٰلِكُمۡ أَقۡسَطُ عِندَ ٱللَّهِ وَأَقۡوَمُ لِلشَّهَٰدَةِ وَأَدۡنَىٰٓ أَلَّا تَرۡتَابُوٓاْ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيۡنَكُمۡ فَلَيۡسَ عَلَيۡكُمۡ جُنَاحٌ أَلَّا تَكۡتُبُوهَاۗ وَأَشۡهِدُوٓاْ إِذَا تَبَايَعۡتُمۡۚ وَلَا يُضَآرَّ كَاتِبٞ وَلَا شَهِيدٞۚ ....

الذاكرة ﴿ٱلۡأُخۡرَىٰۚ﴾ الناسية لئلا يبطل حقوق المسلمين ﴿وَلَا يَأۡبَ﴾ لا يمتنع ﴿ٱلشُّهَدَآءُ إِذَا مَا دُعُواْۚ﴾ لأداء الشهادة أو تحملها مع الاستشهاد والإشهاد ﴿وَلَا تَسۡـَٔمُوٓاْ أَن تَكۡتُبُوهُ﴾ أي الكتاب الشامل على مراضاتكم ومعاملاتكم المؤجلة ﴿صَغِيرًا﴾ كان الحق ﴿أَوۡ كَبِيرًا إِلَىٰٓ﴾ وقت حلول ﴿أَجَلِهِۦۚ﴾ المسمى عند الأخذ ﴿ذَٰلِكُمۡ﴾ أي الكتاب على الوجه المذكور ﴿أَقۡسَطُ﴾ أعدل معاملاتكم ﴿عِندَ ٱللَّهِ وَأَقۡوَمُ﴾ أعون ﴿لِلشَّهَٰدَةِ﴾ أي لأدائها ﴿وَأَدۡنَىٰٓ﴾ أقربُ الطرق واحفظُها في أن ﴿أَلَّا تَرۡتَابُوٓاْ﴾ فيما جرى بينكم من المعاملة نسيئة فعليكم أن تحافظوا عليها ولا تجاوزوا عنها ﴿إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا﴾ تداولونها ﴿بَيۡنَكُمۡ﴾ يداً بيدٍ ﴿فَلَيۡسَ عَلَيۡكُمۡ جُنَاحٌ﴾ ذنبٌ ﴿أَلَّا تَكۡتُبُوهَاۗ﴾ لمبعدها من التنازع ﴿وَأَشۡهِدُوٓاْ﴾ إن لم تكتبوا ﴿إِذَا تَبَايَعۡتُمۡۚ﴾ احتياطاً إذ البشر لا يخلو من الضرر والإضرار ﴿وَلَا يُضَآرَّ كَاتِبٞ وَلَا شَهِيدٞۚ﴾ هذه الصيغةُ تحتمل البنائين وكلاهما مراد.

أما بناء الفاعل، فلا بد أن يضرهم الكاتب المعاملين بترك الإجابة والحضور عند المملي، والزيادة والنقصان في المكتوب وغير ذلك، والشاهد المدعو إلى التحمل والأداء بترك الإجابة والتهاون والإنكار وغير ذلك.

وَإِن تَفْعَلُواْ فَإِنَّهُۥ فُسُوقُۢ بِكُمْۗ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٞ ﴿٢٨٢﴾ ۞ وَإِن كُنتُمْ عَلَىٰ سَفَرٖ وَلَمْ تَجِدُواْ كَاتِبٗا فَرِهَٰنٞ مَّقْبُوضَةٞۖ فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضٗا فَلْيُؤَدِّ ٱلَّذِي ٱؤْتُمِنَ أَمَٰنَتَهُۥ وَلْيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥۗ وَلَا تَكْتُمُواْ ٱلشَّهَٰدَةَۚ وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُۥٓ ءَاثِمٞ قَلْبُهُۥۗ ....

أما بناء المفعول، فلا بد أن لا يضر الكاتب بمنع أجرته واستعجاله عن مصالحه وكذا الشاهد.

﴿وَإِن تَفْعَلُواْ﴾ أشياء مما نهي عنه ﴿فَإِنَّهُۥ فُسُوقُۢ بِكُمْۗ﴾ خروجٌ عن حدود الله لاحقٌ به ضرره ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ﴾ عن مخالفة حدوده وأحكامه ﴿وَ﴾ خصوصاً بعدما ﴿يُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُۗ﴾ المدبرُ لمصالحكم ما ينبغي لكم ويليق بحالكم ﴿وَٱللَّهُ﴾ المتجلي بصفة الجمال والجلال ﴿بِكُلِّ شَيْءٍ﴾ صدرَ عنكم ﴿عَلِيمٞ ﴿٢٨٢﴾﴾ يجازيكم على مقتضى علمه.

﴿۞ وَإِن كُنتُمْ﴾ أيها المتداينون ﴿عَلَىٰ سَفَرٖ وَلَمْ تَجِدُواْ كَاتِبٗا فَرِهَٰنٞ مَّقْبُوضَةٞۖ﴾ أي فعليكم في أمثال هذه المعاملة رهنٌ مقبوض من الديون إلى أجل مسمى ﴿فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم﴾ أيها الدائنون ﴿بَعْضٗا﴾ من المديونين بلا ارتهانٍ اعتماداً على أمانته ﴿فَلْيُؤَدِّ﴾ المديون ﴿ٱلَّذِي ٱؤْتُمِنَ﴾ اعتماداً ﴿أَمَٰنَتَهُۥ﴾ أي دَينه عند انقضاء أجله المسمى ﴿وَلْيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥۗ﴾ في الإنكار والخيانة والبخس والمماطلة ﴿وَلَا تَكْتُمُواْ﴾ أيها المؤمنون ﴿ٱلشَّهَٰدَةَۚ﴾ الحاضرةَ الحاصلةَ عندكم، المتعلقةَ بحقوق الناس سواءً كنتم من المستشهدين أو الشاهدين على أنفسكم، المعترفين بما في ذمتكم من حقوق الغير ﴿وَمَن يَكْتُمْهَا﴾ إنكاراً وعناداً ﴿فَإِنَّهُۥٓ ءَاثِمٞ قَلْبُهُۥۗ﴾ أي يأثم

وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ عَلِيمٞ ﴿٢٨٣﴾ لِّلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ وَإِن تُبۡدُواْ مَا فِيٓ أَنفُسِكُمۡ أَوۡ تُخۡفُوهُ يُحَاسِبۡكُم بِهِ ٱللَّهُۖ فَيَغۡفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ ﴿٢٨٤﴾ ....

قلبه ومن كان إثمه من قلبه لا يرجى منه الفلاح والفوز بالنجاح ﴿وَ﴾ المحيط بحيلكم ومخايلكم ﴿ٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾ من الإنكار والخيانة وكتمان الشهادة ﴿عَلِيمٞ ﴿٢٨٣﴾﴾ ينتقم منكم بكل ما جرى في نفوسكم منها.

﴿لِّلَّهِ﴾ الواحد الأحد الحي، الحقيق بالحقية، القيوم المتفرد بالقيومية الدائم الظاهر بالديمومية مظاهر ﴿مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ من الأسماء الذاتية والصفات الفعلية ﴿وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ﴾ أي الطبيعة العدمية القابلة لمظهرية آثار الصفات الذاتية المحدثة المظهرة للكائنات الكونية والكيانية والواردات الغيبية والواضحات العينية ﴿وَ﴾ بعدما ظهر ما ظهر وما بطن ﴿إِن تُبۡدُواْ﴾ تظهروا أيها الأظلال والعكوس ﴿مَا فِيٓ أَنفُسِكُمۡ﴾ من الأنانية والأصالة في الوجود والاستقلال بالآثار ﴿أَوۡ تُخۡفُوهُ يُحَاسِبۡكُم بِهِ ٱللَّهُۖ﴾ الجامعُ بجميع الأسماء، المحيطُ بجميع الأشياء، بل الأشياء كلها مستلهكةٌ في وجوده، فانيةٌ في ذاته ﴿فَيَغۡفِرُ﴾ يستر ذنب الأنانية ومعصية الغيرية ﴿لِمَن يَشَآءُ﴾ من عباده بفضله وجوده ﴿وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُۗ﴾ بقهره وطرده إرادةً واختياراً إظهاراً لقدرته وقلعاً لشوكته ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ﴾ مما شاء ويشاء ﴿قَدِيرٌ ﴿٢٨٤﴾﴾ بالقدرة الأزلية الأبدية المتصرف مطلقاً في جميع ما كان ويكون، لا يعزب عن حضوره ذرةٌ، ولا يشغله فترةٌ لذلك:

﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ ۚ وَقَالُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۖ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٢٨٥﴾ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۚ ....﴾

﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ﴾ الفاني في الله الباقي ببقائه المستغرق بمطالعة لقائه ﴿بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ﴾ من الحقائق والمعارف والمكاشفات والمشاهدات المتكثرة المتجددة بتجددات[1] التجليات المنتشئة ﴿مِن رَّبِّهِۦ﴾ الذي يربيه لاستخلافه ونيابته وتحمل أسرار أعباء نبوته ورسالته ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ المتبعون له، المسترشدون منه، المقتفون أثره ﴿كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ﴾ المتفرد والمتعزز بالعظمة والكبرياء ﴿وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ﴾ المرسومين بصفات الذات والأسماء ﴿وَكُتُبِهِۦ﴾ المنزلة على ألسنة رسله للهداية والإهداء ﴿وَرُسُلِهِۦ﴾ المنبهة على أولى البصائر والنهى مما في آياته الكبرى من السرائر والأسرار التي تفتت دونها الآراء واضمحلت الأهواء قائلين حالاً ومقالاً: ﴿لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ﴾ بعد ما ظهر الكل منه ورجع إليه ﴿وَ﴾ بعدما آمنوا بالله وإحاطته ﴿قَالُوا۟﴾ طوعاً ﴿سَمِعْنَا﴾ ﴿وَ﴾ سمعاً ﴿أَطَعْنَا﴾ بجميع ما جاؤوا به إذ الكل من عندك نرجو ﴿غُفْرَانَكَ رَبَّنَا﴾ يا من ربانا بملابس الإمكان، المفضي بالطبع إلى الخذلان والخسران ﴿وَإِلَيْكَ﴾ يا هادي الكل لا إلى غيرك إذ لا غير معك ﴿ٱلْمَصِيرُ ﴿٢٨٥﴾﴾ في الإعادة عن شيطان الإمكان.

ثم نبه سبحانه على خلص عباده ما يؤول أمرهم إليه وينقطع سعيهم دونه بقوله: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ﴾ الهادي لعباده نحو جنابه ﴿نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ أي إلا ما في وسعها وطاقتها واستعدادها مما عينه الله في سابق علمه الحضوري

(١) في المخطوط (بتجدات).

لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ ۗ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ ۖ وَٱعْفُ عَنَّا وَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَآ ۚ أَنتَ مَوْلَىٰنَا فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٨٦﴾

لأجله فظهر أن ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ﴾ من الخيرات باستعداده الفطري الجبلي ﴿وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ ۗ﴾ من الشرور بمتابعة قوى النفس في الإمكان التي هي منشأ جميع الفسادات، ثم لما أشار سبحانه إلى سر التكليف أراد أن يشير إلى الإتيان بما كلف به لا يكون إلا بتوفيقه وجذبٍ من عنده، لذلك لقنهم الدعاء والاستعانة والمناجاة بقوله: ﴿رَبَّنَا﴾ يا من ربانا بلطفك لقبول تكليفاتك لنصل إلى صفاء توحيدك وتقديسك ﴿لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ﴾ إتيان ما تكلفنا بسبب إمكاننا ﴿أَوْ أَخْطَأْنَا ۚ﴾ فيها لقصور إدراكنا ﴿رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا﴾ حجاباً غليظاً وغشاوة كثيفاً يعمي بصائر قلوبنا عن إدراك نور توحيدك ﴿كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا﴾ من متاعب الرياضات ومشاق التكليفات الفائقة لدرن الإمكان ورين التعلقات ﴿مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ ۖ وَٱعْفُ﴾ امح بفضلك ﴿عَنَّا﴾ مقتضيات أوصافنا الإمكانية ﴿وَٱغْفِرْ لَنَا﴾ أي استر لنا ربنا أنانيتنا وهويتنا عن نظرنا ﴿وَ﴾ بعد ذلك ﴿ٱرْحَمْنَآ ۚ﴾ برحمتك الواسعة ﴿أَنتَ مَوْلَىٰنَا﴾ ومولى نعمنا ﴿فَٱنصُرْنَا﴾ بعونك ونصرتك في ترويج توحيدك ﴿عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٨٦﴾﴾ الساترين بغيوم هوياتهم الباطلة شمسَ الحق الظاهرة على الآفاق.

حققنا بلطفك بحقيتك وتوحيدك يا خير الناصرين ويا هادي المضلين.

خاتمة سورة البقرة

عليك أيها المحمدي المتوجه نحو توحيد الذات شَرَحَ الله صدرك ويسر أمرك، أن تأخذ لنفسك حسب قدرتك وطاقتك من هذه السورة المشتملة على جميع المطالب الدينية والمراتب اليقينية، فلك أن تشمر أولا ذيلك عن الدنيا وما فيها، معرضاً عن لذاتها وشهواتها، متوجهاً بوجه قلبك إلى توحيد ربك مستفتحاً لما في صدرك من خزائن جوده ودفائن وجوده، طاوياً كشح حالك وفعالك عما لا يعنيك، هارباً عن مصاحبة ما يضرك ويغويك، طالباً الوصول إلى معارج التوحيد ومدارج التجريد والتفريد، راغباً عما سوى الحق من أسباب الكثرة والتقييد، مستنشقاً من نسمات أنسه ونفحات قدسه، مستروحاً بنفسات رحمته، مستكشفاً عن أسرار ربوبيته، مستهدياً من زلال هدايته بمتابعة نبيه، المخلوق على صورته، المبعوث على جميع بريته، مسترشداً من كتابه المنزل عليه، الجامع لما في الكتب السالفة من الحكم والمواعظ والعبر والرموز والإشارات الواردة منه عنده لإهداء التائهين في فضاء وجوده، المستغرقين في تيار بحار إحسانه وجوده.

فعليك أيها المريد القاصد لسلوك طريق الحق أن تلازم هذا الكتاب الذي لا ريب في هدايته لمن آمن في غيب الهوية، وأدام التوجه نحوه، صارفاً عنان عزمك عن كل ما يشغلك عن ربك، مقبلاً بشأنك نحو مقصدك ومطلبك، معرضاً على نفسك ما فيه من الحقائق والمعارف والحكم والأحكام والقصص والتذكيرات.

إذ ما من حرف من حروف هذا الكتاب إلا هو ظرف المعاني إلى ما شاء الله، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، تنزيلٌ من حكيم عليم.

فلابد لك عند تلاوة القرآن أن تطهر ظاهرك وباطنك عن جميع لوازم بشريتك، بحيث تغيب عنك نفسك، وتفنى هويتك وشأنك، وأنطقك ربك بنطقه وكلامه.

ومتى رسختْ هذه الحالة فيك، وصارت خلقك وشيمتك، فزت بحظك من تلاوته.

وإياك أن تغفل عند قراءته عن محض إشارته والتدقيق في روايته ودرايته.

ومتى صفت سريرتك عن العوائق كلها، وخلصت طويتك عن العوائق برمتها، صح لك أن تسترشد منه حسب ما قدر الله لك ووفقك في سابق علمه، إنه على ما يشاء قدير، وبإجابته حقيق جدير.



بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

فاتحة سورة آل عمران

لا يخفى على الراسخين المتأملين في كلمات الكتب المنزلة من عند الله، المتعلقة بتهذيب الظاهر عن الكدورات البشرية ومشابهاتها، المصفية للباطن بالنسبة إلى أولي العزائم الصحيحة عن جميع الأوهام والخيالات الفاسدة المنافية لصرافة الوحدة الذاتية والهوية السارية في جميع المظاهر حسب تعدادات التجليات المترتبة على الأوصاف والأسماء الذاتية: أنَّ ستر الإنزال والإرسال والوحي على الأنبياء والإلهامات والإرهاصات الواردة على قلوب المخلصين من الأولياء، إنما هو للتفطن والتنبه على كيفية انبساط الظل الإلهي الممتد على طبيعة العدم المقابل للوجود القابل لانعكاس أشعة أنواره الفائضة حسب التجليات الجمالية والجلالية، وكيفية ارتباط الأظلال والعكوس الغير المحصورة على المبدأ الوحداني الذي هو الوحدة الذاتية التي لا تعدد فيه أصلاً إلا بحسب الأوصاف والشؤون، كما قال سبحانه في وصف ذاته المنزه عن شوب الكثرة: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ [١١٢-الإخلاص١] السورة. وقال في شأنه المقتضي للتعدد: ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ [٥٥-الرحمن٢٩].

وقال في ارتباط الأظلال ورجوعه إلى الوحدة: ﴿مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذُۢ بِنَاصِيَتِهَآ﴾ [١١-هود٥٦] الآية، وقال أيضاً بلسان الأظلال: ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ﴾ [٢-البقرة١٥٦]، وقال: ﴿كُلٌّ إِلَيْنَا رَٰجِعُونَ﴾ [٢١-الأنبياء٩٣]، وقال: ﴿إِنَّ إِلَيْنَآ إِيَابَهُمْ﴾ [٨٨-الغاشية٢٥]، إلى غير ذلك من الآيات والأخبار الواردة في هذا الباب والشهودات والكشوفات الصادرة من أرباب الولاء أنار الله براهينهم.

ولما كان الإنسان الكامل قابلاً لمظهرية جميع الأوصاف الإلهية، لائقاً للخلافة والنيابة عنه، أنزل عليه من عنده كتاباً مشتملاً على ما كان ويكون من رطب ويابس ونقير وقطمير، كما قال سبحانه في محكم تنزيله: ﴿وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ [٦-الأنعام٥٩]

وقال في وصف كتابه لآياته: ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [٤١-فصلت٤٢].

فلا بد للمسترشد الخبير منه أن يتعمق في طلب دفائن أسراره الكامنة في أغواره ويغوص في ذخائر بحاره حتى يفوز بفرز فوائده ودرر فرائده، ويتحقق بمقام التخلق بأخلاق الله حتى يتصف بالخلافة والنيابة ويستحق الخطاب الإلهي.

ولهذا خاطب سبحانه رسوله الذي هو أكمل الكاملين وأتم المخلوقين صلوات الله عليه متبركاً:

الٓمٓ ﴿١﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُ ﴿٢﴾ نَزَّلَ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ وَأَنزَلَ ٱلتَّوۡرَىٰةَ وَٱلۡإِنجِيلَ ﴿٣﴾ ....

﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ﴾ الذي أنزل الكتب وأرسل الرسل إرشاداً لعموم العباد إلى طريق المعاد ﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ﴾ عليهم بإنزال المحكمات المعدة لفيضان اليقين والعرفان ﴿ٱلرَّحِيمِ﴾ عليهم بإنزال المتشابهات المتضمنة بسبب التوحيد عند أهل التحقيق والإيقان.

﴿الٓمٓ ﴿١﴾﴾ أيها الإنسان الكامل الأحدي الأوحدي الأقدسي، اللائح على صورة الرحماني، الملازم الملاحظ لمقتضيات الأوصاف والأسماء الإلهية، المتفرعة عليها جميع المظاهر الكونية، المشتمل عليها، المحيط بها.

﴿ٱللَّهُ﴾ أي الذات الصمد المبدع المظهر الموجد الذي ﴿لَآ إِلَٰهَ﴾ أي لا مظهر ولا موجد ﴿إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ﴾ الدائم الثابت الذي لا يقدر حياته الزمان، ولا يحصره المكان، ولا يشغله شأن عن شأن ﴿ٱلۡقَيُّومُ ﴿٢﴾﴾ الذي لا يعرضه الفتور، ولا يعجزه كر الأعوام ومر الدهور، هو الذي:

﴿نَزَّلَ عَلَيۡكَ﴾ يا مظهر الكل امتناناً لك ﴿ٱلۡكِتَٰبَ﴾ أي القرآن الجامع الشامل لما في الكائنات أعلاها وأدناها أولاها وأخراها ملتبساً ﴿بِٱلۡحَقِّ﴾ المطابق للواقع ﴿مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ﴾ من الكتب السالفة المنزلة على الأنبياء الماضين ﴿وَأَنزَلَ﴾ أيضاً ﴿ٱلتَّوۡرَىٰةَ وَٱلۡإِنجِيلَ ﴿٣﴾﴾ على موسى وعيسى عليهما السلام مصدِّقَين لما مضى من الكتب السابقة.

مِن قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَأَنزَلَ ٱلْفُرْقَانَ ۗ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ ﴿٤﴾ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَىْءٌ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٥﴾ ٱلَّذِى يُصَوِّرُكُمْ فِى ٱلْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَآءُ ۚ لَآ إِلَـٰهَ ....

﴿مِن قَبْلُ﴾ أي من قبل إنزالهما عليهما ﴿هُدًى لِّلنَّاسِ﴾ يهديهم إلى توحيده الذاتي عند ظهور خلافه من الغيّ والضلالة ﴿وَ﴾ بعد ما ظهر الضلال ﴿أَنزَلَ ٱلْفُرْقَانَ﴾ أي الكتاب السماوي الفارق بين الهداية والضلالة ليتميز الحق عن الباطل وآيات الله عن تسويلات الشياطين ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ﴾ بعد ظهوره ونزوله وكّذبوا من أنزل إليهم من الكتب والآيات ﴿لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ هو الطرد والحرمان عن ساحة التوحيد بسبب إنكارهم الآيات الهادية لهم إلى طريقه ﴿وَٱللَّهُ﴾ الهادي إلى توحيده ﴿عَزِيزٌ﴾ غالبٌ قادرٌ ﴿ذُو ٱنتِقَامٍ ﴿٤﴾﴾ عظيمٍ وتعذيبٍ شديدٍ على من كفر بآياته واستكبر على من أنزل عليه الآيات، وكيف لا ؟

﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾ المحيط بجميع ما كان ويكون ﴿لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَىْءٌ﴾ مما حدث ﴿فِى ٱلْأَرْضِ﴾ ﴿وَلَا﴾ ما حدث ﴿فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٥﴾﴾ من الإيمان والكفر والهداية والضلالة، وغير ذلك من الأعمال والأحوال الصادرة من العباد فكيف يخفى عليه إذ:

﴿هُوَ ٱلَّذِى يُصَوِّرُكُمْ﴾ بقدرته ابتداء ﴿فِى ٱلْأَرْحَامِ﴾ بعد انصبابكم من أصلاب آبائكم إليها ﴿كَيْفَ يَشَآءُ﴾ أي كيف تتعلق مشيئته وإرادته بلا مزاحمة ضدٍ، ومشاركة أحدٍ من شريك وندٍّ إذ ﴿لَآ إِلَـٰهَ﴾ أي لا مصور ولا

إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٦﴾ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ ۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ

موجد ﴿إِلَّا هُوَ﴾ يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد، لا منازع له، ولا مخاصم دونه بل هو ﴿ٱلْعَزِيزُ﴾ الغالب على كل ما يشاء ﴿ٱلْحَكِيمُ ﴿٦﴾﴾ المتقن في كل ما يريد.

﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ﴾ اصطفاك يا أكمل الرسل لرسالته واجتباك لنيابته وخلافته، بأن ﴿أَنزَلَ﴾ تفضلاً وامتناناً ﴿عَلَيْكَ﴾ من عنده لتصديقك وتأييدك ﴿ٱلْكِتَٰبَ﴾ المعجز لجميع من تحدى وتعارض معك، تعظيماً لشأنك وفصله بالسور والآيات الدالة على الأمور المتعلقة لأحوال العباد وفي النشأة الأولى والأخرى، إذ ﴿مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ﴾ متعلقةٌ بعموم أحوال العباد على اختلاف طبقاتهم في معاشهم ومعادهم من الأحكام والمعاملات والمعتقدات الجارية فيما بينهم بحسب النشأتين ﴿هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ﴾ واجبةُ الاقتداء والامتثال لكافة الأنام ﴿وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ﴾ متعلقةٌ بالمعارف والحقائق المترتبة على الحِكم والمصالح المودَعة في إيجاب التكليفات والطاعات والعبادات المؤدية إليها، بالنسبة إلى أولى العزائم الصحيحة المتوجهة إلى بحر التوحيد ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ﴾ ميلٌ وعدولٌ عن طريق الحق الجامع بين الظاهر والباطن ﴿فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ﴾ ويتركون الامتثال بمحكماته جهلاً وعناداً، ولم يعلموا أن الوصول إلى المعارف والحقائق إنما تُنال بتهذيب الظاهر بامتثال المحكمات، وليس غرضهم من تلك المتابعة

ٱبۡتِغَآءَ ٱلۡفِتۡنَةِ وَٱبۡتِغَآءَ تَأۡوِيلِهِۦۗ وَمَا يَعۡلَمُ تَأۡوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلۡعِلۡمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلّٞ مِّنۡ عِندِ رَبِّنَاۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴿٧﴾ رَبَّنَا لَا تُزِغۡ قُلُوبَنَا بَعۡدَ إِذۡ هَدَيۡتَنَا وَهَبۡ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحۡمَةًۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡوَهَّابُ ﴿٨﴾ رَبَّنَآ إِنَّكَ جَامِعُ

﴿ٱبۡتِغَآءَ ٱلۡفِتۡنَةِ﴾ أي طلب إيقاع الفتنة[1] بين الناس إفساد عقائدهم عن منهج التوحيد ﴿وَٱبۡتِغَآءَ تَأۡوِيلِهِۦۗ﴾ إلى ما يرتضيه عقولهم وتشتهيه نفوسهم، كالمبتدعة خذلهم الله ﴿وَ﴾ الحال أنه ﴿مَا يَعۡلَمُ تَأۡوِيلَهُۥٓ﴾ على ما ينبغي ﴿إِلَّا ٱللَّهُۗ﴾ المنزلُ، إذ تأويل كلامه لا يسع لغيره إلا بتوفيقه وإعانته ﴿وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلۡعِلۡمِ﴾ اللّدُني المؤيدون من عنده بإلهامه ووحيه بمعارفَ وحقائقَ لا تحصل بمجرد القوة البشرية إلا بتأييدٍ منه وجذبٍ من جانبه ﴿يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ﴾ أي أيقنا وأذعنا بمحكمات الكتاب ومتشابهاته جميعاً إذ ﴿كُلّٞ﴾ منزلٌ ﴿مِّنۡ عِندِ رَبِّنَاۗ﴾ وما لنا أن يتفاوت فيه ﴿وَمَا يَذَّكَّرُ﴾ يتعظُ ويتيقظُ منه ﴿إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴿٧﴾﴾ المجبولون على لب التوحيد المعرضون عن قشوره التي هي من مقتضيات القوى النفسانية التي هي من جنود شياطين الأهواء الباطلة والآراء الفاسدة.

﴿رَبَّنَا﴾ يا من ربانا بلطفك على نشأة توحيدك ﴿لَا تُزِغۡ﴾ ولا تُمل ﴿قُلُوبَنَا﴾ عن طريقك ﴿بَعۡدَ إِذۡ هَدَيۡتَنَا﴾ عليه بإنزال الكتب وإرسال الرسل ﴿وَهَبۡ لَنَا﴾ وتفضل علينا ﴿مِن لَّدُنكَ رَحۡمَةًۚ﴾ علماً وعيناً وحقاً ﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡوَهَّابُ ﴿٨﴾﴾ بلا إعراضٍ وأغراضٍ.

﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ﴾ بذاتك وأوصافك وأسمائك ﴿جَامِعُ﴾ شتات

---

(١) أي ليس غرضهم إلا (ابتغاء الفتنة).

ٱلنَّاسِ لِيَوۡمٖ لَّا رَيۡبَ فِيهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخۡلِفُ ٱلۡمِيعَادَ ﴿٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَن تُغۡنِيَ عَنۡهُمۡ أَمۡوَٰلُهُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيۡـٔٗاۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ وَقُودُ ٱلنَّارِ ﴿١٠﴾ كَدَأۡبِ ءَالِ فِرۡعَوۡنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمۡۗ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ﴿١١﴾ ....

﴿ٱلنَّاسِ لِيَوۡمٖ﴾ شأنه ﴿لَّا رَيۡبَ فِيهِ﴾ ولا شك في وقوعه لإخبارك بوقوعه على ألسنة رسلك وإنزالك في كتبك ﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾ الجامع لشتات العباد في المعاد ﴿لَا يُخۡلِفُ ٱلۡمِيعَادَ ﴿٩﴾﴾ الذي وعده في كتابه بل أنجزه على مقتضى إنزاله ووحيه.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ بالله وأعرضوا عن كتبه ورسله وأصروا عليه اغتراراً بمزخرفاتهم الباطلة من الأموال والأولاد ﴿لَن تُغۡنِيَ﴾ وترفع ﴿عَنۡهُمۡ﴾ في النشأة الأخرى ﴿أَمۡوَٰلُهُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُهُم مِّنَ﴾ غضب ﴿ٱللَّهِ شَيۡـٔٗاۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ﴾ المصرّون المعاندون فيها ﴿هُمۡ وَقُودُ ٱلنَّارِ ﴿١٠﴾﴾ أي أجسامهم وقود نار الحسرة والخذلان دأبهم وديْدَنتهم في النشأة الأولى.

﴿كَدَأۡبِ ءَالِ فِرۡعَوۡنَ وَٱلَّذِينَ﴾ مضوا ﴿مِن قَبۡلِهِمۡۚ﴾ كعادٍ وثمودَ ﴿كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ الدالة على توحدينا، المنزل على رسلنا المستخلفين من عندنا ﴿فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ﴾ باسمه المنتقم ﴿بِذُنُوبِهِمۡۗ﴾ الصادرة منهم من التكذيب والإنكار والعناد والاستكبار، فاستأصلهم بالمرة في النشأة الأولى، وأحرقهم بالنار في النشأة الأخرى جزاءً بما كسبوا في الأولى ﴿وَٱللَّهُ﴾ القادرُ المقتدرُ على ما يشاء ﴿شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ﴿١١﴾﴾ لكل من عاندوا واستكبروا.

﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ ۚ وَبِئْسَ الْمِهَادُ ﴿١٢﴾ قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا ۖ فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْيَ الْعَيْنِ ۚ وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِ مَن يَشَاءُ ۗ﴾ ....

﴿قُل﴾ يا أكمل الرسل نيابة عنا ﴿لِّلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بك وبكتابك إخباراً لهم عما سيجري عليهم: ﴿سَتُغْلَبُونَ﴾ بقهر الله وغضبه في يوم الجزاء ﴿وَتُحْشَرُونَ﴾ بين يدي الله، وتحاسَبون عنده سبحانه عما جرى عليهم في النشأة الأولى، وبعد ذلك تساقون ﴿إِلَىٰ جَهَنَّمَ﴾ البعد والخذلان مطرودين مُهانين ﴿وَبِئْسَ الْمِهَادُ ﴿١٢﴾﴾ ما مهدوا فيها بما اقترفته نفوسهم من الاستكبار على الأنبياء والإصرار على ما هم عليه من الكفر والضلالة، بعد ظهور آيات الإيمان وعلامات الهدى إذ:

﴿قَدْ كَانَ لَكُمْ﴾ أيها الضالون في تِيهِ الحرمان ﴿آيَةٌ﴾ ظاهرةٌ دالةٌ على الهدى الحقيقي ﴿فِي﴾ التقاء ﴿فِئَتَيْنِ﴾ حين ﴿الْتَقَتَا﴾ إحداهما ﴿فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ لإعلاء كلمته وإظهار توحيده ﴿وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ﴾ تقاتل مع الموحدين مكابرةً وعناداً، ومع كونكم أيها الكافرون المعاندون بأضعاف المؤمنين الموحدين وكثرة عَدَدِكُم وعُدَدِكُم ﴿يَرَوْنَهُم﴾ أي الموحدون ﴿مِّثْلَيْهِمْ رَأْيَ الْعَيْنِ﴾ أي في بادي النظر ويرهبون[1] منهم رهبةً شديدة بتأييد الله ونصره ﴿وَاللَّهُ﴾ المحيط بجميع ما جرى في ملكه ﴿يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِ﴾ العزيز ﴿مَن يَشَاءُ﴾ من عباده المخلصين في إطاعته

(١) في المخطوط (وترهبون).

إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُوْلِي ٱلْأَبْصَٰرِ ﴿١٣﴾ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ عِندَهُۥ

وانقياده ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ التأييد والنصر مع ظهور عكسه ﴿لَعِبْرَةً﴾ تبصرة وتذكرة ﴿لِّأُوْلِي ٱلْأَبْصَٰرِ ﴿١٣﴾﴾ المستبصرين بنظر الاعتبار عن سرائر الأمور وأسرارها بلا التفات إلى مزخرفات الدنيا الدنية من شهواتها ولذاتها، لا للمنهمكين المستغرقين في بحر الغفلة والغرور إذ:

﴿زُيِّنَ﴾ حُبِّبَ وحُسِّنَ ﴿لِلنَّاسِ﴾ المغرورين بزخرفة الدنيا ﴿حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ﴾ أي مُشتهياتها المنحصرة أصولها في هذه المذكورات ﴿مِنَ ٱلنِّسَآءِ﴾ اللاتي هن لمن اشتهاها، إذ هن للوقاع الذي هو من ألذ الملذات النفسانية ﴿وَٱلْبَنِينَ﴾ للمظاهرة والمفاخرة والغلبة على الخصوم ﴿وَٱلْقَنَٰطِيرِ﴾ الأموالِ الكثيرة ﴿ٱلْمُقَنطَرَةِ﴾ المجتمعةِ المزخرفةِ ﴿مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ﴾ لكونها وسائل إلى المشتهيات التي مالت القلوب إليها بالطبع ﴿وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ﴾ المعلَّمةِ المنسوبةِ إليهم ليركبوها ويبطروا عليها ﴿وَٱلْأَنْعَٰمِ﴾ من الإبل والبقر والغنم ليحملوها ويأكلوا منها ويزرعوا بها ﴿وَٱلْحَرْثِ﴾ ليقتاتوا بها ويعيشوا بأكلها ﴿ذَٰلِكَ﴾ الأصول المذكورة ﴿مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ الفانية المانعة من الوصول إلى الجنة المأوى التي هي دار القرار والخلود وموعد لقاء الخلَّاق الودود ﴿وَٱللَّهُ﴾ الهادي إلى سبيل الصواب ﴿عِندَهُۥ﴾ لمن توجه نحوه واستقبل جنابه

حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ ﴿١٤﴾ ۞ قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَٰلِكُمْ ۚ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّـٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ ....

﴿حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ ﴿١٤﴾﴾ وخير المنقلب والمناب.

﴿ ۞ قُلْ ﴾ يا أكمل الرسل للمؤمنين للمخلصين في عبادة الله، الراغبين إلى جزيل عطائه، الطائرين إلى فضاء فنائه، الطالبين الوصول إلى شرف لقائه، الفانين في الله ليفوزوا بشرف بقائه تحريكاً لهم سلسلة الشوق والمحبة ﴿أَؤُنَبِّئُكُم﴾ أيها الحيارى في صحارى الإمكان، الموثقون بقيود الأكوان، المحبوسون في مضيق الجدران بسلاسل الزمان والمكان ﴿بِخَيْرٍ﴾ مراتب ﴿مِّن ذَٰلِكُمْ ۚ﴾ الذي ملتم إليها واشتهيتم إلى نيلها في هذه النشأة، حاصلٌ واصلٌ إليكم في النشأة الأخرى ﴿لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟﴾ منكم عن محارم الله وتوجهوا إلى الله في الدنيا، ولم يرتكبوا ما نهاهم الله على ألسنة رسله ﴿عِندَ رَبِّهِمْ﴾ الذي رباهم بتوفيقه على ترك المحظورات واجتناب المكروهات ﴿جَنَّـٰتٌ﴾ معارف وحقائق ﴿تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَا﴾ أنهار الكشوف والشهود ﴿وَأَزْوَٰجٌ﴾ أعمالٌ وحالاتٌ ﴿مُّطَهَّرَةٌ﴾ خالصةٌ عن كدر الرعونة والرياء خاليةٌ عن الميل إلى البدع والأهواء ﴿وَ﴾ مع ذلك لهم ﴿رِضْوَانٌ﴾ عظيمٌ ﴿مِّنَ ٱللَّهِ ۗ﴾ ليحققهم في مقام العبودية والرضاء بما جرى عليهم من القضاء، بحيث لا ينسبون شيئاً من الحوادث إلى الأسباب والوسائل، بل لا يرون الوسائط في البين أصلاً ﴿وَٱللَّهُ﴾ الهادي للكل

بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿١٥﴾ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ إِنَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٦﴾ ٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْمُنفِقِينَ وَٱلْمُسْتَغْفِرِينَ بِٱلْأَسْحَارِ ﴿١٧﴾ ....

﴿بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿١٥﴾﴾ الراضين بقضائه، المرضيين بإنفاذه وإمضائه يعني:

﴿ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ ﴾ بألسنتهم موافقاً لما في قلوبهم عند مناجاتهم مع ربهم ﴿رَبَّنَآ إِنَّنَآ ءَامَنَّا﴾ بمقتضى توفيقك بوحدانيتك وبكتبك ورسلك ﴿فَٱغْفِرْ لَنَا﴾ بلطفك ﴿ذُنُوبَنَا﴾ التي صدرت عنا من أنانيتنا واستر عيوبنا التي كنا عليها قبل انكشافنا بتوحيدك ﴿وَقِنَا﴾ بلطفك واحفظنا بفضلك ﴿عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٦﴾﴾ المعدِّ لأصحاب البعد والخذلان عن ساحة عز حضورك، واجعلنا بفضلك من:

﴿ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ على عموم ما أصابهم من البأساء والضراء في طريق توحيدك ﴿وَٱلصَّٰدِقِينَ ﴾ عن الكذب مطلقاً في أقوالهم المعتبرة المعربة عن أفئدتهم المطمئنة بالإيمان ﴿وَٱلْقَٰنِتِينَ ﴾ الخاضعين الخاشعين إليك بظواهرهم وبواطنهم ﴿وَٱلْمُنفِقِينَ ﴾ من طيبات ما رزقتَ لهم طلباً لمرضاتك بلا شوب المنة والأذى ﴿وَٱلْمُسْتَغْفِرِينَ ﴾ لك الخائفين من سخطك وجلالك، الراجين منك العفو في عموم أوقاتهم خصوصاً ﴿بِٱلْأَسْحَارِ ﴿١٧﴾﴾ الخالية عن جميع الموانع العائقة عن التوجه إلى جنابك الشاهدين بوحدانيتك بما:

شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٨﴾ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ۗ وَمَا ٱخْتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ ....

﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ﴾ به لذاته وهو ﴿أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ﴾ أي لا موجود ولا وجود ولا كون ولا تحقق ولا كائن ولا ثابت ﴿ إِلَّا هُوَ﴾ الحي الحقيق بالحقية، الوحيد بالقيومية، الفريد بالديمومية، لا شيء سواه ﴿وَ﴾ بما شهد بوحدته ﴿ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ أي الأسماء والصفات القائمة بالذات الأحدية، إذ الكل قائمٌ به ثابتٌ له لا مرجعَ لها سواه ﴿وَ﴾ بما شهد به ﴿أُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ﴾ من مظاهر المخلوقات على صورته المتأثرة من أوصافه وأسمائه وإن كانت شهادة كل منها راجعة إلى شهادته لكون الكل ﴿قَآئِمًۢا﴾ مقوماً متحققاً ﴿ بِٱلْقِسْطِ ۚ﴾ أي العدل الإلهي المنبسط على ظواهر الكائنات، أزلاً وأبداً إذ ﴿لَآ إِلَٰهَ﴾ أي لا مظهر لها ﴿ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ﴾ الغالب القادر على إظهارها ﴿ٱلْحَكِيمُ ﴿١٨﴾﴾ المتقن في تربيتها وتدبيرها، القائلين طوعاً ورغبة بعدما تحققوا بمقام العبودية:

﴿ إِنَّ ٱلدِّينَ﴾ القويم والشرع المستقيم المقبول المرضي ﴿عِندَ ٱللَّهِ﴾ الهادي للعباد إلى طريق الرشاد هو ﴿ٱلْإِسْلَٰمُ ۗ﴾ المنزلُ من عنده إلى خير الأنام [سيدنا] محمد عليه الصلاة والسلام ﴿وَمَا ٱخْتَلَفَ﴾ المعاندون المنكرون لدين الإسلام من ﴿ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ﴾ أي اليهود والنصارى ﴿إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ﴾ اليقيني في كتبهم المنزلة من عند الله بأنه سيظهر النبي الحق والدين الحق الناسخ لجميع الأديان السابقة، وعلموا حين ظهوره حقيته بالدلائل والعلامات المبينة في كتابهم، ومع ذلك

﴿بَغۡيَۢا بَيۡنَهُمۡۗ وَمَن يَكۡفُرۡ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ ١٩ فَإِنۡ حَآجُّوكَ فَقُلۡ أَسۡلَمۡتُ وَجۡهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِۗ وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡأُمِّيِّـۧنَ ءَأَسۡلَمۡتُمۡۚ فَإِنۡ أَسۡلَمُواْ فَقَدِ ٱهۡتَدَواْۖ وَّإِن تَوَلَّوۡاْ فَإِنَّمَا عَلَيۡكَ ٱلۡبَلَٰغُۗ﴾ ....

ينكرونه ﴿بَغۡيَۢا﴾ حسداً ثابتاً ﴿بَيۡنَهُمۡۗ﴾ ناشئاً من طلب الرئاسة والاستكبار والعتو والإصرار ﴿وَمَن يَكۡفُرۡ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ بأمثال هذه الأباطيل المموهة يجازيهم على كلٍ منها بلا فوت شيء ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ ١٩﴾ لا يعزب عن علمه شيءٌ، شديد العقاب لمن أنكر آياته بعد ظهور حقيتها.

﴿فَإِنۡ حَآجُّوكَ﴾ جادلوك يا أكمل الرسل بعد ظهور حقية دينك وكتابك عندهم مكابرةً وعناداً، لا تجادل معهم بل أعرض عنهم ﴿فَقُلۡ أَسۡلَمۡتُ﴾ أي فوضت وسلمت أمري في ظهور ديني ووجّهت[١] ﴿وَجۡهِيَ﴾ صورتي المخلوقة[٢] على صورة الله المستجمع للكل ﴿لِلَّهِ﴾ ظاهراً وباطناً ﴿وَمَنِ ٱتَّبَعَنِۗ﴾ فعليهم الانقياد والتسليم إلى الله في جميع الأمور ﴿وَقُل﴾ يا أكمل الرسل إمحاضاً للنصح ﴿لِّلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ﴾ أي اليهود والنصارى ﴿وَٱلۡأُمِّيِّـۧنَ﴾ الذين لا يأتيهم الكتاب والدعوة: ﴿ءَأَسۡلَمۡتُمۡۚ﴾ بدين الإسلام المبين لتوحيد الله كما أسلمتُ أنا ومن اتبعني بعد ما ظهر لكم دلائل حقيته، أم لم تسلموا بغياً وعناداً؟ ﴿فَإِنۡ أَسۡلَمُواْ﴾ بعد دعوتك وعرضك لهم طريق الهداية ﴿فَقَدِ ٱهۡتَدَواْ﴾ إلى طريق الحق كما اهتديت أنت ومن تبعك ﴿وَّإِن تَوَلَّوۡاْ﴾ أعرضوا عن دعوتك عناداً واستكباراً ﴿فَإِنَّمَا عَلَيۡكَ ٱلۡبَلَٰغُۗ﴾ أي لم يضروك

(١) في المخطوط (توجهت).

(٢) في المخطوط (صورتب المخلوق).

وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٢٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ ٱلَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِٱلْقِسْطِ مِنَ ٱلنَّاسِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢١﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْأَخِرَةِ وَمَا لَهُم ....

بإعراضهم بل ما عليك من حسابهم من شيء، ولا عليهم من حسابك من شيء، فأعرض عنهم ﴿وَٱللَّهُ﴾ المحيطُ بهم وبضمائرهم ﴿بَصِيرٌۢ﴾ خبيرٌ ﴿بِٱلْعِبَادِ ﴿٢٠﴾﴾ وأحوالِهم وأعمالِهم، يجازيهم على مقتضى علمه وخبرته.

وقل لهم أيضاً تذكيراً واستحضاراً حكاية عن حال أسلافهم الماضين:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ﴾ ينكرون ﴿بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ المنزلة على أنبيائه بعد ظهور صدقها وحقيتها ﴿وَ﴾ مع ذلك ﴿يَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ الذين أنزل عليهم الآيات من عنده سبحانه ﴿بِغَيْرِ حَقٍّ﴾ بلا رخصةٍ شرعيةٍ أي موافقةٍ بشرع ودينٍ ﴿وَيَقْتُلُونَ﴾ أيضاً ﴿ٱلَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِٱلْقِسْطِ﴾ بالعدل ﴿مِنَ ٱلنَّاسِ﴾ الذين يتبعون شرائعهم وينقادون بأديانهم ويمتثلون بأوامرهم وأحكامهم جرى عليهم في الدنيا ما جرى، في الآخرة ما جرى بأضعاف ذلك لعلهم يتنبهوا ويمتنعوا وإلا ﴿فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢١﴾﴾ جزاءً لإصرارهم وعنادهم.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ المصرون المعاندون هم ﴿ٱلَّذِينَ حَبِطَتْ﴾ ضاعت بالمرة ﴿أَعْمَٰلُهُمْ﴾ كلها بحيث لا ينفع لهم عند الله لا ﴿فِي ٱلدُّنْيَا وَ﴾ ولا في ﴿ٱلْأَخِرَةِ وَمَا لَهُم﴾ عند ربهم مَن يشفع لهم أو يعين عليهم

مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٢٢﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يُدْعَوْنَ إِلَىٰ كِتَٰبِ ٱللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ وَهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٣﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَٰتٍ وَغَرَّهُمْ فِى دِينِهِم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٢٤﴾

﴿مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٢٢﴾﴾ الذين يدّعون الاقتداء بهم ويستنصرون منهم لكونهم ضالين منهمكين في الغفلة، لا حظَّ لهم من الهداية أصلاً.

﴿أَلَمْ تَرَ﴾ أيها الرائي ﴿إِلَى ٱلَّذِينَ﴾ أي إلى إصرار اليهود وعنادهم مع كونهم ﴿أُوتُوا۟ نَصِيبًا﴾ كاملاً ﴿مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ أي التوراة في زعمهم حين ﴿يُدْعَوْنَ﴾ في الوقائع ﴿إِلَىٰ﴾ رجوع ﴿كِتَٰبِ ٱللَّهِ﴾ الذي يدعون الإيمان والعمل بمقتضاه ﴿لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ﴾ بمقتضى ما أمر الله في كتابه كيف يتكاسلون ويتهاونون ﴿ثُمَّ﴾ يترقى تكاسلهم وتهاونهم إلى أن ﴿يَتَوَلَّىٰ﴾ يستدبر وينبذ ﴿فَرِيقٌ مِّنْهُمْ﴾ الكتاب وراء ظهورهم ﴿وَهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٣﴾﴾ عنه وعن أحكامه بالمرة.

روي أنه عليه السلام دخل مدارس اليهود، فقال لهم نعيم بن عمرو والحارث بن زيد على أي دينٍ أنت يا محمد؟ فقال: على دين أبي إبراهيم عليه السلام، فقال: إن إبراهيم يهوديّ، فقال ﷺ: «هلموا كتابكم ليحكم بيننا وبينكم، فأنكرا عليه وامتنعا عن إحضاره فنزلت»:

﴿ذَٰلِكَ﴾ التولي والإعراض من كثرة الخصلة الذميمة والديدنة الخبيثة، المرتكزة في نفوسهم، المنسوبة إلى دينهم افتراء ﴿بِأَنَّهُمْ﴾ اعتقدوا ﴿قَالُوا۟ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ﴾ المعدة لجزاء العصاة ﴿إِلَّآ أَيَّامًا﴾ قلائل ﴿مَّعْدُودَٰتٍ﴾ سواءً كانت ذنوبنا كثيرةً أو قليلةً، صغيرةً أو كبيرةً ﴿وَغَرَّهُمْ فِى دِينِهِم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٢٤﴾﴾ أي جرأهم على الذنب والعصيان ما يفترون في شأن دينهم من أمثال هذه

فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَٰهُمْ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٥﴾ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِي ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ

الهذيانات، منها قولهم هذا، ومنها اعتقادهم أن آباءهم الأنبياء سيشفعون لهم وإن عظمت ذنوبهم، ومنها أن يعقوب عليه السلام ناجى مع الله أن لا يعذب أولاده إلا تحلة القسم.

قل لهم يا أكمل الرسل نيابة عنا:

﴿ فَكَيْفَ ﴾ لا تمسهم النار اذكر لهم ﴿ إِذَا جَمَعْنَٰهُمْ ﴾ إلينا بعد تفريقهم منا لكسب المعارف والحقائق والمكاشفات والمشاهدات ﴿لِيَوْمٍ ﴾ شأنه ﴿ لَّا رَيْبَ فِيهِ ﴾ عند من يكاشف له ﴿وَ﴾ بعد جمعنا إياهم ﴿وُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ ﴾ جزاءَ ﴿مَّا كَسَبَتْ ﴾ من الحقائق والعرفان والمعاصي والخذلان ﴿ وَهُمْ ﴾ أي كل منهم في ذلك اليوم مجزي بما كسبت ﴿لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٥﴾﴾ فالنَّيل والوصول لأرباب الفضل، والقبول والويل كل الويل لأصحاب الطرد والخمول، أدركنا بلطفك يا خفي الألطاف.

﴿ قُلِ ﴾ يا أيها المتحقق بمقام الشهود الذاتي المكاشف بوحدة الحق دعاءً صادراً من لسان مرتبتك الجامعة الشاملة لجميع المراتب ﴿ٱللَّهُمَّ﴾ يا ﴿مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ﴾ أي المتصرف المستقل في مظاهر ذاتك ﴿تُؤْتِي﴾ تعطي وتكشف بلطفك ﴿ٱلْمُلْكَ﴾ أي التوحيد الذاتي ﴿مَن تَشَآءُ﴾ من خواص مظاهر صفاتك وأسمائك ﴿وَتَنزِعُ﴾ تمنع وتستر بقهرك ﴿ ٱلْمُلْكَ ﴾

﴿مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٦﴾ تُولِجُ ٱلَّيْلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَتُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيْلِ وَتُخْرِجُ ٱلْحَيَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَيِّ وَتَرْزُقُ مَن تَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٢٧﴾﴾ ....

المذكور ﴿مِمَّن تَشَآءُ﴾ من عوامهم، تتميماً لمقتضيات أوصاف جمالك وجلالك ﴿وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ﴾ بالوصول إلى فضاء فنائك ﴿وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ﴾ وراء حجاب سرادقات جلالك، وبالجملة ﴿بِيَدِكَ﴾ وقدرتك وسلطانك ومشيئتك وإرادتك ﴿ٱلْخَيْرُ﴾ أي كله الوجود وظهوره على أنحاء شتى ﴿إِنَّكَ﴾ بذاتك ﴿عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ﴾ من مظاهر وجودك ﴿قَدِيرٌ ﴿٢٦﴾﴾ لا تنتهي قدرتك أصلاً.

ومن جملة مقدوراتك أنك[1] ﴿تُولِجُ﴾ تُدخل وتُدرج ﴿ٱلَّيْلَ﴾ أي العدم ﴿فِي﴾ صورة ﴿ٱلنَّهَارِ﴾ أي الوجود إظهاراً لقدرتك وجمالك ﴿وَتُولِجُ﴾ أيضاً ﴿ٱلنَّهَارَ﴾ نور الوجود ﴿فِي ٱلَّيْلِ﴾ أي مشكاة العدم إظهاراً لقدرتك وجلالك ﴿وَتُخْرِجُ﴾ تظهر ﴿ٱلْحَيَّ﴾ والحق الحقيق مع غاية صفائها وظهورها ﴿مِنَ ٱلْمَيِّتِ﴾ العدم الأصلي الذي هو مرآة التعينات ﴿وَ﴾ أيضاً ﴿تُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ﴾ أي العدم الجامد الذي ما شم رائحة الحياة أصلاً بامتداد أظلال أسمائك وصفاتك عليه ﴿مِنَ ٱلْحَيِّ﴾ الذي لا يموت أبداً وهو ذاتك ﴿وَتَرْزُقُ﴾ بلطفك ﴿مَن تَشَآءُ﴾ من مظاهرك من موائد فضلك وإنعامك ونوال جودك وإحسانك ﴿بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٢٧﴾﴾ تفضلاً لهم وامتناناً عليهم بلا مظاهرة أحدٍ، هب لنا بلطفك من لدنك رحمة إنك أنت الوهاب.

---

(١) في المخطوط (إنك انحاء شتى).

﴿لَا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ ٱللَّهِ فِى شَىْءٍ إِلَّآ أَن تَتَّقُوا۟ مِنْهُمْ تُقَىٰةً﴾ ....

ثم لما بين سبحانه أن الهداية إلى طريق التوحيد والإضلال عنه بقدرته واختياره، يؤتي[1] ملك توحيده من يشأ من عباده ويمنعه عمن يشاء، أراد أن ينبه على خلّص توحيد عباده ما يقربهم إلى الهداية ويبعدهم عن الضلال فقال تحذيراً لهم:

﴿لَّا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ المتوجهون نحو توحيد الذات الطالبون إفناء ذواتهم في ذات الله ليخوضوا في لجج بحر التوحيد ويفوزوا بدرر المعارف والحقائق الكامنة فيها ﴿ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ الساترين بهوياتهم الكثيفة المظلمة نورَ الوجود ﴿أَوْلِيَآءَ﴾ ولا يصاحبون معهم ولا يجالسون موالاةً لهم ومؤاخاةً معهم لقرابة طينية وصداقة جاهلية مع كونهم خالين معهم ﴿مِن دُونِ﴾ حضور ﴿ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ المظاهرين لهم لئلا يسري كفرهم ونفاقهم إليهم، إذ الطبائع تسرق والأمراض تسري، سيما الكفر والفسوق، إذ الطبائع مائلةٌ إليها ﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ﴾ ولم يترك مصاحبتهم ولا موالاتهم ﴿فَلَيْسَ مِنَ﴾ ولاية ﴿ٱللَّهِ﴾ وطريق توحيده ﴿فِى شَىْءٍ﴾ بل ملحقٌ بهم معدودٌ من عداوتهم بل أسوؤهم حالاً وأشدهم جرماً عند الله بعد ما نهاهم الله ولم ينتهوا ﴿إِلَّآ أَن تَتَّقُوا۟ مِنْهُمْ﴾ وتخافوا ﴿تُقَىٰةً﴾ توجب الموالاة والمصاحبة ضرورةً من إتلاف النفس والمال والعرض وعند ذلك المحذور موالاتُهم جائزةٌ ومؤاخاتُهم معذورةٌ

(١) في المخطوط (مؤتي).

وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥۗ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿٢٨﴾ قُلْ إِن تُخْفُوا۟ مَا فِى صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُۗ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٩﴾ يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ ....

مداهنةً ومداراةً ﴿وَ﴾ مع وجود تلك الضرورة المستلزمة للموالاة الضرورية ﴿يُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥۗ﴾ أي يحذركم يا أهل العزائم عن نفسه على وجه المبالغة، حتى لا تأمنوا عن سخطه ولا تغفلوا عن غضبه، ولا تميلوا عنه سبحانه بارتكاب ما نُهيتم عنه ﴿وَ﴾ اعلموا أن المحذورات كلَّها راجعةٌ ﴿إِلَى ٱللَّهِ﴾ إيجاداً وإظهاراً إذ إليه ﴿ٱلْمَصِيرُ ﴿٢٨﴾﴾ في الخير والشر والنفع والضر، لا مرجع سواه ولا منتهى إلا إياه.

﴿قُلْ﴾ لهم يا أكمل الرسل تذكيراً وعظة وتنبيهاً على ما في فطرتهم الجبلية: ﴿إِن تُخْفُوا۟ مَا فِى صُدُورِكُمْ﴾ من محبة أقاربكم ﴿أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُۗ﴾ المحيط بظواهركم وبواطنكم ﴿وَيَعْلَمُ﴾ أيضاً بعلمه الحضوري جميع ﴿مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ من الكائنات والفاسدات أزلاً وأبداً ﴿وَمَا فِى ٱلْأَرْضِۗ﴾ منها لا يغيب عن علمه مما لمع عليه نور وجوده ﴿وَٱللَّهُ﴾ المتجلي لذاته بذاته ﴿عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ﴾ {من} مظاهر تجلياته ﴿قَدِيرٌ ﴿٢٩﴾﴾ بلا فتورٍ وقصورٍ، يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد، يجازيهم على مقتضى علمه وقدرته في النشأة الأخرى.

﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ﴾ خيّرةٍ ﴿مَّا عَمِلَتْ﴾ في النشأة الأولى ﴿مِنْ خَيْرٍ﴾

مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًاۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥۗ وَٱللَّهُ رَءُوفُۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٣٠﴾ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْۗ ....

إحسانٍ وإنعامٍ وعملٍ صالحٍ ويقينٍ وعرفانٍ ﴿مُّحْضَرًا﴾ بين يديه يستحضره ويود استعجاله ﴿وَ﴾ كذا تجد كل نفسٍ شديدةٍ ﴿مَا عَمِلَتْ﴾ فيها ﴿مِن سُوٓءٍ﴾ غير صالحٍ وكفرٍ ونفاقٍ وشركٍ وشِقاق محضراً بين يديه مشاهَداً بين عينيه تستأخره وتتمنى بُعده ﴿تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًاۗ﴾ وزماناً متطاولاً بل يتمنى أن لا تلقاه أصلاً ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ﴾ بهذا التذكير والتنبيه ﴿نَفْسَهُۥۗ﴾ وقدرته على الانتقام وزيادة قهره وغضبه على من استكبر عن أوامره ونواهيه ﴿وَٱللَّهُ﴾ القادر المقتدر على انتقام العصاة ﴿رَءُوفُۢ﴾ عطوفٌ مشفقٌ ﴿بِٱلْعِبَادِ ﴿٣٠﴾﴾ الذين يترصدون إلى الله بين طرفي الخوف والرجاء، معرضين عن جانبي القنوط والطمع.

﴿قُلْ﴾ يا أيها المخلوق على صورتنا، المجبولُ على مقتضيات جميع أوصافنا وأسمائنا، المتخلقُ بجميع أخلاقنا، لمن أراد إرشادهم وتبلغهم من البرايا ﴿إِن كُنتُمْ﴾ أيها الأظلال المنهمكون في بحر الغفلة والضلال ﴿تُحِبُّونَ ٱللَّهَ﴾ أي تدَّعون محبة الله المظهِر لكم من العدم وتطلبون التوجهَ إلى جنابه والتقربَ نحو بابه ﴿فَٱتَّبِعُونِى﴾ بأمره وحكمه ﴿يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾ أي يقربكم إلى جنابه ويوصلكم إلى شرف لقائه ﴿وَيَغْفِرْ﴾ يستر ويضمحل ﴿لَكُمْ﴾ عن أبصاركم وبصائركم ﴿ذُنُوبَكُمْۗ﴾ التي حُجبتم بها عن مشاهدة

وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣١﴾ قُلْ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٢﴾ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ ....

جمال الله وجلاله ومعاينة أسمائه وصفاته ﴿وَٱللَّهُ﴾ الهادي لكم إلى صراط توحيده ﴿غَفُورٌ﴾ لكم يرفع موانع وصولكم ﴿رَّحِيمٌ ﴿٣١﴾﴾ لكم يوصلكم إلى مطلوبكم.

﴿قُلْ﴾ لهم أيضاً أجلُّ أعمالكم وأفضلُها إطاعةُ أمر الله واتباع رسوله المرسل إليكم ﴿أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ﴾ في امتثال جميع أوامره وأحكامه واجتناب جميع نواهيه ومحظوراته مما فاز به المؤمنون ﴿وَ﴾ أطيعوا ﴿ٱلرَّسُولَ ۖ﴾ المبلغَ لكم كتاب الله المبين لكم المراد منه فإن أطاعوا فازوا مما فاز به المؤمنون ﴿فَإِن تَوَلَّوْا۟﴾ أعرضوا عن إطاعة الله ورسوله فقد كفروا فلهم ما سيجري عليهم من عذاب الله وغضبه في النشأة الأخرى ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ﴾ الهادي لعباده ﴿لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٢﴾﴾ منهم لا يقربهم ولا يرضى عنهم، بل يعذبهم ويبعدهم عن عز حضورهم.

ثم لما وقف سبحانه محبته ورضاه لعباده على متابعة حبيبه ورسوله المصور على صورته، المتخلق بأخلاقه، صار مظنة أن يتوهم أن نسبة ظهوره إلى المظاهر كلها على السواء، فما وجه التخصيص باختيار بعضٍ بالمتابعة؟ أشار سبحانه إلى دفعه، بأن من سنتنا تفضيل بعض مظاهرنا على بعض فقال:

﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ﴾ اختار واجتبى ﴿ءَادَمَ﴾ بالخلافة والنيابة وأمر

وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَاهِيمَ وَءَالَ عِمْرَانَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٣﴾ ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾ إِذْ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا

الملائكة الذين يدعون الفضيلة عليه بسجوده وكرّمه على جميع مخلوقاته ﴿وَ﴾ أيضاً اصطفى ﴿نُوحًا﴾ بالنجاة والخلاص وإغراق جميع من في الأرض بدعائه ﴿وَ﴾ كذا اصطفى ﴿ءَالَ إِبْرَاهِيمَ﴾ أي أهل بيته بالإمامة والخلافة، لذلك دعا إبراهيم عليه السلام ربه بأن لا يخرج[1] الزمان عن إمامة ذريته إلى يوم القيامة ﴿وَ﴾ كذا اختار ﴿ءَالَ عِمْرَانَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٣﴾﴾ بإرهاصاتٍ ومعجزاتٍ لم يظهر من أحد مثلها مثل إبراء الأكمه والأبرص وإحياء الموتى والولادة بلا أب وغير ذلك، ثم إن اصطفاء الله إياهم ليس مخصوصاً بهم بل اصطفى منهم:

﴿ ذُرِّيَّةً ﴾ أخلافاً فضلاء ﴿بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ﴾ أي أعلى رتبة من بعض في الفضيلة كما قال سبحانه: ﴿تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ [٢-البقرة٢٥٣] الآية ﴿وَٱللَّهُ﴾ المحيط بسرائر عباده المتوجهين نحو بابه ﴿سَمِيعٌ﴾ لمناجاتهم الصادرة من ألسنة استعداداتهم ﴿عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾﴾ بما يليق لهم من المراتب العلية.

اذكر يا أكمل الرسل لمن تبعك من مناقب آل عمران وقت ﴿ إِذْ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ عِمْرَانَ﴾ حين ناجت ربها في سرها بلسان استعدادها وقت ظهور حملها بإلقاء الله إياها: ﴿رَبِّ﴾ يا من رباني بحولك وقولك ﴿ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا﴾ معتقاً عن أمور الدنيا كلها، خالصاً لعبادتك وخِدمة بيتك لا أشغله شيئاً سواه، وكان من عادتهم تحرير بعض أولادهم الذكور لخدمة

---

(١) في المخطوط (يخ).

فَتَقَبَّلْ مِنِّيٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٥﴾ فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ ۖ وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّيٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٣٦﴾ ....

بيت المقدس شرفها الله ﴿فَتَقَبَّلْ﴾ بلطفك ﴿مِنِّيٓ﴾ماندرتُ لك للتقرب إليك يا رب ﴿إِنَّكَ﴾ بذاتك وصفاتك وأسمائك ﴿أَنتَ ٱلسَّمِيعُ﴾ لمناجاتي ﴿ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٥﴾﴾ بحاجاتي.

﴿فَلَمَّا وَضَعَتْهَا﴾ أنثى آيست ﴿قَالَتْ﴾ متحسرةً متحيرةً مشتكيةً إلى ربها في نذرها: ﴿رَبِّ إِنِّي﴾ وإن بالغت في إخلاص النية في نذري لم تقبله مني يا رب أن ﴿وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ﴾ والأنثى لا تصلح لخدمة بيتك، ﴿وَ﴾ لما امتدت في إظهار التحزن وبث الشكوى والتحسر نودي في سرها: لا تجزعي ولا تحزني إذ ﴿ٱللَّهُ﴾ المطلع لإخلاص نيتك ﴿أَعْلَمُ﴾ منك ﴿بِمَا وَضَعَتْ﴾ وما ظهرت منها من البدائع والغرائب والإرهاصات الخارقة للعادات ﴿وَلَيْسَ﴾ مطلق ﴿ٱلذَّكَرُ﴾ الذي حرر لخدمة هذا البيت ﴿كَٱلْأُنثَىٰ﴾ التي هي هذه، إذ يترتب على وجود عجائب صنع الله وبدائع قدرته لما سمعت بسمع سرها ما سمعت قالت نشطة فرحانة[1]: ﴿وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ﴾ ليكون اسمها مطابقاً لمسماها لأن مريم في لغتهم بمعنى العابدة، ولما تحققت عندها بإلهام الله وقاية الله إياها وذريتها، قالت مفوضة إلى الله: ﴿وَإِنِّيٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا﴾ أيضاً ﴿مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٣٦﴾﴾ لتكون هي وهم في حفظك وحمائك من إغوائه وإضلاله.

---

(١) هكذا وردت في المخطوط.

فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا ۖ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا ۖ قَالَ يَٰمَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا ۖ ....

﴿ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا ﴾ ما نذرت له ﴿ بِقَبُولٍ حَسَنٍ ﴾ حتى نشطت بمكاشفة اللطف من الله بعد ما آيست ﴿وَ﴾ بعد قبول الحسن ﴿أَنۢبَتَهَا﴾ ربها بلطفة حتى صار ﴿نَبَاتًا حَسَنًا﴾ مظهراً لعجائب صنعه وبدائع حكمته ﴿وَ﴾ بعدما انبتها وتقبلها ﴿كَفَّلَهَا﴾ أي جعل كفيلها وحاضنها من أحبار البيت ﴿زَكَرِيَّا ﴾.

روي أن حنة لما كوشفت بأمرها بإلهام الله إياها لفتها في خرقه وحملتها إلى المسجد، ووضعتها عند الأحبار المجاورين فيه على العادة المستمرة، وقالت: دونكم هذه النذيرة.

فتخالفوا في حضانتها لأنها كانت بنت إمامهم وملكهم، فقال زكريا: أنا أحق بحضانتها، لأن عندي خالتها فأبطأ إلى أن اقترعوا وكانوا سبعة وعشرين، فانطلقوا إلى نهر فألقوا فيها أقلامهم، فطفا قلم زكريا ورسبت أقلامهم، فتكفلها في بيتٍ لا باب له[1] إلا كوة في سقفه[1].

فلما أراد زكريا أن يأتي برزقها نزل منها ولما خرج أغلق وقفل ثم صار ﴿ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ ﴾ لتفقدها ﴿ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا ﴾ من ألوان الأطعمة والفواكه، وكان يجد عندها فاكهة الشتاء في الصيف، والصيف في الشتاء، فتعجب من حالها إلى أن سألها ﴿ قَالَ يَٰمَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا ﴾ من

(١) (لها) و(سقفها) هكذا وردتا في المخطوط بالتأنيث.

﴿قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٧﴾ هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُۥ ۖ قَالَ رَبِّ هَبْ لِى مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً ۖ إِنَّكَ سَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴿٣٨﴾ فَنَادَتْهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٌ يُصَلِّى فِى ٱلْمِحْرَابِ أَنَّ ٱللَّهَ ....﴾

أين لك هذا الرزق الآتي الذي لا يشبه أطعمة الدنيا، والفاكهة الآتية لا على وفق العادة والأبواب مغلقة عليك؟! ﴿قَالَتْ﴾ بإلهام الله إياها: ﴿هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ المتكفلِ لأرزاق عباده ﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾ المراقب المحافظ لتربية مظاهره ﴿يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ﴾ ما يشاء ﴿بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٧﴾﴾ بلا إحصاءٍ وتعديدٍ من حيث لا يحتسب، ولما سمع زكريا منها ما سمع ورأى ما رأى.

﴿هُنَالِكَ﴾ أي في ذلك الوقت[١] والزمان ﴿دَعَا زَكَرِيَّا﴾ المراقب لنفحات الله في جميع حالاته ﴿رَبَّهُۥ﴾ الذي رباه بتعرض نفحاته لإصلاح حاله متمنياً في دعائه خلفاً يُحيي اسمه حيث ﴿قَالَ رَبِّ هَبْ لِى مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً﴾ بريئةً عن جميع الرذائل والنقائص، كما وهبتها لامرأة عمران ﴿إِنَّكَ﴾ بإحاطتك على سرائر عبادك ﴿سَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴿٣٨﴾﴾ أي الدعاء الصادر عن ألسنة استعداداتهم بإلقائك على قلوبهم.

ولما كان دعاؤه صادراً عن عزيمة صحيحة واردةٍ في وقت قدر الله في علمه، بادر سبحانه إلى إجابته وأمر الملائكة بتبشيره:

﴿فَنَادَتْهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ بأمر ربهم ﴿وَهُوَ﴾ في تلك الحالة مترصدٌ للإجابة ﴿قَآئِمٌ﴾ للخضوع والتذلل ﴿يُصَلِّى﴾ لله ويميل إليه مقبلاً عليه ﴿فِى ٱلْمِحْرَابِ﴾ المعدّ للاستقبال قائلين له منادين عليه: يا زكريا ﴿أَنَّ ٱللَّهَ﴾ السميع لدعائك

---

(١) في المخطوط (تلك الوقت..) هكذا.

يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٣٩﴾ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ ٱلْكِبَرُ وَٱمْرَأَتِي عَاقِرٌ قَالَ كَذَٰلِكَ ٱللَّهُ ....

يجيبك ﴿يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ﴾ بابن سمي من عنده بيحيى، لتضمن دعائك بمن يُحْيِي اسمك، ثم لما كان الباعث لك على هذا الدعاء مشاهدة الخوارق والإرهاصات الظاهرة من مريم رضي الله عنها، صار ابنك الموهوب لك ﴿مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ﴾ لابنها الحاصل لها بلا مباشرة زوجٍ بل صادرة ﴿مِّنَ ٱللَّهِ﴾ سمّي من عنده المسيح، ﴿وَ﴾ مع كونه مصدقاً بعيسى عليه السلام يصير ﴿سَيِّداً﴾ فائقاً على أهل زمانه بالزهد والتقوى، فإنه عليه السلام كان في حياته ما هَمَّ بمعصيةٍ قط ﴿وَ﴾ مع كون يحيى سيداً ورئيساً في قومه ﴿حَصُوراً﴾ مبالغاً في حبس نفسه عن مشتهياتها مع القدرة عليها ﴿وَ﴾ يصير بسبب اتصافه بالأوصاف المذكورة ﴿نَبِيًّا مِّنَ﴾ الأنبياء ﴿ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٣٩﴾﴾ لتبليغ أحكام الله إلى عباده وإهدائهم إلى جنابه.

ولما سمع زكريا من الملائكة ما سمع ﴿قَالَ﴾ متحيراً مستبعداً لكونه على خلاف جري العادة: ﴿رَبِّ﴾ يا من رباني بنعمك إلى كبر سني ﴿أَنَّىٰ﴾ من أين ﴿يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ﴾ في هذا السن ﴿وَقَدْ بَلَغَنِيَ ٱلْكِبَرُ﴾ غايتها ﴿وَ﴾ الحال إن ﴿ٱمْرَأَتِي عَاقِرٌ﴾ ذات عقر[1] من الأولاد في أصل الخلقة ومع ذلك كبيرةٌ لا يرجى منها الولادة ﴿قَالَ﴾ له جبرائيل بوحي الله: لا تستبعده، فإنه يكون ﴿كَذَٰلِكَ﴾ أي مثل ما قلت بلا سبب موافقٍ لجري العادة إذ ﴿ٱللَّهُ﴾ القادر

(١) في المخطوط (زادت عقر).

يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ﴿٤٠﴾ قَالَ رَبِّ ٱجْعَل لِّيٓ ءَايَةً قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا وَٱذْكُر رَّبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ ﴿٤١﴾

المقتدر المختار ﴿يَفْعَلُ﴾ يخلق ويوجد ﴿مَا يَشَآءُ ﴿٤٠﴾﴾ من الموجودات إيجاداً إبداعياً بلا سبق سببٍ ومادةٍ.

فلك أن ترتفع غشاوة الأسباب الحاجبة عن البين وتنسب ما جرى في ملكه إليه بلا رؤية الوسائط والأسباب، إذ لا حجاب عند أولي الألباب، بل كل ما صدر عنه لا يتوقف على شيء من سوابقه، ولا يتوقف عليه شيء من لواحقه عند أولى البصائر الناظرين بنور الله في تجددات تجليات الوجود الإلهي.

ثم لما تفطن زكريا من هذا الكلام ما تفطن:

﴿قَالَ﴾ مستسرعاً مستنشطاً: ﴿رَبِّ﴾ يا من رباني بأنواع اللطف والكرم ﴿ٱجْعَل لِّيٓ﴾ بفضلك ﴿ءَايَةً﴾ علامةً أعرف بها الحمل ليفرح بها قلبي ويخلص عن الانتظار ﴿قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ﴾ أي لا تطيق التكلم معهم لعدم مساعدة آلاتك عليه مدةً ﴿ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ﴾ ولا تعلمهم حوائجك ﴿إِلَّا رَمْزًا﴾ إشارة بيدٍ ورأسٍ وغير ذلك ﴿وَ﴾ عند حبسك عن الكلام والتنطق ﴿ٱذْكُر رَّبَّكَ﴾ في نفسك ذكراً ﴿كَثِيرًا وَسَبِّحْ﴾ نزّهه عن جميع النقائص تسبيحاً مقارناً ﴿بِٱلْعَشِيِّ﴾ أي جميع الليل ﴿وَٱلْإِبْكَٰرِ ﴿٤١﴾﴾ أي جميع النهار لتستوعب جميع أوقاتك بذكره.

من هذا تفطن العارف أن الداعي المستجيب من الله لا بدّ له أولاً أن يفرغ

وَإِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصْطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٢﴾ يَٰمَرْيَمُ ٱقْنُتِى لِرَبِّكِ وَٱسْجُدِى ....

قلبه عن غير الله، ويستوعب أوقاته بذكره بل يكلّ لسانه عن ذكر غيره مطلقاً، حتى يفوز بمطلوبه ويجيب له بفضله وطَوله.

﴿وَ﴾ اذكر يا أكمل الرسل لمن تبعك من مدائح آل عمران واصطفاء الله إياهم ﴿إِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ بأمر الله ووحيه لمريم رضي الله عنها ملهمين لها مشافهين معها منادين على سرها: أبشري ﴿يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰكِ﴾ اختارك لخدمة بيته مع أنه لم يعهد منه اختيار النساء للخدمة ﴿وَطَهَّرَكِ﴾ بفضله عن جميع الخبائث والأدناس العارضة للنسوان ﴿وَٱصْطَفَىٰكِ﴾ خيرك وفضلك بهاتين الخصلتين الحميدتين ﴿عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٢﴾﴾ وإنما خصصها بما خصصها لتكون آيةً لما يترتب عليها ويظهر بسببها من بدائعِ أودعه الله سبحانه في إيجادها من حبلها بلا مباشرةِ أحدٍ، بل بمجرد كلمةٍ ملقاة من عنده ومعجزاتٍ وخوارقَ ظهرت من ابنها لم يظهر مثلها من أحد.

ثم لما أخبرت الملائكة بإصفائه سبحانه إياها، نادتها الملائكة ثانياً بأمر الله أيضاً، تعليماً لها التوجه والرجوع إلى الله على وجه الخضوع والتذلل والإخبات والخشوع.

﴿يَٰمَرْيَمُ﴾ المختارة المقبولة عند الله ﴿ٱقْنُتِى﴾ توجهي وتضرعي ﴿لِرَبِّكِ﴾ الذي رباك بلطفه وَقَبِلك نذيرة من أمك واصطفاك على نساء العالمين بأنواع الفضائل شكراً لما تفضل عليك ﴿وَٱسْجُدِى﴾ واخضعي وتذللي نحوه ملقية

وَٱرۡكَعِي مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴿٤٣﴾ ذَٰلِكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ ٱلۡغَيۡبِ نُوحِيهِ إِلَيۡكَۚ وَمَا كُنتَ لَدَيۡهِمۡ إِذۡ يُلۡقُونَ أَقۡلَٰمَهُمۡ أَيُّهُمۡ يَكۡفُلُ مَرۡيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيۡهِمۡ إِذۡ يَخۡتَصِمُونَ ﴿٤٤﴾ ....

جباهك على الأرض لأداء شيء من حقه ﴿وَٱرۡكَعِي﴾ دائماً لخدمة بيته وتطهيراً من الأوساخ والأدناس ﴿مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴿٤٣﴾﴾ المحررين المنحنين قامتهم دائماً على خدمة الله وخدمة بيته.

﴿ذَٰلِكَ﴾ المذكور من اصطفاه الله آدم ونوحاً وآل إبراهيم وآل عمران وخصوصاً قصة مريم وأمها وزكريا وزوجه وابنه ﴿مِنۡ أَنۢبَآءِ ٱلۡغَيۡبِ﴾ أي من الأخبار المغيبة المجهولة عندك ﴿نُوحِيهِ إِلَيۡكَۚ﴾ يا أكمل الرسل مع خلاء خاطرك وضميرك عنها ولا معلم لك سوى وحينا وإلهامنا مع كونك أمياً عن مطالعة القصص والتواريخ ﴿وَ﴾ الحال أنه ﴿مَا كُنتَ﴾ لهويتك الشخصية ﴿لَدَيۡهِمۡ﴾ وقت ﴿إِذۡ يُلۡقُونَ﴾ أي الأحبار ﴿أَقۡلَٰمَهُمۡ﴾ للاقتراع في أنهم ﴿أَيُّهُمۡ يَكۡفُلُ﴾ يحفظ ﴿مَرۡيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيۡهِمۡ﴾ أيضاً ﴿إِذۡ يَخۡتَصِمُونَ ﴿٤٤﴾﴾ في أمرها وحفظها.

وإنما نوحيه إليك ليكون آيةً لك على صدقك في دعواك النبوة والرسالة، والإنكار على أمثال هذه الأخبارات والإنباءات الصادرة عن الأنبياء والأولياء، المستندة إلى محض الوحي والإلهام النازلة من عند الله، إنما نشأ من العقل القاصر المموه المضل عن طريق الكشف واليقين، وإلا فمن صفات عقله المفاض له من حضرة العلم المحيط الإلهي عن كدورات

....

الوهم والخيال، وانكشفت سريرة سره بسرائر الأقوال والأفعال والأحوال، ظهر عنده بلا سترة وحجاب أن من النفوس البشرية من ترقب في هذه النشأة من عالم الشهادة إلى عالم الغيب، واتصلت بالمبادئ العلية التي هي الصفات الإلهية، واضمحلت ناسوتها وغلبت اللاهوتية عليها.

وحينئذ ظهرت منها على اتفاق من الحضرة العلية الإلهية وإرادةٍ غيبية ومكاشفات عينية متعلقة بعضها بالغيب، وبعضها بالشهادة، كالإخبار عن الوقائع الماضية والمستقبلية، كما نسمع ونشاهد أمثال ذلك من بعض بدلاء الزمان، أدام الله بركته على مفارق أهل اليقين والعرفان، في حالتي قبضه وبسطه حكاياتٍ وكلماتٍ متعلقةٍ بوقائعَ وقعت في البلاد البعيدة.

ونحن نجزم بوقوع بعضها كما نسمع منه، ونجزم أيضاً بأنه ما هو حاضر عند وقوعها، وأيضاً نجزم بأنه لم يسمع من أحد لانسلاخه عن الاستخبار والاستفسار على الوجه المعتاد بين الناس، وسمع منه مدخله أيضاً عن الأحوال التي جرت بيننا وبينه بمدة متطاولة نستحضره في خلواته، ويتلفظ بها بلا فوت دقيقة، ونحن إذا راجعنا وجداننا لم نستحضر الأمور التي جرت علينا في يومنا هذا بلا فوت شيء.

وأمثال ذلك من جنابه أدام الله بركته كثيرة ومن له أدنى بصيرة وإيمان صادق بطريق المكاشفة والوحي والإلهام الإلهي، لم يشك في أمثال هذه الخوارق من الأنبياء والأولياء أصلاً، بل يعلم يقيناً أن الحكمة والمصلحة في إظهار نوع الإنسان وإرسال الرسل وإنزال الكتب إنما هي لهذا التفطن والتدبر، ومن لم

﴿إِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ وَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٥﴾ وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٤٦﴾﴾ ....

يجعل الله له نوراً{ فما له} من نور.

اذكر يا أكمل الرسل لمن تبعك من مدايحها وقت ﴿إِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ منادين على سرها مبشرين لها ﴿يَٰمَرْيَمُ﴾ المختارة المصطفاة: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾ المتفضل عليك بأنواع اللطف والكرم ﴿يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ﴾ صادرةٍ ﴿مِّنْهُ﴾ مكونةٍ لك منك ابناً بلا أبٍ إظهاراً لقدرته ليكون معجزة لابنك وإرهاصاً لك ﴿ٱسْمُهُ﴾ من عنده ﴿ٱلْمَسِيحُ﴾ لفظٌ سرياني معناه: المبارك؛ لأنه سبحانه بارك عليه، وعَلَمُهُ الشخصي بين[1] الأنام ﴿عِيسَى﴾ وهو من الأعلام العجمية وكنيته ﴿ٱبْنُ مَرْيَمَ﴾ إذ لا أب له حتى يكنى به وهو مع كونه بلا أب ﴿وَجِيهًا﴾ مشهوراً معروفاً مرجعاً للأنام ﴿فِى ٱلدُّنْيَا﴾ بالنبوة والرسالة، يتوجه إليه الناس في أمور معاشهم ومعادهم ﴿وَ﴾ في ﴿ٱلْآخِرَةِ﴾ أيضاً لرجوعهم إليه للشفاعة ﴿وَ﴾ كيف لا يشفع للعصاة وهو ﴿مِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٥﴾﴾ عند الله.

﴿وَ﴾ علامة تقربه أنه ﴿يُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ﴾ بما يتعلق بأمور الدنيا والدين حال كونه طفلاً ﴿فِى ٱلْمَهْدِ وَ﴾حال كونه ﴿كَهْلًا﴾ على طريقٍ واحد بلا تفاوتِ زيادةٍ ونقصانٍ ﴿وَ﴾ هو لنجابة عرقه في حالتي الطفولة والكهولة ﴿مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٤٦﴾﴾ للرسالة والنبوة.

---

(١) في المخطوط (بني).

قَالَتْ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ ۖ قَالَ كَذَٰلِكِ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ ۚ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴿٤٧﴾ وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ

فلما سمعت مريم ما سمعت تضرعت إلى ربها واشتكت حيث:

﴿قَالَتْ رَبِّ﴾ يا من رباني بالستر والصلاح والعبادة والفلاح: ﴿أَنَّىٰ﴾ من أين ﴿يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَ﴾ وأنت تعلم يا رب أني ﴿لَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ﴾ ومن سنتك إيجاد الولد بعد مباشرة الزوج ﴿قَالَ﴾ سبحانه إشفاقاً لها وإزالة لشكها: ﴿كَذَٰلِكِ﴾ أي مثل حالتك التي تعجبين منها وهي ولادتك بلا مساسِ أحد وجود جميع الأشياء الظاهرة من كتم العدم ظهوراً إبداعياً إذ ﴿اللَّهُ﴾ بقدرته ﴿يَخْلُقُ﴾ يظهر جميع ﴿مَا يَشَاءُ﴾ بلا سبق مدة ومادة بل ﴿إِذَا قَضَىٰ﴾ أراد ﴿أَمْرًا﴾ إيجادَ أمرٍ وإظهاره من الأمور المكانية الثابتة في حضرة العلم ﴿فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ﴾ تنفيذاً لقضائه مجرد كلمة: ﴿كُن فَيَكُونُ ﴿٤٧﴾﴾ بلا تراخٍ ولا مهلةٍ، بلا توقف على شرطٍ وارتفاع مانعٍ، وحالك التي تتعجبين منها وتستبعدين وقوعها من هذا القبيل.

ولا تحزني ولا تخافي من التهمة والفضيحة والتعيير والتشنيع، إذ لابنكِ خصائصُ ومعجزاتٌ رفعت[1] عنك جميع ما يعيبك ويشينك، إذ لا يشتبه على ذي عقلٍ إن ولد الزنا لا يتصف بأمثال هذه الخصائل والخوارق، ﴿وَ﴾ من جملتها أنه ﴿يُعَلِّمُهُ﴾ من لدنه بلا تعليم أحد ﴿الْكِتَابَ﴾ أي العلوم المتعلقة بالأمور الظاهرة والتدابير الملكية الشهادية ﴿وَالْحِكْمَةَ﴾ أي العلوم الباطنة المتعلقة بالحقائق الغيبية ﴿وَ﴾ يعلمه أيضاً ﴿التَّوْرَاةَ﴾ المنزل على موسى

(١) في المخطوط (ارتفعت).

وَٱلْإِنجِيلَ ﴿٤٨﴾ وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنِّى قَدْ جِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ أَنِّىٓ أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۖ وَأُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ وَأُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۖ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِى بُيُوتِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ ....

صلوات الله عليه ﴿وَ﴾ ينزل عليه خاصة ﴿ٱلْإِنجِيلَ ﴿٤٨﴾﴾ من عنده.

﴿وَ﴾ بعد إنزال الإنجيل يرسله ﴿رَسُولًا إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ يدعوهم إلى طريق الحق ويهديهم إلى صراط مستقيم ويؤيده بالآيات الساطعة والمعجزات الباهرة الظاهرة من يده الدالة على تصديقه إلى حيث يقول: ﴿أَنِّى﴾ بأمر ربي ﴿قَدْ جِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ﴾ دالةٍ على نبوتي ورسالة نازلةٍ ﴿مِّن رَّبِّكُمْ﴾ وهي ﴿أَنِّىٓ أَخْلُقُ﴾ أصور وأقدر ﴿لَكُم﴾ بين أيديكم بإقدار الله إياي ﴿مِّنَ ٱلطِّينِ﴾ الجماد صورةً ﴿كَهَيْـَٔةِ﴾ كصورةِ ﴿ٱلطَّيْرِ﴾ ومثاله جماداً بلا حسٍ وحركةٍ ﴿فَأَنفُخُ فِيهِ﴾ أي في ذلك المثال ﴿فَيَكُونُ طَيْرًۢا﴾ حيواناً طياراً مثل سائر الطيور، ذلك التقدير والنفخ يصير صادراً مني ﴿بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ بقدرته وإرادته ﴿وَ﴾ كذا ﴿أُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ﴾ المكفوف العينين ﴿وَٱلْأَبْرَصَ﴾ الذي لا يرجى برؤهما ﴿وَ﴾ أعظم من جميع ذلك أن ﴿أُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ القديمة كل ذلك ﴿بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ وقدرته وإرادته، فهو إجمالاً لا اطلاع لكم على لّميّته بعد وقوعها أيضاً ﴿وَ﴾ مما لكم اطلاع عليه بعد وقوعه ﴿أُنَبِّئُكُم﴾ أخبركم ﴿بِمَا تَأْكُلُونَ﴾ من الطعام والفواكه ﴿وَمَا تَدَّخِرُونَ﴾ منها ﴿فِى بُيُوتِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ﴾ المذكور من المعجزات والخوارق التي ما جاء

لَآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٤٩﴾ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى حُرِّمَ عَلَيْكُمْ ۚ وَجِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿٥٠﴾ إِنَّ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ ....

به أحد ﴿لَآيَةً﴾ ظاهرةً دالةً على نبوتي ورسالتي ﴿لَّكُمْ﴾ لإهدائكم ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٤٩﴾﴾ بالله وإرسال الرسل وإنزال الكتب.

﴿وَ﴾ مع هذه الآيات والمعجزات الظاهرة الباهرة جئتكم ﴿مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ﴾ المنزل على موسى صلوات الرحمن عليه، بل على جميع الكتب المنزلة على الأنبياء الماضين صلوات الله عليهم أجمعين وأديانهم وشرائعهم، إذ من جملة أمارات النبوة تصديق الأنبياء الذين مضوا من قبله ﴿وَ﴾ جئتكم أيضاً ﴿لِأُحِلَّ لَكُم﴾ في دينكم وملتكم المنزلة من عند الله عليّ ﴿بَعْضَ ٱلَّذِى حُرِّمَ عَلَيْكُمْ ۚ﴾ في الأديان الماضية إذ من سنته سبحانه نسخ بعض الأديان ببعضٍ، وإن كان الكل نازلٌ من عنده ولمية أمر النسخ ما مر في سورة البقرة في قوله: ﴿مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ﴾ [٢-البقرة: ١٠٦] الآية ﴿وَ﴾ الحاصل أني ﴿وَجِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ﴾ قاطعةٍ ساطعةٍ ﴿مِّن رَّبِّكُمْ﴾ دالةٍ على توحيده سبحانه، أفردها من عنده باعتبار أن كل واحد من المذكورات يكفي لثبوت نبوته، وبعدما ظهر منه الكل[1] ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ أي فاحذروا الله من غضبه أن لا تؤمنوا بعد وضوح الدلائل ﴿وَأَطِيعُونِ ﴿٥٠﴾﴾ في جميع ما جئت به من عنده سبحانه.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾ المصلحَ المدبرَ لحالي وحالكم ﴿رَبِّى وَرَبُّكُمْ﴾ أحسن

---

(١) في المخطوط (وإذا ظهر عندكم شيء منها شيء خصوصاً جميعها من ربكم).

فَٱعۡبُدُوهُۚ هَٰذَا صِرَٰطٞ مُّسۡتَقِيمٞ ﴿٥١﴾ ۞ فَلَمَّآ أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنۡهُمُ ٱلۡكُفۡرَ قَالَ مَنۡ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِۖ قَالَ ٱلۡحَوَارِيُّونَ نَحۡنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشۡهَدۡ بِأَنَّا مُسۡلِمُونَ ﴿٥٢﴾ ....

تربيتي بفضله ولطفه وتربيتكم بأن أرسلني إليكم، وإذا سمعتم ما جئت به وأطعتم بمضمونه ﴿فَٱعۡبُدُوهُۚ﴾ حتى تعرفوه واعلموا أن ﴿هَٰذَا﴾ أي العبادة والإيمان ﴿صِرَٰطٞ مُّسۡتَقِيمٞ ﴿٥١﴾﴾ إلى اليقين والعرفان، فعليكم أن تسلكوه على الوجه الذي أمرتم به، والله المستعان، يوصلكم إلى غاية متمناكم، ونهاية مقصدكم ومرماكم.

﴿ ۞ فَلَمَّآ أَحَسَّ عِيسَىٰ﴾ أي شعر وأدرك بنور النبوة ﴿مِنۡهُمُ ٱلۡكُفۡرَ﴾ وعدم تأثرهم بالمعجزات الظاهرة والآيات الباهرة ﴿قَالَ﴾ مستفسراً مستبشراً، إظهاراً للمحبة معهم اختباراً لهم على مقتضى وفق النبوة ﴿مَنۡ أَنصَارِيٓ﴾ في إهداء المضلين ﴿إِلَى﴾ سبيل ﴿ٱللَّهِۖ﴾ ينصرني ويعينني عليه ﴿قَالَ ٱلۡحَوَارِيُّونَ﴾ أي الجماعة من أصحابه المنسوبة إلى الحور الذي هو البياض لصفاء قلوبهم وعقائدهم عن كدورة النفاق والشقاق، وخلوص طويتهم بالوفاق: ﴿نَحۡنُ أَنصَارُ﴾ رسول ﴿ٱللَّهِ﴾ ننصرك بقدر وسعنا وطاقتنا في إجراء أحكام الله وتنفيذ أوامره لأنا ﴿ءَامَنَّا بِٱللَّهِ﴾ المرسِل للرسل المنزِّل الكتب بتبليغك إيانا ﴿وَٱشۡهَدۡ﴾ أيها الداعي للخلق إلى الحق لنا يوم العرض الأكبر عند الملك المقتدر ﴿ بِأَنَّا﴾ مع إيماننا وإخلاصنا فيه ﴿مُسۡلِمُونَ ﴿٥٢﴾﴾ منقادون مطيعون لما جئت به من عند ربنا لإصلاح حالنا.

رَبَّنَآ ءَامَنَّا بِمَآ أَنزَلْتَ وَٱتَّبَعْنَا ٱلرَّسُولَ فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٥٣﴾ وَمَكَرُوا۟ وَمَكَرَ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴿٥٤﴾ إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّى مُتَوَفِّيكَ ....

ثم لما اعترفوا بالإيمان بالله وبنصرة رسوله المبلغ لأحكامه، وأشهدوا على إيمانه وإسلامهم، ناجوا مع الله مخبتين مخلصين في سرهم حيث قالوا:

﴿رَبَّنَآ﴾ يا من ربانا بإرسال الرسل وإنزال الكتب ﴿ءَامَنَّا﴾ بتوفيقك وبإرشاد رسلك ﴿بِمَآ أَنزَلْتَ﴾ من الكتاب المبين لأحكامك المنبهة المتعلقة لتوحيدك ﴿وَ﴾ مع الإيمان به ﴿اتَّبَعْنَا﴾ في امتثال ما أمرت له فيه ﴿ٱلرَّسُولَ﴾ المنزلَ عليه، المتمثلَ بجميع أوامره الموصلة إلى الكشف والشهود ﴿فَٱكْتُبْنَا﴾ بفضلك ﴿مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٥٣﴾﴾ الذين لا يشهدون في الوجود سوى شمس ذاتك وتجلياتها.

﴿ وَمَكَرُوا۟﴾ احتالوا أي الكافرون المحسوسون بالكفر في قتل عيسى عليه السلام بأن وكلوا عليه من يقتله غيلة ﴿وَمَكَرَ ٱللَّهُ﴾ معهم في إنجائه ورفعه إلى السماء، وإلقاء شبهه على من اغتال عليه، حتى قُتل مجاناً على مظنة أنه هو، مع أنه رفع إلى السماء ﴿وَٱللَّهُ﴾ المنتقم عن من ظلم لأجل من ظُلم ﴿خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴿٥٤﴾﴾ أي أقوى المحتالين لمن اغتال عليه لقتله.

اذكر يا أكمل الرسل ﴿ إِذْ قَالَ ٱللَّهُ﴾ إعلاماً لعيسى عليه السلام حين هموا بقتله وعينوا من اغتال عليه وهو غافل عن كيدهم ﴿يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّى﴾ بغلبة لاهوتيتي عليك ﴿مُتَوَفِّيكَ﴾ مصفيك عن ناسوتيتك المانعة عن الوصول

وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَجَاعِلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ فَوْقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٥٥﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ....

إلى مقر العز ﴿وَ﴾ بعد تصفيتك عن كدورة ناسوتيتك ﴿رَافِعُكَ﴾ بعد ارتفاع موانعك ﴿إِلَيَّ﴾ إذ لا مرجع لك غيري ﴿وَ﴾ بعد رفعك ﴿مُطَهِّرُكَ﴾ ومزكيك ﴿مِنَ﴾ حجاب ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ ستروا بغيوب أنانيتك الباطلة شمس الذات الظاهرة على جميع الذرات ﴿وَ﴾ إني بعد رفعك إلي ﴿جَاعِلُ ٱلَّذِينَ﴾ آمنوا بك و ﴿ٱتَّبَعُوكَ﴾ في جميع ما جئت به لإصلاح حالهم ﴿فَوْقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾ أي أعلى رتبةً وأشرف منزلةً ومكانةً ﴿إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ بحيث ضربت عليهم الذلة والمسكنة، وباؤوا بغضبٍ من الله، ولهم عذاب اليم وبعد ظهور عيسى عليه السلام لم يتفق غلبة اليهود أصلاً، بل كانوا منكوبين منكوسين دائماً إلى الآن ﴿ثُمَّ﴾ قال سبحانه بلسان التوحيد على وجه التنبيه لعيسى ولمن آمن له ولمن أنكر عليه وكفر: ﴿إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ﴾ جميعاً في النشأة الأخرى أيها المختلفون في أمر الدين والإطاعة والإيمان والكفر في النشأة الأولى ﴿فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ﴾ بعد رجوعكم إليّ ﴿فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٥٥﴾﴾ على مقتضى علمي وإرادتي.

ثم فصل سبحانه حكمه بقوله:

﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ ستروا سبيل الحق الظاهر عن مشكاة النبوة والرسالة عناداً واستكباراً وكذبوا الأنبياء وأنكروا ما جاؤوا من الأحكام والمواعظ

فَأُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٥٦﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٧﴾ ذَٰلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ ٱلْآيَٰتِ ....

والحكم والعبر وأصروا عليها ﴿فَأُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا﴾ أطردهم وأبعدهم ﴿فِي ٱلدُّنْيَا﴾ بالمذلة والصغار والإجلاء وضرب الجزية ﴿وَ﴾ في ﴿ٱلْآخِرَةِ﴾ بجهنم البعد والخذلان وسعير الطرد والحرمان ﴿وَمَا لَهُم﴾ بعد ظهور الدين الناسخ للأديان الماضية ﴿مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٥٦﴾﴾ من الأنبياء الذين يدّعون الإيمان بهم ويدعونهم بدينهم وكتابهم ينصرونهم وينقذونهم من عذاب الله لتركهم العمل بالناسخ.

﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ بالدين الناسخ والكتاب الناسخ واتبعوا النبي الذي جاء به من عند ربه ﴿وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ المأمورة فيه انقياداً وامتناناً ﴿فَيُوَفِّيهِمْ﴾ أي في النشأة الأخرى ﴿أُجُورَهُمْ﴾ أي يوفي عليهم أجور أعمالهم بأضعاف ما عملوا تفضلاً عليهم بمحبة الله إياهم بسبب امتثال أوامره وإطاعة رسله ﴿وَٱللَّهُ﴾ الهادي للعباد ﴿لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٧﴾﴾ الخارجين عن حدوده المنزلة على رسله المكاشفين تحقيق توحيده.

وما يحصل لهم الظلم و الخروج إلا بمتابعة عقولهم السخيفة بظلام الوهم المضلِ عن الطريق المستبين

﴿ذَٰلِكَ﴾ المذكور من نبأ عيسى عليه السلام وغيره الذي ﴿نَتْلُوهُ عَلَيْكَ﴾ يا أكمل الرسل مع كونك خالي الذهن عنه ولم تتعلم من معلم بشري والحال أنك أميّ إنما هي ﴿مِنَ ٱلْآيَٰتِ﴾ المنزلة عليك من عندنا

وَٱلذِّكۡرِ ٱلۡحَكِيمِ ﴿٥٨﴾ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَۖ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٖ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٥٩﴾ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلۡمُمۡتَرِينَ ﴿٦٠﴾ فَمَنۡ حَآجَّكَ فِيهِ مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلۡعِلۡمِ فَقُلۡ تَعَالَوۡاْ نَدۡعُ أَبۡنَآءَنَا وَأَبۡنَآءَكُمۡ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمۡ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمۡ ....

الدالة على نبوتك ورسالتك ﴿وَ﴾ من ﴿ٱلذِّكۡرِ ٱلۡحَكِيمِ ﴿٥٨﴾﴾ الكلام المجيد المحكم المشتمل على الحكم المتقنة والأحكام المبرمة، الصادرة عن محض الحكمة، لا يأتيه الباطل ولا يقربه النسخ والتبديل.

ثم قال سبحانه: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ﴾ أي شأنه وقصته الغريبة الخارقة للعادة وهي وجوده بلا أب ﴿عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ﴾ كشأن ﴿ءَادَمَۖ﴾ في إبداعه سبحانه وإيجاده بل قصة آدم أغرب من قصته، إذ لا أب له ولا أم بل ﴿خَلَقَهُۥ﴾ قدره وصوره سبحانه ﴿مِن تُرَابٖ﴾ جمادٍ ﴿ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن﴾ بشراً حياً ﴿فَيَكُونُ ﴿٥٩﴾﴾ بالفور حيواناً ذا حس وحركة إرادية وإدراك وفهم.

هذا الكتاب المتلو عليك يا أكمل الرسل هو ﴿ٱلۡحَقُّ﴾ المطابق للواقع النازل إليك لتأييدك ونصرك في دعواك الرسالة ﴿مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُن﴾ في حقيته ﴿مِّنَ ٱلۡمُمۡتَرِينَ ﴿٦٠﴾﴾ الشاكين بمقتضى عقولهم السخيفة.

﴿فَمَنۡ حَآجَّكَ﴾ جادلك وخاصمك ﴿فِيهِ﴾ أي في أمر عيسى وشأنه من النصارى ﴿مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلۡعِلۡمِ﴾ المستنبط من الكتاب المنزل من عندنا، المبين لشأنه وإيجاده بلا أبٍ ﴿فَقُلۡ﴾ لهم حين خاصموك ﴿تَعَالَوۡاْ﴾ هلموا أيها المجادلون المدعون ابنيّة عيسى لله المفرطون في أمره ﴿نَدۡعُ أَبۡنَآءَنَا وَأَبۡنَآءَكُمۡ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمۡ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمۡ﴾

ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٦١﴾ إِنَّ هَٰذَا ....

ونجتمع[١] بعد ذلك في مجمع عظيم ﴿ثُمَّ نَبْتَهِلْ﴾ أي نتباهل بأن يتضرع ويدعو كل منا ومنكم إلى الله ﴿فَنَجْعَل لَّعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٦١﴾﴾ حتى يظهر الصادق من الكاذب، ويتميز الحق عن الباطل.

روي أنهم لما دعوا إلى المباهلة قالوا حتى ننظر و نتأمل فلما خلوا مع ذي رأيهم قالوا ما ترى في هذا الأمر؟ قال: والله لقد عرفتم أنه هو النبي الموعود في كتابكم، ولقد جاءكم بالفصل في أمر صاحبكم، والله ما باهل قوم نبياً إلا هُلِكوا، فإن أبيتم إلا إلف دينكم، فوادعوا الرجل وانصرفوا.

فأتوا رسول الله ﷺ وقد غدا محتضناً الحسين آخذاً بيد الحسن وفاطمة تمشي خلفه وعليّ خلفها، وهو يقول: إذا أنا دعوت فأمنوا.

فقال أسقفهم: يا معشر النصارى إني لأرى وجوهاً لو سألوا الله أن يزيل جبلاً من مكانه لأزاله، فلا تباهلوا فتهلكوا.

فأذعنوا للرسول ﷺ وبذلوا الجزية ألفي حلة حمراء وثلاثين درعاً من حديد، فقال عليه الصلاة والسلام: «والَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَوْ بَاهَلُوْا لَمُسِخُوْا قِرَدَةً وَخَنَازِيْرَ وَلاضْطَرَمَ عَلَيْهِمُ الوَادِيْ نَاراً وَلاسْتَأْصَلَ اللهُ نَجْرَانَ وَأَهْلَهُ حَتَّى الطَّيْرَ عَلَى الشَّجَر»[٢].

قل لهم يا أكمل الرسل نيابةً عنا: ﴿إِنَّ هَٰذَا﴾ المذكور من نبأ عيسى ومريم

(١) في المخطوط (ونجمع).

(٢) الحديث بطوله رواه أبو نعيم في دلائل النبوة في الباب الحادي والعشرون بهذا للفظ.

وله عند البخاري غير شاهد انظر صحيح البخاري [٤ / ١٥٩٢رقم / ٤١١٩/ باب:قصة أهل نجران].

لَهُوَ ٱلْقَصَصُ ٱلْحَقُّ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٦٢﴾ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ بِٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٦٣﴾ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا ....

عليهما السلام ﴿لَهُوَ ٱلْقَصَصُ ٱلْحَقُّ﴾ المطابق للواقع ﴿وَ﴾ لا تكفروا بابنية عيسى لله وزوجية مريم ولا تقولوا بالتثليث والأقانيم إذ ﴿مَا مِنْ إِلَٰهٍ﴾ معبودٍ بالحق في الوجود ﴿إِلَّا ٱللَّهُ﴾ الواحد الأحد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يتخذ صاحبةً ولا ولداً ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ﴾ الحق الحقيق بالحقية، المتصف بالديمومية، المتحد بالقيومية ﴿لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ﴾ الغالب القادر القاهر للأغيار مطلقاً ﴿ٱلْحَكِيمُ ﴿٦٢﴾﴾ في إظهارها على مقتضى إرادته واختياره.

﴿فَإِن تَوَلَّوْا﴾ أعرضوا عن الحق بعدما ظهر دلائله وشواهده أعرض عنهم ولا تجادل معهم ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ﴾ المنتقم لمن أعرض عن سبيله ﴿عَلِيمٌ بِٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٦٣﴾﴾ الذين يفسدون في الأرض بإفساد عقائد ضعفاء العباد بالإعراض عن طريق الحق والإلحاد عن الصراط المستقيم.

﴿قُلْ﴾ لهم يا أكمل الرسل إمحاضاً للنصح كلاماً صادراً عن لسان الحكمة والتوحيد خالياً عن وصمة الغفلة والتقليد: ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ الذين يدعون الإيمان بتوحيد الله وكتبه ورسله ﴿تَعَالَوْا﴾ هلمّوا نتفق ونرجع ﴿إِلَىٰ كَلِمَةٍ﴾ حقٍ صحيحةٍ ﴿سَوَآءٍ﴾ حقيتها وصحتها ﴿بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ﴾ مسلمة ثبوتها عندنا وعندكم بلا خلاف منا ومنكم وهي ﴿أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ﴾ المعبود بحق، المستحق للعبادة بالأصالة ﴿وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ﴾ في عبادته ﴿شَيْـًٔا﴾ من

وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِۚ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُولُواْ ٱشْهَدُواْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٦٤﴾ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تُحَآجُّونَ فِيٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمَآ أُنزِلَتِ ٱلتَّوْرَىٰةُ وَٱلْإِنجِيلُ إِلَّا مِنۢ بَعْدِهِۦٓۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٥﴾ هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ حَٰجَجْتُمْ فِيمَا لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَآجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌۚ ....

مصنوعاته ﴿وَ﴾ أيضاً ﴿لَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا﴾ واجب الإطاعة والانقياد ﴿مِّن دُونِ ٱللَّهِۚ﴾ المتوحد بالألوهية المنفرد بالمعبودية؛ وإن قبلوا ما قلت لهم عليه وانقادوا وأطاعوا فقد آمنوا ﴿فَإِن تَوَلَّوْاْ﴾ أعرضوا عن الكلمة الحقة المسلمة المتفقة عليها ﴿فَقُولُواْ﴾ إلزاماً وتبكيتاً ﴿ٱشْهَدُواْ﴾ أيها المنكرون الكافرون ﴿بِأَنَّا﴾ لا أنتم ﴿مُسْلِمُونَ ﴿٦٤﴾﴾ موحدون مؤمنون منقادون.

ثم قل لهم إلزاماً: ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تُحَآجُّونَ﴾ وتجادلون ﴿فِيٓ﴾ شأن ﴿إِبْرَٰهِيمَ﴾ بأنه يهودي أو نصراني ﴿وَ﴾ الحال أنه ﴿مَآ أُنزِلَتِ ٱلتَّوْرَىٰةُ﴾ المبين لليهودية ﴿وَٱلْإِنجِيلُ﴾ المبين للنصرانية ﴿إِلَّا مِنۢ بَعْدِهِۦٓۚ﴾ بمدة متطاولة ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٥﴾﴾ أنتم أيها الكافرون المكابرون في هذه الدعوى.

﴿هَٰٓأَنتُمْ﴾ أيها الحمقى العميان في أمور الدين ﴿هَٰٓؤُلَآءِ﴾ الضالون المصرون على الكفر والعناد ﴿حَٰجَجْتُمْ﴾ جادلتم ﴿فِيمَا لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ﴾ مذكورٌ مثبتٌ في كتابكم من بعثة [سيدنا] محمد ﷺ وأوصافه، فتغيرونه وتحرفونه عناداً بعد ما ظهر عندكم حقيته ﴿فَلِمَ تُحَآجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌۚ﴾ مثبتٌ مذكورٌ في كتابكم من يهودية إبراهيم ونصرانيته، فتفترون وتنسبون إلى

وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ﴿٦٦﴾ مَا كَانَ إِبۡرَٰهِيمُ يَهُودِيّٗا وَلَا نَصۡرَانِيّٗا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفٗا مُّسۡلِمٗا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴿٦٧﴾ إِنَّ أَوۡلَى ٱلنَّاسِ بِإِبۡرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا ٱلنَّبِيُّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۗ وَٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٦٨﴾ ....

كتابكم ما لم يذكر فيه مكابرةً وعناداً ﴿وَٱللَّهُ﴾ المطلع لضمائركم ﴿يَعۡلَمُ﴾ ما حرّفتم وما افتريتم ويعاقب على مقتضى علمه ﴿وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ﴿٦٦﴾﴾ ولا تعتقدون بعلمه على ما فرطتم فيه.

ثم قال سبحانه: ﴿مَا كَانَ إِبۡرَٰهِيمُ يَهُودِيّٗا﴾ لأن موسى إنما جاء بعده بألف سنة ﴿وَلَا نَصۡرَانِيّٗا﴾ لأن عيسى عليه السلام إنما جاء بعده بألفي سنة ﴿وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفٗا﴾ مائلاً عن إفراط اليهود والنصارى في عزير وعيسى وتفريطهم في إنكار [سيدنا] محمد ﷺ ﴿مُّسۡلِمٗا﴾ منقاداً معتدلاً مستوياً على صراط التوحيد ﴿وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴿٦٧﴾﴾ الضالين عن طريق الحق بنسبة الحوادث إلى الأسباب والوسائل.

﴿إِنَّ أَوۡلَى ٱلنَّاسِ بِإِبۡرَٰهِيمَ﴾ وأقربهم ديناً وأولاهم محبة ومودة ﴿لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ﴾ من أمته وتدينوا بدينه وامتثلوا بما جاء به من عند ربه ﴿وَهَٰذَا ٱلنَّبِيُّ﴾ المبعوث من شيعته، المنتسب إلى ملته، المنشعب من أهل بيته وزمرته ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۗ﴾ بهذا النبي وبما جاء به من الكتاب الناسخ للكتب السالفة المبين لطريق التوحيد الذاتي ﴿وَٱللَّهُ﴾ الهادي لعباده إلى جادة توحيده ﴿وَلِيُّ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٦٨﴾﴾ الموحدين الذين يريدون وجه الله في جميع حالاتهم يولي أمور دينهم بحيث لا يشغلهم عن التوجه إليه

وَدَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ لَوْ يُضِلُّونَكُمْ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٦٩﴾ يَـٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ ﴿٧٠﴾ يَـٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ لِمَ تَلْبِسُونَ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَـٰطِلِ وَتَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ ....

مزخرفات الدنيا الشاغلة عن المولى.

﴿وَدَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ﴾ لخباثة نفوسهم وبغضهم المرتكز في قلوبهم حسداً لظهور دين الإسلام ﴿لَوْ يُضِلُّونَكُمْ﴾ أي يضلونكم ويحرفونكم عن جادة الشريعة وسبيل الإيمان والتوحيد.

نزلت في اليهود لما دعوا حُذيفة وعماراً ومعاذاً إلى اليهودية ﴿وَ﴾ الحال أنهم ﴿مَا يُضِلُّونَ﴾ بهذا الضلال ﴿إِلَّآ أَنفُسَهُمْ﴾ لتضعيف العذاب عليهم بسبب هذا الإضلال ﴿وَ﴾ هم ﴿مَا يَشْعُرُونَ ﴿٦٩﴾﴾ بهذا الضرر والنكال.

﴿يَـٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ﴾ المدعين الإيمان بموسى وعيسى عليهما السلام والتصديق بكتابهما ﴿لِمَ تَكْفُرُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ﴾ المنزلة فيهما الناطقة على بعثة [سيدنا] محمد ﷺ ﴿وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ ﴿٧٠﴾﴾ فيهما أوصافه ونعوته وتنتظرون إلى ظهوره وبعثته، وبعد ما ظهر وبعث لم أنكرتم عليه عناداً وكفرتم استكباراً؟ ومع ذلك غيرتم وحرفتم كتابكم ظلماً وزوراً.

﴿يَـٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ﴾ المحرفين لكتاب الله ﴿لِمَ تَلْبِسُونَ ٱلْحَقَّ﴾ الظاهر البين المكشوف المنزل من عند الله ﴿بِٱلْبَـٰطِلِ﴾ المموه المزخرف المفترى من عند أنفسكم ﴿وَتَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ﴾ الذي هو بعثة [سيدنا] محمد عليه السلام

وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٧١﴾ وَقَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ءَامِنُوا۟ بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَجْهَ ٱلنَّهَارِ وَٱكْفُرُوٓا۟ ءَاخِرَهُۥ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٧٢﴾ وَلَا تُؤْمِنُوٓا۟ إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ قُلْ إِنَّ ٱلْهُدَىٰ هُدَى ٱللَّهِ أَن يُؤْتَىٰٓ أَحَدٌ مِّثْلَ مَآ أُوتِيتُمْ ....

﴿وَ﴾ الحال أنكم ﴿أَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٧١﴾﴾ حقيته في نفوسكم ولا تظهرونه حسداً وبغياً.

﴿وَ﴾ من غاية حسدهم ونهاية بغضهم أنهم احتالوا واستخدعوا لإضلال المسلمين حيث ﴿قَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ﴾ لأصحابه وجلسائه على وجه الحيل والمخادعة ﴿ءَامِنُوا۟﴾ استهزاءً وتسفيهاً ﴿بِٱلَّذِىٓ﴾ يدعون أنه ﴿أُنزِلَ﴾ عليه موافقة ﴿عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ به ﴿وَجْهَ ٱلنَّهَارِ﴾ أي أول بدو النهار ليفرحوا ويسروا بموافقتكم إياه ﴿وَٱكْفُرُوٓا۟ ءَاخِرَهُۥ﴾ أي اتركوه وأنكروا عليه في آخر النهار معللين بأنا لم نجد محمداً على الوصف الذي ذكر في كتابنا ليترددوا ويضطربوا بمخالفتكم، افعلوا كذلك دائماً ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٧٢﴾﴾ رجاء أن يرجعوا عن دينهم وإيمانهم.

﴿وَلَا تُؤْمِنُوٓا۟﴾ أي لا تخلصوا عن صميم القلب ولا تظهروا تصديقكم ﴿إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ﴾ من إخوانكم وأصحابكم المتدينين بدين آبائكم وأسلافكم ﴿قُلْ﴾ لهم يا أكمل الرسل رداً لمخادعتهم ودفعاً لحيلتهم كلاماً ناشئاً عن محض الحكمة: ﴿إِنَّ ٱلْهُدَىٰ﴾ الموصل إلى سواء السبيل ﴿هُدَى ٱللَّهِ﴾ الهادي لعباده يهدي من يشاء إلى طريق توحيده ويضل عنه من يشاء وإنما دبرتم وخادعتم ﴿أَن يُؤْتَىٰٓ﴾ أي لأن يؤتى ﴿أَحَدٌ مِّثْلَ مَآ أُوتِيتُمْ﴾ من

أَوْ يُحَآجُّوكُمْ عِندَ رَبِّكُمْ ۗ قُلْ إِنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٤﴾ ۞ وَمِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ ....

الكفر والإنكار بمحمد ﷺ ﴿أَوْ يُحَآجُّوكُمْ﴾ أي يغلبوكم بهذا الخداع والتدبير ﴿عِندَ رَبِّكُمْ﴾ على زعمكم الفاسد واعتقادكم الباطل ﴿قُلْ﴾ يا أكمل الرسل لا تغتروا بمزخرفات عقولكم ولا تطمئنوا بمقتضياتها إذ هو قاصر عن المعرفة خصوصاً عند تزاحم الوهم بل ﴿إِنَّ ٱلْفَضْلَ﴾ والهداية ﴿بِيَدِ ٱللَّهِ﴾ بقدرته ومشيئته ﴿يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ﴾ بلا معاينة العقل ونصرته ﴿وَٱللَّهُ﴾ الهادي لعباده ﴿وَٰسِعٌ﴾ في فضله وهدايته لا حصر لطريق إلهامه وعلمه ﴿عَلِيمٌ ﴿٧٣﴾﴾ باستعدادات عباده يوصل كلاً منهم إلى توحيده بطريقٍ يناسب استعداده بل:

﴿يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ﴾ الواسعة الشاملة لجميع الفضائل والكمالات ﴿مَن يَشَآءُ﴾ من خلص عباده، تفضلاً عليه من عنده، من استعداداتهم ما لا يدرك غوره ولا يكتنه طوره ﴿وَٱللَّهُ﴾ المتجلي بجميع الكمالات ﴿ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٤﴾﴾ واللطف الجسيم على بعض مظاهره من الأنبياء والأولياء الذين فنيت هوياتهم البشرية بالكلية في بحر الوحدة وتجردوا عن جلبابها بالمرة.

﴿۞ وَ﴾ من تفاوت الاستعدادات واختلاف القابليات الفطرية ترى ﴿مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مَنْ إِن تَأْمَنْهُ﴾ ثقةً عليه واعتماداً له ﴿بِقِنطَارٍ﴾ مالٍ كثيرٍ مفضلٍ مخزونٍ ﴿يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ﴾ على الوجه الذي ائتمنت عليه بلا تغيير وخيانة

وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَّا يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَآئِمًا ۗ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟ لَيْسَ عَلَيْنَا فِى ٱلْأُمِّيِّۦنَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾

لصفاء فطرته وحسن استعداده وقابليته ﴿وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ﴾ أو أقل ﴿لَّا يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ﴾ لخباثة طينته وقبح قابليته ﴿إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَآئِمًا﴾ دائماً مطالباً أمانتك منه على وجه الإلحاح والإتمام.

نزلت في عبد الله بن سلام حين استودعه قريشي ألفاً ومائتي أوقية ذهباً، فأداه إليه، وفنخاص ابن عاذوراء استودعه أيضاً قريشي آخر ديناراً، أنكر عليه وجحد، مع اتفاقهما في الكفر والضلال، وانهماكهما في الإصرار والفساد.

﴿ذَٰلِكَ﴾ أي ترك البعض اليهودي ﴿بِأَنَّهُمْ﴾ بسبب أنهم استحلوا مال من ليس على دينهم ﴿قَالُوا۟ لَيْسَ﴾ في كتابنا المنزل ﴿عَلَيْنَا﴾ من ربنا ﴿فِى﴾ حق ﴿ٱلْأُمِّيِّۦنَ سَبِيلٌ﴾ أي طريق معاتبة ومؤاخذة لأنهم ليسوا من أهل الكتاب ﴿وَ﴾ هم بهذا القول ﴿يَقُولُونَ﴾ ويفترون ﴿عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ﴾ لأنه ليس في كتابهم هذا الباطل بل يفترونه عناداً ﴿وَهُمْ﴾ أيضاً ﴿يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾﴾ أنه افتراء منهم.

وعن النبي ﷺ أنه قال عند نزول هذه الآية: «كَذَبَ أَعْدَاءُ اللهِ، مَا مِنْ شَيءٍ فِي الجَاهِلِيَّةِ إِلا هُوَ تَحْتَ قَدَمِيْ إِلَّا الأَمَانَةَ فَإِنَّهَا مُؤَدَّاةٌ إِلَى البَرِّ وَالْفَاجِرِ»[1].

(١) قال في فتح القدير في الآثار الواردة في هذه الآية: أخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير في قوله: (ذلك بأنهم قالوا ليس علينا في الأميين سبيل) قال النبي ﷺ: «كذب أعداء الله ما من شيء كان في الجاهلية إلا وهو تحت قدمي هاتين إلا الأمانة فإنها مؤداة إلى البر والفاجر» فتح القدير [١ / ٣٥٤].

بَلَىٰ مَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ وَٱتَّقَىٰ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٧٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَأَيْمَٰنِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُو۟لَٰٓئِكَ لَا خَلَٰقَ لَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ وَلَا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ ....

﴿ بَلَىٰ ﴾ للحق سبيل معاتبة وانتقام معهم في حق كل واحد من عباده على أي دين كان وملة كانت إذا صدر عنهم التعدي إلا ﴿ مَنْ أَوْفَىٰ ﴾ منهم ﴿ بِعَهْدِهِۦ ﴾ الذي عهد مع الله ومع عباده ﴿ وَٱتَّقَىٰ ﴾ من غضب الله بعدم الوفاء فهو من المحبوبين عند الله ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٧٦﴾﴾ ويرضى عنهم يوفيهم أجورهم ويزيدهم من فضله.

ثم قال سبحانه: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشْتَرُونَ ﴾ يستبدلون ﴿بِعَهْدِ ٱللَّهِ ﴾ الذي عهدوا مع رسوله ﴿وَأَيْمَٰنِهِمْ﴾ المغلظة الصادرة منهم على وفائه كقولهم: والله ليؤمنن به ولينصرنه ﴿ ثَمَنًا قَلِيلًا ﴾ من متاع الدنيا مثل أخذ الرشاوى وإبقاء الرياسة ﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ ﴾ المستبدلون الخاسرون هم الذين ﴿لَا خَلَٰقَ ﴾ لا نصيب ولا حظ ﴿لَهُمْ فِى﴾ النشأة ﴿ٱلْءَاخِرَةِ﴾ التي هي دار الوصول والقرار ﴿وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ﴾ تكليمه من استخلفه عن مقتضيات جميع أسمائه الحسنى وصفاته العليا ﴿وَلَا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ بنظر الرحمة حتى ينعكس بروق أنوار الوحدة الذاتية المتلألئة المشعشعة من عالم العماء التي هي السواد الأعظم المشار إليه في الحديث النبوي صلوات الله على قائله، على مرائي قلوبهم ﴿وَلَا يُزَكِّيهِمْ﴾ ولا يثني عليهم ولا يلتفت إليهم حين ثنائه والتفاته على خلص عباده المستصقلين مرايا قلوبهم عن صداء الالتفات

وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٧﴾ وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُنَ أَلْسِنَتَهُم بِالْكِتَٰبِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَٰبِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَٰبِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٨﴾ ....

إلى الغير مطلقاً لينعكس فيها أشعة التجليات الجمالية والجلالية اللطفية والقهرية؛ حتى تعتدلوا وتستقيموا على الصراط المستقيم؛ الذي هو صراط توحيد الله ﴿وَلَهُمْ﴾ في تلك الحالة ﴿عَذَابٌ﴾ طردٌ وخذلانٌ ﴿أَلِيمٌ ﴿٧٧﴾﴾ مؤلمٌ لا إيلام أعظم منه، إذ حرمان الوصول إلى غاية ما يترتب على الوجود والحصول من أشد المؤلمات والمؤذيات.

نعوذ بالله من غضب الله، لا حول إلا بالله.

﴿وَإِنَّ مِنْهُمْ﴾ لغاية بغضهم وعداوتهم مع النبي ﷺ ﴿لَفَرِيقًا﴾ جماعةً وفئةً من المحرفين الذين يحرفون اسمه ونعته في التوراة يقصدون تشهير المحرف وترويجه على ضعفاء العوام إضلالاً لهم حيث ﴿يَلْوُنَ﴾ يطلقون ﴿أَلْسِنَتَهُم﴾ بالمحرف إطلاقهم ﴿بِالْكِتَٰبِ لِتَحْسَبُوهُ﴾ أي ليظن السامعون أنه ﴿مِنَ الْكِتَٰبِ﴾ ﴿وَ﴾ الحال أنه ﴿مَا هُوَ مِنَ الْكِتَٰبِ﴾ المنزل لا نصاً ولا أخذاً ولا تأويلاً ﴿وَ﴾ مع ذلك يفترون ﴿يَقُولُونَ هُوَ﴾ المحرف منزل ﴿مِنْ عِندِ اللَّهِ﴾ ﴿وَ﴾ الحال أنه ﴿مَا هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ﴾ بل من تسويلات نفوسهم الخبيثة والباعث عليها أهويتهم الباطلة من حب الجاه والرئاسة ﴿وَ﴾ لترويج أباطيلهم ﴿يَقُولُونَ﴾ فيه ينسبون ﴿عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ﴾ افتراء ﴿وَهُمْ﴾ في ضمائرهم وبواطنهم ﴿يَعْلَمُونَ ﴿٧٨﴾﴾ يقيناً أنه فريةٌ صدرت عنهم مكابرة وعناداً.

مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ ٱللَّهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ثُمَّ ....

ومع ادعائهم الإيمان والتوحيد والكتاب والرسل، وحصرهم الدين والشريعة على دينهم وشرعهم، لم يتفطنوا ولم يعلموا أن البشر وأن أُرسل وأُنزل وخُصص بفضائلَ جليلةٍ وخصائلَ جميلةٍ، لكن لا ينسلخ عن لوازم البشرية مطلقاً، حتى يتصف بالألوهية بل لا يزال العبد عبداً والرب رباً.

غاية ما في الباب أن الأشخاص البشرية في التجريد عن لوازمها تتفاوت، فمن كان تجريده أكثر كان إلى الله أقرب وإلى الفناء أميل وإلى البقاء أشوق، وإلا فالسلوك لا ينقطع أبد الآبدين كما قال ﷺ في الحديث القدسي عن الله عز وجل: «أَلَا طَالَ شَوْقُ الأَبْرَارِ[1] إِلَى لِقَائِيْ» ما للعباد ورب الأرباب.

فعيسى صلوات الرحمن عليه وإن ارتفع قدره وعَلَتْ رتبته عند الله وأظهر بنصر الله خوارق خلت عنها الأنبياء عليهم السلام، لكن لا ينسلخ عن لوازم البشرية مطلقاً، وهم يدّعون انسلاخه ويعبدونه كعبادته سبحانه وتعالى، وينسبونه إلى الله بالبنوة والعياذ بالله، وما قدروا الله حق قدره، لذلك رد الله عليهم على سبيل التنبيه والتعليم بقوله:

﴿ مَا كَانَ ﴾ أي ما صح وجاز ﴿لِبَشَرٍ﴾ خصه لرسالته ونيابته ﴿أَن يُؤْتِيَهُ ٱللَّهُ﴾ ينزله ﴿ٱلْكِتَٰبَ﴾ المبين له الشرائع ﴿وَٱلْحُكْمَ﴾ المحفوظ فيها المتعلق بأحوال العباد في معاشهم ﴿وَٱلنُّبُوَّةَ﴾ المقتبسة منها المتعلقة بأحوالهم في معادهم ﴿ثُمَّ﴾ بعدما اصطفاه الله واختاره بالتشريف الأتم الأكمل ﴿

(١) قال العراقي في تخريج أحاديث الإحياء: لم أجد له أصلا إلا أن صاحب الفردوس خرجه [مسند الفردوس بمأثور الخطاب ٢ / ٢٤٠ رقم / ٨٠٦٧ /] من حديث أبي الدرداء ولم يذكر له ولده في مسند الفردوس إسنادا إحياء علوم الدين [٣ / ٩ في بيان خاصية قلب الإنسان].

يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُواْ عِبَادًا لِّي مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن كُونُواْ رَبَّٰنِيِّـۧنَ بِمَا كُنتُمۡ تُعَلِّمُونَ ٱلۡكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمۡ تَدۡرُسُونَ ﴿٧٩﴾ وَلَا يَأۡمُرَكُمۡ أَن تَتَّخِذُواْ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ أَرۡبَابًاۗ أَيَأۡمُرُكُم بِٱلۡكُفۡرِ بَعۡدَ إِذۡ أَنتُم مُّسۡلِمُونَ ﴿٨٠﴾ وَإِذۡ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ ....

﴿يَقُولَ لِلنَّاسِ﴾ المرسل إليهم تجبراً واستكباراً ﴿كُونُواْ عِبَادًا لِّي﴾ اعبدوني عبادةً خاصةً ﴿مِن دُونِ﴾ عبادة ﴿ٱللَّهِ﴾ وما هي إلا شركٌ غليظٌ، كيف صدر أمثال هذه الهذيانات من مشكاة النبوة تعالى عما يقول الظالمون علواً كبيراً ﴿وَلَٰكِن﴾ قولهم وأمرهم عليهم هو كذا: ﴿كُونُواْ﴾ أيها الموحدون ﴿رَبَّٰنِيِّـۧنَ﴾ مخلصين ولا تكونوا شيطانيين مشركين ﴿بِمَا كُنتُمۡ تُعَلِّمُونَ﴾ أي تعلمون أنتم من ﴿ٱلۡكِتَٰبَ﴾ من أمور دينكم ﴿وَبِمَا كُنتُمۡ تَدۡرُسُونَ ﴿٧٩﴾﴾ تعلمونه لغيركم من تلامذتكم، وما يأمر ويوحي الأنبياء إلا مثل هذا.

﴿وَلَا يَأۡمُرَكُمۡ﴾ نبيكم إضلالاً لكم مع كونه هادياً ﴿أَن تَتَّخِذُواْ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ المرسلين لكم من عند الله بوسيلة الملائكة ﴿أَرۡبَابًاۗ﴾ آلهةً موجودين أصالة غير الله ﴿أَيَأۡمُرُكُم﴾ أتظنون أن يأمركم النبي المرسل لهدايتكم إلى طريق التوحيد ﴿بِٱلۡكُفۡرِ﴾ بالشرك ﴿بَعۡدَ إِذۡ أَنتُم مُّسۡلِمُونَ ﴿٨٠﴾﴾ موحدون برسالته، أفلا تعقلون.

﴿وَ﴾ اذكر يا أكمل الرسل لمن خاصمك من أهل الكتاب وقت ﴿إِذۡ أَخَذَ ٱللَّهُ﴾ المدبر لأمور عباده ﴿مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ أي عهودهم الوثيقة

لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ ۚ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى ۖ قَالُوٓا۟ أَقْرَرْنَا ۚ قَالَ فَٱشْهَدُوا۟ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨١﴾ فَمَن تَوَلَّىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ

المتعلقة بالأمثال والمحافظة ﴿لَمَآ﴾ أي الذي ﴿ءَاتَيْتُكُم﴾ تفضلاً عليكم ﴿مِّن كِتَٰبٍ﴾ مبينٍ لكم ولأمتكم الأحكام الظاهرة المتعلقة بالمعاملات ﴿وَحِكْمَةٍ﴾ مورثةٍ لكم ولهم الأخلاق المرضية الموصلة إلى التوحيد الذاتي ﴿ثُمَّ﴾ أخذ الله مواثيقهم أيضاً بأنه متى ﴿جَآءَكُمْ﴾ وعلى أمتكم ﴿رَسُولٌ﴾ مرسلٌ من عندنا على التوحيد الذاتي ﴿مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ﴾ من توحيد الصفات والأفعال ﴿لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ﴾ أنتم، ولتبلغن على أمتكم أن يؤمنوا له، وتصدقوه ﴿وَ﴾ لا تكتفون أنتم وأممكم بمجرد الإيمان والتصديق، بل ﴿لَتَنصُرُنَّهُۥ﴾ فيما جاء به، وهو التوحيد الذاتي، إذ مرجع جميع الملل والنحل إليه، لذلك خُتم ببعثته ﷺ أمر الإنزال والإرسال، وبعد أخذ المواثيق ﴿قَالَ﴾ سبحانه مستفهماً على سبيل التقرير وتأكيداً: ﴿ءَأَقْرَرْتُمْ﴾ أيها الأنبياء أنتم ﴿وَأَخَذْتُمْ﴾ من أممكم المنتسبون إليكم ﴿عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ﴾ عهودكم ومواثيقكم ﴿إِصْرِى﴾ أي حلفي وعهدي الثقيل الذي يوجب نقضه أنواعاً من العذاب والنكال؟ ﴿قَالُوٓا۟ أَقْرَرْنَا﴾ بعهودك ومواثيقك سمعاً وطاعةً وأخذنا أيضاً من أممنا ﴿قَالَ﴾ سبحانه: ﴿فَٱشْهَدُوا۟﴾ أي فاحفظوا المواثيق ولا تغفلوا عنها ﴿وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨١﴾﴾ الحاضرين المطلعين لحفظكم ووقائكم.

﴿فَمَن تَوَلَّىٰ﴾ اعرض منكم ﴿بَعْدَ ذَٰلِكَ﴾ العهد الوثيق ﴿فَأُو۟لَٰٓئِكَ﴾

هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٨٢﴾ أَفَغَيْرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾ قُلْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ ....

المعرضون ﴿هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٨٢﴾﴾ الخارجون عن طريق التوحيد الذاتي الجامع لجميع الطرق.

﴿أَفَغَيْرَ دِينِ ٱللَّهِ﴾ الذي هو التوحيد الذاتي ﴿يَبْغُونَ﴾ تطلبون أيها المعرضون الفاسقون ﴿وَ﴾ الحال أن ﴿لَهُۥٓ أَسْلَمَ﴾ انقاد وتذلل ﴿مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ من أرباب الشهود والمكاشفات ﴿وَ﴾ من في ﴿ٱلْأَرْضِ﴾ من أصحاب العلوم والمعاملات ﴿طَوْعًا﴾ تحقيقاً ويقيناً ﴿وَكَرْهًا﴾ تقليداً وتخميناً ﴿وَإِلَيْهِ﴾ لا إلى غيره ﴿يُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾﴾ رجوع الظل إلى ذي ظل.

﴿قُلْ﴾ يا أكمل الرسل بلسان الجمع ﴿ءَامَنَّا﴾ أذعنا وأيقنا ﴿بِٱللَّهِ﴾ الواحد الأحد المتفرد بالتحقيق والوجود ﴿وَ﴾ صدّقنا ﴿مَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا﴾ من عنده من الكتاب المبين لتوحيده ﴿وَمَآ أُنزِلَ﴾ أيضاً في سالف الزمان ﴿عَلَىٰٓ﴾ أسلافنا ﴿إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ﴾ أولاد يعقوب وأحفاده ﴿وَ﴾ صدقنا أيضاً ﴿مَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَٱلنَّبِيُّونَ﴾ الموجودون الملهَمون ﴿مِن رَّبِّهِمْ﴾ على مقتضى استعداداتهم ﴿لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ﴾ بالإطاعة والتصديق ﴿وَ﴾ كيف نفرق ونخصص إذ ﴿نَحْنُ﴾

لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿٨٤﴾ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٨٥﴾ كَيْفَ يَهْدِى ٱللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا۟ بَعْدَ إِيمَٰنِهِمْ وَشَهِدُوٓا۟ أَنَّ ٱلرَّسُولَ حَقٌّ وَجَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٦﴾

المتدينون بدين الله المتجلي في الآفاق ﴿لَهُۥ﴾ باعتبار تفرده وإحاطته وظهوره في المظاهر كلها بأوصافه وأسمائه بلا تفاوتٍ ﴿مُسْلِمُونَ ﴿٨٤﴾﴾ مؤمنون موقنون.

﴿وَمَن يَبْتَغِ﴾ يطلب ويتدين ﴿غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ﴾ المنزل على خير الأنام ﴿دِينًا﴾ وشريعةً ﴿فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ﴾ يوم الدين القويم، المستجمعُ لجميع الأديان، الناسخُ لها هو الإسلام لابتنائه على التوحيد الذاتي المسقط للإضافات والخصوصيات مطلقاً ﴿وَهُوَ﴾ أي المتدين بغير دين الإسلام ﴿فِى﴾ النشأة ﴿ٱلْءَاخِرَةِ﴾ وقت حصادِ كل ما يَزرعُهُ في النشأة الأولى ﴿مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٨٥﴾﴾ خسراناً مبيناً.

نعتصم بك من إنزال قهرك يا ذا القوة المتين.

ثم قال سبحانه مستفهماً مستبعداً على سبيل التوبيخ والتقريع: ﴿كَيْفَ يَهْدِى ٱللَّهُ﴾ الهادي لعباده ﴿قَوْمًا كَفَرُوا۟ بَعْدَ إِيمَٰنِهِمْ﴾ بوحدانية الله ﴿وَ﴾ بعد أن ﴿شَهِدُوٓا۟﴾ أقروا واعترفوا وصدقوا ﴿أَنَّ ٱلرَّسُولَ﴾ المبينَ لهم طريق التوحيد، المرشدَ إليه مرسلٌ ﴿حَقٌّ﴾ من عند الله صادقٌ في دعواه ﴿وَ﴾ مع ذلك ﴿جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ﴾ الدالة على صدقه، فقبلوا جميعه ثم ارتدوا ـ العياذ بالله ـ ﴿وَٱللَّهُ﴾ الهادي للكل إلى سواء السبيل ﴿لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٦﴾﴾ الخارجين عن حدوده.

﴿أُوْلَـٰٓئِكَ جَزَآؤُهُمْ أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ ٱللَّهِ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿٨٧﴾ خَـٰلِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٨٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بَعْدَ إِيمَـٰنِهِمْ ثُمَّ ٱزْدَادُوا۟ كُفْرًا لَّن تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ وَأُوْلَـٰٓئِكَ ....﴾

﴿أُوْلَـٰٓئِكَ﴾ الظالمون الضالون عن منهج الصدق والصواب ﴿جَزَآؤُهُمْ﴾ المتفرع على ضلالهم هو ﴿أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ ٱللَّهِ﴾ وطرده وتخذيله إياهم ثابتٌ لهم مستقرٌ أزلاً وأبداً ﴿وَ﴾ لعنة ﴿ٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ﴾ المستغفرين للمؤمنين ﴿وَ﴾ لعنة ﴿ٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿٨٧﴾﴾.

﴿خَـٰلِدِينَ﴾ هؤلاء ﴿فِيهَا﴾ أي في اللعنة ولوازمها من أنواع العذاب والنكال بحيث ﴿لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ﴾ المتفرعُ عليها أصلاً ﴿وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٨٨﴾﴾ ينتظرون تخفيفه.

﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟﴾ منهم في النشأة الأولى ﴿مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ﴾ الارتداد والضلال ﴿وَأَصْلَحُوا۟﴾ أحوالهم بالتوبة والإخلاص والاستغفار والندامة على ما صدر عنهم ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ﴾ الموفقَ لهم على التوبة ﴿غَفُورٌ﴾ يستر جرائمهم ﴿رَّحِيمٌ ﴿٨٩﴾﴾ مشفقٌ يتجاوز عن زلاتهم.

ثم قال سبحانه:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ ارتدوا ـ العياذ بالله ـ ﴿بَعْدَ إِيمَـٰنِهِمْ﴾ ثم لم يتوبوا ﴿ثُمَّ﴾ لم يتندموا بل ﴿ٱزْدَادُوا۟ كُفْرًا﴾ أو إصراراً وعتواً واستكباراً ﴿لَّن تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ﴾ بعدما عاندوا ﴿وَأُوْلَـٰٓئِكَ﴾ المعاندون المصرون

هُمُ ٱلضَّآلُّونَ ﴿٩٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَمَاتُواْ وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِم مِّلْءُ ٱلْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوِ ٱفْتَدَىٰ بِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٩١﴾ لَن تَنَالُواْ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَيْءٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ

﴿هُمُ ٱلضَّآلُّونَ ﴿٩٠﴾﴾ المقصورون على الضلالة في بدء الفطرة لا يرجى منهم الفلاح أصلاً بل:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ في مدة أعمارهم ﴿وَمَاتُواْ﴾ ﴿وَ﴾ الحال أنه ﴿هُمْ كُفَّارٌ﴾ كما كانوا ﴿فَلَن يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِم مِّلْءُ ٱلْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوِ ٱفْتَدَىٰ بِهِۦٓ﴾ أي لن تقبل توبتهم عند الله وإن أنفق وافتدى كلُّ واحدٍ منهم ملء الأرض ذهباً رجاء أن تقبل توبته بل ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ الهالكون في تيه الضلال ﴿لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ دائماً مستمراً ﴿وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٩١﴾﴾ من أنواع النصر من الشفاعة والإنفاق والعمل الصالح والحج المبرور وغير ذلك.

ثم لما سجل سبحانه عليهم العذاب بحيث لا يخفف عنهم أصلاً ولا تقبل توبتهم وإن أنفق كل واحد منهم ملء الأرض ذهباً، نبّه على المؤمنين طريق الإنفاق، وخاطبهم على وجه التأكيد والمبالغة فقال:

﴿لَن تَنَالُواْ ٱلْبِرَّ﴾ أي لن تصلوا ولن تبلغوا أيها المؤمنون مرتبة الأبرار الأخيار عند الله مطلقاً ﴿حَتَّىٰ تُنفِقُواْ﴾ امتثالاً لأمره وطلباً لرضاه ﴿مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ أي من أحسن ما عندكم وأكرمه ﴿وَ﴾ اعلموا أن ﴿مَا تُنفِقُواْ مِن شَيْءٍ﴾ ولو حبةً أو ذرةً أو كلمةً طيبةً خالصاً لرضاه بلا شوب المنة والأذى ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ﴾ المطلع لجميع أحوالكم ونياتكم

بِهِۦ عَلِيمٌ ﴿٩٢﴾ ۞ كُلُّ ٱلطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَٰٓءِيلُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ مِن قَبْلِ أَن تُنَزَّلَ ٱلتَّوْرَىٰةُ ۗ قُلْ فَأْتُوا۟ بِٱلتَّوْرَىٰةِ فَٱتْلُوهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٩٣﴾ ....

﴿بِهِۦ عَلِيمٌ ﴿٩٢﴾﴾ لا يغيب عن علمه شيء فيجازيكم على مقتضى علمه.

ثم لما ادعى اليهود أن ما حرم في ديننا كان حراماً في دين إبراهيم أيضاً، وأنتم أيها المدعون موافقة دينكم وملتكم دينَ إبراهيم وملته، لم تحلون ما حرم في دينه؟

ردَّ الله عليهم وكذَّبهم بقوله:

﴿۞ كُلُّ ٱلطَّعَامِ﴾ الذي به يقتات الإنسان ويتغذى ﴿كَانَ حِلًّا﴾ حلالاً ﴿لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ إذ الأصل في الأشياء الحل ما لم يرد الشرع بتحريمه ﴿إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَٰٓءِيلُ﴾ وهو يعقوب عليه السلام ﴿عَلَىٰ نَفْسِهِۦ﴾ على سبيل النذر بلا ورود الوحي إذ كان له عرق النسا، فنذر إن شُفي لم يأكل ما هو أحب الطعام عنده واللذة، وهو لبن الإبل ولحمه فشفي، ولم يأكل بعده منها ذلك ﴿مِن قَبْلِ أَن تُنَزَّلَ ٱلتَّوْرَىٰةُ ۗ﴾ ثم لما ظهر أنواع الخبائث والقبائح من اليهود، وحرم الله عليهم في التوراة طيباتٍ أحلت لهم قبلها بسبب خباثتهم وكثافتهم، فإن أنكروا عليها وقالوا: لسنا أول ما حرم عليه هذه الأشياء المحرمة فيها بل حرم لمن قبلنا[1] ونحن نقتدي بهم ﴿قُلْ﴾ لهم إلزاماً: ﴿فَأْتُوا۟ بِٱلتَّوْرَىٰةِ فَٱتْلُوهَآ﴾ على رؤوس الأشهاد ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٩٣﴾﴾ في دعواكم، وإلا فقد افتريتم على كتاب الله ما ليس فيه.

---

(١) في المخطوط (قبلها).

﴿فَمَنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٩٤﴾ قُلْ صَدَقَ ٱللَّهُۗ فَٱتَّبِعُواْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٩٥﴾ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا ....﴾

﴿فَمَنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ مِنۢ بَعْدِ﴾ ظهور ﴿ذَٰلِكَ﴾ الدليل والبرهان ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ﴾ المفترون المنهمكون في العتو والعناد ﴿هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٩٤﴾﴾ الخارجون عن مسالك التوحيد، المتمردون عن[1] ربقة الإيمان.

﴿قُلْ﴾ لهم يا أكمل الرسل إمحاضاً للنصح ﴿صَدَقَ ٱللَّهُۗ﴾ المطلعُ لجميع ما كان ويكون أن لا حرمة لهذه الأشياء في دين إبراهيم عليه السلام، بل أول من حرم عليهم أنتم أيها اليهود وإن أردتم استحلالها ﴿فَٱتَّبِعُواْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ﴾ التي هي الإسلام المنزل على خير الأنام لأنه كان ﴿حَنِيفًا﴾ طاهراً عن الخبائث والرذائل المؤدية إلى تحريم الطيبات، إذ هو على صراط التوحيد وجادة الاعتدال، بعيدٌ عن طرفي الإفراط والتفريط المؤديان إلى الشرك ﴿وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٩٥﴾﴾ أصلاً لصفاء فطرته ونجابة طينته.

ثم لما كان إبراهيم صلوات الرحمن عليه مستقيماً على صراط التوحيد، مستوياً عليه ما وضع سبحانه أول معبد للموحدين إلا لأجله كما قال:

﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ﴾ ليعبدوا فيه الله ويتوجهوا إلى جنابه ﴿لَلَّذِى بِبَكَّةَ﴾ للبيت الذي بمكة قبل وضع المسجد الحرام قبل وضع البيت المقدس بأربعين سنة، والحال أنه وضع ﴿مُبَارَكًا﴾ كثير الخير والنفع لساكنيه

(١) في المخطوط (من) والأصح (على).

وَهُدًى لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٦﴾ فِيهِ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ مَّقَامُ إِبْرَٰهِيمَ ۖ وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا ۗ وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ۚ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٧﴾ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ......................

وطائفيه[1] يرشدهم إلى الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله ﴿وَهُدًى لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٦﴾﴾ يوصلهم إلى التوحيد الذاتي لو كوشفوا بسرائر وضعه وتشريعه إذ:

﴿فِيهِ ءَايَٰتٌۢ﴾ دلائل وشواهد ﴿بَيِّنَٰتٌ﴾ واضحاتٌ دالةٌ على توحيد الذات منها ﴿مَّقَامُ إِبْرَٰهِيمَ﴾ وهو مقام الرضا والتسليم ﴿وَمَن دَخَلَهُۥ﴾ ضيفاً مسلِماً مسلِّماً مفوضاً ﴿كَانَ ءَامِنًا﴾ عن وسوسة الأنانية ودغدغة الغيرية، متصفاً بصفة الخلة ﴿وَلِلَّهِ﴾ أي للوصول إلى توحيده وللتحقق بمقام عبوديته وإحسانه وجب ﴿عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ﴾ الممثل عن قلب الخليل اللائق لخلعة الخلة ﴿مَنِ ٱسْتَطَاعَ﴾ منكم أيها الحيارى في صحارى الإمكان ﴿إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾ ربنا آتنا من لدنك رحمة وهيء لنا من أمرنا رشداً ﴿وَمَن كَفَرَ﴾ ولم يحج إنكاراً وعناداً ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ﴾ المستغني في ذاته عن جميع مظاهره ومصنوعاته ﴿غَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٧﴾﴾ لم يبال بهم وبعباداتهم، وإنما أظهرهم وأوجب عليهم العبادة والرجوع إلى جنابه والتوجه نحو بابه ؛ ليتحققوا في مرتبة العبودية، ويتقرروا فيها حتى يستحقوا الخلافة والنيابة المتفرعة على سر الظهور والإظهار.

﴿قُلْ﴾ يا أكمل الرسل لمن أنكر شعائر الإسلام ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ المدعين للإيمان بوحدانية الله ﴿لِمَ تَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ الدالة على توحيده

---

(١) في المخطوط (وطايفه) والصواب ما أثبتناه.

وَٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا تَعۡمَلُونَ ﴿٩٨﴾ قُلۡ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنۡ ءَامَنَ تَبۡغُونَهَا عِوَجٗا وَأَنتُمۡ شُهَدَآءُۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ ﴿٩٩﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ....

المنزلة على نبيه الذي جاء من عنده بالتوحيد الذاتي ليكون مرسلاً إلى كافة البرايا رحمةً للعالمين؟ ﴿وَ﴾ لا تخافون من غضب الله وسخطه إذ ﴿ٱللَّهُ شَهِيدٌ﴾ مطلعٌ حاضرٌ ﴿عَلَىٰ مَا تَعۡمَلُونَ ﴿٩٨﴾﴾ من الإنكار والاستكبار والتحريف والاستسرار.

﴿قُلۡ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ المدعين الاتباع بالكتب والرسل المنزلة من عند الله ﴿لِمَ تَصُدُّونَ﴾ تصرفون وتحرفون ﴿عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ الذي هو دين الإسلام وهو الصراط المستقيم إلى صفاء الوحدة ﴿مَنۡ ءَامَنَ﴾ انقاد وتديّن به ﴿تَبۡغُونَهَا عِوَجٗا﴾ حال كونكم طالبين أن تُوقِعُوا فيه عوجاً وانحناءً وضعفاً حتى يضعف اعتقاد المسلمين ويتزلزل آراؤهم في أمور دينهم كما في زماننا هذا ﴿وَ﴾ الحال أنكم ﴿أَنتُمۡ شُهَدَآءُۗ﴾ مطلعون عن مطالعة كتبكم المنزلة من عند الله على ظهور دين الإسلام وارتفاع قدره وقدر من أوتي به ومع ذلك حرّفتم الكتب وأنكرتم له عناداً واستكباراً ﴿وَ﴾ لا تغفلوا عن غضب الله وانتقامه إذ ﴿مَا ٱللَّهُ﴾ العالم بالسرائر والخفيات ﴿بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ ﴿٩٩﴾﴾ من التلبيس والعناد والتحريف والتغيير.

ثم لما وبّخ سبحانه الكافرين القاصدين إضلال المؤمنين بما وبخ وبالغ توبيخهم بما بالغ، أراد أن يحذر المؤمنين عن مخالطتهم وموافاتهم، فناداهم لأنه دخل في قبول النصح فقال:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ وفّقوا على تشريف الإيمان مقتضى إيمانكم

﴿إِن تُطِيعُوا فَرِيقًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ ﴿١٠٠﴾ وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ آيَاتُ اللَّهِ﴾ ....

الاجتناب عن مخالطة الكفار ومؤاخاتهم وادعاء المحبة والمودة معهم لأنكم ﴿إِن تُطِيعُوا فَرِيقًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾ طائعين قاصدين إطاعتهم وانقيادهم ﴿يَرُدُّوكُم﴾ البتة ﴿بَعْدَ إِيمَانِكُمْ﴾ وتوحيدكم ﴿كَافِرِينَ ﴿١٠٠﴾﴾ مشركين ما أنتم عليه في جاهليتكم.

نزلت في فرقة من الأوس والخزرج كانوا يجتمعون ويتحدثون ويتناشدون، فمرّ على اجتماعهم: شاس ابن قيس اليهودي، فغاظه مؤاخاتهم ومخالطتهم، فأمر بشابٍ من اليهود أن يجلس إليهم، ويذكرهم يوم بعاث، وينشدهم بعض ما قيل فيه، وكان الظفر في ذلك اليوم للأوس ففعل، فتنازع القوم وتفاخروا إلى أن تغاضبوا وتخاصموا، وصاحوا: السلاح ! واجتمع من الجانبين خلقٌ عظيمٌ.

وتوجه إليهم رسول الله ﷺ وأصحابه، وقال لهم: «أَتَدَّعُوْنَ الجَاهِلِيَّةَ وَأَنَا بَيْنَ أَظْهُرِكُمْ بَعْدَ إِذْ أَكْرَمَكُمُ اللهُ بِالإِسْلَامِ وَشَرَّفَكُمْ بِالإِيْمَانِ وَالتَّوْحِيْدِ الرَّافِعِ لِجَمِيْعِ الخُصُوْمَاتِ»[١] فعلموا أنها نزغةٌ من الشيطان وكيدٌ من عدوهم، فألقوا السلاح واستغفروا وتعانقوا وتحابوا، وانصرفوا مع رسول الله ﷺ.

﴿وَ﴾ لذلك قال لهم: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ﴾ يا أيها المؤمنون بالله الواحد الأحد الفرد الصمد ﴿وَ﴾ الحال أنكم ﴿أَنتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ آيَاتُ اللَّهِ﴾ الدالةِ

---

(١) قال الإمام الزيلعي: رواه الطبري في تفسيره عن زيد بن أسلم من طريقين ـ انظر تخريج الأحاديث والآثار للزيلعي [١/ ٢٠٨].

وَفِيكُمْ رَسُولُهُۥۗ وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدْ هُدِىَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٠١﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٢﴾ وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟ۚ وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ ....

على توحيده ﴿وَ﴾ مع ذلك ﴿فِيكُمْ رَسُولُهُۥۗ﴾ المرسلُ إليكم المولي لأموركم ﴿وَمَن يَعْتَصِم﴾ منكم ﴿بِٱللَّهِ﴾ ويتبع رسوله المنزل من عنده بتوحيده الذاتي ﴿فَقَدْ هُدِىَ﴾ واهتدى ﴿إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٠١﴾﴾ يوصله إلى صفاء الوحدة.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ معظم أموركم في محافظة الإيمان المؤدي إلى الكشف والعيان، التقوى والاجتناب عن محارم الله ومنهياته، والتحلي بأوامره ومرضياته ﴿ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ المطلعَ لجميع حالاتكم ﴿حَقَّ تُقَاتِهِۦ﴾ خاليةً عن الميل والرياء والبدع والأهواء المفضية إلى الإلحاد والزندقة ﴿وَ﴾ اجتهدوا أيها المؤمنون أن ﴿لَا تَمُوتُنَّ﴾ عن هويتكم ﴿إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٢﴾﴾ مخلصون في الاعتصام بحبل التوحيد والإيمان، مخلصون عن ربقة التقليد والحسبان.

﴿وَ﴾ بعد موتكم عن أنانيتكم ﴿ٱعْتَصِمُوا۟﴾ أيها المخلصون الموقنون ﴿بِحَبْلِ ٱللَّهِ﴾ الممتدِ من أزل الذات إلى أبد الأسماء والصفات، وأرفعوا أنانيتكم وهويتكم عن البين ﴿جَمِيعًا﴾ حتى لا يبقى توهم الغير والسوى مطلقاً، وتَخْلُصُ نفوسكم عن مشتهياتها ومستلذاتها الفانية، وتصلَ إلى الحياة الأزلية[1] والبقاء السرمدي ﴿وَلَا تَفَرَّقُوا۟ۚ﴾ أي لا تتفرقوا بمقتضيات أوهامكم المتفرعة على هوياتكم الباطلة عن الحقية الحقيقية ﴿وَ﴾ بعد ما وصلتم بمقام الجمعية والوحدة الذاتية ﴿ٱذْكُرُوا۟﴾ أيها العكوس والأظلال ﴿نِعْمَتَ ٱللَّهِ﴾

(١) في المخطوط (الحياة الأزلي).

عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠٣﴾ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ ....

المتجلي فيكم بذاته المتفضلِ ﴿عَلَيْكُمْ﴾ بلا عوضٍ ولا غرضٍ ﴿إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً﴾ بعداءَ متروكين في ظلمة العدم ﴿فَأَلَّفَ﴾ سبحانه بتجلياته الجمالية على مرآة العدم ﴿بَيْنَ قُلُوبِكُمْ﴾ في فضاء الإمكان بأن يجعلكم أزواجاً وبنين وحفدة متظاهرين بعضكم ببعض على مقتضى الإضافات ورقائق المناسبات الرافعة بين الأوصاف والأسماء الإلهية ﴿فَأَصْبَحْتُم﴾ بعد ما تيقظتم عن منام الإمكان ﴿بِنِعْمَتِهِۦٓ﴾ التي هي التوفيق والإقدار على طلب الرشد والرشاد ﴿إِخْوَٰنًا﴾ مجتمعين في فضاء الوحدة بلا توهم الكثرة المستدعية للعداوة والخصومة ﴿وَ﴾ الحال أنكم ﴿كُنتُمْ﴾ في طغيان الإمكان ﴿عَلَىٰ شَفَا﴾ طرفِ ﴿حُفْرَةٍ﴾ ملئت ﴿مِّنَ ٱلنَّارِ﴾ مشرفين بالوقوع فيها وهي حفرة العدم المباين لفضاء الوجود المملوءة بنيران البعد والخذلان ﴿فَأَنقَذَكُم﴾ الله أي أنجاكم وخلصكم ﴿مِّنْهَا﴾ بلطفه بأن أودع فيكم العقل الجزئي المتشعب من العقل الكلي العائد إليه ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ﴾ الهادي ﴿لَكُمْ﴾ دائماً مستمراً إلى توحيده الذاتي ﴿ءَايَٰتِهِۦ﴾ آثار أسمائه وأوصافه الدالة على ذاته ﴿لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠٣﴾﴾ رجاء أن تهتدوا منها إليها لغاية ظهورها ووضوحها.

﴿وَ﴾ بعدما وُفقتم[1] للإيمان ونُبهتم للتوحيد والعرفان ﴿لْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ﴾ ملتزمةٌ للإرشاد والتكميل ﴿يَدْعُونَ﴾ الناسَ ﴿إِلَى ٱلْخَيْرِ﴾ أي إلى

---

(١) في المخطوط (وبعد وفقتم).

وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (١٠٤) وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (١٠٥) يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ ....

التوحيد وإسقاط الإضافات ﴿وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ﴾ المستحسن في طريق التوحيد ﴿وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ﴾ المستقبح فيه المانع عن الوصول إليه ﴿وَأُولَئِكَ﴾ الراشدون المهديون المرشدون الهادون ﴿هُمُ الْمُفْلِحُونَ (١٠٤)﴾ الفائزون من عنده بالمثوبة العظمى، والدرجة العليا التي هي طريق مقام الجمعية والرضا.

﴿وَلَا تَكُونُوا﴾ أيها المحمديون المتحققون بمقام الجمعية ﴿كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ﴾ الدالةُ على الجمعية والاتفاق، ولم يتنبهوا منها إلى التوحيد الذاتي ﴿وَأُولَئِكَ﴾ الأشقياء الهالكون في تيه الخذلان والحرمان ﴿لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (١٠٥)﴾ في جهنم البعد والإمكان، وسعير الشرك والطغيان.

اذكر لهم يا أكمل الرسل: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ﴾ بقبول النور من الوجه الباقي ﴿وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ﴾ ببقائها في سواد الإمكان ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ﴾ ولم يرتفع غشاوة هوياتهم، وكثافة ماهياتهم عن أعينهم وأبصارهم ولم تَصفُ مرآة قلوبهم عن صداء الكثرة وشوب التنويه، لذلك قيل تقريعاً وتوبيخاً:

﴿أَكَفَرْتُم﴾ أيها الهالكون في بقعة الإمكان من ﴿بَعْدَ إِيمَانِكُمْ﴾ بوجوب الوجود ووجوب الرجوع إليه ﴿فَذُوقُوا الْعَذَابَ﴾ أي الطرد والحرمان

بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿١٠٦﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱبْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِى رَحْمَةِ ٱللَّهِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿١٠٧﴾ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٨﴾ وَلِلَّهِ ....

﴿بِمَا﴾ أي بأنانيتكم ﴿كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿١٠٦﴾﴾ وتسترون وتستبدلون به نور الوجود وصفاء التوحيد الخالص عن الكدورات مطلقاً.

﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱبْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ﴾ عن دنس التعليقات ورين الإضافات واضمحلت هوياتهم في هوية الحق وارتفعت الحجب والأستار المانعة عن الوصول إلى دار القرار عن عيون بصائرهم وأبصارهم ﴿فَفِى رَحْمَةِ ٱللَّهِ﴾ التي وسعت كل شيء، مستغرقون في بحر توحيده، غائصون، سابحون لا يخرجون منها أبداً ﴿هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿١٠٧﴾﴾ دائمون مستمرون ما شاء الله، لا حول ولا قوة إلا بالله.

﴿تِلْكَ﴾ المواعيد والوعيدات المذكورة للأولياء والأعداء ﴿ءَايَٰتُ ٱللَّهِ﴾ الدالة على كمال قدرته وتفرده في ألوهيته واستقلاله في ربوبيته ﴿نَتْلُوهَا عَلَيْكَ﴾ يا أكمل الرسل تفضلاً وامتناناً ملتبساً ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ لا شك في وقوعها ﴿وَمَا ٱللَّهُ﴾ المنتقم في يوم الميعاد ﴿يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٨﴾﴾ بل يجازيهم على مقتضى ما صدر عنهم في النشأة الأولى، إن خيراً فخير وإن شراً فشر، فمن يعمل مثقال ذرة خيراً فيها يره فيها ومن يعمل مثقال ذرة شراً فيها يره فيها.

﴿وَ﴾ لا يتصور الظلم والتعدي من جانبه سبحانه إذ ﴿لِلَّهِ﴾ لظهوره واستوائه على عروش ذرائر الكائنات بالقسط والاعتدال الحقيقي محافظة

مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرۡجَعُ ٱلۡأُمُورُ ﴿١٠٩﴾ كُنتُمۡ خَيۡرَ أُمَّةٍ أُخۡرِجَتۡ لِلنَّاسِ تَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَتَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَتُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِۗ وَلَوۡ ءَامَنَ أَهۡلُ ٱلۡكِتَٰبِ لَكَانَ خَيۡرًا لَّهُمۚ مِّنۡهُمُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ وَأَكۡثَرُهُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ ﴿١١٠﴾ ....

﴿مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ أي ما ظهر في عالم الغيب وعالم الأرواح ﴿وَمَا﴾ ظهر ﴿فِي ٱلۡأَرۡضِۚ﴾ أي عالم الشهادة والأشباح ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ﴾ لا إلى غيره إذ لا غير ﴿تُرۡجَعُ ٱلۡأُمُورُ ﴿١٠٩﴾﴾ المتعلقة بالمظاهر كلها إذ هو الفاعل المطلق لا فعل لسواه، بل لا سواه ولا رجوع إلا إياه.

﴿كُنتُمۡ﴾ أيها المحمديون ﴿خَيۡرَ أُمَّةٍ﴾ في علم الله مستويةٍ على صراط التوحيد، معتدلةٍ بين طرفي الإفراط والتفريط ﴿أُخۡرِجَتۡ لِلنَّاسِ﴾ أي قدرت ظهوركم لتكميل الناقصين من الناس حتى ﴿تَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ﴾ المفروض في سلوك طريق التوحيد ﴿وَتَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ﴾ المحظور فيه

﴿وَ﴾ ذلك الأمر والنهي إنما يصدر منكم لكونكم ﴿تُؤۡمِنُونَ﴾ توقنون ﴿بِٱللَّهِۗ﴾ المستوي على عروش ذرائر الكائنات بالاعتدال الذي هو صراط الله الأقوم ﴿وَلَوۡ ءَامَنَ أَهۡلُ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ بأجمعهم بدينكم وملتكم ﴿لَكَانَ خَيۡرًا لَّهُمۚ﴾ ينجيهم عن ورطتي الإفراط والتفريط ويوصلهم إلى صراط مستقيم وإن كان القليل ﴿مِّنۡهُمُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ﴾ الداخلون في حصار الإيمان مع المؤمنين ﴿وَ﴾ لكن ﴿أَكۡثَرُهُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ ﴿١١٠﴾﴾ الخارجون عن حدوده وأحكامه، لا تبالوا أيها الموحدون بفسقهم وكفرهم إذ:

لَن يَضُرُّوكُمْ إِلَّآ أَذًىۖ وَإِن يُقَٰتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ ٱلْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ﴿١١١﴾ ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوٓاْ إِلَّا بِحَبْلٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ ٱلنَّاسِ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْمَسْكَنَةُۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُواْ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ ....

﴿ لَن يَضُرُّوكُمْ ﴾ ضراراً فاحشاً ﴿ إِلَّآ أَذًىۖ ﴾ صدرت من سقطات ألسنتهم من التقريع والتشنيع ﴿وَإِن﴾ بالغوا في العدواة إلى أن ﴿ يُقَٰتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ ٱلْأَدْبَارَ ﴾ اضطراراً وإلزاماً ﴿ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ﴿١١١﴾﴾ بالكبر عليكم بعد الفر منكم، بل ينصركم الله عليهم بنصره العزيز، ويخذلهم ويذلهم لذلك.

﴿ ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ ﴾ والصَغَار والهوان ﴿أَيْنَ مَا ثُقِفُوٓاْ ﴾ وجدوا صاروا مهانين صاغرين ﴿إِلَّا ﴾ المعتصمين منهم ﴿ بِحَبْلٍ﴾ موفق ﴿مِّنَ﴾ عند ﴿ ٱللَّهِ ﴾ وهو الانقياد لدين الإسلام ﴿وَحَبْلٍ﴾ عهدٍ وثيقٍ وذمةٍ ﴿مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾ ﴿وَ﴾ بعدما ﴿بَآءُو﴾ رجعوا عن تصديق دين الإسلام المنزل لخير الأنام استحقوا ﴿ بِغَضَبٍ ﴾ نازلٍ عظيم ﴿مِّنَ ٱللَّهِ ﴾ ﴿وَ﴾ لا يمكنهم دفعه إذ ﴿ ضُرِبَتْ﴾ تمكنت وتقررت ﴿عَلَيْهِمُ ٱلْمَسْكَنَةُۚ ﴾ المذمومةُ الناشئةُ من خباثة طينتهم لا ترجى عزتهم أصلاً ﴿ذَٰلِكَ ﴾ أي ضرب الذلة والمسكنة والصغار والهوان عليهم ﴿بِأَنَّهُمْ كَانُواْ ﴾ في أوان عزتهم وعظمتهم ﴿يَكْفُرُونَ ﴾ يكذبون ويستهزئون ﴿بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ﴾ المنزلة من عنده ﴿وَيَقْتُلُونَ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّۚ ﴾ بلا رخصةٍ شرعيةٍ ﴿ذَٰلِكَ ﴾ الكفر والقتل الصادر منهم ﴿بِمَا عَصَواْ ﴾ أي بسبب عصيانهم وخروجهم عن إطاعة أمر الله والانقياد لأحكامه عتواً وعناداً

وَّكَانُواْ يَعْتَدُونَ ﴿١١٢﴾ ۞ لَيْسُواْ سَوَآءً مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ يَتْلُونَ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴿١١٣﴾ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَأُوْلَٰٓئِكَ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١١٤﴾ ....

﴿وَ﴾ متى عصوا ﴿كَانُواْ يَعْتَدُونَ ﴿١١٢﴾﴾ يتجاوزون عن حدود الله بالمرة ويقتلون من يقيمها استكباراً.

﴿۞ لَيْسُواْ﴾ أي ليس جميع أهل الكتاب ﴿سَوَآءً﴾ مستوية الأقدام في الاعتدال والإنكار بل ﴿مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ﴾ أيضاً ﴿أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ﴾ مستقيمةٌ على صراط العدل ﴿يَتْلُونَ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ الدالة على توحيده ﴿ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ﴾ أي جميع آنائه ﴿وَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴿١١٣﴾﴾ يصلون خاضعين متذللين، واضعين جباههم على تراب المذلة تعظيماً له وخوفاً من خشيته، ورجاءً من سعة رحمته وذلك لأنهم.

﴿يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾ أي بوحدانيته ﴿وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾ بصدقه وحقيته ﴿وَ﴾ مع ذلك ﴿يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ﴾ والمبرات المؤدية إلى إسقاط الإضافات وقطع التعليقات المستلزمة لرفع التعيينات الحاجبة عن شهود الذات ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ﴾ المتصفون منهم بهذه الصفات ﴿مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١١٤﴾﴾ لسلوك طريق الحق المستحقين للوصول إلى سواء التوحيد الذي هو السواد الأعظم المشار إليه في الحديث النبوي صلوات الله على قائله.

وَمَا يَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَلَن يُكْفَرُوهُ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُتَّقِينَ ﴿١١٥﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَن تُغْنِىَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۚ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿١١٦﴾ مَثَلُ مَا يُنفِقُونَ فِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ

﴿وَمَا يَفْعَلُوا۟﴾ هؤلاء الموصوفون منهم ﴿مِنْ خَيْرٍ﴾ طالبين فيه رضاء الله راجين ثوابه حقاً خائفين من عقابه ﴿فَلَن يُكْفَرُوهُ ۗ﴾ أي لن ينقصوا من أجره بل يزادوا ويضاعفوا ﴿وَٱللَّهُ﴾ الهادي لجميع العباد ﴿عَلِيمٌۢ بِٱلْمُتَّقِينَ ﴿١١٥﴾﴾ منهم فيجازيهم على مقتضى علمه وحسب لطفه وكرمه، أدركنا بلطفك وكرمك يا أكرم الأكرمين.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ بالله في النشأة الأولى عتواً واستكباراً مفتخرين بأموالهم وأولادهم متظاهرين بها ﴿لَن تُغْنِىَ﴾ وتدفع ﴿عَنْهُمْ﴾ في النشأة الأخرى ﴿أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُم مِّنَ﴾ غضبَ ﴿ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۖ﴾ قليلاً ﴿وَأُو۟لَٰٓئِكَ﴾ المستكبرون المفتخرون هم ﴿أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۚ﴾ لا يخلصون ولا يخرجون منها بل ﴿هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿١١٦﴾﴾ مخلدون لا ترجى نجاتهم وتخفيف عذابهم أصلاً، ولا ينفع لهم إنفاقهم وإحسانهم الذي صدر عنهم في دار الدنيا لعدم مقارنته بالإيمان بل:

﴿مَثَلُ مَا يُنفِقُونَ﴾ رياءً وسمعةً واشتهاراً ﴿فِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ لا لمثوبةٍ أخرويةٍ لعدم اعتقادهم بالآخرة ﴿كَمَثَلِ رِيحٍ﴾ عاصفٍ ﴿فِيهَا صِرٌّ﴾ بردٌ شديدٌ ﴿أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ﴾ بالكفر والفسق والعصيان

فَأَهْلَكَتْهُ ۚ وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَٰكِنْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١١٧﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّوا۟ مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ ٱلْبَغْضَآءُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ وَمَا تُخْفِى صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ ۚ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١١٨﴾ هَٰٓأَنتُمْ أُو۟لَآءِ تُحِبُّونَهُمْ ....

﴿فَأَهْلَكَتْهُ ۚ﴾ بالمرة وصاروا آيسين قانطين من نفعها، وشكوا من الله بما لا يليق بجنابه من نسبة الظلم والتعدي تعالى عن ذلك ﴿وَ﴾ الحال أنه ﴿مَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَٰكِنْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١١٧﴾﴾ أي ولكن هم يظلمون أنفسهم بكفرهم وفسقهم، ولم يتفطنوا له ونسبوه إلى الله، وما الله يريد ظلماً للعباد.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ﴾ مقتضى إيمانكم أن ﴿ لَا تَتَّخِذُوا۟ بِطَانَةً ﴾ صديقاً وصاحب سر تستودعون سرائركم عنده ﴿مِّن دُونِكُمْ ﴾ أي الكفار دون المؤمنين، واعلموا أنهم ﴿لَا يَأْلُونَكُمْ ﴾ لا يمنعون عنكم ولا يقصرون في شأنكم ﴿خَبَالًا ﴾ ضرراً وفساداً بل ﴿وَدُّوا۟﴾ رجوا دائماً ﴿مَا عَنِتُّمْ ﴾ أي ضرركم وهلاككم، ومن غاية ودادتهم ﴿قَدْ بَدَتِ﴾ ظهرت ﴿ ٱلْبَغْضَآءُ ﴾ المكنونة في نفوسهم ﴿مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ ﴾ بلا قصدٍ واختبارٍ ﴿وَ﴾ لا شك أن ﴿مَا تُخْفِى صُدُورُهُمْ ﴾ قصداً واختياراً ﴿أَكْبَرُ ۚ﴾ مما تبدي أفواههم وألسنتهم هفوةً واضطراراً ﴿قَدْ بَيَّنَّا ﴾ أوضحنا ﴿لَكُمُ﴾ أيها المؤمنون ﴿ٱلْءَايَٰتِ ۖ ﴾ المتعلقة لأمور معاشكم ومعادكم ﴿إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١١٨﴾﴾ تفهمون مقاصدها وتتعظون بها وتعملون بمقتضاها.

﴿هَٰٓأَنتُمْ ﴾ أيها المؤمنون ﴿أُو۟لَآءِ ﴾ الخاطئون المغفلون الذين ﴿ تُحِبُّونَهُمْ ﴾

وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَٰبِ كُلِّهِۦ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْاْ عَضُّواْ عَلَيْكُمُ الْأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِۚ قُلْ مُوتُواْ بِغَيْظِكُمْۗ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمُۢ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿١١٩﴾ إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُواْ بِهَاۖ وَإِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ ....

محبةً صادقةً ﴿وَلَا يُحِبُّونَكُمْ﴾ إلا تلبيساً ونفاقاً ﴿وَ﴾ أنتم ﴿تُؤْمِنُونَ بِالْكِتَٰبِ كُلِّهِۦ﴾ أي بجميع الكتب النازلة من عند الله على رسله، وهم لا يؤمنون بكتابكم الجامعِ لما في الكتب السالفة ﴿وَ﴾ من غاية نفاقهم معكم ﴿ إِذَا لَقُوكُمْ قَالُوٓاْ﴾ تلبيساً وتقريراً: ﴿ءَامَنَّا﴾ بدينكم وكتابكم ورسولكم ﴿وَإِذَا خَلَوْاْ﴾ مضوا عنكم ﴿عَضُّواْ عَلَيْكُمُ الْأَنَامِلَ مِنَ﴾ غاية ﴿الْغَيْظِۚ﴾ وعدم القدرة على الانتقام والتشفي ﴿قُلْ﴾ يا أكمل الرسل نيابةً عنا مخاطباً لهم على وجه التقريع والتوبيخ: ﴿مُوتُواْ﴾ أيها المنافقون ﴿ بِغَيْظِكُمْۗ﴾ المتزايد المترقى يوماً فيوماً حسب ارتفاع قدر الإسلام وعلو شأنه، ولا تأمنوا عن مكر الله وانتقامه ﴿ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمُۢ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿١١٩﴾﴾ يعلم ما تخفون فيها من الكفر والنفاق ويجازي على مقتضى علمه، ولا يغرب عن علمه شيء، ومن غاية حسدهم ونهاية بغضهم.

﴿ إِن تَمْسَسْكُمْ﴾ وتحيط بكم ﴿حَسَنَةٌ﴾ مسرةٌ مفرحةٌ لنفوسكم ﴿تَسُؤْهُمْ﴾ وتشق عليهم من كمال عداوتهم ونفاقهم ﴿وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ﴾ مُملّةٌ مؤلمةٌ ﴿ يَفْرَحُواْ بِهَاۖ﴾ تشفياً وتفرجاً، شامتين بها، سارين عليها ﴿وَإِن تَصْبِرُواْ﴾ على غيظهم وأذاهم ﴿وَتَتَّقُواْ﴾ وترجعوا إلى الله مفوضين أموركم إليه يحفظكم عن جميع ما يؤذيكم بحيث ﴿لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ﴾ مكرهم وحيلتهم

شَيْـًٔاۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿١٢٠﴾ وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ ٱلْمُؤْمِنِينَ مَقَٰعِدَ لِلْقِتَالِۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٢١﴾ ....

﴿شَيْـًٔاۗ﴾ من الضرر ﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾ المطلعَ لسرائرهم وضمائرهم ﴿بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ من الحيل والمخايل ﴿مُحِيطٌ ﴿١٢٠﴾﴾ لا يشذ عن علمه شيء ولو خطرة وطرفة.

وعلى قراءة﴿تعملون﴾ بالخطاب كان المعنى:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾ الموفق لكم على دين الإسلام ﴿بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ من الصبر والتقوى والتفويض والرضوخ إلى المولى﴿مُحِيطٌ﴾ حاضرٌ غير مغيب عنكم وعن عملكم.

﴿وَ﴾ اذكر يا أكمل الرسل وقت ﴿إِذْ غَدَوْتَ﴾ خرجتَ أنت مسرعاً في الغداة ﴿مِنْ أَهْلِكَ﴾ عائشة رضي الله عنها حال كونك ﴿تُبَوِّئُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ تعينهم وتهيئ لهم ﴿مَقَٰعِدَ﴾ أمكنةً ومواقفَ ﴿لِلْقِتَالِۗ﴾ وبعضٌ منهم مع جميع المنافقين يتقاعدون عنه ويسوفونه معللين بعللٍ ودلائلَ ضعيفةٍ وبعضٍ آخرَ يريدون الخروج ويرغبونك عليه ﴿وَٱللَّهُ﴾ المطلع لضمائر الفريقين ﴿سَمِيعٌ﴾ لأقوالهم ﴿عَلِيمٌ ﴿١٢١﴾﴾ بنياتهم.

روي أن المشركين نزلوا بأُحد يوم الأربعاء في عشر شوال سنة ثلاث من الهجرة، فاستشار رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم أصحابه ودعا عبد الله بن أبي، ولم يدعه قبلُ فقال هو وأكثر الأنصار: أقم يا رسول الله بالمدينة ولا تخرج، فوالله ما خرجنا منها إلى عدوٍ إلا أصاب منا، ولا دخلها علينا أحدٌ

إِذْ هَمَّت طَّآئِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا ....

إلا أصبنا منه، فكيف وأنت فينا فدعهم فإن أقاموا، أقاموا شر مجلس، وإن دخلوا، قاتلهم الرجال، ورماهم النساء والصبيان بالحجارة، وإن رجعوا رجعوا خائبين.

وأشار بعضهم إلى الخروج.

فقال عليه السلام: «رَأَيْتُ فِي مَنَامِيْ بَقَرَةً مَذْبُوْحَةً حَوْلِيْ، فَأَوَّلْتُهَا خَيْرَاً وَرَأَيْتُ فِي ذُبَابِ سَيْفِي ثَلْمَاً، فَأَوَّلْتُهُ هَزِيْمَةً، وَرَأَيْتُ كَأَنِّيْ أَدْخَلْتُ يَدِي فِي دِرْعٍ حَصِيْنَةٍ فَأَوَّلْتُهَا المَدِيْنَةَ فَإِنْ رَأَيْتُمْ أَنْ تُقِيْمُوْا بِالمَدِيْنَةِ وَتَدَعُوْهُم».

فقال رجالٌ من المسلمين فاتهم بدر، وأكرمهم الله بالشهادة يوم أحد: أخرج بنا إلى أعدائنا، فبالغوا حتى دخل ولبس لأمته فلما رأوا ذلك ندموا على مبالغتهم فقالوا: اصنع يا رسول الله ما شئت، فقال ﷺ: «لَا يَنْبَغِي لِنَبِيٍّ أَن يَلبسَ لَأْمَتَهُ فَيَضَعَهَا حَتَّى يُقَاتِلَ».

فخرج بعد صلاة الجمعة، وأصبح بشعبٍ من أحد، ونزل في عدوة الوادي، وجعل ظهر عسكره، وسوّى صفهم، وأمَّرَ عبد الله بن جبير على الرماة، وقال: «انْضَحُوْا عنَّا بالنّبلْ لَا يَأْتُونَا مِن وَرَائِنَا»[1].

وحين استوى الصفوف وبلغوا الشرط، قال ابنُ أُبَي: عَلامَ نقتل أنفسنا وأولادنا. فانصرف، فوقع الخلاف بين المؤمنين، فتزلزلوا.

﴿إِذْ هَمَّت﴾ قصرت في تلك الحالة ﴿طَّآئِفَتَانِ مِنكُمْ﴾ بنو سلمة من الخزرج وبنو حارثة من الأوس وكانا جناح العسكر ﴿أَن تَفْشَلَا﴾ تنهزما

(١) هذه القصة مذكورة في تفسير البيضاوي ٢/ ٨٧.

وَٱللَّهُ وَلِيُّهُمَا ۗ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١٢٢﴾ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلَٰثَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُنزَلِينَ ﴿١٢٤﴾ ....

ضعفاء وجبناء، وتتّبعا أثر ابن أُبي فعصمهما الله عن متابعة الشيطان وجنوده فمضيا مع رسول الله يستغفرون عما جرى عليهما ﴿وَ﴾ كيف لا يعصمهما عن مخالفته، إذ ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّهُمَا﴾ ومولي أمورهما أرشدهما إلى ما هو أصلح لحالهما ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ﴾ المدبرِ لمصالحِ عباده لا على غيره من الأظلال ﴿فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١٢٢﴾﴾ حتى يتحققوا بمقام العبودية والرضا والتفويض.

﴿وَ﴾ بعد ما ظهرتم على العدو لا تيأسوا من نصر الله وتأييده، ولا تضعفوا ولا تجبنوا ولا تبالوا بكثرتهم وعدتهم بل اذكروا وتذكروا ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ﴾ الرقيب عليكم ﴿بِبَدْرٍ﴾ موضعٍ بين مكة والمدينة، يتسوق فيها العرب مع قوافل الحجاج ﴿وَ﴾ الحال أنكم ﴿أَنتُمْ﴾ في تلك الوقعة ﴿أَذِلَّةٌ﴾ ضعفاء في العدد والعُدد وعدوكم على عكسكم هكذا بأن أنزل عليكم من الملائكة جنوداً لم تروها ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ اليوم عن الفرار والانهزام ومخالفة الرسول ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢٣﴾﴾ تلك النصرة فيما مضى.

اذكر لهم يا أكمل الرسل وقت ﴿إِذْ تَقُولُ﴾ أنت يوم بدرٍ ﴿لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ حين حدث في قلوبهم الرعب من العدو ولكونه على ثلاثة أضعافهم قولاً استفهامياً على سبيل التبكيت والإسكات بعد ما ظهر عندك الأمر بالوحي الإلهي: ﴿أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلَٰثَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُنزَلِينَ ﴿١٢٤﴾﴾

بَلَىٰٓۚ إِن تَصۡبِرُواْ وَتَتَّقُواْ وَيَأۡتُوكُم مِّن فَوۡرِهِمۡ هَٰذَا يُمۡدِدۡكُمۡ رَبُّكُم بِخَمۡسَةِ ءَالَٰفٖ مِّنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ مُسَوِّمِينَ ﴿١٢٥﴾ وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشۡرَىٰ لَكُمۡ وَلِتَطۡمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِۦۗ وَمَا ٱلنَّصۡرُ إِلَّا مِنۡ عِندِ ٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَكِيمِ ﴿١٢٦﴾ لِيَقۡطَعَ طَرَفٗا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَوۡ يَكۡبِتَهُمۡ

ثم أوحى إليك بأن قلت:

﴿بَلَىٰٓۚ﴾ يكفيكم هذا القدر أن تستغيثوا وتستلجئوا إلى الله رغباً وترهيباً من العدو ولكن ﴿إِن تَصۡبِرُواْ﴾ في مقابلتهم ومقاتلتهم ﴿وَتَتَّقُواْ﴾ عن الاستدبار والانهزام وتصيروا فرّارين كرّارين مراراً طالبين رضا الله وإمضاء حكمه وإنفاذ قضائه يزيد عليكم ﴿وَيَأۡتُوكُم مِّن فَوۡرِهِمۡ هَٰذَا﴾ أي ساعتهم الحاضرة التي هي هذه ﴿يُمۡدِدۡكُمۡ رَبُّكُم﴾ أجراً لصبركم وتقواكم ﴿بِخَمۡسَةِ ءَالَٰفٖ مِّنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ مُسَوِّمِينَ ﴿١٢٥﴾﴾ معلمين معلومين ممتازين عن البشر.

﴿وَ﴾ اعلموا أيها المؤمنون ﴿مَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ﴾ الهادي لعباده إلى زلال توحيده أمثال هذه الإمدادات والإرهاصات الواردة في أمثال هذه الوقائع ﴿إِلَّا بُشۡرَىٰ لَكُمۡ﴾ يبشركم بمقام التوكل والتفويض والرضا والتسليم ﴿وَلِتَطۡمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِۦۗ﴾ أي لتكونوا مطمئنين بالله فانين ببقائه ﴿وَ﴾ اعلموا أيضاً ﴿مَا ٱلنَّصۡرُ﴾ والانهزام ﴿إِلَّا﴾ مقدَّرين ﴿مِنۡ عِندِ ٱللَّهِ﴾ العليم العلام ﴿ٱلۡعَزِيزِ﴾ القادرِ والغالبِ على الإنعام والانتقام ﴿ٱلۡحَكِيمِ ﴿١٢٦﴾﴾ المتقن في فعله على أتم الوجه وأكمل النظام.

وإنما جعله وبشَّر به ﴿لِيَقۡطَعَ﴾ وليستأصل ﴿طَرَفٗا﴾ جملةً وجماعة ﴿مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾ أعرضوا عن طريق التوحيد فينهزم الباقون ﴿أَوۡ يَكۡبِتَهُمۡ﴾

فَيَنقَلِبُوا۟ خَآئِبِينَ ﴿١٢٧﴾ لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿١٢٨﴾ وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٩﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَأْكُلُوا۟ ٱلرِّبَوٰٓا۟ أَضْعَٰفًا مُّضَٰعَفَةً ۖ ....

أي يخزيهم ويرديهم ﴿ فَيَنقَلِبُوا۟ ﴾ جميعاً ﴿ خَآئِبِينَ ﴿١٢٧﴾ ﴾ خاسرين نادمين.

وإذا كان الكل من عند الله العزيز الحكيم.

﴿ لَيْسَ لَكَ ﴾ يا أكمل الرسل ﴿ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ ﴾ أي شيء من أمورهم بل الأمر كله لله، فله أن يفعل معهم ما شاء وأراد إما أن يستأصلهم ﴿ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ﴾ توبةً تنجيهم من أنانيتهم ﴿ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ ﴾ دائماً جزاءً لظلمهم وكفرهم ﴿ فَإِنَّهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿١٢٨﴾ ﴾ مستقرون على الظلم ما داموا في الحياة الدنيا.

﴿ وَ ﴾ كيف لا تكون أمورهم مفوضة إلى الله إذ ﴿ لِلَّهِ ﴾ خاصةً مستقلةً بلا مزاحم ومشارك ﴿ مَا ﴾ ظهر ﴿ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا ﴾ ظهر ﴿ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ يَغْفِرُ ﴾ يستر ﴿ لِمَن يَشَآءُ ﴾ جريمة المخالفة لطريق التوحيد بعد رجوعه وإنابته إليه سبحانه ﴿ وَيُعَذِّبُ ﴾ بها ﴿ مَن يَشَآءُ ﴾ في جهنم البعد والخذلان ﴿ وَٱللَّهُ غَفُورٌ ﴾ لمن تاب واستغفر ﴿ رَّحِيمٌ ﴿١٢٩﴾ ﴾ لمن استحى وندم.

ثم خاطب سبحانه المؤمنين منادياً لهم بما يتعلق برسوخهم في طريق التوحيد من الخصائل الجميلة والشِّيَم المرضية فقال:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ﴾ بالله ورسوله مقتضى إيمانكم ﴿ لَا تَأْكُلُوا۟ ٱلرِّبَوٰٓا۟ ﴾ سيما إذا كان ﴿ أَضْعَٰفًا مُّضَٰعَفَةً ﴾ بحيث يستغرق مال المديون[1] مجاناً

(١) في المخطوط (مال الديون).

وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٣٠﴾ وَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِيٓ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ ﴿١٣١﴾ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٣٢﴾ ۞ وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٣﴾ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي ٱلسَّرَّآءِ

﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ المنتقم الغيور ولا تجاوزوا عن حدوده ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٣٠﴾﴾ تفوزون بامتثال مأموراته ومرضياته.

﴿وَٱتَّقُواْ﴾ أيها المؤمنون ﴿ٱلنَّارَ ٱلَّتِيٓ أُعِدَّتْ﴾ هُيئت ﴿لِلْكَٰفِرِينَ ﴿١٣١﴾﴾ أصالةً وللمقتفين إثرهم تبعاً ويعملون معاملتهم استنكاراً واستكباراً.

﴿وَ﴾ إن أردتم الفلاح ﴿أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ﴾ المبين لكم طريق إطاعة الله ﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٣٢﴾﴾ من عند الله إن أخلصتم في انقيادكم وطاعتكم.

﴿۞ وَ﴾ لا تتكئوا ولا تتكلوا إلى طاعاتكم وعباداتكم ولا تَزِنُوها عند الله بل ﴿سَارِعُوٓاْ﴾ بادروا وواظبوا ﴿إِلَىٰ﴾ طلب ﴿مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ سترٍ ومحوٍ لهوياتكم ﴿وَ﴾ وصولِ ﴿جَنَّةٍ﴾ منزلٍ ومقرٍ ﴿عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ﴾ أي الأسماء والصفات الإلهية القائمة بذات الله ﴿وَٱلْأَرْضُ﴾ أي طبيعة العدم القابل لانعكاس أشعة تلك الأسماء والصفات إنما ﴿أُعِدَّتْ﴾ وهيئت ﴿لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٣﴾﴾ من أهل التوحيد، وهم الذين يرفعون غشاوة الغيرية وغطاء التعامي عن نور الوجود مطلقاً لذلك هم:

﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ﴾ من طيبات ما كسبوا من رزق صوريٍ ومعنويٍ للمستحقين من أهل الله سواءً كانوا ﴿فِي ٱلسَّرَّآءِ﴾ أي حين الفراغة عن الشواغل العائقة

وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلْكَـٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣٤﴾ وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا۟ فَـٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُوا۟ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ ....

عن التوجه الحقيقي ﴿وَٱلضَّرَّآءِ﴾ عند عروض العوارض اللاحقة عن لوازم البشر ﴿وَٱلْكَـٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ﴾ أي الماسكين الكافين غيظهم عند ثوران القوة الغضبية وهيجان الحمية البشرية الناشئة عن مقتضيات القوى الحيوانية ﴿وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِۗ﴾ الذين يعفون ويتركون عقوبة من يسوءهم ويظلمهم لتحققهم في مقر التوحيد المسقط للإضافات والاختلافات مطلقاً ﴿وَٱللَّهُ﴾ المطلع لسرائر عباده ﴿يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣٤﴾﴾ منهم بجميع أنواع الإحسان، خصوصاً بكظم الغيظ والعفو عند القدرة.

وعن النبي ﷺ: «إِنَّ هَؤُلاءِ فِي أُمَّتِي قَلِيلٌ إِلا مَنْ عَصَمَهُ اللهُ، وَقَدْ كَانُوا كَثِيراً فِي الأُمَمِ الَّتِي مَضَتْ»(١).

﴿وَ﴾ من جملة المتقين والمعدودين من زمرتهم: ﴿ٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا۟ فَـٰحِشَةً﴾ فعلةً قبيحةً صغيرةً كانت أو كبيرةً صدرت منهم هفوةً خطأً ﴿أَوْ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ﴾ بأن صدرت عنهم عن قصدٍ وتعمدٍ ثم ﴿ذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ﴾ خائفاً من بطشه وانتقامه ﴿فَٱسْتَغْفَرُوا۟﴾ منه راجين العفوَ والسترَ ﴿لِذُنُوبِهِمْ﴾ التي صدرت عنهم عمداً أو خطأً ﴿وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ﴾ مطلقاً من العباد

---

(١) أخرجه الثعالبي في تفسيره وأسنده الى مقاتل انظر تفسير الثعالبي [٣/ ١٦٧] قال السيوطي أخرجه ابن المنذر وابن أبي حاتم عن مقاتل الدر المنثور [٢/ ٣١٦].

إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّواْ عَلَىٰ مَا فَعَلُواْ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٣٥﴾ أُوْلَـٰٓئِكَ جَزَآؤُهُم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّـٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَـٰمِلِينَ ﴿١٣٦﴾ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٣٧﴾ ....

﴿إِلَّا ٱللَّهُ﴾ غير الله الذي يغفر ما دون الشرك لمن يشاء من عباده إرادةً واختياراً ﴿وَ﴾ بعد استغفارهم ﴿لَمْ يُصِرُّواْ﴾ ولم يرجعوا ﴿عَلَىٰ مَا فَعَلُواْ﴾ بل تركوه بالمرة ولم يرجعوا عليها أصلاً ﴿وَ﴾ الحال أنهم ﴿هُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٣٥﴾﴾ قبحَه ووخامةَ عاقبته.

﴿أُوْلَـٰٓئِكَ﴾ المتذكرون المستغفرون ﴿جَزَآؤُهُم مَّغْفِرَةٌ﴾ سترٌ لأنانيتهم غطاءٌ ﴿مِّن رَّبِّهِمْ﴾ لإخلاصهم في الإنابة والرجوع ﴿وَجَنَّـٰتٌ﴾ كشوفٌ وشهودٌ ﴿تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ﴾ أي أنهار المعارف والحقائق ﴿خَـٰلِدِينَ فِيهَا ۚ﴾ أبداً لا يظمؤون منها أبداً بل يطلبون دائماً مزيداً ﴿وَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَـٰمِلِينَ ﴿١٣٦﴾﴾ تلك الغفران والجنان.

بادروا أيها المؤمنون إلى الطاعات وداوموا على الأعمال الصالحات ولا تغفلوا عن الله في عموم الحالات واعملوا ﴿قَدْ خَلَتْ﴾ مضت ﴿مِن قَبْلِكُمْ﴾ في القرون الماضية ﴿سُنَنٌ﴾ وقائعُ هائلةٌ بين الأمم الهالكة المنهمكة في بحر الضلال والخسران وإن أردتم أن تعتبروا منها ﴿فَسِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي عالم الطبيعة أيها المفردون السائحون في ملكوت السموات والأرض ﴿فَٱنظُرُواْ﴾ في آثارهم وأطلالهم ﴿كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٣٧﴾﴾ بتوحيد الله وبرسله

هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوۡعِظَةٌ لِّلۡمُتَّقِينَ ﴿١٣٨﴾ وَلَا تَهِنُواْ وَلَا تَحۡزَنُواْ وَأَنتُمُ ٱلۡأَعۡلَوۡنَ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴿١٣٩﴾ إِن يَمۡسَسۡكُمۡ قَرۡحٌ فَقَدۡ مَسَّ ٱلۡقَوۡمَ قَرۡحٌ مِّثۡلُهُۥۚ ....

المبينين له، وإذا نظرتم وتأملتم، فاعتبروا يا أولي الأبصار.

﴿هَٰذَا﴾ أي في تذكر سنتهم وسيرهم ﴿بَيَانٌ﴾ ودليلٌ واضح ﴿لِّلنَّاسِ﴾ المستكشفين عن غوامض مسالك التوحيد الذاتي من أهل الإرادة ﴿وَهُدًى﴾ أي لأهل الكشف والشهود من أرباب المحبة والولاء ﴿وَمَوۡعِظَةٌ﴾ وتذكيراً ﴿لِّلۡمُتَّقِينَ ﴿١٣٨﴾﴾ من عموم المؤمنين.

﴿وَلَا تَهِنُواْ﴾ أي ولا تضعفوا أيها المؤمنون من متاعب مسالك الفنا ﴿وَلَا تَحۡزَنُواْ﴾ من المكروهات التي عرضت عليكم من مقتضيات الأوصاف البشرية في النشأة الأولى ﴿وَ﴾ اعلموا أنكم ﴿أَنتُمُ﴾ أيها المحمديون أنتم[1] ﴿ٱلۡأَعۡلَوۡنَ﴾ في دار البقاء أي المقصورون المنحصرون على أعلى المراتب إذ لا دين ولا نبي أعلى من دينكم ونبيكم لظهوره على التوحيد الذاتي، لذلك ختم به ﷺ أمر النسخ والتبديل وظهر سر قوله سبحانه: ﴿مَا يُبَدَّلُ ٱلۡقَوۡلُ لَدَيَّ﴾ [٥٠-ق٢٩]، ﴿إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴿١٣٩﴾﴾ محققين بتلك المرتبة، آتنا من لدنك رحمة إنك أنت الوهاب.

﴿إِن يَمۡسَسۡكُمۡ﴾ ويصبكم أيها المجاهدون في سبيل الله لإعلاء كلمته ﴿قَرۡحٌ﴾ ضيقٌ ومشقةٌ من أعداء الله يوم أحد لا تبالوا به ولا تضعفوا بسببه ولكم أن تذكروا يوم بدر ﴿فَقَدۡ مَسَّ ٱلۡقَوۡمَ﴾ العدوَ ﴿قَرۡحٌ مِّثۡلُهُۥ﴾ بل أشد من

(١) في المخطوط (هم).

﴿وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٤٠﴾ وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَيَمْحَقَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٤١﴾﴾ ....

ذلك، ومع ذلك لم يضعفوا ولم يجبنوا مع كونهم ساعين على الباطل، وأنتم أحقاء بأن لا تجبنوا ولا تضعفوا لكونكم مجاهدين في طريق الحق ساعين لترويجه ﴿وَ﴾ اعلموا أن ﴿تِلْكَ ٱلْأَيَّامُ﴾ أي أيام النصر والظفر والقرح[1] والغنيمة أيامٌ وأزمانٌ ﴿نُدَاوِلُهَا بَيْنَ﴾ جميع ﴿ٱلنَّاسِ﴾ محقهم ومبطلهم مؤمنهم وكافرهم، ليعلموا أنهم جميعاً تحت حيطة أوصافنا الجمالية والجلالية واللطفية والقهرية ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ﴾ أي ينبه ويرشد خصوصاً ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ بتوحيد الله بأمرهم على الجهاد طريق الفناء فيه ليفوزوا بشرف بقائه ﴿وَ﴾ لذلك ﴿يَتَّخِذَ مِنكُمْ﴾ أيها المؤمنون ﴿شُهَدَآءَ﴾ واصلين أحياء دائمين ﴿وَٱللَّهُ﴾ المتوحد بذاته ﴿لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٤٠﴾﴾ المتجاوزين عن طريق توحيده المائلين عن صراطه المستقيم.

﴿وَلِيُمَحِّصَ﴾ يطهر ويصفي ﴿ٱللَّهُ﴾ بلطفه قلوب ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ تيقنوا وتحققوا بصفاء التوحيد ﴿وَيَمْحَقَ﴾ ويهلك في ظلمة البعد والإمكان ﴿ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٤١﴾﴾ الساترين بهوياتهم الباطلة المظلمة الكثيفة نورَ صفاء الوجود.

أتحسبون وتطمعون أيها المريدون القاصدون سلوك طريق التوحيد أنكم مستوون عند الله في السلوك.

---

(١) في المخطوط (والقبح).

أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٤٢﴾ وَلَقَدْ كُنتُمْ تَمَنَّوْنَ ٱلْمَوْتَ مِن قَبْلِ أَن تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿١٤٣﴾ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ....

﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ﴾ الوحدة الذاتية ﴿وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ﴾ أي لم يفرق ولم يميز الله بعلمه الحضوري ﴿ٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ مِنكُمْ﴾ في سبيله ظاهراً وباطناً وبذلوا جهودهم فيها إلى أن بذلوا مهجهم، فتفانوا في الله حتى صاروا شهداء حضراء أمناء عند الله لا خوفٌ عليهم ولا هم يحزنون عن المتقاعدين المتكاسلين ﴿وَ﴾ أيضاً ﴿يَعْلَمَ﴾ وليميز منكم ﴿ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٤٢﴾﴾ المتمكنين في مرمى القضاء الرضى بما جرى عليهم من سهام التقدير بلا إقدام ولا إحجام.

﴿وَلَقَدْ كُنتُمْ﴾ أيها المحمديون المستكشفون عن سرائر التوحيد الذي ﴿تَمَنَّوْنَ ٱلْمَوْتَ﴾ الموصلَ إلى مرتبة اليقين العيني والحقي عند وصولكم إلى مرتبة اليقين العلمي، مسرعين عليها شوقاً واستلذاذاً ﴿مِن قَبْلِ أَن تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ﴾ متى ظهرت أمارات التوحيد ولمع سراب الفناء وبرق صوارم القضاء المفضية إلى هلاك الغير والسوى مطلقاً ﴿وَأَنتُمْ﴾ أيها الطالبون للوصول إلى جنة الذات ﴿تَنظُرُونَ ﴿١٤٣﴾﴾ تبطئون وتغترون.

﴿وَ﴾ اعلموا أيها المسترشدون ﴿مَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ﴾ من الرسل هادٍ لكم إلى التوحيد الذاتي ينبهكم على طريقه ﴿قَدْ خَلَتْ﴾ مضت ﴿مِن قَبْلِهِ﴾ أي قبل ظهوره ﴿ٱلرُّسُلُ﴾ الهادين إليه مثله، المنبهين لطريقه في ضمن توحيد الصفات والأفعال، وما لهم وله إلا التبليغ والتنبيه، فعليكم أن تتنبهوا

أَفَإِين مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْۚ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔاۗ وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ كِتَٰبًا مُّؤَجَّلًاۗ وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا ....

وتتحققوا بمقام التحقيق واليقين معرضين عن التقليد والتخمين، أتؤمنون به وتسترشدون منه أيها المريدون حال حياته ﴿أَفَإِين مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْۚ﴾ غير واصلين إلى فضاء التوحيد ﴿وَمَن يَنقَلِبْ﴾ منكم ﴿عَلَىٰ عَقِبَيْهِ﴾ بلا وصولٍ إلى الغاية ﴿فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔاۗ﴾ بنقصانٍ أو زيادةٍ إذ هو مستوٍ على عرشه[(١)] كما كان، بلا تبديل ولا تغيير، بل ما يضر إلا نفسه بعدم إيصالها إلى غايتها الممكن لها وبذلك حط عن رتبة الشاكرين ﴿وَ﴾ اعلموا أيها المؤمنون ﴿سَيَجْزِي ٱللَّهُ﴾ بلطفه بالجزاء الجميل والإحسان الجزيل ﴿ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾﴾ منكم الصادقين جميع القوى والجوارح إلى ما خلق لأجله، الصابرين على ما أصابهم في سبيله، الباذلين مهجهم في إعلاء كلمة توحيده، الراجين منه الوصول إلى زلال تجريده وتفريده.

﴿وَ﴾ اعلموا أيها المؤمنون بقضاء الله وقدره ﴿مَا كَانَ لِنَفْسٍ﴾ من النفوس الخيرة والشريرة ﴿أَن تَمُوتَ﴾ بقتلٍ أو حتفَ أنفه ﴿إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ بتقديره ومشيئته الثابتِ المثبتِ في قضائه السابق له ﴿كِتَٰبًا﴾ جامعاً بجميع ما يجري عليه في عالم الشهادة حياته وموته ورزقه ﴿مُّؤَجَّلًاۗ﴾ بوقتٍ معينٍ لا يتأخر عنه ولا يتقدم ﴿وَمَن يُرِدْ﴾ منكم ﴿ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا﴾ التي هي أدنى مرتبة الإنسان، وأنزل منزلته من المفاخرة بالمال والجاه والحسب والنسب

(١) في المخطوط (عروشه).

نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلْـَٔاخِرَةِ نُؤْتِهِۦ مِنْهَا ۚ وَسَنَجْزِى ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٥﴾ وَكَأَيِّن مِّن نَّبِىٍّ قَٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا۟ لِمَآ أَصَابَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا۟ وَمَا ٱسْتَكَانُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٤٦﴾ ....

﴿نُؤْتِهِۦ﴾ نعطه ﴿مِنْهَا﴾ مقدار ما يقدر لنا في سابق علمنا ونحاسبه عليها في يوم الجزاء في النشأة الأخرى ﴿وَمَن يُرِدْ﴾ منكم ﴿ثَوَابَ ٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ من الحقائق والمعارف والمواهب العلية التي هي المقصد الأقصى والمطلب الأعلى من وجوده ﴿نُؤْتِهِۦ مِنْهَا﴾ مقدار ما يقتضي استعداده الفطري ﴿وَ﴾ اعملوا أيها المؤمنون ﴿سَنَجْزِى﴾ بفضلنا وجودنا بلا واسطةٍ ووسائلَ ﴿ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٥﴾﴾ المنسلخين عن الإرادة بل عن جميع الأمور المرادة، الراضين بما قُسّم لهم وقُدّر عليهم في سابق علمنا بروضة الرضا وجنة التسليم.

﴿وَكَأَيِّن مِّن نَّبِىٍّ﴾ يجاهد في سبيل الله لترويج توحيده ﴿قَٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ﴾ ربانيون مخلصون ﴿كَثِيرٌ﴾ منهم قُتلوا وأُصيبوا ﴿فَمَا وَهَنُوا۟﴾ وما جبنوا ﴿لِمَآ أَصَابَهُمْ﴾ من القرح ﴿فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ لإعلاء دينه ﴿وَمَا ضَعُفُوا۟﴾ من محاربة أعداء الله ﴿وَمَا ٱسْتَكَانُوا۟﴾ وتضرعوا إليهم استبقاءً واستخلافاً، بل كانوا كرارين جرارين بحيث لا يرى عليهم أمارات الجبن والخوف أصلاً، صابرين على ما أصابهم من القرح والجرح وقتل الأقارب والعشائر ﴿وَٱللَّهُ﴾ الهادي لعباده إلى توحيده ﴿يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٤٦﴾﴾ منهم في البلوى، الطائرين شوقاً إلى المولى، الراضين بما يحب لهم ويرضى.

﴿وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُواْ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِيٓ أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٤٧﴾ فَـَٔاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ ٱلْآخِرَةِ ۗ ....

﴿وَ﴾ من غاية تصبرهم وتمكنهم على الجهاد في سبيل الله ﴿مَا كَانَ قَوْلَهُمْ﴾ عند عروض المكروهات والمصيبات فيه ﴿إِلَّآ أَن قَالُواْ﴾ مستغفرين مسترجعين إلى الله خائفين من ضعف الإخلاص في امتثال أوامره: ﴿رَبَّنَا﴾ يا من ربانا في مضيق الإمكان بأنواع اللطف والإحسان ﴿ٱغْفِرْ لَنَا﴾ بفضلك ﴿ذُنُوبَنَا﴾ خواطرنا التي خطرت في نفوسنا من خوف أعدائك بعدما أمرتنا إلى مقاتلتهم ﴿وَ﴾ اغفر لنا أيضاً يا ربنا ﴿إِسْرَافَنَا فِيٓ أَمْرِنَا﴾ أي ميلَنا وتجاوزَنا إلى طرفي الإفراط والتفريط عن حدودك التي وضعتَ لنا في الغزو والجهاد ﴿وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا﴾ على جادتك التي وضعتَ له في علمك ﴿وَ﴾ بعد ثبوتنا بتثبيتك ﴿انْصُرْنَا﴾ بحولك وقوتك ﴿عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٤٧﴾﴾ الساترين نور الوجود بأباطيل هوياتهم وماهياتهم، المائلين عن طريق التوحيد بمتابعة عقولهم المموهة بشياطين الأوهام الباطلة.

وبعدما أخلصوا لله واستغفروا لذنوبهم والتجؤوا لحوله وقوته

﴿فَـَٔاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ﴾ مجازياً لهم تفضلاً وامتناناً ﴿ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا﴾ من النصر والغنيمة والفوز بالفتح والظفر على الأعداء والسيادة والرئاسة على الأولياء على أحيائهم ﴿وَحُسْنَ ثَوَابِ ٱلْآخِرَةِ ۗ﴾ من المشاهدة والرضا والمكاشفة واللقاء على شهدائهم الذين قُتلوا في سبيل الله متشوقين إلى الفناء فيه ليتحققوا[1] ببقائه ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ﴾ [٣-آل

(١) في المخطوط (يتحققوا).

وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٤٨﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تُطِيعُواْ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَرُدُّوكُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ فَتَنقَلِبُواْ خَٰسِرِينَ ﴿١٤٩﴾ بَلِ ٱللَّهُ مَوْلَىٰكُمْ ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلنَّٰصِرِينَ ﴿١٥٠﴾ ....

عمران١٦٩] عن الآية. ﴿وَٱللَّهُ﴾ الهادي لعباده إلى فضله في معاده ﴿يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٤٨﴾﴾ منهم ويرضى عنهم، خصوصاً الذين أحسنوا في سبيل الله ببذل المهج وإعطاء الروح.

ربنا اجعلنا من خدامهم وتراب أقدامهم.

ثم لما أراد سبحانه تثبيت المؤمنين على قواعد الإسلام ورسوخهم على مقتضى شعار الدين والإيمان، حذرهم عن إطاعة الكفار ومخالطتهم والاستعانة منهم والاستكانة إليهم فقال منادياً لهم:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تُطِيعُواْ﴾ وتنقادوا وتستنصروا من ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ بتوحيد الله عناداً وأعرضوا عن كتبه ورسله استكباراً ﴿يَرُدُّوكُمْ﴾ البتة بعد إهدائكم إلى الإيمان ﴿عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ﴾ التي أنتم فيها من الكفر والطغيان قبل انكشافكم بالإيمان وإن انقلبتم ﴿فَتَنقَلِبُواْ خَٰسِرِينَ ﴿١٤٩﴾﴾ خسراناً عظيماً، فعليكم أن تتركوا موالاتهم وموافاتهم.

﴿بَلِ﴾ يكفي ﴿ٱللَّهُ﴾ المدبر لأموركم ﴿مَوْلَىٰكُمْ﴾ يولي أموركم ويعينكم عليهم[1] متى اضطررتم ﴿وَ﴾ اعلموا أيها المضطرون في الوقائع ﴿هُوَ خَيْرُ ٱلنَّٰصِرِينَ ﴿١٥٠﴾﴾ فاستنصروا منه وتوكلوا عليه، وما النصر إلا من عند الله العزيز العليم.

(١) في المخطوط (ويعين عليكم).

سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلرُّعْبَ بِمَآ أَشْرَكُواْ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ وَبِئْسَ مَثْوَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٥١﴾ وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥٓ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِۦ حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَٰزَعْتُمْ فِي ٱلْأَمْرِ وَعَصَيْتُم ....

وحين استرجعتم إلينا واستغنيتم بنا مخلصين ﴿سَنُلْقِي﴾ بقهرنا وغضبنا ﴿فِي قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ بتوحيدنا ﴿ٱلرُّعْبَ﴾ والمخافة مع كونكم مستضعَفين وإنما نلقيهم الرعب ﴿بِمَآ أَشْرَكُواْ بِٱللَّهِ﴾ المنزهِ عن الأشباه والأنداد ﴿مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ﴾ أي أصناماً وآلهة ما لم ينزل الله بسببها عليهم ﴿سُلْطَٰنًا﴾ حجةً تلجئهم إلى عبادتها وإطاعتها، بل ما اتخذوها آلهةً إلا من تلقاء أنفسهم ظلماً وعدواناً، تعالى عما يقول الظالمون ﴿وَ﴾ ليس ﴿مَأْوَىٰهُمُ﴾ في النشأة الأخرى إلا ﴿ٱلنَّارُ﴾ الموعودُ لمن أظلم على الله واتبع هواه ﴿وَبِئْسَ﴾ المثوى والمأوى ﴿مَثْوَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٥١﴾﴾ الخارجين عن حدود الله وشعائر توحيده.

﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ﴾ أيها المؤمنون ﴿وَعْدَهُۥٓ﴾ الذي وعده لكم من النصر والظفر وقت ﴿إِذْ تَحُسُّونَهُم﴾ أي العدو، ويحفظ كلاً منكم المكان الذي عينه رسول الله ﷺ ﴿بِإِذْنِهِۦ﴾ أي بإذن الله ووحيه بلا ميلٍ إلى الغنيمة والنهب ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلْتُمْ﴾ مِلتم إلى الغنيمة وخالفتم حكم الله ورسوله ﴿وَتَنَٰزَعْتُمْ فِي ٱلْأَمْرِ﴾ أي أمر التبادر والتسابق إلى الغنيمة ﴿وَعَصَيْتُم﴾

مِنۢ بَعۡدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَۚ مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنۡيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلۡأٓخِرَةَۚ ثُمَّ صَرَفَكُمۡ عَنۡهُمۡ لِيَبۡتَلِيَكُمۡۖ وَلَقَدۡ عَفَا عَنكُمۡۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضۡلٍ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿١٥٢﴾ ۞إِذۡ تُصۡعِدُونَ ....

تركتم إطاعة رسول الله ﷺ ﴿مِنۢ بَعۡدِ مَآ أَرَىٰكُم﴾ أمارات ﴿مَّا تُحِبُّونَۚ﴾ وتطلبون وتوعدونه من النصر والظفر المشروط بالتقرر والتمكن، وبعد رؤيتكم أنفسكم قسمين ﴿مِنكُم مَّن يُرِيدُ﴾ حطام ﴿ٱلدُّنۡيَا﴾ فترك المركز وخالف الأمر ﴿وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلۡأٓخِرَةَۚ﴾ فثبت على المركز وحفظ الأمر ولم يضطرب عن مكانه ﴿ثُمَّ﴾ لما غيرتم ما في نفوسكم من عقد الله ورسوله ﴿صَرَفَكُمۡ﴾ أي بَعّدكم ﴿عَنۡهُمۡ﴾ وعن أموالهم خائبين فارين ﴿لِيَبۡتَلِيَكُمۡۖ﴾ ويختبركم ببلاء الهزيمة، هل تستقرون وتثبتون على الإيمان وتصبرون على المصائب الحادثة في حفظه أم لا ﴿وَ﴾ بعدما خالفتم أمر الله وأمر رسوله وملتم إلى الغنائم بعد ما ورد النهي عن الله ورسوله ﴿لَقَدۡ عَفَا﴾ الله ﴿عَنكُمۡۗ﴾ ذنوبكم بعد ندامتكم واستغفاركم تفضلاً عليكم وإن كان مقتضى جريمتكم استئصالكم بالمرة ﴿وَٱللَّهُ﴾ الهادي لعباده ﴿ذُو فَضۡلٍ﴾ عظيم ﴿عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿١٥٢﴾﴾ تجاوزَ عن سيئاتكم وإن عظمت بعدما تابوا واستغفروا.

واذكروا أيها المؤمنون قبح صنيعكم واستحيوا من الله وتندموا عما صدر منكم وقت

﴿۞إِذۡ تُصۡعِدُونَ﴾ تذهبون إلى الأباعد خوفاً من العدو فارين

وَلَا تَلْوُۥنَ عَلَىٰٓ أَحَدٍ وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِىٓ أُخْرَىٰكُمْ فَأَثَـٰبَكُمْ غَمًّۢا بِغَمٍّ لِّكَيْلَا تَحْزَنُوا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَآ أَصَـٰبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٥٣﴾ ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنۢ بَعْدِ ٱلْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَىٰ طَآئِفَةً مِّنكُمْ ۖ ....

من الزحف متخالفين لرسول الله ﷺ ﴿وَ﴾ عند ذهابكم وفراركم ﴿لَا تَلْوُۥنَ﴾ لا تلتفتون على أعقابكم ولا تنتظرون ﴿عَلَىٰٓ أَحَدٍ﴾ من إخوانكم ﴿وَٱلرَّسُولُ﴾ ﷺ في تلك الحالة ﴿يَدْعُوكُمْ﴾ ويناديكم صارخاً: إليّ عباد الله وكان الرسول ﷺ ﴿فِىٓ أُخْرَىٰكُمْ﴾ ساقتكم وعصيانكم، ولم يلتفت أحدٌ منكم إلى عقبه لإجابة دعائه ﷺ، ومع ذلك لم تنجوا سالمين ﴿فَأَثَـٰبَكُمْ﴾ أورثكم الله المصلحُ لأحوالكم تأديباً لكم متصلاً ﴿غَمًّۢا بِغَمٍّ﴾ آخرَ حيث أحاطت بكم الغموم من القتل والجرح والإرجاف، بقتل الرسول ﷺ، وإنما فعل بكم ما فعل ﴿لِّكَيْلَا تَحْزَنُوا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ﴾ من النهب والغنيمة ﴿وَلَا مَآ أَصَـٰبَكُمْ ۗ﴾ من الفرار والهزيمة ولتتمكنوا أو تتمرنوا في مقام الرضا والتسليم ولا تخالفوا أمر الله ورسوله ﴿وَٱللَّهُ﴾ المدبرُ لأموركم ﴿خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٥٣﴾﴾ بمقتضى تسويلات نفوسكم الأمَّارة بالسوء فيجازيكم بها لكي تتنبهوا وتسلموا أموركم إلى الله وتتحققوا بالتوحيد الذاتي.

﴿ثُمَّ﴾ لما تبتم ورجعتم إلى الله وندمتم عما فعلتم ﴿أَنزَلَ عَلَيْكُم﴾ امتناناً لكم وتفضلاً ﴿مِّنۢ بَعْدِ ٱلْغَمِّ﴾ المفرط ﴿أَمَنَةً﴾ طمأنينةً ووقاراً حيث تورث ﴿نُّعَاسًا﴾ رقدةً ونوماً ﴿يَغْشَىٰ طَآئِفَةً مِّنكُمْ ۖ﴾ وهم المتحققون بمقام

وَطَآئِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ ظَنَّ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ مِن شَيْءٍ قُلْ إِنَّ ٱلْأَمْرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِ يُخْفُونَ فِىٓ أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبْدُونَ لَكَ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَٰهُنَا قُل لَّوْ كُنتُمْ فِى بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ ....

العبودية، الراضون بما جرى عليهم من القضاء، لا يشوشهم السراء والضراء ﴿وَطَآئِفَةٌ﴾ من منافقيكم ﴿قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ﴾ أي أوقعتهم نفوسهم وأمانيهم في الهموم والغموم المبعدة عن مقام التفويض والتسليم إلى حيث ﴿يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ﴾ ظناً باطلاً ﴿غَيْرَ﴾ ظن ﴿ٱلْحَقِّ﴾ بل ﴿ظَنَّ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ﴾ حيث ﴿يَقُولُونَ﴾ لرسول الله استكشافاً ظاهراً أو استنكافاً خفيةً ﴿هَل لَّنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ﴾ أي أمر الله الذي وعدتنا والنصر والظفر ﴿مِن شَيْءٍ﴾ أم الأمر للعدو دائماً واليد له مستمراً ﴿قُلْ﴾ لهم يا أكمل الرسل إلزاماً وتبكيتاً: ﴿إِنَّ ٱلْأَمْرَ﴾ أي أمر جميع ما كان وما يكون ﴿كُلَّهُۥ لِلَّهِ﴾ أولاً وبالذات بلا رؤية الوسائط والوسائل في البين وهم من غاية عماهم ﴿يُخْفُونَ فِىٓ أَنفُسِهِم﴾ من البغض والنفاق ﴿مَّا لَا يُبْدُونَ لَكَ﴾ بل يبدون لإخوانهم، إذا خلا بعضهم بعضاً حتى ﴿يَقُولُونَ﴾ متهكمين مستهزئين: ﴿لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَٰهُنَا﴾ مهانين مظلومين ﴿قُل﴾ لهم يا أكمل الرسل كلاماً ناشئاً عن محض الحكمة لا مردَّ لقضاء الله ولا معقب لحكمه بل يجري في ملكه ما ثبت في علمه واعلموا أنكم ﴿لَّوْ كُنتُمْ﴾ متمكنين ﴿فِى بُيُوتِكُمْ﴾ غير خارجين منها للقتال ﴿لَبَرَزَ﴾ لظهرَ وخرج البتة ﴿ٱلَّذِينَ كُتِبَ﴾ قُدر وفُرض في الأزل ﴿عَلَيْهِمُ ٱلْقَتْلُ﴾ في هذه المعركة مسرعين ﴿إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ﴾ ومقاتلهم في

وَلِيَبْتَلِيَ ٱللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١٥٤﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْا۟ مِنكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ إِنَّمَا ٱسْتَزَلَّهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا۟ ۖ وَلَقَدْ عَفَا ٱللَّهُ عَنْهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٥٥﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ....

الوقت الذي قدر بلا تأخير ولا تقديم ﴿وَ﴾ إنما فعل بكم ما فعل ﴿لِيَبْتَلِيَ﴾ ويختبرَ ويمتحن ﴿ ٱللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ ﴾ أهو من الرضا والإخلاص أم من الشقاق والنفاق؟ ﴿وَلِيُمَحِّصَ﴾ يطهر ويصفي ﴿مَا فِي قُلُوبِكُمْ ۗ﴾ من الإيمان والتوحيد عن الكفر والنفاق ﴿وَٱللَّهُ﴾ المطلع لسرائركم وضمائركم ﴿عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١٥٤﴾﴾ أي الأمور المكنونة فيها.

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْا۟ ﴾ استدبروا وتخلفوا ﴿مِنكُمْ﴾ أيها المؤمنون ترهيباً وجبناً بلا كفرٍ ونفاقٍ ﴿يَوْمَ﴾ وقت ﴿ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ﴾ الصفان للقتال ﴿إِنَّمَا ٱسْتَزَلَّهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ وأزال قدمهم عن التثبت والتفرد ﴿بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا۟ ۖ﴾ بشؤم بعض ما كسبوا بتسويلات نفوسهم التي هي من جنود الشيطان ﴿وَ﴾ بعدما ندموا واستغفروا وأخلصوا الرجوع إلى الله ﴿لَقَدْ عَفَا ٱللَّهُ عَنْهُمْ ۗ﴾ بلطفه ﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾ العفوَ عن ذنوب عباده ﴿غَفُورٌ﴾ ستارٌ لهم ما صدر عنهم من الآثام ﴿حَلِيمٌ ﴿١٥٥﴾﴾ لا يعجل بالبطش والانتقام ليتوبوا ويرجعوا.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ عليكم أن تحافظوا على مقتضى الإيمان والتوحيد ولا تنسبوا الحوادث إلى غير الله بل تفوضوا جميعاً إلى الله أصالةً حتى ﴿لَا تَكُونُوا۟﴾ أيها المؤمنون ﴿كَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ بالله بانتساب الحوادث إلى

وَقَالُواْ لِإِخْوَٰنِهِمْ إِذَا ضَرَبُواْ فِي ٱلْأَرْضِ أَوْ كَانُواْ غُزًّى لَّوْ كَانُواْ عِندَنَا مَا مَاتُواْ وَمَا قُتِلُواْ لِيَجْعَلَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْۗ وَٱللَّهُ يُحْيِۦ وَيُمِيتُۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١٥٦﴾ وَلَئِن قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ

الأسباب أولاً وبالذات ﴿وَقَالُواْ لِإِخْوَٰنِهِمْ﴾ الذين ماتوا في حقهم ﴿إِذَا ضَرَبُواْ﴾ سافروا ﴿فِي ٱلْأَرْضِ﴾ للتجارة والسياحة ﴿أَوْ﴾ قُتلوا أو ﴿كَانُواْ غُزًّى﴾ غازين في سبيل الله، طالبينَ رتبة الشهادة ﴿لَّوْ كَانُواْ﴾ هؤلاء الميتين والمقتولين متوكلين متمكنين ﴿عِندَنَا مَا مَاتُواْ﴾ في الغربة ﴿وَمَا قُتِلُواْ﴾ في يد العدو معتقدين أن ما أصابهم إنما أصابهم من الغزو والغربة لا من الله، وإنما أخطرهم سبحانه بهذا الرأي وأقولهم بهذا القول ﴿لِيَجْعَلَ ٱللَّهُ﴾ المنتقمُ منهم في النشأة الأولى والأخرى ﴿ذَٰلِكَ﴾ الحزنَ والأسفَ ﴿حَسْرَةً﴾ مستمكنةً ﴿فِي قُلُوبِهِمْۗ﴾ وتُمرضهم وتُضعفهم بها في الدنيا وتُعذبهم في الآخرة ﴿وَٱللَّهُ﴾ القادرُ المقتدرُ المستقلُ في الإحياء والإماتة ﴿يُحْيِۦ﴾ بلطفه ﴿وَيُمِيتُۗ﴾ بقهره بلا مظاهرةٍ ولا مشاركةٍ ﴿وَٱللَّهُ﴾ المطلع لسرائر عباده ﴿بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ أيها المؤمنون ﴿بَصِيرٌ ﴿١٥٦﴾﴾ ناقدٌ خبيرٌ يميز ويصفي إخلاصكم من الرعونة والرياء وأعمالكم من الميل إلى البدع والأهواء.

﴿وَ﴾ اللهِ أيها المؤمنون المتوجهون إلى الله، الطالبون الوصول إلى زلال توحيده ﴿لَئِن قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ طالبين لرضاه ﴿أَوْ مُتُّمْ﴾ قبل موتكم سالكين سيّاحين في طريق الفناء فيه ﴿لَمَغْفِرَةٌ﴾ سترةٌ ساترةٌ لأنانيتكم ناشئةٌ ﴿مِّنَ﴾ ضرب ﴿ٱللَّهِ﴾ لكم إلى توحيده الذاتي ﴿وَرَحْمَةٌ﴾ فائضةٌ منه، مفنيةٌ لهوياتكم بالمرة في هويته ﴿خَيْرٌ﴾ لكم

مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿١٥٧﴾ وَلَئِن مُّتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لَإِلَى ٱللَّهِ تُحْشَرُونَ ﴿١٥٨﴾ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ ﴿١٥٩﴾

﴿مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿١٥٧﴾﴾ وتدخرون أنتم لأنفسكم بهوياتكم الباطلة وإن كنتم خيرين فيها.

﴿وَ﴾ الله أيها الموحدون المخلصون ﴿لَئِن مُّتُّمْ﴾ في طريق الفناء ﴿أَوْ قُتِلْتُمْ﴾ فيه في يد الأعداء ﴿لَإِلَى ٱللَّهِ﴾ لا إلى غيره إذ لا غير ﴿تُحْشَرُونَ ﴿١٥٨﴾﴾ ترجعون رجوع الظل إلى ذي ظل.

﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ﴾ أي فبرحمةٍ نازلةٍ لك يا أكمل الرسل ﴿مِّنَ ٱللَّهِ﴾ المرسِل لك رحمةً للعالمين ﴿لِنتَ لَهُمْ﴾ حين مخالفتهم عن إطاعتك واتباعك ﴿وَلَوْ كُنتَ فَظًّا﴾ سيء الخلق ﴿غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ﴾ قاسيه ﴿لَٱنفَضُّوا۟﴾ تفتتوا وتفرقوا البتة ﴿مِنْ حَوْلِكَ﴾ وإن آذوك جهلاً وغفلة ﴿فَٱعْفُ عَنْهُمْ﴾ تلطفاً وترحماً على مقتضى نبوتك ﴿وَ﴾ بعد عفوك ﴿ٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ﴾ من الله ليغفر زلتهم لأنك مصلحهم ومولي أمرهم ﴿وَ﴾ بعد عفوك عما لك واستغفارك عما لله ﴿شَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ﴾ أي الرخص المتعلقة لترويج الدين والإيمان بعدما تركت المشورة معهم بسبب جريمتهم ﴿فَإِذَا عَزَمْتَ﴾ فالعزيمة لك خاصة بلا مشورة الغير ﴿فَتَوَكَّلْ﴾ في عزائمك ﴿عَلَى ٱللَّهِ﴾ واتخذه وكيلاً ولا تلتفت إلى الغير مطلقاً ﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾ الهادي لعباده ﴿يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ ﴿١٥٩﴾﴾ المتخذين الله وكيلاً المفوضين أمورهم كلها إليه.

إِن يَنصُرْكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ ۖ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا ٱلَّذِى يَنصُرُكُم مِّنۢ بَعْدِهِۦ ۗ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١٦٠﴾ وَمَا كَانَ لِنَبِىٍّ أَن يَغُلَّ ۚ وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٦١﴾

قل يا أكمل الرسل إمحاضاً للنصح:

﴿إِن يَنصُرْكُمُ ٱللَّهُ﴾ المولي لأموركم بعزته وسلطانه ﴿فَلَا غَالِبَ لَكُمْ﴾ أي لا أحد يغلبكم ويخاصمكم لكونكم في حمى الله وكنف حوله وقوته ﴿وَإِن يَخْذُلْكُمْ﴾ بقهره وسخطه ﴿فَمَن ذَا ٱلَّذِى يَنصُرُكُم مِّنۢ بَعْدِهِۦ﴾ أي من بعد قهره وبطشه ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ﴾ المعزِّ المذلِّ القويِّ المتينِ ﴿فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١٦٠﴾﴾ في جميع أمورهم حتى خلصوا وأخلصوا.

ثم لما نسب المنافقون إلى رسول الله ﷺ ما برأه الله ذيل عصمته عنه من الخيانة والغلول، رد الله عليهم في ضمن الحكمة الكلية الشاملة لجميع الأنبياء إذ مرتبة النبوة مطلقاً مصونة عن أمثال هذه الخرافات فقال:

﴿وَمَا كَانَ﴾ أي ما صح وما جاز ﴿لِنَبِىٍّ﴾ من الأنبياء خصوصاً خاتم النبوة والرسالة ﷺ ﴿أَن يَغُلَّ﴾ يخون ويحيف بالنسبة إلى أحد ﴿وَمَن يَغْلُلْ﴾ أحداً من الناس ﴿يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ أي تأتي مغلولة مع ما غل فيه على رؤوس الأشهاد ﴿ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ﴾ مطيعةٍ أو عاصيةٍ جزاء ﴿مَّا كَسَبَتْ﴾ أي يعطي جزاء ما كسبت وافياً ﴿وَهُمْ﴾ في تلك الحالة ﴿لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٦١﴾﴾ لا ينقصون من أجورهم إذ لا ظلم فيها بل يزاد عليها تفضلاً وامتناناً.

أَفَمَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ كَمَنۢ بَآءَ بِسَخَطٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ ۚ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٦٢﴾ هُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿١٦٣﴾ لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ ....

﴿ أَفَمَنِ ٱتَّبَعَ ﴾ انقاد وأطاع ﴿ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ ﴾ أي رضاه ورضي الله عنه لتحققه بمقام الرضا ومأواه جنة التسليم ﴿كَمَنۢ بَآءَ﴾ رجع وقصد بكفرٍ وظلمٍ مستلزم ﴿بِسَخَطٍ﴾ عظيمٍ ﴿مِّنَ ٱللَّهِ وَ﴾ بسببه ﴿مَأْوَاهُ جَهَنَّمُ ۚ﴾ البعدِ والطردِ ﴿ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٦٢﴾﴾ والمنقلب مصير أهل الكفر والظلم وحاشا ليسوا كمثلهم.

بل ﴿ هُمْ﴾ أي المتابعون رضوان الله ﴿دَرَجَٰتٌ﴾ عاليةٌ عظيمةٌ ﴿عِندَ ٱللَّهِ ۗ﴾ حسب درجات أعمالهم الصالحة ﴿وَٱللَّهُ﴾ المطلع لحالات عباده ﴿بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿١٦٣﴾﴾ يجازيهم على مقتضى عملهم إن خيراً فخير وإن شراً فشر.

والله ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ﴾ منةً عظيمةً ﴿عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ المخلصين ﴿إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ﴾ لهدايتهم ﴿رَسُولًا﴾ مرشداً لهم ناشئاً ﴿مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾ يرشدهم بأنواع الإرشاد ﴿ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ﴾ ويسمعهم أولاً ﴿ ءَايَٰتِهِۦ﴾ الدالة على وحدة ذاته ﴿ وَيُزَكِّيهِمْ ﴾ ثانيةً عن وسوسة شياطين الأهواء المضلة عن طريق التوحيد ﴿ وَيُعَلِّمُهُمُ ﴾ ثالثاً ﴿ٱلْكِتَٰبَ﴾ المبين لهم طريقة تصفية الظاهر وما يتعلق بعالم الشهادة ﴿وَ﴾ رابعاً يعلمهم ﴿ٱلْحِكْمَةَ﴾ المصفية للباطن

وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴿١٦٤﴾ أَوَلَمَّآ أَصَـٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَـٰذَا ۖ قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٦٥﴾ وَمَآ أَصَـٰبَكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ ....

عن الميل إلى الغير والسوى الموصلة إلى سدرة المنتهى التي عندها جنة المأوى ﴿وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ﴾ أي قبل انكشافهم بالمراتب الأربعة ﴿لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴿١٦٤﴾﴾ وخذلانٍ عظيمٍ.

نبهنا بفضلك عن نومة الغافلين.

﴿أَوَلَمَّآ أَصَـٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ﴾ أي أتيأسون وتقنطون من فضل الله عليكم أيها المؤمنون حين أصابتكم مصيبةٌ يوم أُحد، ولا تذكرون نصره يوم بدرٍ إذ ﴿قَدْ أَصَبْتُم﴾ فيه ﴿مِّثْلَيْهَا﴾ إذ قتلتم سبعين وأسرتم سبعين ﴿قُلْتُمْ﴾ من غاية حزنكم وأسفكم: ﴿أَنَّىٰ هَـٰذَا﴾ أي من أين حدث لنا هذه الحادثة الهائلة ونحن قد وُعدنا النصرَ والظفرَ ﴿قُلْ﴾ لهم يا أكمل الرسل إلزاماً وتبكيتاً: ﴿هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ ۗ﴾ بعدم تثبتكم وتصبركم على المكان الذي عينكم رسول الله ﷺ، وعدم وفائكم على العهد الذي عاهدتم معه أو من الفدية التي أخذتم يوم بدر مع أن الأَولى قتلهم واستئصالهم ﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾ المطلعَ على جميع مخايلكم ﴿عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ﴾ من المصيبة والإصابة ﴿قَدِيرٌ ﴿١٦٥﴾﴾.

﴿وَ﴾ اعلموا أيها المؤمنون الموقنون بقدرة الله على عموم الإنعام والانتقام أن ﴿مَآ أَصَـٰبَكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ﴾ الصفان يوم أحد ﴿فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ المنتقمِ منكم لتغييركم ما في ضميركم من نية التقريب بالميل إلى زخرفة الدنيا واتباع الهوى

وَلِيَعْلَمَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٦٦﴾ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ نَافَقُوا۟ ۚ وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ قَـٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوِ ٱدْفَعُوا۟ ۖ قَالُوا۟ لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَّٱتَّبَعْنَـٰكُمْ ۗ هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَـٰنِ ۚ يَقُولُونَ بِأَفْوَٰهِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ ﴿١٦٧﴾

﴿وَ﴾ إنما يبتليكم الله بما ابتلاكم ﴿لِيَعْلَمَ﴾ وليميز ﴿ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٦٦﴾﴾ الذين ثبتوا على الإيمان، واستقروا على شعائر الإسلام من غيرهم.

﴿وَلِيَعْلَمَ﴾ ويَفْصل أيضاً ﴿ٱلَّذِينَ نَافَقُوا۟ ۚ﴾ أظهروا النفاق مع الله ورسوله ﴿وَ﴾ ذلك حين ﴿قِيلَ تَعَالَوْا۟ قَـٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ مع أعداء الله إلى أن تستأصلوهم ﴿أَوِ ٱدْفَعُوا۟﴾ ضررهم عن المسلمين ﴿قَالُوا۟﴾ في الجواب على مقتضى نفاقهم المكنوز في قلوبهم: ﴿لَوْ نَعْلَمُ﴾ مساواةً بينكم أو مضاعفتهم إياكم بمثلين فنسمي ﴿قِتَالًا﴾ فإذاً ﴿لَّٱتَّبَعْنَـٰكُمْ ۗ﴾ بل هم بأضعفكم عَدَداً وعُدَداً وما أنتم عليه إنما إلقاء النفس في التهلكة لا المقاتلة فكيف اتبعناكم ﴿هُمْ﴾ بإظهار هذا القول ﴿لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَـٰنِ ۚ﴾ لأن القول مناسبٌ مطابقٌ لكفرهم المكنون في قلوبهم دون إيمانهم مجرد القول الذي ﴿يَقُولُونَ بِأَفْوَٰهِهِم﴾ تلبيساً وتغريراً ﴿مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ ۗ﴾ من القبول والإذعان ﴿وَٱللَّهُ﴾ المطلع لضمائركم ﴿أَعْلَمُ﴾ منهم فهم ﴿بِمَا يَكْتُمُونَ ﴿١٦٧﴾﴾ في قلوبهم من الكفر والنفاق يجازيهم على مقتضى علمه.

ٱلَّذِينَ قَالُواْ لِإِخْوَٰنِهِمْ وَقَعَدُواْ لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُواْۗ قُلْ فَٱدْرَءُواْ عَنْ أَنفُسِكُمُ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٦٨﴾ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًاۢ

هم ﴿ٱلَّذِينَ قَالُواْ﴾ من غاية نفاقهم وشقاقهم ﴿لِإِخْوَٰنِهِمْ﴾ أي في حق إخوانهم الذين خرجوا مع المؤمنين وقُتلوا ﴿وَ﴾ الحال أنهم قد ﴿قَعَدُواْ﴾ في مساكنهم وتخلفوا عن رسول الله ﷺ: ﴿لَوْ أَطَاعُونَا﴾ هؤلاء المقتولون في القعود والتخلف ﴿مَا قُتِلُواْۗ﴾ كما لم نقتل واعتقادهم أن القعود سببُ النجاة والخروجَ بسبب القتل، ولم يعلم أن للموت أسبابٌ وللنجاة أسبابٌ لا يدركها إلا هو، وكم من قاعد قد مات وقتل وكم من خارج قد نجا وإنْ اقتحم والعلم عند الله ﴿قُلْ﴾ لهم يا أكمل الرسل تبكيتاً إنَّ قدرتهم على الدّفع ﴿فَٱدْرَءُواْ﴾ فادفعوا ﴿عَنْ أَنفُسِكُمُ ٱلْمَوْتَ﴾ المقدرَ لكم من عند الله ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٦٨﴾﴾ أيها الكاذبون.

وبعد ما بين سبحانه جرائم المؤمنين يوم أحد وذلتهم ومتابعتهم للمنافقين في التخلف عن رسول الله، والميل إلى الغنيمة، وترك المركز مع كونهم مأمورين على خلافها، أراد أن ينبه عليهم سرائر الغزو والشهادة فيه وبذل المهج في سبيله، فقال مخاطباً لرسوله على طريق الكف والنهي لينبه من يقتدي به[1] من المؤمنين ؛ لأن أمثال هذه الخطابات والتنبيهات إنما يليق لمن وصل إلى ذروة مسالك التوحيد، وتحقق بنهاية[2] مراتب التجريد والتفريد بقوله:

﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ باذلين أرواحهم في طريق الفناء ليفوزوا بشرف البقاء ﴿أَمْوَٰتًاۢ﴾ منقطعين عن الحياة والحركة كالأموات

(١) في المخطوط (له).

(٢) في المخطوط (ونهاية).

بَلۡ أَحۡيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمۡ يُرۡزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦ وَيَسۡتَبۡشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمۡ يَلۡحَقُواْ بِهِم مِّنۡ خَلۡفِهِمۡ أَلَّا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ﴿١٧٠﴾ ۞ يَسۡتَبۡشِرُونَ بِنِعۡمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضۡلٖ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿١٧١﴾ ٱلَّذِينَ ٱسۡتَجَابُواْ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ مِنۢ بَعۡدِ مَآ أَصَابَهُمُ ٱلۡقَرۡحُۚ ....

الأخر ﴿بَلۡ﴾ هم ﴿أَحۡيَآءٌ﴾ ذو أوصافٍ وأسماءٍ أزليةٍ أبديةٍ مقربين بها ﴿عِندَ رَبِّهِمۡ﴾ الجامعِ لجميع الأوصاف والأسماء ﴿يُرۡزَقُونَ ﴿١٦٩﴾﴾ بها من عنده.

﴿فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ﴾ من موائد المعرفة والإحسان بواسطتهما ﴿مِن فَضۡلِهِۦ﴾ دائماً خالدين فيها ﴿وَ﴾ مع تلك اللذة والفرح ﴿يَسۡتَبۡشِرُونَ﴾ يطلبون البشارة والشفاعة من الله ﴿بِٱلَّذِينَ لَمۡ يَلۡحَقُواْ بِهِم مِّنۡ خَلۡفِهِمۡ﴾ من إخوانهم الذين بقوا من خلفهم في دار الدنيا التي هي دار الخوف والعناء محل الخطر والفناء، قابلين لهم منادين منبهين أن ﴿أَلَّا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ﴾ لم يلحقوا بنا ﴿وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ﴿١٧٠﴾﴾ لم يخلصوا عن الدنيا ولوازمها.

بل ﴿۞ يَسۡتَبۡشِرُونَ﴾ دائماً لأنفسهم ولإخوانهم ﴿بِنِعۡمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضۡلٖ﴾ جزاء لما جاهدوا في سبيله، وفضلٍ مع عطاءٍ منه وامتناناً عليهم من لطفه ﴿وَ﴾ اعلموا أيها العاملون لرضاء الله المجاهدون في سبيله ﴿أَنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿١٧١﴾﴾ الذين بذلوا جهدهم في محبة الله ومحبة رسوله ﷺ خصوصاً.

﴿ٱلَّذِينَ ٱسۡتَجَابُواْ﴾ طلبوا الإجابة ﴿لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾ حين دعاهم الله ورسوله إلى المقاتلة ﴿مِنۢ بَعۡدِ مَآ أَصَابَهُمُ ٱلۡقَرۡحُۚ﴾ من العدو بلا مماطلةٍ وتسويفٍ بل رغبتهم أشد من الكرة الأولى.

لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ مِنْهُمْ وَٱتَّقَوْا۟ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٢﴾ ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ

وذلك أن أبا سفيان وأصحابه لما رجعوا من المدينة فبلغوا الروحاء ندموا وقصدوا الرجوع؛ ليستأصلوهم، فبلغهم الخبر إلى رسول الله ﷺ فندب أصحابه للخروج في طلبهم وقال: لا يخرج معنا اليوم إلا من كان معنا أمس.

فخرج ﷺ مع جماعة من المؤمنين حتى بلغوا حمراء الأسد، وهي على ثمانية أميال من المدنية، وكان بأصحابه الفرح والسرور متلهفين متحسرين للشهادة، متشوقين إلى مرتبة إخوانهم الذين استشهدوا في سبيل الله، فمر بهم معبد الخزاعي وكان مشركاً يومئذ، فقال يا محمد: لقد عزَّ علينا ما أصابك وأصحابك.

ثم خرج، فلقي أبا سفيان بالروحاء، فقال له أبو سفيان: ما وراءك يا معبد؟ قال: محمد قد خرج مع أصحابه يطلبونكم على مهور لم أرَ مثلهم في الجراءة أحداً، يتحرقون عليكم تحرقاً لولقيتم، قال أبو سفيان: ويلك! ما تقول؟ قال: والله ما أراك تحل حتى ترى نواحي الخيل، قال: فوالله لقد أجمعنا للكرة عليهم ؛لنستأصل بقيتهم، قال: فإني والله أنهاك عن ذلك، فألقى الله الرعب في قلوبهم، فرجعوا مستوحشين منهم، لذلك قال سبحانه في حق المؤمنين:

﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟﴾ ببذل المهج في سبيل الله بالخروج مع رسوله ﴿مِنْهُمْ وَٱتَّقَوْا۟﴾ عن مخالفة أمر الله ورسوله ﴿أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٢﴾﴾ لا أجر أعظم منه وهو الفوز بالبقاء الأبدي والحياة السرمدية[1] وهم من كمال إيمانهم بهم .

﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ﴾ المخبرون لهم ترحماً وتحذيراً: ﴿إِنَّ ٱلنَّاسَ﴾

(١) في المخطوط (والحياة السرمدي).

قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُوا حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾ فَٱنقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ وَٱتَّبَعُوا رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ ﴿١٧٤﴾ إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمْ

يعني أبا سفيان وأصحابه ﴿قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ﴾ ليكروا عليكم ويستأصلوكم ﴿فَٱخْشَوْهُمْ﴾ حتى لا يلحقكم شر العدو ثانياً ﴿فَزَادَهُمْ﴾ قول المخبرين ﴿إِيمَٰنًا﴾ إطاعةً وانقياداً وتسليماً وإحساناً ﴿وَقَالُوا﴾ في جوابهم من غاية رضاهم ونهاية تفويضهم: ﴿حَسْبُنَا ٱللَّهُ﴾ وكافينا يكفينا عنايته لنا في حياتنا ومماتنا ﴿وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾﴾ هو لمصالحنا، نفوض أمورنا كلها إليه نعتصم به من سخطه وغضبه.

ولما فوضوا أمورهم إلى الله واعتصموا له واستنصروا منه وتوكلوا عليه قذف في قلوب عدوهم الرعب فهربوا

﴿فَٱنقَلَبُوا﴾ رجعوا من حمراء الأسد ﴿بِنِعْمَةٍ﴾ عظيمةٍ ﴿مِّنَ ٱللَّهِ﴾ جزاء ما صبروا ﴿وَفَضْلٍ﴾ زيادةِ عطاءٍ لهم تفضلاً وامتناناً لتحققهم في مقام الرضاء بما أصابهم من القضاء ﴿لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ﴾ أصلاً بعد ما أصابوا يوم أحد بل صاروا غالبين دائماً على الأعداء ﴿وَ﴾ ذلك لأنهم ﴿ٱتَّبَعُوا رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ﴾ ومتابعة رسوله بلا ميلٍ منهم إلى هوية نفوسهم ﴿وَٱللَّهُ﴾ المجازي لعباده ﴿ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ ﴿١٧٤﴾﴾ ولطفٍ جسيمٍ على من هو من أهل الرضا والتسليم.

﴿إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ﴾ المخبرون المخوفون لكم هم ﴿ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ وأتباعه ما ﴿يُخَوِّفُ﴾ من الأعداء إلا ﴿أَوْلِيَآءَهُۥ﴾ وهم المنافقون ﴿فَلَا تَخَافُوهُمْ﴾ أيها

وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧٥﴾ وَلَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ ۚ إِنَّهُمْ لَن يَضُرُّوا۟ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حَظًّا فِى ٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلْكُفْرَ بِٱلْإِيمَٰنِ لَن يَضُرُّوا۟ ٱللَّهَ شَيْـًٔا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٧﴾ وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ ۚ ......

المؤمنون، إذ الله معكم يحفظكم عما يضركم ﴿وَخَافُونِ﴾ من إطاعة الشيطان ومتابعته حتى لا يلحقكم غضبي وسخطي ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧٥﴾﴾ موقنين بقدرتي على الإنعام والانتقام.

﴿وَلَا يَحْزُنكَ﴾ ضرر ﴿ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ﴾ يوقعون أنفسهم ﴿فِى ٱلْكُفْرِ ۚ﴾ سريعاً في المنافقين الذين يقولون بأفواههم ما ليس في قلوبهم ﴿إِنَّهُمْ﴾ إذ هم بسبب كفرهم ﴿لَن يَضُرُّوا۟ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ﴾ بل ضرر كفرهم إنما يعود إليهم لاحق بهم ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ﴾ المقدر لكفرهم ﴿أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حَظًّا﴾ نصيباً ﴿فِى﴾ النشأة ﴿ٱلْءَاخِرَةِ ۖ﴾ لذلك أقدرهم على الكفر ﴿وَ﴾ هيأ ﴿لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٦﴾﴾ هو عذاب الطرد والخذلان والحسرة والحرمان جزاءً لكفرهم ونفاقهم.

ثم برهن عليه سبحانه بقوله:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟﴾ استبدلوا ﴿ٱلْكُفْرَ بِٱلْإِيمَٰنِ﴾ من غاية نفاقهم ﴿لَن يَضُرُّوا۟ ٱللَّهَ شَيْـًٔا﴾ بسبب هذا الاستبدال والاختيار بل ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٧﴾﴾ مؤلمٌ في الدنيا بالقتل والسبي والإجلاء، وفي الآخرة بالحرمان عن مرتبة الإنسان.

﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ﴾ [المفسر بقراءة: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ﴾] يا أكمل الرسل ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ﴾ أي إمهالنا إياهم في النشأة الأولى ﴿خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ ۚ﴾

إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓاْ إِثْمًاۚ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٧٨﴾ مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى ٱلْغَيْبِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَجْتَبِي مِن رُّسُلِهِۦ مَن يَشَآءُۖ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦۚ ......

ولهم فيه نفع وعزة بل ﴿ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓاْ إِثْمًاۚ ﴾ موجباً للعذاب ﴿وَلَهُمْ﴾ في النشأة الأخرى ﴿عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٧٨﴾﴾ مذلٌ ومخزٍ[1] جزاء لاستكبارهم واستعدائهم في الدنيا.

ثم لما اختلط المنافقون مع المؤمنين وتشاركوا في إظهار الإيمان والقول به على طرفي اللسان بلا اعتقاد منهم وإخلاص، أراد سبحانه أن يبين ويميز المؤمن من المنافق، والمخلص من المرائي فقال:

﴿مَّا كَانَ ٱللَّهُ﴾ المطلع لضمائر عباه ﴿لِيَذَرَ﴾ وليترك ﴿ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ المخلصين ﴿عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ﴾ من الالتباس والمشاركة مع أهل الكفر والنفاق بحسب الظاهر بل يختبر ويمتحن إخلاصكم بأنواع البليات والمصيبات ﴿حَتَّىٰ يَمِيزَ﴾ ويفصلَ ﴿ ٱلْخَبِيثَ ﴾ المنافق المصر على النفاق ﴿مِنَ ٱلطَّيِّبِۗ﴾ المؤمن الموقن بتوحيد الله، الراضي بما جرى عليه من قضائه ﴿وَ﴾ بعد تميزه وفصله سبحانه ﴿مَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ﴾ أي جميعكم ﴿عَلَى ٱلْغَيْبِ﴾ الذي هو الاطلاع على خفيات ضمائر عباده ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ﴾ المحيط بجميع القابليات ﴿يَجْتَبِي﴾ ويختار ﴿مِن رُّسُلِهِۦ مَن يَشَآءُۖ﴾ بأن يوحي إليه ويلهمه التمييز بين استعدادات عباده للإيمان والكفر، وإذا كان أمركم عند الله ورسله ﴿فَـَٔامِنُواْ﴾ أيها المؤمنون ﴿بِٱللَّهِ﴾ المميز لكم أصالة ﴿وَرُسُلِهِۦۚ﴾

(١) في المخطوط (مذلٌ ومخزي).

وَإِن تُؤْمِنُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٩﴾ وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ هُوَ خَيْرًا لَّهُم ۖ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ ۖ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا۟ بِهِۦ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۗ وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١٨٠﴾ ....

الملهمين بالتمييز[1] بأمره تبعاً ﴿وَإِن تُؤْمِنُوا۟﴾ وتحافظوا على شعائر الإيمان بعد ما آمنتم ﴿وَتَتَّقُوا۟﴾ عن مخالفاته ﴿فَلَكُمْ﴾ عند الله ﴿أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٩﴾﴾ هو إيصالكم إلى التحقيق بمقام العبودية والتوحيد إذ لا أجر أعظم منه.

﴿وَ﴾ من جملة الأمور التي يجب الاتقاء والتحرز عنه: البخل ﴿لَا يَحْسَبَنَّ﴾ البخلاء ﴿ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾ اختيارهم تدخيراً أو توريثاً لأولادهم ﴿هُوَ﴾ أي البخل ﴿خَيْرًا لَّهُم﴾ ينفعهم عند الله ويثيبهم به أو يدفع عنهم العذاب بسببه ﴿بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ﴾ يستجلب العذاب عليهم إذ هم ﴿سَيُطَوَّقُونَ﴾ ويُسلسلون مع ﴿مَا بَخِلُوا۟ بِهِۦ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ ويُسحبون على وجوههم إلى نار البعد والحرمان جزاءً لبخلهم الذي كانوا عليها ﴿وَ﴾ اعلموا أيها المؤمنون ﴿لِلَّهِ﴾ لا لغيره إذ لا غير ﴿مِيرَٰثُ﴾ أي حيازة وإحاطة ما في ﴿ٱلسَّمَـٰوَٰتِ﴾ أي عالم الأرواح ﴿وَ﴾ ما في ﴿ٱلْأَرْضِ﴾ أي عالم الأجسام تملكاً وتصرفاً لا ينازعه في ملكه ولا يشارك في سلطانه، له الحكم وإليه الرجوع في جميع ما كان ويكون ﴿وَٱللَّهُ﴾ المتوحدُ المتفردُ في ملكوته وجبروته ﴿بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ من التصرفات الجارية ﴿خَبِيرٌ ﴿١٨٠﴾﴾ لا يغيب عن شيء من أفعالكم وأقوالكم.

---

(١) في المخطوط (الملهين بالتمييز).

لَّقَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُواْ وَقَتْلَهُمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿١٨١﴾ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿١٨٢﴾ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ عَهِدَ إِلَيْنَآ أَلَّا نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ ....

كما أخبر سبحانه عن علمه بقول اليهود وبقوله: ﴿لَّقَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ﴾ استهزاءً وسخريةً حين نزل: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ﴾ [٢-البقرة ٢٤٥، الحديد-١١] ﴿إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ﴾ استقرض منا ﴿وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ﴾ وبعد ما سمعنا منهم ﴿سَنَكْتُبُ مَا قَالُواْ﴾ أي قولهم هذا ﴿وَقَتْلَهُمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ﴾ فيما مضى في صحائف أعمالهم في نظم واحد ونجازي عليهم يوم الجزاء ﴿وَنَقُولُ﴾ لهم وقت جزائهم: ﴿ذُوقُواْ﴾ أيها المفرطون المسيئون للأدب مع الله ورسله ﴿عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿١٨١﴾﴾ المحرقِ غاية الإحراق بحيث يذوق إحراقه أجسامكم وجميع قواكم.

ولا تنسبونا في هذا التعذيب إلى الظلم والعدوان إذ ﴿ذَٰلِكَ﴾ العذاب ﴿بِمَا قَدَّمَتْ﴾ واقترفت ﴿أَيْدِيكُمْ﴾ من المعاصي العظيمة التي هي من جملتها قولكم هذا وقتلكم الأنبياء[1] فيما مضى ﴿وَ﴾ اعلموا ﴿أَنَّ ٱللَّهَ﴾ المنتقمَ من عباده ﴿لَيْسَ بِظَلَّامٍ﴾ بذي ظلم ﴿لِّلْعَبِيدِ ﴿١٨٢﴾﴾ أي للذين ظَلموا في دار الدنيا، بل يجازيهم وينتقم منهم على مقتضى ظلمهم بلا زيادة ونقصانٍ عدلاً منه.

والمعذبون بالعذاب الحريق هم ﴿ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ﴾ افتراءً على الله في تعليل عدم إيمانهم برسول الله ﷺ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَهِدَ إِلَيْنَآ﴾ في التوراة وأوصانا ﴿أَلَّا نُؤْمِنَ﴾ نقر ﴿لِرَسُولٍ﴾ أي لكل رسولٍ يدعي الرسالة من عنده ويظهر

(١) هذه العبارة موجودة في المخطوط (ب).

حَتَّىٰ يَأْتِيَنَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ ٱلنَّارُ ۗ قُلْ قَدْ جَآءَكُمْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِى بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَبِٱلَّذِى قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٨٣﴾ فَإِن كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ جَآءُو بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُنِيرِ ﴿١٨٤﴾ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ۗ ....

المعجزات وفق دعواه ﴿حَتَّىٰ يَأْتِيَنَا﴾ في أظهرنا وبين أيدينا ﴿بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ﴾ تحيله ﴿ٱلنَّارُ﴾ النازلة من السماء، وذلك أنهم ادعوا أن أنبياء بني إسرائيل يتقربون إلى الله بقربانٍ فيقوم النبي يدعو والناس حوله، فتنزل نارٌ من جانب السماء فتحيل القربان إلى طبعها فجأة، وإحالتُه ناراً علامة قبول الله قربانهم ﴿قُلْ﴾ يا أكمل الرسل تبكيتاً وإلزاماً: ﴿قَدْ جَآءَكُمْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِى بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ أي بالمعجزات الواضحة الدالة على رسالاتهم ﴿وَ﴾ خصوصاً ﴿بِٱلَّذِى قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ﴾ مع إتيانهم بما اقترحتموهم ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٨٣﴾﴾ بأن إيمانكم موقوف على هذه المعجزة.

﴿فَإِن كَذَّبُوكَ﴾ وأنكروا عليك يا أكمل الرسل فلا تبال بتكذيبهم وإنكارهم ﴿فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ﴾ ذو معجزاتٍ كثيرةٍ[1] وآيات عظام ﴿جَآءُو﴾ على من أرسل إليهم ﴿بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ الواضحة ﴿وَٱلزُّبُرِ﴾ أي الصحف المثبتة فيها الأحكام فقط ﴿وَٱلْكِتَٰبِ﴾ المبين فيه الأحكام والمواعظ والرموز والإشارات ﴿ٱلْمُنِيرِ ﴿١٨٤﴾﴾ على كل من استنار منه واستشرد، ومع ذلك ينكرونهم فمَضَوا هم ومنكروهم إذ:

﴿كُلُّ نَفْسٍ﴾ خيّرةٍ كانت أو شريرةٍ ﴿ذَآئِقَةُ﴾ كأس ﴿ٱلْمَوْتِ﴾ عند حلول

---

(١) في المخطوط (ذووا عدد كثيرة).

وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۖ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ ۗ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَـٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴿١٨٥﴾ ۞ لَتُبْلَوُنَّ فِىٓ أَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ أَذًى كَثِيرًا ۚ ....

الأجل المقدر له من عندنا ﴿وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ﴾ تعطون أي جزاء أعمالكم خيراً كان أو شراً ﴿يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ التي هي يوم الجزاء ﴿فَمَن زُحْزِحَ﴾ بَعُدَ منكم بعمله الصالح[1] ﴿عَنِ ٱلنَّارِ﴾ المعدة للفجرة والفساق ﴿وَأُدْخِلَ﴾ بها ﴿ٱلْجَنَّةَ﴾ التي أعدت للسعداء ﴿فَقَدْ فَازَ﴾ فوزاً عظيماً، ومن لم يُزحزح عن النار لفساد عمله، وأُدخل فيها بسببه فقد خسر خسراناً مبيناً ﴿وَ﴾ اعلموا أيها المكلفون بالإيمان والأعمال الصالحة المتفرعة عليه ﴿مَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ﴾ التي أنتم فيها تعيشون ﴿إِلَّا مَتَـٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴿١٨٥﴾﴾ يغركم بلذاتها الفانية الغير القارة عن النعيم الدائم والسرور المستمر، وأنتم أيها المغرورون بمزخرفاتها لا تنتبهون.

والله أيها المؤمنون

﴿۞ لَتُبْلَوُنَّ﴾ ولتختبرن ﴿فِىٓ﴾ إتلاف ﴿أَمْوَٰلِكُمْ﴾ التي هي من حطام الدنيا ﴿وَ﴾ إماتة ﴿أَنفُسِكُمْ﴾ وأولادكم التي هي الهالكة المستهلكة في ذواتها ﴿وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ من اليهود والنصارى ﴿وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟﴾ ممن لا كتاب لهم ولا نبي ﴿أَذًى كَثِيرًا﴾ يؤذيكم سماعها، كل ذلك لتوطنوا أنفسكم على التوحيد وتتمكنوا في مقام الرضا والتسليم وتستقروا في مقام العبودية متمكنين مطمئنين بلا

---

(١) في المخطوط (بعلمه الصالح).

وَإِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿١٨٦﴾ وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ فَنَبَذُوهُ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ وَٱشْتَرَوْاْ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ ﴿١٨٧﴾ لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أَتَواْ

تزلزل وتلوين ﴿وَإِن تَصْبِرُواْ﴾ أيها الموحدون بأمثالها ﴿وَتَتَّقُواْ﴾ عن الإضرار بها ﴿فَإِنَّ ذَٰلِكَ﴾ الصبر والتقوى ﴿مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿١٨٦﴾﴾ أي الأمور التي هي من عزائم أرباب التوحيد، فعليكم أن تلازموها وتواظبوا عليها، إن كنتم راسخين فيه.

ثبتنا بلطفك على نهج الاستقامة، وأعذنا من موجبات الندامة يوم القيامة.

﴿وَ﴾ اذكر يا أكمل الرسل لمن يؤذيك ومتبعيك من أهل الكتاب وقت ﴿إِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ﴾ المرسلُ للرسل المنزلُ للكتب ﴿مِيثَٰقَ﴾ أي العهد الوثيق ﴿ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ﴾ أي أحبار اليهود والنصارى ﴿لَتُبَيِّنُنَّهُۥ﴾ أي الكتاب صريحاً واضحاً بلا تبديلٍ ولا تغييرٍ ﴿لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ﴾ شيئاً مما فيه من القصص والعبر والرموز والإشارات؛ وخصوصاً من أوصاف النبي ﷺ ﴿فَنَبَذُوهُ﴾ بعدما عهدوه ﴿وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ﴾ وإن كان المعهود عند أولي العزائم الصحيحة أن يكون نصب عيونهم ﴿وَٱشْتَرَوْاْ بِهِۦ﴾ أي اختاروا بدله ﴿ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ من الرشى[1] من مترفيهم ومستكبريهم حفظاً لجاههم ورئاستهم ﴿فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ ﴿١٨٧﴾﴾ تلك الرشى بدل ما يكتمونه من أوصاف [سيدنا] محمد ﷺ.

﴿لَا تَحْسَبَنَّ﴾ أيها الكامل في أمر الرسالة المنافقين ﴿ٱلَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أَتَواْ﴾

---

(١) في المخطوط (من الوشي من الرشي).

وَّيُحِبُّونَ أَن يُحۡمَدُواْ بِمَا لَمۡ يَفۡعَلُواْ فَلَا تَحۡسَبَنَّهُم بِمَفَازَةٖ مِّنَ ٱلۡعَذَابِۖ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿١٨٨﴾ وَلِلَّهِ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ ﴿١٨٩﴾ إِنَّ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱخۡتِلَٰفِ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ لَأٓيَٰتٖ

من الخداع والنفاق مع المؤمنين وإظهار الإيمان على طرف اللسان ﴿وَّيُحِبُّونَ أَن يُحۡمَدُواْ﴾ عند إخوانهم ﴿بِمَا لَمۡ يَفۡعَلُواْ﴾ من الإخلاص مع أهل الإيمان، وهم وإن خلصوا عن أيدي المؤمنين؛ ظاهرٌ انخداعهم ونفاقهم ﴿فَلَا تَحۡسَبَنَّهُم بِمَفَازَةٖ﴾ منجاةٍ ومخلصٍ ﴿مِّنَ ٱلۡعَذَابِۖ﴾ المعدِّ لهم في يوم الجزاء بل ﴿وَلَهُمۡ﴾ فيها ﴿عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿١٨٨﴾﴾ مؤلمٌ عن رؤيتهم المؤمنين المخلصين في النعيم الدائم واللذة المستمرة.

﴿وَ﴾ إن اغتروا بإمهال الله إياهم في النشأة الدنيا؛ لا يُمهلون[1] في الآخرة إذ ﴿لِلَّهِ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ أي عالم الأرواح ﴿وَٱلۡأَرۡضِۗ﴾ أي عالم الطبيعة، وله التصرف فيهما بالاستقلال كيف يشاء متى يشاء بطشاً وإمهالاً ﴿وَٱللَّهُ﴾ المتفرد المتوحد في ملكه وملكوته ﴿عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ﴾ من الإنعام والانتقام ﴿قَدِيرٌ ﴿١٨٩﴾﴾ إكثاراً وتقتيراً[2].

﴿إِنَّ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ أي الأسماء والأوصاف الفعالة الفياضة ﴿وَٱلۡأَرۡضِ﴾ أي الطبيعة القابلة المستعدة لقبول الفيض ﴿وَٱخۡتِلَٰفِ ٱلَّيۡلِ﴾ أي آثار القبض والجلال ﴿وَٱلنَّهَارِ﴾ أي آثار البسط والجمال ﴿لَأٓيَٰتٖ﴾ دلائلَ وعلاماتٍ دالةٍ على رقائق المناسبات، ودقائق الارتباطات الواقعة بين

---

(١) في المخطوط (لا تمهلون).

(٢) في المخطوط (فقوراً وتقصيراً).

لِّأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴿١٩٠﴾ ٱلَّذِينَ يَذۡكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمٗا وَقُعُودٗا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمۡ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ رَبَّنَا مَا خَلَقۡتَ هَٰذَا بَٰطِلٗا سُبۡحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٩١﴾ رَبَّنَآ إِنَّكَ مَن تُدۡخِلِ ٱلنَّارَ فَقَدۡ أَخۡزَيۡتَهُۥۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ

الأسماء والصفات المستدعية لظهور التجليات الظاهرة في الآفاق بحسب القوابل والمظاهر ﴿ لِّأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴿١٩٠﴾﴾ الواصلين إلى لبِّ التوحيد، المنخلعين عن قشوره[1] بالمرة. وهم:

﴿ ٱلَّذِينَ يَذۡكُرُونَ ٱللَّهَ ﴾ المتوحد في ذاته في جميع حالاتهم ﴿ قِيَٰمٗا ﴾ قائمين ﴿وَقُعُودٗا﴾ قاعدين ﴿وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمۡ﴾ مضطجعين متكئين ﴿ وَيَتَفَكَّرُونَ ﴾ دائماً ﴿ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ ﴾ إلى أن سكروا وترقى سكرهم إلى أن تحيروا، بعد تحيرهم استغرقوا، وبعدما استغرقوا تاهوا، وبعد ما تاهوا فانوا، وحينئذ انقطع سيرهم، فمنهم من تمكن في تلك المرتبة واستقر عليها، ومنهم من صحى عن سكره ورجع إلى بدنه مستكملاً قائلاً: ﴿ رَبَّنَا مَا خَلَقۡتَ هَٰذَا ﴾ المحسوس المشاهد ﴿ بَٰطِلٗا ﴾ بلا طائلٍ ﴿سُبۡحَٰنَكَ ﴾ ننزهك يا ربنا عن مدركات عقولنا وحواسنا ﴿فَقِنَا﴾ واحفظنا بلطفك ﴿عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٩١﴾ ﴾ التي هي غفلتنا عن مطالعة وجهك الكريم.

﴿ رَبَّنَآ إِنَّكَ مَن تُدۡخِلِ ٱلنَّارَ فَقَدۡ أَخۡزَيۡتَهُۥۖ ﴾ جعلتَه في مضيق الإمكان محبوسين معذبين مطرودين، فظلموا أنفسهم بالالتفات إلى غيرك ﴿وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ ﴾ المستقرين نفوسهم في ظلمة الإمكان

---

(١) في المخطوط (قسوره).

مِنْ أَنصَارٍ ﴿١٩٢﴾ رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِى لِلْإِيمَـٰنِ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ فَـَٔامَنَّا ۚ رَبَّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلْأَبْرَارِ ﴿١٩٣﴾ رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۗ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ﴿١٩٤﴾

﴿مِنْ أَنصَارٍ ﴿١٩٢﴾﴾ ينصرونهم ويخرجونهم منها؛ سوى من أيّدت من عندك بإخراجهم من الأنبياء والأولياء بعد توفيقك إيانا بإرسال الرسل.

﴿رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا﴾ مشفقاً هادياً مرشداً إذ هو ﴿يُنَادِى﴾ ويرشد ﴿لِلْإِيمَـٰنِ﴾ بتوحيدك قائلاً: ﴿أَنْ ءَامِنُوا۟﴾ أيها التائهون في ظلمة الإمكان ﴿بِرَبِّكُمْ﴾ الذي رباكم بنور الوجود ﴿فَـَٔامَنَّا ۚ﴾ فامتثلنا أمره يا ﴿رَبَّنَا﴾ فتحققنا بإرشاده في مرتبة اليقين العلمي بوحدة ذاتك وبعد تحققنا فيها ﴿فَٱغْفِرْ﴾ استر ﴿لَنَا ذُنُوبَنَا﴾ أنانيتنا التي صرنا بها محرومين عن ساحة حضورك حتى يتحقق بلطفك وتوفيقك في مرتبة اليقين العيني بمعاينة ذاتك ﴿وَ﴾ بعد تحققنا فيها ﴿كَفِّرْ﴾ طهّر ﴿عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا﴾ أوصافنا التي تُشعر بالأثنينية بالكلية حتى نتحقق بفضلك وجودك في مرتبة اليقين الحقي ﴿وَ﴾ بعد ذلك ﴿تَوَفَّنَا﴾ في فضاء الفناء ﴿مَعَ ٱلْأَبْرَارِ ﴿١٩٣﴾﴾ الفانين في الله الباقين ببقائه.

﴿رَبَّنَا﴾ ثبتنا في مقام عبوديتك ﴿وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ﴾ لسان ﴿رُسُلِكَ﴾ من الكشوف والشهود وسائر ما جاؤوا به وأخبروا عنه ﴿وَلَا تُخْزِنَا﴾ تحرمنا ﴿يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۗ﴾ حين لقيناك[1] عما وعدتنا من شرف لقائك ﴿إِنَّكَ﴾ بلطفك وفضلك على عبادك ﴿لَا تُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ﴿١٩٤﴾﴾ الذي وعدت من سعة رحمتك

---

(١) في المخطوط (ألقيناك).

فَٱسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ فَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ وَأُخْرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأُوذُواْ فِي سَبِيلِي وَقَٰتَلُواْ وَقُتِلُواْ لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ثَوَابًا مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلثَّوَابِ ﴿١٩٥﴾ لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ

وجودك على عبادك.

ولما تضرعوا إلى الله والتجؤوا إليه وندموا عما هم عليه.

﴿فَٱسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ﴾ فاستقبل عليهم بالإجابة قائلاً ﴿أَنِّي لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٍ﴾ مخلصٍ ﴿مِّنكُم﴾ سواءً كان ﴿مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ﴾ إذ ﴿بَعْضُكُم﴾ ناشئٌ ﴿مِّنۢ بَعْضٍ﴾ ذَكرُكم من أنثاكم وأنثاكم من ذَكرِكم، في الإنسانية والمظهرية الجامعة اللائقة للخلافة ﴿فَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ﴾ منكم من دار الغرور طالباً الوصول إلى دار السرور ﴿وَأُخْرِجُواْ﴾ بسبب هذا الميل ﴿مِن دِيَٰرِهِمْ﴾ المألوفةِ التي هي بقعة الإمكان ﴿وَأُوذُواْ فِي سَبِيلِي﴾ بسبب قطع التعلقات وترك المألوفات ﴿وَقَٰتَلُواْ﴾ مع القوى الحيوانية ﴿وَقُتِلُواْ﴾ في الجهاد الأكبر ﴿لَأُكَفِّرَنَّ﴾ لأمحونّ وأطهرن ﴿عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ﴾ التي هي ذواتهم الباطلة الهالكة ﴿وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّٰتٍ﴾ ملاحظاتٍ ومكاشفاتٍ ومشاهداتٍ ﴿تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ أي أنهار المعارف والحقائق دائماً متجدداً ﴿ثَوَابًا﴾ نازلاً ﴿مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ تفضلاً وامتناناً ﴿وَٱللَّهُ﴾ المستجمع شتات العباد ﴿عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلثَّوَابِ ﴿١٩٥﴾﴾ وخير المنقلب والمآب.

﴿لَا يَغُرَّنَّكَ﴾ يا أكمل الرسل ﴿تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ أي انتقالهم

فِي ٱلْبِلَٰدِ ﴿١٩٦﴾ مَتَٰعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۚ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿١٩٧﴾ لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا نُزُلًا مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ۗ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّلْأَبْرَارِ ﴿١٩٨﴾ وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَمَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَٰشِعِينَ لِلَّهِ ....

وارتحالهم ﴿فِي ٱلْبِلَٰدِ ﴿١٩٦﴾﴾ لاستجلاب المنافع والمتاجر، إذ هو:

﴿مَتَٰعٌ قَلِيلٌ﴾ لذةٌ يسيرةٌ في مدةٍ قصيرةٍ ﴿ثُمَّ﴾ بعد انقضاء النشأة الأولى ﴿مَأْوَىٰهُمْ﴾ ومنقلبهم ﴿جَهَنَّمُ﴾ البعد والخذلان خالدين فيها أبداً ﴿وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿١٩٧﴾﴾ مهد نيران الحرمان.

﴿لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ﴾ عن الاشتغال بزخرفة الدنيا وأمتعتها، منيبين إليه متوجهين نحوه ﴿لَهُمْ﴾ عنده ﴿جَنَّٰتٌ﴾ منتزهاتٍ من اللذة الروحانية ﴿تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ من العلوم اللدنية ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا نُزُلًا مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ۗ﴾ حين وصلوا إليه ﴿وَ﴾ اعلموا أيها المؤمنون ﴿مَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ من المثوبات المستمرة واللذات الدائمة ﴿خَيْرٌ لِّلْأَبْرَارِ ﴿١٩٨﴾﴾ المتوجهين إلى دار القرار.

﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَمَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ﴾ المنزلِ للكتب المرسلة للرسل ﴿وَ﴾ لا يفرق بين الكتب والرسل أصلاً بل يؤمن بجميع ﴿مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُمْ﴾ من القرآن والرسول الذي هو [سيدنا] محمد عليه السلام ﴿وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِمْ﴾ من التوراة والإنجيل المنزلين على موسى وعيسى عليهما السلام، وكذا على سائر الكتب المنزلة من عنده ؛ لتحققهم في مقام العبودية والتوحيد، وهم في هذا الإيمان والإذعان ﴿خَٰشِعِينَ لِلَّهِ﴾

لَا يَشْتَرُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ۗ أُوْلَـٰٓئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿١٩٩﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱصْبِرُوا۟ وَصَابِرُوا۟ وَرَابِطُوا۟ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٢٠٠﴾

مخلصينَ له، وعلامة خشوعهم وإخلاصهم أنهم ﴿لَا يَشْتَرُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ﴾ أي بتبديلها ﴿ثَمَنًا قَلِيلًا ۗ﴾ من الرشى مثل أحبار اليهود ومتفقهة هذه الأمة في هذا العصر خذلهم الله، وهم الذين يحتالون في أحكام الشريعة الغراء على مقتضى هويتهم الفاسدة، ويأخذون الرشى لأجل حيلهم الباطلة، ويسمونها حيلةً شرعيةً كأنه ظهر ما قال ﷺ: «بَدَأ غَرِيْباً، وَسَيَعُودُ غَرِيبا»[1]. ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ﴾ المخلصون الخاشعون ﴿لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ ۗ﴾ يوفيهم أجورهم من حيث لا يحتسبون ﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾ المطلع لضمائرهم ﴿سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿١٩٩﴾﴾ يحاسب أعمالهم ويجازيهم عليها سريعاً بل يزيد عليهم تفضلاً وامتناناً.

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ﴾ بتوحيد الله مقتضى إيمانكم الصبر على متاعب مسالك التوحيد ﴿ٱصْبِرُوا۟﴾ على مشاق التكليفات الواقعة فيها ﴿وَصَابِرُوا۟﴾ غالبوا على القوى النفسانية العائقة عن الرياضات المزكية للأهوية الفاسدة ﴿وَرَابِطُوا۟﴾ قلوبكم على المشاهدات والمكاشفات الواردة من النسمات الإلهية والنفسات الرحمانية ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ عن جميع ما يعوقكم ويشغلكم ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٢٠٠﴾﴾ تفوزون منه بما لا عينٌ رأت ولا أذنٌ سمعت ولا

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه [١ / ١٣٠ رقم/ ١٤٥/ باب: بيان أن الإسلام بدأ غريبا] وابن ماجة في السنن [٢ / ١٣١٩ رقم/ ٣٩٨٥/ باب: بدأ الإسلام غريبا] وأحمد في المسند [٤/ ٧٣ رقم/ ١٦٧٣٦/ /] وغيرهم

خطرَ على قلب بشر.

ربنا أفرغ علينا صبراً وتوفنا مسلمين، واحشرنا مع الصابرين المرابطين، هب لنا من لدنك رحمة إنك أرحم الراحمين.

خاتمة السورة

عليك أيها المحمدي المترصد لفيضان الكشف والشهود واليقين، ونزول الاطمئنان والتمكين أن تتصبر بما جرى عليك من المصيبات والبليات المشعرة للاختبارات الإلهية وابتلائه عن رسوخ قدمك في جادة التوحيد، وصدق عزيمتك في مسلك الفناء، وعلو همتك في التحقق بدار البقاء.

وتربط قلبك بحقك الذي هو أصلُك وحقيقتُك، مقبلاً عليه، متوجهاً إليه، مجتنباً عن جميع ما يعوقك عنه من لوازم ماهيتك وهويتك التي لا حقيقة لها عند التحقيق والإقرار لما يترتب عليها وعلى لوازمها، إذ هي أعراضٌ متبدلةٌ وأظلالٌ باطلةٌ وإعدامٌ صرفةٌ زائلةٌ لا تحقق لها ولا آثار لها أصلاً سوى أن الوجود الحق[1] انبسط عليها وامتد إليها بجميع كمالاته، فانعكس منه فيها ما انعكس، فيتراءى العكوس والأظلال مشعشعة متجددة دائماً بمقتضى تجدد تجليات الأوصاف والأسماء، فظن المحجوبون أنها متناصلات، وهي عند التحقيق تجلٍ واحد على هذا المنوال.

ارزقنا بلطفك حلاوة معرفتك وتوحيدك.

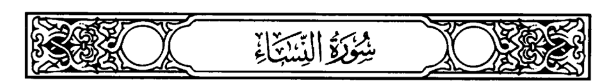
---

(١) في المخطوط (الحقي).

فلك أن تصفي ضميرك عن جميع ما يؤدي إلى التقليد والتخمين، وتفرغَ خاطرك وسترك عن كل ما يوهم التعدد والكثرة، حتى انشرح صدرك، واتسع قلبك لتصير منزلاً لسلطان الوجود الذي هو منبع جميع الكمالات والجود، وقبلة الواجد والموجود، والحوض المورود، والمقام المحمود.

وإياك إياك أن تقتفي أثر وساوس مقتضيات نفسك التي هي أعدى عدوك وأشد ما يغويك ويضلك، بل جميع شياطينك إنما انتشأت منها واستتبعت عليها، فعليك أن تلتجئ في الاجتناب من غوائلها بالرشد الكامل الذي هو القرآن المنزل من عند الله على خير الأنام المؤيد من عند العليم العلام، ليهدي المضلين جادةَ التوحيد عن متابعة الشيطان المَريد، ويوصلهم إلى صفاء التجريد وزلال التفريد، بتوفيقٍ من الله وجذبٍ من جانبه.

وفقنا بلطفك وكرمك بما تحب عنا وترضى.



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

فاتحة سورة النساء

لا يخفى على المتوحدين المتأملين في كيفية انبساط الوحدة الذاتية على صفائح الأعيان الممكنة الفانية للحصر، أن للحق جل جلاله وعم نواله بحسب وحدته الذاتية ظهوراً في كل ذرةٍ من ذرائر الكائنات؛ ليظهر منها أوصافه وأسماءه الكائنة في غيب هويته حسب استعداداتها وقابلياتها.

والمظهر الكامل الجامع الذي تلوح منه جميع آثار الأسماء والصفات الإلهية على التفصيل هو الإنسان الكامل، لذلك خلقه سبحانه على صورته، واستخلفه من بين بريته، وكرّمه على جميع خليقته، ورزقه من طيبات معارفه وحقائقه، والتفت بذاته نحو تخميره، ورباه بإرسال رسله وإنزال كتبه ليظهر منه جميع ما أُودع فيه من الكمالات المترتبة على أسمائه الحسنى وصفاته العليا، حتى يتمكن في مرتبة الخلافة والنيابة، ويتقرر على مقر التوحيد، لذلك ناداهم امتناناً عليهم ليقبلوا إليه، وأوصاهم بالتقوى ليتخذوه وقاية وحسباً فقال متيمناً:

﴿بِسْمِ اللَّهِ﴾ الذي أظهر على من استخلفه بجميع كمالاته إظهاراً لقدرته ﴿الرَّحْمَٰنِ﴾ عليه بنشر رتبه وتوريث مرتبته ﴿الرَّحِيمِ﴾ عليه بإهدائه مبدأه ومعاده.

يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءًۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ....

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ الذين نسوا الموطن الأصلي والمنزل الحقيقي بزخرفة الدنيا المانعة من الوصول إليه، عليكم الاتقاء من غوائلها، والاجتناب عن مخايلها، حتى لا تنحطوا عن مرتبتكم الإصلية ومكانكم الحقيقي ﴿ٱتَّقُواْ﴾ أي اجتنبوا والتجؤوا ﴿رَبَّكُمُ ٱلَّذِى﴾ رباكم بحسن التربية بأن ﴿خَلَقَكُم﴾ أظهركم وأوجدكم أولاً ﴿مِّن نَّفۡسٍ وَٰحِدَةٍ﴾ هي المرتبة الفعالة المحيطة بجميع المراتب الكونية والكيانية، وهي المراتب الجامعة المحمدية المسماة بالعقل الكلي، والقلم الأعلى، تكميلاً لباطنكم وغيبكم ﴿وَخَلَقَ مِنۡهَا﴾ بالنكاح المعنوي والزواج الحقيقي الواقع بين الأوصاف والأسماء الإلهية ﴿زَوۡجَهَا﴾ التي هي النفس الكلية القابلة الفيضان عموم الآثار الصادرة من المبدأ المختار تتميماً لظاهركم وشهادتكم حتى استحقوا الخلافة والنيابة بحسب الظاهر والباطن ﴿وَ﴾ بعد جعلهما زوجين كذلك ﴿بَثَّ﴾ بسط ونشر ﴿مِنۡهُمَا﴾ أيضاً بتلك النكاح المذكور ﴿رِجَالًا كَثِيرًا﴾ فواعل مفيضات ﴿وَنِسَآءًۚ﴾ قوابل مستفيضات كل لنظيرتها على تفاوت دقائق المناسبات الواقعة بين التجليات الحبية على الوجه الذي بيّنتها الكتب والرسل، ولما كان الرب من الأسماء التي تتفاوت بتفاوت المربوب صرح بألوهيته المستجمعة لجميع الأوصاف والأسماء بلا تفاوتٍ، تأكيداً ومبالغةً لأمر التقوى فقال: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ أي واحذروا عما يشغلكم عنه سبحانه مع أنه

ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴿١﴾ وَءَاتُوا۟ ٱلْيَتَـٰمَىٰٓ أَمْوَٰلَهُمْ ۖ وَلَا تَتَبَدَّلُوا۟ ٱلْخَبِيثَ بِٱلطَّيِّبِ ۖ وَلَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَهُمْ إِلَىٰٓ أَمْوَٰلِكُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا ﴿٢﴾ وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا۟ فِى ٱلْيَتَـٰمَىٰ فَٱنكِحُوا۟ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ ....

أقرب إليكم من حبل وريدكم إذ هو ﴿ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ﴾ تتساءلون وتتنافسون ﴿بِهِۦ﴾ وتتوهمون بعده من غاية قربه ﴿وَ﴾ احفظوا ﴿الأَرْحَامَ﴾ المنبئة عن النكاح المعنوي والزواج الحبي على الوجه الذي ذكره ﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾ المحيطَ بكم وبأحوالكم ﴿كَانَ عَلَيْكُمْ﴾ دائماً ﴿رَقِيبًا ﴿١﴾﴾ حفيظاً يحفظكم عما لا يغنيكم إن أخلصتم التوجه.

ومن جملة الأمور التي يجب المحافظة عليها أيها المأمورون بالتقوى حقوق اليتامى، فعليكم أيها الأولياء والأوصياء أن تحفظوا مال اليتيم حين موت أبيه أو جده وتزيدوه بالمرابحة والمعاملة وتصرفوا بقدر الكفاف.

﴿وَ﴾ بعد البلوغ ﴿ءَاتُوا۟ ٱلْيَتَـٰمَىٰٓ﴾ قبل البلوغ إذ لا يتم بعد البلوغ ﴿أَمْوَٰلَهُمْ﴾ المحفوظة الموروثة من آبائهم ﴿وَ﴾ عليكم حين الأداء أن ﴿لَا تَتَبَدَّلُوا۟ ٱلْخَبِيثَ﴾ الرديء من أموالكم ﴿بِٱلطَّيِّبِ﴾ الجيد من أموالهم ﴿وَ﴾ أيضاً عليكم إن أردتم التصرف في أموالهم مقدار معاشهم أن ﴿لَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَهُمْ إِلَىٰٓ أَمْوَٰلِكُمْ﴾ أي مع أموالكم مختلطين ﴿إِنَّهُۥ﴾ أي التصرف في أموالهم بلا رعاية غبطتهم ﴿كَانَ حُوبًا كَبِيرًا ﴿٢﴾﴾ إثماً عظيماً مسقطاً للمروءة بالمرة.

﴿وَإِنْ خِفْتُمْ﴾ أيها الأولياء ﴿أَلَّا تُقْسِطُوا۟﴾ ولا تعدلوا ﴿فِى﴾ حفظ ﴿ٱلْيَتَـٰمَىٰ﴾ النساء اللاتي لهن مالٌ وجمالٌ ﴿فَٱنكِحُوا۟ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ﴾

مَثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَٰحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَلَّا تَعُولُوا ﴿٣﴾ وَءَاتُوا ٱلنِّسَآءَ صَدُقَٰتِهِنَّ نِحْلَةً فَإِن طِبْنَ لَكُمْ عَن شَىْءٍ مِّنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ..............................

البالغة مقدار ما يسكن ميلكم إلى اليتامى وشهوتكم إليهن ﴿مَثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ﴾ أي اثنين اثنين وثلاث ثلاث وأربعة أربعة على تفاوت ميولكم إن حفظتم العدالة بينهن ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَٰحِدَةً﴾ أي فلكم نكاح الواحدة لتأمنوا من الفتنة سواءً كانت من الحرائر ﴿أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ﴾ من الإماء ثم لما لم يكن في الإسلام رهبانية لأن الحكمة تقتضي عدمها كما أشار إليه ﷺ بقوله: «لَا رَهْبَانِيَّةَ فِي الإِسْلَام»[1] نبّه سبحانه على أقل مرتبة الزواج الصوري المنبئ عن النكاح المعنوي والارتباط الحقيقي بقوله ﴿ذَٰلِكَ﴾ أي نكاح الواحدة والقناعة بالإماء ﴿أَدْنَىٰٓ﴾ مرتبة الزواج على الذين يخافون ﴿أَلَّا تَعُولُوا ﴿٣﴾﴾ أي من كثرة العيال.

﴿وَ﴾ إذا أردتم النكاح أيها المسلمون ﴿ءَاتُوا ٱلنِّسَآءَ﴾ الحرائر والإماء لغيركم ﴿صَدُقَٰتِهِنَّ﴾ أي مهورهن ﴿نِحْلَةً﴾ بتةً مؤبداً بلا حيلةٍ وخديعةٍ ﴿فَإِن طِبْنَ﴾ هنَّ ﴿لَكُمْ﴾ لإفراط محبتكم في قلوبهن ﴿عَن شَىْءٍ﴾ كلٍ أو بعضٍ ﴿مِّنْهُ﴾ أي من المهر ﴿نَفْسًا﴾ رغبةً ورضاً، لا كرهاً واستحياءً ﴿فَكُلُوهُ﴾

---

(١) قال ابن حجر العسقلاني لم أره بهذا اللفظ لكن في حديث سعد بن أبي وقاص عند الطبراني أن الله ابدلنا بالرهبانية الحنيفية السمحة فتح الباري [٩ / ١١١ رقم / ٤٧٧٨/ باب:قوله ﷺ «من استطاع الباءه فليتزوج»].

هَنِيٓـًٔا مَّرِيٓـًٔا ﴿٤﴾ وَلَا تُؤۡتُواْ ٱلسُّفَهَآءَ أَمۡوَٰلَكُمُ ٱلَّتِي جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمۡ قِيَٰمٗا وَٱرۡزُقُوهُمۡ فِيهَا وَٱكۡسُوهُمۡ وَقُولُواْ لَهُمۡ قَوۡلٗا مَّعۡرُوفٗا ﴿٥﴾ وَٱبۡتَلُواْ ٱلۡيَتَٰمَىٰ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغُواْ ٱلنِّكَاحَ فَإِنۡ ءَانَسۡتُم مِّنۡهُمۡ رُشۡدٗا ....

أي الشيء الموهوب من المهر ﴿هَنِيٓـًٔا﴾ حلالاً ﴿مَّرِيٓـًٔا ﴿٤﴾﴾ طيباً تقويماً لمزاجكم لإقامة القسط والعدل الذي هو من حدود الله المتعلقة بالتقوى.

﴿وَ﴾ أيضاً من جملة الحقوق المتعلقة بالتقوى أيها الأولياء أن ﴿لَا تُؤۡتُواْ ٱلسُّفَهَآءَ﴾ سواء كانوا من أصلابكم وما ينتمي إليكم، وهم الذين خرجوا عن طور العقل ومرتبة التدبير والتكليف ﴿أَمۡوَٰلَكُمُ ٱلَّتِي جَعَلَ ٱللَّهُ﴾ ملكاً ﴿لَكُمۡ﴾ أيها العقلاء المكلفون ﴿قِيَٰمٗا﴾ سبباً لقيامكم على الطاعة والعبادة ﴿وَ﴾ لكن ﴿ارْزُقُوهُمْ﴾ أي اجعلوا طعامهم وسائر حوائجهم في مدة أعمالهم ﴿فِيهَا﴾ في ربحها ونمائها ﴿وَٱكۡسُوهُمۡ﴾ أيضاً منها ﴿وَ﴾ إن كان منهم له أدنى شعور بأمر الإضافة والتمليك، ولكن لا ينتهي إلى التدبير والتصرف المشروع ﴿قُولُواْ لَهُمۡ﴾ لهؤلاء المخطئين من مرتبة العقلاء ﴿قَوۡلٗا مَّعۡرُوفٗا ﴿٥﴾﴾ مستحسناً عقلاً وشرعاً، لئلا ينكسر قلوبهم.

﴿وَ﴾ أيضاً من جملة الأمور التي وجب حفظها ابتلاء أو رشد اليتامى قبل أداء أموالهم إليهم ﴿ابْتَلُواْ﴾ اختبروا وجربوا أيها الأولياء عقول ﴿ٱلۡيَتَٰمَىٰ﴾ وتدابيرهم في التصرفات الجارية بين أصحاب المعاملات ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغُواْ ٱلنِّكَاحَ﴾ أي السن المعتبر في باب النكاح، وهو خمسة عشر عند الشافعي رحمة الله عليه، وثمانية عشر عند أبي حنيفة ﴿فَإِنۡ ءَانَسۡتُم﴾ أي أشعرتم وأحسستم ﴿مِّنۡهُمۡ رُشۡدٗا﴾ تدبيراً كافياً وافياً للتصرفات الشرعية

فَادْفَعُوٓاْ إِلَيْهِمْ أَمْوَٰلَهُمْ ۖ وَلَا تَأْكُلُوهَآ إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَن يَكْبَرُواْ ۚ وَمَن كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ ۖ وَمَن كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَٰلَهُمْ فَأَشْهِدُواْ عَلَيْهِمْ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا ﴿٦﴾ ....

﴿فَادْفَعُوٓاْ إِلَيْهِمْ أَمْوَٰلَهُمْ﴾ على الوجه المذكور بلا مماطلةٍ وتأخيرٍ،وإن لم تؤنسوا الرشد المعتبر فيهم لا تدفعوها بل تحفظوها إلى إيناس الرشد لكن ﴿وَلَا تَأْكُلُوهَآ إِسْرَافًا﴾ مسرفين في أجرة المحافظة ﴿وَبِدَارًا﴾ مبادرين في أكلها خوفاً ﴿أَن يَكْبَرُواْ﴾ ويخرجوها من أيديكم ﴿وَمَن كَانَ﴾ منكم أيها الأولياء ﴿غَنِيًّا﴾ ذو يسرٍ ﴿فَلْيَسْتَعْفِفْ﴾ من أكلها، والتعففُ منها خيرٌ له في الدنيا والآخرة ﴿وَمَن كَانَ﴾ منكم ﴿فَقِيرًا﴾ ذا عسر ﴿فَلْيَأْكُلْ﴾ منها ﴿بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ المعتدلِ لا ناقصاً من أجرة حفظٍ ولا زائداً عليها حفظاً للغبطتين ﴿فَإِذَا دَفَعْتُمْ﴾ أيها الأولياء بعدما آنستم الرشد المعتبر منهم ﴿إِلَيْهِمْ أَمْوَٰلَهُمْ فَأَشْهِدُواْ﴾ فأحضروا ذوي عدلٍ من المسلمين ﴿عَلَيْهِمْ﴾ ليشهدوا فيما جرى بينكم وبينهم ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا ﴿٦﴾﴾ أي كفى الله حسيباً فيما جرى بينكم وبينه سبحانه في مدة المحافظة، يحاسبكم ويجازيكم على مقتضى حسابه.

ومن خطر هذه التصرفات كان أرباب الولاء من المشايخ قدس الله أسرارهم يمنعون أهل الإرادة عن أمثالها ؛ لأن البشر قلما يخلون عن الخطر، خصوصاً في أمثال هذه المزالق.

ثبت أقدامنا على جادة توحيدك، وجنبنا عن الخطر والتزلزل منها بمنك وجودك.

﴿لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا ۝٧ وَإِذَا حَضَرَ ٱلْقِسْمَةَ أُوْلُوا۟ ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينُ فَٱرْزُقُوهُم مِّنْهُ وَقُولُوا۟ لَهُمْ ....

ثم لما أمر أولاً سبحانه عباده بالتقوى على وجه المبالغة والتأكيد، وقَرَنَ عليه حفظ الأرحام ومراعاة الأيتام ومواساة السفهاء المنحطين عن درجة العقلاء، أراد أن يبين أحوال المواريث والمتوارثين مطلقاً حتى لا يقع التغالب والتظالم فيها كما في الجاهلية الأولى، إذ روي أنهم لا يرثون النساء معللين بأنهن لا يحضرن الوغى ولا يدفعون العدو.

ردَّ الله عليهم وعيَّن لكل واحدٍ من الفريقين نصيباً مفروزاً مفروضاً فقال:

﴿لِّلرِّجَالِ﴾ سواء كانوا بالغين أم لا عقلاء أم سفهاء ﴿نَصِيبٌ﴾ بينهم مفروضٌ مقدرٌ ﴿مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَآءِ﴾ أيضاً بالغاتٍ عاقلاتٍ أم لا ﴿نَصِيبٌ﴾ مقدرٌ ﴿مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ﴾ المتروك ﴿أَوْ كَثُرَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا ۝٧﴾ مقدراً في كتاب الله كما يجيء بيانه وتعيينه من قريب.

﴿وَ﴾ من جملة الأمور المترتبة على التقوى تصدق الوارثين من المتروك ﴿إِذَا حَضَرَ ٱلْقِسْمَةَ﴾ أي وقتها ﴿أُوْلُوا۟ ٱلْقُرْبَىٰ﴾ المقلين المحجوبين عن الإرث ﴿وَٱلْيَتَٰمَىٰ﴾ الذين لا مال لهم ولا متعهد لهم ﴿وَٱلْمَسَٰكِينُ﴾ الفاقدين وجه المعاش ﴿فَٱرْزُقُوهُم مِّنْهُ﴾ أي فأعطوهم أيها الوارثون من المقسم المتروك مقدار ما لا يؤدي إلى تحريم الورثة ﴿وَقُولُوا۟ لَهُمْ﴾ حين

قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴿٨﴾ وَلْيَخْشَ ٱلَّذِينَ لَوْ تَرَكُواْ مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَٰفًا خَافُواْ عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلْيَقُولُواْ قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَٰمَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا ﴿١٠﴾

الإعطاء ﴿قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴿٨﴾﴾ خالياً عن وصمة المن والأذى.

﴿وَلْيَخْشَ﴾ من سخط الله وغضبه الأوصياءُ أو الحضَّارُ ﴿ٱلَّذِينَ﴾ حضروا عند من أشرف على الموت أن يلقنوا له التصدق من ماله على وجهٍ يؤدي إلى تحريم الورثة وعلى الحضَّارِ أن يفرضوا ﴿لَوْ﴾ ماتوا أو ﴿تَرَكُواْ مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً﴾ أخلافاً ﴿ضِعَٰفًا﴾ بلا مالٍ ولا متعهد ﴿خَافُواْ عَلَيْهِمْ﴾ البتة أن لا يضيعوا فكيف لا يخافون على أولئك الضعاف الضياع، بل المؤمن لا بد أن يحب لأخيه ما يحب لنفسه بل أولى منه ﴿فَلْيَتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ أولئك الحضَّارُ أو الأوصياء عن التلقين المخلِّ لنصيب الورثة ﴿وَلْيَقُولُواْ﴾ له ويلقنوا عليه ﴿قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٩﴾﴾ معتدلاً بين طرفي الإفراط والتفريط رعايةً للجانبين وحفظاً للغبطتين.

ثم قال سبحانه توبيخاً وتقريعاً على الظالمين المولعين في أكل أموال اليتامى من الحكام والأوصياء والمتغلبة من الورثة:

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَٰمَىٰ ظُلْمًا﴾ بلا رخصةٍ شرعية ﴿إِنَّمَا يَأْكُلُونَ﴾ ويدخرون ﴿فِي بُطُونِهِمْ نَارًا﴾ معنوياً في النشأة الأولى مستتبعاً النار الصوري في النشأة الأخرى وهي نار البعد والخذلان ﴿وَ﴾ هم فيها ﴿سَيَصْلَوْنَ﴾ أي سيدخلون ﴿سَعِيرًا ﴿١٠﴾﴾ لا ينجو منها أحد.

ثم لما قدر سبحانه على المتوارثين نصيباً مفروضاً على وجه الإجمال

﴿يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِىٓ أَوْلَـٰدِكُمْ ۖ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ ۚ فَإِن كُنَّ نِسَآءً فَوْقَ ٱثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ ۖ وَإِن كَانَتْ وَٰحِدَةً فَلَهَا ٱلنِّصْفُ ۚ وَلِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا ٱلسُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِن كَانَ لَهُۥ وَلَدٌ ۚ فَإِن لَّمْ يَكُن لَّهُۥ وَلَدٌ وَوَرِثَهُۥٓ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ ٱلثُّلُثُ ۚ﴾

أراد أن يفصل ويعين أنصباءهم فقال:

﴿يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ﴾ أي يأخذ منكم العهد ويأمركم بمحافظته ﴿فِىٓ﴾ حق ﴿أَوْلَـٰدِكُمْ ۖ﴾ المستخلفين بعدكم وهو أن يقسم متروك المتوفى منكم بينهم ﴿لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ ۚ﴾ أي لأن كل ذكرٍ لا بد له من أنثى أو أكثر ليتزوجها حتى يتم أمر النظام الإلهي والنكاح المعنوي، ويجب عليه جميع حوائجها، وكذا لكل أنثى لا بدّ لها من ذكر ينكحها بعين ما ذكر، ويأتي بحوائجها فاقتضت أيضاً الحكمة الإلهية أن يكون نصيبهما بقدر كفافهما واحتياجهما، لذلك عينه سبحانه هكذا ﴿فَإِن كُنَّ﴾ أي الوارثات ﴿نِسَآءً﴾ خلصاً ليس بينهن ذكور هُنّ ﴿فَوْقَ ٱثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ ۖ﴾ المتوفى ﴿وَإِن كَانَتْ﴾ الوارثة بنتاً ﴿وَٰحِدَةً﴾ فقط ﴿فَلَهَا ٱلنِّصْفُ ۚ﴾ مما ترك المتوفى وإن كانتا بنتين فقط، فقد اختُلف فيهما، فقال ابن عباس: حكمهما حكم الواحدة، وقال الباقون: حكمهما حكم ما فوق الاثنين وعلى هذا يكون لفظة: ﴿فَوْقَ﴾ مقحماً كما في قوله تعالى: ﴿فَٱضْرِبُوا۟ فَوْقَ ٱلْأَعْنَاقِ﴾ [٨-الأنفال١٢] وكذا عين سبحانه نصيب الأبوين فقال: ﴿وَلِأَبَوَيْهِ﴾ أي لأبوي المتوفى ﴿لِكُلِّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا ٱلسُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ﴾ المتوفى ﴿إِن كَانَ لَهُۥ وَلَدٌ ۚ﴾ ذكراً أو أنثى ﴿فَإِن لَّمْ يَكُن لَّهُۥ وَلَدٌ وَوَرِثَهُۥٓ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ ٱلثُّلُثُ ۚ﴾ وللأب الباقي، هذا إذا لم يكن

فَإِن كَانَ لَهُۥٓ إِخْوَةٌ فَلِأُمِّهِ ٱلسُّدُسُ ۚ مِنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِى بِهَآ أَوْ دَيْنٍ ۗ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا ۚ فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١١﴾ ۞ وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَٰجُكُمْ إِن لَّمْ يَكُن لَّهُنَّ وَلَدٌ ۚ ....

له غير الأب والأم وارث، ﴿فَإِن كَانَ لَهُۥٓ﴾ للمتوفى ﴿إِخْوَةٌ فَلِأُمِّهِ ٱلسُّدُسُ ۚ﴾ أي تردون الأم من الثلث إلى السدس بخلاف الأب فإنهم لا يرثون معه هذه القسمة والأنصباء المعينة ﴿مِنۢ بَعْدِ﴾ إخراجه ﴿وَصِيَّةٍ يُوصِى بِهَآ﴾ من ماله للفقراء ﴿أَوْ﴾ قضاءِ ﴿دَيْنٍ﴾ كان في ذمته وهما أيضاً بعد تجهيزه وتكفينه.

ثم أشار سبحانه إلى أن أمر الميراث وتعيين الأنصباء أمر تعبديٌّ ليس لكم أن تتخلفوا عنها لمقتضى ميلكم وظنكم إلى أن تورثوا بعض الورثة وتحرموا الآخر، بل لكم أن لا تفاوتوا بينهم سواء كانوا: ﴿ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ﴾ إذ ﴿لَا تَدْرُونَ﴾ ولا تعلمون جزماً ﴿أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا ۚ﴾ في الدار الآخرة عند الله ، فعليكم أن لا تتجاوزوا عن قسمة الله بل انقادوا لها واعتدوها ﴿فَرِيضَةً﴾ مقدرةً ﴿مِّنَ﴾ عند ﴿ٱللَّهِ ۗ﴾ صادرةً عن محض العلم والحكمة ﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾ المصلح لأحوال عباده ﴿كَانَ عَلِيمًا﴾ بمصالحهم ﴿حَكِيمًا ﴿١١﴾﴾ في ترتيبها وتدبيرها.

﴿۞ وَلَكُمْ﴾ أيها الذكور ﴿نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَٰجُكُمْ﴾ من الإناث ﴿إِن لَّمْ يَكُن لَّهُنَّ وَلَدٌ ۚ﴾ منكم أو من غيركم أو ولدُ ولدٍ وإن سفل

فَإِن كَانَ لَهُنَّ وَلَدٌ فَلَكُمُ ٱلرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْنَ مِنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِينَ بِهَآ أَوْ دَيْنٍ وَلَهُنَّ ٱلرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْتُمْ إِن لَّمْ يَكُن لَّكُمْ وَلَدٌ فَإِن كَانَ لَكُمْ وَلَدٌ فَلَهُنَّ ٱلثُّمُنُ مِمَّا تَرَكْتُم مِّنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ تُوصُونَ بِهَآ أَوْ دَيْنٍ وَإِن كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلَٰلَةً أَوِ ٱمْرَأَةٌ وَلَهُۥٓ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ فَلِكُلِّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا ٱلسُّدُسُ فَإِن كَانُوٓا۟ أَكْثَرَ مِن ذَٰلِكَ فَهُمْ شُرَكَآءُ فِى ٱلثُّلُثِ ....

﴿فَإِن كَانَ لَهُنَّ وَلَدٌ﴾ أو ولدُ ولدٍ كما ذكر ﴿فَلَكُمُ ٱلرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْنَ﴾ هن أيضاً ﴿مِنۢ بَعْدِ﴾ تنفيذ ﴿وَصِيَّةٍ يُوصِينَ بِهَآ﴾ للفقراء ﴿أَوْ﴾ أداء ﴿دَيْنٍ﴾ لازم عليهن ﴿وَلَهُنَّ﴾ أي للنساء الوارثات ﴿ٱلرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْتُمْ﴾ أيها الأزواج ﴿إِن لَّمْ يَكُن لَّكُمْ وَلَدٌ﴾ منها أو من غيرها أو ولدُ ولدٍ مثل ما مرّ ﴿فَإِن كَانَ لَكُمْ وَلَدٌ﴾ على التعميم المذكور ﴿فَلَهُنَّ ٱلثُّمُنُ مِمَّا تَرَكْتُم﴾ ذلك أيضاً ﴿مِّنۢ بَعْدِ﴾ تنفيذِ ﴿وَصِيَّةٍ تُوصُونَ بِهَآ﴾ تقرباً إلى الله ﴿أَوْ﴾ قضاءِ ﴿دَيْنٍ﴾ لزم على ذمتكم ﴿وَإِن كَانَ﴾ المتوفى ﴿رَجُلٌ يُورَثُ﴾ منه وكان ﴿كَلَٰلَةً﴾ ليس لها والدٌ ولا ولدٌ ﴿أَوِ ٱمْرَأَةٌ﴾ كذلك ﴿وَلَهُۥٓ﴾ للرجل ﴿أَخٌ أَوْ أُخْتٌ﴾ لأمٍ لأن حكم الأخ والأخت من الأبوين أو من الأب سيجيء في آخر السورة، فلا بد أن يصرف ههنا إلى ما صرف ﴿فَلِكُلِّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا ٱلسُّدُسُ﴾ من ماله ﴿فَإِن كَانُوٓا۟﴾ أي الإخوة والأخوات من الأم ﴿أَكْثَرَ مِن ذَٰلِكَ فَهُمْ﴾ بأجمعهم ﴿شُرَكَآءُ فِى ٱلثُّلُثِ﴾ على السوية لاشتراك السبب بينهم ذلك

مِنۢ بَعۡدِ وَصِيَّةٖ يُوصَىٰ بِهَآ أَوۡ دَيۡنٍ غَيۡرَ مُضَآرّٖۚ وَصِيَّةٗ مِّنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٞ ﴿١٢﴾ تِلۡكَ حُدُودُ ٱللَّهِۚ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدۡخِلۡهُ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ وَذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ﴿١٣﴾ وَمَن يَعۡصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُۥ

أيضاً ﴿مِنۢ بَعۡدِ﴾ إخراج ﴿وَصِيَّةٖ يُوصَىٰ بِهَآ أَوۡ دَيۡنٍ﴾ يُقضى، فعليكم أيها الحكام أن تتخذوا هذه القسمة ﴿غَيۡرَ مُضَآرّٖۚ وَصِيَّةٗ﴾ عهداً صادراً ناشئاً ﴿مِّنَ ٱللَّهِۗ﴾ لإصلاح أحوال عباده ﴿وَٱللَّهُ﴾ المصلحُ بين عباده ﴿عَلِيمٌ﴾ بمصالحهم ﴿حَلِيمٞ ﴿١٢﴾﴾ لا يعجل بالانتقام على من امتنع عن حكمه.

﴿تِلۡكَ﴾ المذكورات من الأمور المتعلقة بأحوال الأموات ﴿حُدُودُ ٱللَّهِۚ﴾ الموضوعة بينكم أيها المؤمنون بالله ورسوله ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ﴾ في امتثال أوامره واجتناب نواهيه ﴿وَرَسُولَهُۥ﴾ في جميع ما جاء به من عند ربه من الأمور المتعلقة لتهذيب الظاهر والباطن من الكدورات البشرية والعلائق الدينية ﴿يُدۡخِلۡهُ﴾ الله بفضله ولطفه ﴿جَنَّٰتٖ﴾ منتزهاتِ التوحيد وهي اليقين العلمي والعيني والحقي ﴿تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾ أنهار المعارف الجزئية من عالم الغيب إلى عالم الشهادة، وهم لا يتحولون عنها بل صاروا ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ﴾ أبداً ﴿وَذَٰلِكَ﴾ أي الخلود فيها هو ﴿ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ﴿١٣﴾﴾ والفضل الكريم، طوبى لمن فاز من الله بالفوز العظيم.

﴿وَمَن يَعۡصِ ٱللَّهَ﴾ بإنكار الأوامر والإصرار على النواهي ﴿وَرَسُولَهُۥ﴾ بالتكذيب والإيذاء وعدم الإطاعة ﴿وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُۥ﴾ الموضوعةَ بين عباده

﴿يُدْخِلْهُ نَارًا خَٰلِدًا فِيهَا وَلَهُۥ عَذَابٌ مُّهِينٌ ۝١٤﴾ ....

﴿يُدْخِلْهُ﴾ الله باسمه المنتقم ﴿نَارًا﴾ هي نارُ البعد والطرد عن كنفه وجوده فصار ﴿خَٰلِدًا فِيهَا﴾ أبداً ﴿وَلَهُۥ﴾ بعصيانه وإصراره عليه ﴿عَذَابٌ مُّهِينٌ ۝١٤﴾ يبعده عن ساحة عن الحضور.

أدركنا بلطفك يا خفي الألطاف.

ثم لما بين سبحانه أحكام المواريث وأحكام أحوال المتوارثين وعيّن سهامهم وأنصباءهم، أراد أن يحذّر المؤمنين عن الزنا التي هي هتك حرمة الله الموضوعة بين الإزواجات الحبية الإلهية واختلاط الأنساب المصححة للأحكام المذكورة، وبالجملة هي الخروج عن السنة الإلهية التي سنّها بين عباده على طريق الحكمة والمصلحة الإلهية الصالحة المصلحة لأصل فطرتهم التي خُلقوا عليها، وهي التوحيد الذاتي.

والزنا يتصور بين المرء والمرأة الأجنبية المحرمة، لذلك قدم سبحانه أمر النساء وبين أحكامهن وأحال حكم الرجال على المقايسة لقباحتها وشناعتها؛ كأنه استبعد سبحانه عن أهل الإيمان أمثال هذه الآثام والجرائم العظام الأخر الناقصات، ولأنهن في أنفسهن شبَاكُ شياطينٍ يصطادون بهن ضعفاء المؤمنين وأقوياءهم أيضاً، على ما نطق به حديث النبي صلوات الله على قائله: «مَا آيَسَ الشَّيْطَانُ مِنْ ابْنِ آدَمَ إِلَّا وَيَأْتِيْهِمْ مِنْ قِبَلِ النِّسَاءِ»[1]. فقال:

(١) ذكره أبو نعيم في الحلية [٢/ ١٦٦] من كلام سعيد ابن المسيب، ونسبه المناوي في فيض القدير [١/ ١٣٣] إلى بعض العارفين ولم يسمه.

وَٱلَّٰتِي يَأۡتِينَ ٱلۡفَٰحِشَةَ مِن نِّسَآئِكُمۡ فَٱسۡتَشۡهِدُواْ عَلَيۡهِنَّ أَرۡبَعَةٗ مِّنكُمۡۖ فَإِن شَهِدُواْ فَأَمۡسِكُوهُنَّ فِي ٱلۡبُيُوتِ حَتَّىٰ يَتَوَفَّىٰهُنَّ ٱلۡمَوۡتُ أَوۡ يَجۡعَلَ ٱللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلٗا ﴿١٥﴾ وَٱلَّذَانِ يَأۡتِيَٰنِهَا مِنكُمۡ ....

﴿وَٱلَّٰتِي يَأۡتِينَ ٱلۡفَٰحِشَةَ﴾ الفعلة القبيحة التي هي الزنا وهن ﴿مِن نِّسَآئِكُمۡ﴾ وفي حجركم ونكاحكم، فأُخبرتم بها - العياذ بالله - فعليكم في تلك الحالة أن لا تبادروا إلى رميها ورجمها بل ﴿فَٱسۡتَشۡهِدُواْ﴾ اطلبوا الشهداء من المخبر ليشهدوا ﴿عَلَيۡهِنَّ﴾ بالزنا، والمعتبر أن يكون ﴿أَرۡبَعَةٗ مِّنكُمۡۖ﴾ أي من عدول رجالكم بشرط أن لا يسبق منهم تجسسٌ وترقبٌ، بل وقع منهم النظر بغتةً على سبيل الاتفاق، فيرون ما يرون كالميل في المكحلة، مستكرهين مستعجبين ﴿فَإِن شَهِدُواْ﴾ هؤلاء الشهود على الوجه المعهود، فعليكم أيها المؤمنون المستحفظون لحدود الله أن لا تضطربوا ولا تستعجلوا في مقتهن وإخراجهن بل عليكم الإمساك ﴿فَأَمۡسِكُوهُنَّ فِي ٱلۡبُيُوتِ﴾ التي أنتم فيها بلا مراودةٍ إليهن كيلا يلحق عليكم بالإخراج عارٌ آخر، بل اتركوهن فيها ﴿حَتَّىٰ يَتَوَفَّىٰهُنَّ ٱلۡمَوۡتُ﴾ الطبيعي ﴿أَوۡ يَجۡعَلَ ٱللَّهُ﴾ أي يحكم الله ﴿لَهُنَّ﴾ أي في حقهن ﴿سَبِيلٗا ﴿١٥﴾﴾ حكماً مبرماً، هذا في بدء الإسلام ثم نسخ بآية الرجم والجلد.

﴿وَٱلَّذَانِ يَأۡتِيَٰنِهَا﴾ أي الفعلة القبيحة التي هي اللواطة وهما الآتي والمأتي ﴿مِنكُمۡ﴾ أيها الرجال، وهذا أفحش من الزنا لخروج كلٍ منهما عن حد الله وانحطاطهما عن كمال الإنسان لارتكابهما شيئاً لا يقتضيه العقل

﴿فَـَٔاذُوهُمَاۖ فَإِن تَابَا وَأَصۡلَحَا فَأَعۡرِضُواْ عَنۡهُمَآۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ تَوَّابٗا رَّحِيمًا ١٦ إِنَّمَا ٱلتَّوۡبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٖ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٖ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا ....﴾

والشرع بخلاف الزنا، ولشناعتها وخباثتها لم يعين لها سبحانه حداً في كتابه المبين لأخلاق الإنسان كأن هؤلاء ليسوا من الإنسان، بل من البهائم، بل أسوأ حالاً منها، لذلك قال: ﴿فَـَٔاذُوهُمَاۖ﴾ إيذاءً بليغاً وتعزيراً شديداً حتى يمتنعوا ﴿فَإِن تَابَا﴾ وامتنعا ﴿وَأَصۡلَحَا﴾ ما أفسد بالتوبة والندامة ﴿فَأَعۡرِضُواْ عَنۡهُمَآۗ﴾ مستغفرين لهما من الله ، مستشفعين عنهما غير موبخين ومقرعين عليهما ﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾ المطلع لأحوال عباده المذنبين ﴿كَانَ تَوَّابٗا﴾ لهم يرجعهم عما صدر عنهم نادمين ﴿رَّحِيمًا ١٦﴾ يعفو عنهم.

ثم قال سبحانه: ﴿إِنَّمَا ٱلتَّوۡبَةُ﴾ أي ما التوبة المبرورة المقبولة إلا التوبة الناشئة من محض الندامة المتفرعة على تنبيه القلب عن قبيح المعصية وهي المصححة الباعثة ﴿عَلَى﴾ قبول ﴿ٱللَّهِ﴾ إياها النافعة ﴿لِلَّذِينَ﴾ أي للمؤمنين الذين ﴿يَعۡمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ﴾ الفعلة الذميمة لا عن قصدٍ ورويةٍ بل ﴿بِجَهَٰلَةٖ﴾ عن قبحه ووخامة عاقبته ﴿ثُمَّ﴾ لما تأملوا وأدركوا قبحها ﴿يَتُوبُونَ﴾ يبادرون إلى التوبة والرجوع ﴿مِن﴾ زمانٍ ﴿قَرِيبٖ﴾ أي قبل الانتهاء إلى وقت الإلجاء ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ﴾ التائبون المبادرون إلى التوبة قبل حلول الأجل ﴿يَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡۗ﴾ أي يقبل توبتهم بعدما وفقهم عليها ولقنهم بها ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ﴾ المطلعُ على ضمائرهم ﴿عَلِيمًا﴾ بمعاصيهم في سابق

حَكِيمًا ﴿١٧﴾ وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ إِنِّى تُبْتُ ٱلْـَٔـٰنَ وَلَا ٱلَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ أُوْلَـٰٓئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٨﴾ ....

علمه ﴿حَكِيمًا ﴿١٧﴾﴾ في إلزام التوبة عليهم، ليجبروا بها ما انكسروا على نفوسهم.

﴿وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ﴾ الصادرة حين الإلجاء والاضطرار نافعةٌ ﴿لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ في مدة أعمارهم مسوفين التوبة فيها ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ﴾ الملجئ إليها ﴿قَالَ﴾ متحسراً متأسفاً مضطراً بعدما آيس من الحياة وأبصر أمارات الموت في نفسه على السكرات: ﴿إِنِّى تُبْتُ ٱلْـَٔـٰنَ﴾ على وجه التأكيد والمبالغة، وهي لا تنفع له وإن بالغ، والسر في عدم قبول الله إياها ؛ لأن الإنابةَ والرجوعَ إلى الله لا بد أن يكون عن قصدِ واختيارِ، حتى يعتبر عند الله ويُقبل لا عن الإلجاء والاضطرار، إذ لا يتصف التائب حينئذٍ بالعبودية والإطاعة وقصدِ التقرب إلى الله بل ﴿وَلَا﴾ فرقَ بينهم وبين الكافرين ﴿ٱلَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ﴾ في حال الموت ﴿كُفَّارٌ﴾ كما كان ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ﴾ المسوفون المقصرون في أمر التوبة ﴿أَعْتَدْنَا﴾ هيأنا باسمنا المنتقم في النشأة الأخرى ﴿لَهُمْ عَذَابًا﴾ حرماناً وطرداً ﴿أَلِيمًا ﴿١٨﴾﴾ مؤلماً لرؤيتهم التائبين المبادرين عليها في مقعد صدقٍ عند مليكٍ مقتدرٍ على الإنعام والانتقام.

تُب علينا بفضلك إنك أنت التواب الرحيم.

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَرِثُوا۟ ٱلنِّسَآءَ كَرْهًا ۖ وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُوا۟ بِبَعْضِ مَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ إِلَّآ أَن يَأْتِينَ بِفَـٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ ۚ وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ ....

ثم لما كانت العادة في الجاهلية إيراث النساء كرهاً وذلك أنه لو مات واحدٌ منهم وله عصبةٌ، ألقى ثوبه على امرأة الميت فكانت في تصرفه وحمايته، وله اختيارها سواء تزوجها بالصداق الأول أو إكراهاً أو طوعاً، ويضر عليها ويمنعها إلى أن تقدم له مثل صداقها، ثم أطلقها، نبه سبحانه على المؤمنين أن لا تصدر عنهم أمثال هذا فقال:

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ بالله ورسوله اتركوا جميع ما كان عليكم في جاهليتكم قبل الإيمان سيما إيراث النساء واعلموا أنه ﴿لَا يَحِلُّ لَكُمْ﴾ في دينكم وشرعكم ﴿أَن تَرِثُوا۟ ٱلنِّسَآءَ﴾ أي نساء أقاربكم ومورثكم وتزوجوهن أو تفدوا منهن ﴿كَرْهًا﴾ حال كونكم مكرهين أو هن كارهاتٍ لتزويجكم ﴿وَ﴾ أيضاً من الحدود المتعلقة بأمور النساء أن ﴿لَا تَعْضُلُوهُنَّ﴾ مطلقاً أي لا يحل أن تضيّقوا على نسائكم حين انتقضت محبتكم إياهن وقلّ وقعهن عندكم إلى أن تلجئوهن بالفدية والخلع ﴿لِتَذْهَبُوا۟﴾ حين الطلاق ﴿بِبَعْضِ مَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ﴾ أو كلها حين النكاح ﴿إِلَّآ أَن يَأْتِينَ﴾ ـ العياذ بالله تعالى ـ ﴿بِفَـٰحِشَةٍ﴾ فعلةٍ قبيحةٍ محرمةٍ عقلاً وشرعاً ﴿مُّبَيِّنَةٍ ۚ﴾ ثابتةٍ ظاهرةٍ ﴿وَ﴾ إن لم يأتين بشيءٍ من الفواحش ﴿عَاشِرُوهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ﴾ المستحسن عقلاً وشرعاً ﴿فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ﴾ طبعاً عليكم أن تكذبوا طباعكم المخالفة للعقل والشرع،

فَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَيَجْعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا ﴿١٩﴾ وَإِنْ أَرَدتُّمُ ٱسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَّكَانَ زَوْجٍ وَءَاتَيْتُمْ إِحْدَىٰهُنَّ قِنطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا۟ مِنْهُ شَيْـًٔا ۚ أَتَأْخُذُونَهُۥ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿٢٠﴾ وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُۥ وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا ﴿٢١﴾

إذ هي من طغيان القوة البهيمية، لا تبالوا بها وبمقتضاها ﴿فَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا﴾ بمقتضى طبعكم ﴿وَ﴾ لا تعلمون أن ﴿يَجْعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ﴾ بمقتضى حكمته ومصلحته ﴿خَيْرًا كَثِيرًا ﴿١٩﴾﴾ نافعاً لكم ولغيركم.

﴿وَإِنْ﴾ غلب عليكم بمقتضى طبعكم و﴿أَرَدتُّمُ ٱسْتِبْدَالَ زَوْجٍ﴾ منكوحةٍ جديدةٍ ﴿مَّكَانَ زَوْجٍ﴾ قديمةٍ أردتم تطليقها فعليكم في دينكم أن لا تأخذوا من المطلقة شيئاً ﴿وَ﴾ إن ﴿ءَاتَيْتُمْ﴾ حالة النكاح ﴿إِحْدَىٰهُنَّ﴾ أي كل واحدةٍ منهن إن كن أكثر من واحدةٍ ﴿قِنطَارًا﴾ مالاً كثيراً منضداً مخزوناً ﴿فَلَا تَأْخُذُوا۟ مِنْهُ﴾ من القنطار ﴿شَيْـًٔا﴾ قليلاً نزراً يسيراً ﴿أَتَأْخُذُونَهُۥ﴾ أي من مهورهن أيها المفرطون في متابعة الطبيعة ﴿بُهْتَٰنًا﴾ تفترونه عليهن ﴿وَ﴾ تكسبون به ﴿إِثْمًا مُّبِينًا ﴿٢٠﴾﴾ عظيماً عند الله وعند المؤمنين.

﴿وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُۥ﴾ ولا تعلمون ﴿وَ﴾ تستحضرون أنه ﴿قَدْ أَفْضَىٰ﴾ وصل بالمهر ﴿بَعْضُكُمْ﴾ ذكوركم ﴿إِلَىٰ بَعْضٍ﴾ إناثكم ﴿وَأَخَذْنَ﴾ عهدهن ﴿مِنكُم﴾ من أجلكم ورعاية غبطتكم ﴿مِّيثَٰقًا غَلِيظًا ﴿٢١﴾﴾ عهداً وثيقاً لا ينفصم أصلاً وهو أن لا يأتين بفاحشةٍ، ولا يبدين زينتهن إلا

وَلَا تَنكِحُوا۟ مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَمَقْتًا وَسَآءَ سَبِيلًا ﴿٢٢﴾ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَٰتُكُمْ

لبعولتهن، وأن يقصرن نظرهن عليكم، ويخدمن ويحسنَّ المعاشرة، إلى غير ذلك من الحدود والحقوق.

﴿وَ﴾ أيضاً من الحدود المتعلقة بأمر النساء أن ﴿لَا تَنكِحُوا۟﴾ أي لا تطؤوا ولا تجامعوا أيها المؤمنون ﴿مَا نَكَحَ﴾ ما وطئ ﴿ءَابَآؤُكُم﴾ أسلافكم سواءً كانوا مؤمنين أو كفاراً ﴿مِّنَ ٱلنِّسَآءِ﴾ سواءً كن أمهاتكم أم لا، حرائر ورقيقات لاستهجان هذا الأمر عقلاً وشرعاً ومروءةً بل طبعاً، بناء على ما حكي عن بعض الحيوانات أنه لا يجامع مع أمه البتة كالفرس النجيب وغيره، ومن أتى ما نهيَ عنه فقد استحق مقت الله وطرده ﴿إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ ۚ﴾ سبق من وقوعه قبل ورود النهي ﴿إِنَّهُۥ﴾ أي نكاح منكوحة الأسلاف ﴿كَانَ﴾ صارَ ﴿فَٰحِشَةً﴾ عظيمةً من الفواحش التي منعها الشرع ﴿وَ﴾ مع ذلك ﴿مَقْتًا﴾ حرماناً وطرداً عن مرتبة الإنسانية، لذلك سمى العرب من حصل منه: المقتى، ﴿وَسَآءَ سَبِيلًا ﴿٢٢﴾﴾ لمن أتى به سبيل البعد والخذلان عن ساحة الحضور.

عصمنا الله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا.

ومن شدة شناعته وعظيم قبحه عند الله، قدمه سبحانه على جميع المحرمات ثم فرعها عليه بقوله:

﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ﴾ في دينكم ﴿أُمَّهَٰتُكُمْ﴾ أي نكاحها مطلقاً

وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ وَعَمَّاتُكُمْ وَخَالَاتُكُمْ وَبَنَاتُ الْأَخِ وَبَنَاتُ الْأُخْتِ وَأُمَّهَاتُكُمُ اللَّاتِي أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَاتُكُم مِّنَ الرَّضَاعَةِ وَأُمَّهَاتُ نِسَائِكُمْ وَرَبَائِبُكُمُ اللَّاتِي فِي حُجُورِكُم مِّن نِّسَائِكُمُ اللَّاتِي دَخَلْتُم بِهِنَّ فَإِن لَّمْ تَكُونُوا دَخَلْتُم بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَحَلَائِلُ أَبْنَائِكُمُ الَّذِينَ مِنْ أَصْلَابِكُمْ وَأَن تَجْمَعُوا بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ ۗ إِنَّ اللَّهَ ....

﴿وَبَنَاتُكُمْ﴾ أيضاً كذلك ﴿وَأَخَوَاتُكُمْ﴾ مع من يتفرع عليهن ﴿وَعَمَّاتُكُمْ﴾ أنفسهن ﴿وَخَالَاتُكُمْ﴾ أيضاً كذلك ﴿وَبَنَاتُ الْأَخِ﴾ من الأبوين أو من الأب أو من الأم ﴿وَبَنَاتُ الْأُخْتِ﴾ أيضاً كذلك ﴿وَ﴾ أيضاً حرمت عليكم ﴿أُمَّهَاتُكُمُ﴾ من الأجنبيات ﴿اللَّاتِي أَرْضَعْنَكُمْ﴾ مصةً أو مصتينَ ﴿وَ﴾ حرمت أيضاً ﴿أَخَوَاتُكُم مِّنَ الرَّضَاعَةِ﴾ إذ يحرم من الرضاع ما يحرم من النسب غالباً ﴿وَ﴾ كذا حرمت عليكم ﴿أُمَّهَاتُ نِسَائِكُمْ﴾ لحرمة المصاهرة ﴿وَ﴾ أيضاً حرمت عليكم ﴿رَبَائِبُكُمُ اللَّاتِي فِي حُجُورِكُم﴾ حال كون تلك الربائب ﴿مِّن نِّسَائِكُمُ اللَّاتِي دَخَلْتُم بِهِنَّ فَإِن لَّمْ تَكُونُوا دَخَلْتُم بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ﴾ أي لا ضيقَ ﴿عَلَيْكُمْ﴾ في تزويجهن ﴿وَ﴾ كذا حرمت عليكم في دينكم ﴿حَلَائِلُ أَبْنَائِكُمُ الَّذِينَ﴾ حصلوا ﴿مِنْ أَصْلَابِكُمْ وَ﴾ كذا حرمت عليكم ﴿أَن تَجْمَعُوا بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ﴾ في زمانٍ واحد ﴿إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ﴾ أمثال هذا منكم قبل إيمانكم فإنكم لا تؤاخذون عليه ﴿إِنَّ اللَّهَ﴾ المصلحَ لأحوالكم

كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٢٣﴾ ۞ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ۖ كِتَابَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ ۚ وَأُحِلَّ لَكُم مَّا وَرَاءَ ذَٰلِكُمْ أَن تَبْتَغُوا بِأَمْوَالِكُم مُّحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ ۚ فَمَا اسْتَمْتَعْتُم بِهِ مِنْهُنَّ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً ۚ ....

﴿كَانَ غَفُورًا﴾ لذنوبكم بعد إنابتكم واستغفاركم ﴿رَّحِيمًا ﴿٢٣﴾﴾ لكم يقبل توبتكم وإن عظمت زلتكم.

﴿۞ وَ﴾ حرمت أيضاً عليكم ﴿الْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ﴾ الأجنبيات اللاتي أحصنهن أزواجهن ﴿إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾ من المسبيات اللاتي لهن أزواجٌ كفارٌ، إذ بالسبي يرتفع النكاح، فصار تلك المحرمات ﴿كِتَابَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ أي من الأمور التي حرمه الله عليكم حتماً مقضياً ﴿وَأُحِلَّ لَكُم مَّا وَرَاءَ ذَٰلِكُمْ﴾ أي ما سوى المحرمات المذكورة، وإنما أحل لكم ما أحل ﴿أَن تَبْتَغُوا﴾ أي لأن تطلبوا ﴿بِأَمْوَالِكُم﴾ أزواجاً حلائلَ مصلحاتٍ لدينكم، صالحاتٍ لإبقاء نوعكم حال كونكم ﴿مُّحْصِنِينَ﴾ بهن دينكم ﴿غَيْرَ مُسَافِحِينَ﴾ أي مجتنبين عن الزنا المؤدي إلى إبطال حكمة الله وإفساد مصلحته ﴿فَمَا اسْتَمْتَعْتُم﴾ أي فمن انتفعتم واجتمعتم ﴿بِهِ﴾ بسبب المهر حين العقد ﴿مِنْهُنَّ﴾ أي من النساء اللاتي أحلهن الله لكم أيها المؤمنون ﴿فَآتُوهُنَّ﴾ أي فعليكم أن تدفعوا إليهن ﴿أُجُورَهُنَّ﴾ مهورهن معتقدين أداءها ﴿فَرِيضَةً﴾ أي مما فرض الله لكم في دينكم واجبةَ الأداء شرعاً وعقلاً، إذ الإفضاء إنما هو بسببه كما مر، هذا إذا كانت المرأة طالبةً كمالَ مهرها

وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا تَرَاضَيْتُم بِهِۦ مِنۢ بَعْدِ ٱلْفَرِيضَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٢٤﴾ وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلًا أَن يَنكِحَ ٱلْمُحْصَنَـٰتِ ٱلْمُؤْمِنَـٰتِ فَمِن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُكُم مِّن فَتَيَـٰتِكُمُ ٱلْمُؤْمِنَـٰتِ ۚ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَـٰنِكُم ۚ بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ ۚ فَٱنكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ وَءَاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ....

﴿وَلَا جُنَاحَ﴾ أي لا مؤاخذة ﴿عَلَيْكُمْ فِيمَا تَرَاضَيْتُم بِهِۦ﴾ من الأخذ والترك والزيادة والنقصان بعد ما حصل التراضي من الجانبين ﴿مِنۢ بَعْدِ ٱلْفَرِيضَةِ﴾ المقدرة الواجبة الأداء، هذا الحكم مما يقبل التغيير بعد المراضاة ﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾ المصلحَ لأحوال عباده ﴿كَانَ عَلِيمًا﴾ في سابق علمه بصلحهم ومراضاتهم ﴿حَكِيمًا ﴿٢٤﴾﴾ في إصدارها عنهم إصلاحاً لمعاشهم.

﴿وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلًا﴾ اقتداراً[1] وغنىً ﴿أَن يَنكِحَ﴾ به ﴿ٱلْمُحْصَنَـٰتِ﴾ المتعففات الحرائر ﴿ٱلْمُؤْمِنَـٰتِ فَمِن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُكُم﴾ أي فعليكم أن تنكحوا ﴿مِّن فَتَيَـٰتِكُمُ﴾ أي إمائكم ﴿ٱلْمُؤْمِنَـٰتِ﴾ المقرات بكلمتي الشهادة ظاهراً ﴿وَٱللَّهُ﴾ المطلع بضمائر عباده ﴿أَعْلَمُ بِإِيمَـٰنِكُمْ﴾ وإيمانهن وكفرهن وكلكم في أنفسكم أمثال أكفاء إذ ﴿بَعْضُكُم﴾ يا بني آدم قد حصل ﴿مِّنۢ بَعْضٍ﴾ والتفاضل بينكم إنما هو في علم الله وإن اضطررتم إلى نكاح الإماء ﴿فَٱنكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ﴾ أربابهن ﴿وَءَاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾ أي أعطوهن أجور مهورهن المسماة لهن بإذن أهلهن ﴿بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ إعطاءً مستحسناً عقلاً وشرعاً بلا مطلٍ وتسويفٍ واضطرارٍ وتنقيصٍ حال كونهن

(١) في المخطوط (إصداراً).

مُحْصَنَٰتٍ غَيْرَ مُسَٰفِحَٰتٍ وَلَا مُتَّخِذَٰتِ أَخْدَانٍۚ فَإِذَآ أُحْصِنَّ فَإِنْ أَتَيْنَ بِفَٰحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى ٱلْمُحْصَنَٰتِ مِنَ ٱلْعَذَابِۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِيَ ٱلْعَنَتَ مِنكُمْۚ وَأَن تَصْبِرُوا۟ خَيْرٌ لَّكُمْۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٥﴾ ....

﴿مُحْصَنَٰتٍ﴾ عفائفَ ﴿غَيْرَ مُسَٰفِحَٰتٍ﴾ زانياتٍ مجاهراتٍ غير حاجزاتٍ ﴿وَلَا مُتَّخِذَٰتِ أَخْدَانٍۚ﴾ وأخلانٍ ﴿فَإِذَآ أُحْصِنَّ﴾ وأنكحن بعد وجود الشرائط المذكورة المستحسنة[1] عند الله وعند المؤمنين ﴿فَإِنْ أَتَيْنَ﴾ بعد ما أُحصن ﴿بِفَٰحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى ٱلْمُحْصَنَٰتِ﴾ الحرائر ﴿مِنَ ٱلْعَذَابِۚ﴾ أي الذي حدّ الله لهن في كتابه سوى الرجم، إذ لا يجري التنصيف فيه لذلك لم يشرع في حد الرقيق ﴿ذَٰلِكَ﴾ أي نكاح الإماء إنما يرخص ﴿لِمَنْ خَشِيَ ٱلْعَنَتَ مِنكُمْۚ﴾ أي الوقوع في الزنا أيها المؤمنون المجتنبون عن المحرمات ﴿وَأَن تَصْبِرُوا۟﴾ أيها الفاقدون المؤمنون لوجه المعاش وترتاضوا نفوسكم بتقليل الأغذية المستمنية المثيرةِ للقوة الشهوية الموقعةِ للمهالك، وتدفعوا أمارة إثارتكم بالقاطع العقلي والواضح الشرعي، وتتمرنوا على عفة العزوبة، وتُسكنوا نار الطبيعة بقطع النظر والاتقاء عن المخاطر فهو ﴿خَيْرٌ لَّكُمْۗ﴾ من نكاح الإماء بل من نكاح أكثر الحرائر أيضاً سيما في هذا الزمان ﴿وَٱللَّهُ﴾ المطلعُ لضمائر عباده ﴿غَفُورٌ﴾ لذنوب من صَبَر ولم ينكح لقلة معاشهم ﴿رَّحِيمٌ ﴿٢٥﴾﴾ له يحفظه عن الفرطات والعثرات[2] في أمر المعاش.

عصمنا الله من المهالك المتعلقة بالمعاش بفضله وطوله.

---

(١) في المخطوط (المذكورة المستحسن).

(٢) في المخطوط (والغزات).

يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٢٦﴾ وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ ....

إنما ﴿ يُرِيدُ ٱللَّهُ ﴾ بتعيين المحرمات وبتبيين المحللات ﴿ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ ﴾ أيها المؤمنون طريق الرشد والغي والهداية والضلالة ﴿ وَيَهْدِيَكُمْ ﴾ أي يرشدكم ويوصلكم ﴿ سُنَنَ ٱلَّذِينَ ﴾ مضوا ﴿ مِن قَبْلِكُمْ ﴾ من أرباب الولاء والمكاشفات بسر التوحيد ﴿ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ ﴾ يرجعكم عن ميل المزخرفات الدنية الدنيوية ؛ ليوصلكم إلى المراتب العلية الأخروية ﴿ وَٱللَّهُ ﴾ الهادي لعباده إلى توحيده ﴿ عَلِيمٌ ﴾ بمصالحهم الموصلةِ إليه ﴿ حَكِيمٌ ﴿٢٦﴾ ﴾ في إلقائها إليهم في ضمن العظة والعبر والقصص والتواريخ والرموز والإشارات ليرتاضوا بها نفوسهم حتى تستعد قلوبهم لنزول سلطان التوحيد المفني للغير والسوى مطلقاً.

ثم كرر سبحانه ذكر التوبة والرجوع عن المزخرفات الباطلة المانعة من الوصول إلى دار السرور حثّاً للمؤمنين إليها ليفوزوا بمرتبة التوحيد بقوله:

﴿ وَٱللَّهُ ﴾ المرشدُ لكم إلى توحيده الذاتي ﴿ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ ﴾ أي يوفقكم على التوبة التي هي الرجوع عما سوى الحق مطلقاً.

ومتى انفتح عليكم باب التوبة انفتح باب الطلب المستلزم للترقي والتقرب نحو المطلوب إلى أن يتولد من الشوق المزعج إلى المحبة المفنية لغير المحبوب مطلقاً، بل نفس المحبة بل نفس المحبوب أيضاً، كما حكي عن مجنون العامري أنه وَلَهَ يوماً من الأيام واستغرق في بحر المحبة إلى أن

وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُواْ مَيْلًا عَظِيمًا ﴿٢٧﴾ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْۚ وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا ﴿٢٨﴾ ....

اضمحلت عن بصره غشاوة التعيينات مطلقاً بل ارتفع حجب الاثنينية رأساً، وفي تلك الحالة السريعة الزوال تمثل ليلى قائمة على رأسها فصاحت عليه صيحةً: عمن اشتغلت يا مجنون؟

فقال: طاب وقته وعنى على حالٍ فإن حبك شغلني عنك وعني.

ثم قال سبحانه: ﴿وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ﴾ يضلونكم عن طريق التوحيد المسقط لجميع الرسوم والعادات بوضع طرقٍ غير طريق الشرع مبتدعاً أو منسوباً إلى مبتدع وعينوا فيه اللباس والكسوة المعنية ومع ذلك ﴿يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ﴾ ويبيحون المحرمات ويرتكبون المنهيات إرادةَ ﴿أَن تَمِيلُواْ﴾ وتنحرفوا عن جادة التوحيد بأمثال هذه الخرافات والهذيانات ﴿مَيْلًا عَظِيمًا ﴿٢٧﴾﴾ وانحرافاً بليغاً لا يستقيم لهم أصلاً.

﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ﴾ المدبر لأحوالكم ﴿أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْۚ﴾ أيها المؤمنون أثقالكم التي هي سبب احتياجكم وإمكانكم ﴿وَ﴾ الحال أنه قد ﴿خُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ﴾ في مبدأ الفطرة ﴿ضَعِيفًا ﴿٢٨﴾﴾ لا يحتمل تحمل أثقال الإمكان مثل الحيوانات الأخر.

خفف عنا بفضلك ثقل الأوزار، واصرف عنا شر الأشرار بمقتضى جودك، وارزقنا عيشة الأبرار.

ثم نبّه سبحانه على المؤمنين بما يتعلق بأمور معاشهم مع بني نوعهم ليهذبوا

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَـٰطِلِ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَـٰرَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ ۚ وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴿٢٩﴾ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ....

به ظاهرهم فقال منادياً لهم ليهتموا باستماعها وامتثالها: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ بالله ورسله وكتبه عليكم أن ﴿لَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم﴾ أي بعضكم مالَ بعض بلا رخصةٍ شرعية بل ﴿بِٱلْبَـٰطِلِ﴾ ظلماً وزوراً سواء كانت سرقةً، أو غصباً، أو حيلةً منسوبة إلى الشرع افتراءً، أو رِباً، أو تلبيساً وتشيخاً كما يفعله المتشيخة، ويأخذون بسببها حطاماً كثيرةً من ضعفاء المؤمنين، واعلموا أيها المؤمنون أن مال المؤمن على المؤمن في غير العقود المتبرعة حرام ﴿إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَـٰرَةً﴾ معاملةً ومعاوضةً حاصلةً ﴿عَن تَرَاضٍ﴾ مراضاةٍ ﴿مِّنكُمْ﴾ منبعثةٍ عن اطمئنان نفوسكم عليها بلا اضطرارٍ وغَرَرٍ ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ﴾ ولا تلقوها بأيديكم في المهالك التي جرت بين أرباب المعاملات من الربا والخداع والتغرير والتلبيس وغير ذلك من أنواع الحيل؛ حتى لا تنحطوا عن مرتبتكم الأصلية ومنزلتكم الحقيقية التي هي مرتبة العدالة، إذ لا خسران أعظم من الحرمان منها، أدركنا بلطفك يا خفي الألطاف، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾ المنبهَ عليكم بأمثال هذه التدبيرات الصادرة عن محض الحكمة والمصلحة ﴿كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴿٢٩﴾﴾ مشفقاً عليكم، مريداً إيصالكم إلى ما خلقكم لأجله وأوجدكم لحصوله.

﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ﴾ أي ما يحذر عنه من المهالك ويمقت نفسه بالعرض

﴿عُدْوَٰنًا وَظُلْمًا فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَارًا ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿٣٠﴾ إِن تَجْتَنِبُوا۟ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا ﴿٣١﴾﴾ ....

عليها لا عن جهلٍ ساذجٍ بل عن جهلٍ مركبٍ اعتقدها حقاً ﴿عُدْوَٰنًا﴾ مجاوزاً مائلاً عن الحق إصراراً ﴿وَظُلْمًا﴾ خروجاً وميلاً عن طريق الشرع الموضحِ سبيلِ التوحيد ﴿فَسَوْفَ﴾ ننتقم عنه في يوم الجزاء ﴿نُصْلِيهِ﴾ ندخله ﴿نَارًا﴾ حرماناً دائماً عن ساحة عز الحضور وطرداً سرمدياً عن فضاء السرور، بك نعتصم يا ذا القوة المتين ﴿وَ﴾ لا تغفلوا أيها المنهمكون للاقتحام في المهالك المتعلقة لأمر المعاش عن انتقام الله القادر القدير الغيور إياكم، ولا تعتقدوا عسره بالنسبة إليه إذ ﴿كَانَ ذَٰلِكَ﴾ الانتقام عن تلك الآثام ﴿عَلَى ٱللَّهِ﴾ الميسرِ لكل عسيرٍ ﴿يَسِيرًا ﴿٣٠﴾﴾ وإن استعسرتم في نفوسكم، إذ لا راد لإرادته ولا معقب لحكمه، يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد.

ثم قال سبحانه امتناناً على المؤمنين تفضلاً وإشفاقاً وجذباً من جانبه:

﴿إِن تَجْتَنِبُوا۟﴾ وتجوزوا[1] أيها المحبوسون في مهادي الإمكان ومضيق الحدثان ﴿كَبَآئِرَ﴾ أعاظم ﴿مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ﴾ وهي الشرك بالله بأنواعه من إثبات الوجود لغيره وإسناد الحوادث إلى الأسباب وغير ذلك ﴿نُكَفِّرْ﴾ نمحو ونتجاوز ﴿عَنكُمْ﴾ تفضلاً عليكم ﴿سَيِّـَٔاتِكُمْ﴾ خطاياكم اللاحقة لنفوسكم من لوازم بشريتكم ومقتضى طبيعتكم ﴿وَ﴾ بعد ما غفرناكم ﴿نُدْخِلْكُم﴾ بمحض جودنا ولطفنا ﴿مُّدْخَلًا كَرِيمًا ﴿٣١﴾﴾ هو فضاء التوحيد

(١) من المجاوزة والترك.

وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بِهِۦ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍۚ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبُوا۟

الذي ليس فيه هواءٌ ولا ماءٌ ولا غدوٌ ولا مساءٌ، بل فيها إفناءٌ[1] وبقاءٌ ولقاءٌ، لا يذوقون فيها الموت إلا الموتة الأولى.

وفِّقْنا بكرمك وجودك لما تحبه عنا وترضى.

﴿وَ﴾ من مقتضى إيمانكم أيها المؤمنون المحمديون المتوجهون نحو توحيد الذات من محجة الفناء والرضا بما نفذ عليه القضاء فعليكم أن ﴿لَا تَتَمَنَّوْا۟﴾ تمني المتحسر المتأسف حصولَ ﴿مَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بِهِۦ﴾ في النشأة الأولى ﴿بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍۚ﴾ من الجاه والمال والمكانة الرفيعة في عالم الصورة، إذ هي ابتلاءٌ واختبارٌ لهم وفتنةٌ تبعدهم عن طريق الفناء، وتوقعهم في التكثر والتشتت، والموحدون المحمديون لا بدّ لهم أن يقتفوا أثر نبيهم ﷺ في ترك الدنيا وعدم الالتفات نحوها، إلا ستر عورة وسد جوعة، إذ الإضافة والتمليك مطلقاً مخلٌّ بالتوحيد، والغنى المطغي[2] جالبٌ للعذاب الأخروي.

ربنا اصرف عنا عذاب جهنم إن عذابها كان غراماً.

واعلموا أيها المحمديون السالكون سبيل الفناء لتفوزوا بجنة البقاء إن لكم عند ربكم درجاتٍ ومداخلَ متفاوتةٍ بتفاوت استعدادتكم المترتبة على ترتيب الأسماء والصفات الإلهية إذ ﴿لِّلرِّجَالِ﴾ أي للذكور الكمّل لكلٍ منكم على تفاوت طبقاتهم ﴿نَصِيبٌ﴾ حظٌّ من التوحيد الذاتي هو مقرهم وغاية مقصدهم حاصلٌ لهم ﴿مِّمَّا ٱكْتَسَبُوا۟﴾ من الرياضات والمجاهدات

(١) في المخطوط (الإفناء).

(٢) في المخطوط (الفنا).

﴿وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبْنَ ۚ وَسْـَٔلُوا۟ ٱللَّهَ مِن فَضْلِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴿٣٢﴾ وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَٰلِىَ مِمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ ۚ وَٱلَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَـٰنُكُمْ فَـَٔاتُوهُمْ نَصِيبَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدًا ﴿٣٣﴾﴾ ....

المعدّة لفيضان المكاشفات والمشاهدات ﴿وَ﴾ كذا ﴿لِلنِّسَآءِ﴾ منكم مع تفاوت طبقاتهن ﴿نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبْنَ﴾ في تلك الطريق إذ كلٌّ ميسرٌ لما خلق له، وعليكم التوجه نحو مقصدكم ﴿وَسْـَٔلُوا۟ ٱللَّهَ مِن فَضْلِهِۦٓ﴾ يا عباده لييسر لكم ما يعينكم ويجنبكم عما لا يعنيكم ويغويكم ﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾ الميسر لأمور عباده ﴿كَانَ بِكُلِّ شَىْءٍ﴾ مما صدر عنهم من صلاحٍ وفسادٍ ﴿عَلِيمًا ﴿٣٢﴾﴾ بعلمه الحضوري، يصلح لهم وييسر عليهم الهدى بقدر استعداداتهم وقابلياتهم.

ثم قال سبحانه:

﴿وَلِكُلٍّ﴾ من الأسلاف الذين مضوا ﴿جَعَلْنَا﴾ عن محض جودنا وحكمتنا ﴿مَوَٰلِىَ﴾ أخلافاً يولونهم ويوالونهم ويأخذون ﴿مِمَّا﴾ أي من الأموال التي ﴿تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ﴾ ﴿وَ﴾ كذا مما ترك ﴿الأقْرَبُونَ﴾ من ذوي الأرحام ﴿وَ﴾ كذا من متروكات ﴿ٱلَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَـٰنُكُمْ﴾ بالنكاح والزواج على الوجه المشروع ﴿فَـَٔاتُوهُمْ﴾ أيها الحكام ﴿نَصِيبَهُمْ﴾ أي نصيب كل من الولاة على الوجه المفروض ﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾ المدبرَ لمصالح عباده ﴿كَانَ﴾ في سابق علمه ﴿عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ﴾ من الحوادث الكائنة ﴿شَهِيدًا ﴿٣٣﴾﴾ حاضراً مطلقاً.

ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعۡضَهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ وَبِمَآ أَنفَقُواْ مِنۡ أَمۡوَٰلِهِمۡۚ فَٱلصَّٰلِحَٰتُ قَٰنِتَٰتٌ حَٰفِظَٰتٞ لِّلۡغَيۡبِ بِمَا حَفِظَ ٱللَّهُۚ وَٱلَّٰتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَٱهۡجُرُوهُنَّ فِي ٱلۡمَضَاجِعِ وَٱضۡرِبُوهُنَّۖ فَإِنۡ أَطَعۡنَكُمۡ ....

ثم نبه سبحانه على تفضيل:

﴿ٱلرِّجَالُ﴾ المعتدلة المزاج المستقيمة العقول ﴿قَوَّٰمُونَ﴾ حافظون ﴿عَلَى ٱلنِّسَآءِ﴾ إذ لا بد لهن لضعفهن من حفيظٍ يرقيهن عما يشتهين صيانةً لعفتهن ﴿بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ﴾ به ﴿بَعۡضَهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ﴾ أي بعض بني آدم على بعض، وهو الحمية المنبعثة من كمال العقل ﴿وَبِمَآ أَنفَقُواْ﴾ لهن ﴿مِنۡ أَمۡوَٰلِهِمۡۚ﴾ التي حصلت لهم من مكاسبهم ﴿فَٱلصَّٰلِحَٰتُ﴾ العفائف من النساء ﴿قَٰنِتَٰتٌ﴾ مطيعاتٌ لأزواجهن، خادماتٌ لهم ظاهراً ﴿حَٰفِظَٰتٞ لِّلۡغَيۡبِ﴾ أي لحقوقهم المخفية الباطنة عنهم، تابعاتٌ ممتثلاتٌ ﴿بِمَا حَفِظَ ٱللَّهُ﴾ لهن من رعاية أزواجهن وعدم الخيانة في حقوقهم ﴿وَ﴾ النساء ﴿ٱلَّٰتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ﴾ عصيانهن وعدم حفظهن بحقوق الزواج من أماراتٍ ظهرت منهن ﴿فَعِظُوهُنَّ﴾ أي فعليكم أيها الأزواج أن تعظوهن رفقاً بما وعظ الله لهن من رعاية حقوق الله وحقوق الأزواج لعلهن يفطن ويتركن ما عليهن ﴿وَ﴾ إن لم يتركن ﴿ٱهۡجُرُوهُنَّ﴾ اتركوهن ﴿فِي ٱلۡمَضَاجِعِ﴾ وحيدةً فلا ترجعوا إليهن، بل اعتزلوا عنهن لعلهن يتأثرن بها، ﴿وَ﴾ إن لم يتأثرن بها أيضاً ﴿ٱضۡرِبُوهُنَّ﴾ ضرباً مؤلماً غير متجاوزٍ عن الحد ﴿فَإِنۡ أَطَعۡنَكُمۡ﴾

فَلَا تَبْغُوا۟ عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا ﴿٣٤﴾ وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَٱبْعَثُوا۟ حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِۦ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَآ إِن يُرِيدَآ إِصْلَـٰحًا يُوَفِّقِ ٱللَّهُ بَيْنَهُمَآ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا ﴿٣٥﴾ ۞ وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ ....

بامتثال هذه التأديبات ﴿فَلَا تَبْغُوا۟﴾ لا تطلبوا ﴿عَلَيْهِنَّ﴾ لطلاقهن وإخراجهن ﴿سَبِيلًا ۗ﴾ استعلاءً وترفعاً ﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾ المصلحَ لأحوال عباده ﴿كَانَ عَلِيًّا﴾ في شأنه ﴿كَبِيرًا ﴿٣٤﴾﴾ في أحكامه، لا يُنازَع في حكمه، ولا يُسأل عن أمره.

﴿وَإِنْ﴾ تطاولت الخصومة والنزاع بينهما حتى ﴿خِفْتُمْ﴾ وظننتم أيها الحكام ﴿شِقَاقَ بَيْنِهِمَا﴾ وآيستم عن المصالحة والوفاق ﴿فَٱبْعَثُوا۟﴾ أي فعليكم أيها الحكام أن تبعثوا ﴿حَكَمًا﴾ مصلحاً ذا رأيٍ ﴿مِّنْ أَهْلِهِۦ﴾ أي من أقاربه ﴿وَحَكَمًا﴾ مثل ذلك ﴿مِّنْ أَهْلِهَآ﴾ ليصيرا وكيلين عنهما يصلحا[1] صلاحاً وطلاقاً وخلعاً وفداءً ثم ﴿إِن يُرِيدَآ﴾ أي الحكمان ﴿إِصْلَـٰحًا﴾ لأمرهما ورفعاً لنزاعهما ﴿يُوَفِّقِ ٱللَّهُ بَيْنَهُمَآ ۗ﴾ إن رضيا بمصالحتهما، وإلا فليرفعا عقد النكاح بينهما على أيِّ طريقٍ كان ﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾ المطلع لضمائر عباده ﴿كَانَ عَلِيمًا﴾ بنزاعهما ابتداءً ﴿خَبِيرًا ﴿٣٥﴾﴾ بما يؤول إليه النزاع.

﴿۞ وَ﴾ بعد ما هذبتم ظواهركم أيها المؤمنون بهذه الأخلاق ﴿ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ﴾ الموحدَ في ذاته ووجوده، المستقلَ في افعاله وآثاره المترتبة على أوصافه الذاتية ﴿وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ﴾ من مصنوعاته أي لا تثبتوا الوجود

---

(١) في المخطوط (مصلحاً..).

وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا وَبِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ وَٱلصَّاحِبِ بِٱلْجَنۢبِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا ﴿٣٦﴾ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ ....

والأثر لغيره، إذ الأغيار مطلقاً معدومةٌ في أنفسها، مستهلكةٌ في ذاته سبحانه ﴿وَ﴾ افعلوا ﴿بِالْوالِدَيْنِ﴾ اللذين هما سبب ظهوركم عادةً ﴿إِحْسَٰنًا﴾ قولاً وفعلاً ﴿وَ﴾ أيضاً ﴿بِذِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ المنتمين إليهما بواسطتهما ﴿وَ﴾ أيضاً ﴿ٱلْيَتَٰمَىٰ﴾ الذين لا متعهد لهم من الرجال ﴿وَٱلْمَسَٰكِينِ﴾ الذين أسكنهم الفقر في زاوية الهوان ﴿وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ هم الذين لهم قرابةُ جوارٍ بحيث يقع الملاقاة في كل يومٍ مرتين ﴿وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ﴾ هم الذين لهم بُعد جوار، بحيث لا يقع التلاقي إلا بعد يوم أو يومين أو ثلاثة، ﴿وَ﴾ عليكم رعاية ﴿الصَّاحِبِ بِٱلْجَنۢبِ﴾ أي الذي معكم وفي جنبكم في السراء والضراء يصاحبكم ويعينكم[1] ﴿وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ المتباعدين عن الأهل والوطن لمصالح دينية، مثل طلب العلم وصلة الرحم وحج البيت وغير ذلك ﴿وَ﴾ أيضاً من أهم المأمورات لكم رعاية ﴿مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ ۗ﴾ من العبيد والإماء والحيوانات المنسوبة إليكم، وعليكم أن لا تتكبروا على هؤلاء المستحقين حين الإحسان، ولا تتفوقوا عليهم بالامتنان ﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾ المتعزز برداء العظمة والكبرياء ﴿لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا﴾ متكبراً يمشي على الناس خيلاءَ ﴿فَخُورًا ﴿٣٦﴾﴾ بفضله وماله أو نسبه وهم:

﴿ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ﴾ من أموالهم التي استخلفهم الله عليها معللين بأنا لم نجد فقيراً

(١) في المخطوط (يعين عليكم).

وَيَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبُخْلِ وَيَكْتُمُونَ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۗ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَـٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿٣٧﴾ وَٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ ۗ وَمَن يَكُنِ ٱلشَّيْطَـٰنُ لَهُۥ قَرِينًا فَسَآءَ قَرِينًا ﴿٣٨﴾ ....

متديناً يستحق الصدقة[1]، ﴿وَ﴾ مع بخلهم في أنفسهم ﴿يَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ﴾ أيضاً ﴿بِٱلْبُخْلِ﴾ لئلا يلحق العار عليهم خاصةً ﴿وَ﴾ مع ذلك ﴿يَكْتُمُونَ﴾ من الحكام والعَمَلة ﴿مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾ من الأموال خوفاً من إخراج الزكاة والصدقات، ومن عظم جرم هؤلاء الخيلاء البخلاء، أسند سبحانه انتقامهم إلى نفسه وغير الأسلوب فقال: ﴿وَأَعْتَدْنَا﴾ أي هيأنا من غاية قهرنا وانتقامنا ﴿لِلْكَـٰفِرِينَ﴾ لنعمنا كفراناً ناشئاً عن محض النفاق والشقاق ﴿عَذَابًا﴾ طرداً وحرماناً مؤلماً وتخذيلاً وإذلالاً ﴿مُّهِينًا ﴿٣٧﴾﴾.

﴿وَ﴾ منهم بل أسوأ حالاً: ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ﴾ لا لامتثال[2] أمر الله وطلب رضاه بل ﴿رِئَآءَ ٱلنَّاسِ﴾ ليعتقدوا لهم ويكسبوا الجاه والرئاسة بسبب اعتقادهم ﴿وَ﴾ مع هذا الوهم المزخرف ﴿لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾ الرحيم التوابِ الكريم الوهابِ ﴿وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ﴾ المعدِّ لجزاء العصاة الغواة حتى يتوب عليهم ويغفر زلتهم وهم من جنود الشيطان وقرنائه ﴿وَمَن يَكُنِ ٱلشَّيْطَـٰنُ لَهُۥ قَرِينًا﴾ يحمله على أمثال هذه الأباطيل الزائفة ويوقعه في المهاوي الهائلة ﴿فَسَآءَ﴾ الشيطان ﴿قَرِينًا ﴿٣٨﴾﴾ أيها المتوجهون إلى الله،

---

(١) في المخطوط (يستحق بالصدقة).

(٢) في المخطوط (لامتثال أمر الله).

وَمَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقَهُمُ ٱللَّهُ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِهِمْ عَلِيمًا ﴿٣٩﴾ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ ۖ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَٰعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٤٠﴾ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا ....

الراغبون عما سواه، فعليكم أن تجتنبوا عن غوائله.

ثم قال سبحانه توبيخاً لهم وتنبيهاً لغيرهم:

﴿ وَمَاذَا ﴾ يعرض ﴿عَلَيْهِمْ ﴾ ويلحق لهم من المكروه ﴿لَوْ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ ﴾ المتوحدِ في الألوهية، المتفردِ بالقيومية ﴿وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ﴾ المعدِّ ليرى فيه كلٌ جزاء ما عمل من خير وشر ﴿وَأَنفَقُوا۟﴾ ما أنفقُوا ﴿مِمَّا رَزَقَهُمُ ٱللَّهُ ۚ﴾ خالصاً لرضاه بلا شوب المن والأذى والسمعة والرياء ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ﴾ المطلعُ ﴿ بِهِمْ﴾ وبجميع أحوالهم ﴿عَلِيمًا ﴿٣٩﴾﴾ بضمائرهم، لا يعزب عن علمه شيء مما كان ويكون. وكيف يعزب عن علمه شيءٌ من أحوالهم.

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ ﴾ المجازي لأعمالهم ﴿لَا يَظْلِمُ﴾ عليهم ولا ينقص من أجورهم ﴿مِثْقَالَ ﴾ مقدار أجر ﴿ذَرَّةٍ ۖ﴾ صغيرةٍ قريبةٍ من العدم جداً ﴿وَإِن تَكُ ﴾ تلك الذرة ﴿حَسَنَةً ﴾ صادرةً عنهم مقارنةً بالإخلاص ﴿يُضَٰعِفْهَا ﴾ حسب فضله وطَوله إلى سبعة بل إلى سبعين بل إلى ما شاء الله ﴿وَ﴾ مع تضعيفها ﴿يُؤْتِ﴾ للمخلصين ﴿مِن لَّدُنْهُ ﴾ امتناناً عليهم وتفضيلاً ﴿ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٤٠﴾﴾ هو الفوز بمقام الكشف والشهود.

آتنا من لدنك رحمة إنك أنت الوهاب.

﴿ فَكَيْفَ ﴾ لا تفوزون أنتم أيها المحمديون ما تفوزون، أنا ﴿إِذَا جِئْنَا ﴾

مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰؤُلَآءِ شَهِيدًا ﴿٤١﴾ يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَعَصَوُاْ ٱلرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّىٰ بِهِمُ ٱلْأَرْضُ وَلَا يَكْتُمُونَ ٱللَّهَ حَدِيثًا ﴿٤٢﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقْرَبُواْ ٱلصَّلَوٰةَ ....

في يوم الجزاء ﴿مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ﴾ نبيٍ مرسلٍ إليهم ومُهْدٍ لهم إلينا بإذنٍ منا بطريقٍ مخصوصٍ ﴿وَجِئْنَا بِكَ﴾ يا أكمل الرسل الجامع لجميع المراتب والطرق من توحيد الصفات والأفعال ﴿عَلَىٰ هَٰؤُلَآءِ﴾ الأمناء الخلصِ ﴿شَهِيدًا ﴿٤١﴾﴾ أرشدتهم إلينا بالدين الناسخ لجميع الأديان.

﴿يَوْمَئِذٍ﴾ أي يوم إذ جئنا بك شهيداً على المؤمنين ﴿يَوَدُّ﴾ يحب ويتمنى ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ بالله ﴿وَعَصَوُاْ ٱلرَّسُولَ﴾ الأميَّ المبعوثَ إلى كافة الأنام بدين الإسلام أن ﴿لَوْ تُسَوَّىٰ﴾ تُغطى ﴿بِهِمُ ٱلْأَرْضُ﴾ في تلك الساعة، وصاروا نسياً منسياً لكان خيراً لهم من المذلة التي عُرضت لهم في تلك الحالة ﴿وَلَا يَكْتُمُونَ ٱللَّهَ حَدِيثًا ﴿٤٢﴾﴾ أي لا يمكن كتمان حديثِ نفوسهم بهذا من الله في تلك الحالة، فكيف كتمان أعمالهم الصادرة عنهم.

ثم لما حضر بعض المؤمنين المسجد لأداء الصلاة سكارى حين إباحة الخمر، وغفلوا عن أداء بعض أركانها وتعديلها، وغلطوا في القراءة وحفظ الترتيب، نبه سبحانه عليهم ونهاهم أن لا تبادروا إلى المساجد قبل أن تفيقوا، فقال منادياً ليقبلوا:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ مقتضى إيمانكم حفظ الآداب سيما عند التوجه نحو الحق فعليكم أن ﴿لَا تَقْرَبُواْ﴾ ولا تتوجهوا ﴿ٱلصَّلَوٰةَ﴾ أي لأداء

وَأَنتُمْ سُكَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُواْ مَا تَقُولُونَ وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِى سَبِيلٍ حَتَّىٰ تَغْتَسِلُواْ وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَوْ عَلَىٰ..

الصلاة هي عبارةٌ عن التوجه نحو الذات الإلهية بجميع الأعضاء والجوارح، المقارنِ بالخضوع والخشوع، المنبئِ عن الاعتراف بالعبودية والإذلال، المشعرِ عن العجز والتقصير، فلا بد لأدائها من فراغ الهم وخلاء الخاطر عن أدناس الطبيعة مطلقاً ﴿وَ﴾ خصوصاً ﴿أَنتُمْ﴾ في أدائها ﴿سُكَٰرَىٰ﴾ لا تعلمون ما تفعلون وما تقرؤون بل اصبروا ﴿حَتَّىٰ﴾ تفيقوا ﴿تَعْلَمُواْ مَا تَقُولُونَ﴾ وما تفعلون في أدائها من محافظة الأركان والأبعاض والأركان والهيئات وغير ذلك ﴿وَ﴾ عليكم أيضاً أن ﴿لَا﴾ تقربوا الصلاة ﴿جُنُبًا﴾ حالة كونكم مجنبين بأي طريقٍ كان، إذ استفراغ المني إنما هو من استيلاء القوة الشهوية التي هي أقوى القوى الحيوانية وأبعدها عن مرتبة الإيمان والتوحيد، وحين استيلائها تسري خباثتها إلى جميع الأعضاء الحاملة للقوى الدراكة وتعطلها عن مقتضياتها بالمرة، فحينئذٍ تتحير الأمزجة[1] وتضطرب، لانحرافها عن اعتدال الفطرة الأصلية بعروض الخبائه السارية، فتكون الخباثة أيضاً كالسكر من مخلات العقل، فعليكم أن لا تقربوها معه ﴿إِلَّا﴾ إذا كنتم ﴿عَابِرِى سَبِيلٍ﴾ أي على متنِ سفرٍ ليس لكم قدرة استعمال الماء لفقده أو لوجود المانع، فعليكم أن تتيمموا وتصلوا جنباً ﴿حَتَّىٰ تَغْتَسِلُواْ﴾ وتتمكنوا من استعماله ﴿وَ﴾ كذا ﴿إِن كُنتُم﴾ مقيمين ﴿مَّرْضَىٰٓ﴾ تخافون من شدة المرض في استعماله ﴿أَوْ﴾ راكبين ﴿عَلَىٰ﴾ متنِ

(١) في المخطوط (فحين يتخير الأمزجة يضطرب).

سَفَرٍ أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ أَوْ لَٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمْ تَجِدُواْ مَآءً فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدًا طَيِّبًا فَٱمْسَحُواْ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا ﴿٤٣﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يَشْتَرُونَ ٱلضَّلَٰلَةَ ....

﴿سَفَرٍ أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ﴾ أي من الخلاء محدثين ﴿أَوْ لَٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ﴾ أي جامعتم معهن أو لعبتم بهن بالملامسة والمساس ﴿فَلَمْ تَجِدُواْ﴾ في هذه الصورة ﴿مَآءً﴾ لإزالة ما عرض عليكم من الجنابة ﴿فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدًا طَيِّبًا﴾ أي فعليكم أن تقصدوا عند عروض هذه الحالات بالتراب الطيب من صعيد الأرض بأن تضربوا أيديكم عليها، وبعدما ضربتم ﴿فَٱمْسَحُواْ﴾ باليدين المغبرتين ﴿بِوُجُوهِكُمْ﴾ مقدار ما يغسل ﴿وَأَيْدِيكُمْ ۗ﴾ أيضاً كذلك جبراً لما فوِّتُم من الغسل بالماء، إذ التراب من المطهرات خصوصاً من الصعيد المرتفع ﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾ المصلح لأحوالكم ﴿كَانَ عَفُوًّا﴾ لكم مجاوزاً عن أمثاله ﴿غَفُورًا ﴿٤٣﴾﴾ يستر عنكم ولا يؤاخذكم عليها إن كنتم مضطرين فيها، بل يجازيكم خيراً تفضلاً وامتناناً.

ثم قال سبحانه مستفهماً مخاطباً لمن يتأتى منه الرؤية عن حرمان بعض المعاندين عن هداية القرآن:

﴿أَلَمْ تَرَ﴾ أيها الرائي ﴿إِلَى﴾ قبح صنيع القوم ﴿ٱلَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبًا﴾ حظاً ﴿مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ الجامع لجميع الكتب الهادي للكل لكونهم موجودين عند نزوله، سامعين الدعوة، فممن أنزل إليه ﷺ كيف يحرمون أنفسهم عن الهداية إلى حيث ﴿يَشْتَرُونَ﴾ يختارون لأنفسهم ﴿ٱلضَّلَٰلَةَ﴾ بدل هدايته

وَيُرِيدُونَ أَن تَضِلُّواْ ٱلسَّبِيلَ ﴿٤٤﴾ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِأَعۡدَآئِكُمۡۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَلِيّٗا وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ نَصِيرٗا ﴿٤٥﴾ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ يُحَرِّفُونَ ٱلۡكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ وَيَقُولُونَ سَمِعۡنَا وَعَصَيۡنَا وَٱسۡمَعۡ غَيۡرَ مُسۡمَعٖ وَرَٰعِنَا ....

﴿وَ﴾ مع ذلك لا يقتصرون عليه بل ﴿يُرِيدُونَ أَن تَضِلُّواْ﴾ ترتدوا ويُظْلِمُوا عليكم أيها المؤمنون ﴿ٱلسَّبِيلَ ﴿٤٤﴾﴾ الواضحَ الموصلَ إلى زلال الهداية بإلقاء الشبه الزائفة في قلوب ضعفائكم وإظهار التكذيب وادعاء المخالفة بينك وبين الكتب المتقدمة.

ولا تغتروا أيها المؤمنون بودادتهم وتملقهم ولا تتخذوهم أولياء إذ هم أعداء لكم ﴿وَٱللَّهُ﴾ الرقيب عليكم ﴿أَعۡلَمُ﴾ منكم ﴿بِأَعۡدَآئِكُمۡۚ﴾ فعليكم أن تفوضوا أموركم كلها إليه والتجئوا نحوه واستنصروا منه ليدفع بلطفه مؤونة شرورهم ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَلِيّٗا﴾ أي كفى الله ولياً للأولياء ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ نَصِيرٗا ﴿٤٥﴾﴾ لهم ينصرهم على الأعداء بأن يغلبهم عليهم وينتقم منهم خصوصاً.

﴿مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ﴾ نُسبوا إلى اليهودية وسموا به، وهم من غاية بغضهم مع الرسول ﷺ يدّعون مخالفة القرآن بجميع الكتب السالفة لذلك ﴿يُحَرِّفُونَ﴾ ويغيرون ﴿ٱلۡكَلِمَ﴾ المنزلة في التوراة في شأن القرآن وشأن بعثة [سيدنا] محمد ﷺ ﴿عَن مَّوَاضِعِهِۦ﴾ التي وضعها الحق سبحانه بل يستبدلونها لفظاً ومعنى مراءً ومجادلة ﴿وَيَقُولُونَ﴾ حين دعاهم الرسول إلى الإيمان: ﴿سَمِعۡنَا﴾ قولك ﴿وَعَصَيۡنَا﴾ أمرك ﴿وَٱسۡمَعۡ﴾ منا في أمر الدين كلاماً ﴿غَيۡرَ مُسۡمَعٖ﴾ لك من أحد ﴿وَرَٰعِنَا﴾ لتستفيد منا وإنما يقصدون

لَيًّا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِي الدِّينِ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاسْمَعْ وَانظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَٰكِن لَّعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٤٦﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ آمِنُوا بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُم مِّن قَبْلِ أَن نَّطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَىٰ أَدْبَارِهَا ....

بأمثال هذه المزخرفات الباطلة ﴿لَيًّا﴾ إعراضاً وصرفاً للمؤمنين ﴿بِأَلْسِنَتِهِمْ﴾ عما توجهوا نحوه من التوحيد والإيمان إلى ما تشتهيه نفوسهم ﴿وَ﴾ يريدون أن توقعوا بها ﴿طَعْنًا فِي الدِّينِ﴾ القويم والشرع المستقيم ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ﴾ من أهل الهداية ولهم نصيبٌ منها ﴿قَالُوا﴾ حين دعاهم الرسول ﷺ إلى الإسلام: ﴿سَمِعْنَا﴾ قولك ﴿وَأَطَعْنَا﴾ أمرك ﴿وَاسْمَعْ﴾ من ربك من الأحكام واسمع إيانا ﴿وَانظُرْنَا﴾ بنظر الشفقة والمرحمة حتى نسترشد منك ونستهدي ﴿لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ﴾ في أولاهم وأخراهم ﴿وَأَقْوَمَ﴾ أي أعدل سبيلاً إلى التوحيد والإيمان ﴿وَلَٰكِن لَّعَنَهُمُ اللَّهُ﴾ أي طردهم عن عز حضوره في سابق علمه ﴿بِكُفْرِهِمْ﴾ المركوز في جبلتهم ﴿فَلَا يُؤْمِنُونَ﴾ منهم ﴿إِلَّا قَلِيلًا ﴿٤٦﴾﴾ استثناهم الله سبحانه في سابق علمه.

ثم ناداهم سبحانه وأوعدهم رجاء أن يتنبهوا بقوله:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾ أي التوراة ﴿آمِنُوا بِمَا﴾ أي بالكتاب الجامع الذي ﴿نَزَّلْنَا﴾ من غاية فضلنا وجودنا على محمد ﷺ مع كونه ﴿مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُم﴾ أي لكتابكم ﴿مِّن قَبْلِ أَن نَّطْمِسَ وُجُوهًا﴾ أي تمحو وتضمحل مراتب إنسانيتكم وإدراككم مطلقاً ﴿فَنَرُدَّهَا عَلَىٰ أَدْبَارِهَا﴾ قهقرى

أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّآ أَصْحَٰبَ ٱلسَّبْتِ ۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا ﴿٤٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفْتَرَىٰٓ إِثْمًا عَظِيمًا ﴿٤٨﴾ ....

إلى المراتب الأنزل الأرذل قبل وصولكم إلى مرتبة الكمال ﴿أَوْ نَلْعَنَهُمْ﴾ نطردهم عن ساحة عز الوجوب إلى مضيق الإمكان ﴿كَمَا لَعَنَّآ﴾ مسخنا ﴿أَصْحَٰبَ ٱلسَّبْتِ ۚ﴾ لمخالفتهم الأمر الوجوبي بافتراء الحيلة عن لوازم الإنسانية مطلقاً، ورددناهم إلى أخس المراتب، ﴿وَ﴾ لا تستبعدوا من الله القادر المقتدر على جميع ما يشاء أمثال هذا الطرد والإدبار إذ ﴿كَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ﴾ أي إرادته المتعلقة بتكوين أمره ﴿مَفْعُولًا ﴿٤٧﴾﴾ مقتضياً البتة بلا تخفف.

ثم قال سبحانه:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾ المتعززَ برداء العظمة والكبرياء، المتفردَ بالمجد والبهاء ﴿لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ﴾ أي لا يستر ولا يعفو عن انتقام الشرك به بإثبات الوجود لغيره ﴿وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ﴾ من الكبائر والصغائر ﴿لِمَن يَشَآءُ ۚ﴾ من التائبين وغيرهم، ثم قال سبحانه تأكيداً وتحقيقاً: ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ﴾ الواحد الأحد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد، شيئاً من مظاهره بادعاء الوجود له أصالةً استقلالاً ﴿فَقَدِ ٱفْتَرَىٰٓ﴾ على الله واكتسب لنفسه ﴿إِثْمًا عَظِيمًا ﴿٤٨﴾﴾ لا مخلص له عنه.

نعوذ بك ونستغفرك من أن نشرك بك شيئاً ونحن نعلم، ونستغفرك لما لا نعلم، إنك أنت علام الغيوب.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُم ۚ بَلِ اللَّهُ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٤٩﴾ انظُرْ كَيْفَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ ۖ وَكَفَىٰ بِهِ إِثْمًا مُّبِينًا ﴿٥٠﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ ....

﴿أَلَمْ تَرَ﴾ أيها الرائي ﴿إِلَى الَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُم﴾ بألسنتهم وألبستهم رياءً وسمعةً ويفتخرون بها ويباهون عليها، كيف وطّنوا أنفسهم بهذا المزخرف الباطل ولم يتفطنوا أن العبد قلّ ما يخلو عن الشرك الجلي فضلاً عن الخفي، ولا تليق التزكية للعبد مطلقاً سواء يزكي نفسه أو غيره ﴿بَلِ اللَّهُ﴾ المطلعُ لأحوال عباده ﴿يُزَكِّي﴾ بفضله ﴿مَن يَشَاءُ﴾ من عباده والمراؤون المزكون لنفوسهم قولاً بلا توافق أحوالهم وأعمالهم على مقالهم يعاقبون عليها ﴿وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٤٩﴾﴾ أي لا يزاد على انتقام ما اقترحوا مقدار حبل النواة، وهو مثلٌ في الصغر والحقارة.

﴿انظُرْ﴾ أيها الرائي ﴿كَيْفَ يَفْتَرُونَ﴾ أولئك[1] المراؤون المزكون نفوسهم ﴿عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ﴾ بادعائهم تزكية الله إياهم ترويجاً لما عليه نفوسهم من التلبيس ﴿وَكَفَىٰ بِهِ﴾ هذا الافتراء ﴿إِثْمًا مُّبِينًا ﴿٥٠﴾﴾ ظاهراً موجباً لانتقامٍ عظيم من الله .

﴿أَلَمْ تَرَ﴾ أيها الرائي ﴿إِلَى الَّذِينَ﴾ يدعون أنهم ﴿أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ﴾ علم ﴿الْكِتَابِ﴾ أي التوراة المبينِ لطريق التوحيد الموضح لسبيله كيف ﴿يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ﴾ أي الصنمِ الذي لا خير يرجى منه ولا شر، ولا نفع ولا ضر ﴿وَالطَّاغُوتِ﴾ التي هي الأراء الباطلة والأهوية الفاسدة المؤديةُ

---

(١) في المخطوط (تلك).

وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ هَٰٓؤُلَآءِ أَهۡدَىٰ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ سَبِيلًا ﴿٥١﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُۖ وَمَن يَلۡعَنِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ نَصِيرًا ﴿٥٢﴾ أَمۡ لَهُمۡ نَصِيبٞ مِّنَ ٱلۡمُلۡكِ فَإِذٗا لَّا يُؤۡتُونَ ٱلنَّاسَ نَقِيرًا ﴿٥٣﴾ أَمۡ يَحۡسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦۖ ..

إلى الكفر والزندقة والإلحاد عن طريق الرشاد، ولو أنهم في أهل التوحيد ولهم نصيبٌ من اكتساب النازل من عند الله لتبيينه وتعليم طريقه، لما آمنوا بالأباطيل الزائفة الفاسدة المضلةِ عن طريق الحق والصراط المستقيم ومع ضلالهم في أنفسهم يريدون إضلال غيرهم ﴿وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ أي في حق ضعفائهم وأتباعهم: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ﴾ الضعفاء من إخواننا ﴿أَهۡدَىٰ﴾ وأقوى ﴿مِنَ﴾ السفهاء ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ بمحمد ﷺ ﴿سَبِيلًا ﴿٥١﴾﴾ وإنما يقولون أمثال هذا استخفافاً للنبي ﷺ وطعناً وقدحاً في الإسلام.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ البعداء المعزولون عن منهج الرشاد هم ﴿ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُۖ﴾ أي طردهم عن ساحة التوحيد إلى ذل الإمكان ﴿وَمَن يَلۡعَنِ ٱللَّهُ﴾ المنتقمُ المقتدرُ ﴿فَلَن تَجِدَ لَهُۥ نَصِيرًا ﴿٥٢﴾﴾ يشفع له عنده، إذ لا غير معه ولا شيء سواه.

أتعتقد وترى أيها الرائي أن لهم حظاً من الإيمان والتوحيد فليس لهم ذلك

﴿أَمۡ لَهُمۡ نَصِيبٞ مِّنَ ٱلۡمُلۡكِ فَإِذٗا﴾ أي حين كانوا ملوكاً متصرفين على وجه الأرض ﴿لَّا يُؤۡتُونَ ٱلنَّاسَ﴾ أي الفقراء المحتاجين ﴿نَقِيرًا ﴿٥٣﴾﴾ بل قطميراً شحهم وبخلهم ﴿أَمۡ﴾ بل ﴿يَحۡسُدُونَ ٱلنَّاسَ﴾ المنظورين لله الناظرين بنوره ﴿عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦۖ﴾ من الحكمة والنبوة والكتاب المبين، ومن غاية حسدهم يكذبونهم وكتابهم عناداً وإذا أردت أن ترى أيها الرائي من

فَقَدْ ءَاتَيْنَآ ءَالَ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَءَاتَيْنَٰهُم مُّلْكًا عَظِيمًا ﴿٥٤﴾ فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ بِهِۦ وَمِنْهُم مَّن صَدَّ عَنْهُ ۚ وَكَفَىٰ بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا ﴿٥٥﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَزِيزًا ....

لهم نصيب من الكتاب والملك ﴿فَقَدْ ءَاتَيْنَآ﴾ من محض جودنا وفضلنا ﴿ءَالَ إِبْرَٰهِيمَ﴾ وذريته الذي من جملتهم وصفوتهم محمد ﷺ ﴿ٱلْكِتَٰبَ﴾ المبين للشرائع والأحكام ﴿وَٱلْحِكْمَةَ﴾ السرائرَ المقتضية تشريعها ﴿وَ﴾ مع ذلك ﴿ءَاتَيْنَٰهُم﴾ في الدنيا ﴿مُّلْكًا عَظِيمًا ﴿٥٤﴾﴾ استيلاءً بسطةً ممتدةً إلى يوم القيامة.

﴿فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ بِهِۦ﴾ بنبوتهم وعظمتهم وبسطتهم ﴿وَمِنْهُم مَّن صَدَّ عَنْهُ﴾ أي أعرض ولم يؤمن عتواً وعناداً، فلا تعجل يا أكمل الرسل بانتقامهم وعقوبتهم ﴿وَكَفَىٰ بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا ﴿٥٥﴾﴾ أي كفى جهنم المسعورة المعدة لانتقامهم وتعذيبهم منتقماً عنهم على أقبح وجه وأشد تعذيب.

قل للمؤمنين يا أكمل الرسل نيابةً عنا إخباراً لهم عن وخامة عاقبة هؤلاء المعرضين: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ كهؤلاء المدبرين ﴿سَوْفَ نُصْلِيهِمْ﴾ وندخلهم ﴿نَارًا﴾ معدةً لجزاء الغواة بحيث ﴿كُلَّمَا نَضِجَتْ﴾ تفانت واضمحلت ﴿جُلُودُهُم﴾ بإحراق نار الخذلان ﴿بَدَّلْنَٰهُمْ﴾ من غاية قهرنا وانتقامنا ﴿جُلُودًا غَيْرَهَا﴾ مماثلةً لما احترقت منها ﴿لِيَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ﴾ أي ليدوم لهم ذوقه وخذلانه ﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾ المنتقمَ منهم ﴿كَانَ عَزِيزًا﴾ غالباً

حَكِيمًا ﴿٥٦﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ لَّهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ ۖ وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا ﴿٥٧﴾ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا۟ ٱلْأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُوا۟ بِٱلْعَدْلِ ۚ ....

على الانتقام حسب المرام ﴿حَكِيمًا ﴿٥٦﴾﴾ عادلاً لا يظلم بالزيادة ولا يهمل بنقصان.

ثم قال سبحانه:

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ بآياتنا ﴿وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ امتثلوا بالصالحات المأمورة فيها ﴿سَنُدْخِلُهُمْ﴾ من غاية فضلنا وجودنا ﴿جَنَّٰتٍ﴾ منتزهاتٍ من العلم والعين والحق ﴿تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ أنهار اللذات الروحانية المترتبة على التجليات الرحمانية الغير المتناهية لذلك ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ﴾ بلا انقطاعٍ وانصرامٍ ومع ذلك ﴿لَّهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ﴾ صواحبٌ من الصفات والأسماء يؤانسهم ﴿مُّطَهَّرَةٌ ۖ﴾ عن أدناس الطبيعة مطلقاً ﴿وَ﴾ بالجملة ﴿نُدْخِلُهُمْ﴾ من غاية لطفنا إياهم ﴿ظِلًّا﴾ مروحاً لقلوبهم ﴿ظَلِيلًا ﴿٥٧﴾﴾ ممدوداً لا يزول أصلاً.

واعلموا أيها المبشرون بهذه البشارة العظمى.

﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ﴾ المبشر بأمثاله ﴿يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا۟﴾ وتدفعوا ﴿ٱلْأَمَٰنَٰتِ﴾ من الأحوال والشهادات وسائر حقوق العباد ﴿إِلَىٰٓ أَهْلِهَا وَ﴾ يأمركم أيضاً أنكم ﴿إِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾ المتخاصمين في الوقائع ﴿أَن تَحْكُمُوا۟ بِٱلْعَدْلِ ۚ﴾

إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا ﴿٥٨﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنكُمْۖ فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴿٥٩﴾ ....

بالانصاف والسوية بلا ميلٍ إلى جانب أحدٍ من المتخاصمين ﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾ المصلحَ لأحوالكم ﴿نِعِمَّا﴾ نعمَ شيئاً ﴿يَعِظُكُم بِهِۦٓ﴾ ويأمركم بامتثاله ﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾ المطلعَ على جميع حالاتكم ﴿كَانَ سَمِيعًا﴾ لجميع أقوالكم ﴿بَصِيرًا ﴿٥٨﴾﴾ لنياتكم وأفعالكم فيها، لا يعزب عنه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء ولا أصغر من ذلك ولا أكبر.

ثم قال سبحانه منادياً لأهل الإيمان إيصاء وتنبيهاً:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ مقتضى إيمانكم إطاعة الله وإطاعة رسوله ﴿أَطِيعُواْ ٱللَّهَ﴾ بامتثال أوامره واجتناب نواهيه ﴿وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ﴾ الذي استخلفه من عنده يهديكم إلى توحيده ﴿وَ﴾ أطيعوا أيضاً ﴿أُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنكُمْۖ﴾ وهم الذين يقيمون شعائر الإسلام بينكم من الأمراء والحكام والقضاة المجتهدين في تنفيذ الأحكام واستنباطه ﴿فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ﴾ أنتم مع حكامكم ﴿فِي شَيْءٍ﴾ من أمور الدين في أنه مطابق للشرع أو غير مطابق ﴿فَرُدُّوهُ﴾ وراجعوا فيه ﴿إِلَى﴾ كتاب ﴿ٱللَّهِ وَ﴾ أحاديث ﴿ٱلرَّسُولِ﴾ بأن عرضوا عليهما واستنبطوه منهما ﴿إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾ المجازي لعباده على أعمالهم خيراً كان أو شراً ﴿وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِۚ﴾ المعدِّ للجزاء ﴿ذَٰلِكَ﴾ الرد ﴿خَيْرٌ﴾ لكم من استبدادكم بعقولكم ﴿وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴿٥٩﴾﴾ من تأويلكم، وأحمدُ عاقبة مما تتخيلون باستبدادكم.

أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓا۟ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوٓا۟ أَن يَكْفُرُوا۟ بِهِۦ وَيُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴿٦٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ رَأَيْتَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا ﴿٦١﴾ فَكَيْفَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌۢ بِمَا ....

﴿أَلَمْ تَرَ﴾ أيها الرسول المرسل إلى كافة الأنام ﴿إِلَى﴾ المنافقين ﴿ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾ من الفرقان الفارق بين الحق والباطل ﴿وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ﴾ من الكتب المنزلة على إخوانكم من الأنبياء عليهم السلام، ومع ادعائهم هذا ﴿يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓا۟﴾ ويتراجعوا في الوقائع ﴿إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ﴾ المضلّ عن مقتضى الإيمان والكتب ﴿وَ﴾ الحال أنهم ﴿قَدْ أُمِرُوٓا۟ أَن يَكْفُرُوا۟ بِهِۦ﴾ أي بالطاغوت ﴿وَ﴾ ما ذلك إلا أن ﴿يُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ الذي هو رئيس الطواغيت ﴿أَن يُضِلَّهُمْ﴾ عن طريق الحق ﴿ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴿٦٠﴾﴾ إلى حيث لا يرجى منهم الاهتداء أصلاً.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ﴾ إمحاضاً للنصح ﴿تَعَالَوْا۟﴾ هلموا ﴿إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ من الكتاب الجامع لجميع الكتب، المبينة لطريق الحق، الهادية إلى توحيده ﴿وَإِلَى﴾ متابعة ﴿ٱلرَّسُولِ﴾ المبلغ الكاشف لكم أحكامه ﴿رَأَيْتَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾ والذين في قلوبهم مرضٌ ﴿يَصُدُّونَ﴾ يعرضون ﴿عَنكَ﴾ وعن عِظتك وتذكيرك ﴿صُدُودًا ﴿٦١﴾﴾ إعراضاً ناشئاً عن محض القساوة والفساد.

﴿فَكَيْفَ﴾ لا يكونون منافقين إنهم ﴿إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌۢ بِمَا

قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَآءُوكَ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّآ إِحْسَٰنًا وَتَوْفِيقًا ﴿٦٢﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَعْلَمُ ٱللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ

قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ﴾ من نفاقهم مع المؤمنين وتحاكمهم إلى الطاغوت وعدم الرضا بحكمك وقضائك ﴿ثُمَّ﴾ بعدما أصابوا ﴿جَآءُوكَ﴾ معتذرين لك ﴿يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنْ أَرَدْنَآ﴾ أي ما قصدنا ﴿ إِلَّآ إِحْسَٰنًا ﴾ طلباً للخير من الله لإخواننا المؤمنين ﴿وَتَوْفِيقًا ﴿٦٢﴾﴾ بينهم.

عن ابن عباس رضي الله عنهما: أن منافقاً نازع يهودياً، فدعاه اليهودي إلى رسول الله ﷺ والمنافق إلى كعب بن الأشرف، ثم بعد النزاع والجدال احتكما إلى رسول الله ﷺ، فحكم لليهودي فلم يرضى المنافق بقضائه، فقال: نتحاكم إلى عمر رضي الله عنه، فحضرا عنده فقال اليهودي لعمر رضي الله عنه: قضى لي رسول الله ﷺ فلم يرض، فخاصم إليك، فقال عمر للمنافق: أهكذا. قال: نعم.

فقال: مكانكما حتى أخرج، فدخل بيته، وأخذ سيفه، فخرج فضرب به عنق المنافق، فقال: هكذا أقضي لمن لم يرضَ بقضاء الله وقضاء رسوله.

فنزل جبريل وقال: أن عمر رضي الله عنه قد فرق بين الحق والباطل، فسمي الفاروق.

﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ﴾ المنهمكون في الغي والضلال هم ﴿ٱلَّذِينَ يَعْلَمُ ٱللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ ﴾ من النفاق والشقاق فلا يغني عنهم حلفهم الكاذب شيئاً من عذاب الله ﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ ﴾ وعن حلفهم عن المؤمنين ﴿وَعِظْهُمْ ﴾ في

وَقُل لَّهُمْ فِىٓ أَنفُسِهِمْ قَوْلًۢا بَلِيغًا ﴿٦٣﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ جَآءُوكَ فَٱسْتَغْفَرُوا۟ ٱللَّهَ وَٱسْتَغْفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ لَوَجَدُوا۟ ٱللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا ﴿٦٤﴾ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ ....

الخلوات على مقتضى شقاق مرتبة النبوة والرسالة ﴿وَقُل لَّهُمْ﴾ حين كانوا مفترقين متفردين ﴿فِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾ عن المؤمنين ﴿قَوْلًۢا بَلِيغًا ﴿٦٣﴾﴾ ليؤثر فيهم ويحرك فطرتهم الأصلية التي فُطروا عليها رجاء أن يتفطنوا بالتوحيد وينتبهوا بحقيته بتوفيق الله وجذبٍ من جانبه.

﴿وَ﴾ لا تستبعد يا أكمل الرسل مثال هذا التوفيق منا إذ ﴿مَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ﴾ إلى أمةٍ من الأمم الماضية ﴿إِلَّا لِيُطَاعَ﴾ ويؤمن به ويمتثل بأمره إلا ﴿بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ﴾ وتعلق إرادته بإطاعتهم له وإيمانهم به ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ﴾ من غاية جهلهم ونفاقهم ﴿إِذ ظَّلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ﴾ بالخروج عن إطاعتك وانقيادك عنا ﴿جَآءُوكَ﴾ تائبين معتذرين مما صدر عنهم ﴿فَٱسْتَغْفَرُوا۟ ٱللَّهَ﴾ مخلصين نادمين ﴿وَٱسْتَغْفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ﴾ أيضاً بالاستشفاع والاستدعاء من الله بالقبول بعدما جاؤوا معتذرين ﴿لَوَجَدُوا۟ ٱللَّهَ﴾ وصادقوه مفضلاً كريماً ﴿تَوَّابًا﴾ يقبل توبتهم ﴿رَّحِيمًا ﴿٦٤﴾﴾ لهم يوفقهم عليها.

﴿فَلَا وَرَبِّكَ﴾ أي فوربك وعظم شأنه وسطوع برهانه ﴿لَا يُؤْمِنُونَ﴾ بالله وبكتبه وبرسله ﴿حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ﴾ أيها المبعوث للكل ﴿فِيمَا شَجَرَ﴾ وحدث ﴿بَيْنَهُمْ﴾ من الوقائع التي اختلفوا فيها ﴿ثُمَّ﴾ بعدما حكموك

لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾ وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ ٱقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ أَوِ ٱخْرُجُوا۟ مِن دِيَٰرِكُم مَّا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِّنْهُمْ ۖ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا۟ مَا يُوعَظُونَ بِهِۦ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا ﴿٦٦﴾ وَإِذًا لَّءَاتَيْنَٰهُم مِّن لَّدُنَّآ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٦٧﴾ وَلَهَدَيْنَٰهُمْ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٦٨﴾ ....

﴿لَا يَجِدُوا۟﴾ حين راجعوا وجدانهم ﴿فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا﴾ ضيقاً واضطراباً وشكاً ﴿مِّمَّا قَضَيْتَ﴾ حكمت به ﴿وَيُسَلِّمُوا۟﴾ حكمك وقضاءك ﴿تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾﴾ ناشئاً عن محض الإطاعة والانقياد، ظاهراً وباطناً، إذ طاعتك عين إطاعتنا وانقيادنا.

﴿وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا﴾ فرضنا وأمرنا ﴿عَلَيْهِمْ أَنِ ٱقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ﴾ في سبيلنا ﴿أَوِ ٱخْرُجُوا۟ مِن دِيَٰرِكُم﴾ المألوفة التي هي بقعة الإمكان ﴿مَّا فَعَلُوهُ﴾ أي المأمور به ﴿إِلَّا قَلِيلٌ مِّنْهُمْ﴾ وهم المخلصون المبادرون إلى الفناء في الله ليفوزوا بشرف بقائه ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ﴾ من غاية تشوقهم وتعطشهم بمرتبة الفناء فيه ﴿فَعَلُوا۟ مَا يُوعَظُونَ بِهِۦ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ﴾ في أولاهم وأخراهم ﴿وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا ﴿٦٦﴾﴾ لقدمهم في طريق التوحيد والعرفان.

﴿وَإِذًا﴾ أي حين ثبتوا على طريق التوحيد أشد تثبيت ﴿لَّءَاتَيْنَٰهُم مِّن لَّدُنَّآ﴾ بلا صنع منهم ﴿أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٦٧﴾﴾ هو الفوز بمرتبة الكشف والشهود.

﴿وَلَهَدَيْنَٰهُمْ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٦٨﴾﴾ يوصلهم إلينا بلا اعوجاج ولا انحراف اهدنا بلطفك صراطاً مستقيماً يوصلنا إلى ذروة توحيدك.

وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقٗا ﴿٦٩﴾ ذَٰلِكَ ٱلۡفَضۡلُ مِنَ ٱللَّهِۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ عَلِيمٗا ﴿٧٠﴾ ....

﴿وَ﴾ واعلموا أيها المؤمنون ﴿مَنْ يُطِعِ ٱللَّهَ﴾ حق إطاعته ﴿وَ﴾ حقُّ إطاعته أن يطيعوا ﴿ٱلرَّسُولَ﴾ المستخلف منه ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ﴾ المطيعون لله ولرسوله مصاحبون ﴿مَعَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ الذين يجمعون بين مرتبتي الكمال والتكميل الفائزون بمقام الكشف والشهود، لا يرون غير الله في الوجود ولذلك يدبرون الظاهر والباطن ﴿وَٱلصِّدِّيقِينَ﴾ وهم الذين يصلون إلى مقام المشاهدة، ويتحيرون بمطالعة وجه الله الكريم إلى حيث لا يلتفتون إلى الكمال والتكميل بل يهيمون ويستغرقون ﴿وَٱلشُّهَدَآءِ﴾ وهم الذين يرفعون مزاحمة هويتهم عن البين مطلقاً ﴿وَٱلصَّٰلِحِينَۚ﴾ وهم الذين يستعدون نفوسهم لنقصان المراتب السابقة ويترصدون لها إيماناً واحتساباً ﴿وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ﴾ المقربون المجتهدون في طريق التوحيد حسب مقدورهم ﴿رَفِيقٗا ﴿٦٩﴾﴾ شفيقاً للسالكين المتوجهين نحوه.

﴿ ذَٰلِكَ ٱلۡفَضۡلُ﴾ والهداية والرفاقة مع هؤلاء الأمناء العظماء وللإنعام تفضلاً ﴿مِنَ ٱللَّهِۚ﴾ وامتناناً منه لا صنعَ للعبد فيه ولا علم لأحد في كيفيته وكميته ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ عَلِيمٗا ﴿٧٠﴾﴾ في مقدوراته وموهوباته.

هب لنا من لدنك رحمة إنك أنت الوهاب.

ومن أجلّ أسباب المرافقة مع هؤلاء المقربين: الجهاد، لذلك أمرهم

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ خُذُواْ حِذۡرَكُمۡ فَٱنفِرُواْ ثُبَاتٍ أَوِ ٱنفِرُواْ جَمِيعٗا ﴿٧١﴾ وَإِنَّ مِنكُمۡ لَمَن لَّيُبَطِّئَنَّ فَإِنۡ أَصَٰبَتۡكُم مُّصِيبَةٞ قَالَ قَدۡ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيَّ إِذۡ لَمۡ أَكُن مَّعَهُمۡ شَهِيدٗا ﴿٧٢﴾ وَلَئِنۡ أَصَٰبَكُمۡ فَضۡلٞ مِّنَ ٱللَّهِ لَيَقُولَنَّ كَأَن لَّمۡ تَكُنۢ بَيۡنَكُمۡ وَبَيۡنَهُۥ مَوَدَّةٞ يَٰلَيۡتَنِي كُنتُ مَعَهُمۡ فَأَفُوزَ فَوۡزًا عَظِيمٗا ﴿٧٣﴾ ۞ فَلۡيُقَٰتِلۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ....

سبحانه بتهيئة أسبابه ليتهيؤوا له فقال منادياً اهتماماً لشأنه:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ مقتضى إيمانكم ترويج دينكم ونصرة نبيكم ﴿خُذُواْ حِذۡرَكُمۡ﴾ أي عدتكم التي بها تحذرون عن العدو واستعدوا للقتال وبعدما تم استعدادكم ﴿فَٱنفِرُواْ﴾ اخرجوا قبل العدو ﴿ثُبَاتٍ﴾ فرقة بعد فرقة ﴿أَوِ ٱنفِرُواْ جَمِيعٗا ﴿٧١﴾﴾ مجتمعين مختلطين لأنه أدخل في المهابة.

﴿وَإِنَّ مِنكُمۡ لَمَن لَّيُبَطِّئَنَّ﴾ أي وإن أناساً منكم والله ليتكاسلن ويتثاقلن لنفاقهم ومرض قلوبهم ﴿فَإِنۡ أَصَٰبَتۡكُم مُّصِيبَةٞ﴾ قتلٌ وهزيمةٌ ﴿قَالَ﴾ المنافق المتكاسل: ﴿قَدۡ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيَّ﴾ بسبب هذا البطء والتأخير ﴿إِذۡ لَمۡ أَكُن مَّعَهُمۡ شَهِيدٗا ﴿٧٢﴾﴾ حاضراً فيصيبني ما أصابهم.

﴿وَلَئِنۡ أَصَٰبَكُمۡ فَضۡلٞ مِّنَ ٱللَّهِ لَيَقُولَنَّ﴾ متمنياً من فرط تحسره وتحسده بكم ﴿كَأَن لَّمۡ تَكُنۢ بَيۡنَكُمۡ وَبَيۡنَهُۥ مَوَدَّةٞ﴾ أي كتحسر الأعداء للأعداء: ﴿يَٰلَيۡتَنِي كُنتُ مَعَهُمۡ فَأَفُوزَ فَوۡزًا عَظِيمٗا ﴿٧٣﴾﴾ مثل ما فازوا.

وإن أبطأ المنافقون في أمر القتال وتكاسلوا نفاقاً.

﴿۞ فَلۡيُقَٰتِلۡ﴾ المخلصون المبادرون إلى الفناء ﴿فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ مع

ٱلَّذِينَ يَشۡرُونَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا بِٱلۡأٓخِرَةِۚ وَمَن يُقَٰتِلۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيُقۡتَلۡ أَوۡ يَغۡلِبۡ فَسَوۡفَ نُؤۡتِيهِ أَجۡرًا عَظِيمٗا ﴿٧٤﴾ وَمَا لَكُمۡ لَا تُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلۡمُسۡتَضۡعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلۡوِلۡدَٰنِ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَخۡرِجۡنَا مِنۡ هَٰذِهِ ٱلۡقَرۡيَةِ ٱلظَّالِمِ أَهۡلُهَا وَٱجۡعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيّٗا وَٱجۡعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا ﴿٧٥﴾

المشركين ﴿ٱلَّذِينَ يَشۡرُونَ﴾ ويختارون ﴿ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا بِٱلۡأٓخِرَةِۚ﴾ أي بدلها ويبيعونها بها ﴿وَمَن يُقَٰتِلۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ ترويجاً لتوحيده مع هؤلاء المشركين المصرين على الشرك ﴿فَيُقۡتَلۡ﴾ في أيديهم ﴿أَوۡ يَغۡلِبۡ﴾ عليهم ﴿فَسَوۡفَ نُؤۡتِيهِ﴾ من لدنا ﴿أَجۡرًا عَظِيمٗا ﴿٧٤﴾﴾ لا كأجر الدنيا ولا كأجر الآخرة المترتبة على الأعمال الصالحة بل الشهداءُ منهم: أحياءٌ عند الله يرزقون، فرحين بما آتاهم الله من فضله، والغزاةُ فهم في حمى الله وكنف حفظه وجواره.

﴿وَمَا﴾ عرض ولحق ﴿لَكُمۡ﴾ أيها المؤمنون المبشرون بهذه البشارة العظمى ﴿لَا تُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ مع أعداء الله ﴿وَ﴾ لا تنقذون ﴿ٱلۡمُسۡتَضۡعَفِينَ﴾ منكم من أيديهم ﴿مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلۡوِلۡدَٰنِ﴾ الذين بقوا في مكة بعد الهجرة فآذوهم واستذلوهم إلى أن استعبدوهم وهم ﴿ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ﴾ من غاية حزنهم ونهاية مذلتهم متضرعاً إلى الله مستشكياً إليه: ﴿رَبَّنَآ أَخۡرِجۡنَا مِنۡ هَٰذِهِ ٱلۡقَرۡيَةِ ٱلظَّالِمِ أَهۡلُهَا﴾ إذ لا طاقة لنا بظلمهم ﴿وَٱجۡعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيّٗا﴾ يولي أمرنا وينقذنا من أيديهم ويخرجنا من بينهم ﴿وَٱجۡعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا ﴿٧٥﴾﴾ ينصرنا عليهم لينتقم عنهم، فاستجاب الله دعاءهم بأن

ﵟالَّذِينَ ءَامَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا ﴿٧٦﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَءَاتُوا الزَّكَاةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ ....

ألحق بعضهم إلى المهاجرين، ونصر بعضهم بالنبي والمؤمنين حين فتحوا مكة شرفها الله ، فوصلوا إلى ما طلبوا من الله .

﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُقَـٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ تقرباً إليه وطلباً لرضاه وترويجاً لدينه ونصرة نبيه المبعوث لإعلاء كلمة توحيده ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُقَـٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱلطَّـٰغُوتِ ﴾ المضل عن طريق الحق وسبيل الهداية إلى متابعة الشيطان وموالاته ﴿ فَقَـٰتِلُوٓا۟ ﴾ أيها المؤمنون المخلصون ﴿ أَوْلِيَآءَ ٱلشَّيْطَـٰنِ ﴾ ولا تبالوا بعَدَدِهم وعُدَدِهم ﴿ إِنَّ كَيْدَ ٱلشَّيْطَـٰنِ ﴾ بالنسبة إلى كيد الله ومكره ﴿ كَانَ ضَعِيفًا ﴿٧٦﴾ ﴾ لا عبرة له ولا تأثير.

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ﴾ المؤمنين ﴿ ٱلَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ ﴾ عند ضعفهم ورثاثة حالهم حين كانوا في مكة قبل الهجرة يريدون أن يقاتلوا: ﴿ كُفُّوٓا۟ أَيْدِيَكُمْ ﴾ عن القتال إلى أن يأذن الله لكم به ويرد الأمر عليه ﴿ وَأَقِيمُوا۟ ﴾ أديموا ﴿ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾ الميل المقرب لكم نحوه بجميع الأعضاء والجوارح ﴿ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ﴾ المصفية لنفوسكم عن الميل إلى زخرفة الدنيا، وانتظروا إلى أن يأمركم الله بالقتال والجهاد ﴿ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ ﴾ بعد ما قوّى حالهم وزال ضعفهم ﴿ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ ﴾ بضعف يقينهم وقلة وثوقهم بنصر الله وتأييده ﴿ يَخْشَوْنَ ٱلنَّاسَ ﴾

كَخَشْيَةِ ٱللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً ۚ وَقَالُوا۟ رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا ٱلْقِتَالَ لَوْلَآ أَخَّرْتَنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ ۗ قُلْ مَتَٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٧٧﴾ أَيْنَمَا تَكُونُوا۟ يُدْرِككُّمُ ٱلْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِى بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ ۗ ....

أي يخافون من الكفار ﴿كَخَشْيَةِ ٱللَّهِ﴾ مثل خوفهم من الله ﴿أَوْ﴾ بل ﴿أَشَدَّ خَشْيَةً ۚ﴾ لوهن اعتقادهم واعتمادهم على الله ، إذ هم في أوائل ظهور الإسلام حين كانوا متزلزلين لا يصفوا يقينهم بالتوحيد ﴿وَقَالُوا۟﴾ حين سمعوا نزول أمر القتال مسوفين متأخرين: ﴿رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا ٱلْقِتَالَ﴾ مع أنا على ضعفنا ﴿لَوْلَآ أَخَّرْتَنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ ۗ﴾ يزداد فيه قوتنا وشوكتنا وعدتنا، وإنما قالوه خوفاً من الموت وفوات المال ﴿قُلْ﴾ لهم يا أكمل الرسل تذكيراً وتنبيهاً: ﴿مَتَٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ﴾ وعملٌ قصيرٌ بالنسبة إلى عطاء الله وشرف لقائه ﴿وَٱلْءَاخِرَةُ﴾ المعدةُ لجزيل العطاء وشرف اللقاء ﴿خَيْرٌ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ﴾ عما يشغلهم عنه وعن عطائه ﴿وَ﴾ اعلموا أيها المؤمنون أنكم ﴿لَا تُظْلَمُونَ﴾ لا تنقصون ولا تهملون مما قدر لكم في القضا ﴿فَتِيلًا ﴿٧٧﴾﴾ مقدار فتيل النواة.

واعلموا أيضاً أن تسويفكم وتأخيركم لا يفيدكم نفعاً في أمر الموت بل وقتُهُ مبهمٌ وأمره مبرم.

﴿أَيْنَمَا تَكُونُوا۟ يُدْرِككُّمُ ٱلْمَوْتُ﴾ عند حلول الأجل المقدر له من عنده ﴿وَلَوْ كُنتُمْ﴾ متحصنين ﴿فِى بُرُوجٍ﴾ قلاعٍ وحصونٍ ﴿مُّشَيَّدَةٍ ۗ﴾ بأنواع التشييدات والتحصينات إذ لا مرد من قضاء الله ولا معقب لحكمه، يفعل ما يشاء ويحكم

وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا۟ هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا۟ هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِكَ ۚ قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ فَمَالِ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا ﴿٧٨﴾

ما يريد ﴿وَ﴾ هم أيضاً من غاية تزلزلهم وتذبذبهم وعدم رسوخهم في جادة التوحيد ﴿إِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ﴾ فتحٌ وغنيمةٌ تفرح بها نفوسهم وتنبسط ﴿يَقُولُوا۟ هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ تفضلاً علينا وامتناناً ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ﴾ بليةٌ واختبارٌ تنقبض بها نفوسهم ﴿يَقُولُوا۟ هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِكَ﴾ أي أضافوها إليك متشائمين بك كما تشاءمت اليهود حيث قالت: منذ دخل محمد المدينة نقصت ثمارها وغلت أسعارها ﴿قُلْ﴾ لهم كلاماً ناشئاً عن محض الحكمة والإيقان: ﴿كُلٌّ﴾ من الحوادث الكائنة سواءً كانت مفرحة أو مملةً، مقبضةً أو مبسطةً نازل ﴿مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ حسب قدرته وإرادته، لا يسأل عن فعله ولا في أمره بل له التصرف مطلقاً ﴿فَمَالِ﴾ عرض ﴿هَٰٓؤُلَآءِ ٱلْقَوْمِ﴾ المنحطين عن درجة التوحيد والعرفان ﴿لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ﴾ ويفهمون ﴿حَدِيثًا ﴿٧٨﴾﴾ يخلصهم عن التزلزل وتردد المرتبة على الإضافات المنافية للتوحيد.

ولو أنهم من[1] أهل التدبر والتأمل في سرائر كلام الله ومرموزاته، لفتح عليهم من ما يخلصهم عن دغدغة الكثرة مطلقاً، فكيف إضافة الحسنة والسيئة.

ثم لما أراد سبحانه أن ينبه على خلص عباده طريق توحيده وأن ظهوره في المظاهر كلها خيرٌ محضٌ لرسوله ﷺ؛ لأن تحمل أمثال هذه الخطابات وأن الشر إنما هو من الإضافة العارضة بسبب التعينات العدمية، فقال مخاطباً لرسوله ﷺ لأن تحمل أمثال هذه الخطابات الصادرة عن محض الحكمة إنما يليق بجنابه ليصل منه إلى أمته:

(١) في المخطوط (ولو أن من..).

مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِۖ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَۚ وَأَرْسَلْنَٰكَ لِلنَّاسِ رَسُولًاۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴿٧٩﴾ مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَۖ وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ﴿٨٠﴾ وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ فَإِذَا بَرَزُواْ مِنْ عِندِكَ بَيَّتَ طَآئِفَةٌ مِّنْهُمْ غَيْرَ ٱلَّذِى تَقُولُۖ وَٱللَّهُ ....

﴿مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ﴾ مسرةٍ لنفسك ﴿فَمِنَ ٱللَّهِۖ﴾ وعلى جري عادته وظهوره على مظاهره بالخير والحسنى ﴿وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ﴾ محزنةٍ مملةٍ لنفسك ﴿فَمِن نَّفْسِكَۚ﴾ تظهر، ومن إضافتك تحصل، وإلا فهو خيرٌ في نفسه لا شرٌ في الوجود أصلاً ﴿وَأَرْسَلْنَٰكَ لِلنَّاسِ رَسُولًاۚ﴾ تنبه لهم ما نبهت من لدنا ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴿٧٩﴾﴾ على إرسالك وتبليغك.

ثم قال سبحانه:

﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ﴾ ويؤمن به ويصدقه بما جاء من عند ربه ﴿فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَۖ﴾ لأنه المظهر الجامع لجميع أوصافه وأسمائه وللمظهر حكم الظاهر فيه ﴿وَمَن تَوَلَّىٰ﴾ أعرض عن إطاعتك أعرض عنهم ولا تلتفت نحوهم ﴿فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ﴿٨٠﴾﴾ تحفظهم عما يشينهم بل مبلِّغاً داعياً لهم إلى طريق الحق وصراطٍ مستقيم.

﴿وَ﴾ ممن يحوم حولك من المنافقين قومٌ إذا أمرتهم بامتثال أمر الله ﴿يَقُولُونَ﴾ في جوابك: ﴿طَاعَةٌ﴾ أي منا امتثالٌ وإطاعةٌ لما أمرت ﴿فَإِذَا بَرَزُواْ﴾ خرجوا ﴿مِنْ عِندِكَ بَيَّتَ طَآئِفَةٌ مِّنْهُمْ﴾ زوّرت وافترت ولبَّست ﴿غَيْرَ ٱلَّذِى تَقُولُۖ﴾ تلك الطائفة لك وقلت لها ﴿وَٱللَّهُ﴾ المجازي لهم

يَكْتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿٨١﴾ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَـٰفًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾ وَإِذَا جَآءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ ٱلْأَمْنِ أَوِ ٱلْخَوْفِ أَذَاعُوا۟ بِهِۦ وَلَوْ ....

والمحاسب أعمالهم ﴿يَكْتُبُ﴾ في صحائفهم ويجازي عليهم بها ﴿مَا يُبَيِّتُونَ﴾ ويزوِّرون ﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ﴾ ولا تبال بإطاعتهم وقبولهم ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ﴾ في جميع الأمور واتخذه ولياً ونصيراً ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿٨١﴾﴾ يكفيك مؤونة ضررهم وشرورهم وينتقم لك عنهم.

ومن جملة نفاقهم وشقاقهم أنهم يطعنون في القرآن بأنواع المطاعن، تارةً ينسبونه إلى غير الله، وتارةً يكذبونه، وتارةً يقولون هو من أساطير الأولين، أيترددون في أمره ويطعنون في شأنه؟

﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ﴾ ويتأملون ﴿ٱلْقُرْءَانَ﴾ لفظاً ومعنىً، ظهراً وبطناً، دلالةً وحكماً، اقتضاء ونصاً، إشارةً وإيماءً، تلويحاً ورمزاً، حتى يتفطنوا أنه ما هو من كلام البشر ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ﴾ أي من جنس كلام البشر ﴿لَوَجَدُوا۟ فِيهِ﴾ البتة ﴿ٱخْتِلَـٰفًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾﴾ حسب تفاوت درجات أشخاص البشر.

﴿وَ﴾ من ضعفة المسلمين قومٌ ﴿إِذَا جَآءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ﴾ موجبات ﴿ٱلْأَمْنِ أَوِ ٱلْخَوْفِ أَذَاعُوا۟ بِهِۦ﴾ أي فشوه ونشروه سواءً كان واقعاً أم أراجيف، ولحق للمسلمين بسبب تلك الإذاعة والإشاعة ما لا يليق بهم ﴿وَلَوْ﴾ أنهم حين

رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنۡهُمۡ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسۡتَنۢبِطُونَهُۥ مِنۡهُمۡۗ وَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَرَحۡمَتُهُۥ لَٱتَّبَعۡتُمُ ٱلشَّيۡطَٰنَ إِلَّا قَلِيلٗا ﴿٨٣﴾ فَقَٰتِلۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفۡسَكَۚ وَحَرِّضِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۖ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَكُفَّ ....

سمعوا الخبر ﴿رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ﴾ أصحاب الرأي والتدبير ﴿مِنۡهُمۡ﴾ ليتأملوا فيه ويتبصروا ﴿لَعَلِمَهُ﴾ واستخرجه البتة المجتهدون ﴿ٱلَّذِينَ يَسۡتَنۢبِطُونَهُۥ﴾ وأمثاله ﴿مِنۡهُمۡۗ﴾ وجهاً موجباً للإفشاء أو الإسرار، ولا تغتروا أيها المؤمنون بعقولكم ولا تستبدوا برأيكم ﴿وَ﴾ اعلموا أنه ﴿لَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ﴾ بإرسال الرسول فيكم وإنزال الكتب عليكم ﴿وَرَحۡمَتُهُۥ﴾ الشاملة بكم بتوفيقكم على الإيمان ومتابعة الرسول عليه السلام ﴿لَٱتَّبَعۡتُمُ﴾ بأجمعكم ﴿ٱلشَّيۡطَٰنَ﴾ المضل عن طريق الحق ﴿إِلَّا قَلِيلٗا ﴿٨٣﴾﴾ منكم وهم الذين استثناهم الله سبحانه في سابق علمه تفضلاً عليهم وامتناناً، وإن انصرفوا عنك بالمرة وانتشروا من حولك.

﴿فَقَٰتِلۡ﴾ بنفسك يا أكمل الرسل ﴿فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ إذ ﴿لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفۡسَكَۚ﴾ ولا تحمل أعباء الرسالة إلا عليك، فعليك أن تشمر ذيلك لأمر الجهاد، لا تبال بإعانتهم وانتصارهم، ولا بتقاعدهم وانتشارهم، فان الله ناصرك ومعينك لا الجنود ﴿وَحَرِّضِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۖ﴾ أي رغّبهم على القتال، إذ ما عليك في شأنهم إلا الترغيب والتبليغ، سواء قبلوا أو لم يقبلوا، ولا تخف من كثرة المشركين وعظم شركهم ﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَكُفَّ﴾ أي يمحو

بَأۡسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۚ وَٱللَّهُ أَشَدُّ بَأۡسٗا وَأَشَدُّ تَنكِيلٗا ﴿٨٤﴾ مَّن يَشۡفَعۡ شَفَٰعَةً حَسَنَةٗ يَكُن لَّهُۥ نَصِيبٞ مِّنۡهَاۖ وَمَن يَشۡفَعۡ شَفَٰعَةٗ سَيِّئَةٗ يَكُن لَّهُۥ كِفۡلٞ مِّنۡهَاۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ مُّقِيتٗا ﴿٨٥﴾ ....

عن قلبك ﴿بَأۡسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۚ﴾ يعني قريشاً ﴿وَٱللَّهُ﴾ المنتقم المقتدر بالقوة التامة الكاملة ﴿أَشَدُّ بَأۡسٗا﴾ مهابةً ﴿وَأَشَدُّ تَنكِيلٗا ﴿٨٤﴾﴾ تعذيباً من هؤلاء الغواة الطغاة، يكفيك مؤونة شرورهم عن قريب، وقد كفاه بأن ألقى في قلوبهم الرعب فرجعوا خائبين خاسرين.

﴿ مَّن يَشۡفَعۡ شَفَٰعَةً حَسَنَةٗ﴾ يراعي بها حق الله وحقوق عباده ويرغبهم بها على الخير، ويبعدهم عن الشر، خالصاً لرضا الله بلا تغريرٍ لنفسه وجلبِ نفعٍ لها أو دفعِ ضرٍ عنها ﴿يَكُن لَّهُۥ نَصِيبٞ مِّنۡهَاۖ﴾ من ثواب الشفاعة التي تسبب لها، والدعاء الخير للأخ المسلم من هذا القبيل، قال عليه السلام: «مَنْ دَعَا لِأَخِيْهِ المُسْلِم بِظَهْرِ الغَيْبِ اسْتُجِيْبَ لَهُ، وَقَالَ المَلَكُ: وَلكَ مِثْلُ ذَلِكَ»[1] ﴿وَمَن يَشۡفَعۡ شَفَٰعَةٗ سَيِّئَةٗ﴾ يحمل بها إلى ارتكاب محرم أو يوقعهم في فتنة وبلية ﴿يَكُن لَّهُۥ﴾ أيضاً ﴿كِفۡلٞ﴾ نصيبٌ ﴿مِّنۡهَاۗ﴾ من أوزارها وآثامها المترتبة عليها مثل فاعلها بل أزيد ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ﴾ المجازي لعباده ﴿عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ﴾ من الحسنة والسيئة ﴿مُّقِيتٗا ﴿٨٥﴾﴾ مقتدراً على جزاء كلٍ منهما فضلاً وعدلاً.

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه [٤/ ٢٠٩٨ رقم/ ٢٧٣٢/ باب: فضل الدعاء للمسلمين بظهر الغيب] وابن حبان في صحيحه [٣/ ٢٦٨ رقم/ ٩٨٩/ باب:استحباب كثرة دعاء المرء] وأبو داوود في السنن [٢ / ٨٩ رقم/ ٥٣٤/ باب: الدعاء بظهر الغيب] وغيرهم.

وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا۟ بِأَحْسَنَ مِنْهَآ أَوْ رُدُّوهَآ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَسِيبًا ﴿٨٦﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ ۗ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثًا ﴿٨٧﴾ ۞ فَمَا لَكُمْ فِى ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِئَتَيْنِ وَٱللَّهُ أَرْكَسَهُم

﴿ وَإِذَا حُيِّيتُم ﴾ أيها المؤمنون ﴿بِتَحِيَّةٍ﴾ ناشئةٍ من أخيكم المسلم ﴿فَحَيُّوا۟ بِأَحْسَنَ مِنْهَآ﴾ أي زيدوا عليها وفاءً لحق المبادرة ﴿أَوْ رُدُّوهَآ ۗ﴾ كمثلها بلا نقصان شيءٍ منها وفاءً لحق المؤاخاة ﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾ المراقب لجميع حالاتكم ﴿كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ﴾ صدر عنكم من خيرٍ وشرٍ ونفعٍ وضرٍ ﴿حَسِيبًا ﴿٨٦﴾﴾ يحاسبكم بلا فوت شيءٍ ويجازيكم على مقتضى حسابه.

﴿ٱللَّهُ﴾ الجامع لجميع مراتب الأسماء الموجودة المربية لمسمياتكم وهوياتكم ﴿لَآ إِلَٰهَ﴾ لا موجود ولا مربي لكم في الوجود ﴿إِلَّا هُوَ﴾ الحي القيوم الذي لا يعرض له التغيير مطلقاً ﴿لَيَجْمَعَنَّكُمْ﴾ وليحشرنكم من قبور تعيناتكم ﴿إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ التي عرضوا فيها إلى الله وحشروا نحوه منسلخين عن هوياتكم الباطلة ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ ۗ﴾ وفي جمعه فلكم بعدما أخبرتم أن تصدقوه ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثًا ﴿٨٧﴾﴾ حتى تصدقوا حديثه وتؤمنوا فعليكم أن لا تخالفوا حكم الله وأمره بعد وروده.

وإذا كان الأمر على هذا.

﴿ ۞ فَمَا﴾ أي شيء عرض ولحق ﴿لَكُمْ﴾ أيها المؤمنون ﴿فِى﴾ أمر ﴿ٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾ حتى تكونوا ﴿فِئَتَيْنِ﴾ فرقتين، ولم تتفقوا على كفرهم وشركهم ﴿وَٱللَّهُ أَرْكَسَهُم﴾ والحال أنه سبحانه قلبهم وردهم إلى كفرهم

بِمَا كَسَبُوٓاْۚ أَتُرِيدُونَ أَن تَهۡدُواْ مَنۡ أَضَلَّ ٱللَّهُۖ وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلٗا ﴿٨٨﴾ وَدُّواْ لَوۡ تَكۡفُرُونَ كَمَا كَفَرُواْ فَتَكُونُونَ سَوَآءٗۖ فَلَا تَتَّخِذُواْ مِنۡهُمۡ أَوۡلِيَآءَ حَتَّىٰ يُهَاجِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۚ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَخُذُوهُمۡ وَٱقۡتُلُوهُمۡ حَيۡثُ وَجَدتُّمُوهُمۡۖ وَلَا تَتَّخِذُواْ مِنۡهُمۡ وَلِيّٗا وَلَا نَصِيرًا ﴿٨٩﴾ ....

﴿بِمَا كَسَبُوٓاْۚ﴾ لأنفسهم من الشرك بالله ـ العياذ بالله ـ والبغض مع رسوله والنفاق مع المؤمنين ﴿أَتُرِيدُونَ﴾ بهذا التفرق والتردد في أمرهم ﴿أَن تَهۡدُواْ مَنۡ أَضَلَّ ٱللَّهُۖ﴾ وتخالفوا كلمه كأنكم لم تصدقوه ﴿وَ﴾ اعلم أيها الكامل في أمر الرسالة ﴿مَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ﴾ عن نور الإيمان والهداية ﴿فَلَن تَجِدَ﴾ أنت مع كونك ممن أذن بالكشف عنه ﴿لَهُۥ سَبِيلٗا ﴿٨٨﴾﴾ إلى الهداية فضلاً عن أن يجده غيرك. وهم من غاية بغضهم معكم.

﴿وَدُّواْ لَوۡ تَكۡفُرُونَ﴾ أي تمنوا أن تكفروا ﴿كَمَا كَفَرُواْ فَتَكُونُونَ﴾ معهم ﴿سَوَآءٗۖ﴾ في الكفر والضلال والبعد من جوار الله وكنفه، وإذا كان الأمر على هذه ﴿فَلَا تَتَّخِذُواْ مِنۡهُمۡ﴾ أي أعدائكم ﴿أَوۡلِيَآءَ﴾ توالونهم وتوادونهم ﴿حَتَّىٰ يُهَاجِرُواْ﴾ أي إلى أن يسلموا ويهاجروا ﴿فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۚ﴾ ويبعدوا عن ديارهم وعشائرهم تقرباً إلى الله وتوجهاً إلى رسوله ﴿فَإِن تَوَلَّوۡاْ﴾ أي أعرضوا عن الإسلام والتقرب إلى الله بعدما ما هاجروا عن ديارهم ﴿فَخُذُوهُمۡ وَٱقۡتُلُوهُمۡ حَيۡثُ وَجَدتُّمُوهُمۡۖ﴾ كسائر المشركين ﴿وَلَا تَتَّخِذُواْ مِنۡهُمۡ﴾ أي من هؤلاء المهاجرين المصرِّين على شركهم وكفرهم ﴿وَلِيّٗا﴾ توالونه ﴿وَلَا نَصِيرًا ﴿٨٩﴾﴾ تنصرونه، فعليكم أن تجانبوهم وتتركوا ولايتهم ووِدادهم.

إِلَّا ٱلَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَىٰ قَوۡمِۭ بَيۡنَكُمۡ وَبَيۡنَهُم مِّيثَٰقٌ أَوۡ جَآءُوكُمۡ حَصِرَتۡ صُدُورُهُمۡ أَن يُقَٰتِلُوكُمۡ أَوۡ يُقَٰتِلُواْ قَوۡمَهُمۡۚ وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَسَلَّطَهُمۡ عَلَيۡكُمۡ فَلَقَٰتَلُوكُمۡۚ فَإِنِ ٱعۡتَزَلُوكُمۡ فَلَمۡ يُقَٰتِلُوكُمۡ وَأَلۡقَوۡاْ إِلَيۡكُمُ ٱلسَّلَمَ فَمَا جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمۡ عَلَيۡهِمۡ سَبِيلٗا ﴿٩٠﴾ سَتَجِدُونَ ءَاخَرِينَ يُرِيدُونَ أَن يَأۡمَنُوكُمۡ وَيَأۡمَنُواْ قَوۡمَهُمۡ كُلَّ مَا رُدُّوٓاْ إِلَى ٱلۡفِتۡنَةِ

﴿إِلَّا﴾ المهاجرين ﴿ٱلَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَىٰ قَوۡمِۭ بَيۡنَكُمۡ وَبَيۡنَهُم مِّيثَٰقٌ﴾ عهدٌ وثيقٌ على أن لا تستعينوا منهم ولا تعينوا عليهم والمواصلون إليهم في حكمهم وعلى عهدهم فلا تأخذوهم ولا تقتلوهم حتى لا تنقضوا الميثاق ﴿أَوۡ جَآءُوكُمۡ﴾ حال كونهم قد ﴿حَصِرَتۡ﴾ ضاقت وانقضت ﴿صُدُورُهُمۡ﴾ من الرعب من المهابة وحين كره ولم يؤذن ﴿أَن يُقَٰتِلُوكُمۡ أَوۡ يُقَٰتِلُواْ قَوۡمَهُمۡۚ﴾ لأن المروءة تأبى عن ذلك، إذ هم ليسوا على عدة القتال، فعليكم أن لا تبادروا إليه، إذ القتال إنما فرض مع المقاتلين المجترئين ﴿وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ﴾ قتالكم ﴿لَسَلَّطَهُمۡ﴾ لجرأهم ﴿عَلَيۡكُمۡ﴾ وأزال رعبهم عنكم ﴿فَلَقَٰتَلُوكُمۡۚ﴾ ولم ينصرفوا عنكم ﴿فَإِنِ ٱعۡتَزَلُوكُمۡ﴾ وانصرفوا عنكم ﴿فَلَمۡ يُقَٰتِلُوكُمۡ﴾ ولم يتعرضوا لكم ﴿وَ﴾ مع ذلك ﴿أَلۡقَوۡاْ إِلَيۡكُمُ ٱلسَّلَمَ﴾ أي الاستسلام والانقياد ﴿فَمَا جَعَلَ ٱللَّهُ﴾ الميسر ﴿لَكُمۡ﴾ جميع أموركم ﴿عَلَيۡهِمۡ﴾ أي على قتلهم وأسرهم ﴿سَبِيلٗا ﴿٩٠﴾﴾ بل اصبروا حتى يأذن الله لكم.

﴿سَتَجِدُونَ ءَاخَرِينَ﴾ من الكفار ﴿يُرِيدُونَ أَن يَأۡمَنُوكُمۡ﴾ بإظهار الهدنة والمحبة والاستسلام ﴿وَيَأۡمَنُواْ قَوۡمَهُمۡ﴾ عن شركم وقتالكم، هم أعداءٌ لكم لا تغفلوا عنهم وعن هجومهم بغتةً إذ هم ﴿كُلَّ مَا رُدُّوٓاْ إِلَى ٱلۡفِتۡنَةِ﴾ إلى الكفر

أُرْكِسُوا فِيهَا فَإِن لَّمْ يَعْتَزِلُوكُمْ وَيُلْقُوا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ وَيَكُفُّوا أَيْدِيَهُمْ فَخُذُوهُمْ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأُولَئِكُمْ جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا مُّبِينًا ﴿٩١﴾ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَأً وَمَن قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَأً فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ إِلَّا أَن يَصَّدَّقُوا فَإِن كَانَ مِن

والعداوة ﴿أُرْكِسُوا فِيهَا﴾ وعادوا إليها وصاروا على ما كانوا بل أشد منه ﴿فَإِن لَّمْ يَعْتَزِلُوكُمْ﴾ إظهاراً لودادتكم ﴿وَيُلْقُوا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ﴾ تخديعاً وتأميناً ﴿وَيَكُفُّوا أَيْدِيَهُمْ﴾ عن قتالكم تغريراً لكم حتى يتهيؤوا أسبابهم ﴿فَخُذُوهُمْ﴾ وأسروهم ﴿وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ﴾ حيث وجدتموهم في داركم أو دارهم ﴿وَأُولَئِكُمْ﴾ المغرورون بخداعهم ﴿جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ﴾ على أخذهم وقتلهم ﴿سُلْطَانًا مُّبِينًا ﴿٩١﴾﴾ حجةً واضحةً فعليكم أن لا تعبؤوا بدعواهم ولا تغتروا بصلحهم وكفِّهم وإلقائهم السلم، إذ هم من غاية بغضهم معكم يريدون أن يخدعوكم وينتهزوا الفرصة لمقتكم.

﴿وَمَا كَانَ﴾ أي ما صح وجاز ﴿لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَأً﴾ لا قصداً واختياراً مطلقاً ﴿وَمَن قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَأً فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ﴾ أي لزم عليه شرعاً تحرير رقبة متصفة بالإيمان، محكومةٍ به ليكون كفارةً مسقطةً لحق الله ﴿وَ﴾ لزم عليه أيضاً ﴿دِيَةٌ﴾ كاملةٌ ﴿مُّسَلَّمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ﴾ ورثته الذين يرثون منه حفظاً لحقوقهم وجبراً لما انكسر من قلوبهم ﴿إِلَّا أَن يَصَّدَّقُوا﴾ أي يسقطوا حقوقهم متصدقين ﴿فَإِن كَانَ﴾ المقتول ﴿مِن﴾

قَوْمٍ عَدُوٍّ لَّكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌ فَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ تَوْبَةً مِّنَ ٱللَّهِ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٩٢﴾ وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا

عَداد ﴿قَوْمٍ عَدُوٍّ لَّكُمْ﴾ عداوة بينة ﴿وَهُوَ﴾ أي المقتول ﴿مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ﴾ أي فالواجب على القاتل تحرير رقبة مؤمنة فقط، إذ لا مواساة مع أهله ولا وراثة لهم منه ﴿وَإِن كَانَ﴾ المؤمن المقتول ﴿مِن قَوْمٍ﴾ ذوي ذمة ﴿بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌ﴾ عهدٌ وثيقٌ ﴿فَدِيَةٌ﴾ أي فاللازم حينئذٍ ديةٌ كاملةٌ ﴿مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ﴾ حفظاً للميثاق ومواساةً معهم، رجاء أن يؤمنوا، إذ سر المواثيق والعهود الواقعة بين أهل الإيمان والكفر إنما هو المواساة والمداراة معهم ملاطفةً رجاء أن يرغبوا بالإيمان طوعاً ﴿وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ﴾ لإسقاط حق الله وجبر ما انكسر من حدوده ﴿فَمَن لَّمْ يَجِدْ﴾ رقبةً مملوكةً ولا ما يتوصل به إليها ﴿فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ﴾ فعليه أن يصوم شهرين كاملين على التوالي بلا فصلٍ كسراً لما جرأه على هذا الخطأ وليكون ﴿تَوْبَةً﴾ مقبولةً عند الله ، مكفرةً لخطئه ناشئةً ﴿مِّنَ﴾ خوف ﴿ٱللَّهِ﴾ وخشيته لاجترائه على تخريب بيته ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ﴾ المطلع بضمائر عباده ﴿عَلِيمًا﴾ بحاله وقت إنابته ورجوعه ﴿حَكِيمًا ﴿٩٢﴾﴾ فيما أمره وحكم عليه لإزالة ما عليه وما صدر عنه.

﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا﴾ مباشراً على قتله إرادةً واختياراً،

فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا ﴿٩٣﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا ضَرَبۡتُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَتَبَيَّنُواْ وَلَا تَقُولُواْ لِمَنۡ أَلۡقَىٰٓ إِلَيۡكُمُ ٱلسَّلَٰمَ لَسۡتَ مُؤۡمِنًا ....

والعمد على الوجه من إمارات الاستحلال ﴿فَجَزَآؤُهُۥ﴾ أي جزاء المستحل ووبال وزره لا يسقط عنه لا بالتحرير[1]، ولا بالدية ولا بالصوم والصدقة بل جزاؤه ﴿جَهَنَّمُ﴾ البعد عن جوار الله يصير ﴿خَٰلِدًا فِيهَا﴾ مؤبداً إلى ما شاء الله ﴿وَ﴾ مع خلوده في نار الخذلان والحرمان ﴿غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ﴾ أي أخذه وأخزاه بأنواع الخزي والمذلة ﴿وَلَعَنَهُۥ﴾ طرده عن حضوره وأسقطه عن مرتبة خلافته ﴿وَأَعَدَّ لَهُۥ﴾ أي هيأ له ﴿عَذَابًا عَظِيمًا ﴿٩٣﴾﴾ بحيث لا يصفو معه ولا ينظر إليه أبداً.

نعوذ بك من غضبك وسخطك يا أرحم الراحمين.

ومن عظم أمر القتل عند الله وإزالة الحياة التي حصل من نفخ الروح الذي أضافه لنفسه، أمر سبحانه على المؤمنين الذين يقصدون بالقتال والجهاد رضاء الله وإعلاء دينه ترويج توحيده بالتبيين والتفتيش فيه على وجه المبالغة حتى لا يؤدي إلى تخريب بنائه وإبطال صنيعه فقال منادياً:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ مقتضى إيمانكم ﴿إِذَا ضَرَبۡتُمۡ﴾ سافرتم للجهاد ﴿فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ لإعلاء كلمة توحيده وانتصار دين نبيه ﴿فَتَبَيَّنُواْ﴾ فاطلبوا بيان الأمر والحال من كل من استقبل عليكم ولا تبادروا إلى قتل بلا تفتيش حالة ﴿وَ﴾ خصوصاً ﴿لَا تَقُولُواْ لِمَنۡ أَلۡقَىٰٓ إِلَيۡكُمُ ٱلسَّلَٰمَ﴾ الإطاعة والانقياد ﴿لَسۡتَ مُؤۡمِنًا﴾ بل كافراً مداهناً خائفاً تبادر علينا بالإطاعة حفظاً لدمك

(١) في المخطوط (إلا بالتحرير).

تَبۡتَغُونَ عَرَضَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا فَعِندَ ٱللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٞۚ كَذَٰلِكَ كُنتُم مِّن قَبۡلُ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡكُمۡ فَتَبَيَّنُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٗا ﴿٩٤﴾ ....

ومالك حال كونكم ﴿تَبۡتَغُونَ﴾ تطلبون بهذا القول ﴿عَرَضَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾ أي متاعها التي هي حطامٌ زائلةٌ وأثاثٌ باطلةٌ ﴿فَعِندَ ٱللَّهِ﴾ لكم أن امتثلتم لأمره ورضيتم ﴿مَغَانِمُ كَثِيرَةٞۚ﴾ مما تتلذذ به نفوسكم يغنيكم عن حطام الدنيا ومزخرفاتها، بادروا إليها ولا تميلوا إلى لذاتها الفانية ﴿كَذَٰلِكَ﴾ أي مثل ما ألقى إليكم السلم ﴿كُنتُم مِّن قَبۡلُ﴾ أي قبل رسوخكم على الإيمان واطمئنانكم على شعائر الإسلام تفوهتم بكلمتي الشهادة وأظهرتم الإيمان والإطاعة لحفظ دمائكم وأموالكم ﴿فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡكُمۡ﴾ بالتمكن والاطمئنان والعزيمة الصحيحة والاستقامة في شعائر الإسلام، ﴿فَتَبَيَّنُوٓاْۚ﴾ أيضاً عن حالهم واقبلوا منهم ما قالوا كما قَبِل الله منكم من قَبْلُ رجاء أن ينكشفوا بما انكشفتم ﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾ المطلعَ بسرائركم وضمائركم ﴿كَانَ﴾ في سابق علمه ﴿بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾ من الأغراض المؤدية إلى الحطام الدنيوية ﴿خَبِيرٗا ﴿٩٤﴾﴾ عليماً لا يعزب عن علمه وخبرته شيء.

روي أن سريةً من أصحاب رسول الله غزت أهل فدك، فهربوا وبقي فيها مرداس اعتماداً على إسلامه، فلما رأى الخيل ألجأ غنمه إلى شعب الجبل، وصعد عليه، فلما تلاحقوا كبَّروا وكبَّر أيضاً، ونزل وقال: لا إله

﴿لَّا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۚ فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً ۚ وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ ۚ وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٩٥﴾ دَرَجَاتٍ مِّنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً ۚ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٩٦﴾ إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ﴾

إلا الله محمد رسول الله السلام عليكم يا أصحاب رسول الله مرحباً بكم وبقدومكم، فقتله أسامة واستاق غنمه، فنزلت، ثم قال سبحانه:

﴿لَّا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ﴾ عن الحرب ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ حال كونكم ﴿غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ﴾ من الدم والمرض[1] والذمامة وغيرها ﴿وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ﴾ ابتغاءً لوجه الله وطلباً لمرضاته ﴿فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً﴾ عظيمةً وفاءً لحق ما اجتهدوا في سبيله ﴿وَ﴾ إن كان ﴿كُلًّا﴾ منهم ممن ﴿وَعَدَ اللَّهُ﴾ لهم المثوبة ﴿الْحُسْنَىٰ﴾ والمراتب العظمى والدرجة العليا ﴿وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ﴾ زيادةً ﴿عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٩٥﴾﴾ هو الفوز بمرتبة الشهادة وفضّل الله لهم في تلك المرتبة ﴿دَرَجَاتٍ مِّنْهُ﴾ بعضها قريبٌ وبعضها أقرب، إلى ما يشاء الله ﴿وَمَغْفِرَةً﴾ لذنوبهم بالمرة كيوم الولادة ﴿وَرَحْمَةً﴾ خاصةً لهم بأن يكونوا عند ربهم يرزقون، فرحين بما آتاهم الله من فضله ﴿وَكَانَ اللَّهُ﴾ المراقب لأحوال عباده ﴿غَفُورًا﴾ لذنوبهم ﴿رَّحِيمًا ﴿٩٦﴾﴾ لهم يرحمهم حسب فضله وطَوله.

ثم قال سبحانه:

﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ﴾ وهم الذين بقوا في مكة ولم يهاجروا مع

---

(١) هكذا ورد في المخطوطة والمعروف أن أهل الأعذار هم: الاعمى والأعرج والمريض.

ظَالِمِيٓ أَنفُسِهِمۡ قَالُواْ فِيمَ كُنتُمۡۖ قَالُواْ كُنَّا مُسۡتَضۡعَفِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ قَالُوٓاْ أَلَمۡ تَكُنۡ أَرۡضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٗ فَتُهَاجِرُواْ فِيهَاۚ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۖ وَسَآءَتۡ مَصِيرًا ﴿٩٧﴾ إِلَّا ٱلۡمُسۡتَضۡعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ ....

رسول الله ولا بعده، فاستزلهم العدو وأخرجوهم إلى قتال رسول الله يوم بدر فقتلهم الملائكة حين إمدادهم لرسول الله ﷺ ﴿ظَالِمِيٓ أَنفُسِهِمۡ﴾ بتوطينها بين العدو مع القدرة على الهجرة، مع أنه حينئذٍ لا يقبل منهم الإيمان بلا هجرةٍ، ثم نسخ بعد الفتح لذلك قال عليه السلام: «لَا هِجْرَةَ بَعْدَ الفَتْحِ»[1] ﴿قَالُواْ﴾ أي الملائكة لهم حين أظهروا الإيمان بمحمد ﷺ: ﴿فِيمَ كُنتُمۡۖ﴾ في أي أمر وشأن من دينكم مع كونكم بين أعداء الله ورسوله ﴿قَالُواْ﴾ في جوابهم معتذرين: ﴿كُنَّا مُسۡتَضۡعَفِينَ﴾ محبوسين ﴿فِي ٱلۡأَرۡضِۚ﴾ أرض العدو حين استزلونا وأخرجونا إلى قتال رسول الله ﴿قَالُوٓاْ﴾ أي الملائكة موبخين لهم مقرعين تبكيتاً وإلزاماً: ﴿أَلَمۡ تَكُنۡ أَرۡضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٗ فَتُهَاجِرُواْ فِيهَاۚ﴾ مع كونكم غير ملجئين على القعود ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ﴾ البعداء المداهنون مع الأعداء المظاهرين لهم ﴿مَأۡوَىٰهُمۡ﴾ ومثواهم ﴿جَهَنَّمُۖ﴾ البعد عن جوار الله وسعة رحمته ﴿وَسَآءَتۡ﴾ جهنم ﴿مَصِيرًا ﴿٩٧﴾﴾ مآباً ومتقلباً لهم.

﴿إِلَّا ٱلۡمُسۡتَضۡعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ﴾ الذين استضعفهم المرض أو الهرم أو عدم المكنة ﴿وَٱلنِّسَآءِ﴾ لأنهن لسن متكلفات بالهجرة إلا مع أزواجهن

(١) متفق عليه، صحيح البخاري [٣/ ١٠٢٥ رقم/ ٢٦٣١/ كتاب: الجهاد].
وصحيح مسلم [٢/ ٩٨٦رقم/ ١٣٥٣/ باب:تحريم مكة وصيدها].

وَٱلۡوِلۡدَٰنِ لَا يَسۡتَطِيعُونَ حِيلَةٗ وَلَا يَهۡتَدُونَ سَبِيلٗا ﴿٩٨﴾ فَأُوْلَٰٓئِكَ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَعۡفُوَ عَنۡهُمۡۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَفُوًّا غَفُورٗا ﴿٩٩﴾ ۞ وَمَن يُهَاجِرۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ يَجِدۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُرَٰغَمٗا كَثِيرٗا وَسَعَةٗۚ وَمَن يَخۡرُجۡ مِنۢ بَيۡتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ يُدۡرِكۡهُ ٱلۡمَوۡتُ فَقَدۡ وَقَعَ أَجۡرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِۗ ....

﴿وَٱلۡوِلۡدَٰنِ﴾ وهم ليسوا من أهل التكليف وبالجملة المستضعفون هم الذين ﴿لَا يَسۡتَطِيعُونَ حِيلَةٗ﴾ أي لا يقدرون على إحداث حيلةٍ تنجيهم عن أعدائهم ﴿وَلَا يَهۡتَدُونَ سَبِيلٗا ﴿٩٨﴾﴾ يوصلهم إلى أوليائهم حتى يهاجروا.

﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ﴾ المضطربون في أمر الهجرة المستضعفون في يد العدو ﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَعۡفُوَ عَنۡهُمۡۚ﴾ أي يمحوَ عن صحائف أعمالهم زلتهم الاضطرارية ويغفر ذنوبهم كسائر المؤمنين إن كانوا مخلصين في الإيمان ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ﴾ المطلع لسرائر عباده ونياتهم ﴿عَفُوًّا﴾ لمن أخلص ﴿غَفُورٗا ﴿٩٩﴾﴾ لمن تاب ورجع.

﴿۞ وَمَن يُهَاجِرۡ﴾ عن بقعة الإمكان التي هي أرض الطبيعة سالكاً ﴿فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ الذي هو الصراط المستقيم الموصلُ إلى الفناء فيه، متوجهاً إلى الفوز ببقائه الأزلي السرمدي ﴿يَجِدۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ أرض الطبيعة ﴿مُرَٰغَمٗا كَثِيرٗا﴾ أي بَوَاديَ وأوديةً من اللذات الوهمية، كثُر وقوفه فيها إلى أن ينجو ﴿وَ﴾ يجد أيضاً ﴿سَعَةٗ﴾ مخرجاً من تلك المضائق حسب إخلاصه في سلوكه إلى أن يفوز بمطلوبه ﴿وَ﴾ بالجملة أن ﴿مَن يَخۡرُجۡ مِنۢ بَيۡتِهِۦ﴾ أي هويته الباطلة في نفسها حال كونه ﴿مُهَاجِرًا إِلَى﴾ توحيد ﴿ٱللَّهِ﴾ ﴿وَ﴾ متابعة ﴿رَسُولِهِۦ ثُمَّ يُدۡرِكۡهُ ٱلۡمَوۡتُ﴾ الإرادي فمات عن لوازم البشرية مطلقاً ﴿فَقَدۡ وَقَعَ أَجۡرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِۗ﴾

وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٠٠﴾ وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي ٱلْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَقْصُرُوا۟ مِنَ ٱلصَّلَوٰةِ إِنْ خِفْتُمْ أَن يَفْتِنَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱلْكَٰفِرِينَ كَانُوا۟ لَكُمْ عَدُوًّا مُّبِينًا ﴿١٠١﴾ وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَلْتَقُمْ طَآئِفَةٌ مِّنْهُم مَّعَكَ وَلْيَأْخُذُوٓا۟ أَسْلِحَتَهُمْ ....

كما قال سبحانه في الحديث القدسي: «مَنْ أَحَبَّنِي أَحْبَبْتُهُ، وَمَنْ أَحْبَبْتُهُ قَتَلْتُهُ، وَمَنْ قَتَلْتُهُ فَعَلَيَّ دِيَتُهُ، وَمَنْ عَلَيَّ دِيَتُهُ فَأَنَا دِيَتُهُ»[1].

من هذا تفطن العارف أن ليس وراء الله مرمى، وإياك أن تتقيد بهويتك ولوازمها، ومتى تخلصت عنها وعن لوازمها وصلتَ بل اتصلتَ ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ﴾ المرشدُ لعباده إلى توحيده ﴿غَفُورًا﴾ لذنوب أنانيتهم وهويتهم ﴿رَّحِيمًا ﴿١٠٠﴾﴾ لهم يوصلهم إلى ما يتوجهون نحوه، ثم قال سبحانه:

﴿وَإِذَا ضَرَبْتُمْ﴾ سافرتم ﴿فِي ٱلْأَرْضِ﴾ لا لمعصية بل لمصلحة دينية من تجارةٍ وغزوٍ وحجٍ وصلةٍ وطلبِ علمٍ وغير ذلك ﴿فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ﴾ ضيقٌ ووزر ﴿أَن تَقْصُرُوا۟ مِنَ ٱلصَّلَوٰةِ﴾ الرباعية ركعتين ﴿إِنْ خِفْتُمْ أَن يَفْتِنَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟﴾ بالاحتيال والاغتيال ﴿إِنَّ ٱلْكَٰفِرِينَ كَانُوا۟﴾ دائماً ﴿لَكُمْ عَدُوًّا مُّبِينًا ﴿١٠١﴾﴾ ظاهرَ العدواة مترصدين للفرصة.

﴿وَإِذَا كُنتَ﴾ يا أكمل الرسل ﴿فِيهِمْ﴾ أي في المؤمنين ﴿فَأَقَمْتَ لَهُمُ﴾ أنت لهم ﴿ٱلصَّلَوٰةَ﴾ إماماً، فرِّقهم فرقتين ﴿فَلْتَقُمْ طَآئِفَةٌ مِّنْهُم مَّعَكَ﴾ متابعين لك مؤتمين بك ﴿وَلْيَأْخُذُوٓا۟ أَسْلِحَتَهُمْ﴾ أي جميعها احتياطاً

---

(١) الألوسي في روح المعاني [٢/ ٧٢ سورة البقرة :١٨٩] و علي القاري في مرقاة المفاتيح [٤/ ٧٣ رقم/ ١٦٧٣٦ /].

فَإِذَا سَجَدُواْ فَلْيَكُونُواْ مِن وَرَآئِكُمْ وَلْتَأْتِ طَآئِفَةٌ أُخْرَىٰ لَمْ يُصَلُّواْ فَلْيُصَلُّواْ مَعَكَ وَلْيَأْخُذُواْ حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ وَدَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُم مَّيْلَةً وَاحِدَةً وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن كَانَ بِكُمْ أَذًى مِّن مَّطَرٍ أَوْ كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَن تَضَعُوٓاْ أَسْلِحَتَكُمْ وَخُذُواْ حِذْرَكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿١٠٢﴾ ....

﴿فَإِذَا سَجَدُواْ﴾ هؤلاء المؤتمون ﴿فَلْيَكُونُواْ﴾ أي الطائفة الأخرى ﴿مِن وَرَآئِكُمْ﴾ حارسين حافظين لكم ﴿وَلْتَأْتِ﴾ بعد ما صلوا ﴿طَآئِفَةٌ أُخْرَىٰ لَمْ يُصَلُّواْ فَلْيُصَلُّواْ مَعَكَ﴾ كما صلوا ﴿وَلْيَأْخُذُواْ﴾ معهم ﴿حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ﴾ كما أخذوا، فليكن المصلون من ورائكم كما كانوا، فيصلي الإمام صلاة الخوف مرتين مع الطائفتين، أو يوزعهما عليهما على اختلاف الفقهاء، فعليكم أن لا تغفلوا من العدو سيما عند الخوف إذ ﴿وَدَّ﴾ تمنى ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ﴾ بصلاةٍ ونحوها ﴿فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُم﴾ بغتةً ﴿مَّيْلَةً وَاحِدَةً﴾ فصادفوكم عزلاً لا سلاح معكم فاستأصلوكم بالمرة ﴿وَ﴾ ليس هذا الأمر للوجوب بل ﴿لَا جُنَاحَ﴾ لا ضيق ولا جرم ﴿عَلَيْكُمْ إِن كَانَ بِكُمْ أَذًى مِّن مَّطَرٍ﴾ وغيره ﴿أَوْ كُنتُم مَّرْضَىٰٓ﴾ يشق عليكم أخذها ﴿أَن تَضَعُوٓاْ أَسْلِحَتَكُمْ﴾ لدفع الحرج ﴿وَخُذُواْ﴾ حين وضعها ﴿حِذْرَكُمْ﴾ أي من حذركم مقدار ما يحذر به إن أتوا بغتة ﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾ القادر المقتدر على الانتقام ﴿أَعَدَّ﴾ هيأ ﴿لِلْكَٰفِرِينَ﴾ به وبرسوله ﴿عَذَابًا مُّهِينًا ﴿١٠٢﴾﴾ بأيدي المؤمنين يغلبهم ويذلهم وأعد للمؤمنين النصر والظفر

﴿فَإِذَا قَضَيْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ قِيَـٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ ۚ فَإِذَا ٱطْمَأْنَنتُمْ فَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ ۚ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتْ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ كِتَـٰبًا مَّوْقُوتًا ﴿١٠٣﴾ وَلَا تَهِنُوا۟ فِى ٱبْتِغَآءِ ٱلْقَوْمِ ۖ إِن تَكُونُوا۟ تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ ۖ وَتَرْجُونَ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٠٤﴾﴾

بعدما أمرهم بالتيقظ والاحتياط لئلا ييأسوا من عون الله ونصره.

﴿فَإِذَا قَضَيْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ عند الخوف على الوجه المأمور ﴿فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ﴾ بعد الفراغ منها ﴿قِيَـٰمًا﴾ قائمين ﴿وَقُعُودًا﴾ قاعدين ﴿وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ ۚ﴾ مضطجعين جبراً لما فوّتم من أركانها وأبعاضها وآدابها حالة اضطرابكم ﴿فَإِذَا ٱطْمَأْنَنتُمْ﴾ وزال خوفكم وارتفع رعبكم ﴿فَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ ۚ﴾ وأتموها وأدوها، مراعين جميع شرائطها وآدابها، محافظين عليها، مهتمين ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ المقربة لكم إلى ربكم ﴿كَانَتْ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ الموقنين بوحدانية الله المتوجهين نحو فردانيته بجميع الأعضاء والجوارح ﴿كِتَـٰبًا مَّوْقُوتًا ﴿١٠٣﴾﴾ فرضاً موقتاً محدوداً[1]، لازمَ الأداء لكل مكلف جُبلَ على نشأة التوحيد.

﴿وَلَا تَهِنُوا۟﴾ ولا تضعفوا ﴿فِى ٱبْتِغَآءِ ٱلْقَوْمِ ۖ﴾ أي في وقت طلب الكفار قتالكم إذ هم مثلكم ﴿إِن تَكُونُوا۟ تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ﴾ أيضاً ﴿يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ ۖ﴾ ﴿وَ﴾ فائدة القتال وربحه عائد بكم إذ ﴿تَرْجُونَ مِنَ﴾ فضل ﴿ٱللَّهِ﴾ لانتصاره وإعلاء كلمته ﴿مَا لَا يَرْجُونَ ۗ﴾ فما لكم تضعفون وتجبنون عنه ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ﴾ الموفق لكم على القتال والأمر به ﴿عَلِيمًا﴾ بقوتكم ومقاومتكم ﴿حَكِيمًا ﴿١٠٤﴾﴾ فيما أمركم ونهى عنكم، فاتخِذوه

---

(١) في المخطوط (ممدوداً).

إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ بِٱلْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ ۚ وَلَا تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيمًا ﴿١٠٥﴾ وَٱسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٠٦﴾

سبحانه وقايةً لأنفسكم، وفوضوا أموركم كلها إليه، وامتثلوا لجميع ما أمر طائعين راغبين.

﴿إِنَّآ أَنزَلْنَآ﴾ من مقام جودنا وإحساننا ﴿إِلَيْكَ﴾ يا أكمل الرسل ﴿ٱلْكِتَـٰبَ﴾ الفارق بين الحق والباطل متلبساً بالحق الصريح ﴿بِٱلْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾ بالعدل الذي هو صراط الله الأعدل الأقوم خصوصاً ﴿بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ﴾ أي عرفك وأوصاك به ﴿وَلَا تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ﴾ أي لأجلهم ورعايةً جانبهم ﴿خَصِيمًا ﴿١٠٥﴾﴾ لأهل البراءة.

﴿وَٱسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ﴾ من رمي البريء والميل إلى الخائن ﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾ المطلعَ لضمائر عباده ﴿كَانَ غَفُورًا﴾ لمن استغفر له ﴿رَّحِيمًا ﴿١٠٦﴾﴾ لمن أخلص في استغفاره.

نزلت في طعمة بن أبيرق من بني ظفر، سرق درعاً من جاره قتادة بن النعمان، هو في جراب دقيق ينثر من خرق فيه، وأودعها عند زيد بن السهني اليهودي، فلما وقف قتادة ظن أنه عند طعمة، وطلب منه، فأنكر وتفحص في بيته، ولم يجد وحلف ما أخذها وما له بها علم وخبر، فتركه واتبع أثر الدقيق حتى انتهى إلى منزل اليهودي، فوجدها في بيته، وقال: أودعها عندي طعمة، وشهد له ناس من اليهود، فقالت بنو ظفر: انطلقوا بنا إلى رسول الله، فالتمسوا منه ﷺ أن يجادل في صاحبهم، وقالوا: إن لم تجادل عنه هلك وافتضح.

وَلَا تُجَٰدِلْ عَنِ ٱلَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا ﴿١٠٧﴾ يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَىٰ مِنَ ٱلْقَوْلِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا ﴿١٠٨﴾ هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ جَٰدَلْتُمْ عَنْهُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ....

فهمَّ رسول الله ﷺ أن يميل ويفعل ما التمسوا مداهنةً ومجادلةً، فجاء جبريل عليه السلام بهذه الآية، فندم ﷺ عما همَّ، واستغفر ربه، ورجع، وتضرع.

﴿وَلَا تُجَٰدِلْ﴾ يا من أرسل على الحق مع المحقين ﴿عَنِ﴾ جانب المبطلين ﴿ٱلَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْۚ﴾ باقتراف الخيانة وانتسابها إلى الغير افتراءً ﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾ المرسل لك على الحق ﴿لَا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا﴾ مقترفاً للخيانة ﴿أَثِيمًا ﴿١٠٧﴾﴾ مفترياً لغيره، تنزيهاً لنفسه عند الناس استخفاءً منهم، وهم من غاية عمههم وجهلهم.

﴿يَسْتَخْفُونَ﴾ خيانتهم ﴿مِنَ ٱلنَّاسِ﴾ مع بعدهم عنهم ﴿وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ﴾ والرقيب عليهم أقرب من وريدهم ﴿إِذْ يُبَيِّتُونَ﴾ يلبِّسون ويزوِّرون ﴿مَا لَا يَرْضَىٰ﴾ الله ﴿مِنَ ٱلْقَوْلِۚ﴾ الكاذب ورمي البريء وشهادة الزور والحلف الكاذب وغير ذلك ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ﴾ المطلع بسرائرهم وضمائرهم ﴿بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ من أمثال هذه الأباطيل الزائفة ﴿مُحِيطًا ﴿١٠٨﴾﴾ لا يعزب عن علمه شيء

﴿هَٰٓأَنتُمْ﴾ أيها المجادلون المبطلون ﴿هَٰٓؤُلَآءِ﴾ الخائنون المفترون ﴿جَٰدَلْتُمْ عَنْهُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ فسترتم ما عرض بهم من الخيانة والعار

فَمَن يُجَٰدِلُ ٱللَّهَ عَنۡهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ أَم مَّن يَكُونُ عَلَيۡهِمۡ وَكِيلٗا ﴿١٠٩﴾ وَمَن يَعۡمَلۡ سُوٓءًا أَوۡ يَظۡلِمۡ نَفۡسَهُۥ ثُمَّ يَسۡتَغۡفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ﴿١١٠﴾ وَمَن يَكۡسِبۡ إِثۡمٗا فَإِنَّمَا يَكۡسِبُهُۥ عَلَىٰ نَفۡسِهِۦۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمٗا ﴿١١١﴾ وَمَن يَكۡسِبۡ خَطِيٓـَٔةً أَوۡ إِثۡمٗا ثُمَّ يَرۡمِ بِهِۦ بَرِيٓـٔٗا فَقَدِ ٱحۡتَمَلَ بُهۡتَٰنٗا وَإِثۡمٗا مُّبِينٗا ﴿١١٢﴾

في هذه الدار ﴿فَمَن يُجَٰدِلُ ٱللَّهَ﴾ المنتقم ﴿عَنۡهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾ ويستر زلتهم عنه فيها ﴿أَم مَّن يَكُونُ عَلَيۡهِمۡ وَكِيلٗا ﴿١٠٩﴾﴾ بظاهرهم وينقذهم من عذاب الله وبطشه.

﴿وَ﴾ بالجملة ﴿مَن يَعۡمَلۡ سُوٓءًا﴾ معصيةً متعديةً ليسوء به غيره رمياً وافتراءً ﴿أَوۡ يَظۡلِمۡ نَفۡسَهُۥ﴾ بالخروج عن حدود الله بلا تعديةٍ إلى الغير ثم بعدما تفطن بوخامة عاقبته ﴿ثُمَّ يَسۡتَغۡفِرِ ٱللَّهَ﴾ بالتوبة والندامة الناشئة عن محض الخلوص والتيقظ ﴿يَجِدِ ٱللَّهَ﴾ الموفقَ له على التوبة ﴿غَفُورٗا﴾ يغفر ذنوبه ﴿رَّحِيمٗا ﴿١١٠﴾﴾ يقبل توبته تفضلاً وامتناناً ﴿وَمَن يَكۡسِبۡ﴾ منكم ﴿إِثۡمٗا﴾ موجباً للنكال والعذاب ﴿فَإِنَّمَا يَكۡسِبُهُۥ عَلَىٰ نَفۡسِهِۦۚ﴾ لا يتعدى وباله عنه ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ﴾ المجازي لعباده ﴿عَلِيمًا﴾ بما صدر عنهم ﴿حَكِيمٗا ﴿١١١﴾﴾ فيما جرى عليهم.

﴿وَمَن يَكۡسِبۡ﴾ منكم ﴿خَطِيٓـَٔةً﴾ معصيةً صادرةً عن خطأٍ لا عن قصدٍ ﴿أَوۡ إِثۡمٗا﴾ صادراً عن قصدٍ وعن اختيارٍ ﴿ثُمَّ يَرۡمِ بِهِۦ﴾ منزهاً عند نزاهة نفسه ﴿بَرِيٓـٔٗا فَقَدِ ٱحۡتَمَلَ﴾ وتحمل الرامي ﴿بُهۡتَٰنٗا﴾ افتراءً ﴿وَإِثۡمٗا مُّبِينٗا ﴿١١٢﴾﴾ ظاهراً في إسقاط العدالة واستجلاب العذاب.

وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُۥ لَهَمَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ أَن يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ ۖ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِن شَيْءٍ ۚ وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ ۚ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴿١١٣﴾ ۞ لَّا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَىٰهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ

﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ ﴾ يا أكمل الرسل بإنزال الوحي ﴿وَرَحْمَتُهُۥ﴾ بإعلام ما هم عليه من رمي البريء ﴿لَهَمَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ أَن يُضِلُّوكَ ﴾ عن منهج الرشاد ومقتضى حكم الله وأمره ﴿وَ﴾ بعد ما أدركك الوحي والإلهام ﴿مَا يُضِلُّونَ ﴾ بتلبيسهم ﴿ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ ﴾ إذ عاد وباله ونكاله عليهم ﴿وَمَا يَضُرُّونَكَ مِن شَيْءٍ ﴾ أي شيئاً من الضرر لأن الله يعصمك عما لبَّسوه[1] عليك ويأخذهم ﴿وَ﴾ عليك أن تجتنب عن تلبيساتهم وتزويراتهم والإصغاء إلى أكاذيبهم ومفترياتهم إذ ﴿أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ﴾ من غاية لطفه ﴿ٱلْكِتَٰبَ ﴾ المبين للوقائع والأحكام ﴿وَٱلْحِكْمَةَ ﴾ المتقنة الكاشفة عن سرائرها ﴿وَعَلَّمَكَ﴾ من الحقائق والمعارف ﴿مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ ﴾ من قبلُ ﴿وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ ﴾ بإعطاء هذه الفضائل ﴿عَظِيمًا ﴿١١٣﴾﴾ إذ لا فضل أعظم منه، وإذا كان شأنك عند الله هذا، لا تبال بهم وبمعاونتهم ومصاحبتهم، إذ

﴿۞ لَّا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَىٰهُمْ ﴾ دعائهم ومناجاتهم في خلواتهم ﴿ إِلَّا مَنْ أَمَرَ ﴾ نفسه ﴿بِصَدَقَةٍ﴾ على الفقراء موجبةٍ لرحمة الله له ﴿أَوْ مَعْرُوفٍ ﴾ مستحسنٍ عقلاً وشرعاً من الأخلاق الحميدة والخصائل المرضية

---

(١) في المخطوط (عما يلتبسوه).

أَوْ إِصْلَٰحٍ بَيْنَ ٱلنَّاسِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١١٤﴾ وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِۦ جَهَنَّمَ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿١١٥﴾ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ ....

﴿أَوْ إِصْلَٰحٍ بَيْنَ ٱلنَّاسِ ۚ﴾ على الوجه الأحسن الأوفق ﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ﴾ كل واحد من ذلك ﴿ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ﴾ خالصاً لرضاه بلا تخلل الرياء والسمعة وقصد الرئاسة والجاه بين الأنام ﴿فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ﴾ من فضلنا وجودنا ﴿أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١١٤﴾﴾ فوق ما يستحقه.

﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ﴾ ويخالفه ﴿مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ﴾ ظهر ﴿لَهُ ٱلْهُدَىٰ﴾ جاء به الرسول لدلالة المعجزات الساطعة والبراهين القاطعة على صدقه ﴿وَ﴾ مع ظهور هذه الدلائل الواضحة ﴿يَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ المتابعين له مكابرةً وعناداً ﴿نُوَلِّهِۦ﴾ على ﴿مَا تَوَلَّىٰ﴾ من الغيِّ والضلال ونخلِ بينه وبينه في النشأة الأولى ﴿وَ﴾ في النشأة الأخرى ﴿نُصْلِه﴾ ندخله ﴿جَهَنَّمَ ۖ﴾ البعد والخذلان ﴿وَسَآءَتْ﴾ جهنم ﴿مَصِيرًا ﴿١١٥﴾﴾ منقلباً ومآباً لأهلها.

أجرنا من النار يا مجير.

ثم قال سبحانه تسلية للعصاة وترغيباً لهم إلى الإنابة والرجوع:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾ المطلعَ لسرائر عباده ﴿لَا يَغْفِرُ﴾ ولا يعفو ﴿أَن يُشْرَكَ بِهِۦ﴾ شيئاً من مصنوعاته في استحقاق العبادة وإسناد الحوادث نحوه ﴿وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ﴾ وإن استكرهه واستنكره وندم منه ولم يصر عليه

وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَـٰلًۢا بَعِيدًا ﴿١١٦﴾ إِن يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ إِنَـٰثًا وَإِن يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَـٰنًا مَّرِيدًا ﴿١١٧﴾ لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا ﴿١١٨﴾ وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ..........

﴿وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ﴾ بنسبه الحوادث الكائنة إلى غيره ﴿فَقَدْ ضَلَّ﴾ عن جادة التوحيد ﴿ضَلَـٰلًۢا بَعِيدًا ﴿١١٦﴾﴾ لا ترجى هدايته أصلاً.

﴿إِن يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦٓ﴾ أي ما يدعون من دون الله آلهةً ﴿إِلَّآ إِنَـٰثًا﴾ وهي اللات والعزى والمناة ﴿وَإِن يَدْعُونَ﴾ من دونه ﴿إِلَّا شَيْطَـٰنًا مَّرِيدًا ﴿١١٧﴾﴾ مردوداً لا خير فيه أصلاً، إذ هو حَمَلَهم وأغراهم على عبادة الأصنام الجامدة.

وكيف يعبدونه ويدعون له وقد

﴿لَّعَنَهُ ٱللَّهُ﴾ وطرده عن عز حضوره وأخرجه من خلص عباده بواسطة تغرير العباد وإغرائهم إلى الشرك والطغيان ﴿وَ﴾ بعدما آيس عن رَوح الله وقنط من رحمته ﴿قَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ﴾ الذين طردتني بسببهم وأبعدتني لأجلهم ﴿نَصِيبًا﴾ حظاً كاملاً مما جعلته ﴿مَّفْرُوضًا ﴿١١٨﴾﴾ لهم من توحيدك وتقديسك بأن يغرهم ويلبّس عليهم إلى أن يشركوا بك وينسبوا إليك ما لا يليق بجنابك، فينحطوا بها عن كنف حفظك وجوارك ويستحقوا سخطك وغضبك.

﴿وَلَأُضِلَّنَّهُمْ﴾ بأنواع الخداع والوسوسة عن طريق توحيدك ﴿وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ﴾ بما يتعلق بمعاشهم في دار الغرور من الحرص وطول الأمل وسائر مشتهيات

وَلَأُمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ ءَاذَانَ ٱلْأَنْعَٰمِ وَلَأُمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَتَّخِذِ ٱلشَّيْطَٰنَ وَلِيًّا مِّن دُونِ ٱللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا ﴿١١٩﴾ يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ ۖ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢٠﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ وَلَا يَجِدُونَ عَنْهَا مَحِيصًا ﴿١٢١﴾ ....

النفس ومستلذاتها ﴿وَلَأُمُرَنَّهُمْ﴾ بتغيير أوضاعك وتنقيص مصنوعاتك وتخريب مخترعاتك ﴿فَلَيُبَتِّكُنَّ﴾ ليشقن ﴿ءَاذَانَ ٱلْأَنْعَٰمِ﴾ وأنوف الخيل وغير ذلك من الأعمال التي عملوا مع خلقك، بلا رخصةٍ شرعيةٍ ﴿وَلَأُمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ ٱللَّهِ ۚ﴾ بِمُوَالاتي إياهم ومواساتي معهم إلى أن يغيروا ما خُلق على مقتضى الحكمة من الأمور التي خرج بها عن الفطرة الإلهية وانحرفوا بها عن طريقه الأقوم الأعدل ﴿وَ﴾ بالجملة ﴿مَن يَتَّخِذِ ٱلشَّيْطَٰنَ وَلِيًّا مِّن دُونِ﴾ ولاية ﴿ٱللَّهِ﴾ المولي لجميع أموره ﴿فَقَدْ خَسِرَ﴾ لنفسه ﴿خُسْرَانًا مُّبِينًا ﴿١١٩﴾﴾ ظاهرة الخسارة والحرمان، إذ بدَّل ولاية الله الهادي بولاية الشيطان المضل ولا خسران أعظم منه.

وكيف لا يكون ولاية الشيطان خسراناً إذ ﴿يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ ۖ﴾ ما لا ينالون ويصلون إليه أصلاً كيف يصلون وإلى أي شيء ينالون ﴿وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢٠﴾﴾ أوهاماً وخيالاتٍ باطلةٍ لا وجود لها أصلاً، لا حالاً ولا مآلاً.

﴿أُو۟لَٰٓئِكَ﴾ المغرورون بغرور الشيطان والضالون بإضلاله ﴿مَأْوَىٰهُمْ﴾ ومثواهم ﴿جَهَنَّمُ﴾ البعد والإمكان ﴿وَ﴾ هم ﴿لَا يَجِدُونَ عَنْهَا مَحِيصًا ﴿١٢١﴾﴾

وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًاۖ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّاۚ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلًا ﴿١٢٢﴾ لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِۗ مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ وَلَا يَجِدْ لَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا ....

ملجأ ومهرباً أصلاً، بل يبقون فيها مخلداً مؤبداً.

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ بولاية الله وتوحيده ﴿وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ على مقتضى ما أمرَ الله ويسَّره ﴿سَنُدْخِلُهُمْ﴾ من فضلنا ﴿جَنَّٰتٍ﴾ منتزهات من العلم والعين والحق ﴿تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ أنهار الحقائق والمعارف والكشوفات والشهودات المتجددة بتجددات التجليات المترتبة على الأسماء والصفات الإلهية ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًاۖ﴾ على هذا المنوال ﴿وَعْدَ ٱللَّهِ﴾ الذي وعده لخلّص عباده ﴿حَقًّاۚ﴾ ثابتاً في علمه الحضوري قبل خلقهم بمدةٍ لا يعرفها إلا هو، فعليكم أيها المؤمنون أن تصدِّقوا وعده الثابت عنده ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلًا ﴿١٢٢﴾﴾ فيصدقوه ويثقوا به.

واعلموا أن ما ينالكم ويصل إليكم مما وعَد لكم ربكم ﴿لَّيْسَ﴾ وصوله وحصوله ﴿بِأَمَانِيِّكُمْ﴾ أي بمجرد أماني بلا قدم وسلوك ﴿وَلَآ أَمَانِيِّ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِۗ﴾ أي ليس ما يصل إليهم بأمانيهم فلا تخالفوا وتنازعوا معهم بل الأمور كلها إنما هي بمقتضى فضل الله وعدله وحسب توفيقه وتيسيره، وبالجملة ﴿مَن يَعْمَلْ﴾ منكم ومنهم ﴿سُوٓءًا﴾ يسوء به نفسه وغيره ﴿يُجْزَ بِهِۦ﴾ على مقتضى عدل الله عاجلاً وأجلاً ﴿وَلَا يَجِدْ لَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا﴾

وَلَا نَصِيرًا ﴿١٢٣﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا ﴿١٢٤﴾ وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَٱتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۗ وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا ﴿١٢٥﴾ ....

ينقذه من عذاب الله ﴿وَلَا نَصِيرًا ﴿١٢٣﴾﴾ يحمل بعض عذابه تخفيفاً له.

﴿ وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ المأمورة كلها أو بعضها سواء كان ﴿ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَ﴾ الحال أنه ﴿ هُوَ مُؤْمِنٌ﴾ بتوحيد الله وجميع كتبه ورسله ﴿ فَأُوْلَٰٓئِكَ ﴾ الصالحون الأمناء ﴿ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ ﴾ المعدةَ لأهل الإيمان والصلاح ﴿ وَلَا يُظْلَمُونَ ﴾ يُنقصون من جزاء ما عملوا ﴿ نَقِيرًا ﴿١٢٤﴾﴾ مقدار نقر النواة، بل يزدادون عليها ما شاء الله ، لا حول ولا قوة إلا بالله .

﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا ﴾ وأقوم سبيلاً ﴿مِّمَّنْ أَسْلَمَ﴾ أي سلَّم ﴿وَجْهَهُۥ﴾ المفاضُ له من الله ﴿لِلَّهِ﴾ المفيضِ لوجوه الأشياء الموجودة ﴿ وَهُوَ﴾ في حالة التسليم ﴿ مُحْسِنٌ ﴾ مع الله مستغرق بمطالعة جماله ﴿وَٱتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ﴾ التي هي أقوم الملل وأحسنها إذ هو ﴿حَنِيفًا ۗ﴾ مائلاً عن الأديان الباطلة والآراء الفاسدة مطلقاً ﴿وَ﴾ لذلك ﴿ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ﴾ المطلعُ لضمائر عباده

﴿ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا ﴿١٢٥﴾﴾ كأنه تخلل فيه إلى حيث صار سمعه وبصره ويده ورجله، على ما نطق به الحديث القدسي[1]، ولا يظن أنه تخلل فيه على وجه

(١) جزء من حديث طويل وصحيح .
رواه البخاري في صحيحه [٥/ ٢٣٨٤رقم/ ٦١٣٧ / باب: من جاهد نفسه في طاعة الله] وابن حبان في صحيحه [٢/ ٥٨رقم / ٣٤٧ /] والطبراني في المعجم الأوسط [٩/ ١٣٩رقم/ ٩٣٥٢ /] والكبير [٨/ ٢٠٦رقم / ٧٨٣٣ /] وغيرهم وللحديث طرق وشواهد كثيرة .

وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطًا ﴿١٢٦﴾ وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي ٱلنِّسَآءِۖ قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فِي ٱلْكِتَٰبِ فِي يَتَٰمَى ٱلنِّسَآءِ ٱلَّٰتِي لَا تُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَتَرْغَبُونَ أَن تَنكِحُوهُنَّ وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلْوِلْدَٰنِ وَأَن تَقُومُواْ لِلْيَتَٰمَىٰ بِٱلْقِسْطِۚ

الحلول والاتحاد، بل على التوحيد الصرف الخالي عن الكثرة مطلقاً، إذ

﴿ وَلِلَّهِ﴾ الواحد الأحد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد جميع ﴿مَا﴾ ظهر ﴿ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ أي العلويات ﴿وَمَا﴾ ظهر ﴿فِي ٱلْأَرْضِۚ﴾ أي السفليات، إذ كل ما ظهر وما بطن فمنه بدأ وإليه يعود ﴿ وَكَانَ ٱللَّهُ﴾ المتجلي في الآفاق والأنفس ﴿ بِكُلِّ شَيْءٍ﴾ من مظاهره ﴿مُّحِيطًا ﴿١٢٦﴾﴾ لا كإحاطة الظرفية بمظروفه بل كإحاطة الشمس بالأضواء والأظلال وإحاطة الروح بالجسم.

أذقنا بلطفك حلاوة توحيدك.

ثم قال سبحانه:

﴿ وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي﴾ ميراث ﴿ٱلنِّسَآءِۖ﴾ هل يرثن أم لا ﴿قُلِ﴾ في جوابهم يا أكمل الرسل ﴿ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ﴾ ويبين لكم ﴿فِيهِنَّ﴾ ميراثهن ﴿وَ﴾ هو ﴿مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فِي ٱلْكِتَٰبِ﴾ أي القرآن ﴿ فِي ﴾ حق ﴿يَتَٰمَى ٱلنِّسَآءِ ٱلَّٰتِي لَا تُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ ﴾ وتحرمونهن عن حقوقهن ظلماً ﴿وَ﴾ مع ذلك ﴿ تَرْغَبُونَ أَن تَنكِحُوهُنَّ﴾ أو تعضلوهن كرهاً ﴿وَ﴾ أيضاً في حق ﴿ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلْوِلْدَٰنِ ﴾ إذ هم كانوا لا يورثونهم كما لا يورثون النسوان ﴿وَ﴾ عليكم ﴿أَن تَقُومُواْ لِلْيَتَٰمَىٰ بِٱلْقِسْطِۚ﴾ والعدل بلا حيف لهم في مالهم وعرضهم ﴿

وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِهِۦ عَلِيمًا ﴿١٢٧﴾ وَإِنِ ٱمْرَأَةٌ خَافَتْ مِنۢ بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَآ أَن يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا ۚ وَٱلصُّلْحُ خَيْرٌ ۗ وَأُحْضِرَتِ ٱلْأَنفُسُ ٱلشُّحَّ ۚ وَإِن تُحْسِنُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١٢٨﴾ ....

وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ ﴾ الرقيب عليكم ﴿كَانَ بِهِۦ عَلِيمًا ﴿١٢٧﴾﴾ فيجازيكم على مقتضى علمه إن خيراً فخير وإن شراً فشر.

﴿وَإِنِ﴾ اضطرت ﴿ٱمْرَأَةٌ﴾ إلى الفرقة والسراح بأن ﴿خَافَتْ مِنۢ بَعْلِهَا﴾ سوء عشرته معها وعدم رعاية حقوقها ﴿نُشُوزًا﴾ عنها وميلاً إلى غيرها ﴿أَوْ إِعْرَاضًا﴾ طلاقاً وسراحاً ﴿فَلَا جُنَاحَ﴾ أي لا ضيق ولا تعب ﴿عَلَيْهِمَآ﴾ أي على الزوجين ﴿أَن يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا﴾ بأن أسقط كل منهما عما استحق له شيئاً أو زاد إلى أن يتصالحا ﴿صُلْحًا﴾ ناشئاً عن التراضي من الجانبين ﴿وَٱلصُّلْحُ﴾ بينهما ﴿خَيْرٌ﴾ من الفرقة والطلاق ﴿وَ﴾ لكن قلما يقع إذا ﴿أُحْضِرَتِ ٱلْأَنفُسُ﴾ الأمارة بالسوء من الجانبين ﴿ٱلشُّحَّ﴾ أي قد صارت الأنفس حينئذٍ مطبوعةً مرغوبةً على إحضار الشح والبخل فيما وجب عليها فلا يسمح كل منهما من حقه شيئاً، لذلك لم يرتفع النزاع والخصومة ﴿وَإِن تُحْسِنُوا۟﴾ أيها المؤمنون في المعاشرة مع الأزواج ﴿وَتَتَّقُوا۟﴾ من غضب الله في الخروج عن مقتضى حدوده ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ﴾ المجازي لعباده ﴿كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ من الميل إلى المحارم والإعراض عن حدود الله والمخالفة لأمره ﴿خَبِيرًا ﴿١٢٨﴾﴾ يجازيكم على مقتضى خبرته.

وَلَن تَسْتَطِيعُوٓاْ أَن تَعْدِلُواْ بَيْنَ ٱلنِّسَآءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ ۖ فَلَا تَمِيلُواْ كُلَّ ٱلْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَٱلْمُعَلَّقَةِ ۚ وَإِن تُصْلِحُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٢٩﴾ وَإِن يَتَفَرَّقَا يُغْنِ ٱللَّهُ كُلًّا مِّن سَعَتِهِۦ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ وَٰسِعًا حَكِيمًا ﴿١٣٠﴾ وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ ....

﴿وَ﴾ إن كنتم ذوي أزواج فوق واحدة ﴿لَن تَسْتَطِيعُوٓاْ أَن تَعْدِلُواْ﴾ وتعاشروا بالقسط إلى أن لا يقع التفاوت والتفاضل ﴿بَيْنَ ٱلنِّسَآءِ﴾ أصلاً ﴿وَلَوْ حَرَصْتُمْ﴾ بالغُتْم في رعاية العدل، إذ الميل الطبيعي يأبى عن إقامة العدل، لذلك قيل: لا وجود للاعتدال الحقيقي سيما في أمثاله ﴿فَلَا تَمِيلُواْ﴾ أي فعليكم أن لا تميلوا وتجانبوا عما تميلوا عنه ﴿كُلَّ ٱلْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا﴾ إلى حيث تتركوها ﴿كَٱلْمُعَلَّقَةِ﴾ لا أيماً ولا ذات بعل ﴿وَإِن تُصْلِحُواْ﴾ بعدما أفسدتم ﴿وَتَتَّقُواْ﴾ عن غضب الله في إضاعة حقها ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ﴾ المطلعَ لجميع ما صدر ويصدر عنكم ﴿كَانَ غَفُورًا﴾ لكم بعدما تبتم ورجعتم عما صدر عنكم ﴿رَّحِيمًا ﴿١٢٩﴾﴾ لكم يقبل توبتكم إن أخلصتم فيها.

﴿وَإِن﴾ يتنازعا حتى ﴿يَتَفَرَّقَا﴾ وارتفع النكاح بينهما ﴿يُغْنِ ٱللَّهُ﴾ بفضله ﴿كُلًّا﴾ منهما عن الآخر ﴿مِّن سَعَتِهِۦ﴾ أي من سعة رحمته وبسطة رزقه وفسحة مملكته ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ﴾ المتفضل لعباده ﴿وَٰسِعًا﴾ لهم في عطائه ﴿حَكِيمًا ﴿١٣٠﴾﴾ في إعطاء ما ينبغي.

﴿وَ﴾ كيف لا يكون واسع العطاء إذ ﴿لِلَّهِ﴾ المنعم المفضل جميع ﴿مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ وما بينهما ملكاً وخلقاً وتدبيراً وتصرفاً وإيجاداً

وَلَقَدْ وَصَّيْنَا ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ وَإِن تَكْفُرُوا۟ فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَنِيًّا حَمِيدًا ﴿١٣١﴾ وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ ....

وإعداماً وإبقاءً وإفناءً، وإذا كان الأمر على هذا فعليكم أن تتقوا من الله في السراء والضراء والخصب والرخاء ﴿وَ﴾ اعلموا أنَّا ﴿لَقَدْ وَصَّيْنَا﴾ من مقام فضلنا وَجُودِنا ﴿ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ أي اليهود والنصارى وجميع من أنزل إليهم الكتاب في كتبهم ﴿وَإِيَّاكُمْ﴾ أيضاً في كتابكم هذا ﴿أَنِ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ﴾ المالكَ لأزمة الأمور بالاستحقاق وأطيعوا أمره وتوجهوا نحوه ولا تكفروا به ﴿وَإِن تَكْفُرُوا۟﴾ وتعرضوا من غاية جهلكهم وعنادكم عما فرض عليكم أصلاً إصلاحاً لحالكم، فاعلموا أن الله الغني بذاته، لا يبالي بكفركم وإيمانكم ﴿فَإِنَّ لِلَّهِ﴾ رجوع ﴿مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ﴾ إرادةً وطوعاً ﴿وَ﴾ مع ذلك ﴿كَانَ ٱللَّهُ غَنِيًّا﴾ مستغنياً في ذاته وصفاته عن العالمين وعن كفرهم وإيمانهم ﴿حَمِيدًا ﴿١٣١﴾﴾ في نفسه، حُمِد أو لم يُحمد.

وكيف لا يكون سبحانه غنياً في ذاته حميداً في نفسه، إذ ليس في الوجود غيره ولا شيء سواه ليحمده، بل

﴿وَلِلَّهِ﴾ المنزه المستغني عن الأكوان الباطلة مطلقاً ﴿مَا﴾ ظهر ﴿فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ﴾ أي الأسماء والصفات المترتبة على تجليات الذات وتشعشعاتها ﴿وَمَا﴾ انعكس منها ﴿فِى ٱلْأَرْضِ ۚ﴾ أي الطبيعة العدم التي هي بمنزلة المرآة المقابلة لها ﴿وَ﴾ بالجملة ﴿كَفَىٰ بِٱللَّهِ﴾ أي كفى الله المتجلي لذاته بذاته في

وَكِيلًا ﴿١٣٢﴾ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا ٱلنَّاسُ وَيَأْتِ بِـَٔاخَرِينَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ قَدِيرًا ﴿١٣٣﴾ مَّن كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا فَعِندَ ٱللَّهِ ثَوَابُ ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴿١٣٤﴾ ....

ملابس أسمائه وصفاته ﴿وَكِيلًا ﴿١٣٢﴾﴾ في مظاهر ظلاله وعكوسه، وليس نسبتكم على الله أيها المنهمكون في بحر الغفلة، المحجوبون بحجاب التعينات العدمية لا بالمظهر والظلية.

﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ أي الأظلال المحجوبون عن شمس الذات الناسون في ظلمة العدم نورَ الوجود ﴿وَيَأْتِ﴾ بدلكم ﴿بِـَٔاخَرِينَ ۚ﴾ أي بأظلالٍ أُخر تتذكروا لها وتتوجهوا نحوها، وما ذلك على الله بعزيز ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ﴾ في ذاته ﴿عَلَىٰ ذَٰلِكَ﴾ الإذهاب والتبديل ﴿قَدِيرًا ﴿١٣٣﴾﴾ لا يفتر قدرته أصلاً، بل على هذا جَريان سنته دائماً، إذ هو كل يومٍ وآنٍ في شأن، مع أن المحجوب لم ينتبه ولم يتفطن، ومن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور.

نوّر قلوبنا بمعرفتك وأبصارَنا بمشاهدتك، وأرواحَنا بمعاينتك، إنك على ما تشاء قدير، وبالإجابة جدير.

﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ﴾ بالجهاد والقتال وجميع الأعمال المأمورة من عند الله ﴿ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا﴾ وما يصل إليها فيها من الغنيمة والرئاسة والتفوق على الأقران وعلو المرتبة بين الأنام ﴿فَعِندَ ٱللَّهِ ثَوَابُ ٱلدُّنْيَا﴾ إنجاحاً لمطلوبه ﴿وَٱلْـَٔاخِرَةِ ۚ﴾ تفضلاً وامتناناً ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ﴾ المطلعُ لسرائر عباده ﴿سَمِيعًۢا﴾ لمناجاتهم ﴿بَصِيرًا ﴿١٣٤﴾﴾ بحاجاتهم، يوصلهم إلى غاية متمناهم، مع زيادة

۞ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ ۚ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَٱللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا ۖ فَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلْهَوَىٰٓ أَن تَعْدِلُواْ ۚ وَإِن تَلْوُۥٓاْ أَوْ تُعْرِضُواْ ....

إنعام وإفضالٍ من عنده.

﴿۞ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ﴾ مداومين مواظبين ﴿بِٱلْقِسْطِ﴾ بإقامة العدل والإنصاف بينكم وإن كنتم ﴿شُهَدَآءَ﴾ في الوقائع كونوا شهداء مخلصين ﴿لِلَّهِ﴾ في أدائها بلا ميلٍ وزورٍ وإخفاءٍ ﴿وَلَوْ﴾ كنتم شاهدين ﴿عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ﴾ باعتراف ما على ذمتكم من حقوق الغير ﴿أَوِ﴾ ذمة ﴿ٱلْوَٰلِدَيْنِ﴾ ﴿وَ﴾ ذمم ﴿ٱلْأَقْرَبِينَ﴾ فعليكم أيها الشهداء أن تقسطوا في أداء الشهادة بلا حيفٍ وميلٍ ﴿إِن يَكُنْ﴾ المشهود عليه أو المشهود له ﴿غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا﴾ يعني ليس لكم أن تراعوا جانب الفقير وتجانبوا عن الغني بل ما عليكم إلا أداء ما عندكم من الشهادة على وجهها ﴿فَٱللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا﴾ برعايتهما وإصلاحهما ﴿فَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلْهَوَىٰٓ﴾ أي ما تهوى نفوسكم وتميل قلوبكم إليه إن أردتم ﴿أَن تَعْدِلُواْ﴾ في أداء الشهادة ﴿وَإِن تَلْوُۥٓاْ﴾ تغيروا وتحرفوا ألسنتكم عما ثبت وتحقق عندكم ﴿أَوْ تُعْرِضُواْ﴾ عن أدائها مطلقاً، أُلجموا بلجامٍ من نار، على ما نطق به الحديث صلوات الله على قائله[1] ﴿

(١) رواه الحاكم في المستدرك [١ / ١٨٢ رقم / ٣٤٦/ كتاب: العلم] وقال :على شرط الشيخين وابن حبان في صحيحه [١/ ٢٩٧ رقم / ٩٥ /] وابن ماجة في سننه [١ / ٩٧ رقم / ٢٦٥/ باب: من سئل عن علم فكتمه] وغيرهم

فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١٣٥﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِى نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِن قَبْلُ ۚ وَمَن يَكْفُرْ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ ....

﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ﴾ المجازي لعباده ﴿كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ من تغيركم وإعراضكم ﴿خَبِيرًا ﴿١٣٥﴾﴾ يجازيكم على مقتضى خبرته.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ أي الذين يدعون الإيمان ويجرون كلمة التوحيد على اللسان على وجه التقليد والحسبان، وينكرون طريق أهل التوحيد والعرفان وينسبون أهله إلى الإيمان والطغيان ﴿ءَامِنُواْ﴾ أيقنوا وأذعنوا ﴿بِٱللَّهِ﴾ المتفرد في ذاته المتوحد في أسمائه وصفاته حتى عوينوا وكوشفوا بتوحيده ﴿وَرَسُولِهِۦ﴾ أي خليفته المصورة بصورته، المبعوث على كافة بريته، الجامع لجميع مراتب أوصافه وأسمائه ﴿وَٱلْكِتَٰبِ﴾ المبيِّن لطريق توحيده ﴿ٱلَّذِى نَزَّلَ﴾ من فضله ولطفه ﴿عَلَىٰ رَسُولِهِۦ﴾ المُظهر لتوحيده الذاتي ﴿وَ﴾ جميع ﴿ٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ﴾ من عنده ﴿مِن قَبْلُ ۚ﴾ على الرسل الماضين المبعوثين على الأمم الماضية، الظاهرين بتوحيد صفاته وأفعاله ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِٱللَّهِ﴾ الأحد الصمد باعتقاد الوجود لغير الله من الأظلال والعكوس ﴿وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ﴾ أوصافه وأسمائه المنتشئة من شؤونه وصنوف كمالاته ﴿وَكُتُبِهِۦ﴾ المنتخبة من شؤونه وتصوراته[1] وتنزلاته على هيئة الصوت والحرف، ليبين بها طريق التوحيد على التائهين في بيداء الغفلة، المنهمكين في بحر الضلال ﴿وَرُسُلِهِۦ﴾ المكاشفين بمقاصد كتبه،

---

(١) في المخطوط (تطوراته).

وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴿١٣٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ثُمَّ كَفَرُوا۟ ثُمَّ ءَامَنُوا۟ ثُمَّ كَفَرُوا۟ ....

المتحققين المتصفين على جميع ما أمر ونهى فيها[١] المأمورين بتبليغها والإرشاد إلى مقاصدها ﴿وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ﴾ المعد لجزاء من يتنبه ويتفطن من إنزال الكتب وإرسال الرسل، ومن لم يتنبه ولم يتفطن، إذ الحكمة تقتضي التفضلَ والترحمَ على من تنبه إلى طريق الحق بعد ورود المنبه والمبين، والانتقامَ على من لم يتنبه ولم يؤمن بل ينكر ويكفر، ومن يكفر ﴿فَقَدْ ضَلَّ﴾ عن طريق التوحيد ﴿ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴿١٣٦﴾﴾ إلى حيث لا يتمنى هدايته وفلاحه.

من يضلل الله فلا هادي له، نعوذ بك منك يا أرحم الراحمين.

ثم قال سبحانه:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ بالله حين ظهر موسى كليم الله وبعث إليهم ﴿ثُمَّ كَفَرُوا۟﴾ به وبدينه حين ظهر عليهم السامري بالعجل ﴿ثُمَّ ءَامَنُوا۟﴾ بعد رجوع موسى من ميقاته ﴿ثُمَّ﴾ لما ظهر الزمان بانقطاع الوحي وإرسال الرسل وإنزال الكتب، وقع في أمر الدين فترةٌ وضعفٌ، أرسل عليهم عيسى عليه السلام، وأنزل عليه الإنجيل؛ ليبين لهم طريقَ توحيده ﴿كَفَرُوا۟﴾ به وكذبوا بكتابه عناداً واستكباراً.

وبعدما انقرض جيل عيسى عليه السلام، أظهر سبحانه النبي الموعود في كتبه السالفة بأنه سيأتي نبي مبعوثٌ على كافة البرية بالتوحيد الذاتي، وله دين ناسخٌ لجميع الأديان، وكتابه ناسخٌ لجميع الكتب، وبه يُختم أمر

(١) في المخطوط (على جميع أوامر ونهي فيها).

ثُمَّ ٱزۡدَادُواْ كُفۡرٗا لَّمۡ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغۡفِرَ لَهُمۡ وَلَا لِيَهۡدِيَهُمۡ سَبِيلَۢا ﴿١٣٧﴾ بَشِّرِ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ بِأَنَّ لَهُمۡ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٣٨﴾ ٱلَّذِينَ يَتَّخِذُونَ ٱلۡكَٰفِرِينَ أَوۡلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۚ أَيَبۡتَغُونَ عِندَهُمُ ٱلۡعِزَّةَ فَإِنَّ ٱلۡعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعٗا ﴿١٣٩﴾ ....

النبوة والوحي والإرسال والإنزال.

إذ بظهوره كمُل طريق التوحيد والعرفان، ﴿ ثُمَّ ﴾ لما ظهر وتحقق عندهم ظهوره ﴿ٱزۡدَادُواْ ﴾ به ﴿كُفۡرٗا ﴾ وتكذيباً وأصروا على ما هم عليه عتُّواً وعناداً ﴿لَّمۡ يَكُنِ ٱللَّهُ ﴾ الهادي لعباده والماحي لذنوبهم ﴿لِيَغۡفِرَ لَهُمۡ ﴾ إن بقوا على كفرهم وإصرارهم ﴿وَلَا لِيَهۡدِيَهُمۡ سَبِيلَۢا ﴿١٣٧﴾ ﴾ إن انهمكوا في الغي والضلال.

﴿ بَشِّرِ ﴾ يا أكمل الرسل ﴿ٱلۡمُنَٰفِقِينَ ﴾ منهم وهم الذين يدَّعون الإيمان بك وبكتابك وبدينك على طرف اللسان، وقلبهم على الشقاق والطغيان الأصلي ﴿بِأَنَّ لَهُمۡ ﴾ عند ربهم ﴿عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٣٨﴾ ﴾.

وحذِّر منهم ومن سراية خبثهم المؤمنينَ

﴿ ٱلَّذِينَ يَتَّخِذُونَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴾ المصرين على الكفر بالله وتكذيب الرسول ﴿أَوۡلِيَآءَ ﴾ أحباء أصدقاء يصاحبونهم ﴿مِن دُونِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۚ ﴾ قل للمتخذين من المؤمنين نيابة عنا: ﴿أَيَبۡتَغُونَ ﴾ ويطلبون ﴿عِندَهُمُ ٱلۡعِزَّةَ ﴾ ويعتقدون أنهم أعزةٌ يتعززون بهم وبمصاحبتهم وموالاتهم، مع أنه لا عزة لهم حقيقةً، بل ضُربت عليهم الذلة والهوان ﴿فَإِنَّ ٱلۡعِزَّةَ ﴾ والغلبة والكبرياء والبسطة والبهاء ﴿لِلَّهِ ﴾ المتعزز برداء العظمة والكبرياء﴿جَمِيعٗا ﴿١٣٩﴾ ﴾ لا يسع لغيره

﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِنَّكُمْ إِذًا مِثْلُهُمْ إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا (١٤٠) الَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ فَإِنْ كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِنَ اللَّهِ قَالُوا أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ ....

أن يتعزز في نفسه إلا بفضله وطَوله.

(ومن) فضل الله لكم ﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ﴾ المبين لدينكم المنزل على نبيكم ﴿أَنْ﴾ أي أنه ﴿إِذَا سَمِعْتُمْ﴾ وعلمتم حين تلاوتكم ﴿آيَاتِ اللَّهِ﴾ على رؤوس الملأ أنه ﴿يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا﴾ ـ العياذ بالله ـ ﴿فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ﴾ مع هؤلاء الكافرين المستهزئين بل اتركوهم ومجالستهم ﴿حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ﴾ فإن لم تتركوهم وتخرجوا من بينهم صرتم منتسبين للكفر والاستهزاء بآيات الله ﴿إِنَّكُمْ إِذًا﴾ حين لم تتركوهم وتقعدوا معهم ﴿مِثْلُهُمْ﴾ في استحقاق العذاب والنكال ﴿إِنَّ اللَّهَ﴾ المتعزز بالمجد والبهاء لقادرٌ على كل ما أراد وشاء ﴿جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ﴾ المداهنين ﴿وَالْكَافِرِينَ﴾ المكذبين المستهزئين ﴿فِي جَهَنَّمَ﴾ البعد والخذلان، وسعير الطرد والحرمان ﴿جَمِيعًا (١٤٠)﴾ مجتمعين بلا تفاوتٍ في العقوبة.

وكيف لا يجمع المنافقون مع الكافرين، وهم

﴿الَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ﴾ أي ينتظرون لمقتكم وهلاككم أيها المؤمنون المخلصون ﴿فَإِنْ كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ﴾ وغنيمةٌ ﴿مِنَ﴾ نصر ﴿اللَّهِ﴾ عليكم ﴿قَالُوا أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ﴾ وفي عسكركم لِمَ لمْ يسهموا علينا، ولم يستخرجوا حقنا

وَإِن كَانَ لِلْكَٰفِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوٓاْ أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعْكُم مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۚ فَٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ وَلَن يَجْعَلَ ٱللَّهُ لِلْكَٰفِرِينَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا ﴿١٤١﴾ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوٓاْ إِلَى ....

من الغنيمة؟ ﴿وَإِن كَانَ لِلْكَٰفِرِينَ﴾ المقاتلين ﴿نَصِيبٌ﴾ حظٌ من الاستيلاء والغلبة ﴿قَالُوٓاْ﴾ للكفرة إظهاراً للمؤاخاة والمظاهرة: ﴿أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ﴾ ولم نستعن ﴿عَلَيْكُمْ﴾ بالتكاسل والتواني وعدم الإعانة والمظاهرة عليهم وإلقاء الرعب في قلوبهم ﴿وَنَمْنَعْكُم﴾ بهذه الحيل ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾؟ فعليكم أن تشركونا فيما أصبتم منهم إذ كنا متسببين لهم، لا تبالوا أيها المؤمنون بإيمان هؤلاء المنافقين وادِّعاء وفاقهم ولا بنفاقهم وشقاقهم ﴿فَٱللَّهُ﴾ المطلعُ لضمائرهم ﴿يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ المعد للفصل والانتقام ﴿وَ﴾ إن احتجوا عليكم وادعوا الإيمان تلبيساً في هذه النشأة ﴿لَن يَجْعَلَ ٱللَّهُ﴾ المولي لأمور عباده ﴿لِلْكَٰفِرِينَ﴾ المنافقين المُلبسين ﴿عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ الموقنين المخلصين ﴿سَبِيلًا ﴿١٤١﴾﴾ حجة ودليلاً في النشأة الأخرى، إذ فيها تبلى السرائر وتكشف الضمائر وتجزى كل نفس بما تسعى.

ثم قال سبحانه:

﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾ المصرين على النفاق يتخيلون أنهم ﴿يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ﴾ ويلبسون عليه كخديعهم وتلبيسهم على المؤمنين ﴿وَ﴾ الحال أنه ﴿هُوَ خَٰدِعُهُمْ﴾ وماكرهم باقتدارهم على هذا الخداع، إذ يترتب عليه من الجزاء ما لو علموا لهلكوا ﴿وَ﴾ من جملة نفاقهم وشقاقهم أنهم ﴿إِذَا قَامُوٓاْ إِلَى﴾ أداء

ٱلصَّلَوٰةِ قَامُوٓاْ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٤٢﴾ مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَٰلِكَ لَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَلَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا ﴿١٤٣﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۚ أَتُرِيدُونَ أَن تَجْعَلُواْ لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا ﴿١٤٤﴾ ....

﴿ٱلصَّلَوٰةِ﴾ مع المؤمنين ﴿قَامُوٓاْ كُسَالَىٰ﴾ مبطئين متكاسلين وليس غرضهم منها سوى أنهم ﴿يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ﴾ حتى يظنوا أنهم مؤمنون مخلصون ﴿وَ﴾ مع ذلك ﴿لَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ﴾ في الصلاة ﴿إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٤٢﴾﴾ منهم، أخلصوا في نفسه ولم يُظهروا لخوفهم، والحاصل أن أهل النفاق ليسوا من الكافرين عند الكافرين، وأيضاً ليسوا من المؤمنين عند المؤمنين بل

﴿مُّذَبْذَبِينَ﴾ مرددين ﴿بَيْنَ ذَٰلِكَ﴾ بحيث ﴿لَآ﴾ ينسبون ﴿إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ المؤمنين ﴿وَلَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ ۚ﴾ الكافرين، وهم في أنفسهم ضالين وعند الله مردودين ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ﴾ ويحيله على الضلال ﴿فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا ﴿١٤٣﴾﴾ إلى الهداية أصلاً.

اهدنا بلطفك إلى الصراط المستقيم.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ مقتضى إيمانكم ﴿لَا تَتَّخِذُواْ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۚ أَتُرِيدُونَ﴾ بصنيعكم هذا ﴿أَن تَجْعَلُواْ لِلَّهِ﴾ المحاسب المجازي لأعمال عباده ﴿عَلَيْكُمْ﴾ أيها المتخذون ﴿سُلْطَٰنًا مُّبِينًا ﴿١٤٤﴾﴾ حجةً واضحةً على كفركم ونفاقكم، إذ من فعلكم هذا يلُوح أثرُ النفاق والشقاق مع المؤمنين، فعليكم أن لا تصاحبوهم ولا تتخذوهم أولياء، سيَّما بعد

إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا ﴿١٤٥﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ وَأَصْلَحُوا۟ وَٱعْتَصَمُوا۟ بِٱللَّهِ وَأَخْلَصُوا۟ دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَسَوْفَ يُؤْتِ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٤٦﴾ مَّا يَفْعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمْ ....

ورود النهي حتى لا تلحقوا بهم، ولا تحشروا في زمرتهم.

﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾ المصرين على النفاق ﴿فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ﴾ والمرتبة الأرذل الأذل ﴿مِنَ ٱلنَّارِ﴾ المعدّ لجزاء العصاة الطغاة الضالين عن طريق الحق وصراطه المستقيم ﴿وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا ﴿١٤٥﴾﴾ يشفع لهم وينجيهم منها.

﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟﴾ وندموا عما جرى عليهم من النفاق ﴿وَأَصْلَحُوا۟﴾ بالتوبة ما أفسدوا بالنفاق من شعائر الإيمان والإسلام ﴿وَٱعْتَصَمُوا۟ بِٱللَّهِ﴾ وفضله ولطفه حين رجعوا إليه وتوجهوا نحوه ﴿وَ﴾ بعدما تابوا واعتصموا بالله ﴿أَخْلَصُوا۟ دِينَهُمْ﴾ إطاعتهم وانقيادهم ﴿لِلَّهِ﴾ المنزه عن الشريك والنظير، المقدس عن المشير والظهير، ليس كمثله شيء وهو السميع البصير ﴿فَأُو۟لَٰٓئِكَ﴾ السعداء المقبولون عند الله ﴿مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ﴾ في رَوح الله وكنف لطفه ورحمته ﴿وَسَوْفَ يُؤْتِ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ في يوم الجزاء ﴿أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٤٦﴾﴾ هو الفوز بشرف اللقاء.

﴿مَّا يَفْعَلُ ٱللَّهُ﴾ المتجلي في الآفاق بالاستحقاق ﴿بِعَذَابِكُمْ﴾

﴿إِن شَكَرْتُمْ وَءَامَنتُمْ وَكَانَ ٱللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا ﴿١٤٧﴾ ۞ لَّا يُحِبُّ ٱللَّهُ ٱلْجَهْرَ بِٱلسُّوٓءِ مِنَ ٱلْقَوْلِ إِلَّا مَن ظُلِمَ وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًا عَلِيمًا ﴿١٤٨﴾﴾ ....

طردكم وحرمانكم ﴿إِن شَكَرْتُمْ﴾ تحققتم بظهوره في هوياتكم الباطلة وأسندتم ما صدر وظهر منكم إليه أصالةً واستقلالاً ﴿وَءَامَنتُمْ﴾ عرفتم توحيده واعترفتم به ﴿وَ﴾ متى فنيتم في هوية الحق ﴿كَانَ ٱللَّهُ﴾ بذاته ﴿شَاكِرًا﴾ لنعمه ﴿عَلِيمًا ﴿١٤٧﴾﴾ بنفسه، ولقد أحسن من قال:

لقد كنت دهراً قبل أن يكشف الغطا ... أخال بإني شاكرٌ لك ذاكرٌ

فلما أضاء الليل أصبحت شاهداً ... بأنك مذكورٌ وذكرٌ وذاكرٌ

ومن مقتضيات التوحيد أيها المتوجهون نحوه أن لا تظهروا وتبثوا[1] إلى الله الشكوى في الأمور المتعلقة بالدنيا، ولا تلحوا في المناجاة والدعاء، فإن ناقدكم بصير بحاجاتكم، وعليكم الرضا بما جرى عليكم من القضاء، ونعم القرينُ الرضا إذ

﴿۞ لَّا يُحِبُّ ٱللَّهُ﴾ المتجلي باسم الرحمن على ذرائر الأكوان معتدلاً مستوياً بلا تفاوت ، ولا يُمدح عنده ﴿ٱلْجَهْرَ﴾ والإشاعة ﴿بِٱلسُّوٓءِ﴾ أي لا يحب أن يجهر بالقبيح المستهجن عقلاً وشرعاً، ويبالي بشأنه ويستدعي لأجله، إذ لا يجري في ملكه إلا العدل والخير خصوصاً الجهر ﴿مِنَ ٱلْقَوْلِ إِلَّا﴾ جهر ﴿مَن ظُلِمَ﴾ فإنه سبحانه يحبه، ويبادر إلى إجابته، إذ الظالم خارج عن مقتضى عدل الله وصراطه المستقيم ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ﴾ المتجلي على العدل القويم ﴿سَمِيعًا﴾ لجهر المظلوم ﴿عَلِيمًا ﴿١٤٨﴾﴾ بظلم الظالم وبما

(١) في المخطوط (لا يظهروا ويبثوا..... ولا يلحوا).

إِن تُبْدُواْ خَيْرًا أَوْ تُخْفُوهُ أَوْ تَعْفُواْ عَن سُوٓءٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا ﴿١٤٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُواْ بَيْنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُواْ بَيْنَ ذَٰلِكَ

استحق له من الجزاء يجازيه على مقتضى علمه.

﴿إِن تُبْدُواْ﴾ أيها المؤمنون وتظهروا ﴿خَيْرًا﴾ على رؤوس الأشهاد ﴿أَوْ تُخْفُوهُ﴾ أي تعطوه خفيةً عن الناس ﴿أَوْ تَعْفُواْ﴾ تجاوزوا عن الظالم ولم تنتقموا منه ولم تتضرعوا إلى الله المنتقم ﴿عَن سُوٓءٍ﴾ فعل الظالم بكم ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ﴾ المطلع لسرائركم ونياتكم ﴿كَانَ عَفُوًّا﴾ عنكم ماحياً لذنوبكم مع كونه ﴿قَدِيرًا ﴿١٤٩﴾﴾ على انتقامه منكم[1].

ثم قال سبحانه:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ﴾ ويشركون له بإثبات الوجود لغيره ﴿وَرُسُلِهِۦ﴾ أي يكفُرونَ برسُلِهِ، ويكذبونهم مع كونهم مبعوثين على الحق من عنده ﴿وَ﴾ مع كفرهم وتكذيبهم ﴿يُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُواْ بَيْنَ ٱللَّهِ﴾ المتوحدِ المتفردِ بذاته، المستقلَّ في وجوده ﴿وَرُسُلِهِۦ﴾ المستخلفين من عنده بظهوره عليهم بجميع أسمائه وصفاته ﴿وَيَقُولُونَ﴾ من غاية جهلهم بظهور الله واستيلائه على مظاهره ﴿نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ﴾ من الرسل ﴿وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ﴾ آخر، مع أن ظهوره في الكل على السواء بلا تفاوت ﴿وَيُرِيدُونَ﴾ ويتوهمون ﴿أَن يَتَّخِذُواْ﴾ ويثبتوا ﴿بَيْنَ ذَٰلِكَ﴾ أي ارتباط الظاهر بالمظهر والمظهر

---

(١) في المخطوط (على انتقامكم منه).

سَبِيلًا ﴿١٥٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ حَقًّاۚ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿١٥١﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَلَمْ يُفَرِّقُواْ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ أُوْلَٰٓئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أُجُورَهُمْۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٥٢﴾ يَسْـَٔلُكَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ ....

بالظاهر ﴿سَبِيلًا ﴿١٥٠﴾﴾ غير سبيل الحق المطابق للواقع.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ البعداء المتوغلون في الكفر ﴿هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ حَقًّاۚ﴾ أي الكافرون المنهمكون فيه المنتهون إلى مرتبةٍ لا يعبأ بإيمانهم أصلاً ﴿وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ﴾ المستغرقين في الغِّي والضلال ﴿عَذَابًا مُّهِينًا ﴿١٥١﴾﴾ مذلاً مسقطاً لهم عن مرتبة الإنسانية بعدما جبلوا عليه صورةً، إذ لا إهانة أشد من ذلك.

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ﴾ المتفرد في الوجود ﴿وَ﴾ اعترفوا بظهوره في ﴿رُسُلِهِۦ﴾ بجميع أوصافه وأسمائه ﴿وَلَمْ يُفَرِّقُواْ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ﴾ بالإيمان والكفر، بل يؤمنوا بجميعهم على السوية ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ السعداء الموفقون بهذه الكرامة في هذه النشأة ﴿سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ﴾ تفضلاً عليهم في النشأة الأخرى ﴿أُجُورَهُمْۗ﴾ بأضعاف ما استحقوا عليه ﴿وَ﴾ لا تستبعدوا من الله أمثال هذا إذ ﴿كَانَ ٱللَّهُ﴾ الموفق لهم على الهداية ﴿غَفُورًا﴾ لذنوبهم المبعدة عن طريق توحيده ﴿رَّحِيمًا ﴿١٥٢﴾﴾ لهم يوصلهم إلى ما لا عينٌ رأت ولا أذنٌ سمعت ولا خطر على قلب بشر.

هب لنا من لدنك رحمة إنك أنت الوهاب.

﴿يَسْـَٔلُكَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ من غاية جهلهم بالله ونهاية غفلتهم عنه

أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَٰبًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ۚ فَقَدْ سَأَلُوا۟ مُوسَىٰٓ أَكْبَرَ مِن ذَٰلِكَ فَقَالُوٓا۟ أَرِنَا ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ۚ ثُمَّ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ فَعَفَوْنَا عَن ذَٰلِكَ ۚ وَءَاتَيْنَا مُوسَىٰ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا ﴿١٥٣﴾ ....

﴿ أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَٰبًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ۚ﴾ على مقتضى ما تهوى نفوسهم وترضى عقولهم ولا تستكبر منهم هذا ﴿فَقَدْ سَأَلُوا۟ مُوسَىٰٓ أَكْبَرَ مِن ذَٰلِكَ﴾ وأشد بعداً واستحالة ﴿فَقَالُوٓا۟﴾ من غاية بعدهم عن الله ونهاية حجابهم عن مطالعة جماله ﴿أَرِنَا ٱللَّهَ﴾ الذي تدعونا إليه وترشدنا نحوه ﴿جَهْرَةً﴾ ظاهرةً معاينةً كالموجودات الأخر، وما قدروا الله حق قدره، لذلك أرادوا أن يحصروا ويحيطوا به، مع أنه سبحانه أجلُّ من أن يشار إليه ويحاط به ويدرك على ما هو عليه.

إذ الإشارة والإحاطة والإدراك إنما هو منه وبه وفيه وإليه، ومَن هذا شأنه كيف يدرَك ويُحَسُّ؟! ونهاية حال الواصلين إليه أنهم انخلعوا عن هوياتهم الباطلة بالمرة وفنوا في هويته واضمحلوا، لا إله إلا هو، كل شيء هالك إلا وجهه، ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ﴾ النازلة من السماء ﴿بِظُلْمِهِمْ ۚ﴾ هذا فهلكوا ﴿ثُمَّ﴾ بعد ما تابوا ورجعوا إلى الله واستشفع لهم موسى صلوات الله عليه ﴿ٱتَّخَذُوا۟ ٱلْعِجْلَ﴾ إلهاً وحصروا الألوهية فيه حين لبَّس عليهم السامري وخادعهم به مع أن اتخاذهم هذا ﴿ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ﴾ الواضحة الدالة على توحيد الله وتقديسه من الحصر والإحاطة ﴿فَعَفَوْنَا عَن ذَٰلِكَ ۚ﴾ أيضاً بعدما رجعوا إلينا والتجؤوا نحونا متذللين ﴿وَءَاتَيْنَا﴾ بعد ذلك ﴿مُوسَىٰ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا ﴿١٥٣﴾﴾ حجةً واضحةً ومعجزةً ملجئةً لهم إلى الإيمان.

وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ ٱلطُّورَ بِمِيثَٰقِهِمْ وَقُلْنَا لَهُمُ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا وَقُلْنَا لَهُمْ لَا تَعْدُوا۟ فِى ٱلسَّبْتِ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا ﴿١٥٤﴾ فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ وَكُفْرِهِم بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَقَتْلِهِمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ ۚ بَلْ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ

﴿وَ﴾ ذلك أن ﴿رَفَعْنَا فَوْقَهُمُ ٱلطُّورَ﴾ معلقاً ﴿بِمِيثَٰقِهِمْ﴾ بسبب أن نأخذ منهم العهد الوثيق إنْ جاؤوا به أزلنا عنهم، وإن أبو أسقطنا عليهم ﴿وَقُلْنَا لَهُمُ﴾ أيضاً بعدما أخذنا الميثاق عنهم على لسان موسى عليه السلام: ﴿ٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ﴾ أي البيت المقدس ﴿سُجَّدًا﴾ حال كونكم ساجدين، واضعين جباهكم على تراب المذلة، فدخلوا مسرعين ومزحفين، فنقضوا ﴿وَقُلْنَا لَهُمْ﴾ أيضاً ميثاقاً ومعاهدة على لسان داود عليه السلام: ﴿لَا تَعْدُوا۟﴾ لا تجاوزوا ولا تخرجوا عن حدٍ ولا سيما ﴿فِى ٱلسَّبْتِ﴾ أي اصطياد الحيتان فيه، فاحتالوا في اصطيادها فنقضوا ما عهدوا ﴿وَ﴾ بعدما ﴿أَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا ﴿١٥٤﴾﴾ أي مواثيق غلاظ على إرادة الجنس، فنقضوا الكل وخالفوا الأمر.

﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ﴾ أي فبنقضهم المواثيق الغلاظ والعهود المؤكدة، فَعلنا بهم ما فعلنا من الابتلاءات والاختبارات وتحريم المباحات وأنواع البليات والأذيات ﴿وَكُفْرِهِم بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ الدالة على توحيده، المنزل على خلَّص عبيده ﴿وَقَتْلِهِمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ﴾ المعصومين عن الجرائم مطلقاً ﴿بِغَيْرِ حَقٍّ﴾ بلا رخصةٍ شرعيةٍ ﴿وَقَوْلِهِمْ﴾ للأنبياء والرسل حين دعتهم للإيمان عُتواً واستكباراً: ﴿قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ﴾ أوعيةٌ مملوءةٌ بالحقائق والمعارف، مختومةٌ لا يسع فيها ما جئتم به، والحال أنهم ليس في قلوبهم ما يتعلق بأمور الدين مقدار خردلةٍ ﴿بَلْ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيْهَا﴾ باسمه المضل المذل، وختم عليها ﴿بِكُفْرِهِمْ﴾

فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٥٥﴾ وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَانًا عَظِيمًا ﴿١٥٦﴾ وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ ۚ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ ۚ مَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ ۚ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا ﴿١٥٧﴾ بَل رَّفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ ۚ ....

أي بسب كفرهم وشركهم ﴿فَلَا يُؤْمِنُونَ﴾ فلا يوفقون على الإيمان منهم ﴿إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٥٥﴾﴾.

﴿وَبِكُفْرِهِمْ﴾ أي بسبب كفرهم وسترهم الحق عناداً ومكابرة ﴿وَقَوْلِهِمْ﴾ رمياً وافتراءً ﴿عَلَىٰ مَرْيَمَ﴾ المنزهة عن الكدورات مطلقاً ﴿بُهْتَانًا عَظِيمًا ﴿١٥٦﴾﴾ يتهمونها ويرمونها بالزنا مع عصمتها وطهارة ذيلها.

﴿وَقَوْلِهِمْ﴾ أيضاً إرجافاً وإسماعاً وتبجحاً: ﴿إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ﴾ مع كونه ﴿رَسُولَ اللَّهِ﴾ وكلمته وروحاً منه ﴿وَ﴾ الحال أنه ﴿مَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ﴾ لأنه في حمى الله وفوق سمائه ﴿وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ﴾ رجلٌ منهم أي ألقى الله شبهه على حارس منهم يحرسه، ليظفروا عليه، فرفع المشبَّه به، فبقي المشبَّه، فقُتل، وصُلب، ثم اختلفوا فقالوا إن كان هذا عيسى، فأين صاحبنا؟ وإن كان صاحبنا فأين هو عيسى؟ ﴿وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ﴾ في قتله وصلبه ورفعه إلى السماء ﴿لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ﴾ ترددٍ وارتياب ﴿مَا لَهُم بِهِ﴾ وبأمره ﴿مِنْ عِلْمٍ﴾ تصديق ويقين ﴿إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ﴾ والظنُّ لا يغني عن الحق شيئاً ﴿وَ﴾ الحق أنه ﴿مَا قَتَلُوهُ يَقِينًا ﴿١٥٧﴾﴾ كما زعموا

﴿بَل﴾ الحق أنه ﴿رَّفَعَهُ اللَّهُ﴾ الرقيب عليه المتولي لحفظه وأمره ﴿إِلَيْهِ﴾

وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٥٨﴾ وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا ﴿١٥٩﴾ ....

أي إلى كنفه وجواره إنجازاً لوعده في قوله: ﴿إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ﴾ [٣-آل عمران٥٥] الآية ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ﴾ القادر على كل ما أراد وشاء ﴿عَزِيزًا﴾ غالباً مقتدراً على رفعه ﴿حَكِيمًا ﴿١٥٨﴾﴾ في قتل من شبّه له ليرجعوا بها.

ثم قال سبحانه:

﴿وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ﴾ أي ما من جميع من أنزل إليه الكتاب من المسلمين والنصارى واليهود وسائر من أنزل إليهم أحدٌ مكلفٌ ﴿إِلَّا﴾ وقد وجب له ولزم عليه إنه ﴿لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ﴾ أي بعيسى صلوات الله عليه وسلامه حين نزوله لتقوية دين [سيدنا] محمد ﷺ، إذ هو جامعٌ لجميع الأديان لإتيانها على التوحيد الذاتي، وعند ظهوره ﷺ اتحدت الأديان كلها، إلا أن المحجوبون لا يفهمون، مع أن عيسى صلوات الله عليه وسلامه من عجائب صنع الله وبدائع مبدعاته وغرائب مخترعاته، ومن أعزة أنبيائه وأجلة رسله، فلا بد أن يكون الإيمان به ﴿قَبْلَ مَوْتِهِۦ﴾ إذ حكي في الحديث النبوي: أنه ينزل من السماء ويعيش في الأرض زماناً ويؤمن له جميع من في الأرض ثم يموت قريب الساعة ﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ﴾ أي على جميع من آمن له واتبع هداه ﴿شَهِيدًا ﴿١٥٩﴾﴾ يشهد لهم بالإيمان عند الله .

فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ كَثِيرًا ﴿١٦٠﴾ وَأَخْذِهِمُ ٱلرِّبَوٰا۟ وَقَدْ نُهُوا۟ عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ ۚ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٦١﴾ لَّٰكِنِ ٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ مِنْهُمْ وَٱلْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ ۚ وَٱلْمُقِيمِينَ ٱلصَّلَوٰةَ ۚ ....

﴿فَبِظُلْمٍ﴾ خروج عن حدود الله ونقض لعهوده صدر وظهر ﴿مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ﴾ في كتابهم ﴿طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ﴾ فيما مضى ﴿وَ﴾ أيضاً ﴿بِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أي إعراضهم عن طريق الحق إعراضاً ﴿كَثِيرًا ﴿١٦٠﴾﴾.

﴿وَأَخْذِهِمُ ٱلرِّبَوٰا۟﴾ من المضطرين أضعافاً مضاعفة ﴿وَ﴾ الحال أنه ﴿قَدْ نُهُوا۟ عَنْهُ﴾ في دينهم وكتابهم ﴿وَأَكْلِهِمْ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ ۚ﴾ بلا رخصة شرعية مثل السرقة والغصب والربا والرشوة وحيل الفقهاء وتزويراتهم التي ينسبونها إلى الشرع الشريف افتراءً، وتلبيسات أهل التشييخ والتدليس من هذا القبيل، ومن عظم جرم هؤلاء أسند سبحانه انتقامهم إلى نفسه بقوله: ﴿وَأَعْتَدْنَا﴾ صيرنا وهيأنا ﴿لِلْكَٰفِرِينَ﴾ الساترين طريق الحق ﴿مِنْهُمْ عَذَابًا﴾ بعيداً وطرداً ﴿أَلِيمًا ﴿١٦١﴾﴾ مؤلماً؛ لتحسرهم على مرتبة أهل القرب والعناية.

﴿لَّٰكِنِ ٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ مِنْهُمْ﴾ وهم الذين يرتقون من مرتبة العلم إلى العين والحق ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ المصدقون الذين ﴿يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ ۚ﴾ بلا تفريق وتفاوت إيماناً واحتساباً ﴿وَٱلْمُقِيمِينَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ وهم الذين يديمون الميل بجميع الأعضاء والجوارح إطاعةً وانقياداً، إذ رجوع الكل

وَٱلْمُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ أُوْلَٰٓئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٦٢﴾ ۞ إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعْدِهِۦۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ....

إليه ﴿وَٱلْمُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ وهم الذين يؤتون ما نُسب إليهم من مزخرفات الدنيا طلباً لمرضات الله وهرباً عن التعلق بغيره ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾ أي الذين يوقنون بتوحيد الله ﴿وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ﴾ المعدّ لثمرة الأعمال الصالحة في طريقه ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ السعداء الأمناء الموحدون المخلصون ﴿سَنُؤْتِيهِمْ﴾ من لدنا ﴿أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٦٢﴾﴾ هو الفوز بشرف اللقاء.

ربنا آتنا من لدنك رحمة إنك أنت الوهاب.

ورسوخ الراسخين إنما يحصل من إلهامنا ووحينا وإعلامنا وإيقاظنا إياهم من سِنة الغفلة ونعاس النسيان، وإرشادنا لهم بإرسال الرسل وإنزال الكتب عليهم من عندنا، وذلك سنتنا المستمرة وعادتنا القديمة، لا يحتاج فيها للإلحاح والاقتراح.

﴿۞ إِنَّآ أَوْحَيْنَآ﴾ من مقام جودنا ﴿إِلَيْكَ﴾ يا أكمل الرسل الكتابَ الجامع لجميع ما في الكتب السالفة على الوجه الأبلغ الأبين لطريق التوحيد ﴿كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ﴾ صحفاً مبينةً لطريق التوحيد والتنزيه، قُدِّم لكونه أول من أُنزل إليه الكتاب، وأقدم من سائر الأنبياء ﴿وَ﴾ أوحينا أيضاً بعد نوح إلى ﴿ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعْدِهِۦۚ﴾ ما يبنون به طريق الحق من الكتب والصحف ﴿وَأَوْحَيْنَآ﴾ خصوصاً ﴿إِلَىٰٓ﴾ آبائك ﴿إِبْرَٰهِيمَ﴾ المتخلقِ

وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَٰرُونَ وَسُلَيْمَٰنَۚ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا ﴿١٦٣﴾ وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَٰهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَۚ وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ ....

بأخلاقه الإلهية، المتحققِ بمقام الخلة ﴿وَإِسْمَٰعِيلَ﴾ المتمكنِ بمقام الرضا والتسليم ﴿وَإِسْحَٰقَ﴾ المترقبِ المتوجهِ إلى الحق من كل صورة وشكلٍ؛ لتحققه بمقام التوحيد ﴿وَيَعْقُوبَ﴾ المتوجهِ إلى الله في السراء والضراء؛ لتحققه في مقام التفويض ﴿وَٱلْأَسْبَاطِ﴾ المتوجهينَ إلى الله في جميع حالاتهم منهم: يوسف المترقي من الصور الخيالية إلى الأمور العينية والغيبية لصفاء ظاهره وباطنه عن الكدورات البشرية ﴿وَعِيسَىٰ﴾ المؤثرِ في العلم بالتأثرات الإلهيات والنفسات الرحمانية ؛ لاضمحلال ناسوتيته في لاهوتية الحق ﴿وَأَيُّوبَ﴾ المتحققِ في مقام الصبر والرضا بما جرى عليه من القضا ؛ لتحققه بمقام العبودية ﴿وَيُونُسَ﴾ المتحققِ في مقام الخوف والرجاء مع الله ﴿وَهَٰرُونَ﴾ المتمكنِ في مرتبة الأمانة والديانة واطمئنان النفس ﴿وَسُلَيْمَٰنَۚ﴾ الجامعِ لجميع مراتب عالم الشهادة ؛ لتحققه في مقام البسطة والاستيلاء ﴿وَءَاتَيْنَا﴾ من فضلنا وجودنا ﴿دَاوُۥدَ﴾ المتحققَ بمقام الحكمة المقتضية للتدابيرات الواقعة بين مراتب الإلهية ﴿زَبُورًا ﴿١٦٣﴾﴾ يفصل به بين الحق والباطل والخطأ والصواب.

﴿وَ﴾ كما أرسلنا هؤلاء المذكورين أرسلنا أيضاً ﴿رُسُلًا قَدْ قَصَصْنَٰهُمْ عَلَيْكَ﴾ في كتابك ﴿مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَۚ﴾ ﴿وَ﴾ كَمُلَ أمر الوحي في موسى إذ ﴿كَلَّمَ ٱللَّهُ﴾ المرسِلُ للرسل، المنزِّل للكتب ﴿مُوسَىٰ﴾

تَكْلِيمًا ﴿١٦٤﴾ رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٦٥﴾ لَّٰكِنِ ٱللَّهُ يَشْهَدُ بِمَآ أَنزَلَ إِلَيْكَۖ أَنزَلَهُۥ بِعِلْمِهِۦۖ ....

المتحققَ بمقام القرب والوصول ﴿تَكْلِيمًا ﴿١٦٤﴾﴾ لا يدرك كيفيته ولا يكتنه لِمِّيَّته وإنما أرسلنا ﴿رُسُلًا﴾ وأنزلنا معهم كتباً ليكونوا ﴿مُبَشِّرِينَ﴾ للناس بالتوحيد وسائر المأمورات الواردة في طريقه، المؤدية إليه ﴿وَمُنذِرِينَ﴾ لهم عن الشرك المنافي له، وعن جميع المحرمات المفضية إليه ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ﴾ المجبولين على الجدال والنزاع ﴿عَلَى ٱللَّهِ﴾ المنزهِ عن المجادلة والمرآء ﴿حُجَّةٌ﴾ متمسكٌ وغلبةٌ حين أخذهم بالانتقام يوم الجزاء، إذ لا يبقى لهم مجادلةٌ ومراء ﴿بَعْدَ﴾ إرسال ﴿ٱلرُّسُلِ﴾ لإهدائهم إلى طريق الحق وسبيل التوحيد مع كونهم مؤيَّدين بإنزال الكتب من عنده ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ﴾ المستقلُّ في الألوهية ﴿عَزِيزًا﴾ غالباً في أوامره ونواهيه ﴿حَكِيمًا ﴿١٦٥﴾﴾ في تدبيراته المتعلقة بها.

ومن غاية جدالهم ونزاعهم يجادلون غالباً معك في رسالتك وكتابك ولا يشهدون لك وبحقية كتابك وبصدقك في رسالتك، مع كونك مشهوداً في كتبهم وعلى لسان رسلهم مكابرةً وعناداً، لا تبال بهم وبشهادتهم.

﴿لَّٰكِنِ ٱللَّهُ﴾ المطلعُ للسرائر والخفيات ﴿يَشْهَدُ بِمَآ أَنزَلَ إِلَيْكَ﴾ أي بحقيته، وصدقك فيه وبأنه ﴿أَنزَلَهُۥ﴾ إليك ملتبساً ﴿بِعِلْمِهِۦ﴾ المتعلقِ بتأليف كلماته وكيفية ترتيبه ونظمه على وجهٍ يعجز عنه جميع من تحدى

وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَشْهَدُونَۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴿١٦٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ قَدْ ضَلُّواْ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴿١٦٧﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَظَلَمُواْ لَمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا ﴿١٦٨﴾ إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًاۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿١٦٩﴾ ....

وتعارض معه ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ أيضاً ﴿يَشْهَدُونَۚ﴾ بأنه منزلٌ من الحق على الحق ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴿١٦٦﴾﴾ سواءً شهدوا أو لم يشهدوا.

ثم قال سبحانه ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ بك وبكتابك ﴿وَصَدُّواْ﴾ أعرضوا ﴿عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ المبينِ فيه ﴿قَدْ ضَلُّواْ﴾ عن طريق التوحيد ﴿ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴿١٦٧﴾﴾ لا ترجى هدايتهم أصلاً، وكيف ترجى هدايتهم وقد أضلهم الله .

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ ستروا طريق الحق ﴿وَ﴾ مع كفرهم ﴿ظَلَمُواْ﴾ خرجوا عن حدود الله بالمرة ﴿لَمْ يَكُنِ ٱللَّهُ﴾ الهادي لعباده ﴿لِيَغْفِرَ لَهُمْ﴾ ذنوبهم ؛ لعظم جرمهم ﴿وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا ﴿١٦٨﴾﴾ من طريق النجاة ؛ لانهماكهم في الغفلة والضلال.

﴿إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ﴾ البعد والخذلان ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًاۚ﴾ لا ينجون منها أصلاً ﴿وَ﴾ لا تستبعد عن الله أمثال هذه التبعيدات والتخذيلات إذ ﴿كَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ﴾ المنتقم المضلِّ للغواة الطغاة ﴿يَسِيرًا ﴿١٦٩﴾﴾.

ثم لما بين سبحانه حقية الرسول ﷺ وصدقه في دعواه، وأوعد على من كذبَّه وخالف كتابه ما أوعد، أراد أن ينبه على عامة أهل التكليف من أرباب

يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ ٱلرَّسُولُ بِٱلْحَقِّ مِن رَّبِّكُمْ فَـَٔامِنُوا۟ خَيْرًا لَّكُمْ ۚ وَإِن تَكْفُرُوا۟ فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٧٠﴾ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ ۚ إِنَّمَا ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ ....

الملل وغيرهم أن يؤمنوا له وما جاء به من عنده فقال منادياً ليقبلوا عليه:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ﴾ المجبولون على النسيان والغفلة ﴿قَدْ جَآءَكُمُ ٱلرَّسُولُ ﴾ أي المبعوثُ إلى كافة الخلق ملتبساً ﴿بِٱلْحَقِّ ﴾ المطابق للواقع ﴿مِن رَّبِّكُمْ ﴾ الذي رباكم بنعمة العقل الذي هو مناط جميع التكاليف، وبه الوصول إلى الإيمان والتوحيد ﴿فَـَٔامِنُوا۟ خَيْرًا لَّكُمْ ۚ﴾ أي فإن آمنوا به بعد ما ظهر كان خيراً لكم عند ربكم، يوصلكم إلى توحيده ﴿وَإِن تَكْفُرُوا۟﴾ به عناداً ولم تؤمنوا به مكابرةً، لا يبالي الله بكفركم ولا بإيمانكم ﴿فَإِنَّ لِلَّهِ ﴾ أي يسجد ويخضع له جميع ﴿مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ﴾ إرادةً وطوعاً ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ﴾ المكلفُ لأمر عباده ﴿عَلِيمًا﴾ بقابلياتهم ﴿حَكِيمًا ﴿١٧٠﴾﴾ فيما أمرهم به وكلفهم عليه ؛ ليفوزوا من عنده فوزاً عظيماً.

﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ ﴾ أي الإنجيل المبالغين في أمر عيسى عليه السلام إلى حيث ينتهي إلى الغلو المذموم عقلاً وشرعاً ﴿لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ ﴾ ونبيكم ولا تبالغوا في الإغراء في وصفه ﴿وَ﴾ عليكم أن ﴿ لَا تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ ﴾ الواحد الأحد الصمد الذي لم يتخذ صاحبةً ولا ولداً ﴿ إِلَّا ٱلْحَقَّ ۚ ﴾ الحقيقَ اللائقَ بجنابه ﴿ إِنَّمَا ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ ﴾ كسائر

وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَلَا تَقُولُوا۟ ثَلَـٰثَةٌ ٱنتَهُوا۟ خَيْرًا لَّكُمْ إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَـٰهٌ وَٰحِدٌ سُبْحَـٰنَهُۥٓ أَن يَكُونَ لَهُۥ وَلَدٌ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿١٧١﴾ ....

رسله ﴿وَ﴾ غاية أمره ﴿كَلِمَتُهُۥٓ﴾ أي يحصل ويتكون من كلمته التي ﴿أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ﴾ ﴿وَ﴾ هو ﴿رُوحٌ﴾ يتجلى ﴿مِّنْهُ﴾ سبحانه ويظهر فيه عليه السلام كظهوره في سائر الأشخاص، إلا أن لاهوتيته غلبت على ناسوتيته، لذلك ظهر منه من الخوارق ما خلت عنها الأنبياء ﴿فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ﴾ المنزه في ذاته عن الأهل والولد ﴿وَرُسُلِهِۦ﴾ المؤيَدين من عنده لتبليغ حكمه وأحكامه، ومن جملتهم عيسى عليه السلام ﴿وَلَا تَقُولُوا۟﴾ على الله المنزَّه عن التعدد مطلقاً ما لا يليق بجنابه بأنه ﴿ثَلَـٰثَةٌ﴾ الله والمسيح ومريم ﴿ٱنتَهُوا۟﴾ عن التثليث بل عن التعدد مطلقاً، فإن انتهاءكم عنه يكون ﴿خَيْرًا لَّكُمْ﴾ يرشدكم إلى سبيل التوحيد ﴿إِنَّمَا ٱللَّهُ﴾ المتجلي في الآفاق والاستحقاق ﴿إِلَـٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ أي موجودٌ واحدٌ لا يمكن التعدد فيه أصلاً ﴿سُبْحَـٰنَهُۥٓ﴾ بذاته وتعالى عن ﴿أَن يَكُونَ لَهُۥ وَلَدٌ﴾ كما يقول الظالمون ﴿لَّهُۥ﴾ باعتبار تجلياته على صفحات الإعدام بجميع أوصافه وأسمائه مظاهرُ ﴿مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ﴾ من جنود الله ومرايا أوصاف جماله وجلاله ﴿وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أيضاً منها، وكذا فيما شاء الله، وما يعلم جنود ربك إلا هو ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿١٧١﴾﴾ أي كفى الله المتجلي بجميع أوصافه وأسمائه وكيلاً على مظاهره، مولياً لأمورهم أصالةً واستقلالاً.

ومن غاية إغراء النصارى في وصف المسيح ونهاية غلوهم في حقه

لَّن يَسْتَنكِفَ ٱلْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ٱلْمُقَرَّبُونَ ۚ وَمَن يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا ﴿١٧٢﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦ ۖ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْتَنكَفُوا۟ وَٱسْتَكْبَرُوا۟ فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٧٣﴾ ....

استنكفوا واستكبروا عن كونه عبد الله، ونسبوه إليه بالبنوّة، وعبدوا له كعبادة الله ، لذلك رد عليهم بقولهم:

﴿ لَّن يَسْتَنكِفَ ﴾ ويستكبر ﴿ ٱلْمَسِيحُ ﴾ وإن ترقى إلى السماء بقوة لاهوتية ﴿أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴾ عند الله ، المترقون من السماء أيضاً، إذ لا ناسوتية لهم أصلاً، ﴿وَ﴾ كيف يستنكر ويستنكف عن عبادته أحدٌ من مظاهره ومخلوقاته، إذ ﴿مَن يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ﴾ الله ﴿ إِلَيْهِ جَمِيعًا ﴿١٧٢﴾ ﴾ ويحاسبهم بما صنعوا، ويجازيهم على مقتضى حسابهم بأشد العذاب وأسوء النكال.

﴿ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ﴾ بالله وكتبه ورسله ﴿وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ المأمورة لهم إطاعةً وانقياداً ﴿فَيُوَفِّيهِمْ ﴾ الله ﴿ أُجُورَهُمْ ﴾ بأضعافِ ما استحقوا ﴿ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦ ﴾ ما لا يسع في عقولهم ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْتَنكَفُوا۟ وَٱسْتَكْبَرُوا۟ ﴾ عن عبادة الله ﴿ فَيُعَذِّبُهُمْ ﴾ الله المتعززُ برداء العظمة والكبرياء، المتفردُ بعلو المجد وإليها ﴿عَذَابًا ﴾ يطردهم عن ساحة عزِّ حضوره ﴿ أَلِيمًا ﴾ ولا ألم أشد من ذلك ﴿وَ﴾ مع ذلك ﴿لَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا ﴾ يدفع عنهم الأذى ﴿وَلَا نَصِيرًا ﴿١٧٣﴾ ﴾ يخفف عنهم العذاب.

يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُم بُرْهَٰنٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا ﴿١٧٤﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱعْتَصَمُوا۟ بِهِۦ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِى رَحْمَةٍ مِّنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿١٧٥﴾ يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِى ٱلْكَلَٰلَةِ ۚ إِنِ ٱمْرُؤٌا۟ هَلَكَ لَيْسَ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَهُۥٓ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ ۚ وَهُوَ يَرِثُهَآ

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ المتوجهون إلى توحيد الله: لم يبق لكم عذرٌ في الوصول إليه والرجوع نحوه إذ ﴿قَدْ جَآءَكُم بُرْهَٰنٌ﴾ واضحٌ ﴿مِّن رَّبِّكُمْ﴾ على لسان نبيكم ﴿وَ﴾ مع ذلك ﴿أَنزَلْنَآ﴾ من مقام جودنا ﴿إِلَيْكُمْ﴾ لهدايتكم وإصلاح حالكم ﴿نُورًا مُّبِينًا ﴿١٧٤﴾﴾ هو القرآن.

﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ منكم ﴿بِٱللَّهِ﴾ المتوحدِ في ذاته ﴿وَٱعْتَصَمُوا۟ بِهِۦ﴾ وبكتابه ورسله ﴿فَسَيُدْخِلُهُمْ﴾ الله ﴿فِى رَحْمَةٍ﴾ عظيمةٍ وروحٍ عظيمٍ إشفاقاً ﴿مِّنْهُ﴾ لا استحقاقٍ منهم ﴿وَفَضْلٍ﴾ وإحسان امتناناً عليهم ﴿وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ﴾ أي إلى ذاته ﴿صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿١٧٥﴾﴾ موصلاً إلى ذروة توحيده، لا يعرض لهم فيها ضلالٌ أصلاً.

﴿يَسْتَفْتُونَكَ﴾ يا أكمل الرسل عن ميراث الكلالة كيف يقسم ﴿قُلِ﴾ لهم: ﴿ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِى ٱلْكَلَٰلَةِ ۚ﴾ في أوائل السورة ويعيد في آخرها تأكيداً أو مبالغةً وهي آخر ما نزلت في الأحكام ﴿إِنِ ٱمْرُؤٌا۟ هَلَكَ﴾ وحين هلك ﴿لَيْسَ لَهُۥ وَلَدٌ﴾ لا ذكرٌ ولا أنثى ﴿وَ﴾ الحال أن ﴿لَهُۥٓ أُخْتٌ﴾ من الأبوين أو الأب ﴿فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ ۚ﴾ الهالك ﴿وَ﴾ كذا إن هلكت الأخت ﴿هُوَ يَرِثُهَآ﴾

إِن لَمْ يَكُن لَّهَا وَلَدٌ فَإِن كَانَتَا ٱثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا ٱلثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَ وَإِن كَانُوٓاْ إِخْوَةً رِّجَالًا وَنِسَآءً فَلِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّواْ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٧٦﴾

جميع مالها ﴿ إِن لَّمْ يَكُن لَّهَا وَلَدٌ ﴾ لا ذكرٌ ولا أنثى ﴿فَإِن كَانَتَا ﴾ الأختان[1] ﴿ٱثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا ٱلثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَ ﴾ أخوهما ﴿وَإِن كَانُوٓاْ ﴾ أي الوارثون ﴿ إِخْوَةً ﴾ وأخواتٍ مختلطين ﴿رِّجَالًا وَنِسَآءً فَلِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ ﴾ من متروكات أخيهم، وإنما ﴿ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ﴾ حكم الكلالة ههنا مع أنه بينه في ما مضى كراهةَ ﴿أَن تَضِلُّواْ ﴾ وتغفلوا عنها ﴿وَٱللَّهُ﴾ المدبر لأموركم ﴿بِكُلِّ شَيْءٍ ﴾ من حوائجكم المتعلقة بحياتكم ومماتكم ﴿عَلِيمٌ ﴿١٧٦﴾﴾ يعلمكم وينبهكم عليه حتى لا تذهلوا وتنصفوا به.

خاتمة السورة

عليك أيها الطالب لتحقيق الحق القاصد نحو توحيده، أوصلك الله إلى أقصى مرامك أن تتمسك بالبرهان الواضح الذي وصل إليك من الرسول ﷺ، الدالِّ على توحيد الحق، وتستنير بنور القرآن الفارق بين الحق والباطل الواقع في طريقه، وتمتثل بما فيه من الأوامر المؤدية إليه، وتجتنب عن نواهيه المضلة المبعدة عنه، وتتخلق بعزائمه المكنونة في ضمن الأحكام والقصص المذكورة فيه،لتتحقق بما رمز فيه من غوامض سر التوحيد وسريان الوحدة

---

(١) في المخطوط (الأخت).

في ملابس الكثرة، وتتمكن في مقر الوحدة الذاتية المفنية للهويات الباطلة الزائلة في أنفسها.

ولا يتيسر لك هذا إلا بطول خدمة المرشد الكامل المكمل الذي يرشدك إلى الله امتداد حبل الله الممدود من أزل الذات إلى أبد الأسماء والصفات، ألا وهو القرآن المنزل على خير الأنام كما قال ﷺ: «القُرْآنُ حَبْلُ اللهِ مَمْدُوْدٌ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الأَرْضِ»[1].

فمن أراد أن يغوص في لجج بحار القرآن لاستخراج فرائد اليقين والعرفان، فعليه أن يتمسك أولاً بالأحكام الشرعية الفرعية التي استنبطها أرباب العزائم الصحيحة عن ظواهر كَلِم القرآن ؛ ليكون مهذباً لظواهر أصحاب اليقظة من أهل الطلب والإرادة حتى تستعد بها نفوسهم، وتتصفى بواطنهم لأن يفيض عليها رشحات بحر التوحيد، ويصير قابلاً لأن ينزل عليها سلطان العشق والمحبة، إذ الوقاية لِلُبِّ التوحيد إنما هي أحكام الشريعة وآداب الطريقة للسالكين القاصدين نحو الحقيقة بالسلوك والمجاهدة.

---

(١) لم أجد بهذا اللفظ ولكن يشهد له حديث عبد الله رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «إن هذا القرآن مأدبة الله فاقبلوا من مأدبته ما استطعتم، إن هذا القرآن حبل الله والنور المبين والشفاء النافع عصمة لمن تمسك به ونجاة لمن تبعه، لا يزيغ فيستعتب ولا يعوج فيقوم، ولا تنقضي عجائبه، ولا يخلق من كثرة الرد، اتلوه فإن الله يأجركم على تلاوته كل حرف عشر حسنات، أما إني لا أقول ألم حرف ولكن ألف ولام وميم ...»
أخرجه الحاكم في المستدرك [١/ ٧٤١ رقم / ٢٠٤٠/ باب: فضل القرآن] وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه.
والدارمي في السنن [٢/ ٥٢٣ رقم / ٣٣١٥/ باب: فضل من قرأ القرآن] وابن أبي شيبة في المسند [١/ ٢٥١ رقم / ٣٧٦/] وغيرهم وله شواهد كثيرة.

وأما البدلاء المستغرقون في بحر الذات، الهائمون بمطالعة جماله، الفانون فيه مطلقاً فهم هو وهو هم، ما لنا ومالهم حتى نتكلم عنهم، جعلنا الله من خدام وتراب أقدامهم.

فعليك أيها المريد العازم لسلوك طريق الفناء الجازم الحازم في هذا العزم أن تصفي أولاً سرك وسريرتك عن التوجه إلى غير الحق، وتجعل مطلبك ومقصودك الاستغراق والفنا في بحر الوحدة.

لا يتيسر لك هذا إلا بعد كسر سفينة هويتك الباطلة، ولا يتيسر كسرها إلا بالرياضات الشاقة من الجوع والعطش والسهر المفرط، والانقطاع عن اللذات الحسية والمشتهيات النفسية بالتلذذ بالمودة والفناء والصبر على البلاء والرضا على ماجرى عليه القضاء.

ومتى تحققت هذه الأمور فيك وَهَنَ هُويتك وضعف سفينتك؛ وحينئذٍ يمكنك كسرها إن وفقت بها.

زيِّن بلطفك ظواهرنا بشريعتك، وبواطننا بحقيقتك، وأسرارنا بمشاهدتك، وأرواحنا بمعاينتك، إنك على ما تشاء قدير، وبرجاء المؤمنين جدير.



بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

فاتحة سورة المائدة

لا يخفى على المقيمين بحدود الله، الموفين بعهوده المحافظين بعقوده المنعقدة بين أوصافه الذاتية بمناسبة بعضها مع بعض، ومقابلة بعضها ببعض: أن منشأ جميع الأوامر والنواهي الموردة في الشرع إنما هي الأوصاف المتقابلة والأسماء المتخالفة الإلهية.

فإذاً الاختلافات الواقعة بين الآثار المترتبة على تلك الأوصاف إنما تنشأ منها، والسر في ورود الأوامر والنواهي إنما هو لحصول الاعتدال والقسط الإلهي المعد لاستحقاق الخلافة والنيابة المقصودة من الظهور والإظهار والخلق والإيجاد.

ولذلك كلف سبحانه خواص عباده المجبولين على هذه الفطرة بالتكليفات الشاقة من قطع المألوفات وترك المشتهيات والمستلذات العائقة عن الاعتدال الفطري الإلهي، وهداهم إلى صراطٍ مستقيمٍ موصلٍ إلى توحيده بإسقاط الإضافات الطارئة من كثرة الأسماء والصفات المنتشئة من تطولات الذات وتجليات الحبيّة المتشعشعة أزلاً وأبداً بلا عللٍ وأغراضٍ، وما لنا منها إلا الحيرة والاستغراق والعجز والوله والهيمان إن وفقنا بها من عنده.

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوۡفُواْ بِٱلۡعُقُودِۚ أُحِلَّتۡ لَكُم بَهِيمَةُ ٱلۡأَنۡعَٰمِ إِلَّا مَا يُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡ غَيۡرَ مُحِلِّي ٱلصَّيۡدِ وَأَنتُمۡ حُرُمٌۗ إِنَّ ٱللَّهَ يَحۡكُمُ مَا يُرِيدُ ﴿١﴾ ....

وبهذه المصلحة أمر سبحانه عباده وأوصاهم بإيفاء العهود ومحافظة العقود ليستعدوا مما لأجله جُبِلوا وخلقوا فقال منادياً متيمناً:

﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ﴾ المستوي على عروشه بالعدل القويم ﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ﴾ لعباده بإهدائهم إلى صراطٍ مستقيم ﴿ٱلرَّحِيمِ﴾ لهم بإيصالهم إلى روضة الرضا وجنة التسليم.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ مقتضى إيمانكم الوفاء بالعهود والعقود الموضوعة فيكم لإصلاح حالكم ﴿أَوۡفُواْ بِٱلۡعُقُودِۚ﴾ واظبوا على إقامة الحدود، وداوموا على محافظة المواثيق، التي وضعها الحق بينكم لتدبر أمور معاشكم ومعادكم، من جملتها أنها ﴿أُحِلَّتۡ لَكُم بَهِيمَةُ ٱلۡأَنۡعَٰمِ﴾ وهي الأزواج الثمانية وما يشبهها تقويماً لمزاجكم وتقويةً له ليتمكنوا على إتيان ما كلفوا به ﴿إِلَّا مَا يُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡ﴾ في كتاب الله تحريمه حال كونكم ﴿غَيۡرَ مُحِلِّي ٱلصَّيۡدِ﴾ مطلقاً ﴿وَأَنتُمۡ﴾ في تلك الحالة ﴿حُرُمٌۗ﴾ محرمين للحج، مأمورين بحبس القوى الشهوية والغضبية عن مقتضياتهما، بل معطلين لها حتى تتمكنوا وتقدروا على الموت الإرادي ﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾ المدبر لمصالح عباده ﴿يَحۡكُمُ﴾ بمقتضى حكمته ومصحلته ﴿مَا يُرِيدُ ﴿١﴾﴾ لهم من التحليل والتحريم بحسب الأوقات والحالات.

لا يُسأل عن فعله، بل لا بد لكم الانقياد تعبداً سيما في أعمال الحج.

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحِلُّواْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ وَلَا ٱلشَّهْرَ ٱلْحَرَامَ وَلَا ٱلْهَدْىَ وَلَا ٱلْقَلَٰٓئِدَ وَلَآ ءَآمِّينَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ يَبْتَغُونَ ....

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ﴾ بالله طاعةً وتعبداً مقتضى إيمانكم أن ﴿لَا تُحِلُّواْ﴾ وتبيحوا لأنفسكم (شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ﴾ أي حرمات الله التي حرمها سبحانه في أيام الحج تعظيماً لأمره، وتوقيراً لبيته ﴿وَلَا ٱلشَّهْرَ ٱلْحَرَامَ﴾ أي لا تحلوا قواكم الحيوانية عن الحبس والزجر في الأزمنة التي حرم سبحانه إطلاقها فيها تعظيماً لبيته ﴿وَلَا﴾ تبيحوا أيضاً لأنفسكم (ٱلْهَدْىَ﴾ أي التعرض لما أُهدي إلى البيت قبل بلوغه إلى كله ﴿وَ﴾ أيضاً ﴿لَا﴾ يتعرضوا ﴿ٱلْقَلَٰٓئِدَ﴾ وهي ما يُعلم ويقلد بقلادةٍ دالةٍ على أنه من هدايا بيت الله على ما هو من عادة العرب ﴿وَ﴾ عليكم أن ﴿لَا﴾ تتعرضوا وتتقاتلوا مع المؤمنين الموقنين الذين توجهوا نحو الكعبة الحقيقية، وأرادوا أن يخرجوا عن بقعة الإمكان، فدخلوا في طريق المجاهدة، وسلكوا نحو الوجوب تقرباً وتشوقاً مع كونهم ﴿ ءَآمِّينَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ﴾ قاصدين التقرب والتحقق بكعبة الذات، والوقوف بعرفات الأسماء والصفات، إذ لا بد من وقوفها لمن قصد زيارة بيت الله الأعظم، بل الركن الأصلي لزيارة بيت الله هي هنا الوقوف عند المنجذبين نحو الحق من طريق المجاهدة المستتبعة للكشف والمشاهدة لأهل العناية.

وأما المنجذبون نحوه بالاستغناء والاستغراق التام الذي لا يحوم حوله شائبة من الكثرة أصلاً، فهم في مقعدِ صدقٍ عند مليكٍ مقتدرٍ حالَ كونهم ﴿يَبْتَغُونَ﴾ ويطلبون هؤلاء الزوار التحقق بهذه المرتبة العلية والمنزلة

فَضْلًا مِّن رَّبِّهِمْ وَرِضْوَانًا ۚ وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا ۚ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ أَن صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَن تَعْتَدُوا ۘ وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ ....

السنية ﴿فَضْلًا مِّن رَّبِّهِمْ﴾ بلا وسائل الأعمال والنسك ووسائط المأمورات والمنهيات ﴿وَ﴾ يطلبون أيضاً من فضل الله ﴿رِضْوَانًا﴾ رضىً من جانب الحق، وتحسيناً من قِبَله فيما يأتونه من الشعائر المكتوبة في الحج الحقيقي، إذ لا وثوق للعبد سوى الرضا منك يا أكرم الأكرمين ويا أرحم الراحمين ﴿وَإِذَا حَلَلْتُمْ﴾ قوى حيوانيتكم عن عقال التكاليف المفروضة في الحج بخروج أيامها وأوقاتها مع متمماتها ﴿فَاصْطَادُوا﴾ أي أبيحوا على أنفسكم اصطياد ما أحل الله لكم من صيد البر والبحر ﴿وَ﴾ بعدما عَلِمتم فوائد الحج وعرفتم عرفانه ومناسكه ﴿لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ﴾ أي لا يوقعنكم في الجريمة العظيمة بغض قوم إياكم وخوفكم منهم إلى (﴿أَن صَدُّوكُمْ﴾ وصرفوكم ﴿عَنِ﴾ التوجه نحو ﴿الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ الذي حرمت عنده سجود السوى والأغيار مطلقاً، فعليكم أيها القاصدون زيارة الكعبة المعظمة والقبلة المكرمة التي هي بيت الوحدة ﴿أَن تَعْتَدُوا﴾ وتتمرنوا وتعتادوا على المقاتلة، والمقاتلةُ مع الكفار إنما يغني عن الزيارة من القوى الشهوية والغضبية والمستلذات الخالية الواهية ﴿وَتَعَاوَنُوا﴾ استنصِروا ﴿عَلَى﴾ جنود ﴿الْبِرِّ﴾ المورث للرجاء وحسن الظن بربكم ﴿وَ﴾ على جنود ﴿التَّقْوَىٰ﴾ المشعرِ للخوف من قهر الله وغضبه ﴿وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ﴾ الخصلةِ الذميمة عقلاً وشرعاً

وَٱلْعُدْوَٰنِ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٢﴾ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ وَٱلدَّمُ وَلَحْمُ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ وَٱلْمُنْخَنِقَةُ وَٱلْمَوْقُوذَةُ وَٱلْمُتَرَدِّيَةُ وَٱلنَّطِيحَةُ وَمَآ أَكَلَ ٱلسَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى ٱلنُّصُبِ ....

﴿وَٱلْعُدْوَٰنِ ۚ﴾ أي التجاوز عن الحدود الشرعية ـ العياذ بالله ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ﴾ أن تجترئوا عليه بنقض عهوده ومجاوزة حدوده ﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾ القادرَ على كل ما يريدُ ﴿شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٢﴾﴾ أليمُ العذاب لمن ظلم نفسه بالإثم والعدوان.

ثم لما كان الأصل في الأشياء الحل والإباحة، والحرمةُ إنما عرضت من الشرع بيّن سبحانه أولاً حكم المحللات مطلقاً وما يتفرع عليها، ثم عين المحرمات التي استثناها بقوله ﴿إِلَّا مَا يُتْلَىٰ﴾ [٥ المائدة -١،٢٢-الحج٣٠] فقال:

﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ﴾ في دينكم ﴿ٱلْمَيْتَةُ﴾ المائت حتف أنفه بلا موجبٍ لإزالة الحياة (وَٱلدَّمُ﴾ المسفوحُ السائلُ بالتزكية أو بغيرها ﴿وَلَحْمُ ٱلْخِنزِيرِ﴾ النجسِ الظاهرِ خباثته عقلاً وشرعاً ﴿وَ﴾ من جملة المحرمات: ﴿مَا أُهِلَّ﴾ صوِّت ذبحه ﴿لِغَيْرِ﴾ اسم ﴿ٱللَّهِ بِهِۦ﴾ من أسماء الأصنام ﴿وَ﴾ كذا ﴿ٱلْمُنْخَنِقَةُ﴾ المزيلة حياتها بالخنق بلا تذكيةٍ كما يعفل المشركون ﴿وَ﴾ كذا ﴿الْمَوْقُوذَةُ﴾ المضروبة بالخشب والأحجار إلى أن تذهب منها الروح ﴿وَٱلْمُتَرَدِّيَةُ﴾ التي سقطت من علوٍّ أو في بئرٍ فزالت حياتها ﴿وَٱلنَّطِيحَةُ﴾ أيضاً وهي التي نطحها الحيوان الآخر فماتت، ﴿وَ﴾ كذا حرمت علكم ﴿مَا أَكَلَ ٱلسَّبُعُ﴾ منه فزال حياته ﴿إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ﴾ قطعتم حلقومه، مهللين حين أحسستم الرمق منه، فإنه يحل لكم ﴿وَ﴾ كذا حرمت عليكم ﴿مَا ذُبِحَ عَلَى ٱلنُّصُبِ﴾ أي

وَأَن تَسۡتَقۡسِمُواْ بِٱلۡأَزۡلَٰمِۚ ذَٰلِكُمۡ فِسۡقٌۗ ٱلۡيَوۡمَ يَئِسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن دِينِكُمۡ فَلَا تَخۡشَوۡهُمۡ وَٱخۡشَوۡنِۚ ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ ....

الأصنام الموضوعة حول البيت، كانوا يعظمونها ويتقربون إليها بالذبائح والقرابين ﴿وَ﴾ من جملة المحرمات: ﴿أَن تَسۡتَقۡسِمُواْ بِٱلۡأَزۡلَٰمِۚ﴾ أي الأقداح وذلك أنهم إذا قصدوا فعلاً ضربوا ثلاثة أقداحٍ مكتوبٍ على أحدها: أمرني ربي، وعلى الآخر: نهاني ربي، وعلى الثالث: غفل، فإن خرج الأمر مضوا عليه، وإن خرج النهي انصرفوا عنه، وإن خرج الغفل أجالوها ثانياً، ومعنى الاستقسام بها: الاستخبار والاستفسار عن القسمة الغيبية التي استأثر الله بها، ولم يطلع أحداً عليها، وأمثال هذا ما هي إلا كهانةٌ وكفرٌ صدرت عن أولي الأحلام السخيفة الخبيثة الناشئة من عدم الرضا بقضاء الله ﴿ذَٰلِكُمۡ﴾ أي استقسامكم واستخباركم من أزلامكم ﴿فِسۡقٌ﴾ خروجٌ عما عليه الأمر والشروع وديدنة[1] الجاهلية، فعليكم أن تجتنبوا عن أمثالها خصوصاً ﴿ٱلۡيَوۡمَ يَئِسَ﴾ وقنط بالمرة ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ عن انصرافكم ﴿مِن دِينِكُمۡ فَلَا تَخۡشَوۡهُمۡ﴾ على غلبتهم بترك رسومهم وعاداتهم المستقبحة ﴿وَٱخۡشَوۡنِۚ﴾ عن بطشي وانتقامي بترك ما أمرتُ لكم ونهيتُ عنه في جميع أحوالكم وأزمانكم سيما ﴿ٱلۡيَوۡمَ﴾ الذي هذا قد ﴿أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ﴾ بأن ينصركم ويغلبكم على مخالفيكم مطلقاً، ويظهر دينكم على الأديان كلها ﴿وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي﴾ ظاهراً وباطناً بالاستيلاء والغلبة على الأعداء وقمع الآراء الباطلة والأهواء الفاسدة بالكلية ﴿وَ﴾ من إتمام نعمتي عليكم أني ﴿رَضِيتُ﴾ اخترت وانتخبت ﴿لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ﴾

(١) في المخطوط (ديوثة الجاهلية).

دِينًاۚ فَمَنِ ٱضۡطُرَّ فِي مَخۡمَصَةٍ غَيۡرَ مُتَجَانِفٖ لِّإِثۡمٖ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿٣﴾ يَسۡـَٔلُونَكَ مَاذَآ أُحِلَّ لَهُمۡۖ قُلۡ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ وَمَا عَلَّمۡتُم مِّنَ ٱلۡجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ ٱللَّهُۖ فَكُلُواْ مِمَّآ أَمۡسَكۡنَ عَلَيۡكُمۡ وَٱذۡكُرُواْ ٱسۡمَ ٱللَّهِ عَلَيۡهِۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ ....

الإطاعة والانقياد ﴿دِينًاۚ﴾ ديدنةً ومذهباً، إذ لا دين عند الله إلا الإسلام، وبعد كمال دينكم وإتمام النعم عليكم وتحليل ما أحل وتحريم ما حرم ﴿فَمَنِ ٱضۡطُرَّ﴾ منكم ﴿فِي مَخۡمَصَةٍ﴾ مجاعةٍ مفرطةٍ ملجئةٍ إلى تناول الجيف والمحرمات حال كونكم ﴿غَيۡرَ مُتَجَانِفٖ﴾ مائلٍ ﴿لِّإِثۡمٖ﴾ ومعصيةٍ، رخص التناول منها مقدار سدِّ جوعه ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ﴾ المصلح لأحوالكم ﴿غَفُورٞ﴾ مما صدر عنكم حين اضطراركم ومخمصتكم ﴿رَّحِيمٞ ﴿٣﴾﴾ لا يؤاخذكم عليه بعدما رخص لكم.

﴿يَسۡـَٔلُونَكَ مَاذَآ﴾ أي: أيُّ شيءٍ من الأشياء المألوفة المتعارفة ﴿أُحِلَّ لَهُمۡۖ قُلۡ أُحِلَّ لَكُمُ﴾ في دينكم ﴿ٱلطَّيِّبَٰتُ﴾ التي مضى ذكرها في أول السورة من البهائم المذكاة ﴿وَ﴾ كذا أحل لكم صيد ﴿مَا عَلَّمۡتُم مِّنَ ٱلۡجَوَارِحِ﴾ الكواسب لكم الصيد من أدوات القوائم والمخالب حال كونكم ﴿مُكَلِّبِينَ﴾ مؤدبين معلِّمين إياهن لاصطيادٍ ﴿تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ ٱللَّهُۖ﴾ من مقتضيات العقل المفاض لكم بأنواع الحيل إياهن، وإذا علمتوهن ﴿فَكُلُواْ مِمَّآ أَمۡسَكۡنَ عَلَيۡكُمۡ﴾ من صيدهن حلالاً طيباً ﴿وَٱذۡكُرُواْ ٱسۡمَ ٱللَّهِ عَلَيۡهِۖ﴾ أي وعليكم أن تذكروا اسم الله حين إرسال الجوارح إلى الصيد ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ﴾ أن لا تهلوا على الصيد

إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٤﴾ ٱلْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ ۖ وَطَعَامُ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ حِلٌّ لَّكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَّهُمْ ۖ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَٰفِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِىٓ أَخْدَانٍ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِٱلْإِيمَٰنِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُۥ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٥﴾ ....

والذبائح ولا تحلوها بذكر اسم الله بعدما أمركم به ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ ﴾ المطلعَ لجميع حالاتكم ﴿سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٤﴾﴾ شديدُ العقاب لمن لم يمتثل بأوامره ولم يجتنب عن نواهيه.

﴿ ٱلْيَوْمَ ﴾ أي حين انتشر وظهر دينكم على الأديان كلها ﴿أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ ﴾ المذكورة المحللة فيه ﴿وَ﴾ أيضاً ﴿طَعَامُ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ ﴾ أي اليهود والنصارى وذبائحهم ﴿حِلٌّ لَّكُمْ ﴾ في دينكم ﴿وَطَعَامُكُمْ ﴾ وإطعامكم أيضاً ﴿حِلٌّ لَّهُمْ ﴾ لأنهم من ذوي الملل والأديان ﴿وَ﴾ كذا أحل لكم ﴿ الْمُحْصَنَاتُ﴾ الحرائرُ العفائفُ ﴿مِنَ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ ﴾ أي نكاحكم إياهن ﴿وَ﴾ كذا ﴿الْمُحْصَنَاتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾ مهورهن بلا نقصٍ وتكسيرٍ، والحال أنكم (مُحْصِنِينَ ﴾ محافظين على حقوق الزوج والنكاح ﴿غَيْرَ مُسَٰفِحِينَ ﴾ مجاهرين بالزنا ﴿وَلَا مُتَّخِذِىٓ أَخْدَانٍ ﴾ مستترين به ﴿وَمَن يَكْفُرْ﴾ منكم وينكر ﴿ بِٱلْإِيمَٰنِ﴾ وبلوازمه وحدوده الدالة على صحته ﴿فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُۥ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٥﴾﴾ الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً.

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قُمۡتُمۡ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغۡسِلُواْ وُجُوهَكُمۡ وَأَيۡدِيَكُمۡ إِلَى ٱلۡمَرَافِقِ وَٱمۡسَحُواْ بِرُءُوسِكُمۡ وَأَرۡجُلَكُمۡ إِلَى ٱلۡكَعۡبَيۡنِۚ وَإِن كُنتُمۡ جُنُبٗا فَٱطَّهَّرُواْۚ ....

ثم لما بين سبحانه ما يتعلق بمعاش عباده من الحل والحرمة والزواج والنكاح وحسن المعاشرة ورعاية الآداب المشروعة فيها، أراد أن يهديهم إلى طريق الرجوع إلى المعاد الذي هو المبدأ بعينه، ليميلوا إليه، ويتوجهوا نحوه على نية التقرب إلى أن وصلوا واتصلوا، فقال منادياً:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ بوحدة ذات الحق وتنزهه عن وصمة الكثرة ﴿إِذَا قُمۡتُمۡ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ﴾ أي إذا أردتم أن تخرجوا من بقعة الإمكان وتميلوا نحو فضاء الوحدة متشوقين متقربين ﴿فَٱغۡسِلُواْ وُجُوهَكُمۡ﴾ أي فعليكم أن تغسلوا بماء المحبة والشوق والجذب الإلهي المحيي المنبتِ لأموات الأرواح من أرض تعينات وجوهكم التي تلي الحق عن رين الإمكان وشين الكثرة ﴿وَ﴾ طهروا ﴿أَيۡدِيَكُمۡ﴾ أي قصروها عن أدناس الأخذ والإعطاء من حطام الدنيا وأقذارها ﴿إِلَى ٱلۡمَرَافِقِ﴾ أي مبالغين في تطهيرها إلى أقصى الغاية ﴿وَ﴾ بعد ما غسلتم الوجوه وطهرتم الأيدي ﴿وَٱمۡسَحُواْ بِرُءُوسِكُمۡ﴾ أي امحوا وحكُّوا أنانيتكم وهويتكم التي منها طلبكم وأدبكم ﴿وَ﴾ امحوا أيضاً ﴿أَرۡجُلَكُمۡ﴾ وأقدامكم التي بها سلوككم وطلبكم (إِلَى ٱلۡكَعۡبَيۡنِۚ﴾ إلى أن ينقطع سيركم وسلوككم بالفناء فيه ﴿وَإِن كُنتُمۡ﴾ أيها المائلون نحو الحق ﴿جُنُبٗا﴾ منغمسين في خبائث الإمكان وقاذوراتها ﴿فَٱطَّهَّرُواْۚ﴾ فعليكم

وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ أَوْ لَٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمْ تَجِدُوا۟ مَآءً فَتَيَمَّمُوا۟ صَعِيدًا طَيِّبًا فَٱمْسَحُوا۟ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُم مِّنْهُ ۚ مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم ....

المبالغة في التطهير بالرياضات الشاقة من قطع التعلقات وترك المألوفات والمشتهيات، وبالركون إلى الموت الإرادي، والخروج عن الأوصاف البشرية ﴿وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰٓ﴾ من الأبرار الذين مرضوا بسموم الإمكان، وبحموم نيرانه، وصاروا محبوسين فيه بلا قدم وإقدام ﴿أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ﴾ من السالكين السائرين نحو الحق بلا مددٍ ﴿أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ﴾ أي رجع من التلوث والتدنس بغلاظ أدناس الدنيا من جاهها ومالها ورئاستها ﴿أَوْ لَٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ﴾ واستكرهتموهن لأنهن أقوى من حبائل الشيطان وشباكها، يصرف بها أهل الإرادة عن جادة السلامة ﴿فَلَمْ تَجِدُوا۟﴾ في هذه الصورة من لدن نفوسكم وقلوبكم ﴿مَآءً﴾ شوقاً إلى الحق، مطهراً لخبائث نفوسكم قالعاً لها مطلقاً ومحبة صادقة مزيلة لدرن التعلقات وجذباً مفرطاً من جانب الحق مزعجاً ملجئاً إلى الفناء ﴿فَتَيَمَّمُوا۟﴾ أي فعليكم أن تقصدوا وتتوجهوا ﴿صَعِيدًا طَيِّبًا﴾ مرشداً كاملاً ومكملاً طاهراً عن جميع الرذائل والآثام العائقة عن الوصول ﴿فَٱمْسَحُوا۟ بِوُجُوهِكُمْ﴾ أي هوياتكم الباطلة ﴿وَأَيْدِيكُم﴾ أي أوصافكم الذميمة العاطلة ﴿مِّنْهُ﴾ أي من تراب أقدام وثرى سدته السنية لعله يرشدكم إلى النجاة عن مضيق التعيينات نحو فضاء الذات ﴿مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ﴾ المدبر لأموركم ﴿لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم﴾ ويبقي فيكم

مِّنْ حَرَجٍ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٦﴾ وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَٰقَهُ ٱلَّذِى وَاثَقَكُم بِهِۦٓ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٧﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ ....

﴿مِّنْ حَرَجٍ﴾ يمنعكم عن الوصول إلى ما جبلتم[1] لأجله ﴿وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ﴾ ويصفيكم أولاً من التعيين وأدناسها ﴿وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ﴾ ثانياً مما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٦﴾﴾ حين تفوزون ما تفوزون.

﴿وَ﴾ بعدما سمعتم ما سمعتم ووعدتم من عنده ما وعدتم ﴿ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ﴾ التي أنعم بها ﴿عَلَيْكُمْ﴾ وقوموا بشكرها ﴿وَ﴾ تذكروا (مِيثَٰقَهُ ٱلَّذِى وَاثَقَكُم بِهِۦٓ إِذْ قُلْتُمْ﴾ حين سمعتم قوله: ألست بربكم: ﴿سَمِعْنَا﴾ قولك أنت ربنا أظهرتنا من العدم (وَأَطَعْنَا ۖ﴾ ما أمرتنا به طوعاً ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ﴾ من نقض ميثاقه ﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾ المطلع بالسرائر والخفايا ﴿عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٧﴾﴾ أي بمكنونات صدوركم يجازيكم على مقتضى علمه وخبرته.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ﴾ مستقيمين فيما أمرتم به في طريق توحيده ﴿شُهَدَآءَ﴾ حضراء مستحضرين ﴿ بِٱلْقِسْطِ ۖ﴾ لحقوق آلائه الإلهية ونعمائه الفائضة لكم من عنده تفضلاً وامتناناً ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ﴾ أي لا يحملنكم ولا يبعثنكم ﴿شَنَـَٔانُ قَوْمٍ﴾ شدة عداوة قوم وبغضهم

(١) في المخطوط (جعلتم).

عَلَىٰٓ أَلَّا تَعۡدِلُواْۚ ٱعۡدِلُواْ هُوَ أَقۡرَبُ لِلتَّقۡوَىٰۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ﴿٨﴾ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَأَجۡرٌ عَظِيمٞ ﴿٩﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَحِيمِ ﴿١٠﴾ ....

﴿عَلَىٰٓ أَلَّا تَعۡدِلُواْۚ﴾ ولا تقسطوا فيما أنعم الله عليكم بأن تجاوزوا عن حدود الله حين القدرة على الانتقام منهم تشفياً لصدوركم، بل عليكم أن تقسطوا في كل الأحوال سيما عند الاقتدار ﴿ٱعۡدِلُواْ﴾ أيها المنعمون بالقدرة والظفر ﴿هُوَ﴾ أي عدلكم ﴿أَقۡرَبُ لِلتَّقۡوَىٰ﴾ عن محارم الله والاجتناب عن منهياته ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ﴾ المراقبَ لكم في جميع أحوالكم ﴿إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ﴿٨﴾﴾ من مقتضيات نفوسكم وتسويلاتها.

﴿وَعَدَ ٱللَّهُ﴾ المدبرُ لأمور عباده ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ بتوحيده ﴿وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ المقربة نحوه المأمورة من عنده بأن حصل لهم مغفرة لذنوبهم تفضلاً وامتناناً ﴿وَ﴾ مع ذلك ﴿لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَأَجۡرٌ عَظِيمٞ ﴿٩﴾﴾ هو الفوز بشرف اللقاء.

بعدما وعد للمؤمنين ما وعد أردفه بوعيد الكفار جرياً على عادته المستمرة في دعوة عباده فقال:

﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ بتوحيدنا وأثبتوا الوجود لغيرنا مكابرةً وعناداً ﴿وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ﴾ الدالة على توحيدنا المنزلةِ على رسلنا ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ البعداء المشركون ﴿أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَحِيمِ ﴿١٠﴾﴾ مصاحبوها وملازموها، لا

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ هَمَّ قَوۡمٌ أَن يَبۡسُطُوٓاْ إِلَيۡكُمۡ أَيۡدِيَهُمۡ فَكَفَّ أَيۡدِيَهُمۡ عَنكُمۡۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ١١ ۞ وَلَقَدۡ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَبَعَثۡنَا مِنۡهُمُ ٱثۡنَيۡ عَشَرَ نَقِيبٗاۖ ....﴾

نجاة لهم منها أصلاً توغلهم وانهماكهم في الكفر والضلال.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ ﴾ كيف ينجيكم من يد العدو ﴿ إِذۡ هَمَّ ﴾ قصدَ ﴿ قَوۡمٌ ﴾ من عدوكم ﴿أَن يَبۡسُطُوٓاْ إِلَيۡكُمۡ أَيۡدِيَهُمۡ ﴾ حين كنتم مشغولين بالصلاة ويفاجئوكم بغتةً ويستأصلوكم مرةً ﴿فَكَفَّ أَيۡدِيَهُمۡ عَنكُمۡۖ ﴾ بالوحي على نبيكم امتناناً وتفضلاً عليكم ﴿ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ ﴾ الرقيبَ عليكم أن تخالفوا أمره ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ ﴾ في كل الأمور ﴿ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ١١﴾ الموقنون بوحدانيته وحفظه وحمايته.

ثم لما أراد سبحانه تقرير المؤمنين على الإيمان وتثبيت قدمهم على جادة التوحيد والفرقان، استشهد عليهم تزلزلَ بني إسرائيل وعدم رسوخ قدمهم في الإيمان والإطاعة، مع أخذ المواثيق منهم على لسان نبيهم صلوات الرحمن على نبينا وعليه فقال:

﴿ ۞ وَلَقَدۡ أَخَذَ ٱللَّهُ ﴾ بلسان موسى كليم الله ﴿مِيثَٰقَ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ﴾ أي العهد الوثيق منهم بعدما خلصوا من فرعون وورثوا منه ما ورثوا، واستقروا على ملك مصر ﴿وَ﴾ ذلك أنا ﴿بَعَثۡنَا مِنۡهُمُ ٱثۡنَيۡ عَشَرَ نَقِيبٗا ﴾ من نجبائهم ونخبائهم من كل فرقة نقيب مسلّم بينهم رئاسة وجاهاً، وبالجملة

وَقَالَ ٱللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْۖ لَئِنْ أَقَمْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَيْتُمُ ٱلزَّكَوٰةَ وَءَامَنتُم بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا لَّأُكَفِّرَنَّ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّـٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُۚ ....

كلٌّ من النقباء يولي أمر فرقته عند نبينا موسى عليه السلام.

فعهدوا أن يسيروا مع موسى إلى أريحا بالشام حين أوحى إليه، فساروا إلى أن وصلوا، وكان فيها الجبابرة الكنعانيون، فلما أراد موسى عليه السلام أن يفتش عن أحوالهم ويفحص، أرسل النقباءَ جواسيسَ يتجسسون العدو ولا يظهرون ما اطلعوا عليه من حال العدو على فرقتهم، فذهبوا وتجسسوا، فلما رأوا العدو ذوي قوة وأولي بأس شديدٍ هابوا منه، وترهبوا، فرجعوا إلى قومهم فأخبروا لهم ما ظهر عليهم إلا قليلاً منهم فنقضوا العهد والميثاق ﴿وَ﴾ مع ذلك ﴿قَالَ ٱللَّهُ﴾ لهم حين أمرهم: ﴿إِنِّي مَعَكُمْۖ﴾ لينصركم على عدوكم، وأخرجهم منها فوعزتي وجلالي ﴿لَئِنْ أَقَمْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ على الوجه الذي وصل إليكم من رسولكم ﴿وَءَاتَيْتُمُ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ على الوجه المشروع ﴿وَءَامَنتُم بِرُسُلِي﴾ بلا تفريقٍ بينهم ﴿وَعَزَّرْتُمُوهُمْ﴾ أي نصرتموهم في إعلاء كلمة الحق وإشاعة دينه ﴿وَأَقْرَضْتُمُ ٱللَّهَ﴾ ما في أيديكم من زخرفة الدنيا ﴿قَرْضًا﴾ إنفاقاً للفقراء والمساكين ﴿حَسَنًا﴾ بلا شَوب المنة والأذى ﴿لَّأُكَفِّرَنَّ عَنكُمْ﴾ أي لأمحون عن ديوان عملكم ﴿سَيِّـَٔاتِكُمْ﴾ بأسرها ﴿وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ﴾ جزاءً لإخلاصكم ﴿جَنَّـٰتٍ﴾ منتزهاتٍ ثلاث: هي العلم والعين والحق ﴿تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُۚ﴾

فَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿١٢﴾ فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ لَعَنَّٰهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَٰسِيَةً يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ وَنَسُوا۟ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَآئِنَةٍ مِّنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱصْفَحْ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣﴾ ....

مملوءةٌ بمياه الحقائق والمعارف ﴿فَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ مِنكُمْ﴾ أي بعدما سمع التذكير والعظة من الله ﴿فَقَدْ ضَلَّ﴾ وفقدَ ﴿سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿١٢﴾﴾ لا دواء لدائه، ولا رجاء لإنجائه.

اهدنا بفضلك إلى سواء السبيل.

﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ﴾ وبعدم وفائهم للعهود الوثيقة ﴿لَعَنَّٰهُمْ﴾ طردناهم عن فضاء التوحيد ﴿وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَٰسِيَةً﴾ مظلمةً بظلمة الإمكان إلى حيث (يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ﴾ المثبتة في كتاب الله لإعلاء كلمة التوحيد ﴿عَن مَّوَاضِعِهِۦ﴾ التي وضعها الحق ﴿وَنَسُوا۟ حَظًّا﴾ نصيباً ﴿مِّمَّا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ﴾ أي بالتوراة ووعظوا عنه وأفادوا منه ﴿وَ﴾ صاروا من غاية القساوة والنسيان بحيث ﴿لَا تَزَالُ تَطَّلِعُ﴾ دائماً مستمراً ﴿عَلَىٰ خَآئِنَةٍ مِّنْهُمْ﴾ تبالغ في الخيانة ﴿إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ﴾ وهم الذين آمنوا بكم وأنصفوا على ما في التوراة وأظهروها ﴿فَٱعْفُ عَنْهُمْ﴾ ولم يحرفوها زماناً ﴿وَٱصْفَحْ﴾ وانصرف عن انتقامهم إلى الإحسان معهم ﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾ القادرَ على الانتقام ﴿يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣﴾﴾ المجاوزين عن الانتقام بعد الاقتدار عليه.

وَمِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰٓ أَخَذۡنَا مِيثَٰقَهُمۡ فَنَسُواْ حَظّٗا مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِۦ فَأَغۡرَيۡنَا بَيۡنَهُمُ ٱلۡعَدَاوَةَ وَٱلۡبَغۡضَآءَ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ وَسَوۡفَ يُنَبِّئُهُمُ ٱللَّهُ بِمَا كَانُواْ يَصۡنَعُونَ ﴿١٤﴾ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ قَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمۡ كَثِيرٗا مِّمَّا كُنتُمۡ تُخۡفُونَ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖۚ ....

﴿وَمِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰٓ﴾ مدَّعين نصرة الدين وإعلاء كلمة الحق ﴿أَخَذۡنَا﴾ كما أخذنا من اليهود ﴿مِيثَٰقَهُمۡ﴾ فنقضوا كما نقضوا ﴿فَنَسُواْ﴾ كما نسوا ﴿حَظّٗا مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِۦ﴾ أي بالإنجيل المنزلِ على عيسى صلوات الرحمن عليه (فَأَغۡرَيۡنَا﴾ ألقينا وألزمنا ﴿بَيۡنَهُمُ﴾ بين اليهود والنصارى وهم اليعقوبية والنسطورية والملكائية ﴿ٱلۡعَدَاوَةَ وَٱلۡبَغۡضَآءَ﴾ المستمرةَ ﴿إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾ بحيث لا يصْفُو نفاقهم وشقاقهم أصلاً ﴿وَسَوۡفَ يُنَبِّئُهُمُ ٱللَّهُ﴾ كلا الفريقين أو الفِرَق ﴿بِمَا كَانُواْ يَصۡنَعُونَ ﴿١٤﴾﴾ في الدنيا من البغض والنفاق، وبما يكسبون به في الآخرة من العذاب والعقاب.

﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ أي اليهود والنصارى المجبولين على الكفر والنفاق ﴿قَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولُنَا﴾ إضافه إلى نفسه تعظيماً وتوقيراً ﴿يُبَيِّنُ﴾ ويظهر ﴿لَكُمۡ كَثِيرٗا مِّمَّا كُنتُمۡ تُخۡفُونَ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ من أوامره ونواهيه وأخباره المتعلقة بالزمان الماضي والآتي، سيما نعت خاتم الأنبياء والرسل صلوات الله عليه وسلامه، وإنما يبين لكم المذكورات لئلا يفُوت منكم شيء من أمور الدين ولا يؤخذون بها ﴿وَ﴾ مع ذلك ﴿يَعْفُوا﴾ ويصفح ﴿عَن﴾ تبيين ﴿كَثِيرٖ﴾ من مخفياتكم من

قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٦﴾ لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ ۚ قُلْ ....

الكتب مما لا يترتب عليه العذاب والنكال فعليكم أن تؤمنوا به وبما جاء به من عند ربه لإهدائكم إلى طريق توحيده إذ ﴿قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ﴾ معه ﴿نُورٌ﴾ واضحٌ ﴿وَ﴾ هو ﴿كِتَٰبٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾﴾ ظاهرٌ لائحٌ هدايته وإرشاده.

﴿يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ﴾ الهادي لعباده ﴿مَنِ ٱتَّبَعَ﴾ منهم (رِضْوَٰنَهُۥ﴾ أي يرضى به ﴿سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ﴾ أي طريق التوحيد الموصلةِ إلى سلامة الوحدة المسماة عنده بدار السلام ﴿وَيُخْرِجُهُم﴾ أي المتبعين رضوانه ﴿مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ﴾ ظلمة العدم وظلمة الإمكان وظلمة التعينات ﴿إِلَى ٱلنُّورِ﴾ أي الوجود البحت الخالص عن شوب الظلمة، إذ هو نورٌ على نور يهدي الله لنوره من يشاء من أهل العناية وإنما يخرجهم (بِإِذْنِهِۦ﴾ وتوفيقه وجذبِ من جانبه ﴿وَ﴾ بالجملة ﴿يَهْدِيهِمْ﴾ أن سبق لهم العناية منه ﴿إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٦﴾﴾ موصلٍ إلى توحيده.

﴿لَّقَدْ كَفَرَ﴾ وأعرض عن الحق ولم يعرف حق قدره ﴿ٱلَّذِينَ﴾ بالغوا في وصف عيسى عليه السلام وغالوا فيه إلى أن ﴿قَالُوٓا۟﴾ على سبيل الحصر: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾ المتجلي في الآفاق ﴿هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ ۚ قُلْ﴾

فَمَن يَمْلِكُ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ أَن يُهْلِكَ ٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ۗ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٧﴾ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ وَٱلنَّصَٰرَىٰ نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُا۟ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ ۚ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم ۖ بَلْ أَنتُم

لهم يا أكمل الرسل تبكيتاً لهم وإلزاماً: ﴿فَمَن يَمْلِكُ﴾ يدفع ويمنع ﴿مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا﴾ من مراداته ومقدوراته ﴿إِنْ أَرَادَ أَن يُهْلِكَ﴾ أي يبقي على الهلاك الأصلي والفناء الجبلي بلا مدٍّ من ظله ورشٍ من نوره (ٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ۗ﴾ لا يبالي الله به وبهم إذ ﴿وَلِلَّهِ﴾ المنزه عن الأكوان مطلقاً ﴿مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۚ﴾ متصرف فيها حسب إرادته واختياره إيجاداً وإعداماً ﴿يَخْلُقُ﴾ ويُظهر ﴿مَا يَشَآءُ ۚ﴾ بلطفه ويُعدم ويُخفي ما يشاء بقهره ﴿وَٱللَّهُ﴾ المتصف بجميع أوصاف الكمال ﴿عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ﴾ مقدر إرادته ﴿قَدِيرٌ ﴿١٧﴾﴾ لا تفتر قدرته، ولا تنتهي إرادته ومشيئته.

﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ وَٱلنَّصَٰرَىٰ﴾ من غاية مبالغتهم وغلوهم في حق عيسى وعزير عليهما السلام: ﴿نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُا۟ ٱللَّهِ﴾ إذ نعبد نبيه ﴿وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ ۚ﴾ إذ نحبهما وهما محبوباه ﴿قُلْ﴾ لهم يا أكمل الرسل: ﴿فَلِمَ يُعَذِّبُكُم﴾ الله ﴿بِذُنُوبِكُم ۖ﴾ إن كنتم صادقين في هذه الدعوة يعذبكم في الدنيا بالقتل والسبي والإجلاء وضربِ الذلة والمسكنة، وفي الآخرة بأضعاف ما في الدنيا وآلافها، فعليكم أن لا تَغْلوا في دينكم ونبيكم، ولا تفتروا على الله الكذب ﴿بَلْ أَنتُم﴾

بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَۚ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُۚ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَاۖ وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٨﴾ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَىٰ فَتْرَةٍ مِّنَ ٱلرُّسُلِ أَن تَقُولُواْ مَا جَآءَنَا مِنۢ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍۖ فَقَدْ جَآءَكُم بَشِيرٌ وَنَذِيرٌۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٩﴾ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ

ونبيكم أيضاً ﴿بَشَرٌ مِّمَّنْ﴾ أي من جنس ما ﴿خَلَقَۚ﴾ الله بقدرته وأظهره حسب إرادته، فله التصرف فيكم وفيهم ﴿يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ﴾ تفضلاً وامتناناً ﴿وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُۚ﴾ عدلاً وانتقاماً ﴿وَ﴾ اعلموا أن (لِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَاۖ﴾ يتصرف فيها كيف يشاء إرادةً واختياراً ﴿وَإِلَيْهِ﴾ لا إلى غيره ﴿ٱلْمَصِيرُ ﴿١٨﴾﴾ والرجع، إذ الكل منه بدأ وإليه يعود.

﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ لا تغتروا في أمور دينكم ولا تضعفوا فيها إذ ﴿قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا﴾ الموعودُ في كتابكم ﴿يُبَيِّنُ لَكُمْ﴾ أمورَ دينكم حال كونه ﴿عَلَىٰ فَتْرَةٍ﴾ انقطاعِ وحيٍ ﴿مِّنَ ٱلرُّسُلِ﴾ وإنما أرسلناه كراهة ﴿أَن تَقُولُواْ﴾ وتعتذروا حين وَهَنَ دينُكم وضَعُفَ يقينُكم: ﴿مَا جَآءَنَا مِنۢ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍۖ﴾ حتى يُصلِح أمور ديننا ﴿فَقَدْ جَآءَكُم بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ﴾ لئلا تعتذروا على ما تقتصرون[1] فيه، فكذبوه ولم يقبلوا ما جاء به من أسرار الدين والإيمان ﴿وَٱللَّهُ﴾ المجازي لكم ﴿عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ﴾ من أنواع الجزاء ﴿قَدِيرٌ ﴿١٩﴾﴾ يجازيكم على مقتضى قدرته.

﴿وَ﴾ اذكروا ﴿إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ﴾ وهم أسلافٌ لكم وآباؤكم حين

---

(١) في المخطوط (تقتصروا).

يَٰقَوْمِ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنۢبِيَآءَ وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا وَءَاتَىٰكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٠﴾ يَٰقَوْمِ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْأَرْضَ ٱلْمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِى كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَارِكُمْ فَتَنقَلِبُوا۟ خَٰسِرِينَ ﴿٢١﴾ ....

أراد أن يذكِّرهم نِعَمَ الله التي أنعمها عليهم ليقوموا بشكرها: ﴿يَٰقَوْمِ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ تفضلاً وامتناناً ﴿إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ﴾ منكم ﴿أَنۢبِيَآءَ﴾ يرشدونكم ويهدونكم إلى طريق التوحيد ﴿وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا﴾ متصرفين في أقطار الأرض ﴿وَءَاتَىٰكُم﴾ من الخوارق والإرهاصات من فَلق البحر وظلّ الغمام وسقي الحجر ونزول المنّ والسلوى وغير ذلك ﴿مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٠﴾﴾ حين ظهوركم واستيلائكم.

﴿يَٰقَوْمِ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْأَرْضَ ٱلْمُقَدَّسَةَ﴾ المطهرةَ عن شوائب الفتن ﴿ٱلَّتِى كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾ أي قدرها في علمه لمقرِّكم ومسكنكم، إذ هي منازل الأنبياء ومقر الأولياء والأصفياء، فعليكم أن تُقبلوا إليها تاركين ديار العمالقة والفراعنة التي هي محل الجور والفساد ومجمع البغي والفساد ﴿وَ﴾ عليكم أن ﴿لَا تَرْتَدُّوا۟﴾ بعدما سمعتم الوحي ﴿عَلَىٰٓ أَدْبَارِكُمْ﴾ خوفاً من الجبابرة.

قيل: لما سمعوا أوصاف جبابرة كنعان من نقبائهم خافوا واستوحشوا وفزعوا، وقالوا: ليتنا نُرد على أعقابنا، تعالوا ننصب رأساً ينصرف بنا إلى مصر، إذ موتُنا فيها خيرٌ من الحياة وموضعِ آخر، فارتدوا، ﴿فَتَنقَلِبُوا۟ خَٰسِرِينَ ﴿٢١﴾﴾ خسراناً عظيماً في الدنيا تائهين حائرين وفي الأخرى خاسرين خائبين.

قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُواْ مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُواْ مِنْهَا فَإِنَّا دَٰخِلُونَ ﴿٢٢﴾ قَالَ رَجُلَانِ مِنَ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمَا ٱدْخُلُواْ عَلَيْهِمُ ٱلْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَٰلِبُونَ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٣﴾ قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ ....

﴿ قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ ﴾ على صورة الاعتذار وإظهار العجز وعدم الإقدار وما هي إلا من عدم تثبتهم على الإيمان وعدم رسوخهم في مقتضياته وعدم وثوقهم بنصر الله وإعانته بعدما أمرهم بالقتل والترحال ووعدهم ما وعدهم: ﴿إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ﴾ لا يتأتى مقاومتهم ومقاتلتهم ﴿وَ﴾ بالجملة ﴿ إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُواْ مِنْهَا ﴾ بقتالٍ أو غيره ﴿ فَإِن يَخْرُجُواْ مِنْهَا﴾ على أي وجهٍ ﴿فَإِنَّا دَٰخِلُونَ ﴿٢٢﴾﴾ إذ لا طاقةَ ولا قدرة لنا معهم.

﴿ قَالَ رَجُلَانِ مِنَ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ ﴾ من قهر الله وغضبه سيما بعد ورود أمره إذ هما من أهل الوثوق بنصر الله وإنجاز وعده إذ ﴿أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمَا ﴾ بالإيمان والإذعان وبإعطاء الحكمة والمعرفة: ﴿ٱدْخُلُواْ عَلَيْهِمُ ٱلْبَابَ ﴾ أي ضيقوا على عدوكم باب بلدهم وقربوهم إلى حيث يضطرون ويختنقون من جَسامتهم وضيق مكانهم ﴿فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ﴾ على هذا الوجه ﴿فَإِنَّكُمْ غَٰلِبُونَ ۚ﴾ غانمون ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٣﴾﴾.

﴿قَالُواْ﴾ مستهزئين مصرحين بما تكن صدورهم من الكفر وعدم الوثوق والإخلاص ومناقضة العهود والمواثيق: ﴿يَٰمُوسَىٰٓ ﴾ لا تُحمِّلنا ما لا طاقة لنا

إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَآ أَبَدًا مَّا دَامُواْ فِيهَا فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَـٰتِلَآ إِنَّا هَـٰهُنَا قَـٰعِدُونَ ﴿٢٤﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي لَآ أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِيۖ فَٱفْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَـٰسِقِينَ ﴿٢٥﴾ قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْۛ أَرْبَعِينَ سَنَةًۛ يَتِيهُونَ فِي ٱلْأَرْضِۚ ....

به ﴿إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَآ أَبَدًا مَّا دَامُواْ فِيهَا﴾ وإن شئتَ ﴿فَٱذْهَبْ أَنتَ﴾ أيها الداعي ﴿وَرَبُّكَ﴾ الذي دعوتنا إليه وادَّعيت الإعانة والانتصار منه ﴿فَقَـٰتِلَآ﴾ مع العدو ﴿إِنَّا هَـٰهُنَا قَـٰعِدُونَ ﴿٢٤﴾﴾ منتظرون إلى أن يظهر الأمرُ.

﴿قَالَ﴾ موسى آيساً متحيراً باثّاً شكواه مع ربه: ﴿رَبِّ إِنِّي لَآ أَمْلِكُ﴾ ولا أثق لامتثال أمرك ﴿إِلَّا نَفْسِي وَأَخِيۖ فَٱفْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَـٰسِقِينَ ﴿٢٥﴾﴾ الخارجين عن مقتضى أمرك، التاركين الامتثال به من عدم وثوقهم بإعانتك وتأييدك.

ولما سمع سبحانه من موسى ما سمع من بثّ الشكوى، وكان حالهم وصلاحهم معلومةً عنده سبحانه.

﴿قَالَ فَإِنَّهَا﴾ أي الأرض المقدسة ﴿مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْۛ﴾ مدة ﴿أَرْبَعِينَ سَنَةًۛ﴾ خص هذا العدد؛ لأنهم لما أعادوا نفوسهم بعدم امتثال أمر الله والاستهزاء به وبرسوله إلى ما هم عليه قبل إيمانهم، والإيمان ما يكمل غالباً إلا بعد الأربعين ؛ لذلك خص هذه المدة لمجازاتهم ومجاهداتهم ؛ ليكملوا الإيمان وهم بعدما ارتدوا[1] من الشام، وتوجهوا إلى المصر ﴿يَتِيهُونَ فِي ٱلْأَرْضِۚ﴾ المقدسة بستة فراسخَ تائهين حائرين مذبذبين لا إلى مصر ولا إلى

(١) في المخطوط (بعد ارتدوا).

فَلَا تَأْسَ عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٦﴾ ۞ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱبْنَىْ ءَادَمَ بِٱلْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا ....

الشام في تلك المدة، وموسى سارٍ معهم فيها، يرشدهم إلى أن يخرجهم من الضلال الصوري والمعنوي.

ثم لما رأى موسى اضطراب قومه وحزنهم وقلقهم واضطرارهم، رحمهم، وندم عما دعا عليهم على مقتضى شفقة النبوة ومرحمته، لذلك ردَّ الله عليه بقوله: ﴿فَلَا تَأْسَ﴾ أي لا تحزن أيها النبي الشاكي ﴿عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٦﴾﴾ الخارجين عن مقتضى التصديق والإيمان.

﴿ ۞ وَٱتْلُ﴾ يا أكمل الرسل ﴿عَلَيْهِمْ﴾ أي على من اتبعك من المؤمنين ﴿نَبَأَ ٱبْنَىْ ءَادَمَ﴾ أي قصة قابيل وهابيل واختلافهما ونزاعهما وقربانهما وقتل قابيل هابيل ليعتبروا ويتنبهوا من قصتهما على ما هو الأقوم من السبيل والأليق بحال المؤمن من حسن المعاشرة والمصاحبة مع الإخوان ورعاية الغبطة والتصبر على البلية والمحنة، وإن أدَّى إلى بذل المهجة والإخلاص مع الله في جميع الأحوال، تلاوة متلبسة ﴿ بِٱلْحَقِّ ﴾ مطابقةً للواقع موافقةً لما في الكتب السالفة.

وذلك أنهما تنازعا في تزويج كل منهما توءمة الآخر على ما هو شرع أبيهم، فقال قابيل: توءمتي أحسن صورة من توءمتك، أنا أحق بتزويجها منك، فترافعا إلى أبيهما، فأمرهما بالقربان المقرب إلى الله، اذكر ﴿ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا﴾ بإذن أبيهما كل واحد منهما على مقتضى إخلاصهما مع الله، وكان قابيل صاحب زرع قرب مقداراً من أردأ قمحه، وهابيل صاحب ضرع قرب

فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ ٱلْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٢٧﴾ لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٨﴾ ....

شاةً سمينةً حسناءَ ﴿فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا﴾ وهو هابيل ﴿وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ ٱلْآخَرِ﴾ وعلامة القبول حينئذٍ أنه تنزل نارٌ من السماء وتأكل ما يتقربون[1] به، فأخذا قربانهما وذهبا إلى جبلٍ فطرحا عليه، وانتظرا القبول، فنزلت نارٌ فأكلت قربان هابيل، ولم تأكل قربان أخيه، فاشتد سخطه وغضبه على أخيه، وزاد حسده بقبول الله قربانه ﴿قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ﴾ البتة إذ ظهر مزيّتك عليّ وفضلُك عند الله مني وبذلك تفتخر وتتفوق عليّ بين الناس ﴿قَالَ﴾ هابيل: يا أخي! ما لي في هذا التقرب إلا الإخلاص والرجوع إلى الله والإطاعة والانقياد لأمره، والاجتناب والتحرز عن سخطه وغضبه بلا غرضٍ نفساني وميلٍ شهواني، فتقبلَ مني بفضله ولطفه ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ﴾ أي ما يتقبلُ المطلع لسرائر عباده أعمالهم التي يتقربون بها إلى الله إلا ﴿مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٢٧﴾﴾ المتقربين إليه بين طرفي الخوف والرجاء، المخلصين فيما جاؤوا به خالصاً لوجهه الكريم، بلا ميلٍ إلى ما تهوى نفوسهم.

ثم أقسم هابيل بعدما أوعده قابيل القتل: والله ﴿لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ﴾ من إفراط غيظك وغضبك وشؤم إمارة نفسك ﴿لِتَقْتُلَنِي﴾ ظلماً بلا رخصةٍ شرعيةٍ بل عن محض عنادٍ ومكابرةٍ ﴿مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ﴾ لدفع صولتك عن نفسي أو ﴿لِأَقْتُلَكَ﴾ على مقتضى أمارتي ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٨﴾﴾ من تخريبٍ لمجرد دفع الصائل، ولا أخاف على نفسي من

(١) في المخطوط (يتقربوا).

إِنِّيٓ أُرِيدُ أَن تَبُوٓأَ بِإِثۡمِي وَإِثۡمِكَ فَتَكُونَ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلنَّارِۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُاْ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾ فَطَوَّعَتۡ لَهُۥ نَفۡسُهُۥ قَتۡلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُۥ فَأَصۡبَحَ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ﴿٣٠﴾ فَبَعَثَ ٱللَّهُ غُرَابٗا يَبۡحَثُ فِي ٱلۡأَرۡضِ لِيُرِيَهُۥ كَيۡفَ يُوَٰرِي سَوۡءَةَ أَخِيهِۚ قَالَ يَٰوَيۡلَتَىٰٓ أَعَجَزۡتُ ....

القتل، إذ الشهداء المقتولون ظلماً أحياءٌ عند ربهم يُرزقون، فرحين بما آتاهم الله من فضله.

﴿إِنِّيٓ﴾ من غاية إشفاقي وإعطافي معك يا أخي ﴿أُرِيدُ أَن تَبُوٓأَ﴾ أي لأن تذهب وترجع إلى الله ﴿بِإِثۡمِي﴾ أي بإثمك المنسوب إلى قتلي ﴿وَإِثۡمِكَ﴾ الذي كنت فيه ﴿فَتَكُونَ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلنَّارِۚ﴾ عند الله بهذا الظلم ﴿وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُاْ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾﴾ عنده.

﴿فَطَوَّعَتۡ لَهُۥ نَفۡسُهُۥ﴾ أي هيجت حسدَه إلى أن طوعت وأرضت نفسه ﴿قَتۡلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُۥ﴾ ظلماً بلا مدافعةٍ منه كما شرط، فندم دُفعةً ﴿فَأَصۡبَحَ﴾ وصار ﴿مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ﴿٣٠﴾﴾ خسراناً عظيماً في الدنيا والآخرة، فتحير في دفعه وإخفائه، إذ لا يموت أحدٌ من بني آدم إلى ذلك الوقت[1]، فحمله على عاتقه وسار معه إلى حيث أروح وأنتن.

﴿فَبَعَثَ ٱللَّهُ﴾ إعلاماً له ﴿غُرَابٗا﴾ فقتل غراباً من جنسه أراد أن يدفعه ﴿يَبۡحَثُ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ بمنقاره ورجله ﴿لِيُرِيَهُۥ كَيۡفَ يُوَٰرِي﴾ ويسترَ ﴿سَوۡءَةَ أَخِيهِۚ﴾ أي جثته وجسده التي يسوء ﴿قَالَ﴾ قابيل متحسراً متحزناً قلقاً حائراً: ﴿يَٰوَيۡلَتَىٰٓ﴾ يا هلكتي أحضري ﴿أَعَجَزۡتُ﴾ وعُزلت عن مقتضى العقل وعن

(١) في المخطوط (تلك الوقت).

أَن أَكُونَ مِثْلَ هَٰذَا ٱلْغُرَابِ فَأُوَٰرِيَ سَوْءَةَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلنَّٰدِمِينَ ﴿٣١﴾ مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ نَفْسًۢا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحْيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعًاۚ وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ ....

الاهتداء به إلى حيث ﴿أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَٰذَا ٱلْغُرَابِ﴾ المتعزل عن العقل والإدراك، بل متابعاً له، متلمذاً منه (فَأُوَٰرِيَ سَوْءَةَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلنَّٰدِمِينَ ﴿٣١﴾﴾ ندامةً مؤبدةً بحيث لا يضحك مدة حياته أصلاً، وعاش مدة مائة سنة، واسَّود لونه إلى حيث لم يُعرف.

﴿مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ﴾ وبسبب وقوعه بين بني آدم ﴿كَتَبْنَا﴾ قضينا وألزمنا ﴿عَلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ نَفْسًۢا بِغَيْرِ نَفْسٍ﴾ أي بلا قصاصٍ شرعيٍ (أَوْ فَسَادٍ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ مرخصٍ[1] موجبٍ لقتله من شركٍ وبغيٍ وقطعِ طريقٍ وغير ذلك من الفسادات العامة السارية ضرها وشرها ﴿فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا﴾ إذ كل فردٍ من أفراد الإنسان مستجمعٌ لكمالات الجميع بسعة قلبه وعلو مرتبته واستعداده وقابليته لمظهرية الحق وخلافته، فكان قتلُه قتلَ الجميع ﴿وَمَنْ أَحْيَاهَا﴾ خلَّصها وأنجاها من المهلكة والمتلفة ﴿فَكَأَنَّمَآ أَحْيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعًاۚ﴾ على الوجه المذكور ﴿وَ﴾ بعدما قضينا عليهم ﴿لَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُنَا﴾ تأكيداً وتشديداً ﴿بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ الدالة على عظم

---

(١) في المخطوط (خص).

ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم بَعْدَ ذَٰلِكَ فِي ٱلْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ ﴿٣٢﴾ إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسْعَوْنَ فِي ٱلْأَرْضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوٓاْ أَوْ يُصَلَّبُوٓاْ أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلَٰفٍ أَوْ يُنفَوْاْ مِنَ ٱلْأَرْضِۚ ذَٰلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي ٱلدُّنْيَاۖ وَلَهُمْ فِي ٱلْأَخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٣٣﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ ....

جريمة القتل عند الله وعظم النكال المترتب عليها في الآخرة ﴿ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم بَعْدَ ذَٰلِكَ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ التشديد والتأكيد ﴿لَمُسْرِفُونَ ﴿٣٢﴾﴾ على أنفسهم بالقتل بلا رخصةٍ شرعيةٍ من غير مبالاةٍ بالآيات والبينات.

﴿إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ﴾ ويقابلون له بعدم الامتثال لأمره والانقياد لشرعه ﴿وَرَسُولَهُۥ﴾ بتكذيبه وتكذيب ما جاء به من عند ربه والقتال معه ومع من تابعه ﴿وَ﴾ مع ذلك ﴿يَسْعَوْنَ فِي ٱلْأَرْضِ فَسَادًا﴾ مفسدين بأنواع الفسادات الساري ضررها في أقطار الأرض ﴿أَن يُقَتَّلُوٓاْ﴾ حيث وُجِدوا دفعة ﴿أَوْ يُصَلَّبُوٓاْ﴾ أحياءً ليعتبر منهم من في قلبه مرضٌ مثل مرضهم، ثم يُقتل على أفظع وجه وأقبحه ﴿أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلَٰفٍ﴾ متبادلتين ليعيشوا بين الناس على هذا الوجه ولينزجر منهم نفوس أهل الأهوية الفاسدة ﴿أَوْ يُنفَوْاْ مِنَ ٱلْأَرْضِۚ﴾ إلى حيث يؤمن من شرورهم ﴿ذَٰلِكَ﴾ المذكور ﴿لَهُمْ خِزْيٌ﴾ تذليلٌ وتفضيحٌ ﴿فِي ٱلدُّنْيَاۖ وَلَهُمْ فِي ٱلْأَخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٣٣﴾﴾ طردٌ وتبعيدٌ عن مرتبة أهل التوحيد.

﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ﴾ ورجعوا إلى الله عما كانوا عليه مخلصين نادمين

مِن قَبْلِ أَن تَقْدِرُوا۟ عَلَيْهِمْ ۖ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٤﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱبْتَغُوٓا۟ إِلَيْهِ ٱلْوَسِيلَةَ وَجَـٰهِدُوا۟ فِى سَبِيلِهِۦ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٣٥﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لِيَفْتَدُوا۟ بِهِۦ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ ....

خائفين من بطشه راجين من عفوه وجوده ﴿مِن قَبْلِ أَن تَقْدِرُوا۟ عَلَيْهِمْ﴾ أي غرماؤهم وتأخذوهم مطالبين القصاص عنهم يسقط عنهم حق الله بالتوبة إن أخلصوا فيها ﴿فَٱعْلَمُوٓا۟﴾ أيها المؤمنون ﴿أَنَّ ٱللَّهَ﴾ الموفق لهم على التوبة ﴿غَفُورٌ﴾ لهم يغفر ذنوبهم ﴿رَّحِيمٌ ﴿٣٤﴾﴾ يقبل توبتهم.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ مقتضى إيمانكم التقوى عن محارم الله ﴿ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ عن ارتكاب ما حرَّم عليكم ونهاكم عنه ﴿وَٱبْتَغُوٓا۟﴾ واطلبوا ﴿إِلَيْهِ ٱلْوَسِيلَةَ﴾ المقربةَ إلى ذاته لتتوسلوا به إلى توحيده ﴿وَجَـٰهِدُوا۟ فِى سَبِيلِهِۦ﴾ لقطع العلائق ورفع الموانع مع القوى البشرية الشاغلة عن التوجه نحوه ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٣٥﴾﴾ تفوزون بفضاء توحيده وصفاء تجريده وتفريده.

ثم قال سبحانه على مقتضى سنته من تعقّب الوعد بالوعيد:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ بتوحيد الله وأصرُّوا على ما هم عليه من الكفر والشقاق ﴿لَوْ﴾ تحقق وثبت ﴿أَنَّ لَهُم﴾ مُلك ﴿مَّا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ من الزخارف والكنوز ﴿جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ﴾ بل أضعاف أمثاله ﴿لِيَفْتَدُوا۟ بِهِۦ﴾ فديةً ويخلصوا ﴿مِنْ عَذَابِ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ ونكالها المترتبة على كفرهم

مَا تُقُبِّلَ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٣٦﴾ يُرِيدُونَ أَن يَخْرُجُواْ مِنَ ٱلنَّارِ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنْهَا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٣٧﴾ وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓاْ أَيْدِيَهُمَا جَزَآءَۢ بِمَا كَسَبَا نَكَٰلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٣٨﴾ فَمَن تَابَ مِنۢ بَعْدِ ظُلْمِهِۦ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٩﴾

﴿مَا تُقُبِّلَ مِنْهُمْ﴾ لعِظَم جرمهم وإصرارهم عليه بل ﴿وَلَهُمْ﴾ فيها ﴿عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٣٦﴾﴾ مؤبدٌ لا يرجى نجاتهم أصلاً.

﴿يُرِيدُونَ﴾ متمنياً ﴿أَن يَخْرُجُواْ مِنَ ٱلنَّارِ وَ﴾ الحال أنه ﴿مَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنْهَا﴾ لاستحالة الخروج من ذلك لزومَ النكال ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٣٧﴾﴾ دائمٌ متجددٌ متلونٌ لئلا يعتادوا بنوع منه.

﴿وَٱلسَّارِقُ﴾ المتجاوزُ عن حدود الله ﴿وَٱلسَّارِقَةُ﴾ المتجاوزةُ عنها ﴿فَٱقْطَعُوٓاْ﴾ أيها الحكام ﴿أَيْدِيَهُمَا﴾ أي يمينَهما إن أخرجا المسروق من الحرز المتعارف ﴿جَزَآءَۢ بِمَا كَسَبَا﴾ معهما ﴿نَكَٰلًا﴾ عقوبةً وتعذيباً ﴿مِّنَ ٱللَّهِ﴾ لتصرفهم في ملك الغير ﴿وَٱللَّهُ﴾ المتصرفُ المستقلُ في ملكه ﴿عَزِيزٌ﴾ غالبٌ قادرٌ على الانتقام ﴿حَكِيمٌ ﴿٣٨﴾﴾ متقنٌ في مقداره وتعيينه.

﴿فَمَن تَابَ﴾ ورجع إلى الله[1] مخلصاً خائفاً ﴿مِنۢ بَعْدِ ظُلْمِهِۦ﴾ وخروجه عن حدود الله ﴿وَأَصْلَحَ﴾ بالتوبة ما أفسد على نفسه من مجاوزة حكم الله ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ﴾ المصلحَ لأحوال عباده ﴿يَتُوبُ عَلَيْهِ﴾ ويقبل توبته بعدما وفقه ﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾ المُيسرَ لأمور عباده ﴿غَفُورٌ﴾ لذنوبهم ﴿رَّحِيمٌ ﴿٣٩﴾﴾ لهم بعدما رجعوا إليه، راجين عفوه.

---

(١) في المخطوط (ورجع الله).

أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤٠﴾ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ لَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ مِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِأَفْوَٰهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ ۛ وَمِنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ ۛ سَمَّٰعُونَ لِلْكَذِبِ ....

﴿أَلَمْ تَعْلَمْ﴾ أيها الداعي للخلق إلى الحق ﴿أَنَّ ٱللَّهَ﴾ المتوحدَ المستقلَ بالألوهية والتصرف ﴿لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ من الكائنات والفاسدات ﴿وَٱلْأَرْضِ﴾ وما يتكون عليها وكذا ما بينهما من بدائع الكوائن ﴿يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ﴾ من أهل التكاليف على ما صدر عنهم من الجرائم عدلاً منه ﴿وَيَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ﴾ فضلاً منه ﴿وَٱللَّهُ﴾ المتصرف بالاستقلال في ملكه ﴿عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ﴾ من الإنعام والانتقام ﴿قَدِيرٌ ﴿٤٠﴾﴾ له الإرادة والاختيار، يفعل ما يشاء، ويحكم ما يريد.

﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ﴾ المبعوثُ بالحق على كافة الخلق بشيراً ونذيراً ﴿لَا يَحْزُنكَ﴾ صنيع الفرق ﴿ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ﴾ أي يسرعون إليه عند الفرصة لكون جبلتهم عليه وميلهم بالطبع نحوه ﴿مِنَ﴾ المداهنين المنافقين (ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟﴾ حفظاً لدمائهم وأموالهم ﴿ءَامَنَّا﴾ قولاً مجرداً ﴿بِأَفْوَٰهِهِمْ وَ﴾ الحال أنه ﴿لَمْ تُؤْمِن﴾ ولم تذعن ﴿قُلُوبُهُمْ﴾ بل ختم عليها بالكفر ﴿وَ﴾ علامة كفرهم أنهم من غاية نفاقهم معك ومع من تبعك ﴿مِنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ سَمَّٰعُونَ لِلْكَذِبِ﴾ أي للكذب المفترى بالتورية بأنك لست النبي الموعود فيها، ومصدقون لها من الذين هادوا، قدم الاختصاص، إذ لا مصاحبة للمنافقين مع المؤمنين، خصوصاً في خلواتهم،

سَمَّٰعُونَ لِقَوۡمٍ ءَاخَرِينَ لَمۡ يَأۡتُوكَۖ يُحَرِّفُونَ ٱلۡكَلِمَ مِنۢ بَعۡدِ مَوَاضِعِهِۦۖ يَقُولُونَ إِنۡ أُوتِيتُمۡ هَٰذَا فَخُذُوهُ وَإِن لَّمۡ تُؤۡتَوۡهُ فَٱحۡذَرُواْۚ وَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ فِتۡنَتَهُۥ فَلَن تَمۡلِكَ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ شَيۡـًٔاۚ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَمۡ يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمۡۚ

بل مع أحبار اليهود وهم من أعدى عدوك وأشدهم غيظاً وبغضاً ومع ذلك ﴿سَمَّٰعُونَ﴾ أيضاً ﴿لِقَوۡمٍ ءَاخَرِينَ﴾ ممن آمن بك من أقاربهم وعشائرهم ليضلوهم عن طريق الحق، ومن لم يؤمن لك يميلون بقلوبهم إلى الإيمان ليقعدوهم وليصرفوهم عما نووا في نفوسهم، وكيف لا يكون أحبار اليهود من أعدى عدوك يا أكمل الرسل وهم من غاية بغضهم معك ﴿لَمۡ يَأۡتُوكَۖ﴾ ومع عدم إتيانهم ﴿يُحَرِّفُونَ﴾ ويغيرون ﴿ٱلۡكَلِمَ﴾ المُنزلةَ في التوراة بيان بعثتك ووصفك وحليتك ومنشأتك وحسبك ونسبك وعلو شأنك ووضوح برهانك وتكملتك أمرَ النبوة والرسالة ونسخك جميع الأديان ﴿مِنۢ بَعۡدِ﴾ كونه مثبتاً عن ﴿مَوَاضِعِهِۦۖ﴾ بوضعٍ إلهي، وهم أيضاً من غاية بغضهم معك ﴿يَقُولُونَ﴾ لإخوانهم حين ما حكموك في أمرٍ لشهرة أمانتك ووثوقهم برأيك وعزيمتك في قطع الخصومات: ﴿إِنۡ أُوتِيتُمۡ﴾ وحكمتم طبق ﴿هَٰذَا﴾ أي المحرَّف ﴿فَخُذُوهُ﴾ واقبلوه وامضوا عليه وارضوا به ﴿وَإِن لَّمۡ تُؤۡتَوۡهُ﴾ موافقاً له ﴿فَٱحۡذَرُواْۚ﴾ منه وأعرضوا عنه، ثم قال سبحانه تسلية لرسول الله ﷺ: ﴿وَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ فِتۡنَتَهُۥ﴾ كفره وظلمته وقساوته ﴿فَلَن تَمۡلِكَ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ شَيۡـًٔاۚ أُوْلَٰٓئِكَ﴾ البعداء عن نهج الرشاد من الكافرين ﴿ٱلَّذِينَ لَمۡ يُرِدِ ٱللَّهُ﴾ ولم يتعلق مشيئته ﴿أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمۡۚ﴾ من خباثة الكفر والشرك

لَهُمْ فِي ٱلدُّنْيَا خِزْيٌ ۖ وَلَهُمْ فِي ٱلْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٤١﴾ سَمَّٰعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّٰلُونَ لِلسُّحْتِ ۚ فَإِن جَآءُوكَ فَٱحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ ۖ وَإِن تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَن يَضُرُّوكَ شَيْـًٔا ۖ وَإِنْ حَكَمْتَ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٤٢﴾ ....

﴿لَهُمْ فِي ٱلدُّنْيَا خِزْيٌ﴾ هوانٌ وصغارٌ وجزيةٌ وذلةٌ ومسكنةٌ ﴿وَلَهُمْ فِي ٱلْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٤١﴾﴾ هو الخلود في نار الحرمان عن مرتبة الإنسان.

وما هو إلا أنهم ﴿سَمَّٰعُونَ لِلْكَذِبِ﴾ المذكور معتقدون صدقها ومطابقتها للواقع ومسمعونهم أيضاً. وهم أي الأحبار ﴿أَكَّٰلُونَ لِلسُّحْتِ﴾ أي الحرام الذين يرتشون منهم بسبب تحريفهم نعتك يا أكمل الرسل من كتابهم لتبقى رئاستهم وجاههم فأعرض عنهم وعن إيمانهم (فَإِن جَآءُوكَ﴾ ليحكِّموك إن شئت ﴿فَٱحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ﴾ وعن حكمهم فلك الخيار ﴿وَ﴾ لا تبال بهم وبعداوتهم ﴿إِن تُعْرِضْ عَنْهُمْ﴾ فإنهم وإن عادوك أشد عداوة وبغضاً ﴿فَلَن يَضُرُّوكَ شَيْـًٔا﴾ من المكروه فإن الله يعصمك ويكفيك من شرورهم ﴿وَإِنْ حَكَمْتَ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ﴾ والعدل الذي هو أمر الحق، ونطقَ به الفرقان ﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾ المستوي باسم الرحمن على عروش الذرائر معتدلاً بلا تفاوت ﴿يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٤٢﴾﴾ المعتدلين من عباده، المائلين عن كِلا طرفي الإفراط والتفريط، المنتهين إلى قعر الجحيم، وليس غرضهم من تحكيمك الإ طاعةً بك وبحكمك والوثوق لأمانتك ووقوفك، بل ليس غرضهم إلا التسهيل والتيسير والإعراض عن

وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِندَهُمُ ٱلتَّوْرَىٰةُ فِيهَا حُكْمُ ٱللَّهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ ۚ وَمَآ أُو۟لَـٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٣﴾ إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ ۚ يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُوا۟ لِلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلرَّبَّـٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ بِمَا ٱسْتُحْفِظُوا۟ مِن كِتَـٰبِ ٱللَّهِ وَكَانُوا۟ عَلَيْهِ شُهَدَآءَ ۚ ....

بعض الأحكام مداهنةً.

﴿وَ﴾ إلا ﴿كَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ﴾ مع عدم إيمانهم بك وبكتابك ﴿وَ﴾ الحال أنه ﴿عِندَهُمُ ٱلتَّوْرَىٰةُ فِيهَا حُكْمُ ٱللَّهِ﴾ على التفصيل وهم يدّعون العلم بها ﴿ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ﴾ وينصرفون ﴿مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ﴾ أي بعدما حكمت فيما حكّموك فيه مع أنه مطابق لكتابهم ﴿وَمَآ أُو۟لَـٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٣﴾﴾ أي وما إعراض أولئك المؤمنين بكتابهم الموقنين فيه حتى يحكموك مع كونهم عالمين بحكمك فيه.

﴿إِنَّآ﴾ من مقام جودنا ﴿أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ﴾ إلى موسى وأدرجنا ﴿فِيهَا هُدًى﴾ يهدي إلى الحق من ضلّ عن طريقه ﴿وَنُورٌ﴾ يكشف طريق التوحيد لمن استكشف منه ﴿يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ﴾ من أنبياء بني إسرائيل ﴿ٱلَّذِينَ أَسْلَمُوا۟﴾ معه وفوّضُوا أمورهم كلها إليه بعدما تحققوا بتوحيده ﴿لِلَّذِينَ هَادُوا۟ وَ﴾ وكذا يحكم بها ﴿ٱلرَّبَّـٰنِيُّونَ﴾ المنسوبون إلى الرب بمتابعة الأنبياء وهم الأولياء فهم ﴿وَ﴾ كذا ﴿ٱلْأَحْبَارُ﴾ المتفقهة فهم يحكمون ﴿بِمَا ٱسْتُحْفِظُوا۟ مِن كِتَـٰبِ ٱللَّهِ وَكَانُوا۟ عَلَيْهِ﴾ أي على ما استُحفظوا ﴿شُهَدَآءَ﴾

فَلَا تَخْشَوُا۟ ٱلنَّاسَ وَٱخْشَوْنِ وَلَا تَشْتَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِى ثَمَنًا قَلِيلًا ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٤٤﴾ وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَآ أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ وَٱلْعَيْنَ بِٱلْعَيْنِ وَٱلْأَنفَ بِٱلْأَنفِ وَٱلْأُذُنَ بِٱلْأُذُنِ وَٱلسِّنَّ بِٱلسِّنِّ وَٱلْجُرُوحَ قِصَاصٌ ۚ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِۦ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُۥ ۚ

مستحضرين يراقبون ويداومون على حفظه ﴿فَلَا تَخْشَوُا۟ ٱلنَّاسَ﴾ أي لا تميلوا أيها الحكام عن طريق الحق من أجل الناس المتعظمين بجاههم ورياستهم، ولا تداهنوا في الأحكام رعايةً لجانبهم ﴿وَٱخْشَوْنِ﴾ من بطشي وغضبي عليكم حين مخالفتكم حكمي وأمري مداهنةً ﴿وَ﴾ عليكم أن ﴿لَا تَشْتَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِى﴾ وأحكامي ﴿ثَمَنًا قَلِيلًا ۚ﴾ من الرشى ﴿وَ﴾ اعلموا أن ﴿مَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ أي بمقتضاه وموافقاً له: ﴿فَأُو۟لَٰٓئِكَ﴾ البعداء المداهنون المرتشون ﴿هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٤٤﴾﴾ الساترون مقتضى الحكمة بأهويتهم الباطلة، الخارجون عن رتبة العبودية بمخالفة حكم الله وأمره.

﴿وَ﴾ من جملة الأحكام التي ﴿كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَآ﴾ القصاص، فاعلموا أيها الحكام ﴿أَنَّ ٱلنَّفْسَ﴾ القاتلة تُقتص ﴿بِٱلنَّفْسِ﴾ المقتولة ﴿وَٱلْعَيْنَ﴾ تُفقأ (بِٱلْعَيْنِ﴾ المفقوءة ﴿وَٱلْأَنفَ﴾ يُقطع ﴿بِٱلْأَنفِ﴾ المقطوعة ﴿وَٱلْأُذُنَ﴾ تُصلم ﴿بِٱلْأُذُنِ﴾ المصلومة (وَٱلسِّنَّ﴾ تُقلع ﴿بِٱلسِّنِّ﴾ المقلوعة ﴿وَ﴾ كذا ﴿ٱلْجُرُوحَ﴾ يجري فيها ﴿قِصَاصٌ ۚ﴾ مثلاً بمثلٍ على قياس ما ذكر ﴿فَمَن تَصَدَّقَ﴾ من المستحقين ﴿بِهِۦ﴾ أي بالقصاص وعفا عنه طوعاً (فَهُوَ﴾ أي تصدّقُه ﴿كَفَّارَةٌ لَّهُۥ ۚ﴾ أي لذنوبه

وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٤٥﴾ وَقَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٦﴾ وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ ٱلْإِنجِيلِ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فِيهِ ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٤٧﴾ ....

﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ من الأحكام ميلاً وارتشاءً ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ﴾ الحاكمون ﴿هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٤٥﴾﴾ المتجاوزون عن مقتضى الإيمان والإطاعة والانقياد.

﴿وَ﴾ بعدما انقرض هؤلاء النبيون الحاكمون ﴿قَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم﴾ أي أتبعناهم ﴿بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ﴾ خلفاً لهم ﴿مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ﴾ امتناناً له ﴿ٱلْإِنجِيلَ فِيهِ﴾ أيضاً ﴿هُدًى وَنُورٌ﴾ للمستهدين المستكشفين منه ﴿وَ﴾ مع كونه مشتملاً على الهداية والإنارة ﴿مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَهُدًى﴾ هادياً لأهل العناية ﴿وَمَوْعِظَةً﴾ وتذكيراً ﴿لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٦﴾﴾ المتوجهين إلى الحق بين الخوف والرجاء.

﴿وَلْيَحْكُمْ﴾ أيضاً ﴿أَهْلُ ٱلْإِنجِيلِ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فِيهِ ۚ﴾ من الأحكام ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم﴾ منهم أيضاً ﴿بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ لغرضٍ من الأغراض الفاسدة ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ﴾ البعداء المنصرفون عن منهج الرشاد ﴿هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٤٧﴾﴾ الخارجون عن رِبْقَةِ الإيمان المنهمكون في بحر الضلال والطغيان.

ومآل هذه الصفات الثلاثة لهؤلاء الحاكمين المجاوزين عما حكم الله

وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ۖ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلْحَقِّ ۚ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ

في كُتُبِهِ واحد، إذ الكفر هو ستر حكم الله، والظلم: هو المتجاوز عنه إلى غيره من الآراء الفاسدة، والفسق: الخروج عن حكمه عناداً ومكابرة، ومآل الكل إلى الشرك بالله، والإلحاد عن توحيده.

﴿وَ﴾ بعدما انقرض عيسى صلوات الرحمن عليه ﴿أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ﴾ يا أكمل الرسل وخاتم النبيين ﴿ٱلْكِتَٰبَ﴾ الجامع لجميع الكتب السالفة متلبساً ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ والصدق ﴿مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ﴾ جنس ﴿ٱلْكِتَٰبِ﴾ المنزل على الرسل الماضين ﴿وَ﴾ مع كونه مصدِّقاً ﴿مُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾ مستحضراً لما فيه يحفظه عن التحريف والتغيير إذ الكتب الإلهية كل لاحقٍ منها يحفظ حكمَ سابقٍ، ويصونه عن التطرق والتحريف، وإن كان مشتملاً على نسخٍ وتغييرٍ إلهي بحسب الزمانين ومقتضى المرتبتين ﴿فَٱحْكُم﴾ أيضاً ﴿بَيْنَهُم﴾ مطابقاً ﴿بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ إليك في كتابه ﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ﴾ الباطلة ميلاً ومداهنةً ولا تنحرف ﴿عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلْحَقِّ﴾ الصريح لائقٍ للحكمة الإلهية المقتضية للأحكام، واعلموا أيها الأمم المتوجهون نحو التوحيد المسقط لجميع الإضافات ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً﴾ مورداً ومذهباً تَرِدون منها إلى بحر الوحدة ﴿وَمِنْهَاجًا﴾ طريقاً واضحاً بيّنها الحق لأنبيائه ورسله بإنزال الكتب عليهم ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ﴾ الهادي لعباده إلى توحيده ﴿لَجَعَلَكُمْ﴾

أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَآ ءَاتَىٰكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٤٨﴾ وَأَنِ احْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنۢ بَعْضِ مَآ أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ فَإِن تَوَلَّوْا فَاعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُصِيبَهُم ....

وصيركم ﴿أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ متحدةً في المنهج والمقصد بحسب الظاهر أيضاً ﴿وَلَكِن﴾ كثَّركم وعدّد طرقكم ﴿لِّيَبْلُوَكُمْ﴾ ويُجرِّبكم ﴿فِي﴾ رعاية مقتضيات ﴿مَآ ءَاتَىٰكُمْ﴾ من مواهبه وعطاياه الفائضة من تجلياته الحبية ﴿فَاسْتَبِقُوا﴾ أيها المتعرضون لنفحات الحق ﴿الْخَيْرَاتِ﴾ الفائضةَ عن محض جوده فابتدروها، وتعرّضوا لمهابتها، واعلموا أيها التائهون في سراب الإمكان ﴿إِلَى اللَّهِ﴾ المتوحد في الجود والوجود ﴿مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا﴾ أيها الأظلال الباطلة والتماثيل العاطلة المنعدمة في أنفسها ﴿فَيُنَبِّئُكُم﴾ بعد رفع تعيناتكم ﴿بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٤٨﴾﴾ من الإضافات المترتبة على الهويات الباطلة.

ربنا آتنا من لدنك رحمة، وهيء لنا من أمرنا رشداً.

﴿وَ﴾ أيضاً أمرناك فيما أنزلنا إليك بالحق ﴿أَنِ احْكُم بَيْنَهُم﴾ مطابقاً موافقاً ﴿بِمَآ أَنزَلَ اللَّهُ﴾ إليك في كتابه بلا ميلٍ[1] وانحرافٍ عنه ﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ﴾ المضلة ﴿وَاحْذَرْهُمْ﴾ عن ﴿أَن يَفْتِنُوكَ﴾ ويُلبِّسوا عليك ﴿عَنۢ بَعْضِ مَآ أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ﴾ بمواساتك وإظهار محبتك ومودتك قاصدين انحرافك وميلك إلى ما تهوى نفوسهم ﴿فَإِن تَوَلَّوْا﴾ أعرضوا عنك وعن حكمك ﴿فَاعْلَمْ﴾ أيها الداعي للخلق إلى الحق ﴿أَنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ﴾ وتتعلق[2] مشيئته به ﴿أَن يُصِيبَهُم﴾ ويأخذهم

(١) في المخطوط (مثل).

(٢) في المخطوط (يتعلق).

بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ لَفَٰسِقُونَ ﴿٤٩﴾ أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ۚ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٥٠﴾ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ ۘ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥١﴾ ....

﴿بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ ۗ﴾ وهو التولي والإعراض عنك وعن حكمك ؛ لأنهم قد خرجوا بالإعراض عنك عن حكمك عن جميع حدود الله وأحكامه ﴿وَ﴾ لا تتعجب خروجهم ﴿إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾ الناسين للعهود الأصلية ﴿لَفَٰسِقُونَ ﴿٤٩﴾﴾ خارجون عن مقتضى الأحكام الإلهية وحكمه بمتابعة الأهواء الباطلة.

﴿أَ﴾ يعرضون وينصرفون عن حكمك ﴿فَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ﴾ الناشئة من الآراء الفاسدة الزائفة الحاصلة عن تمويهات عقولهم القاصرة كأحكام متفقهة هذا العصر ﴿يَبْغُونَ ۚ﴾ يطلبون منك ويعتقدون أن الحسن والحق ما هم عليه من تلقاء أنفسهم ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ﴾ المتفرد بذاته ﴿حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٥٠﴾﴾ بتوحيده وتفريده.

﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ مقتضى إيمانكم أن ﴿لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ﴾ توالونهم وتصاحبونهم مثل موالاة المؤمنين ولا تعتمدوا ولا تثقوا بودادتهم ومودتهم إذ هم ﴿بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ﴾ متظاهرون متعاونون ينتهزون الفرصة لمقتكم ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُم﴾ ويعتمد عليهم ﴿مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ ۗ﴾ من جملتهم وعدادهم عند الله ﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾ المطلعَ لضمائر عباده ﴿لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥١﴾﴾ المجاوزينَ عن مقتضى أوامر الله، المرتكبينَ لمناهيه، فكيف

فَتَرَى ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَٰرِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَىٰٓ أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٌۚ فَعَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِيَ بِٱلْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِۦ فَيُصْبِحُواْ عَلَىٰ مَآ أَسَرُّواْ فِيٓ أَنفُسِهِمْ نَٰدِمِينَ ﴿٥٢﴾ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقْسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْۙ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْۚ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فَأَصْبَحُواْ خَٰسِرِينَ ﴿٥٣﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ ....

لا يكون المتولون معهم من زمرتهم.

﴿فَتَرَى﴾ أيها الرائي ﴿ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ كفرٌ ونفاقٌ ﴿يُسَٰرِعُونَ﴾ ويبادرون ﴿فِيهِمْ﴾ في مودتهم ومؤاخاتهم ﴿يَقُولُونَ﴾ معتذرين لكم نفاقاً: ﴿نَخْشَىٰٓ أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٌ﴾ من دوائر الزمان، كان الأمر فيها لهم والدولة تتوجه نحوهم فنداريهم ونوالهيم خوفاً منها ﴿فَعَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِيَ بِٱلْفَتْحِ﴾ والظفر لرسوله ليظهر دينه على الأديان كلها ﴿أَوْ أَمْرٍ﴾ عظيم نازلٍ ﴿مِّنْ عِندِهِۦ﴾ يكفي مؤنة كفرهم ونفاقهم ﴿فَيُصْبِحُواْ عَلَىٰ مَآ أَسَرُّواْ فِيٓ أَنفُسِهِمْ﴾ من بغض رسول الله والإنكار لرسالته وتكذيب كتابه ﴿نَٰدِمِينَ ﴿٥٢﴾﴾ خائبين خاسرين.

﴿وَ﴾ حينئذٍ ﴿يَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ ـ وأخلصوا في إيمانهم ـ بعضهم لبعض مستهزئين لهؤلاء المنافقين: ﴿أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقْسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ﴾ أي أغلظها وأوكدها ﴿إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ﴾ مؤمنين بنبيكم مظاهرةً لكم في إعلاء كلمة الحق وانتشارها ﴿حَبِطَتْ﴾ واضمحلت ﴿أَعْمَٰلُهُمْ﴾ إلى حيث لا تفيدهم أصلاً ﴿فَأَصْبَحُواْ خَٰسِرِينَ ﴿٥٣﴾﴾ خسراناً عظيماً في الدنيا والآخرة.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ لا تحزنوا بصنيع ﴿مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ﴾ بعد

فَسَوْفَ يَأْتِي ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍۚ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٤﴾ إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ

إيمانه وقبوله الإسلام ولا تبالوا بشأنه ﴿فَسَوْفَ يَأْتِي ٱللَّهُ﴾ من فضله ولطفه ﴿بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ﴾ الله ويوفقهم على الإيمان، ويوصلهم إلى مرتبة اليقين والعرفان ﴿وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾ إلى حيث بذلوا مهجهم في سبيله طوعاً ورضاً، إعلاءً لكلمة توحيده ونصر دين نبيه ﴿أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ تواضعاً وإخاءً ﴿أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ غلبةً واستيلاءً ﴿يُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ وطريق توحيده، باذلين نفوسهم فيه، طالبين رضاه ﴿وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ﴾ ملامة ﴿لَآئِمٍۚ﴾ مليم كهؤلاء المنافقين الذين يخافون من الملامة، حفظاً لجاههم ورئاستهم، وحمية لما أسروا في نفوسهم من الأهوية الباطلة ﴿ذَٰلِكَ﴾ الأوصاف الحميدة ﴿فَضْلُ ٱللَّهِ﴾ الهادي لعباده إلى فضاء توحيده ﴿يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُۚ﴾ من أهل العناية ﴿وَٱللَّهُ﴾ المتفضل المحسن لأرباب الولاء ﴿وَٰسِعٌ﴾ في فضله وطوله ﴿عَلِيمٌ ﴿٥٤﴾﴾ على مَنْ يستحق الإفضال والإنعام.

ثم لما نهى سبحانه المؤمنين عن موالاة الكفار ووداداتهم، وبالغ فيه أراد أن ينبه على من يستحق الولاية والودادة وحقيقته فقال:

﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ﴾ المتولي لأموركم بالولاية العامة ﴿وَرَسُولُهُۥ﴾ النائب عنه المستخلف له ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ بالله بالولاية الخاصة بمتابعته ﷺ وهم ﴿ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ﴾ يديمون ﴿ٱلصَّلَوٰةَ﴾ المقرِّبةَ إلى الحق ﴿وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ المصفية

وَهُمْ رَٰكِعُونَ ﴿٥٥﴾ وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَإِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٥٦﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ ....

لبواطنهم عن التوجه نحو الغير ﴿وَ﴾ الحال ﴿هُمْ رَٰكِعُونَ ﴿٥٥﴾﴾ خاضعون في صلاتهم.

نزلت في علي كرم الله وجهه حين سأله سائلٌ وهو راكع في صلاته، فرمى له خاتمه.

﴿وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ﴾ ويفوض أمره إليه ويتخذه وكيلاً ﴿وَرَسُولَهُۥ﴾ الذي ظهر على صورته، ونزل في شأنه ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾ [٤-النساء٨٠] ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ طلباً لرضاه فهم من حزب الله وجنوده يحفظهم في حفظه وحمايته ويغلبهم على من يصول إليهم ﴿فَإِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ﴾ القادرِ المقتدرِ على كل ما أراد وشاء ﴿هُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٥٦﴾﴾ الواصلون إلى جميع مقاصدهم، بفضل الله وسعة جوده.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ عليكم أن ﴿لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟﴾ من غاية بغضهم ونفاقهم ﴿دِينَكُمْ﴾ الذي هو أقوم الأديان وأقسطها ﴿هُزُوًا وَلَعِبًا﴾ يستهزئون ويسخرون به[1] استخفافاً واستهانةً لأهله ﴿مِّنَ ٱلَّذِينَ﴾ يدّعون الدين والإيمان والإطاعة والانقياد افتراءً ومراءً لأنهم ﴿أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ متلبساً بالحق، لم يمتثلوا به، ولم يعملوا بمقتضاه، ولم يصدّقوا الرسل الذين أنزل إليهم الكتاب، بل يكذبونهم ويقتلونهم ظلماً وعناداً من كفرهم

(١) في المخطوط (ويستخرجون به).

وَٱلْكُفَّارَ أَوْلِيَآءَ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾ وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ ٱتَّخَذُوهَا هُزُوًا وَلَعِبًا ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ ﴿٥٨﴾ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ هَلْ تَنقِمُونَ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلُ وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٥٩﴾ ....

الأصلي وشركهم الجبلي ﴿وَ﴾ خصوصاً ﴿ٱلْكُفَّارَ﴾ الذين أشركوا بالله المتوحدِ بذاته، المنزهَ عما ينسبونه إليه، ﴿أَوْلِيَآءَ﴾ يوالونهم ويحبونهم كموالاة بعضكم بعضاً، إذ هم أعداء لله ولرسوله وللمؤمنين ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ عن موالاة أعدائه ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾﴾ موقنين به ومصدقين لرسوله.

﴿وَ﴾ من غاية بغضهم وغيظهم منهم ﴿إِذَا نَادَيْتُمْ﴾ وأذّنتم ﴿إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ﴾ المُقرِّبةِ نحو الحق ﴿ٱتَّخَذُوهَا هُزُوًا وَلَعِبًا﴾ تلك[1] الملاعبة والاستهزاء والمجادلة والمراء مع الأمناء العرفاء بالله ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ﴾ جهلاءُ بمقتضى الربوبية، غفلاءُ عن مرتبة الألوهية وبالجملة هم سفهاء في أنفسهم ﴿لَّا يَعْقِلُونَ ﴿٥٨﴾﴾ ولا يصرفون العقل الجزئي المفاض لهم من الحق بمعرفة المبدأ والمعاد إلى ما خُلق لأجله، ومع ذلك ينكرون العقلاء الشاكرين الصارفين عقولهم وجميع جوارحهم وأعضائهم إلى ما جُبل لأجله من الأعمال المقربة نحو التوحيد الإلهي.

﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ هَلْ تَنقِمُونَ مِنَّآ﴾ وتنكرون علينا وتستهزئون بنا ﴿إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ﴾ المتوحدِ المتفردِ بذاته، المتجلي على الآفاق بالاستحقاق ﴿وَ﴾ آمنا إيضاً ﴿مَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا﴾ لتبيين توحيده ﴿وَ﴾ كذا آمنا ﴿مَآ أُنزِلَ مِن قَبْلُ﴾ من الكتب على الرسل الماضين لإهداء طريق الحق ﴿وَ﴾ تعلمون أنتم أيضاً يقيناً ﴿أَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٥٩﴾﴾ خارجون عن الإيمان وجادة التوحيد،

(١) في المخطوط (ذلك).

﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ ٱللَّهِ ۚ مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ ٱلْقِرَدَةَ وَٱلْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ ٱلطَّٰغُوتَ ۚ أُولَٰٓئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ ﴿٦٠﴾ وَإِذَا جَآءُوكُمْ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَقَد دَّخَلُوا۟ بِٱلْكُفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُوا۟ بِهِۦ ۚ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا كَانُوا۟ يَكْتُمُونَ ﴿٦١﴾﴾ ....

ولا تظهرونه عناداً ومكابرة. ويستهزئون مع أهل الحق تجاهلاً حفظاً لكم ورئاستكم.

﴿قُلْ﴾ لهم يا أكمل الرسل تبكيتاً وإلزاماً: ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُم﴾ وأخبركم ﴿بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ﴾ الدين الذي أنتم تنقمون منه مكابرة ﴿مَثُوبَةً﴾ عائدةً وجزاءً مرتباً عليه ثابتاً ﴿عِندَ ٱللَّهِ ۚ﴾ قبحه وديدنة ﴿مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ﴾ طرده عن قبوله ﴿وَغَضِبَ عَلَيْهِ﴾ بأن أخرجه من رتبة خلافته ونيابته ﴿وَجَعَلَ مِنْهُمُ ٱلْقِرَدَةَ وَٱلْخَنَازِيرَ﴾ المنعزلة عن إدراك الحق ﴿وَعَبَدَ ٱلطَّٰغُوتَ ۚ﴾ أي الأهوية الباطلة المضِلّة عن الهداية إلى طريق الحق ﴿أُولَٰٓئِكَ﴾ المطرودون المغضوبون الممسوخون عن مقتضى الإنسانية ﴿شَرٌّ مَّكَانًا﴾ منزلةً ومكانةً عند الله ﴿وَأَضَلُّ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ ﴿٦٠﴾﴾ الذي هو الاعتدال الإنساني المنعكس عن الاعتدال الإلهي.

﴿وَإِذَا جَآءُوكُمْ﴾ مُدَّعين المحبة لكم ولدينكم مداهنةً ونفاقاً حيث ﴿قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا﴾ بنبيكم وبما جاء به من عند ربه، لا تبالوا بهم وبإيمانهم ولا تصاحبوا معهم ﴿وَ﴾ الحال أنهم ﴿قَد دَّخَلُوا۟﴾ عليكم متلبسين ﴿بِٱلْكُفْرِ﴾ والإصرار ﴿وَهُمْ﴾ أيضاً ﴿قَدْ خَرَجُوا۟ بِهِۦ ۚ﴾ بل زادوا إصراراً وعناداً، وإن أظهروا خلافه ﴿وَٱللَّهُ﴾ المطَّلع لضمائر عباده ﴿أَعْلَمُ بِمَا كَانُوا۟ يَكْتُمُونَ ﴿٦١﴾﴾ من الكفر والنفاق وبغض رسول الله والذين آمنوا معه.

﴿وَتَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَأَكْلِهِمُ ٱلسُّحْتَ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٦٢﴾ لَوْلَا يَنْهَىٰهُمُ ٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ عَن قَوْلِهِمُ ٱلْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ ٱلسُّحْتَ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴿٦٣﴾ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ ۚ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا۟ بِمَا قَالُوا۟ ....﴾

﴿وَتَرَىٰ﴾ أيها الرائي ﴿كَثِيرًا مِّنْهُمْ﴾ أي من اليهود والنصارى ﴿يُسَٰرِعُونَ﴾ ويبادرون ﴿فِي ٱلْإِثْمِ﴾ أي الخصلة الذميمة عقلاً وشرعاً ﴿وَٱلْعُدْوَٰنِ﴾ أي التجاوز عن الحدود الشرعية ﴿وَ﴾ خصوصاً ﴿أَكْلِهِمُ ٱلسُّحْتَ﴾ أي الحرام ﴿لَبِئْسَ﴾ أي بئس شيئاً ﴿مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٦٢﴾﴾ ويكسبون لأنفسهم من الأمور التي تستجلب العذاب والنكال.

﴿لَوْلَا﴾ هلَّا ﴿يَنْهَىٰهُمُ﴾ ويمنعهم ﴿ٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ عَن قَوْلِهِمُ ٱلْإِثْمَ﴾ افتراءً على الله وعلى كتابه ﴿وَأَكْلِهِمُ ٱلسُّحْتَ﴾ زاعمين إباحته ﴿لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴿٦٣﴾﴾ لبئس شيئاً يصنعونه لأنفسهم برأيهم الفاسد، وعقلهم القاصر الكاسد.

﴿وَ﴾ من غاية جهلهم بالله ونهاية غفلتهم عن مقتضيات أوصافه ﴿قَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ﴾ مقبوضةٌ يقتر بالرزق، حين فقدوا البسطة والرخاء الذي كانوا فيه قبل تكذيبهم رسول الله ﷺ، قال سبحانه دعاء عليهم: ﴿غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ﴾ عن جميع الخيرات والمبرَّات بضرب الذلة[1] والمسكنة عليهم في الدنيا، وفي الآخرة بالأغلال والسلاسل يسحبون بها إلى الجحيم ﴿وَ﴾ أعظم منه أنهم ﴿لُعِنُوا۟﴾ طُردوا عن مرتبة الإنسانية ﴿بِمَا قَالُوا۟﴾ على ما قالوا

(١) في المخطوط (لضربة الذلة).

بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَآءُ ۚ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا ۚ وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ كُلَّمَآ أَوْقَدُوا۟ نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا ٱللَّهُ ۚ وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًا ۚ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٦٤﴾ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَأَدْخَلْنَٰهُمْ

على الله الجواد الكريم ما لا يليق بجنابه ﴿بَلْ يَدَاهُ﴾ أي أوصافه اللطفية والقهرية ﴿مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَآءُ﴾ ويتعلق إرادته لمن يشاء لطفاً وجوداً، ويمنع عمن يشاء قهراً وعدلاً ﴿وَ﴾ الله ﴿لَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم﴾ حقداً وحسداً من ﴿مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾ يا أكمل الرسل إنعاماً وإفضالاً لك ﴿مِن رَّبِّكَ طُغْيَٰنًا﴾ اجتراءً وظلماً على الله لا يليق بجنابه ﴿وَكُفْرًا﴾ إصراراً وتشدداً على ما هم عليه من الشرك والعناد ﴿وَ﴾ بسبب طغيانهم وكفرهم ﴿أَلْقَيْنَا﴾ وأوقعنا ﴿بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ لا يتفقون ولا يوافقون أصلاً بل ﴿كُلَّمَآ أَوْقَدُوا۟ نَارًا لِّلْحَرْبِ﴾ مع المسلمين وصمّمُوا العزم نحوه ﴿أَطْفَأَهَا ٱللَّهُ﴾ بإيقاع المخالفة والعداوة بينهم ﴿وَ﴾ بالجملة هم ﴿يَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ دائماً مستمرين ﴿فَسَادًا﴾ أي لأجل الفساد وإثارة الفتن ﴿وَٱللَّهُ﴾ المصلح لأحوال عباده ﴿لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٦٤﴾﴾ المعاندين منهم، المجترئين على الله وعلى رسوله مكابرة وعناداً.

﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ ءَامَنُوا۟﴾ بك وبكتابك ﴿وَٱتَّقَوْا۟﴾ عما اجترؤوا عليه في حق الله وفي حقك ﴿لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ﴾ أي محونا عن ديوان أعمالهم بالمرة ﴿سَيِّـَٔاتِهِمْ﴾ التي كانوا عليها ﴿وَلَأَدْخَلْنَٰهُمْ﴾ تفضلاً وامتناناً

جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٦٥﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لَأَكَلُوا۟ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم ۚ مِّنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ سَآءَ مَا يَعْمَلُونَ ﴿٦٦﴾ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ

﴿جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٦٥﴾﴾ منتزهات العلم والعين والحق، إن أخلصوا في إيمانهم.

﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ﴾ أي أهل الكتاب ﴿أَقَامُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ﴾ وامتثلوا بأوامرها وأظهروا ما فيها من الأحكام والعبر والتذكيرات، سيما بعث [سيدنا] محمد ﷺ ونعته ﴿وَ﴾ أقاموا أيضاً ﴿ٱلْإِنجِيلَ﴾ وعملوا بمقتضى ما فيه ﴿وَ﴾ كذا جميع ﴿مَآ أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ﴾ لوسّع عليهم الرزق الصوري والمعنوي إلى حيث ﴿لَأَكَلُوا۟﴾ الرزق ﴿مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم﴾ ـ ذكرُ الجهتين يغني عن الجهات كلها ـ لو كوشفوا بوحدة الله من جميع الجوانب والجهات، ولا يرون غير الله في مظاهره ومجاليه ﴿مِّنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ﴾ معتدلةٌ لا من أهل التفريط ولا من أهل الإفراط، يرجى إيمانهم، وكشفهم ﴿وَ﴾ إن كان ﴿كَثِيرٌ مِّنْهُمْ سَآءَ مَا يَعْمَلُونَ ﴿٦٦﴾﴾ أي ساء عملهم في الإفراط والتفريط عن جادة الاعتدال والتوحيد.

﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ﴾ المبعوثُ إلى كافة الخلق بالرسالة العامة والدعوة إلى توحيد الذات ﴿بَلِّغْ﴾ وأوصل جميع ﴿مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾ لتبيين طريق توحيده الذاتي على جميع من كُلِّف به ﴿وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ﴾ ولم تبلّغ إمهالاً

فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٦٧﴾ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَسْتُمْ عَلَىٰ شَىْءٍ حَتَّىٰ تُقِيمُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا فَلَا تَأْسَ عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٦٨﴾ ....

وخوفاً ﴿فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ﴾ التي كلفك سبحانه بتبليغها، وبالجملة اعتصمْ بالله وتوكلْ عليه في أدائها ﴿وَٱللَّهُ﴾ المراقب لجميع أحوالك ﴿يَعْصِمُكَ﴾ ويحفظك ﴿مِنَ﴾ شرور ﴿ٱلنَّاسِ﴾ القاصدين مقتك ومساءتك يكفيك مؤنة شرورهم، ويكف عنك أذاهم بحوله وقوته ﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾ المطلعَ لضمائر عباده ﴿لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٦٧﴾﴾ القاصدين مقتك ولا يوصلهم إلى ما يريدون بك من المضرة والمساءة.

﴿قُلْ﴾ لهم يا أكمل الرسل: ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَسْتُمْ عَلَىٰ شَىْءٍ﴾ من أمر الدين والإيمان والإطاعة والانقياد ﴿حَتَّىٰ تُقِيمُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَ﴾ جميع ﴿مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ﴾ وتمتثلوا بأحكامها وتتصفوا بما فيها من مكارم الأخلاق ومحاسن الشيم المرضية عند الله، وتتحققوا بحقائقها ومعارفها المودعة فيها ﴿وَ﴾ الله ﴿لَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم﴾ حين سمعوا منك أمثال هذا ناشئاً من ﴿مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾ لتأييدك ونصرك ﴿طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا﴾ من غاية غيظهم وبغضهم معك ومع من تبعك من المؤمنين ﴿فَلَا تَأْسَ﴾ ولا تحزن ﴿عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٦٨﴾﴾ الساترين طريق الحق بأهويتهم الباطلة، وآرائهم الزائفة الفاسدة.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلصَّٰبِـُٔونَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٩﴾﴾ ....

ثم قال سبحانه:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ أسلموا وانقادوا وامتثلوا بأوامر كتابك واجتنبوا عن نواهيه، وآمنوا أيضاً بجميع الكتب والرسل وجميع الأنبياء وذوي الأديان وغيرها، لتمكنهم في مقر التوحيد البحت الخالص عن شوب الكثرة ﴿وَٱلَّذِينَ هَادُواْ﴾ من الممتثلين جميعَ ما أُمر في التوراة ونُهي عنه إلى أن وصلوا إلى مرتبة التوحيد المسقط للاختلافات الصوري والمعنوي ﴿وَٱلصَّٰبِـُٔونَ﴾ الذين يتوسلون بالملائكة في عبادة الله، لا الصابئون الطبيعيون الذين هم يعبدون الكواكب من قصور نظرهم وكثافة حجابهم ﴿وَٱلنَّصَٰرَىٰ﴾ الذين يعملون على مقتضى الإنجيل بلا فوت شيء من أوامره ونواهيه

﴿مَنْ ءَامَنَ﴾ منهم ﴿بِٱللَّهِ﴾ المتوحد بذاته المستغني عن الأشباه والأنداد مطلقاً، ووصل بمتابعة كتبه المنزلة ورسله المبينين لكتبه إلى توحيده ﴿وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ﴾ المعد للكشف والوصول ﴿وَعَمِلَ﴾ عملاً ﴿صَٰلِحًا﴾ بطريق توحيده ﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ في سلوكهم ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٩﴾﴾ بعدما وصلوا، إذ كل ما جاء من عند الله إنما هو بمقتضى توحيده، مبينٌ له، وإن كانت الطرق متعددة بتعدد الأوصاف والأسماء الإلهية لكن كل منها موصلةٌ إليه سبحانه، إذ ليس وراء الله مرمى ومنتهى، لذلك قيل: التوحيد إسقاط الإضافات رأساً حتى يتحقق الفناء فيه والبقاء به، بل لا فناء ولا بقاء

لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمْ رُسُلًاۖ كُلَّمَا جَآءَهُمْ رَسُولُۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَّبُواْ وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ ﴿٧٠﴾ وَحَسِبُوٓاْ أَلَّا تَكُونَ فِتْنَةٌ فَعَمُواْ وَصَمُّواْ ثُمَّ تَابَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ ثُمَّ عَمُواْ وَصَمُّواْ كَثِيرٌ مِّنْهُمْۚ وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿٧١﴾ لَقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ

في مرتبة العماء أصلاً، حارت في ملكوتك عميقات مذاهب التفكر. والله

﴿لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ على لسان أنبيائهم أنْ لا تشركوا بالله ولا تخاصموا مع أنبيائه ورسله ﴿وَ﴾ بعد ما أخذنا منهم الميثاق ﴿أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمْ رُسُلًاۖ﴾ مبشرين ومنذرين تخاصموا وصاروا من خبث بواطنهم ﴿كُلَّمَا جَآءَهُمْ رَسُولُۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُهُمْ﴾ وبما لا ترضى به عقولهم ﴿فَرِيقًا كَذَّبُواْ﴾ عندنا مكابرةً وعناداً ﴿وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ ﴿٧٠﴾﴾ الأنبياء ظلماً وعتواً.

﴿وَ﴾ هم من غاية عمههم وانهماكهم في الإعراض عن الحق ﴿حَسِبُوٓاْ﴾ وظنوا ﴿أَلَّا تَكُونَ﴾ وتدور عليهم ﴿فِتْنَةٌ﴾ مصيبةٌ وبلاءٌ بواسطة التكذيب والقتل ﴿فَعَمُواْ﴾ عن أمارات الدين وعلامات اليقين ﴿وَصَمُّواْ﴾ عن استماع دلائل التوحيد والعرفان ﴿ثُمَّ﴾ بعدما تنبَّهوا تابوا مخلصين ﴿تَابَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ عفا عنهم وقَبِل توبتهم ثم بعدما تابوا ﴿ثُمَّ عَمُواْ وَصَمُّواْ كَثِيرٌ مِّنْهُمْۚ﴾ كرةً أخرى لخباثتهم الجِبِلِيَّة ﴿وَٱللَّهُ﴾ المطلعُ لجميع حالاتهم ﴿بَصِيرُۢ﴾ خبيرٌ ﴿بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿٧١﴾﴾ بمقتضى أهويتهم الباطلة، يجازيهم على مقتضى علمه وخبرته.

﴿لَقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ﴾ من غاية جهلهم بقدر الله وما يليق بجنابه:

إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ ۖ وَقَالَ ٱلْمَسِيحُ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ۖ إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ ۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿٧٢﴾ لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ ۘ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّآ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۚ ....

﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾ المتجلي على عروش الذرائر الكائنة شهادةً وغيباً ﴿هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ ۖ﴾ أي متحدٌ به، محصورٌ عليه إفراطاً وعلواً ﴿وَقَالَ ٱلْمَسِيحُ﴾ لهم حين سمع منهم ما قالوا: ﴿يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ التائهين بتيه الجهل والإفراط ﴿ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ﴾ المنزهَ عن الحصر والحلول والاتحاد بل هو ﴿رَبِّى﴾ رباني بأنواع اللطف والكرم ﴿وَرَبَّكُمْ ۖ﴾ أيضاً بإفاضة العقل الموصل إلى معرفة توحيده، لا فرق بيني وبينكم في العبودية والربوبية لا تشركوا معه ولا تحصروه فيّ ﴿إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ﴾ المنزهِ عن الشريك مطلقاً غيرَه من مخلوقاته ﴿فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ﴾ التي هي منزل السعداء الموحدين ﴿وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ ۖ﴾ المعدةُ للأشقياء الظالمين المشركين ﴿وَ﴾ اعلموا أن ﴿مَا لِلظَّٰلِمِينَ﴾ المفترين على الله ما هو بريء عنه بذاته ﴿مِنْ أَنصَارٍ ﴿٧٢﴾﴾ ينصرونهم ويشفعون لهم عند أخذه سبحانه وبطشِهِ.

﴿لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟﴾ من عدم تحققهم بمقام التوحيد وعدم تنبههم بمرتبة الفناء في الله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾ المنزهَ عن التعدد بل عن العدد مطلقاً ﴿ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ ۘ﴾ واحدٌ منها وأراد بالثلاثة هو ومريم وعيسى ﴿وَ﴾ الحال أنه ﴿مَا مِنْ إِلَٰهٍ﴾ أي في الوجود موجودٍ ﴿إِلَّآ إِلَٰهٌ﴾ موجودٌ ﴿وَٰحِدٌ ۚ﴾ محيِّرٌ

وَإِن لَّمْ يَنتَهُوا۟ عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى ٱللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُۥ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٧٤﴾ مَّا ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَ ....

للعقول والأبصار، ماحٍ لظلال السّوى والأغيار ﴿وَإِن لَّمْ يَنتَهُوا۟﴾ هؤلاء الظلمة ﴿عَمَّا يَقُولُونَ﴾ من التثليث والتعدد في الألوهية ﴿لَيَمَسَّنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ﴾ أي بقوا على كفرهم بلا إيمانٍ إلى أن ماتوا عليه ﴿عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾﴾ لا عذابَ أشد منه، وهو حرمانهم عن مرتبة التوحيد التي هي مرتبة الخلافة والنيابة، أتصرون على هذا الكفر والضلال؟

﴿أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى ٱللَّهِ﴾ ولا يؤمنون له ﴿وَ﴾ لا ﴿يَسْتَغْفِرُونَهُ﴾ عما صدر عنهم من الجرائم العِظام؟ حتى تُقبل توبتُهم وإيمانهم ﴿وَٱللَّهُ﴾ المنزه في ذاته عن كفرهم وإيمانهم ﴿غَفُورٌ﴾ لهم إن أخلصوا في توبتهم وإيمانهم ﴿رَّحِيمٌ ﴿٧٤﴾﴾ لهم يقبل توبتهم ولم يأخذهم على ما صدر عنهم بعد ما تابوا.

﴿مَّا ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ﴾ من الرسل العظام ﴿قَدْ خَلَتْ﴾ مضت ﴿مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ﴾ مثله ولم ينسبهم أحدٌ إلى ما نسبوه ﴿وَأُمُّهُۥ﴾ أيضاً ﴿صِدِّيقَةٌ﴾ مقبولةٌ عند الله، قد مضت مثلها كثيرة من الصادقات المقبولات، لم ينسبها أحد إلى ما نسبتموها، وبالجملة كيف ينسبونها إلى الألوهية ﴿كَانَا﴾ مُركّبان ﴿يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَ﴾ بدلاً لا يتحلل، والإله

ٱنظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ ٱلْءَايَٰتِ ثُمَّ ٱنظُرْ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٧٥﴾ قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ۚ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٧٦﴾ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ غَيْرَ ٱلْحَقِّ

منزهٌ عن التركيب والتحليل والأكل والشرب والأبوة والأمومة وغيرها من أوصاف البشر ﴿ٱنظُرْ﴾ أيها الناظر متعجباً ﴿كَيْفَ نُبَيِّنُ﴾ ونوضح ﴿لَهُمُ ٱلْءَايَٰتِ﴾ الدلائل القاطعة الدالة على عدم لياقتها بمرتبة الألوهية، مع أنه لا حاجة إلى الدليل أصلاً عند من له أدنى دَريةً ﴿ثُمَّ ٱنظُرْ﴾ وازدد في تعجُّبِك ﴿أَنَّىٰ﴾ كيف ﴿يُؤْفَكُونَ ﴿٧٥﴾﴾ يَصرفون وجوه عقولهم عن طريق الحق وإسماع كلمة التوحيد؟!.

﴿قُلْ﴾ لهم يا أكمل الرسل إلزاماً وتبكيتاً: ﴿أَتَعْبُدُونَ﴾ وتؤمنون ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ المتفردِ بالألوهية والوجود ﴿مَا﴾ أي أظلالاً وتماثيل ﴿لَا يَمْلِكُ لَكُمْ﴾ ولا لأنفسهم ﴿ضَرًّا وَلَا نَفْعًا﴾ ولا وجوداً ولا حياةً، بل ما هي إلا تماثيل موهومةٌ وعكوسٌ معدومةٌ تنعكس من أشعة التجليات الإلهية، ليس لها في أنفسها أوصافٌ وآثارٌ ﴿وَٱللَّهُ﴾ المتجلي في الآفاق بالاستحقاق ﴿هُوَ ٱلسَّمِيعُ﴾ في مظاهره لا غيره، إذ لا غير ﴿ٱلْعَلِيمُ ﴿٧٦﴾﴾ أيضاً فيها، فله الاستقلال في التصرف في ملكه وملكوته بلا مشاركة أحدٍ ومظاهرته.

﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ أي النصارى: ﴿لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ﴾ ونبيكم ﴿غَيْرَ ٱلْحَقِّ﴾ افتراءً ومراءً سيما بعد ظهور المبيِّن المؤيَّد المصدَّق

وَلَا تَتَّبِعُوٓاْ أَهْوَآءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّواْ مِن قَبْلُ وَأَضَلُّواْ كَثِيرًا وَضَلُّواْ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ ﴿٧٧﴾ لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۢ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعْتَدُونَ ﴿٧٨﴾ كَانُواْ لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُۚ لَبِئْسَ مَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ ﴿٧٩﴾ ....

﴿وَلَا تَتَّبِعُوٓاْ أَهْوَآءَ قَوْمٍ﴾ من أسلافكم ﴿قَدْ ضَلُّواْ مِن قَبْلُ﴾ عن طريق الحق ﴿وَ﴾ مع ذلك لا يقتصرون على الضلال بل ﴿أَضَلُّواْ كَثِيرًا﴾ من ضعفائهم وعوامِّهم ﴿وَ﴾ هم قومٌ ﴿ضَلُّواْ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ ﴿٧٧﴾﴾ بلا هادٍ ومنبهٍ يهديهم إليه، وما لكم تضلون عنه مع وجود المنبه المؤيد من عند الله الهادي بالهداية العامة إلى صراط مستقيم موصلٍ إلى مقر التوحيد.

﴿لُعِنَ﴾ أي طُرد وحُرم ورُدَّ من مقر العز ومرتبة النيابة ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۢ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَۚ﴾ أيضاً ﴿ذَٰلِكَ﴾ الطرد واللعن ﴿بِمَا عَصَواْ﴾ على الله بعدم امتثال أوامره واجتناب نواهيه ﴿وَّكَانُواْ يَعْتَدُونَ ﴿٧٨﴾﴾ يتجاوزون عن مرتبة الإنسانية بالخروج عما حدّ الله لهم وبينه في كتابه إلى ما تهوى أنفسهم وترضى عقولهم.

﴿كَانُواْ﴾ من غاية غفلتهم وانهماكهم ﴿لَا يَتَنَاهَوْنَ﴾ أي لا ينهون أنفسهم[1] ﴿عَن مُّنكَرٍ﴾ مخالفٍ للشرع ﴿فَعَلُوهُۚ﴾ بعد تنبههم بمخالفته، بل يُصرون عليها عناداً واستكباراً، واللهِ ﴿لَبِئْسَ مَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ ﴿٧٩﴾﴾ لأنفسهم ذلك المنكر والإصرار المستجلب للعذاب والنكال.

---

(١) في المخطوط (لا ينتهون أنفسهم).

تَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ أَن سَخِطَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِى ٱلْعَذَابِ هُمْ خَٰلِدُونَ ﴿٨٠﴾ وَلَوْ كَانُوا۟ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلنَّبِىِّ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَا ٱتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَآءَ وَلَٰكِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٨١﴾ ۞ لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ ۖ وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟

﴿ تَرَىٰ ﴾ أيها الرائي ﴿كَثِيرًا مِّنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ ﴾ ويودون ويوالون ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ﴾ أشركوا بالله ويصاحبونهم، لذلك يَسري شركُهُم وكفرهم عليهم، والله ﴿لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ أَن سَخِطَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ ﴾ بسببه ﴿وَفِى ٱلْعَذَابِ هُمْ خَٰلِدُونَ ﴿٨٠﴾ ﴾ بشؤمه.

﴿ وَلَوْ كَانُوا۟ ﴾ أي هؤلاء المنافقون ﴿يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ ﴾ المتوحدِ في ذاته ﴿وَٱلنَّبِىِّ ﴾ المؤيَد من عنده، المبعوثِ إلى كافة الخلق ﴿وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ ﴾ من الفرقان الفارق بين الحق والباطل ﴿مَا ٱتَّخَذُوهُمْ ﴾ أي المشركين ﴿أَوْلِيَآءَ ﴾ أحباءَ أصدقاءَ ﴿وَلَٰكِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٨١﴾ ﴾ خارجون عما فيه صلاحهم وسدادهم من الحكم والأحكام المنزلة في القرآن.

﴿ ۞ لَتَجِدَنَّ ﴾ أيها الداعي للخلق إلى الحق ﴿أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ﴾ بك وبكتابك ﴿ٱلْيَهُودَ ﴾ الذين جُبلوا على النفاق والشقاق سيما معك وممن تبعك ﴿وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ ﴾ بالله بإثبات الوجود لغيره لبغضهم مع الموحدين الموفقين بتوحيد الله ووحدة ذاته، القاطعين عرق الشركة بالكلية ﴿ وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً ﴾ ومحبة ﴿ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ ﴾

إِنَّا نَصَٰرَىٰۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنۡهُمۡ قِسِّيسِينَ وَرُهۡبَانٗا وَأَنَّهُمۡ لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ ﴿٨٢﴾ وَإِذَا سَمِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعۡيُنَهُمۡ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمۡعِ مِمَّا عَرَفُواْ مِنَ ٱلۡحَقِّۖ يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا ....

للمؤمنين من محض ودادهم وصميم فؤادهم بعدما تحققوا بحقِّيَة الدين المصطفوية والشرعة المحمدية الموصلة إلى بحر التوحيد: ﴿إِنَّا نَصَٰرَىٰۚ﴾ ننصر دينكم ونقوي عضدكم ﴿ذَٰلِكَ﴾ أي بسبب وِدادتكم ومحبتكم في قلوبهم ﴿بِأَنَّ مِنۡهُمۡ﴾ جمعاً ﴿قِسِّيسِينَ﴾ طالبين للعلم اللدني الذي هو ثمرة جميع الشرائع والأديان ﴿وَرُهۡبَانٗا﴾ متحققين بمرتبة العين ومتصرفين بلا تفرجٍ، متفرجين بلا تصرف في الأمور الدنيوية، منتظرين لظهور مرتبة الحق التي أنت تظهر به يا أكمل الرسل ﴿وَأَنَّهُمۡ﴾ بعدما وجدوا في وجدانهم ما وجدوا ﴿لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ ﴿٨٢﴾﴾ عن نصرك ووِدادتك أيها الجامع لجميع مراتب الحق.

﴿وَ﴾ من غاية تشوقهم إلى مرتبة اليقين الحقي ﴿إِذَا سَمِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ﴾ من الحِكم والأحكام والتذكير والرموز والإشارات والعبر والأمثال المنبيء كل منها عن مرتبة اليقين الحقي ﴿تَرَىٰٓ﴾ أيها الرائي ﴿أَعۡيُنَهُمۡ تَفِيضُ﴾ تسيل ﴿مِنَ ٱلدَّمۡعِ﴾ من غاية تلذذهم ونهاية تشوقهم بتلك المرتبة وذلك التذلل والتشوق ﴿مِمَّا عَرَفُواْ﴾ بقدر وسعهم وطاقتهم ﴿مِنَ﴾ أمارات مرتبةِ ﴿ٱلۡحَقِّۖ﴾ فكيف إذا تحققوا بها وتمكنوا في مقعد الصدق ﴿يَقُولُونَ﴾ من غاية تحننهم وتشوقهم منادياً مناجياً قلقاً حائراً خائفاً حذراً راجياً: ﴿رَبَّنَآ ءَامَنَّا﴾

فَٱكۡتُبۡنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨٣﴾ وَمَا لَنَا لَا نُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَمَا جَآءَنَا مِنَ ٱلۡحَقِّ وَنَطۡمَعُ أَن يُدۡخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٤﴾ فَأَثَٰبَهُمُ ٱللَّهُ بِمَا قَالُواْ جَنَّٰتٍ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿٨٥﴾ ....

صدَّقنا وتحققنا بما وهبتَ لنا من مرتبتي العلم والعين وبعدما تحققنا بتوفيقك بهما ﴿فَٱكۡتُبۡنَا﴾ بلطفك ﴿مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨٣﴾﴾ المتمكنين الذين حضروا وانقطع سيرهم وحاروا إلى أن تاهوا أو فانوا، لا إله إلا هو، كل شيء هالك إلا وجهه.

﴿وَ﴾ يقولون أيضاً من غاية تحسرهم وتعطشهم: ﴿مَا لَنَا﴾ أي أيّ شيء عرض لنا ﴿لَا نُؤۡمِنُ﴾ نصدق ونوقن ونذعن ﴿بِٱللَّهِ﴾ المتوحد المتجلي في الأكوان، المستغني عن الدليل والبرهان ﴿وَ﴾ لا نتبع ونمتثل ﴿مَا جَآءَنَا مِنَ﴾ دلائل ﴿ٱلۡحَقِّ﴾ وبنيانه ﴿وَ﴾ مع ذلك ﴿نَطۡمَعُ﴾ ونرجو ﴿أَن يُدۡخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٤﴾﴾ لتلك المرتبة.

وبعدما فزعوا إلى الله وأخلصوا فيما أظهروا

﴿فَأَثَٰبَهُمُ ٱللَّهُ﴾ وأورثهم ﴿بِمَا قَالُواْ﴾ راجياً مناجياً متمنياً متحسراً ﴿جَنَّٰتٍ﴾ منتزهات من العلم والعين والحق ﴿تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾ أنهار المعارف والحقائق من ألسنة أرباب الكشف واليقين ؛ ليحيي بلدة ميتاً من المحجوبين المسجونين بسلاسل التقليدات وأغلال الدلائل والتخمينات ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ﴾ ما شاء الله، لا حول ولا قوة إلا بالله و﴿وَذَٰلِكَ﴾ الفوز العظيم والفضل الكريم ﴿جَزَآءُ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿٨٥﴾﴾ الموصلين إلى مرتبة حق اليقين.

وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَحِيمِ ﴿٨٦﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحَرِّمُواْ طَيِّبَٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمۡ وَلَا تَعۡتَدُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ ﴿٨٧﴾ ....

﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ﴾ بتوحيدنا ﴿وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ ﴾ الدالةِ عليه، المبينةِ لطريقه ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ﴾ البعداء المحبوسون في مضيق الإمكان ﴿أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَحِيمِ ﴿٨٦﴾﴾ لا نجاةَ لهم منها، ولا خلاصَ من غوائلها.

ثم لما بالغ النصارى في الإعراض والترهب عن حظوظ الدنيا ولذاتها إلى حيث يحرمون على أنفسهم[1] ما أحل الله لهم، وأفرطوا فيه إلى حيث لم يبق مزاجهم على الاعتدال الذي جُبلوا عليه.

أراد سبحانه أن ينبه على المؤمنين طريقاً مستقيماً وسبيلاً واضحاً متوسطاً بين طرفي الإفراط والتفريط، لئلا يؤدي إلى تخريب المزاج وتحريفه، إذ للحق سبحانه في إيجاد الأمرجة صنائع عجيبةٌ، وبدائع غريبةٌ منتشئةٌ عن محض الحكمة الجامع لجميع الأوصاف الذاتية الإلهية؛ من العلم والقدرة والإرادة وغيرها فقال منادياً:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾ صدَّقوا بدين الإسلام وامتَثلوا ما أُمروا فيه ونُهوا عنه، عليكم أن ﴿لَا تُحَرِّمُواْ طَيِّبَٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمۡ ﴾ في دينكم ﴿وَلَا تَعۡتَدُوٓاْۚ ﴾ عن حدود الله ترهباً وتَزَّهداً[2] مفضياً إلى الرياء والسمعة ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ ﴾ المدبرَ لعباده ﴿ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ ﴿٨٧﴾ ﴾ المجاوزين عن مقتضى تدبيره وإصلاحه.

---

(١) في المخطوط (يحرمون لأنفسهم).

(٢) في المخطوط (ونزهو).

وَكُلُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلًا طَيِّبًا ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ أَنتُم بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾ لَا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِىٓ أَيْمَٰنِكُمْ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ ٱلْأَيْمَٰنَ ۖ فَكَفَّٰرَتُهُۥٓ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَٰكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ

﴿وَ﴾ إذا سمعتم من الحق ما سمعتم ﴿كُلُوا۟﴾ من طيبات ﴿مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلًا﴾ غير مسرفين في أكلها ﴿طَيِّبًا ۚ﴾ من كدِّ يمينكم وعَرَقِ جبينكم مقدار ما يقوم مزاجكم ويقويكم على إقامة أمر الله وأحكامه ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ أَنتُم بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾﴾ موقنون مخلصون عن مجاوزة حدوده وارتكاب محظوراته، واحذورا عن بطشه وانتقامه، واعلموا أن خير قوتكم في دنياكم: تقواكم ورضاكم، لذلك أوصاكم سبحانه.

ومن جملة الأمور التي تجب محافظتها عليكم في معاشكم؛ لتكونوا من المتقين المبرورين عند الله أن لا تجترئوا على اليمين والحلف بالله في الوقائع والعقود، سيما على وجه الكذب قصداً واختياراً حتى لا تنحطوا[1] عن مرتبة العدالة الفطرية، ولا تلحقوا بالأخسرين الذين ضلَّ سعيهم في الحياة الدنيا؛ إلا أن تصدر عنكم هفوة بغتة بلا قصدٍ على ما هو المتعارف عند العرب في أثناء أكثر الكلام: «لا والله» بلا إغراءٍ وتمويهٍ فإنه مَعفوٌّ عنكم كما قال سبحانه:

﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ﴾ المجازي عن أعمالكم ﴿بِٱللَّغْوِ﴾ الصادرِ منكم ﴿فِىٓ أَيْمَٰنِكُمْ﴾ بلا قصدٍ وتغريرٍ ﴿وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم﴾ ويعذِّبُكم ﴿بِمَا عَقَّدتُّمُ ٱلْأَيْمَٰنَ ۖ﴾ أي بالعقود التي وثقتموها بالأيمان وحنثتم فيها، فعليكم بعدما حنثتم أن تجبروها بالكفارة ﴿فَكَفَّٰرَتُهُۥٓ﴾ المسقطُ نكاله ﴿إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَٰكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ﴾ أي كساوتهم[2] على هذا

(١) في المخطوط (حتى لا نحطوا).

(٢) في المخطوط (أي إكسائهم).

أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٍ ذَٰلِكَ كَفَّٰرَةُ أَيْمَٰنِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ وَٱحْفَظُوٓاْ أَيْمَٰنَكُمْ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٨٩﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ

الوجه ﴿أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ﴾ على تفاوت رُتبكم ودرجاتكم عسراً أو يسراً ﴿فَمَن لَّمْ يَجِدْ﴾ شيئاً منها ﴿فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٍ﴾ أي فعليه أن يصوم ثلاثة أيام متوالية، زجراً للنفس، وجبراً لما انكسر من المروءة الفطرية ﴿ذَٰلِكَ﴾ المذكور ﴿كَفَّٰرَةُ أَيْمَٰنِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ﴾ جازمين حقّيته وحنثتم، وأما إذا حلفتم كذباً وزوراً والعياذ بالله، فنكاله لا يسقط عنكم إلا بخلاص التوبة والندامة المؤكدة ﴿وَٱحْفَظُوٓاْ﴾ أيها المؤمنون ﴿أَيْمَٰنَكُمْ﴾ التي حلفتم بها في مواقعها عن شوب الكذب والشك، بل عن شوب الظن أيضاً إن أردتم أن تبروا فيها وتقسطوا عند الله ﴿كَذَٰلِكَ﴾ الذي وُعِظْتُم به ﴿يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ﴾ الدالةِ على توحيده ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٨٩﴾﴾ رجاءَ أن تتحققوا في مقام الشكر، تصرفوا ما وهب لكم[1] من العطايا إلى ما اقتضته حكمتُه.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ مقتضى إيمانكم محافظة حدود الله الموضوعة فيكم لإصلاحكم أمراً ونهياً كراهةً وندباً حلاً وحرمةً ﴿إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ﴾ أي مطلق ما يترتب عليه السكر وإزالة العقل من أي شيء أخذتم ﴿وَٱلْمَيْسِرُ﴾ القمار مع أي شيء لعبتم ﴿وَٱلْأَنصَابُ﴾ أي الأصنام الموضوعة لتضليل العباد ﴿وَٱلْأَزْلَٰمُ﴾ الموضوعة للاستعلام مما استأثر الله به من غيبه، كلٌ منها ﴿رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾ قذرٌ ونجسٌ بلا واسطة أو واسطة ﴿فَٱجْتَنِبُوهُ﴾ أي جانبوا وأبعدوا أنفسكم عن كلّ

(١) في المخطوط (وينصرفوا ما وهب لكم...).

لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٩٠﴾ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ فِي ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ ﴿٩١﴾ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَٱحْذَرُوا۟ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿٩٢﴾ لَيْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوٓا۟ إِذَا مَا ٱتَّقَوا۟ وَّءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ثُمَّ ٱتَّقَوا۟ وَّءَامَنُوا۟ ....

منها ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٩٠﴾﴾ رجاء أن تفوزوا بما يرضى به الله عنكم.

﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ المضلُّ ﴿أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ فِي ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ﴾ إلى حيث يفضي إلى المقاتلة والمشاجرة ﴿وَ﴾ يريد أن ﴿يَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ وخصوصاً ﴿وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِ﴾ التي هي معراج المؤمن نحو الحق ﴿فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ ﴿٩١﴾﴾ أيها المؤمنون، أم مهلَكون بارتكابها، إذ لا واسطة فيهما ولا عذر.

﴿وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ﴾ فيما أمركم به ونهاكم عنه ﴿وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ﴾ المبيَّن لكم أمر الله ونهيه ﴿وَٱحْذَرُوا۟﴾ عما حذَّركم الله ورسوله ﴿فَإِن تَوَلَّيْتُمْ﴾ وأعرضتم بعد وضوح البرهان ﴿فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿٩٢﴾﴾ الظاهر الواضح وعلينا الحساب والأخذ والانتقام والعذاب والنكال.

﴿لَيْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ المأمورة ﴿جُنَاحٌ﴾ حرجٌ وضيقٌ وتعبٌ ﴿فِيمَا طَعِمُوٓا۟﴾ من المحرمات المذكورة قبل ورود تحريمها ﴿إِذَا مَا ٱتَّقَوا۟﴾ بعد ورودها عن غضب الله ﴿وَّءَامَنُوا۟﴾ صدَّقوا تحريمها ﴿وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ المرخصة بمقتضاها بلا إخلال ﴿ثُمَّ ٱتَّقَوا۟﴾ عن رخصها ﴿وَّءَامَنُوا۟﴾

ثُمَّ اتَّقَوا وَّأَحْسَنُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿٩٣﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَيَبْلُوَنَّكُمُ اللَّهُ بِشَيْءٍ مِّنَ الصَّيْدِ تَنَالُهُ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ لِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَخَافُهُ بِالْغَيْبِ فَمَنِ اعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٩٤﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَأَنتُمْ حُرُمٌ وَمَن قَتَلَهُ مِنكُم مُّتَعَمِّدًا

أي أخلصوا بعزائمها ﴿ثُمَّ اتَّقَوا﴾ عن عزائمها طالبين رضا الله ﴿وَّأَحْسَنُوا﴾ في هذه التقوى[1] وتعبدوا الله كأنهم يرونه ﴿وَاللَّهُ﴾ المحسنُ المفضِّل لعباده ﴿يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿٩٣﴾﴾ منهم الطالبين رضاه المتشوقين لقاءه.

ومن أجلِّ الأمور المحرمة عليكم في دينكم: الاصطياد حال كونكم محرمين للحج.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَيَبْلُوَنَّكُمُ﴾ ويختبرنَّكم ﴿اللَّهُ بِشَيْءٍ﴾ حقير ﴿مِّنَ الصَّيْدِ﴾ حال كونكم محرمين يغشاكم بحيث ﴿تَنَالُهُ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ﴾ من غاية قربه هل ما تأخذونه وتشوشونه[2]، أم تحفظون أمر التحريم وتراعون حقه وما ذلك إلا ﴿لِيَعْلَمَ اللَّهُ﴾ أي يميز ويفصل ﴿مَن يَخَافُهُ بِالْغَيْبِ﴾ أي من انتقامه في يوم الجزاء عمن لا يخاف ولا يبال بأمره وشأنه ﴿فَمَنِ اعْتَدَىٰ﴾ وتجاوز ﴿بَعْدَ ذَٰلِكَ﴾ أي بعد ما سمع من الحق ما سمع ﴿فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٩٤﴾﴾ وعقاب عظيم باعتدائه واجترائه.

ثم أردفه سبحانه بما يدل على جَبره بعد انكساره رفعاً للحرج عن عباده مصرحاً بتحريمه ونهيه أولاً فقال:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ مقتضى إيمانكم أن ﴿لَا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ﴾ ﴿وَ﴾ الحال أنه ﴿أَنتُمْ حُرُمٌ﴾ محرمين للحج ﴿وَمَن قَتَلَهُ مِنكُم﴾ في أوقات إحرامه ﴿مُّتَعَمِّدًا﴾

---

(١) في المخطوط (في هذا التقوى).

(٢) في المخطوط (هل ما يهمدونه ويشوشونه).

فَجَزَآءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ ٱلنَّعَمِ يَحْكُمُ بِهِۦ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ هَدْيًۢا بَٰلِغَ ٱلْكَعْبَةِ أَوْ كَفَّٰرَةٌ طَعَامُ مَسَٰكِينَ أَوْ عَدْلُ ذَٰلِكَ صِيَامًا لِّيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِۦ ۗ عَفَا ٱللَّهُ عَمَّا سَلَفَ ۚ وَمَنْ عَادَ فَيَنتَقِمُ ٱللَّهُ مِنْهُ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ ﴿٩٥﴾ ....

قاصداً ﴿فَجَزَآءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ ٱلنَّعَمِ﴾ أي لزمه جبراً لما انكسر، ذبح مثل ما قتل من النعم في النفع والفائدة؛ لسد جوعة الفقراء والمساكين ﴿يَحْكُمُ بِهِۦ﴾ بمماثلته ﴿ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ﴾ حال كون ذلك المجازي ناوياً ﴿هَدْيًۢا﴾ يذبح لله ولرضاه ﴿بَٰلِغَ ٱلْكَعْبَةِ﴾ أي عندها ويتصدق بها للفقراء والمساكين ﴿أَوْ﴾ لزم عليه ﴿كَفَّٰرَةٌ﴾ وهي ﴿طَعَامُ مَسَٰكِينَ﴾ أي يشتري بثمن ذلك المِثل الذي يحكم به ذوا عدل طعاماً ويتصدق به للفقراء، يعطي كل واحد منهم مداً من الطعام ﴿أَوْ عَدْلُ ذَٰلِكَ صِيَامًا﴾ أو لزمه صيام مدةٍ مساويةٍ لعدد الفقراء إذا أطعم بثمنها عليهم، سرُّ كل تلك التكاليف الشاقة ﴿لِّيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِۦ﴾ أي ثقله وشدته وفظاعته ووخامة عاقبته، إذ هو إبطالٌ لصنع الحق حين حماهُ الحقُّ ونهى عن التعرض، وعليكم أن تحافظوا على النهي بعد الورود ولا تخافوا عما قبله إذ ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَمَّا سَلَفَ﴾ أي محا عن الديوان وأسقط عن الحساب ما اكتسبتم من الجرائم حين كونكم تائهين في بيداء الغفلة ﴿وَمَنْ عَادَ﴾ عليها بعد ما نبه وتنبه ﴿فَيَنتَقِمُ ٱللَّهُ مِنْهُ﴾ ويؤاخذه عليه ويحاسبه عنه ويجازيه على مقتضى حسابه ﴿وَ﴾ لا تغتروا بحلمه وإمهاله ومجاملته إذ ﴿ٱللَّهُ﴾ المستغني في ذاته عن جميع الشؤون والنشأة ﴿عَزِيزٌ﴾ غالبٌ غيورٌ متكبرٌ قهورٌ ﴿ذُو ٱنتِقَامٍ ﴿٩٥﴾﴾ عظيمٍ وبطشٍ شديدٍ على من تخلف عن حكمه وأصرَّ عليه[1].

(١) في المخطوط (على تخلف حكمه وأصر عليه).

أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ ٱلْبَحْرِ وَطَعَامُهُۥ مَتَٰعًا لَّكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ ۖ وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ ٱلْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُمًا ۗ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٩٦﴾ ....

نعوذ بفضلك من عذابك يا ذا القوة المتين.

﴿أُحِلَّ لَكُمْ﴾ أيها المحرمون ﴿صَيْدُ ٱلْبَحْرِ﴾ مائي المولد مطلقاً إلا ما تستكرهه طباعكم ﴿وَطَعَامُهُۥ﴾ أكله ﴿مَتَٰعًا لَّكُمْ﴾ يمتعون بها مجاناً ﴿وَ﴾ كذا ﴿لِلسَّيَّارَةِ﴾ للتجارة والزيارة وغيرها تتزودون منها[1] ﴿وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ ٱلْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُمًا﴾ أي من أول مدة إحرامكم إلى أول الحل ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٩٦﴾﴾ وتساقون أيها المؤمنون.

وعليكم الحذر والاتقاء عن التعرض بمصنوعاته بقهر وغلبة في جميع حالاتكم، سيما عند لبس الإحرام الذي هو كفن الفناء المعنوي والموت الحقيقي عند أولي الألباب الناظرين إلى لب الأحكام وزبدته.

وكما أن في الموت الصوري لا يبقى للقوى والأوصاف الظاهرة آثارٌ وأفعالٌ، بل تعطلت وانمحت وتلاشت بحيث لا يُتوقع منها ذلك أصلاً، كذلك في الموت الإرادي الذي هو عبارةٌ عن حج العارف، لا بد من إحرامه وتعطيله أعضاءَه وجوارحَه عن مقتضيات الأوصاف البشرية والقوى الحيوانية، وعن جميع التعينات الجسمانية والروحانية والغيبية والشهادية والظاهرية والباطنية، وبالجملة عن جميع الإضافات والكثرات الحاجبة لصرافة الوحدة الذاتية، المستهلكة عنها جميع ما يتوهم من الأظلال والعكوس، لذلك صار الموت الإرادي أشدُّ في الانمحاء وأغرقُ في الفناء

---

(١) في المخطوط (تترددون منها).

﴿۞ جَعَلَ ٱللَّهُ ٱلْكَعْبَةَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ قِيَٰمًا لِّلنَّاسِ وَٱلشَّهْرَ ٱلْحَرَامَ وَٱلْهَدْىَ وَٱلْقَلَٰٓئِدَ ۚ ذَٰلِكَ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَأَنَّ ٱللَّهَ

من الموت الصوري، إذ ينتهي الأمر في الموت الإرادي إلى العدم والصرف والفناء المطلق الذي ما شم رائحة الوجود أصلاً.

فكيف تخلل الموت والحياة والوجود والعدم وتاهت في بيداء ألوهية أنظار العقل وآرائه.

إنما:

﴿ ۞ جَعَلَ ﴾ وصيَّر ﴿ٱللَّهُ ﴾ المستغني بذاته عن الأمكنة والحلول فيها مطلقاً ﴿ٱلْكَعْبَةَ ﴾ الكعبة المعينة في أرض الحجاز ﴿ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ﴾ أي المكان الذي يحرم فيه أكثر ما يحل في غيرها من الأمكنة، بل جميعها عند العارف ليكون ﴿قِيَٰمًا لِّلنَّاسِ﴾ يقومون بها ويتيقظون بأركانها ومناسكها وآدابها ومشاعرها عن منام الغفلة ورقود النسيان ﴿وَ﴾ كذا صير ﴿ٱلشَّهْرَ ٱلْحَرَامَ﴾ ميقاتاً لزيارتها وطوافها، ليقوموا فيها بتهيئة أسباب الفناء وتخلية الضمير عن الميل إلى الغير والسِّوى ﴿وَ﴾ صيَّر سبحانه أيضاً ﴿ٱلْهَدْىَ وَٱلْقَلَٰٓئِدَ ﴾ جبراً لما انكسر من رعاية نسكه وأراد به لئلا يتقاعدوا عن إتمامها، ﴿ذَٰلِكَ ﴾ أي جعلها وتصييرها مرجعاً لقاطبة الأنام وقبلةً لهم بحيث يجب عليهم التوجه نحوه من كل مرمى سحيقٍ وفجٍ عميقٍ إنما هو ﴿ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ﴾ المحيط بذرائر الأكوان ﴿يَعْلَمُ﴾ بالعلم الحضوري جميع ﴿مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ أي العلويات والأعيان الثابتة ﴿وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ السفليات التي هي الهويات الباطلة ﴿وَ﴾ ليعلموا ﴿أَنَّ ٱللَّهَ﴾ المنزهَ المتعالي عن أن يحاط

بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٩٧﴾ ٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ وَأَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩٨﴾ مَّا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ ﴿٩٩﴾ ......

بمجلاه وتجلياته ﴿بِكُلِّ شَيْءٍ﴾ مما استأثر باطلاعه وما يعلم جنودَه إلا هو ﴿عَلِيمٌ ﴿٩٧﴾﴾ لا يعزب عن علمه وحضوره شيء، كلّت الألسن عن تفسير صفتك، وانحسرت العقول عن كنه معرفتك، فكيف يعرف كنه صفتك يا رب، وبالجملة

﴿ٱعْلَمُوٓاْ﴾ أيها المتوجهون نحو الحق وزيارة بيته ﴿أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ لا تغتروا بإمهاله له بمقتضى لطفه وجماله بل احذورا وخافوا عن سطوة سلطنة قهره وجلاله ﴿وَ﴾ اعلموا أيضاً ﴿أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ﴾ ستارٌ لذنوب عباده المخلصين ﴿رَّحِيمٌ ﴿٩٨﴾﴾ لهم يرحمهم بمقتضى جماله ونواله.

يعني عليكم أن تكونوا مقتصدين معتدلين بين طرفي الخوف والرجاء، لتكونوا من زمرة عباده الشاكرين.

فإن جادلوا معك يا أكمل الرسل، أهل البدع والأهواء الفاسدة في هذه الإلهامات والاختبارات الإلهية المترشحة من بحر الحكمة، قل لهم نيابة عنا:

﴿مَّا عَلَى ٱلرَّسُولِ﴾ الهادي بإذن الحق ﴿إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ۗ﴾ أي بلاغُ ما أهديَ به والقبول من الله والتوفيق من عنده ﴿وَٱللَّهُ﴾ المطلعُ لضمائركم ﴿يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ﴾ تظهرون وتعلنون من الإيمان والإطاعة ﴿وَمَا﴾ كنتم ﴿تَكْتُمُونَ ﴿٩٩﴾﴾ من الكفر والبدعة.

قُل لَّا يَسْتَوِى ٱلْخَبِيثُ وَٱلطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ ٱلْخَبِيثِ ۚ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ يَـٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَـٰبِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٠٠﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَسْـَٔلُوا۟ عَنْ أَشْيَآءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ وَإِن تَسْـَٔلُوا۟ عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ ٱلْقُرْءَانُ تُبْدَ لَكُمْ عَفَا ٱللَّهُ عَنْهَا ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٠١﴾ قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ مِّن قَبْلِكُمْ ثُمَّ أَصْبَحُوا۟ بِهَا كَـٰفِرِينَ ﴿١٠٢﴾ ....

﴿قُل﴾ يا أكمل الرسل ﴿لَّا يَسْتَوِى ٱلْخَبِيثُ وَٱلطَّيِّبُ﴾ عند الله ﴿وَلَوْ أَعْجَبَكَ﴾ أيها المتعجب ﴿كَثْرَةُ ٱلْخَبِيثِ﴾ إذ لا عبرة للقلة والكثرة بالجودة والرداءة في الأعمال ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ حق تقاته ﴿يَـٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَـٰبِ﴾ الناظرين بلب الأمور ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٠٠﴾﴾ تفوزون من عنده فوزاً عظيماً، بعدما تجوّدون أعمالكم بالإخلاص والتقوى.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ مقتضى إيمانكم أن ﴿لَا تَسْـَٔلُوا۟﴾ ولا تقترحوا من رسولكم ﴿عَنْ أَشْيَآءَ﴾ قبل ورود الوحي ﴿إِن تُبْدَ﴾ وتظهر ﴿لَكُمْ تَسُؤْكُمْ﴾ وتغمكم وتورث فيكم حزناً ﴿وَإِن تَسْـَٔلُوا۟ عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ ٱلْقُرْءَانُ تُبْدَ لَكُمْ﴾ بلا سوء وحزن ﴿عَفَا ٱللَّهُ﴾ عما سلف ﴿عَنْهَا﴾ فعليكم أن تحافظوا عليها بعد ورود النهي ﴿وَٱللَّهُ﴾ المطلع لضمائر عباده ﴿غَفُورٌ﴾ لهم ما سبق من ذنوبهم قبل ورود الزواجر ﴿حَلِيمٌ ﴿١٠١﴾﴾ لا يعجل بالعقوبة إلى أن يبوؤوا واعلموا أنه ﴿قَدْ سَأَلَهَا﴾ عنها ﴿قَوْمٌ﴾ مثلكم ﴿مِّن قَبْلِكُمْ﴾ من أنبيائهم ﴿ثُمَّ﴾ بعدما ظهر ما اقترحوا ﴿أَصْبَحُوا۟﴾ صاروا ﴿بِهَا﴾ بسبب ظهورها ﴿كَـٰفِرِينَ ﴿١٠٢﴾﴾ بعدم امتثالهم وانقيادهم بما ظهر.

مَا جَعَلَ ٱللَّهُ مِنۢ بَحِيرَةٖ وَلَا سَآئِبَةٖ وَلَا وَصِيلَةٖ وَلَا حَامٖ وَلَٰكِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَفۡتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَۖ وَأَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ ﴿١٠٣﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمۡ تَعَالَوۡاْ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ قَالُواْ حَسۡبُنَا مَا وَجَدۡنَا عَلَيۡهِ ءَابَآءَنَآۚ

﴿مَا جَعَلَ ٱللَّهُ﴾ أي ما وضع وشرع لكم في دينكم ما في الجاهلية ﴿مِنۢ بَحِيرَةٖ﴾ وهو أنهم كانوا إذا أنتجت ناقتهم خمسة أبطن خامسها ذكر؛ بحروا أذنها أي شقوها وخلوا سبيلها، فلا تركب ولا تحمل ولا تحلب أبداً فسموها بحيرة ﴿وَلَا سَآئِبَةٖ﴾ وهي أنهم قالوا: إذا شفيتُ فناقتي سائبة أي ممنوعة من الانتفاع كالبحيرة ﴿وَلَا وَصِيلَةٖ﴾ وهي أنهم إذا ولدت شاتهم أنثى كان لهم، وإذا ولدت ذكراً كان لآلهتهم، وإذا ولدت ذكراً وأنثى في بطن واحد يتبعون الأنثى بالذكور، ويتقربون بها وسموها وصيلة ﴿وَلَا حَامٖ﴾ وهي أنهم إذا أنتجت من صلب فحل عشرة أبطن، حرم انتفاعه بالكلية ولم يمنعوها من الماء والكلأ والمرعى، وقالوا: قد حمى ظهره ويسمونها حام ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ أعرضوا عن الإيمان والإطاعة ﴿يَفۡتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَۖ﴾ أي يستوي أمثال هذه المزخرفات الباطلة على الله افتراء ﴿وَأَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ ﴿١٠٣﴾﴾ الله ولا يعلمون حق قدره ومقتضى حكمته.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمۡ﴾ إمحاضاً للنصح ﴿تَعَالَوۡاْ﴾ هلموا ﴿إِلَىٰ﴾ امتثال ﴿مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ المصلحُ لحالاتكم ﴿وَإِلَى﴾ متابعة ﴿ٱلرَّسُولِ﴾ الهادي لكم عما فيكم من الضلال ﴿قَالُواْ﴾ من غاية انهماكهم في الغفلة: ﴿حَسۡبُنَا﴾ وكافينا ﴿مَا وَجَدۡنَا عَلَيۡهِ ءَابَآءَنَآۚ﴾ وأسلافنا قل لهم

أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٠٤﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ ۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهْتَدَيْتُمْ ۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٠٥﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ شَهَٰدَةُ بَيْنِكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ حِينَ ٱلْوَصِيَّةِ ٱثْنَانِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ أَوْ ءَاخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ إِنْ أَنتُمْ ضَرَبْتُمْ

﴿أَ﴾ تقلدونهم وتقتفون أثرهم ﴿وَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْـًٔا﴾ من أنفسهم ﴿وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٠٤﴾﴾ طريقاً مستقيماً بإهداء الهادي وإرشاد المرشد؟ مع كونكم عقلاء من أهل التمييز والاختيار، فالعار كل العار، فاعتبروا يا أولي الأبصار.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ عَلَيْكُمْ﴾ أن تحفظوا ﴿أَنفُسَكُمْ﴾ وتلازموها على الطاعات، وتداوموها على التوجه نحو الحق في جميع الحالات، وما لكم إلا حفظ نفوسكم ﴿لَا يَضُرُّكُم﴾ ضلالةُ ﴿مَّن ضَلَّ﴾ عن طريق الحق ﴿إِذَا ٱهْتَدَيْتُمْ﴾ إليه واعلموا أيها المؤمنون ﴿إِلَى ٱللَّهِ﴾ المبدئ المعيد ﴿مَرْجِعُكُمْ﴾ وهم ﴿جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٠٥﴾﴾ في دينكم من شرٍ وخيرٍ ومعصيةٍ وطاعةٍ ويجازيكم عليه.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ من جملة الأمور التي يجب عليكم محافظتها[1] ﴿شَهَٰدَةُ بَيْنِكُمْ﴾ أي إشهادكم ﴿إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ﴾ أن يُشهدوا ﴿حِينَ ٱلْوَصِيَّةِ ٱثْنَانِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ﴾ أي من أقاربكم وعشائركم ﴿أَوْ ءَاخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ﴾ من جانب المسلمين وأهل الذمة ﴿إِنْ أَنتُمْ ضَرَبْتُمْ﴾

---

(١) في المخطوط (محافظتها عليكم).

فِي ٱلْأَرْضِ فَأَصَـٰبَتْكُم مُّصِيبَةُ ٱلْمَوْتِ ۚ تَحْبِسُونَهُمَا مِنۢ بَعْدِ ٱلصَّلَوٰةِ فَيُقْسِمَانِ بِٱللَّهِ إِنِ ٱرْتَبْتُمْ لَا نَشْتَرِى بِهِۦ ثَمَنًا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ۙ وَلَا نَكْتُمُ شَهَـٰدَةَ ٱللَّهِ إِنَّآ إِذًا لَّمِنَ ٱلْـَٔاثِمِينَ ﴿١٠٦﴾ فَإِنْ عُثِرَ عَلَىٰٓ أَنَّهُمَا ٱسْتَحَقَّآ إِثْمًا فَـَٔاخَرَانِ يَقُومَانِ مَقَامَهُمَا مِنَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْأَوْلَيَـٰنِ فَيُقْسِمَانِ بِٱللَّهِ لَشَهَـٰدَتُنَآ أَحَقُّ مِن شَهَـٰدَتِهِمَا وَمَا ٱعْتَدَيْنَآ إِنَّآ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١٠٧﴾ ....

سافرتم ﴿فِي ٱلْأَرْضِ﴾ متباعدين عن الأقارب والعشائر ﴿فَأَصَـٰبَتْكُم﴾ فيها ﴿مُّصِيبَةُ ٱلْمَوْتِ ۚ تَحْبِسُونَهُمَا﴾ أي الآخران من الأجانب وتقفونهما ﴿مِنۢ بَعْدِ ٱلصَّلَوٰةِ﴾ عند الجماعة ﴿فَيُقْسِمَانِ بِٱللَّهِ﴾ على رؤوس الأشهاد ﴿إِنِ ٱرْتَبْتُمْ﴾ أيها الوارثون في شهادتهما بأنا ﴿لَا نَشْتَرِى﴾ ولا نرتشي بشهادتنا ﴿بِهِۦ ثَمَنًا﴾ ولا نشهد بالزور ﴿وَ﴾ خصوصاً ﴿لَوْ كَانَ﴾ المقسم له ﴿ذَا قُرْبَىٰ ۙ﴾ صاحب قرابة ﴿وَ﴾ بأنا ﴿لَا نَكْتُمُ شَهَـٰدَةَ ٱللَّهِ﴾ التي أودعناها بل نؤديها على وجهها بلا تحريف ولا كتمان وإن كتمناها وحرفناها ظلماً وزوراً ﴿إِنَّآ إِذًا لَّمِنَ ٱلْـَٔاثِمِينَ ﴿١٠٦﴾﴾ المكتسبين لأنفسنا إثماً عظيماً.

﴿فَإِنْ عُثِرَ﴾ أي أشعر واطلع ﴿عَلَىٰٓ أَنَّهُمَا﴾ أي الشاهدان ﴿ٱسْتَحَقَّآ إِثْمًا﴾ بواسطة تحريفهما وكتمانها ﴿فَـَٔاخَرَانِ يَقُومَانِ مَقَامَهُمَا مِنَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ﴾ أي من الورثة وهما ﴿ٱلْأَوْلَيَـٰنِ﴾ الأحقان بالتحليف من الشاهدين ﴿فَيُقْسِمَانِ بِٱللَّهِ لَشَهَـٰدَتُنَآ أَحَقُّ﴾ وأصدق ﴿مِن شَهَـٰدَتِهِمَا وَمَا ٱعْتَدَيْنَآ﴾ وتجاوزونا في هذه الشهادة عن الحق وإن اعتدينا ﴿إِنَّآ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١٠٧﴾﴾ الخارجين عن الاعتدال الإلهي الذي وضعه الحق بين عباده.

ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِٱلشَّهَـٰدَةِ عَلَىٰ وَجْهِهَآ أَوْ يَخَافُوٓا۟ أَن تُرَدَّ أَيْمَـٰنٌۢ بَعْدَ أَيْمَـٰنِهِمْ ۗ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱسْمَعُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَـٰسِقِينَ ﴿١٠٨﴾ ۞ يَوْمَ يَجْمَعُ ٱللَّهُ ٱلرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَآ أُجِبْتُمْ ۖ قَالُوا۟ لَا عِلْمَ لَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّـٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿١٠٩﴾ إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَـٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱذْكُرْ نِعْمَتِى عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَٰلِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ

﴿ذَٰلِكَ﴾ التحليف والتغليظ ﴿أَدْنَىٰٓ﴾ أقرب إلى الاحتياط ﴿أَن يَأْتُوا۟ بِٱلشَّهَـٰدَةِ﴾ ويؤدوها ﴿عَلَىٰ وَجْهِهَآ﴾ أي على وجه تحملونها من غير تحريف وخيانة فيها ﴿أَوْ يَخَافُوٓا۟ أَن تُرَدَّ أَيْمَـٰنٌۢ﴾ على المدعين ﴿بَعْدَ أَيْمَـٰنِهِمْ﴾ الكاذبة فيفتضحوا بظهور الخيانة على رؤوس الملأ ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ أيها الشهود عن الكتمان والتحريف ﴿وَٱسْمَعُوا۟﴾ ما يقول المحتضر وأدوه على وجهه ﴿وَٱللَّهُ﴾ المطلع لضمائر عباده ﴿لَا يَهْدِى﴾ إلى توحيده ﴿ٱلْقَوْمَ ٱلْفَـٰسِقِينَ ﴿١٠٨﴾﴾ الخارجين عن مقتضى أوامره ومنهياته واذكروا وتذكروا خطاب الله وعتابه لرسله من أجلكم.

﴿۞ يَوْمَ يَجْمَعُ ٱللَّهُ ٱلرُّسُلَ﴾ في يوم العرض الأكبر ﴿فَيَقُولُ﴾ لهم على وجه التوبيخ: ﴿مَاذَآ أُجِبْتُمْ﴾ أي بأي شيء أجبتم لهؤلاء العصاة المتجاوزين عن الحد ﴿قَالُوا۟ لَا عِلْمَ لَنَآ﴾ بحالهم ولا عذر لنا نعتذر عنهم ﴿إِنَّكَ﴾ بذاتك وأسمائك وأوصافك ﴿أَنتَ﴾ بخصوصيتك إذ لا غير معك ﴿عَلَّـٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿١٠٩﴾﴾ التي غابت عن عقولنا وأبصارنا وأسماعنا، فلك الحكم والأمر، تفعل ما تشاء وتحكم ما تريد، اذكر وقت.

﴿إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَـٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ﴾ امتناناً عليه ﴿ٱذْكُرْ نِعْمَتِى عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَٰلِدَتِكَ﴾ وأقم شكرها ﴿إِذْ أَيَّدتُّكَ﴾ قوّيتك وخصصتك ﴿بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ﴾

تُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِي ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا ۖ وَإِذْ عَلَّمْتُكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ۖ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ بِإِذْنِى فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِى ۖ وَتُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ بِإِذْنِى ۖ وَإِذْ تُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِى ۖ وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَنكَ إِذْ جِئْتَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١١٠﴾ وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى ٱلْحَوَارِيِّـۧنَ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِى وَبِرَسُولِى ....

أي بالنفس القدسية اللاهوتية المطهرة عن شوب القوى الناسوتية لذلك ﴿تُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِي ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا ۖ﴾ على السوية أي جعلت لك جميع كمالاتك بالفعل، في جميع أوقات وجودك بلا تفاوت بين طفوليتك وكهوليتك ﴿وَإِذْ عَلَّمْتُكَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ أي التدبيرات المتعلقة لظواهر الشرع ﴿وَٱلْحِكْمَةَ﴾ المتعلقة لبواطنها ﴿وَٱلتَّوْرَىٰةَ﴾ الجامع بينهما ﴿وَٱلْإِنجِيلَ ۖ﴾ الغالب فيه ما يتعلق بالباطن ﴿وَإِذْ تَخْلُقُ﴾ تصور وتقدر ﴿مِنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ بِإِذْنِى﴾ أي بأمري وتعليمي ﴿فَتَنفُخُ فِيهَا﴾ من روحي التي أيدتك به ﴿فَتَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِى ۖ﴾ وتبصر ﴿وَتُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ﴾ المكفوف العين ﴿وَ﴾ تشفي ﴿ٱلْأَبْرَصَ بِإِذْنِى ۖ وَإِذْ تُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ من قبورهم أحياء ﴿بِإِذْنِى ۖ وَإِذْ كَفَفْتُ﴾ ومنعتُ شر ﴿بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَنكَ﴾ وقت ﴿إِذْ جِئْتَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ الواضحات والمعجزات الباهرات ﴿فَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ﴾ من حيث باطنهم: ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١١٠﴾﴾ وما هو إلا ساحر عليم.

﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ﴾ وألهمت ﴿إِلَى ٱلْحَوَارِيِّـۧنَ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِى وَبِرَسُولِى﴾ عيسى

قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَٱشۡهَدۡ بِأَنَّنَا مُسۡلِمُونَ ﴿١١١﴾ إِذۡ قَالَ ٱلۡحَوَارِيُّونَ يَٰعِيسَى ٱبۡنَ مَرۡيَمَ هَلۡ يَسۡتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيۡنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِۖ قَالَ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴿١١٢﴾ قَالُواْ نُرِيدُ أَن نَّأۡكُلَ مِنۡهَا وَتَطۡمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعۡلَمَ أَن قَدۡ صَدَقۡتَنَا وَنَكُونَ عَلَيۡهَا مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿١١٣﴾ ....

ابن مريم ﴿قَالُوٓاْ﴾ عن صميم فؤادهم: ﴿ءَامَنَّا﴾ بك وبرسولك ﴿وَٱشۡهَدۡ﴾ يا ربنا ﴿بِأَنَّنَا مُسۡلِمُونَ ﴿١١١﴾﴾ منقادون بدينك ونبيك، نستودعك هذه الشهادة إلى وقت الحاجة، اذكر:

﴿إِذۡ قَالَ ٱلۡحَوَارِيُّونَ﴾ لك حين أرادوا الترقي من مرتبة العلم إلى العين ﴿يَٰعِيسَى ٱبۡنَ مَرۡيَمَ هَلۡ يَسۡتَطِيعُ رَبُّكَ﴾ أضافوه إليه[1] لتحققه في مرتبة العلم والحق ﴿أَن يُنَزِّلَ عَلَيۡنَا مَآئِدَةً﴾ رزقاً معنوياً حقيقياً ﴿مِّنَ ٱلسَّمَآءِۖ﴾ أي من جانب العلو الذي هو مرتبة العين والحق، فلما سمع منهم ما سمع آيس منهم وأفظع أمرهم وأوجس في نفسه خيفة من الله الغيور؛ لأنهم ليسوا في تلك الحالة مستعدين الكشف والشهود لذلك ﴿قَالَ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ عن أمثال هذه الأسئلة ﴿إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴿١١٢﴾﴾ موقنين بكمال قدرته وإرادته واختياره واستقلاله بالتصرف في ملكه وملكوته.

﴿قَالُواْ﴾ معتذرين ملتجئين: ﴿نُرِيدُ أَن نَّأۡكُلَ﴾ نذوق ونستفيد ﴿مِنۡهَا وَتَطۡمَئِنَّ قُلُوبُنَا﴾ وتتمكن أقدامنا في جادة التوحيد ﴿وَنَعۡلَمَ﴾ يقيناً عينياً ﴿أَن قَدۡ صَدَقۡتَنَا﴾ في جميع ما أرشدتنا وأهديتنا ﴿وَنَكُونَ عَلَيۡهَا مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿١١٣﴾﴾ أي من أهل الشهود والكشف بلا حجاب العلم، فلما أحس

---

(١) في المخطوط (أضافهم إليه).

قَالَ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ ٱللَّهُمَّ رَبَّنَآ أَنزِلۡ عَلَيۡنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِّأَوَّلِنَا وَءَاخِرِنَا وَءَايَةً مِّنكَۖ وَٱرۡزُقۡنَا وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿١١٤﴾ قَالَ ٱللَّهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيۡكُمۡۖ فَمَن يَكۡفُرۡ بَعۡدُ مِنكُمۡ فَإِنِّيٓ أُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا لَّآ أُعَذِّبُهُۥٓ أَحَدًا مِّنَ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿١١٥﴾ وَإِذۡ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبۡنَ مَرۡيَمَ ءَأَنتَ قُلۡتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيۡنِ مِن دُونِ ٱللَّهِۖ قَالَ ....

عيسى ابتلاء الله وفتنته إياهم بادر إلى المناجاة حيث:

﴿قَالَ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ ٱللَّهُمَّ رَبَّنَآ أَنزِلۡ عَلَيۡنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا﴾ فرحاً وسروراً ﴿لِّأَوَّلِنَا﴾ متقدمينا ﴿وَءَاخِرِنَا﴾ متأخرينا ﴿وَءَايَةً مِّنكَۖ﴾ تنكشف بها بتوحيدك ﴿وَٱرۡزُقۡنَا﴾ من لدنك حظاً يخلصنا من ظلام أظلالنا وغيوم هوياتنا ﴿وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿١١٤﴾﴾ على من سبقت غايته له ﴿قَالَ ٱللَّهُ﴾ المطلع لاستعداداتكم: ﴿إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيۡكُمۡۖ﴾ وإن لم تكونوا قابلين لها ﴿فَمَن يَكۡفُرۡ بَعۡدُ﴾ أي بعد نزولها ﴿مِنكُمۡ فَإِنِّيٓ﴾ بعزتي وجلالي وقوتي ﴿أُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا لَّآ أُعَذِّبُهُۥٓ﴾ أي لا أعذب مثله ﴿أَحَدًا مِّنَ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿١١٥﴾﴾ فكفروا بعد ذلك فمُسخوا عن لوازم الإنسانية بالمرة، ورُدوا إلى مرتبة الحيوانات وأخبثها ـ العياذ بالله من غضب الله ـ .

﴿وَ﴾ اذكر ﴿إِذۡ قَالَ ٱللَّهُ﴾ حين فشا غلو النصارى في حق عيسى وأمه ونسبتهما إلى الألوهية وقولهم بالتثليث والأقانيم والحلول والاتحاد: ﴿يَٰعِيسَى ٱبۡنَ مَرۡيَمَ ءَأَنتَ قُلۡتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيۡنِ مِن دُونِ ٱللَّهِۖ﴾ واعبدوني مثل عبادته، أم اتخذوك من تلقاء أنفسهم؟ ﴿قَالَ﴾ عيسى منزهاً

سُبۡحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنۡ أَقُولَ مَا لَيۡسَ لِي بِحَقٍّۚ إِن كُنتُ قُلۡتُهُۥ فَقَدۡ عَلِمۡتَهُۥۚ تَعۡلَمُ مَا فِي نَفۡسِي وَلَآ أَعۡلَمُ مَا فِي نَفۡسِكَۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلۡغُيُوبِ ﴿١١٦﴾ مَا قُلۡتُ لَهُمۡ إِلَّا مَآ أَمَرۡتَنِي بِهِۦٓ أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمۡۚ وَكُنتُ عَلَيۡهِمۡ شَهِيدٗا ....

لله مبعداً نفسه إليها عن أمثاله: ﴿سُبۡحَٰنَكَ﴾ أنزهك تنزيهاً عن أن يكون لك شريك ﴿مَا يَكُونُ﴾ ما يصح ويليق ﴿لِيٓ أَنۡ أَقُولَ مَا﴾ أي قولاً ﴿لَيۡسَ لِي بِحَقٍّۚ﴾ لائق جائز أن أقوله سيما بعد لطفك إلي وفضلك وامتنانك علي ﴿إِن كُنتُ قُلۡتُهُۥ فَقَدۡ عَلِمۡتَهُۥۚ﴾ إذ ﴿تَعۡلَمُ﴾ بالعلم الحضوري ﴿مَا فِي نَفۡسِي﴾ ﴿وَ﴾ أنا ﴿لَآ أَعۡلَمُ مَا فِي نَفۡسِكَۚ﴾ وذاتك وشأنك وسلطانك ﴿إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلۡغُيُوبِ ﴿١١٦﴾﴾.

وإنما خاطبه سبحانه وعاتبه بما عاتبه مع أن الأمر معلوم عنده؛ ليوبخ ويقرع على الغالين المتخذين، لعلهم ينتهون بسوء صنيعهم وقبح معاملتهم مع الله المتوحد المتفرد المنزه بذاته عن الأهل والولد، الصمد المقدس الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد.

ثم بسط عيسى الكلام مع ربه تشفياً فقال:

﴿مَا قُلۡتُ لَهُمۡ﴾ قولاً ﴿إِلَّا مَآ أَمَرۡتَنِي بِهِۦٓ﴾ أي بتبليغه وإيصاله إليهم وهو ﴿أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ﴾ الواحد الأحد الذي هو ﴿رَبِّي﴾ أوجدني من العدم ورباني بأنواع اللطف والكرم ﴿وَرَبَّكُمۡۚ﴾ أيضاً أوجدكم من العدم مثلي ورباكم، فتكون نسبة إيجاده وتربيته علي وعليكم على السواء، ما ترى من تفاوت في خلقه ﴿وَكُنتُ﴾ بأمرك وإرسالك ووحيك ﴿عَلَيۡهِمۡ شَهِيدٗا﴾ أحفظهم بتوفيقك

مَا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿١١٧﴾ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١١٨﴾ قَالَ اللَّهُ هَٰذَا يَوْمُ يَنفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ

عن[1] أمثال هذه الهذيانات الباطلة ﴿مَا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي﴾ ورفعتني بجودك إلى ما رفعتني ﴿كُنتَ﴾ بذاتك وأسمائك وأوصافك ﴿أَنتَ الرَّقِيبَ﴾ المحافظ ﴿عَلَيْهِمْ﴾ المولي لأمورهم تضلهم وتهديهم[2]، ترشدهم وتغويهم ﴿وَأَنتَ﴾ المنزه بذاتك عن جميع الأكوان ﴿عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ﴾ من الأمور الكائنة ﴿شَهِيدٌ ﴿١١٧﴾﴾ حاضر غير مغيب.

﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ﴾ عدلاً ﴿فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ﴾ فلك أن تتصرف فيهم على أي وجه تتعلق إرادتك ومشيئتك ﴿وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ﴾ فضلاً وطولاً ﴿فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ﴾ الغالب على الإنعام والانتقام ﴿الْحَكِيمُ ﴿١١٨﴾﴾ المتقن في إعطاء ما ينبغي لمن ينبغي ومنعه عنه بلا مشاركة ولا مظاهرة.

فلما بث وبسط عيسى مع الله الكلام وبالغ في التفويض والرجوع إليه في جميع الأمور خصوصاً أمرَ قومِه.

﴿قَالَ اللَّهُ﴾ سبحانه: يا عيسى ﴿هَٰذَا يَوْمُ﴾ لا يكتسب فيه الخير ولا يستجلب النفع ولا يدفع الضر بل ﴿يَنفَعُ الصَّادِقِينَ﴾ الذين صدقوا في النشأة الأولى ﴿صِدْقُهُمْ﴾ السابق ﴿لَهُمْ﴾ في هذه النشأة لهؤلاء الصادقين إلى ﴿جَنَّاتٌ﴾ منتزهات المعارف والحقائق ﴿تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ مملوءة بمياه المكاشفات والمشاهدات المثمرة للحياة الأبدية والبقاء السرمدي

---

(١) في المخطوط (على).

(٢) في المخطوط (يضلهم ويهديهم).

خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًاۚ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُۚ ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ﴿١١٩﴾ لِلَّهِ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا فِيهِنَّۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرُۢ ﴿١٢٠﴾

﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًاۚ﴾ لا يتحولون عنها أصلاً ﴿رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ﴾ لتحققهم بمقام الصدق والإخلاص ﴿وَرَضُواْ عَنۡهُۚ﴾ لإيصالهم إلى غاية ما جبلوا عليه لأجله بلا منتظر ﴿ذَٰلِكَ﴾ الوصول والتحقق هو ﴿ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ﴿١١٩﴾﴾ والفضل العميم واللطف الجسيم لأهل العناية الفائزين من عنده بهذه المرتبة العلية.

ولا يستبعد من الله أمثال هذه الكرامات مع أرباب الولاء الباذلين مهجهم في سلوك طريق الفناء إذ ﴿لِلَّهِ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ إظهاراً وتصرفاً واستقلالاً ﴿وَمَا فِيهِنَّۚ﴾ من المكونات، فله التصرف فيها كيف يشاء حسب إرادته واختياره ﴿وَهُوَ﴾ بذاته ﴿عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ﴾ من عموم مراداته ومقدوراته ﴿قَدِيرُۢ ﴿١٢٠﴾﴾ فله أن يوصل خلص عباده إلى فضاء فنائه بإفنائهم عن هوياتهم الباطلة وإبقائهم بهويتهم الحقيقية السارية الظاهرة في الأكوان.

خاتمة السورة

عليك أيها المحمدي المتوجه لمرتبة الفناء المثمر للبقاء الأبدي شكران سعيك، وأوصلك إلى غاية مبتغاك أن تجعل قرينك الرضا في جميع ما جرى عليك من القضاء.

إذ كل ما يجري في عالم الأكوان والفساد إنما هو على مراد الله ومقتضى مشيئته حسب تجلياته الجمالية والجلالية واللطفية والقهرية، والعارف إذا تحقق بمقام الرضا الذي هو نهاية مراتب العبودية فقد خلص عن الإضافات مطلقاً، ومتى ارتفعت الإضافات لا يشوشه السراء والضراء ولا اللذة ولا الفناء، إذ كل ذلك من لوازم الإمكان وأمارات البعد.

فعليك أن تصفي نفسك عن جميع الأمراض الباطنة من العُجب والرياء والرعونة والهوى، وتلازم العزلة والإعراض عن أبناء الدنيا، والالتجاء إليهم والمخالطة معهم، وتقلل عن حوائجك وحظوظك سوى سدِّ جوعة وكنٍّ ولباسٍ كيف اتفق، وعليك أن تروض نفسك في زاوية الخمول، وكن القناعة ومنزل الفراغة.

وإياك أن تصاحب مع أهل الأهواء وتراجعهم سيما في الأمور التي تتعلق بالمعاش المستعار، وكن في ورطة الدنيا كأنك غريب ليس لك أُلف ومؤانسة مع من فيها وما فيها، أو كعابر سبيل يروح فيها ويغدو بلا تمكن وقرار.

وبالجملة عدّ نفسك من أصحاب القبور وافعل مثل ما تشاهد منهم بالنسبة إلى الدنيا، بل موتك الإرادي لا بد أن يكون أعرق في قطع التعلق وترك المألوف من الموت الصوري ؛ لأن أكثر الأموات بالموت الصوري يخرجون من الدنيا متحسرين بحسرة عظيمة، والعارف المتحقق بمرتبة الموت الإرادي له مسرة ولذة بحيث لو عاد على ما عليه لتغمم بل هلك خوفاً، فلك أن تشمر ذيلك عنها وعن لذاتها بالمرة، وتداوم الاستفادة والاسترشاد من كتاب الله وأحاديث رسوله ﷺ، وملتقطات المشايخ العظام التي استنبطوها منها بسعي بليغ ـ شكر الله مساعيهم ـ وتصرف عنان[1] عزمك عما سواها من الأباطيل الزائفة المنسوبة إلى أصحاب الحجج والاستدلال، الضالين بتغريرات عقولهم القاصرة عن منهج الحق ومحجة اليقين. جعلنا الله ممن أيد من عنده فتأيد، وأطلق عنان عزمه نحو الحق ولم يتقيد، بمنه وجوده.

---

(١) في المخطوط (وتصرفهم عنان...).

فهرس الجزء الأول

